تيسير التفسير

لقطب الأئمة

الشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش

(ت: 1332هـ / 1914م)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

بمساعدة لجنة من الأساتذة

الجزء الخامس عشر

من أول سورة الممتحنة إلى آخر سورة المرسلات

الطبعة الثانية

1439 هـ - 2018 م.


تيسير التفسير
الجزء الخامس عشر

حقوق الطبع محفوظة



الطبعة الثانية

مزيدة ومنقّحة

1439هـ / 2018م

سلطنة عُمان ـ ص.ب.: 668 مسقط، الرمز البريدي: 100
هاتف: 24641300 / 24641325، فاكس: 24641331
البريد الإلكتروني: info@mhc.gov.om
موقع الوزارة على الإنترنت: www.mhc.gov.om

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل ـ سواء التصويرية أو الإلكترونية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي أو سواه وحفظ المعلومات واسترجاعها ـ إلا بإذن خطي من الناشر.



لقطب الأئمة

الشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش

(ت: 1332هـ / 1914م)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

بمساعدة لجنة من الأساتذة



من أول سورة الممتحنة إلى آخر سورة المرسلات



تَخرِيجُ ٱلأَحَادِيثِ وَوَضعُ ٱلتَّرَاجِمِ :

أ. أحمد بن حمّو كرّوم

أ. عمر بن أحمد بازّين

ٱلرَّقْنُ وَٱلفَهْرَسَةُ وَمُتَابَعَةُ ٱلطَّبْعِ :

أ. مصطفى بن إبراهيم طلّاي

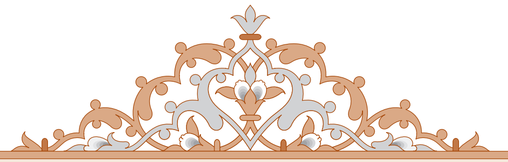
تَدْقِيقُ ٱلنَّصِّ وَمُتَابَعَةُ ٱلطَّبْعِ :

د. مصطفى بن محمّد شريفي

60

تفسير سورة الممتحنة

مدنيَّة وآياتها 13 - نزلت بعد سورة الأحزاب



﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (1) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ (2) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3) ﴾

النهيُ عن موالاة الكفَّار، والتنديدُ بأفعالهم

[الممتحنة] بفتح الحاء مصدر ميميٌّ بمعنى الامتحان، كما قال في «جَمال القُرَّاء» [لعليّ السخاويّ][1]: إنَّها تسمَّى سورة الامتحان، أو اسم للمرأة

(1) هو علي بن محمَّد بن عبد الصمد الهمذانيُّ المصريُّ السخاوي عالم بالقراءات والأصول واللغة والتفسير، له مُؤَلَّفات منها «جمال القرَّاء وكمال الإقراء» في التجويد وشرح الشاطبيَّة، وهو أول من شرحها. تُوُفِّيَ سنة 643هـ بدمشق، وأصله من سخا بمصر وإليها نسب. **الزركلي**: الأعلام، ج 4، ص 332.

التي نزلت السورة فيها. قيل وبالكسر، ولا يصحُّ، إلَّا أن يقال: من إضافة الموصوف للصفة، أي السورة الممتحِنة، وأسقطت «ال» وأضيف، أو الإضافة للبيان، أي: سورة هي الممتحنة، والأَوْلى لمن يقول بهذا أن يقرن «سورة» بـ«ال»، ولا إضافة. وإسناد الامتحان للسورة مجاز في الإسناد، كما يقال لـ[سورة] براءة: الفاضحة، من الإسناد إلى المحلِّ.

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمُۥٓ أَوْلِيَآءَ﴾ عدوُّ الله هم كُفَّار مكَّة، الذين قضى الله أن لا يؤمنوا، وهم عدوٌّ للمؤمنين أيضًا، ومن قضى الله بإيمانه عدوٌّ للمؤمنين بحسب الظاهر، وإذا آمنوا رجعوا لِوَلَايتهم.

[سبب النزول] نزلت في حاطبِ بن عمرٍو أبي بلتعة مولى عبد الله بن حميد بن زهير بن أسد بن عبد العزَّى. وفي البخاريِّ ومسلم وغيرهما عن عليٍّ: بعثني رسول الله ﷺ، أنا والمقداد، فقال: انطلقوا حتَّى تأتوا روضة خاخ، فإنَّ بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فأْتوني به. فخرجنا حتَّى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا: لتُخرجِنَّ الكتاب أو لتُلْقينَّ الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به النبيء ﷺ.

فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكَّة يخبرهم ببعض أمر النبيء ﷺ: «إنَّ رسول الله ﷺ توجَّه إليكم بجيش كالليل، يسير كالسيل، والله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم، فإنَّه منجزٌ له وَعْدَه». فقال النبيء ﷺ: ما هذا يا حاطب؟ قال: لا تعجل عليَّ يا رسول الله، كنت امرأً ملصقًا في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكلُّ من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم في مكَّة، فأحببت إذْ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصنع إليهم يدًا يحمون بها قرابتي، يعني بنيه وإخوته وأمَّه، وما فعلت ذلك كفرًا، ولا ارتدادًا عن ديني.

فقال عمر رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنقه ـ ويروى: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ـ فقال ﷺ: «**إنَّه شهد بدرًا وما يدريك لعلَّ الله اطَّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**». ففاضت عينا عمر، ونزلت الآية.

والمرأة تدعى أمَّ سارَّة مولاة لقريش، وقيل: سارَّة مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم، ويجمع بأنَّها سارَّة، سمِّيت بنتها باسمها.

وعن أنس أنَّه ﷺ بعث عمرَ وعليًّا فلحقاها فلم يريا معها شيئًا فرجعا، ثمَّ قالا: والله ما كذب رسول الله ﷺ فرجعا إليها وسلَّا سيوفهما وقالَا: والله لتعطينَّا الكتاب أو نقتلك، فأنكرت ثمَّ قالت: أعطيكما على أن لا تردَّاني إلى رسول الله ﷺ، فقالا: نعم، أي: لأنَّه ﷺ لم يأمرهما بالإتيان بها بل بالكتاب، أمرهما أن يأخذا منها الكتاب ويخلِّيانها، وإن أبت فليقتلاها، فقالت: أعرضا عنِّي، ففعلا، فحلَّته من عقاصها، فأعطتهما إيَّاهُ، أي: فإنَّما أعرضا عن أن ينكشف لهما رأسها، فقد يريانها تحرِّك عقاصها ولا يريان شعرها، أو أخبرت هي بذلك، أو أخبرهما رسول الله ﷺ أنَّه في عقاصها.

واستشكل رجوعهما كيف يرجعان وقد جاء الوحي أنَّ الكتاب معها، ويجاب بأنَّهم نسوا أنَّهم جاءوا من رسول الله، أو توهَّموا أنَّه ﷺ أمرهم لشهادة من شهد عليها بذلك لا لوحيٍ جاءه بأنَّ الكتاب معها.

وروضة خاخ: قريب من حمراء الأسد من المدينة، على الصحيح، وقيل: موضع قريب من مكَّة.

والمشهور الصحيح أنَّ المبعوثين إليها عليٌّ والزبير والمقداد، وقيل: الثلاثة وعمر وعمَّار وطلحة وأبو مرثد على أفراسهم.

[سيرة] ويروى أنَّ سارَّة التي ذكرت جاءت ورسول الله ﷺ يتجهَّزُ لفتح مكَّة، فقال لها رسول الله ﷺ: أمسلمة جئت؟ قالت: لا، قال: أمهاجرة؟ قالت

لا، قال: فما جاء بك؟ قالت: كنتم الأهلَ والعشيرة والموالي، وقد ذهب الموالي واحتجت حاجةً شديدة، فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني، فقال: أين أنت من شبَّان مكَّة؟ وكانت مغنِّية نائحة، قالت: ما طلب منِّي شيء بعد وقعة بدر، فحثَّ عليها بنو عبد المطَّلب فأعطوها وكسوها وحملوها، والإعطاء إعطاء الدَّراهم.

وفي رواية أعطوها نفقة، وكتب حاطب الكتاب لأهل مكَّة توصله، وأعطاها عشرة دنانير وكساها.

ويروى أنَّه ﷺ آمن جميعَ الناس يوم فتح مكَّة إلَّا أربعةً، هي أحدهم، وفيه أنَّه أمرهم بتخليتها بعد أن يأخذوا الكتاب منها، فكيف يأمر بقتلها؟ اللَّهمَّ إلَّا لحدث آخر أحدثته، وأيضًا هي مأمورة لم يؤثِّر فعلها شيئًا.

[قلت:] وفي قول عمر دليل على قتل الجاسوس إذ لم ينهه ﷺ إلَّا لكونه من أهل بدر.

وفي تسمية المشركين عدوًّا لله، وفي ذكر أنَّ عدُوَّ الله عدوُّكم مدح للإسلام، لأنَّ المعنى: لا تتَّخذوا من اتَّصف بِعَدَاوتي وعداوتكم أولياء، «عدوُّك وعدوُّ صديقك وصديق عدوِّك كلُّهم أعداؤك».

إذا صافى صديقك من تعادي فقد عاداك وانقطع الكلام[1]

وَلَمَّا كان «عدوّ» بوزن المصدر اللازم من المفتوح كالقعود والمرور صحَّ إطلاقه على ما فوق الواحد.

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ تفسير للاتِّخاذ أو للموالاة، أو مستأنفٌ، عاب عليهم بأنَّهم يلقون إليهم بالمودَّة مع أنَّهم قد كفروا بما جاء من الحقِّ، كما قيَّد ذلك بجملة الحال من قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾.

(1) نسبه **الثعالبي** إلى الإمام الشافعي بلفظ: «إذا وافى...». ينظر: اللطائف والظرائف، ص 148.



[نحو] ويجوز أن يكون حالاً من واو «تَتَّخِذُوا»، أو نعتًا لـ«أَوْلِيَاءَ» على جواز عدم إبراز ضمير ما جرى علـى غير ما هو له، إذا فُهـم، إذ لـم يقل: تلقي أنتم.

[نحو] ويجوز أن يكون قوله: ﴿تُلْقُونَ...﴾ إلـخ مفعولا ثانيا بعد مفعول ثانٍ، كالإخبار بشيئين، فيكون لها مدخل في النهي، كأنَّه قيل: لا تتولَّوهم ولا تلقوا إليهم بالمودَّة، والحال أنَّهم قـد كفروا، وصاحب الحال واو «تُلْقُونَ» أو «تَتَّخِذُوا» أو «عَدُوِّي».

[نحو] ومن العجيب جعلها مستأنفة، إلَّا أن يقال: المراد استئنافُ ذمٍّ لهم، تنفيرًا عنهم، ومن وراء هذا أنَّ الحقَّ لا تكون الواو للاستئناف.

وإلقاء المودَّة: إيصالهـا إليهم، بالإخبار بما يوجـب الحبَّ، وذلك أنَّهم يلقون إليهم أخباره ﷺ، ويدلُّ للإيصال لفظ «إلى». وإيصال ما هو معنًى إلى كذا حقيق لا مجاز، وأمَّا التعبير عـن هذا الإيصال بالإلقـاء فمجاز، كما أنَّ استعمال الإلقاء بمعنى الإظهار مجاز. والباء صلة في المفعول به قبلها، مثلها في قوله تعالـى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُـمْ إِلَـى التَّهْلُكَةِ﴾ [سـورة البقرة: 195]، أو للسـببيَّة، أي: ترسـلون إليهم الأخبار بسـبب المودَّة بينكم. والجمع لكون حَاطِبٍ له في ذلك مَن يوافقونه لضعف إيمانهم.

﴿**يُخْرِجُونَ**﴾ حال من واو «كَفَرُوا» فيما قيل، أو حال ثانية من قوله ﷻ: «تُلْقُونَ» حال منه أو مسـتأنفة لذمِّهم. والتنفير عنهم، والمضارع لاسـتحضار ما مضى كالحاضر المشاهد.

ومرَّ أنَّ إخراج الرسول والمؤمنين تضييقٌ عليهم حتَّى خرجوا، فذلك قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ **الرَّسُـولَ وَإِيَّاكُمْ**﴾ أيُّها المؤمنون، ﴿**أَن تُومِنُواْ**﴾ أي: لأن تؤمنـوا، أي: لإيمانكم، أو لئلَّا تؤمنـوا، أو كراهة أن تؤمنـوا، وفي «تُومِنُوا»

ـ قيل ـ تغليبٌ لمن آمن على من لم يؤمن، وفيه أنَّ من لم يؤمن لم يخرجوه، والخطاب خاصٌ بالمؤمنين.

﴿بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ مقتضى الظاهر: أن تؤمنوا بي، كما قال «سَبِيلِي» و«مَرْضَاتِي» ولكن ذَكَرَ لفظ الجلالة والربَّ إعظامًا للألوهيَّة والربوبيَّة الموجبتين للإيمان، كيف تُخالفان؟.

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ من مكَّة مهاجرين، وليس المراد إن كنتم خرجتم إلى الجهاد، كما قال به بعض، لأنَّ قصَّة حاطب ليست خروجًا إليه، ولو قصد بالخروج منها الجهاد، والآية نزلت في قصَّته، إلَّا أن يراد بالجهادِ المخروجِ إليه مطلقُ تقويةِ دين الله ﷻ، لا خصوص الغزْوِ، كما أنَّ المراد بالجهاد في قوله ﷻ: ﴿جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَآءَ مَرْضَاتِي﴾ تقويةُ دين الله ﷻ مطلقًا.

[نحو] وجملة الشرط متعلِّقة بقوله ﷻ: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ...﴾ المغني عن جوابه، ولا يصحُّ أن يكون حالاً، إذ الحال لا تكون أمرًا مشكوكًا فيه شطر كلامٍ. وإذا كانت جملة شرط وجواب جازا اعتبارًا للجواب، لأنَّ الجواب يجزم به تحقيقًا أو حكمًا. ولا نسلِّمُ أنَّ قولك: «وإن كان غنيًّا» من جملة: «أكرم زيدًا وإن كان غنيًّا» حالٌ، ولا يعقله عاقل، ولو قيل به، بل عطف على محذوف، أي: إن لم يكن، وإن كان غنيًّا، فقد يكون مجموع المحذوف والمذكور حالاً، إذ ليس المعنى على إنشاء الشكِّ، بل المعنى أكرمه فقيرًا أو غنيًّا، ولا سيما أنَّه من أجاز الحاليَّة يشترط الواو ويزعم أنَّها واو الحال كالمثال، وأجازه ابن جنِّي[1] في الخصائص الحاليَّة في ذلك بلا

---

(1) عثمان بن جنِّي، أبو الفتح الموصليُّ، إمام من أَئِمَّة النحو والأدب، ولد بالموصل حوالي سنة 325هـ، وَتُوُفِّيَ ببغداد سنة 392هـ. له مُؤَلَّفَات كثيرة في اللغة منها «الخصائص» في ثلاثة أجزاء في اللغة، كان المتنبِّي يقول فيه: «ابن جنِّي أعرف بشعري منِّي». **الزركلي**: الأعلام، ج 4، ص 204.

واو، ولا تسلَّم [الحاليَّة] أيضًا كما لا تسلَّم مع الواو. وَأَيْضًا من أجاز اشترط أن يكون ما ذُكر ضِدًّا لِمَا حُذِفَ، كالمثال، ولا عاقل يفهم الحاليَّة من الآية، ومن قولك: «لا تخذلني إن كنت صديقي»، وأيُّ بلاغة في حاليَّة ذَلِكَ يُحمَل عَلَيْهَا القرآن البليغ؟. والنصب في الآية عَلَى التعليل، أي للجهاد والابتغاء، فلا حاجة إِلىَ تقدير مضاف، أَو التأويل باسم الفاعل، والنصب عَلَى الحاليَّة.

﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ أعاده ليبني عليه قوله ﷻ: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾.

[نحو] والجملة حالٌ، زيادةً في الزجر، وجملة «تُسِرُّونَ» مستأنفة جواب لسؤال، كأنَّه قيل: لِمَ عوتبْنَا؟ فقيل: «تُسِرُّونَ»، أي: لأَنَّكم تسرُّون. أو بدل كلٍّ من «تُلْقُونَ» إن أريد الإلقاء سرًّا. أو بدل بعض إن أريد مطلق الإلقاء سرًّا أو جهرًا. أو بدل اشتمال، لأنَّ الإسرار مِمَّا يناسب الإلقاء، والإسرار صفة من صفات الإلقاء لا نفس الإلقاء، فبدل الاشتمال أولى، وبه قال الإمام أبو حيَّان.

[نحو] و«أَعْلَمُ» اسم تفضيل باقٍ على التفضيل، أو مضارع. والباء للإلصاق المجازيِّ على الوجهين، أو زائدة للتأكيد في مفعول المضارع، والتفضيل أولى. والمضارع للاستمرار. و«ما» اسم، أي: بما أخفيتموه وما أعلنتموه، قيل: أو مَصدَرِيَّة، أي: بنفس إخفائكم، وفيه أنَّه إن أبقي على معنى المَصدَرِيَّة ضعف المعنى، لأنَّ العلم بنفس المخفيِّ والمعلن به أقوى وأفْيد من العلم بنفس الإخفاء والإعلان، وإن أُوِّل بمفعول فتكلُّف، لأنَّه يغني عنه إبقاء «مَا» على الِاسمِيَّة.

[بلاغة] وفي الآية استواء الإسرار والجهر عند الله ﷻ، ولذا قدَّم الإخفاء، وَإِنَّهُ لا فائدة في إسرارهم مع أنَّ الله يعلم ما يسرُّون، ويخبر به نبيئه ﷺ، ويعاقب عليه من لم يتب.

﴿**وَمَنْ يَّفْعَلْهُ**﴾ أي: الاتِّخاذ أو الإسرار، قولان، والأَوْلى: هما معًا بتأويل ما ذكر ﴿**مِنكُمْ**﴾ خصُّوا بالذكر لأنَّهم فعلوه، ومثلهم غيرهم إن فعله ﴿**فَقَدْ ضَّلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ**﴾ أخطأ الطريق السواء.

[نحو] و«ضلَّ» لا يتعدَّى، وقد يتعدَّى لواحد كما هنا، وقيل: «سَوَاء» ظرف، وفيه أنَّه ليس في الطريق السواء فضلاً عن أن يقال: ضلَّ فيه، بل هو خارجه. وإضافة «سَوَاءَ» إضافة نعت لمنعوت، والأصل: السبيلَ السواءَ، أي: المستويَ الحقَّ.

﴿**إِنْ يَّثْقَفُوكُمْ**﴾ يظفروا بكم، والأصل في الثَّقف الأخذ بالحذق والحيلة، وفعل شيء بهما، واستعمل في مطلق الأخذ والظفر، لعلاقة الإطلاق والتقييد. والواو للأعداء.

﴿**يَكُونُواْ لَكُمُۥٓ أَعْدَآءً**﴾ ضارِّين لكم دينًا ودنيًا، ولا يقنعوا منكم بالإسرار إليهم الذي فعلتم، أو أعداء ظاهرة صريحة، أي: تظهر عداوتهم. وقد صرَّح أوَّل السورة بالعداوة فالمراد هنا هو إظهارها، ولذلك قيل: المراد هنا لازم العداوة، وهو ظهور عدم نفع التودُّد.

﴿**وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمُۥٓ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ**﴾ الضرب بالأيدي والأسر والشتم بالألسنة، والضرب بالعصا والسيف ضربٌ باليد.

﴿**وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ**﴾ عطف على «يَكُونُ...»، فهو للاستقبال كما هو شأن جواب الشرط، أو المراد بالودِّ إظهارُه على أنَّه قد تقدَّم ودُّهم أنْ تكفروا، كما لا يخفى، أو المراد زيادة الودِّ أو قوَّته، لأنَّه ولو تقدَّم فيهم ينهضون فيه ضرورةً إذا قهروكم، أو تقدَّمت بالنوع، وكانت بعد الغلبة منهم بالإفراد منكم.

أو العطف على مجموع «إِنْ» الشرطيَّة وما بعدها من الشرط والجواب، فلا يتسلَّط عليه معنى الشرط كما تسلَّط إذا عُطفَ على جوابه، ولا إشكال في

تسلُّطه لما علمت من تأويل الوُدِّ بلازمه، أو بإظهاره، مع أنَّه قد يكون العطف على الجواب لشدَّة الارتباط، وليس مقصودًا بالذات للشرط، نحو: إن ظفرت بغريمي أخذت حقِّي منه وأُخَلِّه، وقد يتوسَّط ما بالذات، كما إذا جعلنا المقصود بالذات هنا هو ﴿يَبْسُطُوا﴾، وأمَّا العداوة وودُّ كفركم فلشدَّة الارتباط.

وعبَّر في الودِّ بالماضي لأنَّ ودَّ الكفر أهمُّ شيء للمشركين، وأسبقه أن يكون من المؤمنين لعلمهم رغبةَ المؤمنين في الإيمان، فيهتمُّوا أن ينزعوا منهم أحبَّ الأشياء إليهم الذي بذلوا فيه أنفُسَهم وأموالهم ودنياهم.

﴿**لَن تَنفَعَكُمْ**﴾ بالتنجية من النار ولا بإدخال الجنَّة ﴿**أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ أقاربُكم ولا أبناؤكم وبناتكم الذين تخونون الله ورسوله من أجله، بإفشاء أسراره إلى المشركين من أجلهم، حمايةً عنهم.

وأصل الرَّحِمِ مستقرُّ الجنين من المرأة في بطنها، واستعمل في الأقارب أو القرابة، حتَّى صار كالحقيقة، أو صار حقيقةً، فالمراد القرابة أو الأقارب، ويجوز أن يجعل مجازًا عن أحدهما، أو يقدَّر مضاف، أي: ذَوُو أرحامهم، ويناسب كونَه بمعنى الأقارب أو ذوي القرابة قولُه تعالى: ﴿وَلَآ أَوْلَادُكُمْ﴾. و«يَوْمَ» متعلِّقٌ بـ«تَنفَعَكُم»، ويجوز تعليقه بقوله تعالى: ﴿**يُفْصَلُ**﴾.

وقوله: ﴿**بَيْنَكُمْ**﴾ نائب الفاعل بُنِي على الفتح لإضافته لمبنيٍّ راسخ في البناء، وهو الضمير، كذا قيل، أو نائبه ضمير الفصل، أي: يفصل الفصل، أي: يوقع الفصل. وقيل: تجوز نيابة الظرف مع بقائه معربًا منصوبًا.

والمراد بالفصل بينهم الفصل بالهول، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنَ اَخِيهِ وَأُمِّهِ...﴾ إلخ [سورة عبس: 34ـ35]، وكلٌّ يقول: نفسي نفسي، بلسان الحال، وقد يكون بلسان القال، إذا طلب نفعٌ من نحو قريب أو صديق أو زوج.

﴿**وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ تُجَازَوْنَ عليه. وأكَّد الزجر عن رفض حقِّ الله ﷻ لنحو القرابة بقوله تعالى:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (5) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (6) ۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (7)﴾

التأسِّي بإبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالذِينَ مَعَهُ﴾ لأنَّ الحبَّ في الله والبغض في الله من أوْثق عُرى الإسلام، والإسْوة الائتساءُ، أي: الاقتداء، فـ«فِي» بمعنى الباء في قوله تعالى: ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ﴾.

[نحو] أو «إِسْوَةٌ» خصلة يُقتدى بها و«فِي» على ظاهرها، يتعلَّق بمحذوف نعت لـ«إِسْوَةٌ». ويجوز أن يكون «إِسْوَةٌ» شخصا يُقتَدَى به مأخوذا من إبراهيم والمؤمنين، كقولك: رأيت من زيد بحرًا، فيكون تجريدًا. أو ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ يتعلَّق بمحذوف نعت أيضًا. و«لَكُمْ» خبر «كَانَ»، و«إِسْوَةٌ» اسمه، أو متعلِّق به و«إِسْوَةٌ» فاعله. أو تعلَّق «فِي» بـ«كَانَتْ» أو بمحذوف خبر ثانٍ أو نعت ثانٍ.

﴿وَالذِينَ مَعَهُ﴾: هم المؤمنون، لأنَّهم ولو لم يكونوا في حين مكافحته لنمرود لكن وُجدُوا بعد ذلك، وكانوا على ملَّته، فلا حاجةَ إلى ما قيل: إنَّ ﴿الذِينَ مَعَهُ﴾ هم الأنبياء قبله القريبين من عصره، قبلهُ وبعده، والداعي لذلك أنَّه لم يوجد وقت المكافحة مؤمن إلَّا هُو وسارَّة، كما روي أنَّه لَمَّا هاجر إلى الشام قال لسارَّة: ما على وجه الأرض من يعبد الله غيري وغيرك.

﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُـرءَآؤُاْ مِنكُمْ﴾... إلخ قالوا هذا بعد وجودهم، ولا إشكال، والخطاب للمشركين. وانظر كيف يتعلَّق «إِذْ» بـ«كَانَ» أو بخبرها مع أنَّ المخاطبين لم يوجدوا في زمان إبراهيم ومن معه؟ الجواب أنَّه ثبت للمخاطبين ذلك من زمان إبراهيم، كما تقول: هذا العبد لولد فلان إذا ولد.

[نحو] ومن العجيب جَعْلُ بعضِهِم «إِذْ» بدلاً من «إِسْوَةٌ»، مع أنَّ الوقت ليس نفس الإسوة ولا بعضها، ولا اشتملت عليه الإسوة، وتعالى الله عن البداء والغلط، وكأنَّه راعى اشتمال الوقت على قول: ﴿إِنَّا بُرءَآؤُاْ مِنكُمْ﴾ الذي هو إسوة فيكون بدل اشتمال بتكلُّف، ومفرد «بُرَءَاءُ» بريءٌ، ككريم وكرماء، وشريف وشرفاء.

﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ من الأصنام والكواكب وغيرها، وبيَّن البراءة بقوله تعالى: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ والخطاب للقوم وما يعبدون، تغليبًا للمخاطب على الغائب، وللعاقل على غيره، فلا حاجة إلى تقدير: كفرنا بكم وبما تعبدون، تَمَسُّكًا بدلالة ما قبله عليه.

[بلاغة] والكفر بذلك استعارة، بأن شبَّه الكفر بذلك بالكفر بما لا يجوز الكفر به، لجامع مطلق النفي، وذلك مشاكلةٌ وتهكُّمٌ. أو ذلك كناية عن عدم الاعتداد بشأنهم وشأن ما يعبدون.

[لغة] ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ﴾ ضدُّ الصداقةِ، والصداقةُ المحبَّةُ ﴿وَالْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُومِنُواْ بِاللهِ وَحْدَهُ﴾ فالبغضاء شدَّة البغض، ضدُّ الحبِّ.

وقيل: العداوة منافاة الالتئام قلبًا، والبغض: نفارُ النَّفس عن الشيء، وتُستعمل العداوة في التخاذل دون البغضاء فإنَّها ما في القلب من النِّفار فقط.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ القول باقٍ على المَصدَرِيَّة، فما بعده مفعول به له. أو بمعنى مقول، فما بعده بيان أو بدل، وذلك استثناء من «إِسْوَةٌ» منقطع، أي: لكم الاقتداء بإبراهيم عليه السلام والذين معهم في البراءة من الكفرة، لكنَّ استغفاره للكافر ليس لَكُم الاقتداءُ به فيه، فتجب عليكم البراءة من الكافرين ويحرم عليكم الاستغفار وإبْدَاءُ الرأفة، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ للنَّبيءِ وَالذِينَ ءَامَنُواْ أَنْ يَّسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُۥٓ أَنَّهُمُۥٓ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [سورة التوبة: 113]، أي: من بعد ما تبيَّن لهم أنَّ المشركين لا يدخلون الجنَّة بل النار.

وخصَّ الله عز وجل إبراهيم بالاستغفار لأبيه المشرك ثمَّ أخبره الله أنَّه يَمُوتُ مشركًا ونهاه عن الاستغفار له، وعِلْمُه بموته مشركًا لا أوَّل له.

ويجوز أن يكون الاستثناء متَّصلاً من محذوف، أي: لقد كان لكم إسوة حسنة في كلام إبراهيم لقومه وأموره من فعل واعتقادٍ، إلَّا قوْلَه لأَبِيهِ: ﴿لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾، أي: إلَّا الاستغفار للمشرك فلا تقتدوا به فيه، فإنَّه أمر خُصَّ به ثمَّ سمح له، ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُّشْرَكَ بِهِ﴾ [سورة النساء: 48].

وإذا فسَّرنا الإسوة بإنسان مجرَّد من إبراهيم فالاستثناء منقطعٌ ولا بدَّ، وإذَا فسِّر بأمر يُقْتَدى فيه به صحَّ الاتِّصال والانقطاع، ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [سورة التوبة: 114]، [وهي قوله عليه السلام:] ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [سورة مريم: 47].

وتوجيه الاستثناء إلى الوعد بالاستغفار مع أنَّ الموعود هو الاستغفار وقد أنجزه بقوله: ﴿وَاغْفِرْ لأَبِيَ﴾ [سورة الشعراء: 86]، لأنَّ الوعد هُو الحاملُ له على

الاســـتغفار، وإلَّا فأولى أن يستثني نفس الاســـتغفار، وقيل: وعدُه بالاستغفار كناية عن الاســـتغفار إذ كان وعده لا يتخلَّف ولا ســـيما أنَّه قـــد أكَّدَه. وليس وعدُه بالاستغفار ولا استغفاره معصيةً منه، وليس معصيةً أيضًا من غيره، حتَّى ينزل المانع وهو الوحي.

وزعم قومٌ أنَّ اســـتغفاره في الدُّنيا، وتبيَّن أنَّه مـــن أصحاب الجحيم في الآخرة، وهو خـــلاف الظاهر، ووجهه أنَّه اســـتعمل التبيُّن المســـتقبل بمنزلة الواقع الماضي لتحقُّقه بعد، وعدم تخلُّفه وليس بشيء.

﴿وَمَـآ أَمْلِـكُ لَكَ مِـنَ اللهِ مِن شَـيْءٍ﴾ الجملـة حال مـن الضمير في «أَسْـتَغْفِرَنَّ». و«مِنْ» الأولى للابتداء تتعلَّق بـ«أَمْلِكُ»، أو بمحذوف حال من «شَـيْءٍ». والثانية صلة فـي المفعول به، [كأنَّـه قال:] ولو ملكـتُ أكثر من الاستغفار لبذلته لك، ومورد الاستثناء الاستغفار نفسه، وأمَّا ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ﴾ فإظهارٌ للعجز وتوحيدٌ.

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَـا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ رَبَّنَـا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلذِينَ كَفَرُواْ وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ منصوب بقول محذوف معطوف على ﴿قَالُواْ لِقَوْمِهِمُۥٓ إِنَّا بُرءَآؤُاْ مِنكُـمْ...﴾ إلخ، أي: وقالوا: «رَبَّنَا...» إلخ، وهو من كلام إبراهيـم عَلَيْهِ السَّلَامُ والذين معه، ويجـوز أن يدخل في قولـه: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فيكـون مجموع قوله: ﴿لأَسْـتَغْفِرَنَّ...﴾ إلى: ﴿الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ﴾ مقُولاً للْقَوْل، أي: إلَّا مقول إبراهيم الذي هو هذه الألفاظ، أو إلَّا ذكر إبراهيم هذه الألفاظ، **وهي أَلْفاظُ حقٍّ وتوحيدٌ لا تنسخ ولا تبطل في حقِّ أحدٍ مَّا.**

والاســـتثناء منقطع، فلا يَضُرُّنا، بل لو جعلناهُ متَّصلاً أيضًا لصحَّ على أنَّ الاســـتثناء منْصَبٌّ على المقيَّد، وهو: «لأَسْـتَغْفِرَنَّ لَكَ» لا علـى القيد وهو: «وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ...» إلخ. ويجوز كونه مفعـولاً لفعل أمر محذوف لهذه الأمَّة، أي: قُولُوا: ربَّنا. أو يقدَّر بالواو عطفًا على «لَا تَتَّخِذُواْ»، والخطاب للأمَّة أيضًا.

و﴿أَنَبْنَا﴾: رجعنا ممَّا يكون من معصيــة وإهمالٍ إلى الطاعة، و﴿تَوَكَّلْنَا﴾ في جلب المصالــح ودفع المــكاره. وتقديم الجــارِّ والمجرورَيْــن الأوَّليْن للاهتمام والحصر، والثالث لذلك وللفاصلة.

ومعنــى ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَــةً...﴾ إلخ لا تجعلنــا مفتونين للذيــن كفروا، أي: معذَّبين لهم (بفتح الذال)، كما قال مجاهد: لا تعذِّبنا بأيديهم، أو لا تجعلنا فاتنين لهم في الدِّين بأن تعذِّبنا بما شئت فيظنُّوا أنَّك عذَّبْتنا لبُطْلَانِ ديننا، وحقِّيَّة دينهم.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيُّها المؤمنون ﴿فِيهِمُۥٓ﴾ في إبراهيم والذين معه ﴿إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ مثل ما مرَّ.

[نحو] ﴿لِّمَن﴾ بدل كلٍّ مــن «لَكُمْ». وإن جعلنا الخطــاب للناس عمومًا فبدل بعضٍ. والصحيح جواز إبدال الظاهر من الضمير مطلقًا، وخصَّ الجمهور الجواز ببدل البعض والاشْتِمَال والغَلَط. قيل: أو صفة لـ«حَسَنَةٌ»، والأولى في النعت أن يكون نعتًا لـ«إِسْــوَةٌ» ثانيا. ويجوز تعليقه بـ«حَسَنَةٌ». والمعنى على الإبدال ظاهر، وأمَّا وصف «إِسْوَةٌ» أو «حَسَــنَةٌ» به أو تعليقه بـ«حَسَنَةٌ»، فكيف يكون كذلك مع قوله: ﴿لَكُمْ﴾؟ الجواب: إنَّه كقولك: إنَّ لك في الدَّار انتفاعًا تامًّا لمن يريد، فلَكُمْ إسوةٌ تَحْسُنُ أو تَثْبُتُ للراجين، فكُنْ منهم.

﴿كَانَ يَرْجُواْ اللهَ وَالْيَوْمَ الَاخِرَ﴾ أي: ثــواب الله، أو لقاء الله ونعيم الآخرة والنصر على الأعداء، ويوم القيامــة خصوصًا. والرجــاء: الطمع والأمل، أو الخوف، والأوَّل أولى. وذلك إشارة إلى أنَّه من يرجو الله واليوم الآخر لا يترك الاقتداء بهم، وأنَّ تَرْكَ الاقتداء بهم كإنكار البعــث والجزاء، وكأنَّه متولٍّ عن الإيمان، كما أشار إليه بقوله ﷻ:

﴿وَمَنْ يَّتَوَلَّ﴾ عن الطاعة، ومنهــا ذلك الاقتداء، أو عن الإيمان، ويلتحق به من تولَّى عن الاقتداء ﴿فَــإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن الاقتداء وعن كلِّ شــيء، ﴿الْحَمِيدُ﴾ المحمود في صفاته وأقواله وأفعاله.

﴿**عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ**﴾ خطاب للمؤمنين ﴿**وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم**﴾ من أقاربكم المشركين، الذين صبرتم على فراقهم لوجه الله، وزلَّ من زلَّ في شأنهم كحاطب ﴿**مَّوَدَّةً**﴾ حبًّا لدخولهم في دين الإسلام بعد بغضهم لمخالفته، من الآباء والأبناء والأمَّهات وسائر الأقارب، بل والأصحاب والجيران.

وهذه منَّة من الله تعالى وعدها للمؤمنين، تطييبًا لأنفسهم وتسليةً، أنجزها الله في أفرادٍ قبل الفتح، وفي العموم بعده، ومن ذلك إسلام أبي سفيان بن حرب وغيره من مسْلِمَةِ الفتح، وفيه أسْلم أكثر أهل مكَّة.

﴿**وَاللَّهُ قَدِيرٌ**﴾ على الأشياء كلِّها، ومنها التوفيق للإيمان الذي تحصل به المودَّة ﴿**وَاللَّهُ غَفُورٌ**﴾ لمن زلَّ في شأنهم وتاب، ولغيره مِمَّن تاب من شرك وما دُونه ﴿**رَّحِيمٌ**﴾ بالنِّعم بعد التنجية من العذاب.

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾

علاقة المسلمين بغيرهم

﴿**لَّا يَنْهَاكُمْ اللهُ عَنِ الذينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ**﴾ من المشـركين ﴿**فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمُۥٓ**﴾ ولم يظاهروا علـى إخراجكم بدليل الآية بعدُ ﴿**أَن تَبَرُّوهُمْ**﴾ عن أن تبرُّوهم، أي: عن برِّكم إيَّاهُم، أي: الإحسان إليهم، وهو بدل اشـتمال من «الذينَ». وذلك قبل الهجرة، ودخل في الإبدال بواسطة العطف قوله تعالى: ﴿**وَتُقْسِطُواْ إِلَيْهِمُۥٓ**﴾ تميلـوا إليهم بالعدل، ولتضمُّنه معنى تميلوا أو تفضوا عدِّي بـ«إلى».

﴿**إِنَّ اللهَ**﴾ لأنَّ الله ﴿**يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ العادلين، وذلك أمر مأمور به مع كلِّ مشركٍ جائز العشرة.

[قلت:] والإقساط لا يُنسخُ، كما زعم بعض أنَّه منسوخ بآية القتال، وذلك فيما ليس فيه إهانة الإسـلام، وأمَّا ما فيه فلا يجوز، لأنَّه غير عدلٍ فهو خارج بلفظ إلَّا عَلى وَجْه الضرورة فإنَّه يفعله ولا يقصد إهانة الإسلام، كالمضطرِّ إلى قول إلهين اثنين، وكالقيام لهم إن كان لم يقم يقتل، أو يعذَّب، أو يؤخذ ماله.

[قلت:] ومن إهانة الإسـلام أن يخدم كافرًا أو يأجره مشْركٌ، ومن العدل التصدُّق على من هو في الذمَّة والمسـتجير لا على أهـل الحرب، ولو غلبوا المسلم وكان تحت حكمهم إلَّا لضرورة.

[سبب النزول] قالت أسـماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: أتتنـي أمِّي راغبة وهي مشـركة في عهد قريش، إذ عاهدوا رسـول الله ﷺ، فسـألت رسول الله ﷺ: أأصِلها فأنزل الله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُم...﴾ إلـخ، فقال: «**نعم صلي أمَّك**»، رواه البخاريُّ. واسم أمِّها قتيلة بنت عبد العزَّى، طلَّقها الصدِّيق في الجَاهِلِيَّة.

[سيرة] وأسماء أكبر سنًّا من عائشة، وعائشة أكبر شأنًا منها، رضي الله عزَّ وجلَّ عنهما، فأسـماء أخت عائشـة من أبيها، وأمُّ عائشـة تدعى أمُّ رومان، والعقد الذي انقطع عن عائشـة رضي الله عنها فنـزل التيمُّم هو لأسـماء كان بيد أختها عائشـة عارية تتزيَّن به لرسـول الله ﷺ. وقيل: قتيلة المذكورة خالة أسـماء، سمِّيت أمَّها مجازًا، والصحيح الأوَّل.

ولم تباشر أسماء رسول الله ﷺ بالسؤال بل سألته بواسطة عائشة كما روى أحمد عن عبد الله بن الزبير أنَّه قدمت قتيلة بنت عبد العزَّى على ابنتها أسماء بنت أبي بكـر بهدايا، صنـابٍ وأَقطٍ وسـمنٍ ـ وروي: «ضبـاب وقرص[1] وسمن» ـ وهي مشـركة، فأبت أسـماء أن تقبل هديَّتها وتدخلها بيتها، حتَّى أرسلت إلى عائشـة رضي الله عنها، أن تسأل رسـول الله ﷺ عن هذا، فسألته، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُم...﴾ فأمرها أن تقبل هديَّتها وتدخلها بيتها.

ولفظ البخاريِّ ومسـلم ظاهر في أنَّها سألت بنفسـها لا بواسطة عائشة، ولفظهـا: «قالت: قدمت عليَّ أمِّي وهي مشـركة في عهد قريـش، إذ عاهدوا رسول الله ﷺ ومدَّتهم، فاسْتَفْتَيْتُ رسـول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إنَّ أمِّي قدِمت عليَّ، وهي راغبة أفأصلها؟ قال: نعم صليها، ونزلت الآية».

[سبب النزول] وقال الحسـن وأبو صالح: نزلت الآيـة في خزاعة وبني عبد الحارث بن كعب وكنانة ومزينة وقبائل العرب، صالحوا رسول الله ﷺ أن

---

(1) الصِّناب: صباغ يُتخذ من الخـردل والزبيب. والضباب: طلع النخل فيمـا يبدو. والقرص: قرص خبز. ينظر صحاح **الجوهري**.

لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحدًا، وهو ظاهرٌ حسن، إلَّا أنَّ الأولى أن يحمل النزول عليه وعلى قصَّة أسماء. [قلت:] ووجه حُسنِهِ أنَّ هؤلاء هم الذين يمكن أن يقاتلوا المؤمنين وتركوا. وقال عطيَّة العوفيُّ وقرَّة الهمذانيُّ: «نزلت في قوم من بني هاشم منهم العَبَّاس ﵁».

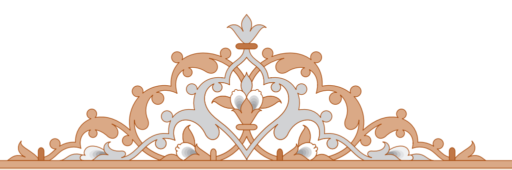
وقال عبد الله بن الزبير: نزلت في الصبيان والنساء والضعفاء والمرضى. وقال مجاهد: في قوم مكَّة، آمنوا ولم يهاجروا فتحرَّج المهاجرون والأنصار في برِّهم لتركهم الهجرة الواجبة، وفيه أنَّ هؤلاء لا يؤمر بالإحسان إليهم إن قدروا على الهجرة.

وقيل: في المؤمنين من أهل مَكَّة وغيرها، قدروا على الهجرة ولم يهاجروا، وفيه أنا لا نسلِّم أنَّه يؤمر ببرِّهم والهجرة قبل نسخ وجوبها واجبة على كلِّ من أسلم، في مكَّة أو غيرها، من أهلها أو من غيرها، وقيل: فيمن لم يستطع الهجرة من المؤمنين.

والجمهور **على أنَّها في كلِّ من لم يقاتل المؤمنين ولم يخرجهم من ديارهم، فتعمَّ من ذكر كلَّه**، ويدلُّ له المقابلة بضدِّ ذلك في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُواْ﴾ أعانوا **﴿عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْۥ﴾** كمشركي مكَّة، فبعضهم أخرج المؤمنين وبعض أعان على الخروج، والمراد كما مرَّ التضييق، حتَّى كان الخروج بسببه **﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾** بدل اشتمال، أي: ينهاكم عن موالاتهم بالحبِّ والقول الحسن، وسائر النفع، وكشف أسرار المؤمنين لهم.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم بالتعريض للذمِّ والعذاب، وللمؤمنين ودين الإسلام. والحصرُ إضافيٌّ، أي: لا من تَوَلىَّ بما ذُكر من لم يقاتل ولم يخرج، ولم يظاهر. أو مبالغة حتَّى كأنَّه لا ظالم سواهم. أو الكمال في الظلم، ومَن دونهم لم يكمل ظلمه، وذلك في مثل من هو مثلهم، فلا يشكل بمن قتل نبيئًا.



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝10 وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۝11﴾

حكم المهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ الْمُومِنَاتُ﴾ بحسب الظاهر لكم وبدعواهنَّ، والمراد: المؤمنات ذوات الأزواج، بدليل قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ ويحتمل الإطلاق. ﴿مُهَاجِرَٰتٍ﴾ لبلدهنَّ كراهةً للكفر بحسب الظاهر لكم، وبدعواهنَّ، ويدلُّ على ذلك ذكر الاختبار بقوله: ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ بما يغلب به على ظنِّكم صدقهنَّ.

قال الطبرانيُّ وغيره عن ابن عبَّاس: إنَّـه كان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يحلِّف من جاءت رسول الله ﷺ الأيمانَ بالله ما خرجتْ رغبةً بأرضٍ عن أرضٍ، وباللهِ ما خرجت من بغضِ زوجٍ، وباللهِ ما خرجت التماسَ دنيًا، وبالله ما خرجت إلَّا حبًّا لله ورسوله ﷺ، وذلك لضعف قُلُوبهنَّ.

وعن ابن عبَّاس أيضًا: «إنَّ محنتهنَّ أنَّ رسول الله ﷺ أمر عمر أن يقول لهنَّ: إنَّ رسول الله ﷺ بايعكنَّ على أن لا تشركن بالله شيئًا... إلخ فإن أذعنَّ لذلك فاحكموا بإيمانهنَّ»، والأولى أنَّ هذا بعد الاختبار المذكور أوَّلاً وقبول له.

وفي البخاريِّ: إنَّ سهيل بن عمرو شرط على رسول الله ﷺ: «أن لا يأتيك أحدٌ منَّا إلَّا رددته إلينا وخلَّيت بيننا وبينه، وإن كان على دينك، ومن أتانا منكم لا نردُّه إليكم». وأتاه أبو جندل فردَّه إلى أبيه سهيل المذكور، وكلُّ من جاءه ردَّه، ولو كان مسلمًا، وذلك مكتوبٌ بينهم، والمسلمون كرهوا ذلك.

[سبب النزول] وجاءت أمُّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وهي عاتق، فطلب أهلُها ردَّها فلم يردَّها، ونزل قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ الْمُومِنَاتُ...﴾ إلى: ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾. وكان يمتحنهنَّ بقوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ اِذَا جَآءَكَ الْمُومِنَاتُ...﴾ إلى: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. قالت عائشة: إنَّها كانت كلامًا وما مسَّ يد امرأةٍ.

وجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلميَّة، وطلبها زوجها مسافر من بني مخزوم، وقيل: زوجها صيفيُّ بن الراهب، وقال: لَمَّا تجفَّ الكتابة بيننا، تردُّ إلينا من جاءك منَّا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ اِذَا جَآءَكَ الْمُومِنَاتُ﴾، أي: من دار الكفر ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ فامتحنها بالحلف المذكور، فحلفت فلم يردَّها، وأعطى زوجها مهرها وما أنفق عليها، وتزوَّجها عمر.

وكان ﷺ يلي امتحانهنَّ بنفْسِه، وقيل: عمر، ومن امتحنها أمسكها، وأعطى زوجها مهرها، ويردُّ من جاء من الرِّجال، فقيل: النساء دخلن في عقد الرَّدِّ، ثمَّ نُسخ ردُّهنَّ، فكان يمسكهنَّ، وقيل: عمَّهُنَّ لفظ العقد، وبيَّن الله تعالى أنَّهنَّ لم يدخلن فيه.

﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ**﴾ منكم ومن غيركم ومنهنَّ ﴿**بِإِيمَانِهِنَّ**﴾ لأنَّه المطَّلع على ما في القلوب ﴿**فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ**﴾ بالامتحان.

[قلت:] العلم المتعارف، وهو ما فوق الظنِّ، وهو أكثر عِلْمِنَا في الحكم بين الناس والشهادة وغير ذلك مِمَّا بيننا وبين الله تعالى، وما بيننا معشر الناس، وفي معنى ذلك ظننتموهنَّ ظنًّا قويًّا يشبه العلم الحقيق، وهو ما لا يقبل التشكيك.

﴿مُومِنَاتٍ﴾ في نفس الأمر بحسب الظاهر لكم ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ إلى أزواجهنَّ الكفَّار، بدليل قوله ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ دلالةً أقوى من قوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ صفة مشبَّهة فيها ضمير مستتر. والإفرادُ لكونها في الأصل مصدرًا ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

إنَّما قلت دلالةً أقوى لأنَّه لولا قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ لاحتمل أنَّ المعنى: اقْبَلُوهنَّ ولا تتركوهنَّ يرجعن إلى الكفَّار فيتزوَّجوا بهنَّ وهنَّ مؤمنات، أو يزنوا بهنَّ.

والجملتان تعليل، أي: لأنَّهنَّ لا يحللن لهم، ولا هم يحلُّون لهنَّ. والجملة الأولى لفسخ النكاح بينهنَّ وبين أزواجهنَّ المشركين. ويحتمل الإطلاق في ذوات الأزواج وغيرهنَّ، فتكون الآية تفصيلاً، فأمَّا الامتحان فعامٌّ، وكذا عدم الحلِّ بين المؤمنة والكافر، فإنَّه لا يتزوَّجها ولا تترك إليه، وإن تزوَّجها قبلُ فُرِّق بينهما، وأمَّا الإنفاق عليهنَّ ففي ذوات الأزواج.

والثانية لبيان ما يستأنف من النكاح، ويناسب ذلك الإخبار في الأولى بالاسم، وفي الثانية بالفعليَّة المضارعيَّة، وفي الأولى إسناد الصفة المشبَّهة إلى ضمير المؤمنات إعلامًا بأنَّ نفي الحلِّ مستمرٌّ لا يختلُّ، والتغيير من جانبهنَّ.

[بلاغة] وأسند الفعل المضارع إلى ضمير الكُفَّار لاستمرار الامتناع في المستقبل، إلَّا أنَّه يقبل التغيير بحدوث الإيمان، فباعتبار ذلك يندفع التكرير بين الجملتين، ويحصل التغاير، مع أنَّه يجوز أن يكون التكرير للتأكيد. ومثل الجملتين في البديع يسمَّى بالعكس والتبديل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ...﴾ إلخ [سورة البقرة: 187].

[فقه] وفي نفي الحلِّ لهم ونفي حلِّهنَّ لهم دليلٌ على خطاب المشركين بفروع الشريعة، وأجاب المانع بأنَّ المعنى: لا يحلُّ للمؤمنات أن يبقين تحت المشركين، ولا يحلُّ للمؤمنين ترك مؤمنة تحت مشرك، فالخطاب للمؤمنات

والمؤمنين، وهو جواب تكلُّف، ترُدُّه أيضًا دلائل أُوِّلت بتكلُّف، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [سورة التكوير: 8ـ9]، وقولهم: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ...﴾ إلخ [سورة المدَّثِّر: 43].

﴿**وَءَاتُوهُم**﴾ أي: آتوا المؤمنين المتزوِّجين[1] لهنَّ، والهاء للأزواج الكفرة، وهو مفعول ثانٍ مقدَّم. وقوله: ﴿**مَّآ أَنفَقُواْ**﴾ مفعول أوَّل، لأنَّه فاعل في المعنى، لأنَّه الآتي، أي: صيَّرُوهُ آتيهم، وهو المهور.

[سيرة] فمن أراد تزوُّج مهاجرة أعطى زوجها ما أصدقها واعتدَّت وتزوَّجها.

[فقه] ولا يضرُّ تأخير الإعطاء إذا التزمه، وقيل: لا بدَّ من تقديمه، والإعطاء واجبٌ، والأمر للوجوب، وقيل: هذا الإعطاء نَدْبٌ، لأنَّ بعضا تَزَوَّجَ بلا إعطاء، والصحيح الأوَّل.

ويجوز أن يكون الخطاب للأئمَّة بأن يأمروا المتزوِّج بها أن يعطي زوجها ما أنفق، وروي الردُّ من المرأة فيما ذكر الضحَّاك أنَّهم يقولون: إن أتتك امرأة لها زوج فإنَّها إن دخلت في دينك فإنَّها ترُدُّ لزوجها ما أعطاها، وإن لم تدخل في دينك رددتها إلينا، فنقول: لا بدَّ من الإعطاء، إمَّا أن تعطي هي أو من يتزوَّجها. وجاء أيضًا أنَّه يعطيها مريد تزوُّجها ما تعطيه.

[سيرة] وقيل: نسخ الإعطاء بنسخ العهد بآية براءة في النبذ[2]، لأنَّ الحكم بالإعطاء فرع العهد، فإذا نسخ العهد نسخ الإعطاء، وقيل: نسخ بنسخ ردِّ المرأة إليهم، وذلك أنَّه ﷺ صالح المشركين في الحديبية بواسطة سهيل بن عمرو على وضع الحرب عشر سنين، وأنَّ من أتاه ﷺ منهم بغير إذن وليِّه ردَّه، ومن أتاهم من المؤمنين فلا يردُّوه، وأنَّه من أحَبَّ دخل في عهده ﷺ أو في عهد قريش، فكان لا يأتيه ﷺ أحدٌ إلَّا ردَّه.

---

(1) كذا في النسخ، لعله يقصد: أيُّها المؤمنون المتزوِّجون لهنَّ. تأمل.

(2) آية النبذ جاءت في سورة الأنفال، الآية 58.

[سيرة] وردَّ أبا جندل بن سـهيل. وهاجرت نسـاء منهنَّ أمُّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وهي أوَّلُهنَّ، وجاء أخواها عمَّـار والوليد ليردَّاها فنزلت الآية نسـخًا للرَّدِّ، فلم يرُدَّهـا، وزوَّجها زيد بن حارثة. وجاءت سـبيعة بنت الحارث الأسلميَّة زوج صيفيٍّ بن الراهب، وقيل: مسـافر المخزوميّ، وأخذ ما أنفق، وتزوَّجها عمر، وقد قيل: نزلت فيها.

وقيل: نزلت في أميمة بنت بشر زوج أبي حسَّـان بن الدَّحْدَاحَة، وطلبوا ردَّها فلم تُرَدَّ، وتزوَّجها سـهيل بن صيفيّ، فولد له عبد الله. ويجمع بأنَّ نزول الآية بعد هؤلاء كلِّهنَّ. ثـمَّ إنَّ الحكم مخصـوص بالمهاجرين فلا حكم في ذلك بعد نسخ الهجرة.

﴿**وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ**﴾ فـي أن تتزوَّجوهنَّ، أو بأنْ، أو على أنْ، وذلك بعد العدَّة كما مرَّ.

[فقه] وقيـل: بلا عدَّةٍ في مسـألة المهاجرة، للإطلاق فـي الآية، إلَّا أن تكون حاملاً، لقوله ﷺ: «**مـن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسـقينَّ ماؤه زرع غيره**»[1] الجواب: الحمل على آية العدَّة من الطلاق.

[فقه] والحقُّ ـ وهو مذهبنا ـ أنَّها لا تقع الفرقة إلَّا بإسلامها، فلو هاجرت ولم تسـلم لم تقع الفرقة، لأنَّ الفرقة لأنْ لا تحلَّ مسـلمة لمشرك، وإن أسلم زوجها قبل الخروج من العدَّة وهاجر فهو أحقُّ بها، وقيل: تقع الفرقة بإسلامها.

﴿**إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُـنَّ أُجُورَهُـنَّ**﴾ صدُقَاتِهنَّ على تزوُّجكـم بِهِنَّ زيادة على ما تعطون، أو يُعطِينَ أزواجهنَّ المشـركين، والمراد بإيتاء الأجور التزامُه، فلا يَضُرُّ تأخيره ﴿**وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ**﴾.

(1) رواه **أبو داود** في كتاب النكاح، باب في وطء السبايا، رقم 2158، مع زيادة في آخره. ورواه **الترمذيُّ** في كتـاب النكاح (35) بـاب ما جاء في الرجل يشـتري الجاريـة وهي حامل، رقم 1131. من حديث رويفع بن ثابت.

[لغة] العِصَمُ: جمع عِصْمة، كسدرة وسدْرٍ، وهي ما يتمسَّك به من عقد وسبب ونحوه. والكَوَافِر: جمع كافرة، امرأة كافرة ونساء كوافر، وهو مقيس في المؤنَّث وفي المذكَّر غير العاقل، فلا يقاس في نحو: رجل كافرة (بتاء التأنيث) للمبالغة، كراوية لراوية الشِّعر كثيرًا. أو مسمًّى بذلك اللفظ عَلَمًا، ولا مانع من قولك: طائفة كافرة وطوائف كوافر، ومن ذلك «الخوارج» فإنَّه جمع خارجة (بالتاء) أي: طائفة خارجة، أو جماعة خارجة، لا جمع خارج.

وذلك نهيٌ عن أن يعتقد من أسلم اتِّصالاً بزوجه التي لم تهاجرْ ولم تسلمْ، فيجوز له نكاح خامسة، ونكاح من لا تجتمع معها كأخت في العدَّة، فإنَّ اختلاف الدارين قاطع بينهما، ولا عدَّة لهنَّ على ما شهر في تزوُّج الخامسة أو محرمة.

[سيرة] وعن النخعيِّ أنَّه نزلت الآية في المسلمة تلحق بالمشركين. وكذا عن مجاهد أنَّ معنى الآية: أَمَرَ اللهُ ﷻ بطلاق الباقيات مع المشركين، كما طلَّق عمر زوجَهُ فاطمة أخت أمِّ سلمة بنت أَبي أميَّة بن المغيرة المخزوميِّ، وتسمَّى أيضا: قريبة، وَلَمَّا أراد الهجرة ارتدَّت فتزوَّجها معاوية بن أبي سفيان قبل إسلامه، وطلَّق عمر أيضًا زوجه أمَّ كلثوم بنت عمرو بن جرول الخزاعي، فتزوَّجها أبو جهم بن حذيفة من بني عديٍّ، قبيلة عمر، وهي أمُّ ابنه عبيد الله. وطلَّق طلحةُ زوجه أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وقيل: لم يطلِّقها ولكن فرّق الإسلام بينهما، وعلى كلِّ حال تزوَّجها في الإسلام خالد بن سعيد بن العاصي بن أميَّة.

وأسلمت زينب بنت رسول الله ﷺ وهاجرت ولحقت بالنبيء ﷺ، ثمَّ أسلم زوجها أبو العاصي بن الربيع وهاجر فردَّها إليه رسول الله ﷺ، وارتدَّت زوج عياض بن شدَّاد الفهريِّ أمُّ الحكم بنت أبي سفيان، ولحقت بِمَكَّةَ، وارتدَّت بروع بنت عقبة زوج شمَّاس بن عثمان، وعزَّة بنت عبد العزيز بن

نضلة وتزوَّجها عمرو بن عبد وُدٍّ، وهند بنت أبي جهل بن هشام زوج هشام بن العاصي بن وائل، وكلُّ من ارتدَّت لحقت بمكَّة ولا تحبس.

[فقه] والفرقة عندنا وعند الشافعيِّ بالإسلام، وعند الْحَنَفِيَّة بالوصول إلى دار الإسلام، وذكرت الشَّافِعِيَّة أنَّه إن جمعتهما العدَّة تَبِينُ، ووقوع[1] الطلاق من حين اللفظ، وإلَّا فالبينونة بواسطة بقاء المرأة في الكفر.

﴿وَاسْئَلُواْ﴾ أي: اطلبوا الكُفَّار أن يعطوكم ﴿مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ مهور النساء اللاحقات بهم ﴿وَلْيَسْئَلُواْ﴾ يطلبوا المؤمنين أن يعطوهم ﴿مَآ أَنفَقُواْ﴾ مهور النساء اللاحقات بالمؤمنين.

[بلاغة] واللفظ أمرٌ لِلْكُفَّارِ بالطلب، والمراد المؤمنين بالأداء مجازٌ، استعمالاً للسبب في المسبَّب، واللفظ في الموضعين أيضًا أمر، والمراد المساواة.

[فقه] وردُّ مهر من أسلمت إلى زوجها واجبٌ، كما هو ظاهر الآية، على أنَّ عقد الصلح شملهنَّ، ثمَّ نسخ بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾. ولفظ العقد: «لا يأتيك أحدٌ منَّا إلَّا رددته إلينا». وقيل: مندوب إليه، على أنَّ العقد لم يشملهنَّ، كما روي عن عليٍّ: «لا يأتيك مِنَّا رجل إلَّا رددته إلينا، ولو كان على دينك». وذلك أنَّ الرجل يقوى على التَّقيَّة، وإضمار الإيمان والنية، بخلاف المرأة فيخاف عليها أن ترتدَّ.

[فقه] وأمَّا اليوم فعن مجاهد وقتادة وعطاء أنَّه يجب الردُّ إذا شرط في معاقدة الكُفَّار، وقال غيرهم: يجب أن يردَّ عليهم ما أنفقوا.

﴿ذَالِكُمْ﴾ ما ذكر من السؤالين ﴿حُكْمُ اللهِ﴾ فاتَّبعوه ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ بالحقِّ، مستأنفٌ أو حالٌ من «حُكْمُ اللهِ» فالرابط مجرور بحرف محذوف، أي: يحكم به، أو الرَّابط ضمير يكون مفعولاً مطلقًا، أي: يحكمه، أو ضمير مستتر

---

(1) في نسخة (د): «تبيَّن وقوع الطلاق». تأمل.

في «يَحْكُمُ»، بأن أســند الحكم إلى الحكم على التجوُّز في الإسناد للمبالغة، بأن يكون الحُكم حاكمًا لقوّته كأنَّه يســتقلُّ عن الحاكم ﴿**وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ بالمصالح والحِكَم.

﴿**وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنَ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ**﴾ علموا أنَّه فاتَهم شيء منهنَّ إلــى الكُفَّار، فما معنى «إنْ» التي للشــكِّ تعالى الله عنه؟ وهم لم يشــكُّوا في الفوت، بل أيقنوا به؟ وذلك أنَّ المؤمنين أدَّوا مهور من جاءتهم إلى أزواجهنَّ، والمشركين لم يُؤدُّوا مهور من جاءهم من المؤمنات إلى أزواجهنَّ؟.

الجواب: إنَّ الآية نزلت قبل الفوت، والشَّــكُّ مصروف إلى المؤمنين، أو معناه: إن قلتم: فاتنا شيءٌ، فاسْــتعمل مقولاً مقام القول، وذلك نزول قبل أن يقولوا، والشكُّ مصروف إلى غير الله ﷻ. والشــيء إحدى النساء، كما قرئ: «وَإِنْ فَاتَكُم إِحْدَى النِّسَاءِ». والتذكير باعتبار معنى بعض النِّساء.

ولفظ «شــيء» لزيادة التعميم، وشــمول محقَّرات النساء شمولاً كالنصِّ، ولتحقير من تركت الإسلام ولو كانت شريفة بالنسب والمال والحرمة.

[سبب النزول] ويروى أنَّه فاتت ستُّ نســوة من المؤمنات إلى الكُفَّار، وعبــارة بعــض: إنَّ المؤمنيــن أدَّوْا ما أمروا به مــن مهــور المهاجرات إلى أزواجهنَّ، وأبى المشــركون أن يؤدُّوا شــيئًا من مهور الكوافر إلى أزواجهنَّ المؤمنين، فنزل: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ...﴾ إلخ، أي: فاتتكم زوج من أزواجكم.

و«مِــنْ» للتبعيض لا للابتــداء كما قيــل، ولا للبيــان، لأنَّ الفائت ليس أزواجهم بل بعضهنَّ، **ويجوز أن يكون** «شيء» **واقعًا على المهور، على حذف مضاف،** أي: شيء من مهور أزواجكم، و«مِنْ» للتبعيض أيضا.

[بلاغة] ﴿**فَعَاقَبْتُــمْ**﴾ جاءت نوبتكم مــن أداء المهر لزوج التي هاجرت إليكم، وذلك اســتعارة تمثيليَّة بأنْ شبَّه كون الإعطاء تارة من مشرك وتارة من مســلم، بتعاقُبِ اثنين على دابَّة، تارة يركب هذا وتارة يركب هذا، يَتَنَاوَبُونَهَا،

والمعاقبة لا تقتضي المشـاركة بين الفاعلَيْن، كما لم تقتضها في الآية، تقول: رعت الإبلُ نباتًا تارة وأخرى نباتًـا آخر معاقبةً، بدون أن تقـول عاقبَتْها إبِلٌ أخرى في ذلك الرَّعي.

أي: إن لحق أحد أزواجكم إلى الكُفَّـار أو فاتكم بعض مهوركم ولزمكم أداء المهـر كما لزم الكُفَّـار ﴿**فَئَاتُواْ**﴾ المؤمنيـن ﴿**الذِينَ ذَهَبَـتَ اَزْوَاجُهُم**﴾ مُرتَدَّاتٍ ﴿**مِّثْلَ مَـآ أَنفَقُواْ**﴾ هو مهـر المهاجرة التـي تَزَوَّجتموها، ولا تؤتوه زوجها الكافر ليكون قصاصًا، كذا قيل. وواو «أَنفَقُوا» للمؤمنين. وعن الزهريِّ: يعطى من لحقت زوجه بالكفَّار مِثْلَ صداق من لحق بالمسلمين من زوجاتهم.

وعن الزَّجَّاج: معنى ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ غنمتم قبل، وحقيقته فأصبتم في القتال بعقوبة حتَّى غنمتم، فكأنَّه قيل: وإن فاتكم شـيء مـن أزواجكم إلى الكُفَّار ولم يؤدُّوا إليكم مهُورَهُـنَّ فَغَنِمْتُم منهم، فآتوا الذيـن ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الغنيمة.

قيل: وهذا هو الوجه، دون ما سـبق، فعن ابن عبَّاس: كان رسول الله ﷺ يعطي الذي ذهبت زوجـه من الغنيمة قبل أنْ تخمَّس، ولا ينقص من سـهمه شـيء، وعلى هذا فإنَّما لم يقل الله تعالى لرسـوله: «فَآتِ الذيـن...» مراعاة للغنيمة أنَّها لهم، كأنَّه قيل: في غنيمتكم سهام للذين ذهبت أزواجهم.

[قلت:] ولعلَّه يظهر لك أنَّ هذا توجيه حسن، وإلَّا فظاهر الآية لا يقتضي الإعطاء من الغنيمة بل من أمولهم، وأما إعطاؤه ﷺ من الغنيمة فَجَبْرٌ لمن لم يجد ما يعطي.

﴿**وَاتَّقُواْ اللَّهَ**﴾ بترك المعاصـي ﴿**الذِي أَنتُم بِهِ**﴾ قُـدِّم للحصر وللفاصلة ﴿**مُومِنُونَ**﴾ **فإنَّ الإيمان بلا تقوى غير نافع.**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُومِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـًٔا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَاتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣ ﴾

مبايعة النبيء ﷺ للمهاجرات (بيعة النساء)

﴿ يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ اِذَا جَـآءَكَ الْمُومِنَاتُ ﴾ لم يقرن الفعل بتاء التأنيث لأنَّ المراد الجنس لا نساء مخصوصات، فساغ التذكير، وأيضًا ساغ بالفصل بالكاف. وذكر المجيء إشعارٌ بأنَّهنَّ راغبات بأنفسهنَّ لا بدعوة داعٍ.

﴿ يُبَايِعْنَكَ ﴾ حال مقدَّرة، لأنَّ المبايعة بعد المجيء لا معه، وهي بالمعنى مقارنةٌ، لأنَّ المعنى: قاصدات، أو ناويات للمبايعة، والقصد أو النيَّة مقارن للمجيء، أي: يبعن الشرك بالإسلام، والمعصية بالطاعة، والنار بالجنَّة، وأنفسهنَّ بالجنَّة على يديك، أو المبايعة: الشراء للخير على يديه، وذلك أصل المعنى.

﴿ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَـيْئًا ﴾... إلخ ربَّما كان بعض هذه الأمور غير معلوم لهنَّ تحريمُه، فكيف يطلق أنَّهنَّ جئن ليبايعن على ذلك كلِّه؟

الجواب: إنَّهنَّ إمَّا عارفات لذلك لشهرة الإسلام به، فأمره الله تعالى بالتوثُّق منهنَّ في تلك الأمور المعروفة عندهنَّ، ولا يَخُنَّ ولا يُقصِّرن. أو الجواب: التلقين بأن يَشترِطَ ذلك كلَّه عليهنَّ، وأمرهنَّ بالقبول.

[نحو] و«شَيْئًا» مفعول مطلق، أي: إشراكًا مَّا، أو مفعول، أي: يجعلن شيئًا من الأشياء شريكًا له تعالى.

﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ شيئًا ولو من مال أزواجهنَّ، أو أمَّهاتهنَّ، أو آبائهنَّ، أو أولادهنَّ، إلَّا ما لزم لهنَّ، ومُنعنَ منه فلهنَّ أخذه[1]. ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ ولو بطفل أو بطفلة أو امرأة أو بأيديهنَّ أو نحوها ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ كما تقتل العرب بناتِهنَّ في الجَاهِلِيَّة.

[فقه] ومن قتل الولد أَكْلُ الدواء للسقط، أو فعل ما يسقط به، ولو لم ينفخ فيه الروح، لكن بالمعنى والحمل، فإنَّ القتل يختصُّ بما فيه الروح، وجاء الحديث: بأنَّ العزل قتل، بأن تعزل فرجها إذا أراد الزوج الإنزال فذلك قتل منها، وكذا هو إن عزل، فذلك قتل منه، فإذا كان ذلك قتلاً فإسقاط النطفة وما فوقها قتل بالأولى، ولو لم ينفخ فيه الروح.

ويجب اجتناب كلِّ دواء يقال: إمَّا أن يحيى الولد به وإمَّا أن يموت، بل تتداوى بما تطمع به الحياة فقط، وقد قالوا: لا تفعل ذات الزوج ما يُسْقِطُ مخافة أن يكون في بطنها نطفة أو ما فوقها، إلَّا حين لا ريبة.

﴿وَلَا يَاتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ لا يأتين بكلام يبهت ويتحيَّر به سامعه، إذا افتضح وظهر، وهو أن ينسبن لأزواجهنَّ ولدًا من زناهنَّ، أو ولدًا يلتقطنه أو يكسبنه من موضع مَّا، وينسبنه لأزواجهنَّ.

وذكر بين الأيدي والأرجل لأنَّ الولد يولد بين الأيدي والأرجل، أمَّا الأرجل فظاهر، وأمَّا الأيدي فكلُّ رِجل تتبعها يدٌ فوقها، وتَتَنَاوَل الولدَ

(1) كما في الحديث الذي رواه **البخاريُّ** في كتاب النفقات (9) باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه، رقم 5364، من حديث عائشة.

بالأيدي وتكبُّ عليه بهـا. وأيضًا البطن الذي هو محلُّ الولـد بين يديها من فوق وجوانب، وبين الأرجل من تحته.

أو البهتان: كناية عن الولد. وكنَّ يظهرن الحمل أوَّل أمره وعند قرب الولادة، ويقلن عند الوضع: قد ولدنا لك، وذلك امتنانٌ منهنَّ على الأزواج، كذا قيل.

وقيل: البهتان: الكذب على أحدٍ بالزِّنى أو بالسرقة أو غير ذلك مِمَّا لم يكن. وذكر الأرجل والأيدي كناية عن الـذَّات، لأنَّ معظم الأفعال بالأيدي والأرجل، كما يقال لمن فعل شـيئًا ولـو بغير اليد أو بالقلب أو اللِّسـان: كسَبَتْهُ يدُهُ.

أو المراد: بهتان يصَوِّرْنَه في قلوبهنَّ وينطقن به ظلمًا للنَّاس. وذكر الأيدي والأرجل لأنَّ القلـب مقابلٌ لِمَا بين الأيدي والأرجـل، ولو كان في الجانب الأيسر من الصدر.

وقيل: يبهتن الناس مواجهةً، ويـردُّه ذكر الأرجل، لأنَّه يقال: فعل كذا بين يَدَيَّ، أي: بحضرتي، بلا ذكر الأرجل.

وقيل: الآية كناية عن خرق الجلباب عن الحيـاء مطلقًا، كالبهتان والغيبة والكذب، وذكر ما لا يحسن. وقيل: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾: أن يقبِّلهنَّ، أو يقبِّلن غير من يحلُّ تقبيلـه. ﴿وَأَرْجُلِهِـنَّ﴾: الجماع. وقيـل: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾: اللسـان ﴿وَأَرْجُلِهِنَّ﴾: الجماع.

وقيل: البهتان السحر، وللنساء ميل إليه.

[نحو] وجملة «يَفْتَرِينَهُ» نعت لـ«بُهْتَانٍ» سواء كان بالمعنى المصدريِّ، أو بمعنى المبهوت به. و«بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ» حال من هاء «يَفْتَرِينَهُ».

﴿**وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ**﴾ في أمر معروف شرعًا، وهو نهي عن منكر، وأمر بما هو واجبٌ أو مستحبٌّ، فإنَّ ذلك النهي وذلك الأمر كلاهما معروف،

وعن أمِّ سلمة الأنصاريَّة: قالت امرأة من هؤلاء المهاجرات المريدات للمبايعة: ما هذا المعروف الذي أمرنا أن لا نعصيك به؟ قال: «**لا تَنُحْنَ...**» الحديث[(1)].

[قلت:] وهو دليل كالصريح على أنَّ النهي عن المعصية داخلٌ في المعروف، وما ذكر من الأمور المخصوصات في الأحاديث تمثيل، كشقِّ الجيب، ووشم الوجه، ووصل الشعر، يحمل على التمثيل، وعلى كثرة وقوعهنَّ من النساء، وتمزيق الثياب، وخمش الوجه، وحلق الشعر ونتفه، والتكلُّم للأجانب، والخُلُوُّ به، والنواح، وضرب الأرجل ليسمع صوت الخلاخل...

وفي البخاريِّ ومسلم: إنَّ امرأة من المبايعات لَمَّا نهاهنَّ عن النُّواح عَضَّتْ امرأة يدها فقالت: فلانة أسعدتني، فأنا أريد أن أجزيها، فسكت، فانطلقت ورجعت، فبايعها.

وفي النسائي قال: «**لا إسعاد في الإسلام**»[(2)]. والإسعاد أن تنوح معها جزاءً لنواحٍ تَقَدَّمَ منها لها.

ولفظه عن أنس: «إنَّ رسول الله ﷺ أخذ على النساء أن لا ينحن، فقلن يا رسول الله، نساء أَسْعَدَتْنَا في الجَاهِلِيَّة فنسعدهنَّ؟ فقال رسول الله ﷺ: **لا إسعاد في الإسلام**».

فَإِمَّا أن يتعدَّد طلب الإسعاد منهنَّ لا من كلِّهنَّ، وإمَّا أن يراد أنَّهنَّ راضيات بسؤال تلك الواحدة وناسب بحالهنَّ، فأسند إليهنَّ، وإمَّا أن يكون ذلك حكمًا على المجموع.

(1) يشير الشيخ إلى الحديث الذي رواه **البخاريُّ** في كتاب التفسير (3) باب ﴿إِذَا جَآءَكَ الْمُومِنَاتُ...﴾ رقم 4892، من حديث أمِّ عطيَّة.

(2) رواه **النسائيُّ** في كتاب الجنائز (15) باب النياحة على الميِّت، رقم 1851، من حديث أنس.

وفي أبي داود عن أَسِيد بن أبي أَسِيد عن امرأة من المبايعات كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ من المعروف أن لا نعصيه فيه: أن لا نخمش وجها، ولا ندعو ويلاً، ولا نشقَّ جيبًا، ولا ننشر شعرًا[1].

[قلت:] وحكمة لفظ ﴿مَعْرُوفٍ﴾ مع أنَّه لا يأمر بالمنكر التنبيه على أن لا يطاع مخلوق في معصية خالق، حتَّى إنَّه لو أمرهُنَّ النبيء بالمعصية لم يجز لهنَّ اتِّباعه فيها، حاشاه عن ذلك ﷺ. أو المعروف على ظاهره وخُصَّ بالذكر لذلك، والوثوق بأنَّه لا يأمر بمنكر.

﴿**فَبَايِعْهُنَّ**﴾ اقْبَلْ مبايعتهنَّ بضمان الثواب على الوفاء بما ذكر ﴿**وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ**﴾ زيادة على قبول المبايعة وضمان الثواب ﴿**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ فهو يقبل مبايعتهنَّ إن أوفين.

والسورة مَدَنِيَّة، فهذه المبايعة تعمُّ مبايعة المهاجرات في المدينة، والمبايعة للنساء يوم الفتح، وأوَّلها مبايعة المهاجرات في المدينة، وهي سبب النزول. وقيل: بايعه أهل المدينة حين هاجروا، وأوَّل من بايعت من النساء فيها أمُّ سعد بن معاذ، وكبشة بنت رافع، ومن معهنَّ.

[فقه] وعن مقاتل بايع رسول الله ﷺ الرجال على الصفا وبايع عمر تحته النساء. ولا يمسُّ يد واحدة، وإن مسَّ فمن فوق الثوب، ويد المرأة ولو كانت غير عورة لَكِنَّ المسَّ أشدُّ من النظر. وعن أميمة بنت رقيَّة: «بايعنا النبيء ﷺ على أن لا نشرك بالله شيئًا، إلى أن بلغ: ﴿فِي مَعْرُوفٍ﴾ فقال: فيما استطعتنَّ، فقلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا يا رسول الله، ألا تصافحنا؟ فقال: إنِّي لا أُصافحُ النِّساء، وقَوْلي لمائة امرأة قَوْلي لواحدة» فقد بايعهنَّ ﷺ بلا مَسٍّ، كما صافحهنَّ عمر. وجملة المبايعات أربعمائة وسبع وخمسون.

---

(1) رواه **أبو داود** في كتاب الجنائز، باب في النوح، رقم 313 من حديث أسيد بن أبي أسيد.

وفي الترمذيِّ عن أميمة بنت رقيَّة: بايعت رسول الله ﷺ وعلى آله في نسوة، وقال لنا: «فيما استطعتنَّ وطقتنَّ» فقلنا: الله ورسوله أرحم بنا منَّا بأنفسنا، قلت: يا رسول الله بايِعْنَا، تعني: صافحنا، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة**»[1]. والمبايعة متعدِّدة في مواضع.

وعن الشعبيِّ: صافحهنَّ بيده واضعًا عليها ثوبًا قَطْوِيًّا[2]، كما في رواية، وهو ثوب مطروح، كما هو المتبادر من رواية: «بايعهنَّ وبين يده وأيديهنَّ ثوب قطويٌّ»، ويجوز أن يكون على بدنه لا مطروحًا.

[قلت:] ولعلَّه بايعهنَّ تارة بلا مصافحة وتارة بها، وعلى يده الثوب، وتارة بماء في إناء وضع يده فيه، ورفعها ثمَّ كنَّ يضعن أيديهنَّ فيه، فلعلَّ أميمة طلبت المبايعة بالمسِّ بلا حائل، وقد صافحها في الماء، أو بالكلام فقط، فطلبت المبايعة ولو على ثوب.

والأشهر أن لا مصافحة. وعن أسماء بنت يزيد بن السكن: كنت في المبايعات في مكَّة مع هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، وَلَمَّا قال: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ﴾ قالت: كيف يقبل منَّا ما لم يقبل من الرِّجال؟ تعني أنَّ هذا ظاهرٌ، وَلَمَّا قال: ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ قالت: أصبت الشيء الهيِّن من مال أبي سفيان، قال أبو سفيان: حلَّ لكِ ما مضى وما يأتي، فضحك ﷺ، وقال: إنَّك لهند بنت عتبة، وقد أساءت إليه قبلُ فقالت: «اعفُ عمَّا سلف يا رسول الله عفَا الله عنك» وذلك لِمَا مثَّلت بحمزة حين قُتل رضي الله عنه.

وَلَمَّا قال: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ قالت: أَوَتَزْنِي الحُرَّةُ؟ تعني: لأنَّ الزنى في الحرائر قليل عند الجَاهِلِيَّة، وإنَّما تزني الإماء ونساء مخصوصات حرائر،

(1) رواه **الترمذي** في كتاب السير (37) باب ما جاء في بيعة النساء، رقم 1579، من حديث ابن المنكدر.

(2) في اللسان: كساء قطواني وقطويٌّ نسبة إلى موضع بالكوفة، وقال الجوهري: القطواية: عباءة بيضاء قصيرة المخمل، والنون زائدة.

يجعلن لأنفسهنَّ علامات تسمَّى الرايات، وَلَمَّا قال: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ﴾ قالت: ربَّيناهم صغارًا وقَتَلْتَهُم كبارًا فأنتم وهم أعلم. تعني ابنها حنظلة بن أبي سفيان، قتل يوم بدر، فتبسَّم رسول الله ﷺ وضحك عمر حتَّى استلقى.

وروي أنَّها قالت: قتلت الآباء وتوصينا بالأولاد؟ فضحك ﷺ، وقال: ﴿وَلَا يَاتِينَ بِبُهْتَانٍ﴾ فقالت: البهتان أمرٌ قبيحٌ، وإنَّما يأمرنا الله بالرُّشْد ومكارم الأخلاق، وقال: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء، واجترأت على هذه الأجوبة لقوَّة قلبها، ولأنَّها حديثة عهد بجاهليَّة، ولمكان أمِّ حبيبة من رسول الله ﷺ.

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ هم يهود المدينة، لأنَّ قومًا من فقراء المؤمنين يواصلونهم ويخبرونهم بأخبار المسلمين، ليصيبوا من ثمارهم، ولأنَّ اليهود هم المذكورون بلفظ الغضب في مواضع من القرآن[1]، ومع ذلك يعتبر عموم اليهود وعموم المؤمنين لا خصوص السبب، وقيل: عموم اليهود والنصارى، وقيل: كُفَّار قريش، وقيل: الكفرة مطلقًا.

﴿قَدْ يَئِسُواْ مِنَ الَاخِرَةِ﴾ نعت «قَوْمًا»، وقيل: مستأنف، واليهود يئسوا من الآخرة، أي: من خيرها لعنادهم، مع علمهم برسالة رسول الله ﷺ، وقد آمنوا بالآخرة، وهذا ممَّا يقوِّي تفسير القوم المذكورين في الآية باليهود الذين في المدينة، وكذا بعض النصارى.

وعلى تعميم أهل الكتاب أو المشركين يكون إيَّاس بعض إنكارًا للآخرة، وإيَّاس بعض من نعمها، وعلى إرادة مشركي مكَّة فالإيَّاس إنكار للآخرة.

---

(1) كما في البقرة آية 61 والأعراف آية 71 وآية 152.

﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ﴾ المنكرون للبعث ﴿مِنَ اَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أي: من بعث أصحاب القبور، أو كما يئس الكُفَّار الموتى أصحاب القبور من الرجوع إلى الدنيا، و«مِنْ» للابتداء. أو كما يئس الكُفَّار الذين هم أصحاب القبور من خير الآخرة، ومن أن ينالهم خير من هؤلاء الأحياء، و«مِنْ» للبيان.

والله أعلم.

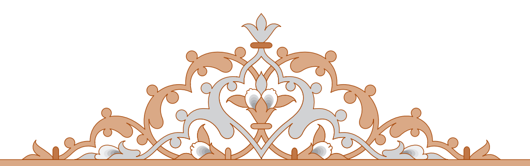
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



61

تفسير سورة الصَّفِّ

مدنيَّة وآياتها 14 ـ نزلت بعد سورة التغابن



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿1﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿2﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿3﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿4﴾﴾

التنديد بعدم مصاحبة الأفعال للأقوال والدعوة إلى القتال في سبيل الله

[سبب النزول] ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال عبد الله بن سَلَام: قعدنا نفرا من أصحاب رسول الله ﷺ، فتذاكرنا لو علمنا أيَّ الأعمال أحبَّ إلى الله تعالى لعملناه، فأنزل الله سبحانه: **﴿سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾** فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتَّى ختمها، رواه الترمذيُّ[1].

(1) رواه **الترمذيُّ** في كتاب التفسير (62) باب ومن سورة الصفِّ، رقم 3309، من حديث عبد الله بن سَلَام.

وروي أنَّ المؤمنين قالوا: «لو علمنا أحبَّ الأعمال إلى الله تعالى لعملناه وبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا»، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الذِينَ يُقَاتِلُونَ﴾ ونزل قوله تعالى: ﴿هَلَ ادُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ...﴾ إلخ فابتلوا في أُحُد فَوَلَّوْا مدبرين وكرهوا الموت، فنزل قوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

وقيل: لَمَّا أخبر الله تعالى رسول الله ﷺ بثواب أهل بدر، قالت الصحابة: لئن لقينا قتالا لنفرغنَّ فيه وسعنا، ففرُّوا يوم أحد، فعيَّرهم الله تعالى بهذه الآية.

وعن الضحَّاك: إنَّ شبابا من المسلمين يقولون: فعلنا في الغزوِ كذا، ولم يفعلوا، وقيل: كان الرجل يقول: قاتلت ولم يقاتل، وأطعمت ولم يُطعم، وضَربت ولم يَضرب، وقيل: إنَّه قول المنافقين: نحن منكم ومعكم ننصركم، ثمَّ يظهر من أفعالهم خلافُ ذلك، وعليه فنداؤهم بـ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا﴾ تَهَكُّمٌ بهم.

والمعنى: لأيِّ شيء تُثْبِتون لأَنفسكم بألسنتكم فعلَ ما لم تفعلوا من الخير والمعروف؟ والاستفهام توبيخٌ، ومدار التوبيخ القولُ كما هو الظاهر، إِذْ لَمْ يصدُقُواْ فِيهِ لَا عَلَى عَدَمِ فِعلِهِمْ، لأَنَّهُمْ يذكرون أفعالا غير واجبة عليهم بعينها، ولا متعيِّنة الوجوب بأعيانها، وإنَّما الواجب الجهاد كيفما اتَّفق.

وهذا خلاف ما قال بعض: إنَّ مدار التوبيخ في الحقيقة عدمُ فعلهم، وإنَّما وجه على قولهم تنبيهًا على تضاعف معصيتهم ببيان أنَّ المنكرَ لَيسَ تركُ الخير الموعود فَقَطْ، بَلْ الوعد أيضًا، وقد كانوا يحسبونه معروفا.

ولو سلَّط التوبيخ على الفعل فقيل: لم لا تفعلون ما تقولون؟ لَفُهِمَ أنَّ المنكر خلاف الوعد، والصحيح ما ذكرت.

وعن إبراهيم النخعي: أكره القصّ لثلاثِ آياتٍ قوله تعالى: ﴿أَتَامُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: 44]،

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ اخَالِفَكُمُوٓ إِلَىٰ مَآ أَنهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [سورة هود: 88]، وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ...﴾ إلخ.

[قلت:] وينبغي لمن أراد الوعظ بفضل شيء أو غيره أن يعمل به قبلُ، لتقبله القلوب، ولئَلَّا يدخل في هؤلاء الآيات الثلاث. قيل لبعض السلف: حَدِّثْنَا، فقال: أتامرونني أن أقول ما لا أفعل فأستعجل مَقْتَ الله؟.

﴿**كَبُرَ**﴾ فيه ضمير مفسَّر بقوله تعالى: ﴿**مَقْتًا**﴾ بالنصب على التمييز. والمخصوص بالذمِّ المصدر من قوله تعالى: ﴿**عِندَ اللهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾ أَوْ هذا فاعل والمخصوص محذوف، أي: قولكم: كذا وكذا. والمقت أشدُّ البغض. وإذا كان ذلك كبيرا وجبت مجانبتُه فكيف وهو أكبر وأشدُّ؟. وقيل: المقت البغض من أجل ذنب أو ريبة أو دناءة يصنعها إنسان، وقال المبرِّد: رجل ممقوت: يبغضه كلُّ أحد.

وبعد النهي عمَّا يبغض اللهُ من إثبات فعل ما لم يثبت ذَكَرَ ما هُو محبوبٌ عند الله تعالى بقوله: ﴿**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الذِينَ يَقَاتِلُونَ**﴾ أَعداء الله تعالى ﴿**فِي سَبِيلِهِ صَفًّا**﴾ حالٌ، أي: صَافِّينَ أنفسهم، أو مصفوفين كصفوف الصلاة لا خَلَلَ فيها، وهذا ظاهر في القتال على الأرجل، لكن لا مانع من أن يصطفَّ فارس مع الرّجال على فرَسِه، بل في كتب الفقه أنَّ السارية ونحوها لا تقطعان الصفَّ في الصلاة، وأيضًا يمكن اصطفاف الفرسان على حدة أو في جانب والرجال على حدة، **لا زالت صفوف الإسلام منصورة وصفوف الكفر مختلَّة مقهورة.**

﴿**كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ**﴾ إخبار باللَّائق وبالشبه لا إنشاء للتشبيه.

[نحو] فصَحَّ أن يكون حالاً، ولو كان إنشاء لم يصحَّ أن يكون حالاً، وما ذلك إلَّا كالتشبيه بالكاف، إِلَّا أنَّه أقوى من التشبيه بالكاف، وصَاحِبُ الحال الضمير المستتر في «صَفًّا»، إذ كان بمعنى: صافّين، أو حال ثانية من «الذينَ»

أو الواو. قيل: أو نعت لـ«صَفًّا»، وفيه أنّه بمنزلة اسـم الفاعل أو المفعول كما رأيت، فلا يحسن أن يكون منعوتا.

[لغة] والمرصـوص: المعقود بالرصـاص، والمراد المُحكـم، ويُقال: رَصَصْتُ البناء ضممت أجزاءهُ حتَّى كأنَّه قطعة واحدة، وقيل: المراد اسـتواءُ نياتهم في الثبات واجتماع الكلمة والإخلاص.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿5﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿6﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿7﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿8﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿9﴾﴾

الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله
وبشارة عيسى برسول الله ﷺ

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولَ اللهِ إِلَيْكُمْ﴾ اذكر يا محمَّد لقومك المعرضين عن القتال ليتركوا الإعراض عنه، وللمقاتلين غير المعرضين ليدوموا على ذلك ويزدادوا، وقْتَ قول موسى عليه السلام لقومه: لِمَ تضرُّونني بترك قتال الجبَّارين الذي أمركم الله تعالى به حتَّى قلتم: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ...﴾ إلخ؟ [سورة المائدة: 22]، وحتَّى قلتم: ﴿إِذْهَبَ انت وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [سورة المائدة: 24]، والحال أنَّكم معتقدون أنَّ رسالتي من الله عز وجل لأُرشدكم إلى خير الدنيا والآخرة بالمعجزات الباهرة، كالعصا والإنجاء من الغرق بفرق البحر، وإغراق عدوِّكم؟

ويجوز تعليق «إِذْ» بمحذوف تقديره بَعْدَ «إِلَيْكُمْ»: زاغوا، أو أصرُّوا، أو ضلُّوا لا قبلَ «إِذْ»، ليعود الضمير إلى متقدِّم، وذلك لمناسبة ما قبله من القتال، أوْلَى من تفسير الإيذاء بالأُدْرَة[1] التي يكذبون بها عليه، أو برص كذلك وعبادة البقر، وطلب رؤية الله تعالى، والتكذيب ببعض آيات الله تعالى، وعدم الصبر على طعام واحد.

﴿**فَلَمَّا زَاغُواْ**﴾ مالوا عن الحقّ وقبوله زيغًا أوَّلاً، أو زيغا غير أوَّل، وذلك باختيارهم، وهو أيضا مخلوق لله تعالى ﴿**أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ**﴾ أبقاها على الزيغ، أو لَمَّا اختاروا الزيغ أحدثه الله في قلوبهم، أو لَمَّا أصرُّوا على الزيغ زادهم الله زيغا، أو لَمَّا زاغوا بألسنتهم وجوارحهم عن قلوبهم أرسخ الله الزيغ فيها، أو لَمَّا كانوا على حال تُؤَدِّي إلى الزيغ كقسوة القلب واتِّباع الشهوة أزاغ الله قلوبهم.

﴿**وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ أي: لا يهديهم، أي: هؤلاء المذكورين، ولكن أظهر ليذُمَّهم بالفسق الموجب للزيغ، ويُقاس عليهم لتعليق الحكم بالمشتقّ. أو المراد عموم الفاسقين، فيدخل هؤلاء أوَّلاً.

والمراد هُدى توفيقٍ وعِصمةٍ، وأمَّا هدى البيان فعمَّت كلَّ مكلَّف ولو شقيًّا، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [سورة المائدة: 25]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَاسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [سورة المائدة: 26].

﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ**﴾ عطف على «إِذْ» الأولى بلا إخفاءٍ إذا قدَّرنا في الأولى: «اذكر»، ولا حاجة إلى تقدير: «اذكر» مع قرب «إِذْ» الأولى، وظهور المعنى، فلو قدَّر أحدٌ عاملاً لعمرو في قولك: أكرم زيدا، فإنَّه أهل لأن

(1) أي مصاب بالأُدْرَة، وهو نوع من الفتق. راجع: الجزء 10، ص 369.

يكرم عمرًا لَـكَانَ كالعبث، نعم إنْ نُصِـب «إِذْ» الأولى بـ«زَاغُـوا» أو نحوه محذوفا، قُدِّرَ لهذا «اذكر».

﴿يَا بَنِي إِسْـرَآئِيلَ﴾ لم يقل: يا قومِ كموسـى ﷺ، لأنَّ نسبه في بني إسـرائيل من أمِّه فقط، لا مـن أب ولا أبَ لـه، بل هو خلـق من الله ﷻ، والنسـب يعتبر بالأب فـي العادة، وفي الأصالة، وللإشـارة إلـى أنَّه عامل بالتوراة، وأنَّه مثلهم في أنَّه من بني إسرائيل، لأنَّ أمَّه منهم، هضما لنفسه بأنَّه لا أتباعَ له ولا قوم.

وفي ذلك استعطاف بالخضوع، واستعطاف إليهم بأنَّه مثلهم في العظمة، بأنَّه من أولاد بني إسرائيل، وكانوا يتعاظمون بكونهم من بني إسرائيل.

﴿إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ﴾ بالإنجيل واتِّباع التوراة والزبور والصحف، كما قال الله ﷻ: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَـا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاٰيةِ﴾ لِمَـا حَضَرَنِي من التوراة، وخصَّها بالذكر لعظمها.

و«مُصَدِّقًا» حال من المسـتتر في «رَسُـولٍ»، لأنَّه فعـول بمعنى مفعول، كحلوب بمعنـى محلوبة، إلَّا أنَّه فـي الوصف من الثلاثـيِّ لمعنى الرباعيِّ، كاسم المصدر من الثلاثيِّ لمعنى المزيد عليه، كـ«اغتسل غسلا»، والرباعيُّ: أَرْسَلَ. وَذَكَرَ تصديقه بالتوراة ليجلبهم إلى الإيمان به.

﴿وَمُبَشِّـرًا﴾ لكم ﴿بِرَسُولٍ يَاتِي مِنۢ بَعْدِيَ﴾ تبشـيرًا تضمَّنته التوراة، وقد بسـطتُّ أدلَّة نبوءة سيِّدنا محمَّد ﷺ ورسـالته من الكتب المتقدِّمة في «ردِّ الشرود إلى الحوض المورود»[1]، فمن ذلك ما في الفصل العشرين من السـفر الخامس منها: «أَقْبَلَ اللهُ من سـيناء وتجلَّى من سـاعير» (بالراء أو

(1) رسـالة للمؤلِّف طبعت طبعـا حجريًّا فـي إثبات نبـوءة محمَّد ﷺ من الكتـب القديمة كالإنجيل والتوراة.

النون، روايتان)، وإقبال الله إقبال وَحْيه، ومن هو على يده، «وظهر من جبال فاران» في مَكَّة، «ومعه آلاف من الصالحين». وفي لفظ: «معه الربوات الأطهار عن يمينه».

وفي الفصل الحادي عشر من هذا السفر: «يا موسى إنِّي سأُقيم لبني إسرائيل نبيًّا من إخوتهم مثلك، أجعل كلامي في فَمِه، ويقول لهم ما آمره به، ومن لا يقبل قول ذلك النبيء الذي يتكلَّم باسمي أنتقم منه، ومن سِبطه»، أي: أتباعه، وقال: «من إخوتهم» لأنَّه من ولد إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ أخي إسحاق لا من أولاد إسرائيل وهو يعقوب.

[صرف] ﴿**اسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ**﴾ أصله اسم تفضيل من المبنيِّ للفاعل، أي: أعظم الخلق حمدًا لله تعالى، أو أكثرهم حمدًا له تعالى. وأمَّا أن يكون اسم تفضيل من المبنيِّ للمفعول، أي: حَمِدَهُ اللهُ تعالى أكثر من حَمْدِ غيره، أو حَمِدَهُ الخلقُ أكثر ممَّا حمدوا غيرَهُ ـ والخلق يشمل الملَكَ والجماد والحيوانات ـ أو [حَمِدَهُ] اللهُ تعالى وخَلْقُهُ بفضله، أو أعظَمَ اللهُ وخَلقُهُ حَمْدَهُ، فلا دليل عليه، لأنَّ بناء اسم التفضيل من المبنيِّ للمفعول غير مقيس، ولا دليل عليه هنا، ولو ورد في قولهم: «فالعَودُ يَا أَحْمَدُ أَحْمَدُ».

وقبَّح الله النصارى، أنكروا رسالة سيِّدنا محمَّد ﷺ، وحرَّفوا الإنجيل ليقولوا للناس: ما وجدناه فيه. عن كعب الأحبار: «إنَّ الحواريِّين قالوا لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا روح الله هل بعدنا من أمَّة؟ قال: نعم يأتي بعدكم أمَّة أحمد، حكماء علماء أبرار أتقِياءَ، كأنَّهم في الفقه أنبياء، يرضون من الله باليسير من الرزق، ويرضى عنهم باليسير من العمل».

وفي البخاري ومسلم عن جبير بن مطعم: قال رسول الله ﷺ: «**لي خمسة أسماء: أنا محمَّد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الباطل** ـ ويروى:

الكفر ـ **وأنا الحاشر الذي يحشـــر الناس على قدمي يوم القيامة، وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبيء**»[(1)]. وقد ذكرت أحاديث الإنجيل وكتب أشعياء وغيرها الدالَّة على رسالته ﷺ في «ردُّ الشرود»[(2)].

ومن ذلــك ما ذكر في الفصــل الخامس عشــر من إنجيــل يوحنًّا: «قال المســيح: من يحبُّني يحفظ كلمتي، وأبي يحبُّ الفارقليــط روح الحقِّ الذي يُرســله أبي يُعلِّمكم كلَّ شــيء، وإليه يأتي وعنده يُتَّخذ المنزلة، وقلت لكم لتحفظوا، فإنِّي لا أقيم فيكم، فَبَلِّغُوهُ ســلامي، وإنِّي إن لم أذهب إلى أبي لم يأتكم الفارقليط ويعلِّمكم ما للأب».

وعندهم في الإنجيل وغيره اســتعمال الأب بمعنى الــربِّ والعظيم، كما تقــول المغاربة البربريَّــة: «بَابَا رَبِّي»، ومــا زال اليهود والنصــارى إلى الآن يزيدون كذبا وتحريفا لعنهم الله ﷻ، ولعن من يُعينهم.

لَمَّا ســمعوا بنزول الوحــي عليه في الجبــل قالوا: علَّمه فيه بشــر، قال أبو موسى: سمعت النجاشيَّ يقول: «أشهد أنَّ محمَّدا رسول الله ﷺ وأنَّه الذي بشَّــر به عيســى، ولولا ما أنا فيه من الملك وما تحمَّلت فيه مــن أمر النَّاس لأتيتُه حَتَّى أحمل نعليه». أخرجه أبو داود[(3)].

ويُروى أنَّه قال لرسول الله ﷺ: إن أمرتني أن آتيك آتيك. وعن عبد الله بن ســلام: «مكتوب في التوراة صفةُ محمَّد، وعيســى بن مريم يدفن معه»، وفي البيت [بيت عائشة] قيل: موضع قبر عيسى عليه السلام.

---

(1) تقدَّم تخريجه، انظر: ج 11، ص 314.

(2) **القطب اطفيَّش**: ردُّ الشرود إلى الحوض المورود، ورقة 19 وما بعدها.

(3) رواه **أبو داود** في كتاب الجنائز، باب في الصلاة على المســلم يموت في بلاد الشرك، رقم 3205. من حديث أبي بردة عن أبيه.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ عيسى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ كإحياء الموتى بإذن الله، وإبراء الأكمه والأبرص ﴿قَالُوا هَذَا﴾ أي: ما أتى به من البيِّنات ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أو الإشارة لعيسى. و«سِحْرٌ» بمعنى ساحر، أو ذو سحر، أو مبالغة، ويؤيِّد التفسير بساحر قراءة يحيى بن وثَّاب: «هَذَا سَاحِرٌ». والإضمار في «جَاءَ» لعيسى، وهو المحدَّث عنه، أو ضمير «جَاءَ» للنبيء ﷺ آمنوا به.

﴿وَمَنَ اظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى الِاسْلَامِ﴾ لا أظلم مِمَّن يُدعى إلى الإسلام وهو دين اللهِ الحقّ الذي به النجاة والفوز، ويضع موضع الإيمان الافتراءَ على الله، بإثبات ما نُفِيَ، ونَفْيِ ما أُثبت، وهم اليهود، وكذا النصارى. ومن آمن منهم ولم يكفر سمِّي مسلمًا، وليس اسم الإسلام مختصًّا بهذه الأمَّة.

﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ هداية توفيق، بل هداية بيان، ويجوز أن تقول: هداية إرشاد بمعنى هداية تبيين، تقول: أرشدتُهُ، أي: بيَّنت له الرشاد ولم يرتشد، ويقال: أرشدته صيَّرته راشِدًا وهذا هو المنفيُّ عنهم.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ مفعول «يُرِيدُ» محذوف، واللَّام للتعليل، أي: يريدون الافتراء ليطفئوا، أو يريدون إبطال القرآن بالتكذيب، أو يريدون إبطال حجج الله تعالى، أو يريدون إهلاك رسول الله ﷺ بالأراجيف، أو إبطال شأنه ﷺ، أو إبطال ظهوره، ومأصدق ذلك كُلِّه واحد، وكلُّ ذلك غير إطفاء النور، على أنَّ إطفاءَهُ هو إزالةُ ما يتولَّد من شهرة الدلائل والحجج، وما ذكر والعمل به.

[نحو] وإن شئت فاللام صلة. ومصدر «يُطفِئ» مفعول «يُرِيدُ». وحرف المصدر محذوف هو «أَنْ». وبعضٌ جَعَلَ اللام حرف مصدر، فالمصدر مفعول.

[سبب النزول] أبطأ الوحي على رسول الله ﷺ أربعين يوما، فقال كعب بن الأشرف لعنه الله لليهود: أبشروا أطفأ الله نور محمَّد فيما كان ينزل

عليه، وما كان ليتمَّ نوره. فحزن رســول الله ﷺ فنزل قوله تعالــى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُــواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وتســمية ذلك نورا على الاســتعارة التصريحيَّة، ويجوز أن يكون الكلام استعارة تمثيليَّة.

﴿**وَاللهُ مُتِمُّ نُــورِه**﴾ إبْطالا لدعواهم وتهكُّمًا بهــم، كما تقول: فلان يطفئ نور الشمس، بمعنى يجحد ما لا يخفى. ﴿**وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾ إتمامه.

﴿**هُوَ الذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ**﴾ محمَّدا ﷺ ﴿**بِالْهُدَىٰ**﴾ بالبيان والإرشاد، وهذا معنى مصدري، وتلاوة القرآن إرشاد وبيان لسامعه، ولا مبالغة في ذلك، وكذا إيقاع المعجزة بيان وإرشــاد، وهي داخلة في الهــدى. وإن جعلنا ﴿الهُدَى﴾ بمعنى الاهتــداء، أو بمعنى نفس القُــرآن لا بِقَيْد تلاوتِــه، أو نفس المعجزة لا بقيد إيقاعها، فإطلاق الهدى عليها مبالغة.

﴿**وَدِيــنِ الْحَقِّ**﴾ معاني القــرآن والعمل بهــا. ﴿**لِيُظْهِــرَهُ**﴾ يعليه ﴿**عَلَى الدِّينِ**﴾ «ال» للاستغراق، ونصَّ عليه بقوله تعالى: ﴿**كُلِّهِ**﴾ أديان الكفرة ﴿**وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ وهذا وعدٌ أنجزه الله تعالى بعد رسول الله ﷺ.

ولا دين شِــركٍ إلَّا مقهور بدين الإســلام، كما في زمان هارون الرشيد، ويســمَّى زمانُه: عرس الإســلام. وعــن مجاهــد: إنَّ هذا في زمــان نزول عيسى عليه السلام لا يكون في الأرض إلَّا دين الإسلام، ولو تقدَّم قبله زمان لم يبق للإسلام فيه إلَّا اسمه.

وقيل: المراد بإظهاره على الدين **كلِّه الإعــلاءُ بالدلائل والبراهين، وهذا في كلِّ وقت لا ينقطع.**

[نحو] ومن العجيب جعلهم ﴿وَلَوْ كَرِهَ...﴾ إلخ في الموضعين حالا، مع أنَّه خــارج عن أن يكون مفردًا، وعــن أن يكون كلاما تامًّــا. وإن جعلنا الواو عاطفة على محذوف والمحذوف حالاً صــحَّ، أي: لو لم يكره الكافرون، ولو

كره الكافرون، أو لو لم يكره المشركون ولو كره المشركون، ومع هذا ما صحَّ إلَّا بتأويل بقولك: مطلقا.

وعبَّـــر أوَّلاً بـ﴿الْكَافِرُونَ﴾ لظهـــور أنَّ النور نعمة عند كلِّ أحد تســـتحقُّ الشـــكر وهم كفروها، بخلاف ما يقول الشـــارع: إنَّه هدًى، ولم يذكره باسم النور فإنَّ منكريه لم يقرُّوا أنَّه نور، ولا أنَّ الله سمَّاه باسم النور.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾

الدعوة إلى خيرِ تجارةٍ: الإيمان والجهاد في سبيل الله

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا﴾ بألسنتهم دون قلوبهم، أو إيمانًا ضعيفًا، ناداهم ليُخْلصوا إيمانهم، ويجاهدوا في سبيل الله بإخلاص، فتحصل لهم بذلك المغفرةُ، وإدخال الجنَّة.

وإنْ أريد المؤمنون الخلَّص فعلى طريق التهييج والإلْهَابِ بالدوام على ما هم عليه من الإيمان والجهاد والزيادة.

وجمَعَ الجهاد إلى الإيمان إن لم يقع قبلُ، كقولك: يا أهل الله جاهدوا في سبيل الله، ويقوّي هذا قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ...﴾ إلخ، لأنَّ المنافقين ومَن ضَعُفَ إيمانه لا رغبة لهم في نصر دين الله والفتح، بل للمنافقين رغبة في نصر الشرك، إلَّا أن يقال: وأخرى تحبُّونَها إن أسْلمتم، وأخلصتم.

﴿هَلَ اَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾ عظيمة ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ اَلِيمٍ﴾ يوم القيامة، وتوصلكم إلى دائم النعيم يوم الندامة ﴿تُومنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ جواب سؤال، كأنَّه قيل: ما هذه التجارة؟ فقيل: ﴿تُومِنُونَ﴾ والمعنى الأمرُ، أي: آمنوا وجاهدوا، بدليل جزم «يَغْفِرْ» و«يُدْخِلْ» في الجواب، ويدلُّ لذلك أيضا قراءة ابن مسعود: «آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَجَاهِدُوا» بصورة الأمر، وقراءة زيد بن عليٍّ: «تُؤْمِنُوا وَتُجَاهِدُوا» بحذف النون، على تقدير دخول لام الأمر، وفيها دخول لَامِ الأمر على مضارع المخاطب، وهو ضعيف.

وإنَّما جيء به بصيغة الإخبار إيذانا بوجوب الامتثال، حتَّى كأنَّه قد وقَع الإيمانُ أو إخْلاصُه والجهاد، فهو تعالى يخبر بهما واقعين في الحال، مستمرَّيْن أو مستقبلين، لا يتخلَّفان.

[نحو] وقال الأخفش: المضارعان خبران لفظا ومعنًى، مصدرهما بدلٌ من «تِجَارَةٍ»، إمَّا على حذف حرف المصدر ورفع المضارع بعد حذفه، كما هو وجه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ـ ايَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾ [سورة الروم: 24]، وكقوله: «ألا أيهذَا الزاجري أَحضر الوغى»[1]، أي: الذي يزجرني أن أحضر الوغى لئلَّا أموت. وإمَّا على تقدير حرف مصدر غير ناصب كـ«مَا»، وكلاهما خلاف الأصل. وإمَّا على تنزيل المضارع منزلة الاسم كما هو وجهٌ في «أَنْ تسمع بالمعيدي خير من أن تراه».

﴿ذَالِكُمْ﴾ ذلكم الإيمان والجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمُوٓ﴾ نفع لكم، وهو مقابل المضرَّة، أو أفضل لكم من أموالكم الممسكة وأنفسكم وأولادكم، أو أفضل لكم على الإطلاق.

(1) تمام البيت: «وأن أشهَدَ اللَّذَّاتِ هل أنت مُخْلِدِي؟»
والبيت من الطويل لطرفة بن العبد، وهو من الشواهد. انظر: إميل يعقوب: المعجم المفصَّل في شواهد اللغة، ج 2، ص 431.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم من أهل الإدراكِ لِلْمَصالح. وجواب «إِنْ» أغنى عنه ما قبله، على معنى: يظهر لكم أنَّ ذلك خير لَّكم إن كنتم تعلمون، أو يقدَّر: إن كنتم تعلمون مصالِحَكُم ظَهَر لكُم أنَّه خير لكم. ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾.

[نحو] إنْ لم يُجْزَمَا [أي: «يَغْفِرْ» و«يُدْخِلْ»] في جواب الأمر ـ كما إذا قيل: تؤمنون وتجاهدون إخبارٌ لفظا ومعنًى ـ فالجزم بـ«إِنْ» محذوفةً، أي: إن آمنتم وجاهدتم يغفر لكم... إلخ، أو في جواب استفهام محذوف، أي: هل تؤمنون وتجاهدون؟ أو هل تتَّجرون بالإيمان والجهاد؟ أو هلْ تقبلون أن أدلَّكم على تجارةٍ يُغفر لكم؟.

ويجوز جزمه في جواب الاستفهام المذكور في الآية، باعتبار أنَّ دلالته ﷺ على التجارة مظنَّة لحصول الامتثال بالتَّجْرِ فنُزِّلَت منْزِلَةَ المحَقَّقِ؛ فلا يعترض بأنَّ مجرَّد الدلالة لا يوجب المغفرة، وإدخال الجنَّة، وهذا الوجه إنَّما يتمُّ بشرط أنَّ الخطاب للمؤمنين المخلصين الراسخين، فهم الذين تتأثَّر فيهم الدلالة، كأنَّه قيل: هل تتَّجرون تجارة؟.

ومعنى طيب المساكن حسنُها في ذاتها، بحيث تستلذُّ في النفس، فكيف وهي في جنَّات عدن! والمراد هنا: الشجر والنخل والنبات، لا الدار المضادَّة لدار الأشقياء، بدليل مقابلتها بالمساكن، لَكِنَّ تلك الأشجار والنخل والنبات في دار السعداء فَلَهُم فيها أجنَّةٌ ومسَاكِنُ، والمراد بـ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾: طبقاتُ دارِ السعداء، وهنَّ ثمانٍ، كما أنَّ طبقات دار الأشقياء سبع.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من المغفرة وإدخال الجنَّات والمساكن الطيِّبة ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: المفوز به، أو موجب الفوز العظيم، أو حاصل الفَوْزِ العظيمِ، أَو

يُقَدَّرُ المضاف أوَّلاً، أي: نيـلُ ذلك هو الفوزُ العظِيمُ الذي لا فـوزَ فوقَهُ، إلَّا كونُ أهله قد رضي الله عنهم، فإنَّه فوق كلِّ خير.

[نحو] ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ مبتـدأ خبره محذوف، أي: ولكم نعمة أخرى مع تلك المغفـرة وذلك الإدخـال، أو مع ذلـك الفـوز، و«تُحِبُّونَهَا» نعت لـ«أُخْرَى» ولو كان وصفًا، لأنَّ وصفِيَّتَهُ ليست غير المغايرة، أو نعت لمنعوته المحذوف وهو النعمة.

[نحو] ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ بدل من «أُخْرَى»، أو عطف بيان، على جوازه في النكرات، أو خبر لمحذوف، أي: هي نصر، والأصْلُ عدم الحذف. أو «أُخْرَى» مبتدأ خبره «نَصْرٌ» وليس فيـه أنَّ لهم الأخرى لكن تلويح. أو «أُخْرَى» مفعول لمعطوف علـى «يَغْفِرْ» محـذوف، أي: ويُعْطِكُمْ أخـرى هي نصر. أو منصوب بـ«تُحِبُّ» محذوف على الاشتغال، وليس فيه أنَّها لهم إلَّا بالتلويح.

والفتحُ القَريـبُ فتحُ مكَّةَ، أوْ مُطلَقُ فُتُوحِ الإسـلامِ، أو نُـزُولُ مُطلَقِ الخَيْرِ والنعم.

﴿وَبَشِّـرِ الْمُومِنِينَ﴾ معطوف على محذوف، أي: أبْشِـرْ يا محمَّد وبَشِّرِ المؤمنين، أو فَأَبْشِرِ يا محمَّد (بالفاء التفريعيَّة). أو يقدَّر: «قُل» قبل قوله ﷻ: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ويعطف عليه «بَشِّر». ويصحُّ عطفه على «تُومِنُونَ» لأنَّه بمعنى الأمر، أي: آمنوا وجَاهِدُوا وبَشِّرْ يا محمَّد المؤمنين.

وفيـه أنَّ «تُومِنُونَ» و«تُجَاهِـدُونَ» لأمَّتِهِ، والأمر بالتبشـير هُو لهُ، وأيضا «تُومنُونَ» في جواب سؤال عن التجارة وليس «بَشِّـرْ» في ذلك، فيجاب بأنَّه وأمَّتَه كَواحِـدٍ، حتَّى إنَّه داخل في ﴿يَـآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُـواْ﴾، وَأَنَّ الزيادة في الجواب على السـؤال جائزةٌ، كقوله تعالى: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَئَارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [سورة طه: 18].

﴿**يَا أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارًا لِّلَّهِ**﴾ لدين الله ﷻ ولرسوله ﷺ. و«أَنصَارًا» ولو كان نكرة في الإثبات لا دلالةَ لها على التبعيض، بل تَحَصَّلَ العُمومُ لها بِـ «كُونُوا»، أي: كونوا كلُّكم أنصارًا لله، وأيُّ تبعيض في «مطيعين» من قولك: يا أيُّها المكلَّفون كونوا مطيعين لله ﷻ؟.

وإذا كانت للتبعيض كما قيل فأين البعض الآخر؟ فإن قيل: من يأتي من المؤمنين بعد نزول الآية، قلنا: من يأتي شملته الآية، وإن قيل: البعض الآخر من تَعَنَّى لنصره من الملائكة بِأمرِ اللهِ ومن الجِنِّ، قلنا: أيُّ حاجة إلى ذلك مع عدم تبادره؟ اللهمَّ إلَّا أن يقال: لذلك حكمة هي تعظيمُهُ بأنَّ له ﷺ أنصارا.

وربَّما تقوّى التبعيض بالتشبيه في قوله ﷻ: ﴿**كَمَا قَالَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنَ انصَارِيَ إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ**﴾ فإنَّه ظاهر في التبعيض، ولو كان عيسى غير راغب عن الكلِّ.

[لغة] والحواريُّون من مادَّة الحوار، وهو البياض، سُمُّوا لأنَّهم كانوا يغسلون ثياب الناس ويبيِّضُونها، أو للَبْسهم البياض، وقيل: لنقاء قلوبهم وجوارحهم من الذنوب، أو لأنَّهم يغسلون نفوس الناس بالعلم والوعظ.

وقيل: الحواريُّون المجاهدون، وقيل: الحواريُّ الخاصَّة الناصر من الأصحاب، كما قيل في قوله ﷺ: «**لكلِّ نبيء حواريٌّ وحواريِّي الزبير**»[1]. وقيل: الحواريُّ الذي أخلص ونُقِّيَ من كلِّ عيب.

وفي بعض الأخبار: إنَّ الحواريِّين كلَّهم من قريش: أبو بكر، وعمر، وعليٌّ، وحمزة، وجعفر، وأبو عبيدة بن الجراح، وعثمان بن مظعون، وعبد الرحمٰن بن عوف، وسعد بن أبي وقَّاص، وعثمان بن عفَّان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير.

(1) تقدَّم تخريجه، انظر: ج 4، ص 174.

والكاف تدلُّ علــى تقدير القول قبل ﴿يَآ أَيُّهَا الذِيــنَ ءَامَنُواْ﴾، أي: قل يا محمَّد لقومك الذين آمنوا: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِيــنَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارًا لِّلَّـهِ كَمَا قَالَ عِيسَــى ابنُ مَرْيَـمَ﴾ ويجوز أن لا يقــدَّر القول، فيكون مســتأنفا من الله ﷻ، ويبحث بأنَّ الظاهر هو تشــبيه القول بالقول، كمــا مرَّ من تقدير القول، ويجابُ بأنَّه لا بأس بتشــبيه الكون أنصارًا لله بقول عيسى لتضمُّنِ قوله طلب النصرة.

ويجوز تقدير قولٍ من الله ﷻ لا من النبيء ﷺ، أي: قُلنَــا للْمُؤمِنِينَ من أُمَّةِ محمَّد: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوا أَنصَارًا لِّلَّـهِ كَمَا قَالَ عِيسَــى ابنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَــنَ اَنصَارِيَ إِلَــى اللهِ﴾ فإمَّا أن يكون هذا القــول المقدَّر عن الله إنشَــاءً، وإمَّا أن يَكُونَ إِخْبَارًا عن قــول متقدِّم، وهو كلُّ كلام فيــه أمر باتِّباع رسول الله ﷺ. و«مَا» مَصْدَرِيَّة.

أمَّا على عدم تقدير القول فالمعنى: كونــوا أنصارًا لله كونا ثابتًا كمضمون قول عيســى: «مَنَ انصَارِيَ»؟ وعلى تقديره: قل يا محمَّــد، أو قلنا قولا ثابتا كقول عيسى.

وتَكَلَّفَ مَــن جعل «مَا» مَصدَرِيَّة، والمصدر ظــرف، وجعل الآية على الحذف هكذا: كونوا أنصارًا لله وقْت قولِي لكم ككــون الحواريِّين أنصَارًا وقت قول عيســى لهم، واختصره الله ﷻ، كقولك: كونــوا أنصاره كوقت قول عيسى.

[بلاغة] أو الآية احْتِبَــاكٌ بحذفٍ من كلِّ كلام ما ثبــت في الآخر، أي: كونوا أنصــارا لله حين قــال لكم النبــيء: من أنصــاري إلــى الله؟ كما كان الحواريُّون أنصارا لله حين قال لهم عيســى: من أنصاري إلى الله؟ وهذا ـ ولو كان حسنا ـ لا دليل عليه، فلا يفسَّر به، لتكلُّف الحذف وصحَّة الكلام بدونه، ولا سيما وقد تغيَّر معنى الآية، فإنَّه ليس فيها أنَّ الحواريِّين كانوا أنصارا، بل

فيها دعواهم أنَّهم أنصار ولو ذكر بعد ذلك أنَّ طائفة آمنت وإيمانها نصرهُ ﷺ، كما قال عَزَّ وَجَلَّ.

﴿فَئَامَنَت طَّآئِفَةٌ﴾ بعيسى ﴿مِنۢ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَكَفَرَت﴾ به ﴿طَّآئِفَةٌ﴾ أخرى منهم ﴿فَأَيَّدْنَا الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ به ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ وهم من كفر به.

[نحو] قيل: «إِلَى» [في قوله: ﴿إِلَى اللهِ﴾] متعلِّق بحال محذوفة جوازًا، كونٌ خاصٌّ، أي: متوجِّهًا إلى نصرة الله، بتقدير مضاف كما رأيت، فيناسب قوله: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ﴾، وصحَّ الحال من المضاف إليه لأنَّ المضاف وصفٌ يصلُحُ للعمل، فإنَّ «أنصَارًا» جمع ناصر. أو «إِلَى» بمعنى «مع»، فيقدَّر مضاف، أي: نحن أنصار نبيء الله، فحصل التناسب أيضا.

﴿فَأَصْبَحُواْ﴾ أي: الذين أيَّدهم الله، أي: نصرهم ﴿ظَاهِرِينَ﴾ غالبين بالحجَّة والبرهان، وهم اثنا عشر رجلاً، وقيل: أتباعهم بعدهم، كما يدلُّ له قوله: ﴿مِنۢ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾.

أرسل بعضا إلى روما، وبعضا إلى بابل وبعضا إلى إفريقية، وبعضا إلى أفسس[1]، وبعضا إلى بيت المقدس، وبعضا إلى الحجاز، وبعضا إلى البربر وما حولها.

وقيل: غالبين بالسيف، وعلى هذا المراد الأتباعُ، فإنَّ الطائفة المحقَّة بعد رفعه إلى السماء دامُوا على قولهم: إنَّه عبد الله ورسولُه، والطائفة الكافرة قال بعضها: إنَّه الله رجع إلى السماء بعد هبوطه منها، وبعضها: إنَّه ابن الله رفعه الله إليه، فقاتلتهما الطائفة المؤمنة وغلبتهما.

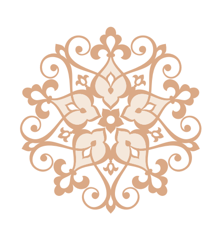
---

(1) مدينة قديمة في بلاد إيونيا ليس فيها اليوم إلَّا أنقاض بالمنطقة الساحليَّة بآسيا الصغرى الغَربيَّة. (منجد الأعلام).

والقتال ولو لم يكن في دين عيسى لكن بدأت الكافرتان القتال، فقاتلتهما المؤمنة دفعا عن نفسها، وقيل: غلبتهم الكافرتان بالسيف إلى زمان بعثه ﷺ، فغلبتهما المؤمنة. وقيل: آمنت طائفة بالنبيء ﷺ إذ بعث، وكفرت به أخرى، فأيَّدنا المؤمنة على الكافرة به بتصديقهم على لسان رسول الله ﷺ أنَّ عيسى عبدُ اللهِ ورسُولُه، وهو خلاف الظاهر، والله أعلم.

وهو الموفِّق المستعان.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



62

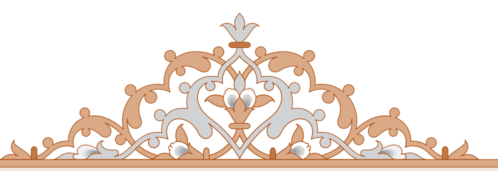
تفسير سورة الجمعة

مدنيَّة وآياتها 11 ـ نزلت بعد سورة الصف

[فقه] [قلت:] شهر في كتب المذهب وفي الألْسِنة ذكر اليوم والليلة في النية للصلاة، وعابه غَيْرُنا، فأجبت بأنَّ فائدة الذكر لهما المحافظة على تعيين يوم الجمعة وتمييزه، لتصلَّى فيه صلاة الجمعة زمان الإمام حيث تجب، والمحافظة على خواصِّ الأيَّام من مباح ومكروه وعبادة، ومعرفة تمام الشهر إذا غُمَّ، وشهور الفضل ورمضان، وقد ذكر ابن الحاج المالكيُّ[1] بعض ذلك في كتابه «المدخل».

وهذا كما عيب على المؤذِّنِ قوله في أسْحار رمضان: «كلوا كلوا»، مع أنَّه دعاء إلى السنَّة، وهي أُكْلَةُ السَّحر، وإيقاظ وتنبيه عن فوْتِ الأكل.

(1) ورد في حاشية نسخة (أ): «ابن الحاجب» والصواب ما أثبتناه، وهو: محمَّد بن محمَّد ابن الحاج، أبو عبد الله العبدريُّ المالكيُّ الفاسيُّ، نزيل مصر. تفقَّه في بلده، ثمَّ نزل مصر وحجَّ، ثمَّ كفَّ بصره. تُوُفِّيَ سنة 737هـ. له كتاب: «المدخل للشرع الحنيف في محاربة البدع والآفات» وغيره. وكتاب «المدخل للشرع الحنيف» مطبوع في ثلاثة أجزاء في محاربة البدع وتأييد السنَّة. **الزركلي**: الأعلام، ج 7، ص 35.



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿1﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿2﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿3﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿4﴾﴾

فضل الله تعالى في إرسال نبيئه ﷺ والتنويه برسالته

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ**﴾ تسبيحا مستمرًّا، فالمضارع للتجدُّد ﴿**مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾ الظروف فيهما وأجزائهما[1] ﴿**الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾ مَرَّ تفسير ذلك [في أواخر سورة الحشر].

﴿**هُوَ الذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ**﴾ العرب القرويِّين والبدويِّين.

[لغة] نسب إلى الأمِّ الوالدة، كأنَّهم بعدما بلغوا وتقوَّوْا ولدوا في الحين، بحيث لا يعرفون الكتابة، لا يقرؤون المكتوب ولا يكتبون، ولا يعرفون الحساب إلَّا قليلا، وكذلك من استغرق في العلوم العَرَبيَّة يعالج الحساب علاجا ولو كان عجميًّا.

قال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّا أمَّة لا نكتب ولا نحسب**»[2] رواه البخاري ومسلم وغيرهما. وقيل: نسب إلى أمَّة العرب، أي: بعث في الأمَّة

---

(1) كذا في النسخ ولم يتَّضح لنا المعنى.

(2) تقدَّم تخريجه، انظر: ج 11، ص 84.

المعهودة بأنَّها لا تكتب ولا تحسب، فهو أنسب بقومه الذين بعث هو منهم، فلا يقال: يأخذ من الكتب ما يقول: إنَّه أوحي إليه بِه، أو يستعين بها، وكذا يسمَّى أمِّيًا في كتب الأنبياء.

وقيل: إلى أمِّ القرى، وهي مَكَّة، **والصحيح الأوَّل المشهور**. واقتصر بعضهم في تفسيره على أنَّه الذي لا يكتب، ويقال: في بَدْءِ كتابة العرب ـ وهي قليلة ـ أخذوها من أهل الحيرة، وأهل الحيرة أخذوها من الأنبار، وأشكال حروفهم أحسن الأشكال.

وقيل: الأمِّيُّون: من ليس من أهل الكتاب، كما عمَّ الكتابيُّون في قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [سورة آل عمران: 75] كلَّ من ليس منهم، ووجهه أنَّه من ليس له كتاب لا يعتني بالكتابة، فشملت الآية العرب والفرس وسائر العجم، وفيه أنَّه كثرت الكتابة في العجم والفرس، ويجاب بأنَّها قليلة بالنسبة إلَى من له كتاب.

﴿**رَسُولاً مِّنهُمْ**﴾ هو متعلِّق بمحذوف نعت لـ«رَسُولاً»، أو بـ«بَعَثَ». وعلى كلِّ حال يفيد أنَّه ﷺ أمِّيٌّ، سواء جعلنا «مِنْ» للابتداء كما يتبادر من تعليقها بـ«بَعَثَ» أو للتبعيض، فإنَّ من كان مبعوثا من الأمِّيِّين أمِّيٌّ، ومن ثبتت رسالتهُ منهم أمِّيٌّ.

وذلك أنَّ هاء ﴿منهُمْ﴾ عائدة إلى الأمِّيِّين، لا كما قيل: إن جعلت تبعيضيَّة ـ والبعضيَّة باعتبار الجنس ـ فلا تدلُّ الآيةُ على أنَّه أُمِّيٌّ، وباعتبار الخاصَّة المشتركة تدلُّ، لأنَّا نقول: الجنس موصوف بالأمِّيَّة.

﴿**يَتْلُو عَلَيْهِمُ ءَايَاتِهِ**﴾ مع كونه أمِّيًّا مثلهم لم يعاشر من يكتب من العجم أو غيرهم، ولم تعهد قراءته ولا تعلُّمه، ومع ذلك أخبرهم بما في التوراة والإنجيل، فبان أنَّه نبيء ﷺ. وآياته: ما نزل إليه من القرآن، الدالِّ على الحلال والحرام، والمواعظ والقصص، وقيل: دلائل نبوءته. والهاء لله تعالى، أو له ﷺ.

﴿**وَيُزَكِّيهِمْ**﴾ يسعى في تحصيل طهارتهم من خبائث الاعتقاد والقول والفعل. ﴿**وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ**﴾ ألفاظ القرآن ويتبعها ما يفهمون من معانيها، وقيل: الكتابُ الفرائض. ﴿**وَالْحِكْمَةَ**﴾ السنَّة المُوحَاة وما يُؤَدِّي إليه اجتهادُه ﷺ المستند إليهما، على الصحيح، وهو أنَّه قد يجتهد، **أو الحكمة: معاني القرآن وغيرها.**

ووَسَّط بين التلاوة وبينهما ذكر التزكية مع تقدُّمهما في الوجود إشعارًا بأنَّ كُلًّا من التلاوة والحكمة وتعليم الكتاب نعمةٌ على حدةٍ، ولو لم يوسِّط التزكية لربَّما تُوُهِّم أنَّهنَّ نعمة واحدة، ولا تكرير بين التلاوة وتعليم الكتاب، لأنَّها مجرَّد التبليغ، والتعليم معالجةُ أن يحفَظُوا ألْفاظَ القرآن، والتعليم مترتِّب في الوجود على التلاوة.

والتزكية عبارة عن تكميل النفس بحسب قوَّتها العَمَلِيَّة، وتهذيبُها يتفرَّع على تكميلها بحسب القوَّة النَّظَرِيَّة، ويُعبَّر تارة بالقرآن وتارة بالكتاب، وتارة بالآيات، وتارة بالذكر مراعاة لمفهوماتها.

وجُوِّزَ كون الكتاب كناية عن جميع النقْليَّات، والحكمة كناية عن جميع العقليَّات، كالتعبير بالسماوات والأرض عن جميع الموجودات، وبالمهاجرين والأنصار عن جميع الصحابة. [قلت:] كما تذكر أئمَّة الصلاة في مضاب في أدعيتهم المهاجرين والأنصار ويحصل في أذهانهم العموم فيما أظنُّ.

﴿**وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ من خبث الإشراك وما دونه من المعاصي، والمكروهاتِ الكراهةَ الشديدةَ، وسوءِ الأدب، فهم محتاجون جدًّا إلى ما يزيل عنهم ذلك الخبث.

والكلام في أصحاب الشرك فلا حاجة إلى أن نقول: المراد في الآية الأكثر، وأنَّه لا يرد إسلام ورقة بن نوفل ونحوه، على قول إسلامه.

[نحو] و«إِنْ» مخفَّفة مــن الثقيلة. والــلام للفرق بين النفــي والإثبات. ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ عطف على «الأُمِّيِّــنَ»، أي: بعث في الاميِّين وفي آخرين منهم، والهاء لـ«الأُمِّيِّينَ»، و«مِنْ» للتبعيض لا للبيان، إلَّا أن يســمَّى التفسير بالتبعيض بيانا، ولذا ســمَّى بعض المحقِّقين «مِنْ» هنا تبيينيَّــة، فقال: «مِنْ» للتبيين. ويجــوز العطف على هاء «يُعَلِّمُهُم»، لأنَّه ﷺ هو الســبب في التعليم إلى آخر الزمان، وكأنَّه باشرهم بالتعليم.

﴿لَمَّــا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ بالأمِّيِّــن المذكورين فيما مضــى، ولا في الحال، ولكن سيلحقون في الزمان المســتقبل، لأنَّ «لَمَّا» لنفي ما يتوقَّع ثبوته، وهم التابعون وتابعــو التابعيــن، وهكذا عربا وعجمــا مِمَّن دخل في الإســلام. والأمِّيُّون المذكــورون أوَّلاً: قومــه ﷺ، وجنس الذين بعث فيهــم، والمراد بالآخرين منهم: الآخــرون منهم في العَرَبِيَّة والأمِّيَّــة. وقيل: المراد بالآخرين منهم: آخريــن منهم في كونهــم أمِّيِّين لا يكتبــون، عربًا أو عجمًــا وبه قال مجاهد، واعترض بأنَّ العجم لا يكونــون أمِّيِّين لكثرة الكتابة فيهم، وعن ابن عمر وسعيد بن جبير ومجاهد: المراد العجم.

وقيل: المراد آخرون منهم في نســبهم إلى الأمَّة لا في كونهم لا يكتبون ولا يقرؤون، كما مرَّ تفسير بعضهم الأمِّيين بذلك، فيشمل كُلَّ من يأتي، عربا أو عجما، لا يكتــب أو يكتب، ويدلُّ لهذا قول أبي هريرة: «كنَّا جلوســا عند النبيء ﷺ حين نزلت ســورة الجمعة وتلاها، وَلَمَّا بلــغ ﴿وَءَاخَرِينَ...﴾ إلخ قال رجل: يا رســول الله، من هؤلاء الذيــن لم يلحقوا بنــا؟ فوضع يده على سلمان الفارسيِّ ﵁، وقال: «**لو كان الإيمان بالثريَّا لناله رجال من هؤلاء**»[(1)].

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب تفســير القرآن، باب قوله: ﴿وَءَاخَرِيــنَ مِنْهُمْ...﴾ رقم 4518. ورواه **مســلم** في كتاب فضائل الصحابة، باب فضل فارس، رقم 4618، ورواه **الترمذي** في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة محمَّد. من حديث أبي هريرة.

وقيل: ما أشار إلى سلمان إلَّا بعدما سأله الرجل ثلاث مرَّات: من هؤلاء؟ كما في الصحيحين، فأشار إلى فارس، وليسوا من العرب.

فيقال: ما معنى لَمْ يَلْحَقُوا وسلمان لحق رسول الله ﷺ وأصحابه؟ فيجاب بأنَّ المراد قومه الآتون بعد، وربَّما كان الحديث أيضا **تمثيلا بمن يأتي من العجم كالفرس والروم والبربر، والنسب إلى الأمَّة كما علمت** في ذلك القول، كما فسَّره ابن عمر بأهل اليمن، وابن جبير بالروم والعجم، تمثيلا لا تخصيصًا.

وقيل: لَمَّا يلحقوا بهم في الفضل لفضل الصحابة، ويردُّه أنَّه يلزم أنَّه سيأتي من يلحق بهم، لأَنَّ «لَمَّا» لنَفْي ما سيكون، فيجاب بما يُرْوى ـ إذا صحَّ ـ من أنَّه سيأتي من هو خير من أبي بكر وعمر، لأنَّهم لا يجدون أعوانا وأنتم تجدون أعوانا، ويروى: «**خير من سبعين من أبي بكر وعمر**»[1] ولا ينافيه أحاديث قوله ﷺ لبعض الصحابة: «**لو أنفق أحدكم مثل أُحُد ذهبا ما بلغ مدَّ أحد الصحابة الأوَّلين**»[2] ونحو هذا لأنَّه في الصحابة الآخرين في مقابلة الأوَّلين، وكلٌّ قد وجد أعوانا بخلاف من لا يجد بعدُ.

ولا نشكُّ في فضل الصحابة على غيرهم، إلَّا أنَّه لا بأس بالتخصيص لهذا العموم بمن يتمسَّك بدينه إذا فسد الناس، وقاسى الأهوال على دينه.

وجاء أنَّه ﷺ قال: «**أمَّتي كالمطر لا يدرى أوَّله خير أم آخره**»[3]. وإمَّا أن يريد الأوَّل والآخر بعد الصحابة، وإمَّا أن يريد المبالغة في الخير، كقولك في ثوب جديد: لا يدرى أظاهرُهُ هُوَ أفْضَل أم بطانته، وإمَّا أن يكون لا يدري أوَّلاً وبعد ذلك درى بذلك التخصيص.

---

(1) لم نقف على تخريجه.

(2) رواه **مسلم** في كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سبِّ الصحابة، رقم: 6652. بلفظ قريب. من حديث أبي سعيد.

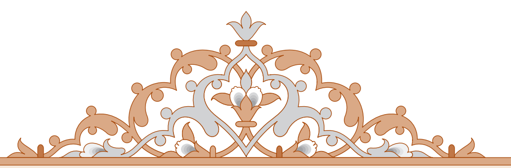
(3) أورده **العقيلي** في الضعفاء: ج 1، ص 310.

ويجوز عطف «ءَاخَرِينَ» على هاء «يُعَلِّمُهُم» فإنَّه ﷺ علَّمنا وزكَّانا بوسَائِط، وكأنَّه تولَّى تعليمنا بنفسه وتزكيتنا.

﴿**وَهُو الْعزِيزُ**﴾ المبالغ في العزَّة ﴿**الْحَكيم**﴾ المبالغ في الحكمة، فهو غالب لا يعجزه شيء، ولا يُرَدُّ عمَّا أراد، ولا يكون فعله أو قوله سفها ولا مختلًّا، ولذلك قدَر أن يجعل رجلا أمِّيًّا أفضل الخلق ورسولا إليهم كلِّهم.

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ المذكور العالي الشأن مِنْ بَعْثِ الله رسوله ﷺ في الامِّيِّين وتعليمه وتزكيته، وقيل: النبوءة، قلت: أو كلُّ ذلك. ﴿**فَضْلُ اللهِ**﴾ إحسانه جلَّ شأنه ﴿**يُوتِيهِ مَنْ يَّشَآءُ**﴾ وليس لغيره ﷺ وغير أمَّته.

وإذا نزل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ جرى على القرآن والسنَّة، ومنها حينئذ أن لا تقبل جزية. والجملة مستأنفةٌ، أو خبر ثان، أو حال من «فَضْل». ﴿**وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ على الإِطْلَاقِ، هذا الفضل وغيره.



﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٨﴾

حال اليهود مع التوراة والموت

﴿مَثَلُ﴾ أي: صِفةُ ﴿الذِينَ حُمِّلُواْ التَّورَاٰيَةَ﴾ اليهودُ الذين علَّمهم اللهُ التوراةَ وجعلَهُمْ حامِلينَ لها بالقراءة والحفظ والكتابة.

﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ لم يعملوا بها، لم يحملوها حملَ عَملٍ ولا حمل رواية، وفيها رسالة محمَّد ﷺ وصفاتُهُ، وأسقطوها وغيَّروها. أو من الحَمَالَة، وهي الضمانة، أي: ألزمهم أن يتكفَّلوا بها. ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ﴾ جنس الحمار، كصفة الحمار. ﴿يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ كتبًا عظام الشأنِ والصورة، كما يدلُّ عليه التنكير، لم يعرفوا للتوراة حقًّا، ولا انتفعوا بها، كما هو شأن الحمار، وكأنَّهم لا يحتاجون إليها. واختار لفظ ﴿أَسْفَارًا﴾ تنبيها على أنَّها كتب تُسْفِرُ بالحقِّ وتوضِّحُهُ.

[نحو] والجملة نعت «الْحِمَارِ»، ولو كان معرفة لِشِبْهِهِ بِالنكرةِ، لأنَّ تعريفه جنسيٌّ. وإن جُعِلَتْ حالا لم يوجد عامل في الحال، لأنَّ «مَثَلُ» بمعنى

صفة، وعاملها عامل صاحبها، وعامل صاحبها هو «مَثَلُ» فتُكُلِّف بِجَعْلِ الكاف زائدة لتأكيد التشبيه، وجَعْلِ «مَثَلُ» في الموضعين بمعنى مماثل، فيصلح للعمل في الحال. ونسب الإمامُ أبو حيان وجوبَ الحاليَّة للمحقِّقين مراعاةً لِلَفظ المعرفة[1].

﴿بِيسَ﴾ أي: هو، أي: ذلك المثلُ المذكور، والمخصوص بالذمِّ هو قوله ﷻ: ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ الذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِ اللهِ﴾ أي: القرآن، وقيل: القرآن ومحمَّد ﷺ، وقيل: التوراة كذَّب اليهود بها إِذْ لَمْ يؤمنُوا بما فيها من محمَّد ﷺ وصفاته.

[نحو] واسْتِتَارُ فاعلِ باب «نِعْمَ» بلا تمييز جائزٌ، ودعوى أنَّ هناك تَمييزًا مُفسِّرًا للمسْتَتِرِ بعيدٌ، كيف يكون المحذوف مفسِّرًا لِمَا لم يذكر؟!.

﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ هذا عموم يشمل المذكورين بالأولى، لأنَّ الكلام عليهم، أو هم المراد. لم يضمر لهم ليصفهم بالظلم الموجب للخزي. قال ميمون بن مهران[2]: «يا أهل القرآن اتَّبعوا القرآن قبل أن يتبعكم»، أي: يُحاسبكم، ثمَّ قرأ الآية.

﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا الذِينَ هَادُواْ﴾ انتسبوا إلى اسم اليهود، أو إلى يهوذا بن يعقوب، بألف بعد ذال معجمة حذفت وأبدلت الذال دالا مهملة.

﴿إِن زَعَمْتُمُوٓ أَنَّكُمُوٓ أَوْلِيَآءُ﴾ أحبَّاء، كما يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَآؤُاْ اللهِ وَأَحِبَّآؤُهُ﴾ [سورة المائدة: 18]، و﴿لَن يَّدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾

---

(1) **أبو حيَّان**: البحر المحيط، ج8، ص266.

(2) هو ميمون بن مهران الرِّقي أبو أَيُّوب، فقيه من القضاة. كان مولى لامرأة في الكوفة، أعتقته فاستوطن الرقة (من بلاد الجزيرة الفراتية) فكان عالم الجزيرة وسيِّدها، استعمله عمر بن عبد العزيز على خراجها وقضائها، شارك في فتوحات قبرص سنة 108هـ، وكان ثقة في الحديث. تُوُفِّيَ سنة 117هـ. **الزركلي**: الأعلام، ج7، ص342.

[سورة البقرة: 111]. ﴿لِلَّهِ﴾ لم يضف فرقا بين مدَّعي الوَلاية بلا تحقُّق وبين من ثبتت له، كقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ﴾ [سورة يونس: 62]. ﴿مِن دُونِ النَّاسِ﴾ سائر الناس، متعلِّق بمحذوف، حال من ضمير الاستقرار.

﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾ من الله ﷻ ﴿الْمَوْتَ﴾ لكم بأن يُميتكم لتلْقَوا حَبيبَكُم ويُثيبكم، وتنتقلوا من دار الكدر إلى دار الصفاء. ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى أنَّكم أولياء الله ﷻ.

[سبب النزول] وَلَمَّا ظهرت رسالة سيِّدنا محمَّد ﷺ كتب يهود المدينة إلى يهود خيبر: إن اتَّبعتم محَمَّدًا أطعناه، وإن خالفتموه خالفناه، فقالوا: نحن أبناء خليل الرحمن، ومنَّا عزَيْر ابن الله والأنبياء، وفي أيِّ زمان كانت النبوءة في العرب؟ نحن أحقُّ بالنبوءة من محمَّد، ولا سبيل إلى اتِّباعه، فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا الذِينَ هَادُواْ...﴾ الآية.

[بلاغة] وإن قلت: تحقَّق عند الله أنَّهم زعموا فما وجه «إِنْ» الشَّكِّيَّةِ؟ قلت: وجهها أَنَّ زعمهم أمرٌ باطلٌ بعيدٌ حتَّى كأنَّه ممَّا يشكُّ فيه هل وقع.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا﴾ أي: ما داموا أحياء، وهذا معنى الأبديَّة، وهذا إخبار من الله ﷻ بأَنَّ هؤلاء المخاطبين خصوصًا لا يتمنَّونه، قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يقولها أحد منكم إلَّا غصَّ بريقه**»[1] فلم يتمنَّه أحد منهم لأنَّهم أيقنوا بصدقه ﷺ، ولو تمنَّوه ولو بألسنتهم فقط لَماتُوا في حينهم، وذلك معجزة له ﷺ، ولولا ذلك لقالوا ليظهروا أنَّه كاذب حاشاه. وفي آية أخرى: ﴿وَلَنْ يَّتَمَنَّوْهُ﴾ [سورة البقرة: 95].

[أصول الدين] لَمَّا تعاقبت «لَنْ» و«لَا» على معنى واحد علمنا أنَّ «لَنْ» لا تفيدُ التأبيد، كما لا تفيده «لَا»، والتأبيد حيث أثبتناه مستفادٌ من خارج،

---

(1) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره، مج 10، ص 96. بدون تخريج.

كاستحالة رؤية المخالف للحوادث سبحانه أن تراه الحوادث. والتأبيد منسوب لـ«لَنْ» على خلاف الأصل لَا لِـ«لَا» فلا نَرُدُّ «لَا» إلَى «لَنْ» في التأبيد، فالنفي تارة بـ«لَا» وأخرى بـ«لَنْ» تفنُّنٌ. وعلى تسليم أنَّ «لَنْ» للتأبيد فإنَّما كانت هنالك لأنَّهم ادَّعوا الاختصاص من دون الناس في الموضعين، وزادوا هنالك أنَّه أمر مكشوف عند الله ﷻ لا شُبهَةَ فيه، فناسب التأكيد بـ«لَنْ».

﴿بِمَا قَدَّمَتَ اَيْدِيهِمْ﴾ بسبب ما قدَّمته أيديهم، أي: بسبب كفرهم. وأسند التقدُّم للأيدي لأنَّ أكثر الأعمال تعمل بها. والباء متعلِّق بـ«لَنْ»، لأنَّ المعنى: انتفى التمنِّي بسبب كفرهم، كما علِّقت الباءُ ـ عند بعضٍ ـ في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [سورة القلم: 2] بـ«مَا». وبعض يقدِّر العامل من معنى «لَنْ» في ذلك، مثل: انتفى التمنِّي بما قدَّمت أيديهم.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمُۢ بِالظَّالِمِينَ﴾ عمومًا، ومنهم هؤلاء المخاطبون، أو بالظالمين المخاطبين، عبَّرَ عنهم بالظاهر ليصفهم بالظلم الكامل الشامل لأنواعٍ من الظلم، ومنها ادِّعاؤهم أنَّهم أولياؤُهُ تعالى، وغير ذلك ممَّا مضى وما يأتي.

﴿قُلِ اِنَّ الْمَوْتَ الذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ إذْ لَمْ تَسْتَعِدُّوا لَـهُ وَأَهْلَكْتُمْ آخِرَتَكُمْ بدنياكم. ﴿فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ لا محيد لكم منه، والخطاب لليهود. والموت الذي فرُّوا منه هو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾.

[نحو] والفاء صِلةٌ في خبر المبتدأ الذي هو اسم «إِنَّ»، لأنَّه منعوت بالموصول، فكأنَّه موصول، والموصول تزاد الفاء في خبره، ولكن إذا أشبه اسم الشرط في العموم، ولا عموم في الموت الذي يفرُّون منه، فإمَّا أن يُعتبر أنواعٌ من الموت مَهُولة عليهم ـ لعنهم الله ـ وإمَّا أن تكون في خبر المبتدأ، لا لشبهِ اسمِ الشرط، كما أجاز الأخفش زيادتها في الخبر مطلقًا، نحو: زيد

فقائم، ويدلُّ له قراءة زيد بن علـيٍّ[1]: «إِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ» بلا فاء، وابن مسـعود: «الذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ مُلَاقِيكُمْ». أو «الِذي» خبر «إِنَّ» لا نعتٌ.

[فقه] وفي الآية مناسـبة لتحريم الفرار من الطاعون، وهو كبيرة كالفرار من الزحف، كما قالت عائشـة والأكثرون، وكرهه مالـك، وأجازه عمرو بن العاص وأبو موسـى والمغيرة وعمر بـن الخطَّاب، قـال عمرو بن العاص: الطاعون كالسـيل من تنكَّبـه أخطاه وكالنار مـن تنكَّبها أخطاهـا، ومن أقام أحرقته، وإنَّه رجس فتفرَّقوا منه في الشعاب والأودية[2].

ويقال: لا بأس بالخروج مع اعتقاد أنَّ كُلَّ شيء بقضاء وقدر، ومن اعتقد أنَّ الفرار منـج والقعودَ مُهلك هكذا أخطأ. وجاز الخروج لعارض شُـغل، أو للتداوي من علَّة طعن فيها. وجاز الفرار من الوباء والحمَّى والجذريِّ ونحوه، وليحذر في ذلك كلِّه أن يُقال: لو خرجْتُ لَسَـلمْتُ، أو لـو قعدتُ لأصابني ذلك، وقد مرَّ ﷺ بحائط مائل فأسرع.

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَـىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ والشَّـهَادَةِ﴾ الذي لا تخفـى عليه خافية. ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الشرك وسائر المعاصي تنبئةَ مجازاةٍ.

---

(1) زيد بن عليِّ بن الحسـين بن عليِّ بن أبي طالب، الإمام، أبو الحسـين العلويُّ الهاشميُّ، وهو: «زيد الشـهيد» ولد سـنة 79هـ بالكوفة، وتفقَّه على يد واصل بن عطـاء المعتزلي... طارده الأمويُّون في زمان هشـام بن عبد الملك إلى أن استشـهد في الكوفة سنة 122هـ... وتنسـب إليه فرقة الزيديَّة من الشـيعة. وإليه ينسـب كتاب: «مجموع في الفقه». **الزركلي**: الأعلام، ج 3، ص 59.

(2) وهذا ما تثبته تحقيقات الطبِّ الحديث.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١ ﴾

وجوب صلاة الجمعة، وإباحة العمل بعدها

﴿ يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ يكفي أذان واحد، كما كان لرسول الله ﷺ مُؤذِّن واحد يؤذِّن على باب المسجد إذا جلس ﷺ على المنبر لكثرة النَّاس، وإذا نزل عن المنبر أقام المؤذِّن الصلاة، وكذا أبو بكر وعمر، وَلَمَّا كان عثمان جعل مؤذِّنا على داره المسمَّاة بالزوراء، وزاد مؤذِّنا ثانيا إذا جلس على المنبر، وإذا نزل عن المنبر أقام الثاني الصلاة.

[فقه] والمعتبر هو الأذان الأوَّل للأحْكَام، كَوُجُوبِ السَّعي، وحِرْمة البيع، وهذا هو الحقُّ، ولا وجه لإلغاء الأوَّل مع أنَّه العمدة، والمتبادر من الآية وغيرها. وإنَّما نرى الثاني المحدَث كالتأكيد له، كالإقامة تأكيدا للأذان، ولأنَّه لم يوجد على عهده ﷺ والخليفتين بعده إلَّا واحد، فهو الأذان المأمور به وليس بثانٍ.

والذي بين يدي المنبر على عهده ﷺ هو الإقامة لا أذان ثانٍ، وَلَمَّا كثر الناس في زمان الإمام عثمان زاد نداء ثانيا على الزوراء، فثبت الأمر على ذلك. والزوراء: موضع مرتفع كالمنارة عند سوق المدينة قريب من المسجد.



[نحو] و«مِنْ» بمعنى في، كقوله تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْاَرْضِ﴾ [سورة الأحقاف: 4]، أي: هل في الأرض، على أحد أوْجُهٍ. ومن العجيب جعلها تبعيضيَّة، وجعلها لبيان «إِذَا»، ولم يسمع بيان «إِذَا» قَطُّ بـ«مِنْ» ولا تعقُّبها بالبعضيَّة. ولا يخبر على «إذا» بأنَّه يوم الجمعة. وإذا جعلت «مِنْ» لبيان «إِذَا» فكأنَّه أخبر عن «إِذَا» بأنَّه يوم الجمعة، والجمعة عَلَمٌ لليوم المخصوص، فالإضافة للبيان على أنَّ لفظ «الجمعة» وحده يُطلق عليه ولو بلا ذكر «يَوْم»، كما عليه جمهور أهل اللغة، وتسميته متقدِّمة على نزول الآية، وهو اسم جنس يقرن بـ«الْ» ولا يقرن، وقيل: لازمة، والأوَّل أصحُّ.

[لغة] ومعنى الجمعة (بضمِّ الميم) هو معنى الجمعة بإسكانها، كما قرأ به عبد الله بن الزبير بن العوَّام، وزيد بن عليٍّ، وهو رواية عن أبي عمرو بالإسكان، وهو المجموع فيه، كالضُّحْكَة (بضمٍّ فإسكانٍ) بمعنى المضحوك منه، وهما وصْفٌ، أوْ هُما مصدرٌ بمعنى الاجتماع، وكلُّ ذلك في الأصل.

[سيرة] قال الأنصار قبل الهجرة وقبل نزول السورة: «لليهود يومٌ، وللنصارى يومٌ، فتعالوا نجعل لنا يوما نجتمع فيه ونذكر الله ﷻ» فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فجعلوه يوم الجمعة، فصلَّى بهم ركعتين، ووعظهم، وذبح لهم شاة تغدَّوا وتعشَّوا بها، وذلك في قرية على ميل من المدينة فسمَّوه بذلك يوم الجمعة، وقيل: سُمِّيَ لاجتماع الناس فيه للصلاة جماعات.

[سيرة] وأوَّل جمعة صلَّاها رسول الله ﷺ بأصحابه لَمَّا هاجر نزل على بني عمرو بن عوف يوم الاثنين لاثني عشرة مضت من ربيع الأوَّل، حين امتدَّ الضحى، فأقام بقباء يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسَّس مسجدهُم، وخرج منهم يوم الجمعة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واديهم، وخطب وصلَّى الجمعة، واتَّخذ فيه مسجدًا، أعني أنَّ ذلك الموضع الذي فيه اتَّخذه مسجدًا وعرفه النَّاس وقصدُوه، ويأتي ذلك قريبا.

وقيل: أوَّل من سـمَّاها كعب بن لؤي، وقيل: ذلك يسـمَّى عَروبة، ويوم عَروبة، ويوم العروبـة، والأفصح ترك «ال». وعروبة سـريانيٌّ عُرِّب، ومعناه: الرحمة، والعجميُّ لا تدخله «ال» إلَّا للمح الأصْل، كَسَـلُوقين بمعنى أشـقر أبيض، فتدخل «الْ» لهذا المعنى.

وقيل: سمِّي لأنَّه اجتمع فيه آدم وحوَّاء، وفي الحديث: «**سمِّي لأنَّه جمعت فيه طينة آدم**»[1]. وعبارة بعض: اجتمع فيه خلق آدم، وظاهره أنَّه تمَّ فيه جسده، وقيل: لأنَّه اجتمع فيه الخلق كلُّهم، أي: تمَّ، وآخرهم آدم.

وقـال عبد الرحمٰن بن كعب بن مالـك: قلت لأبي: لمـاذا تترحَّم على أسعد بن زرارة كلَّما سمعت الأذان يوم الجمعة؟ فقال: لأنَّه أوَّل من جمع بنا في نقيع الخضمـات من حرَّة بنـي بياضة، فقلـت: كم أنتم يومئـذ؟ فقال: أربعون، كما في أبي داود، وبعـد ذلك نزل فرضها وشـرطُها وكيفيَّتُها، ولم يكن أسـعد ومن معه يصلُّون الخمس، ونزلت في مَكَّة، وأقيمت في المدينة حين هاجر، وقيل: في العام الثاني، وقيل: في العام العاشر، عشرة أقوال.

واختيـر أنَّها في السـادس، وأوَّل من أقامها على كيفيَّتهـا النبيء ﷺ في المدينة، خطب وقـال: «**فرضت في مقامي هذا ولا شـيء مـن أمور الفرض والنفل لمن لم يقمها، ومن تَاب مِن تركها تاب الله عليه**»[2]. وأوَّل من صلَّاها قبله من الصحابة علـى وجهها مصعب بن عمير، أوَّل مـن هاجر وأقامها هُو وأصحابُه، وهو وهم اثنا عشـر رجلا، وذلك على غير وجـوب، لقوله ﷺ: «**فرضت في مقامي هذا**». وقيـل: صلَّاها لقوله ﷺ: «**اجمع الأولاد والنسـاء وصلِّ بهم الركعتين يوم الجمعـة**»[3] يعني اِجْمَعْ كلَّ مـن قدرت عليه، وقد

---

(1) رواه **أحمد** في مسنده، باب مسند أبي هريرة، ج 2، ص 599، رقم: 8041، من حديث أبي هريرة.

(2) رواه **ابن ماجه** في كتاب إقامة الصلاة والسنَّة فيها، باب في فرض الجمعة، رقم: 1081، من حديث جابر.

(3) لم نقف على تخريجه.

فرضت في مكَّة ولم يقدر عليها إلَّا في المدينة، ولا يخفى أنَّ الإسلام يذكر في المدينة قبل العقبات فلا مانع من أنَّ الأنصار فيهم من يصلِّي الخمس ويصلِّي الجمعة، كما جاءه عن النبيء من مكَّة إذ يذكرها من غير أن تفرض عليهم حتَّى يهاجر.

[فقه] ﴿**فَاسْعَوا**﴾ من حيث يسمع النداء ويدرك الصلاة ماشيا، عند ابن عمر وأحمد، وعن ابن عمر وأبي هريرة: من ستَّة أميال، وقيل: من خمسة، وقيل: من أربعة، وقال مالك: من ثلاثة، وقال أبو حنيفة: من المصر الذي فيه الأذان، ولو كان لا يسمع الأذان، لا من خارج ولو كان يسمع إلَّا إن يشاء.

وفي أبي داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ: «**الجمعة على من سمع النداء**»[1]. ولا يخفى أنَّه تلزم الأصمَّ إذا كان في موضع يسمع الأذان فيه غيرُه. وقالوا: يعتبر صوت مؤذِّن جهور الصوت في وقت تكون الأصوات هادئة، والرياح ساكنة، وقيل: تجب على من آواه الليل.

[فقه] ولا يجوز أن يسافر الرجل يوم الجمعة بعد الزوال قبل أن يصلِّي الجمعة، وقيل: يجوز إذا كان يفارق البلد قبل خروج الوقت، وإذا سافر قبل الزوال فلا بأس، إلَّا أنَّه يكره إذا طلع الفجر، إلَّا إن خرج لطاعة كحجٍّ وغزْوٍ. وقيل: لا يجوز بعد الفجر.

وسمع عمر رجلا يقول: لولا أنَّ اليوم يوم الجمعة لسافرت، فقال: سافر فإنَّ الجمعة لا تحبس عن سفر. كذلك يدلُّ على الجواز ما رواه الترمذيُّ أنَّه ﷺ أمَّرَ عبد الله بن رواحة على سريَّة فصلَّى الجمعة معه ﷺ فقال له ﷺ: ما منعك أن تغدو مع أصحابك؟ قال: أريد أن أصلِّي الجمعة معك، ثمَّ

(1) رواه **الترمذيُّ** في كتاب أبواب الوتر، باب ما جاء في كم تؤتى الجمعة، رقم: 50، من حديث شوير عن أبيه.

ألحقهم، فقال: «**لو أنفقت ما في الأرض ما أدركت فضل غدوتهم**»[1]، إلَّا أنَّ الحديث في السفر للطاعة.

﴿**إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ**﴾ أي: إلى الصلاة، أو وعظ الإمام، أي: أسرعوا إليه بقلوبكم ناشطةً حريصة ونيةٍ وخشوع.

وأمَّا المشي فمتوسِّط، وقد جاء في الحديث ذكر المشي في شأن الصلاة عموما بأنَّه بلا إسراع، قال البخاريُّ ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأْتوها وأنتم تمشون، وعليكم السكينة، وما أدركتم فصلُّوا وما فاتكم فأتمُّوا**»[2].

والسعي في الآية مجاز عن الحرص والرغبة بالقلوب، لعلاقة الشبه بالمشي بالأرجل، أو لعلاقة اللزوم والتسبُّب. وفي رواية: «**إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، وأتوها تمشون، وعليكم السكينة، إنَّ أحدكم إذا كان يعمد إلى الصلاة فهو في الصلاة**»[3]، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ [سورة الصافَّات: 102]، أي: المشي.

وكان عمر يقرأ: «فَامْضوا إلى ذكر الله»، ولعلَّها قراءة تفسير، قال الحسن: والله ما هو بإسراع بالأقدام بل بالقلوب، والسنَّة المشيُ إلَّا لبعد أو ضعف.

[قلت:] وغيرنا يخطئون جمعتهم برفع الأيدي وأخذ الأيمن على الشمال لأحاديث وضعها أوائلهم أو غيرهم، وَهبْ أنَّها صحَّت عنه ﷺ لكن

---

(1) رواه **الترمذيُّ** في كتاب الصلاة (280) باب ما جاء في السفر يوم الجمعة، رقم: 527، من حديث ابن عبَّاس.

(2) رواه **البخاريُّ** في كتاب الأذان (20) باب قول الرجل: فاتتنا الصلاة، رقم: 635 و636، من حديث ابن أبي قتادة عن أبيه.

(3) رواه **مسلم** في كتاب المساجد (28) باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة والنهي عن إتيانها سعيًا، رقم: 152، من حديث أبي هريرة.

فعل ذلك لداع، مثل أن يقع سـلاح من تأبَّطَهُ للشرِّ، وهل يصحُّ أنَّه أدام ﷺ ذلك كما يديمه هؤلاء؟ ولو أدامه لَشُهِرَ ولم يُختَلَف فيه، وكذا يفسدون سائر صلواتهم.

وذِكْر الله: الخطبةُ، وقيل: الصلاة، ورجَّح بعضهم الأوَّل، والأولى أنَّه الخطبة والصلاة معًا، وليست الصلاة كلُّها ذكر الله، فذلك تسمية للكلِّ باسم البعض، وكذا الخطبة، أو المراد بالذكر ما يَدُلُّ على الله، ويستعمل في شأنه، فذلك مجاز لغويٌّ حقيقة عرفيَّة خاصَّة. ويكفي القليل من الذكر في الخطبة كالحمد والصلاة والسلام.

[فقه] وهي واجبة كما في الحديث[1] إلَّا على الصبيِّ والمرأة والمريض والمملوك، كما رواه أبو داود مرفوعا عن طارق بن شهاب. وقيل: تجب على العبد، وبه قال الحسن وقتادة والأوزاعيُّ، ولا تجب على مسافر، كما روي أنَّه ﷺ سافر ولم يصلِّها، كما في زمان فتح مكَّة، ولكن تجوز له.

[سيرة] كما روي أنَّه نزل في أهل قباء على بني عمرو بن عوف وأقام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وأسَّس مسجدهم، وخرج يوم الجمعة إلى المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم فخطب وصلَّى الجمعة، وهي أوَّل جمعة صلَّاها.

[فقه] وتجب بثلاثة وإمامٍ رابع، ونسب لأبي حنيفة، وروي قديما للشافعيِّ، وهو الواضح، وقيل: على اثنين أحدهما إمام، وقيل: ثلاثة أحدهم الإمام، ونسب لأبي يوسف ومحمَّد، وروي قديما للشافعيِّ، أو بسبعة، أو تسعة، أو اثني عشر، أو ثلاثة عشر، أو عشرين ونسب لمالك، أو ثلاثين وهو

---

(1) رواه **أبو داود** في كتاب الصلاة باب من تجب عليه الجمعة، رقم: 1056، من حديث ابن عمرو. وفي كتاب الصلاة أيضًا باب الجمعة للمملوك والمرأة. رقم: 1067 من حديث طارق بن شهاب.

رواية عن مالك، أو أربعين وهو جديد الشـــافعيِّ، وهـــو ما في مصر إذ هرب إليها، وقديمُه مَا لَهُ في بغداد قبل الهروب.

[فقه] [شـــروطها]: ومن الأربعين بُلَّغ أحرار ذكـــور عاقلون مقيمون في موضع لا يظعنون شتاء ولا صيفا إلَّا ظَعَنَ حاجة. زاد عمر بن عبد العزيز: أن يكون فيهم والٍ. وعن عليٍّ: لا جمعة إلَّا في مصر جامع. ولم يشترط الشافعيُّ الوالي. وقـــال أبو حنيفـــة: تنعقـــد بأربعة والوالي شـــرط. وقـــال الأوزاعيُّ وأبو يوســـف: بثلاثة إذا كان فيهم وال. ولا تَصِحُّ إلَّا في موضع واحد، وقال أحمد: تَصِحُّ في موضعين، إذا كثر النّاس وضاق الجامع وشهر عن أحمد. أو خمســـين، أو ثمانين، والإمام في ذلك كلِّه واحد من العدد. وزعم القاشاني[1] أنَّه تصحُّ برجل وحده، وهو قول ساقط.

[فقه] وهي خلف الإمام العدْلِ، أو خلف من أمَرَهُ الإمام بإقامتها. وأقول بوجوبها خلف الإمام الكبير الجائر إذا كان حريصا على إقامة دين الإســـلام، ولم يدخل فيهـــا ما يبطلهـــا. ويجزي في الخطبـــة حمد الله تعالـــى والصلاة والســـلام على نبيئه ﷺ، ويوصي بتقوى الله تعالـــى. والخطبة واجبة لا تَصِحُّ الجمعة إلَّا بها وهي قائمة مقام الركعتين. وقال داود الظاهري: مستحبَّة.

[فقه] ﴿وَذَرُواْ﴾ اتركوا ﴿الْبَيْعَ﴾ المعاملة بالمال، ولو إجارةً أو شراءً أو سَـــلَمًا أو عقد الرهن وغير ذلـــك، وذلك إطلاق للخاصِّ علـــى العامِّ، وقيل: المراد البيع والشـــراء وأمَّا غيرهما فبالســـنَّة، ويحتمل أن يكون عبارة عن كُلِّ شـــاغل، كإطلاق الأكل على مطلق الإتلاف، فيحرم كلُّ مباح شاغل، والأمر للوجوب. وعن عطاء: شملت الآية أن يأتي الرجل أهله، وأن يكتب كتابا.

(1) القاشاني: هو عبد الرزَّاق جمال الدين بن أحمد بن أبي الغنائم محمَّد الكاشي أو الكاشاني أو القاشاني، صوفيٌّ، مفسِّر، له كتاب: «السراج الوهَّاج في تفسير القرآن». وكتاب: «تأويلات القرآن». تُوُفِّيَ سنة 730هـ في دمشق. **الزركلي**: الأعلام، ج 3، ص 350.

[فقه] وزعم بعض أنَّ الأمر في الآية للتنزيه، وهو خطأ، وإن وقع بيع أو غيره من العقود صحَّ وعصى متعمِّده، وقيل: فسق، وقيل: بطل العقد، وعليه ابن العربي. وإن نسيا أو لم يسمعا الأذان أو لم تلزمهما صحَّ، ويستمرُّ التحريم من الأذان الأوَّل على الصحيح، وقال الزهريُّ: من الأذان الثاني، وقيل: من أوَّل وقت الزوال الذي هو أوَّل وقت الصلاة، ولو قبل أن يؤذِّن، والأذان إنَّما هو لأوَّل الوقت، وهو قول الحسن.

[فقه] ولا يحرم البيع على من لا تلزمه كما مرَّ، خلافا لما روى عبد الرحمٰن بن القاسم[1] أنَّ أباه القاسم دخل على أهله وعندهم عطَّار يبايعونه، وذهب ووجد الإمام قد فرغ من الصلاة، فرجع إليهم فقال لهم: البيع منتقض، قلت: لعلَّه انتقض لأنَّ البائع قد لزمته الجمعة ولو لم تلزم النساء والخدم والأطفال من أهله.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ ذلكم المذكور من السعي إلى ذكر الله وترك البيع. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في دنياكم وأخراكم من مصالح الدنيا، فإنَّ خير الآخرة أعظم في نفسه، وأكثر أفرادًا وأبقى، وكثيرًا ما يفضَّل الفرض على المباح وعلى المحرَّم، فلا يقال: لَمَّا عُلِمَ التفضيلُ على الأمر الدنيويِّ علمنا أنَّ الأمر للندب.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تعرفون حقيقة الخير والشرِّ، أو إن كنتم من أهل العلم، على تنزيل المتعدِّي منزلة اللاَّزم، علمتم خيريَّة السعي وترك البيع.

ومن خيريَّتهما ما روي عن أبي بردة أنَّ وقت الإجابة وقت قيام الإمام في الصلاة حتَّى يسلِّم، وقال الحسن: وقت الإجابة وقت زوال الشمس، وقال الشعبيُّ: وقت تكبير الإمام تكبير الإحرام إلى أن يسلِّم، وعن عائشة: وقت

(1) عبد الرحمٰن بن القاسم بن محمَّد بن أبي بكر الصدِّيق، أبو محمَّد، من سادات أهل المدينة فقها وعلما وديانة وحفظًا للحديث وإتقانا. تُوُفِّيَ بالشام سنة 126هـ. **الزركلي**: الأعلام، ج 3، ص 322.

الأذان، وعن كثير بن عبد الله المزني: وقت إقامة الصلاة، وعن مجاهد: بعد العصر. وشُهِرَ إخْفَاؤُها [أي وقت الإجابة].

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ﴾ أُتِمَّت وفُرِغَ منها. ﴿فَانتَشِرُواْ فِي الَارْضِ﴾ إباحةً للانتشار بعدما منعوا منه بالحشر إلى الصلاة.

[فقه] [قلتُ:] لا إيجابًا، لجواز البقاء في المسجد بعد الصلاة، ولا ندبًا إجماعا فيما قيل، وليس كذلك، أعني لا إجماع، فقد قال السرخسيُّ(1): إنَّ بعضا قال: بوجوب الانتشار، وإنَّ بعضا قال: بالندب.

[قلت:] وجههما أنَّ في الخروج من المسجد زيادة بيان إقامة الجمعة، قال عبد الله بن بسر الحراني: رأيت عبد الله بن بسر المازني صاحب النبيء ﷺ إذا صلَّى الجمعة خرج فدار في السوق ساعة، ثمَّ رجع إلى المسجد فصلَّى ما شاء الله تعالى أن يصلِّي، فقيل له: لماذا تفعل ذلك؟ فقال: لأنِّي رأيت رسول الله ﷺ يفعل ذلك، وتلا الآية.

قال سعيد بن جبير لابن المنذر: إذا فرغت من صلاة يوم الجمعة فاخرج إلى باب المسجد فساوم الشيء، وإن كنت لا تشتريه، وارجع إلى المسجد، فالخروج مندوب إليه، كما روي أيضا عن سعيد بن جبير وهو ظاهر الآية، وموافق للسنَّة والأثر، وهو أنسب بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: ذكرًا كثيرًا قبل الصلاة وبعدها ولا تقتصروا على الصلاة. ولا ذِكْرَ حَالَ الخطبة إلَّا الاستماع لها.

﴿وَابْتَغُوا﴾ اطلبوا ﴿مِن فَضْلِ اللهِ﴾ إباحة للبيع بعد المنع عنه، فالمراد بفَضْلِ اللهِ فضلُهُ الدنيويُّ، وعن الحسن: المراد طلب العلم، وعن ابن عبَّاس:

---

(1) السرخسي: هو عبد الرحمٰن بن محمَّد بن محمَّد، أبو بكر، فقيه حنفيٌّ، من أهل سرخس، انتقل إلى خورسان، وولي قضاء البصرة مرَّتين، من كتبه: «تكملة التجريد» للكرماني في الفقه. **الزركلي**: الأعلام، ج 3، ص 326.

لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا، إنَّما هو عيادة مريض وحضور جنازة وزيارة أخ في الله تعالــى، وكذا روي عن أنس عن رســول الله ﷺ، ومراده ﷺ ومراد الحسن وابن عبَّاس التمثيل بما ذكر من العبادة.

وشهر أنَّ الأمر بعد النهي للإباحة، ولا يتعيَّن هذا إلَّا أنَّه ﷺ فسَّرَهُ بالعبادة لا بإباحة ما نهي عنه من البيع، لكن لا مانع من تفســير البيع بمطلق الشاغل عن السعي إلى الجمعة، ولو كان الشــاغل عبادة، كما أطلق الأكل على مطلق الإتلاف، فيكون قوله تعالــى: ﴿وَابْتَغُوا﴾ لإبَاحة ســائر العبادات بعدما نهوا عنها بعد الأذان، وإباحة سائر المباحات.

﴿**وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُــمْ تُفْلِحُونَ**﴾ تَفُوزُونَ بثــواب الذِّكر الكثير في الدنيا والآخرة، وبثواب سائر الأعمال الصّالحة.

[سبب النزول] قال البخاريُّ ومســلم والترمذيُّ عــن جابر بن عبد الله: بينما النبيء ﷺ يخطب يوم الجمعــة قائما إذ قدمت عيــر المدينة، فابتدرها أصحاب رســول الله ﷺ حتَّى لم يبق منهم إلَّا اثنا عشــر رجلا، أنا فيهم وأبو بكر وعمر، فأنزل الله تعالى: ﴿**وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً اَوْ لَهْوًا اِنفَضُّوا إِلَيْهَا**﴾ إلى آخر السورة، وفي بقاء اثني عشر وهو واقعة حال مناسبة لقول من قال: تتمُّ الجمعة باثني عشــر، لكن ليس في هذا دليل على أنَّ أقلَّ منها لا يجزي، وفي رواية ابن عبَّاس: بقي في المسجد اثنا عشــر رجلا وسبع نسوة، وقيل: إلَّا اثنا عشر رجلا وامرأة، وفيهم عمــر وأبو بكر، فقال رســول الله ﷺ: «**لو خرجوا كلُّهم لاضطرم المســجد عليهم نارا**»[1]، وعن قتادة: «لو اتَّبع آخركم أوَّلكم لالتهب الوادي عليكم نارا»[2].

---

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره: مج 10، ص 104، وقال: أخرجه ابن مردويه من حديث ابن عبَّاس.

(2) أورده **الآلوسي** في تفسيره: مج 10، ص 105. بدون تخريج.

وقيل: لم يبق إلَّا أحد عشر رجلا، قال غالب بن عطيَّة فيما رواه بعضهم: العشرة المبشَّرون بالجنَّة وعمَّار، وفي رواية: العشرة المبشرة وابن مسعود، وفي رواية ذكر جابر بن عبد الله وبلال، وفي رواية ذكر بلال وابن مسعود، دون جابر، وقيل: لم يبق إلَّا ثمانية وقيل: بقي أربعون.

ومعنى اضطرام المسجد عليهم نَارًا اضْطِرامُه لأجلهم نارًا، وكذا اضطرام الوادي، فَـ «علَى» للتعليل، وذلك دليل سوء إذا هدم المسجد لأجلهم نارا ولم يقبل بناؤه عنهم، وإذا اضطرم بطن واديهم نارا انتقاما، أو يحرقهم الله في الوادي، أو يردُّهم الله عَجَلِلّ إلى المسجد فيحرقه عليهم عقابا، فتكون «على» للاستعلاء.

وذلك أنَّه أصاب أهل المدينة جوع وغلاء، وخرجوا للعير، وهي لعبد الرحمٰن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تحمل طعاما، وقيل: لدحية بن خلف الكلبيِّ، وكان أهله يتلقَّونه بالدفوف إذا قدم، وتخرج إليه العواتق، ويضرب الدفُّ ليحضروا للشراء منه، إذ يقدُمُ بزيت ودقيق وغيرهما، وينزل عند أحجار الزيت بالمدينة، وهو مكان في سوق المدينة.

وفي هذه الرواية أنَّه ﷺ يقدِّم الصلاة على الخطبة وقد صلَّى، وجاء رجل يقول: إنَّ دحية قد قدم فخرجوا يظنُّون أنَّه لا يجب الاستماع للخطبة، وقد صلَّوا الجمعة، وبعد ذلك كان يقدِّم الخطبة.

[قلت:] وهذا غير معروف، والمعروف أنَّه لم يقدِّم الصلاة عليها قطُّ، وإنَّما يقدِّم الصلاة في العيدين.

والانفضاض: الافتراق، والضمير في «إِلَيْهَا» للتجارة، وخصَّها بالإضمار لأنَّها المقصودة بالذات، واللَّهْو تابع لها، كما مرَّ أنَّهم يستقبلون دحية إذا قدم بالتجارة بالدفوف.

وهذا إنَّما يناسب قدومه لا قدوم عير عبد الرحمٰن بن عوف، اللهمَّ إلَّا أن يكون تستقبل بالدفوف أيضا أو بغيرها، أو يقال: بالحذف، تقديره: أو إليه، بأن ينفضُّوا تارة للتجارة وتارة للَّهو بلا تجارة.

وإنَّما لا يحتاج إلى تقديرٍ بعْدَ «أَوْ» إذا صلح المذكور لهما على البدليَّة، نحو: زيدٌ أو عمرو قائم، فإنَّ لفظ «قائم» لائق بكلٍّ، وأمّا إذا لم يصلح لهما فلا بدَّ من التقدير، مثل ما هنا، فإنَّ لفظ «إِلَيْهَا» لا يصلح للَّهو. ويجوز تأويل التجارة واللَّهو بالخصلة، أو بنحو ذلك من المفردات المؤنَّثة، فيصلح ردُّ الضمير إليها شاملة لهما شمولا بدليًّا. قدَّم التجارة لأنَّها الغرض الأهمُّ لهم، وأمَّا اللَّهو فتابع كما علمت، وأُخِّرتْ في التفصيل بعدُ لتقع النفس أوَّلاً على ما هو أذَمُّ ومحرَّم مطلقا، ولو في غير صلاة الجمعة.

﴿**وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا**﴾ على المنبر، كان الواجب أن يمكثوا حتَّى تتمَّ الخطبة ويصلُّوا، فبعد ذلك لست قائما على المنبر.

[فقه] والآية على أنَّ الخطيب يكون على المنبر قائما لا قاعدا، وأوَّل من قعد فيه معاوية، وذلك لعجزه عن القيام. وسئل ابن مسعود وابن سيرين وأبو عبيدة هل كان رسول الله ﷺ يخطب قائما؟ فقالوا: أمَا تقرأ ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾؟. وكان عبد الرحمٰن بن الحكم يخطب قاعدا فدخل كعب بن عجرة فقال: انظروا هذا الخبيث يخطب قاعدا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾.

وقال أبو حنيفة: لا يشرط قيام ولا قعود، وكذا قال أحمد، وقيل: أوَّل من استراح في الخطبة عثمان، والمراد استراحة غير الجلسة التي رويت عنه ﷺ «**أنَّه كان يخطب خطبتين يجلس بينهما**»[1] رواه البخاريُّ ومسلم

(1) رواه **البخاري** في كتاب الجمعة (30) باب القعدة بين الخطبتين يوم الجمعة، رقم: 928. و**مسلم** في كتاب الجمعة (10) باب ذكر الخطبتين قبل الصلاة وما فيهما من الجلسة، رقم: 33 (861)، من حديث ابن عمر.

والترمذيُّ والنسائيُّ وابن ماجه عن ابن عمر، وكذا أبو بكر وعمر لهما جلسة بين الخطبتين.

وظاهر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً...﴾ إلخ أَنَّهُم فعلوا ذلك مرارًا، روى البيهقيُّ عن مقاتل أنَّهم فعلوه ثلاث مرَّات.

[قلت:] لا يصحُّ ذلك ولا دليل عليه، ولم يتبيَّن ذلك، ولو كان لَبُيِّنَ، بلْ كثيرًا مَّا يذكر الله تعالى ما وقع أو يقع مرَّة واحدة بلفظ يفيد التكرير، وبيان ذلك أنَّه من فتح باب فعل ففتحُه فتحٌ للتعدُّد، ولو لم يتعدَّدْ.

[فقه] وإذا افترق الناس عن الإمام وبقي معه اثنان أتمَّها جمعة اعتبارًا لبقاء حكم المبدإ للآخر، وَلَمَّا صحَّت أوَّلا انسحبت الصحَّةُ للآخر. وقيل: إن بقي معه ثلاثة، وقيل: إن بقي أربعون.

[فقه] والجامع أنَّه إنْ بقي معه قدر ما تتمُّ به وتجب على الأقوال السابقة في أقلِّ ما تنْعَقِدُ به فيتمُّها جمعة، وإن بقي أقلُّ نَقَضَهَا واسْتأنَفَها أربع ركعات، فقيل: إذا خرج على قدر ما يجزي ولو نقصُوا قبل قراءة الفاتحة، وقيل: إن أتمُّوا معه ركعة، وقيل: إن ركعوا، وقيل: إن قعدوا في التحيَّات بعد قعود، وقيل: أتمُّوا التحيَّات، وقيل: إن وصلوا منها إلى الطيِّبات، وقيل: إن سَلَّموا، وبعض هذه الأقوال مستخرج.

﴿**قُلْ مَا عِندَ اللهِ**﴾ من الثواب على استماع الخطبة والصلاة في الدنيا والآخرة. ﴿**خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ**﴾ اعتبر ما تحصل للنفس من منفعة دُنيَوِيَّة مُضْمَحِلَّة من اللَّهو، وما تحصل من منفعة التجارة، فَحَصل التفضيل.

وقدَّم اللَّهو لأنَّه أقوى مَذَمَّة، والمقام لذَمِّ من اشتغل به عن العبادة، وهو محرَّم في الجمعة وغيرها، ولا يقال: قُدِّم لأنَّه تخلية، لأنَّا نقول: لا تحلية

بعده، لأنَّ التجارة لا تتَّصف بها هنا، لأنَّها في مقام ذمِّ القاصد إليها. وأعيدت «مِن» لتأكيد أنَّ كُلًّا مستقِلٌّ بالذمِّ ولبعد اللَّهو من التجارة في المعنى.

﴿**وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾ فاسـعوا إليه في طلب الرزق يرزقكم، واسعوا إليه بالطاعة يَكْفِكُم مؤونة الرزق.

والله أعلم.

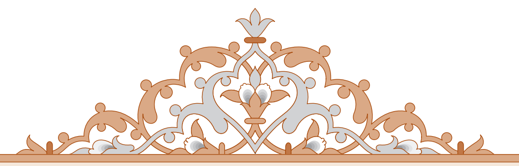
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



63

تفسير سورة المنافقون

مدنيَّة وآياتها 11 ـ نزلت بعد سورة الحج



﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ (1) ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (2) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (3) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (4) ﴾

بعض أوصاف المنافقين

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَآءَكَ**﴾ حضر مجلسك، عبَّر عن الحضور بالمجيء لأنَّ الحضور مسبَّبٌ عن المجيء، ولازم له اللزوم البَيَانِيَّ. ﴿**الْمُنَافِقُونَ**﴾ عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلول وأصحابه، بإثبات ألف ابن الثاني، لأنَّه ليس تابعا لأُبي، بل لعبد الله.

﴿**قَالُوا نَشْهَدُ**﴾ من قلوبنا شهادة صادقة ﴿**إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ**﴾ إلينا وإلى النَّاس كلِّهم، أكَّدوا بالشهادة المنزَّلة منزلة القَسَم، وبالجملة الاِسميَّة بعدها،

وبِـ «إِنَّ» وباللَّام في خبرها، وذلك من لازم الفائدة، لأنَّ المراد إعلام رسول الله ﷺ بأنَّهم عالمون برسالته.

﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ**﴾ حقًّا في نفس الأمر، كما نَطَقَتْ به ألسنتهم ولم توافق قلوبهم، وحقّ عليهم أن توافق، وأكّد بالعِلْم الجاري مجرى القسم، و«إِنَّ» والاسميَّة واللَّام.

واعتَرَضَ بهذه الجملة الحاليَّة بين ﴿قَالُوا نَشْهَدُ...﴾ إلخ وقوله ﷻ: ﴿**وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾ لئلَّا يكون اللفظ على صورة تكذيب مَا أثْبتوه من الرسالة، أو يَتوَهَّمُ مُتَوَهِّمٌ مَا هذا التكذيب.

والمعنى: والله يشهد إنَّ المنافقين كاذبون في قولهم: إنَّا شهدنا من قلوبنا أنَّه رسول الله ﷺ. والشهادة في كلامهم ليست مطلق إخبار محتمل للصدق والكذب، بل الإيقانُ. ولفظ «نَشْهَدُ» ونحوه من الأفعال والأسماء يفهم منه موافقة القلب، وهكذا وضع في اللغة، فتكذيبُ اللهِ إيَّاهم راجعٌ إلى مضمون هذا اللفظ، وهو موافقة القلب، وإلى ما قصدوه من دعوى الموافقة. ويجوز أن يكون المعنى: إنَّ المنافقين شأنهم الكذب، وإن صدقوا في قولهم هذا بحسب ما في نفس الأمر من ثبوت الرسالة.

ولا دليل للنَّظَّامِ[1] في الآية على قوله: الصدق مُطابقةُ الاعتقاد للَّفظِ ولو كان الاعتقاد خطأً، والكذب عدمها.

ويجوز أن يكون تكذيب الله ﷻ لهم في دعواهم أنَّهم قالوه كذبا عندهم، بمعنى: كاذبون في دعوى أنَّ قولهم كذب، إذ قولهم ذلك حقٌّ في نفس الأمر، ولو لم يذعنوا إلى أنَّه حقٌّ في نفس الأمر.

(1) هو إبراهيم بن سيَّار بن هانئ النظَّام، من أهل البصرة ومن رؤوس المعتزلة، كان شاعرًا أديبًا بليغا، انفرد بآراء خاصَّة تابعته فيها فرقة من المعتزلة. من تصانيفه: «النكت»، وله كتب في الفلسفة والاعتزال. تُوُفِّيَ سنة 231هـ. الموسوعة الفِقْهيَّة الكويتيَّة، ج 2، ص 423.

وأجاز بعض المحقِّقين أن يكون تكذيب الله إيَّاهم راجعا إلى حلفهم: واللهِ ما قلنا: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا﴾ وما قلنا: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى الْمَدِينَةِ...﴾ إلخ.

[سيرة] سمع رسول الله ﷺ بأنَّ الحارث بن ضرار منهم ـ وهو أبو جويرة زوج النبيء ﷺ ـ يجمع النَّاس لحربه ﷺ، فخرج ﷺ إليهم، فلقيهم على ماءٍ من مياههم يقال له المريسع من ناحية قديد إلى الساحل، فهزمهم وقتل منهم، فسباهم، وازدحم جَهْجَاهُ بن سعيد الغفاري أجير عمر قائد فرسه مع سنان بن وبر الجهنيِّ حليف بني عوف بن الخزرج على الماء، فاقتتلا فصرخ يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه يا معشر المهاجرين، وأعانه رجل فقير من المهاجرين اسمه جعدل، فقال له عبد الله بن أُبي: وإنَّك لهناك! فقال: وما يمنعني! فغضب عبد الله بن أُبي فقال: نافرونا وكاثرونا في بلادنا.

[سبب النزول] قال زيد بن أرقم: كنت في غزاة ـ يعني غزوة بني المصطلق ـ مع رسول الله ﷺ، فسمعت عبد الله بن أُبي ابن سلول يقول: لا تنفقوا على مَن عندَ رسول الله حتَّى ينفضُّوا مِن حوله، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، فقلت: أنت والله الأذلُّ المُبغضُ، ورسول الله الكثير الأعزُّ عند الله تعالى والمؤمنين، فقال له عبد الله: اسكت كنت ألعب. فذكرت ذلك لعمِّي، وذكره لرسول الله ﷺ فدعاني فحدَّثته.

فدعا رسول الله ﷺ عبد الله بن أُبي وأصحابه فحلفوا أنَّهم ما قالوا، فكذَّبني رسول الله ﷺ وصدَّقه فأصابني همٌّ لم يصبني قطُّ مثله، فجلست في البيت فقال لي عمِّي: ما أردت إلى أن كذَّبك ـ وفي لفظ إلَّا أن كذَّبك ـ رسول الله ﷺ ومقَتَك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ الْمُنَافِقُونَ...﴾، فبعث إليَّ رسول الله ﷺ فقال: «**إنَّ الله صدَّقك يا زيد**». رواه البخاريُّ، وفي رواية: فدعاهم رسول الله ﷺ ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم، أي كما يجيء في الآية.

ويروى أنَّ رسول الله ﷺ قال لأسـيد بن حضير: أَبَلَغَكَ ما ذُكر عن ابن عمِّك عبد الله بن أُبي؟ فقال: يا رسول الله، أنت والله الأعزُّ المخرِجُ له، وهو الأذلُّ، ارفق به يا رسـول الله، جئت المدينة وقومه ينظِّمون له تاج الرئاسـة، ويرى أنَّك سلبته ذلك، وقال عمر: يا رسـول الله دعني أضرب عنقه، فقال ﷺ: «**يتحدَّث الناس أنِّي أقتل أصحابي**»[1]، وقـال عبد الله بن عبد الله بن أُبي: دعني أقتله يا رسـول الله إن أردت قتلـه، وأحمل إليك رأسـه، وإنِّي أبرُّ به مـن كلِّ مَنْ أبَرَّ أبـاهُ في المدينة، وأخاف إن قتله غيري أقتلْهُ، فأكون قد قتلت مؤمنا فقال له عليه السلام: أحسن به ما حيي.

وَلَمَّا أراد دخـول المدينة قال: لا تدخلها حتَّى يأذن لك رسـول الله ﷺ، لتعلم مَن الأعزُّ، فشكاه إلى رسـول الله ﷺ، فقال: دعه يدخل، وفي البخاريِّ ومسلم أنَّه كسـع رجل لَعَّابٌ أنصاريًّا فغضب وقال: يا للأنصار، ودعا لعَّاب: يَا للمهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: «**ما بال دعوى الجَاهِلِيَّة؟!**» فأخبر بالكَسْعَةِ فقال: «**دعوها فإنَّها خبيثـة**»[2]، يعني اللَّعبة، أو دعوى الجَاهِلِيَّة أو الكسـعة. وقال ابن أُبي: «لئن رجعنا إلى المدينة...» إلى آخر القصَّة المذكورة.

فنقول: لعلَّ القصَّة والآية في شـأن ذلك اللَّعَّاب وجَهْجَاه معًا، وعلى كلِّ حال لَمَّا قيل ذلك عن ابن أُبـي واضطرب النَّاس تعجَّل الرحيل، فرحل حيث لا يرحل ليسكن الأمر.

والآية نزلت في قوله: «لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ...» إلخ، وقوله: «لَا تُنفِقُوا...» إلخ وقوله: «صِرْنا كما قيل: سمِّنْ كلبك يأكلْكَ».

ويروى أنَّ ريحا هاجت شـديدة، فقال ﷺ: هاجـت لرفاعة بن زيد مات بالمدينة من اليهود، وهو كهف للمنافقين.

---

(1) روى **البخاري** ما يقرب منه لفظًا، كتاب التفسير، سـورة المنافقون. رقم 4622. من حديث جابر بن عبد الله.

(2) هو جزء من الحديث السابق، وردَ بلفظ: «فإنها منتنة».

وقد ضلَّت ناقته ﷺ، ولم يدر أين ناقته، فقال منافق: لم يدر أين ناقته فكيف يدَّعي معرفة من في المدينة؟ فقال: لا أعلم إلَّا ما أعلمَنِي ربِّي، ناقتي في شعب كذا، أمسكها شجر برسنها، فوجدوها كذلك، فتاب المنافق وأصلح. وَلَمَّا وصلوا المدينة وجدوا رفاعة ميّتا في ذلك الوقت كما قال رسول الله ﷺ.

ومقتضى الظاهر: «إنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ»، وأظهر ليصفهم بالنفاق ذمًّا وإشعارًا بعلَّة الحكم.

وإذا كان ذلك مرَّة واحدة مضت فما معنى قوله ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَكَ...﴾ إلخ المشعر بالتكرير والاستقبال؟ الجواب: إنَّ الفتح لهذه المرَّة الواحدة فتح لتكرُّرها[1] فحصل التكرُّر والاستقبال حُكْمًا، وكأنَّه قيل: من شأنهم أن يتكرَّر منهم هذا.

﴿**اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ**﴾ حلفاتهم ﴿**جُنَّة**﴾ سترة وحصنا عن أن يُؤَاخَذُوا بالقتل والسبي والذمِّ وأخذ أموالهم، وعن أن يترك الصلاة عليهم إذا ماتوا، ولا بُعْدَ في هذا كما قيل، لأنَّ لهم استحياء عمَّا يُذمُّون به، ولا سيما ما لا يجبر بعد الموت، ويحبُّون الستر كلَّما ظهر منهم كلام سوء حلفوا ما قالوا لئلَّا يفعل بهم ذلك، وذلك على العموم.

ويجوز أن يراد بأَيْمَانهم شهادتهم السابقة، وقد علمت أنَّ الشهادة تستعمل بمعنى اليمين، وكذا العلْمُ وما يجري مجرى ذلك في مقام التأكيد، فيجاب بما يجاب القسم، لكن لا كَفَّارَة بالحنث فيه، لأَنَّ الحالف بذلك أراد التأكيد لا حقيقة الحلف، وعليه فجَمَعَ اليمين لأنَّ عبد الله حَلَفَ، وأصحابَهُ حلفوا. وهَبْ أنَّه وحده حلف لَكِنَّ أصحابه تَبَعٌ له، وراضون بحلفه، وذلك كلُّه باعتبار ما مضى، ويجوز أن يكون المعنى: هَيَّؤُوا لِمَا بعدُ لأنفسهم أنَّه كلَّما ظهر منهم سوء يحلفون أنَّهم ما فعلوه.

---

(1) يقصد ما ذكره سابقا في تفسير أواخر سورة الجمعة: «كثيرًا مَّا يذكر الله تعالى ما وقع أو يقع مرَّة واحدة بلفظ يفيد التكرير، وبيان ذلك أنَّه مَنْ فَتَحَ بَابَ فِعْلٍ ففَتْحُه فتحٌ للتعدُّد، ولو لم يتعدَّدْ».

﴿فَصَدُّوا﴾ منعوا كلَّ من أراد الإيمان أو من أراد الطاعة ما استطاعوا، فالفعل متعدٍّ، أو أعرضوا عن الإيمان والطاعة، فالفعل لازم ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ التوحيد والعبادة. ﴿إِنَّهُم سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ساءَ هو، أي: العمل، والمخصوص ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: كونهم يعملون. و«مَا» مَصدَرِيَّة. أو ساء هُو، أي: المعمولُ، والمخصوص: «مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»، و«مَا» اسم موصول، أو نكرة موصوفة. وعندي: لا مانع من الإتيان بفاعل باب «نِعْمَ» بلا إضمار ولا تمييز ولا مخصوص.

﴿ذَٰلِكَ﴾ ما ذكر من سوء عملهم، والصَّدّ عن السبيل، واتِّخاذ أَيْمَانهم جُنَّة ونفاقهم بإثبات الرسالة نطقا لا اعتقادا. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنَّهم ﴿ءَامَنُوا﴾ نطقا لا اعتقادًا ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ ظهر كفرهم، أي: شركهم، لنطقهم بما يصرِّح أنَّه لا إيمان في قلوبهم، كقولهم: لئن كان ما يقول محمَّد حقًّا لنحنُ أَسْوَأُ من الحمير، وقولهم في غزوة تبوك: أيطمع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى وقيصر؟! وأن يفتح الروم والشام في قلَّة من أصحابه وأعوانه، وقلَّة من ماله؟ وقد أخرجه قومه من بلده وصدُّوه عن الحجِّ!.

[قلت:] وقد يتمنَّى الإنسان أن يكون على عهده ﷺ، وهو غفلة عظيمة، وليس كلُّ من على عهده مؤمنا، فلعلَّه يكون على عهده فيكون كأبي جهل، أو كعبد الله بن أُبي، ولا سيما من رأى في نفسه قسوة وعنادًا عن الحقِّ ومراعاةً لحظِّ نفسه.

و«ثُمَّ» للتراخي الزمانيِّ، لأنَّه ما ظهر إشراكهم الباطن إلَّا بعد مدَّة من شهادتهم على الرسالة باللسان. أو للتراخي الرتبيِّ، لبُعد التلفُّظ بالشهادة عن اعتقاد الشرك، وكذا إن كان المعنى: آمنوا عند المؤمنين، وأسرُّوا الكفر عند أصحابهم.

والفصل بغير المعهود تراخٍ ولَوْ لَمْ يَطُلْ، وإن كان معنى ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾: ثمَّ أسرُّوا الكفر، فللتراخي الرتبي.

ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ الآية في أهل الـــردَّة، لأنَّ الكلام قبلُ في المنافقين، إلَّا إن ذُكِرَ اسمُ الإشــارة عقِبَ ذلك بِلَا فَصْلٍ، ولا وجُودَ شيءٍ يشار إليه غير حالهم، وكذلك الكلام بعدُ في المنافقين.

﴿**فَطُبِعَ عَلَـىٰ قُلُوبِهِمْ**﴾ غُطِّـيَ عليها حتَّـى يموتوا على الكفـر. ﴿**فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ**﴾ حقيقة الإيمان، فلا يرغبون فيه، ولا سيما أنَّه منافٍ لما هو حالهم.

﴿**وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَـامُهُمْ**﴾ لتعهُّدهم لها بالتنظيـف والتنعُّم بالأكل والشـرب للمسـتلذَّات، والراحة، والجاه في قومهم. ﴿**وَإِنْ يَّقُولُـوا**﴾ كلاما، أيَّ كلامٍ، فالحذف للعموم، أو المعنى: إن صدر منهم قول، فلا مفعول له. ﴿**تَسْـمَعْ لِقَوْلِهِمْ**﴾ يُعْجِبْكَ قولُهم وتستحسـنه، والإعجاب والاستحسـان سـبب للإصغاء والاسـتماع، فعبَّـر بالمسـبَّب واللَّازم، فـإنَّ الاسـتماع مترتِّب على الحسـن. و﴿تَسْمَعْ﴾ بمعنى تستمع، ولذلك كان باللَّام، كأنَّه قيل: تُصْغِ لقولهم، ويجوز أن يكون بمعنى: تَقْبَلْ، يقال: تَكَلَّمَ وما سمعْتُ كَلَامهُ، أي: لم أقبله، وتكلَّم وسمعت كلامه: قبلتُه، يدلُّ على ذلك دليل، لكن تكون اللَّام زائدة على هذا الوجه.

والخطاب للنبيء ﷺ، كما أنَّه له في قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ﴾، ولأنَّ الأصل في المخاطـب التعييـن، ولأنَّ استحسـانه ﷺ لقولهم يثبت استحسـان غيره له بالأولى. والمراد بـ﴿قَوْلِهِمْ﴾ قولهم فـي المباحات والحيل ونحوها، فيعجبه ذلك مع فصاحتهم وبلاغتهم وحلاوة ألسـنتهم. وهنا تمَّ الكلام، واسـتأنف لذمِّهم قوله تعالى:

﴿**كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ**﴾ جمع خَشَبَة (بفتح الخاء والشين) كَثَمَرَةٍ وثُمُرٍ، والمراد مطلق الخشـب، خشـب النخل أو الشـجر. وقيـل: الجملة حـال من هاء ﴿قَوْلِهِمْ﴾، ولا بأس، ولا نسـلِّم أنَّ الحاليَّة تفيد تعليل سماع قولهم بكونهم كالخشـب المسـنَّدة، مع أنَّه ليس كذلك فإنَّك إذا قلت: مررت بزيد راكبا لم يفهم عاقل أنَّ الركوب علَّة للمرور.

﴿مُسَـنَّدَة﴾ إلى نحو حائط، ووجه الشبه الخلوُّ من الفائدة، لأنَّه لا إيمان في قلوبهم ولا نفع فيهم للإيمان، وذلك حالُهم في كلِّ موضع قعدوا فيه، ولا يختصُّ بكونهم في مجلس رسول الله ﷺ، وإنَّما كونُهُم واقعةُ حالٍ وفرضُ مسألة.

ووصَفَ الخشبة بالمسنَّدة لأنَّ التي في السقف والمركوزةَ عُمدةٌ لشيءٍ، والمجعولةَ ساريةً أو معلاقًا، أو ركبَ سرير أو سفينةٍ، أو جُعِلَتْ آلةً لعملٍ، أو كانت شجرةً مثمرة، أو نحو ذلك، فيها فائدةٌ. وقيل: المراد بالخشب المسنَّدة **الأصنام المنحوتة من الخشب، لها أعين لا تبصر بها، وآذان لا تسمع بها.**

﴿يَحْسِبُونَ﴾ لِشِدَّةِ جبنهم ﴿كُلَّ صَيْحَةٍ﴾ كصوت من ينشد ضالَّة، وصوت المتقاتلين، وصوت من يستغيث، إذا لم يتحقَّقوا ذلك ﴿عَلَيْهِمْ﴾ مفعول ثانٍ لـ«يَحْسِبُ»، أي: ثابتة عليهم، أو يُقَدَّرُ كونٌ خاصٌّ، أي: واقعة عليهم، وذلك كما قال المتنبي:

وضاقت الأرض حتَّى صار هاربُهم إذا رأى غَيْرَ شيء ظَنَّهُ رجلاً

وقال جرير وهو إسلاميٌّ يخاطب الأخطل، وهو نصرانيٌّ:

ما زلت تحسب كلَّ شيء بعدهم خيلا تكرُّ عليهم ورجالا

وقيل: إذا سمعوا صيحة ظنُّوا أنَّه في شأن وحي يهتك أستارهم، ويبيح دماءهم وأموالهم وسبيهم. والوقف على ﴿عَلَيْهِمْ﴾، وهو وقف تامٌّ.

وزعم بعض أنَّه يجوز أن يكون «عَلَيْهِمْ» متعلِّقًا بـ«صَيْحَةٍ». وقوله: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ مفعول ثان، ولا يصحُّ إلَّا بردِّ قوله: ﴿هُمُ﴾ إلى الصيحة، وتجعله في مقام «هو»، على أنَّه عائد إلى «كُلَّ»، أو في مقام «هي» العائد إلى الصيحة، وبدعوى أنَّه جُمِعَ مراعاةً للخبر، وأنَّه كان ضمير العقلاء مراعاة له أيضا، وذلك تكلُّف لا نحتاج إليه.

وأيضا لا يناسبه قوله تعالى: ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ لأنَّه تفريع لا يصِحُّ أن يترتَّب على حسبان الصيحة عدُوًّا، وإنَّما يترتَّب على أنَّ المنافقين عدوٌّ، بردِّ قوله: ﴿هُمُ﴾ إلى ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾، وهو مبتدأ.

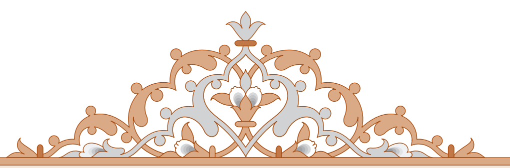
﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ لعنهم الله وطردهم عن رحمته ﷻ، والجملة إخبار، أو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك، والمراد: قولوا لعنهم الله.

[قلت:] ولا يجوز في الشريعة وفي حقِّ الله سبحانه وتعالى ما قيل: إنَّه دعاء وطلب من ذاته سبحانه أن يلعنهم ويطردهم من رحمته تعالى، وإنَّه من أسلوب التجريد البديعيِّ، لأنَّ هذا سوء أدب، ويؤُول إلى تشبيه الله ﷻ بخلقه.

[نحو] ﴿أَنَّىٰ﴾ كيف؟ أو من أين؟ وعلى الثاني تكون اسمًا متضمِّنا معنى حرف، وهو «مِنْ» الابتدائيَّة ومعنى اسمٍ وهو «أين»، كما أجاب في آية أخرى بقوله تعالى: ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: 37]، وفي أخرى: ﴿مِنْ عِندِ أَنفُسِكُم﴾ [سورة آل عمران: 165]، فاحفظه ولعلَّك لا تجده في كتاب.

﴿يُوفَكُونَ﴾ يُصْرَفُونَ عنِ الإيمان مع ظهور أنَّه الصَّواب وأنَّه النَّافع. والاستفهام تعجيب.

[سبب النزول] وَلَمَّا صدَّق الله ﷻ زيد بن أرقم في قوله: إنَّ عبد الله بن أُبي قال: «لا تنفقوا على من عند رسول الله...» إلخ. وقال: «لئن رجعنا إلى المدينة...» لَامَ ابنَ أُبَيٍّ المؤمنون من قومه ومقَتَهُ النَّاس، وقال بعض المؤمنين من قومه: اعترفْ عند رسول الله ﷺ يستغفرْ لك، فلوى رأسه، وقال: أشرتم إليَّ بالإيمان فآمنت، وبالزكاة ففعلت، ولم يبق إلّا أن تأمُرُوني بالسجود له، فنزل قوله تعالى:



﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾

صورة عن كذب المنافقين ونفاقهم

[سبب النزول] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ وروي أنَّه ﷺ قال له: تُبْ، فجعل يلوي رأسه، فنزلت الآية.

وضمير الجماعة مع أنَّ اللَّاوي لرأسه ابن أُبي وحده، لأنَّهم فعلوا مثله، أو رضوا، أو للحكم على المجموع، نحو: فعل بنو تميم كذا، إذا فعل بعضهم.

وأمَّا وجه استعمال «إِذَا» في مقام الشعور بالتكرُّر مع أنَّه لا تكَرُّرَ فمضى آنفا. [قلت:] وألهمني الرحمن الرَّحيم وجهًا حسنا جدًّا، وهو أن يحكم بخروج «إذا» عن الشرط فلا تفيد العموم.

ومعنى ﴿لَوَوْا رُءُوسَهُمْ﴾: حرَّكوها جانبا حقيقة، يشيرون بتحريكها إلى الإنكار، وذلك تكبُّر في قصدهم كما بيَّنه بالحال، وهو قوله ﷻ:

﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ من التوبة والإذعان. وقيل: لم يحرِّكوها، وذلك كناية عن الامتناع.

و﴿يَصُدُّونَ﴾ بمعنى: يعرضون. والمضارع للتجدُّد. والرؤية بصريَّة، والمرئيُّ أثر الصَّدِّ لا نفسُه.

﴿**سَوَآءٌ عَلَيْهِمُۥٓ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمُۥٓ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ**﴾ لا فائدة في الاستغفار لهم، فهو مستوٍ مع عَدَمِهِ، لأنَّهم مصِرُّونَ عن التوبة، فلا يفيد استغفارك، كما قال معلِّلاً للتسوية: ﴿**لَنْ يَّغْفِرَ اللهُ لَهُمْ**﴾ وعلَّلَ هذا بقوله: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي**﴾ هداية توفيق ﴿**الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ الرَّاسِخِينَ في الخروج عن الإيمان، وهم عبد الله بن أُبي، ويدخل غيره بالقياس عليه، وبغير هذه الآية أيضا.

وأظهر ليصفهم بكمال الفسق، أو المراد عموم الفاسقين فيدخل هؤلاء بالأولى. والاستغفار لعبد الله بن أُبي على تقدير توبتهم، وعدم الاستغفار على تقدير الإصرار، كما قال سعيد بن جبير.

وَحَكَى مَكِّيٌّ(1) أنَّه استغفر لهم، لأنَّهم أظهروا له الإسلام، أي: بعدما صدر منهم ما صدر بالتوبة، وأمَّا قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمُۥٓ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُم...﴾ إلخ [سورة التوبة: 80]، فليست في عبد الله بن أُبي بل في اللَّامِزين، وكلا الفريقين منافق.

وقد قيل: إنَّه ﷺ قال: «**أستغفر لهم أكثر من سبعين مرَّة ما لم ينهني ربِّي**» قيل: فنزلت: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمُۥٓ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمُۥٓ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ نهيًا، فَتَرَكَ، فتكون هذه الآية نزلت بعد براءة.

[**قلت**:] ولا نسلِّم هذا، فإنَّ هذه في الفاسقين مطلقًا، أو في عبد الله بن أُبي، وآية براءة في اللَّامِزِينَ.

(1) تقدَّم التعريف به، انظر: ج 5، ص 379.



[سيرة] وعن ابن سيرين: لَمَّا قال ابن أُبي: «لَئِن رَجَعْنَا...» إلخ بأيَّام قليلة مرض واشتدَّ وجعه، وسأل عبدُ الله ولدُهُ النبيءَ ﷺ أن يدخل عليه، فدخل فقال: «إذا متُّ فاشهد غسلي واكفنِّي في ثلاثة أثواب من ثيابك، وامْش مع جنازتي، وصلِّ عليَّ»، ففعل ذلك كُلَّه لشفاعة ابنه، فنزل: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم...﴾ إلخ [سورة التوبة: 84].

﴿هُمُ الذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ دُومُوا على عدم الإنفاق على من عنده حتَّى يتفرَّقوا. أو «حَتَّى» للتعليل. وهذا استئناف في ذمِّ عبد الله بن أُبي وأصحابه. ويضعف ما قيل: إنَّه تعليل جمليٌّ لقوله: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ وتقدَّمت قصَّة زيد بن أرقم في هذه الآية.

[سيرة] وفي الترمذيِّ ـ ولي منه نسخة قديمة مجوَّدة محشًّى عليها ـ عن زيد بن أرقم: غَزَوْنَا مع رسول الله ﷺ، وكان معنا ناسٌ من الأعراب، فكنَّا نبتدر الماء، وكان الأعراب يسبقوننا إليه، فيسبق الأعرابيُّ أصحابه، فيملأ الحوض، ويجعل حوضه حجارة، ويجعل النطع عليه حتَّى يجيء أصحابه، فأتى رجل من الأنصار، فأرخى زمام ناقته لتشرب، فأبى أن يدَعه، فانتزع حجرا ففاض، فرفع الأعرابيُّ خشبة، فضرب رأس الأنصاريِّ فشجَّهُ، فأخبر الأنصاريُّ عبد الله بن أُبي رأس المنافقين فغضب، وكان من أنصاره فقال: «لَا تُنفِقُوا عَلَى مَن عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا» يعني الأعراب، ثمَّ قال لأصحابه: «إذا رجعتم إلى المدينة فليخرج الأعزُّ منها الأذلَّ»، وأنا ردف عمِّي وسمعت ما قال عبد الله، فأخبرت عمِّي، فأخبر رسولَ الله ﷺ... إلى آخر ما مرَّ.

وإنَّما قال عبد الله وأصحابه: «رسول الله» منافقةً من جملة نفاقهم، فإنَّه لم يعتقد رسالته، أو قالوه تهكُّمًا، أو لأنَّ لفظ «رسول الله» كالعَلَم عليه قَصَدَ منه الذَّاتَ دون الرسالة، أو أرادوا: رسول الله عندكم، أو قالوا: «على من عند محمَّد» فذكر الله تعالى بدل هذا اللَّفظ: «رسول الله» إكراما له، ونقضًا لإنكارهم.

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ﴾ لا ينفضُّون بترك الإنفاق عليهم، لأنَّ الله الذي له الخزائن كلُّها ينفق عليهم. والخزائن بمعنى المملوكات المحافظ عليها لعزَّتها، لا خصوص الأرزاق والأجسام، فإنَّه ليس في السماوات طعام ولا لباس، أو أراد الأمطار من جهة السَّماوات، والأمطار في ضمنها المطعوم والمشروب. والواو للحال.

﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ المذكورين ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ لجهلهم بالله وأفعاله وصفاتِه، فهم يقولون ما يقول المشركون، إذ في قلوبهم الإشراك. والفقه أبلغ من العلم، فنفيُ العلم أبلغ من نفي الفقه، فذكر هنا الفقه وفيما يأتي العلم، فأوثِرَ ما هُوَ أبلغ لما هو أدعى له.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الَاعَزُّ مِنْهَا﴾ يعنون عبد الله بن أُبي وأصحابَهُ، أو أراد عبدُ الله نفسَه، فإنَّه القائل ونُسِبَ لأصحابه أيضا لأنَّهم راضون بقوله. ﴿الَاذَلَّ﴾ يعنون رسول الله ﷺ الذي أعَزَّه الله، أو إيَّاه والمؤمنين، فتكون «ال» للجنس، وقد أعزَّهم الله.

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ ضدُّ الذلَّة. والكبْر ضدُّ التواضع، وقيل: العزَّة صفة تنافي المغلوبيَّة، ولا بأس في نسبة المعنيين إلى الله ورسوله والمؤمنين.

وكِبْرُ الإنسان من جهله بنفسه، وإنزالها فوق منزلتها، وعزَّته معرفته بحقيقة نفسه، فإنَّ من شأنها أن يعزَّها بالتذلُّل إلى الله ﷻ، وإكرامها أن لا يَحُطَّها.

[بلاغة] ﴿وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُومِنِينَ﴾ لا لغير الله ورسوله والمؤمنين، قصر قلبٍ، ولا لغير الله ورسوله والمؤمنين مع الله ورسوله والمؤمنين، قَصْر إِفْرادٍ، فالتقديم للحصر، و«لِرَسُولِهِ وَلِلْمُومِنِينَ» في نية التقديم على العزَّة، وأعيدت اللَّام للتأكيد، وللفرق بين عزَّة الله ﷻ وهي ذَاتِيَّة، وعزَّة رسوله بالرسالة، وعزَّة المؤمنين باتِّباع الرسالة.

[سيرة] وكان لعبد الله بن أُبي ولد سمَّاه عبد الله، صحابيٌّ مخلص رضي الله عنه. لَمَّا أشرفوا على المدينة سلَّ سيفه على أبيه فقال: والله لا أغمده حتَّى تقول: محمَّدٌ الأعزُّ وأنا الأذلُّ، فلم يبرح حتَّى قال ذلك.

وروي أنَّه كان النَّاس يدخلون، فجاء أبوه يدخل فقال: وراءك، فقال: ما لك؟ ويلك؟ فقال: والله لا تدخلها أبدًا حتَّى يأذن رسول الله ﷺ، ولتعلمنَّ اليوم الأعزَّ من الأذلِّ، فرجع حتَّى لقي رسول الله ﷺ، فشكا إليه ما صنع ابنه، فأرسل إليه: اتركه يدخل، ففعل. وأقول: وقع ذلك كلُّه، قهره أن يقول: محمَّد الأعزُّ وهو الأذلُّ وأن لا يدخلها إلَّا بإذن رسول الله ﷺ، وهكذا ينبغي الجمع إذا أمكن.

وكذلك قال عمر رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «**لا يتحدَّث النَّاس أنِّي أقتل أصحابي**». وروى قتادة: قال عمر: يا رسول الله، مُرْ معاذا أن يضرب عنق هذا المنافق، فقال ﷺ: «**لا يتحدَّث النَّاس...**» إلخ[1] وما بقي بعد نزول هؤلاء الآيات فيه إلَّا قليلا مرض فمات إلى النَّار.

﴿**وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ لا علم لهم، لفرط جهلهم، فلا مفعول لـ«يَعْلَمُ»، أو لا يعلمون أنَّ الأرزاق بيد الله عز وجل، وأنَّ العزَّة لمطيعيه، وأنَّ الإضرار بالمؤمنين وقطع النفقات عنهم إضرارٌ بأنفسهم، وأن لا عزيز إلَّا من أعزَّه الله، ولا عزَّ إلَّا عزُّ الدِّين والآخرة.

---

(1) رواه الشيخان. **البخاري** في كتاب التفسير، باب قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ... ﴾، سورة المنافقون، رقم: 4622. من حديث جابر بن عبد الله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١١ ﴾

تحذير المؤمنين من أخلاق المنافقين
وأمرهم بالإنفاق في سبيل الخير

وَلَمَّا ذكر أنَّ المنافقين يأمرون بقطع الإنفاق استأنف الكلام بالنَّهي عن الاشتغال بالأموال والأولاد عن الطاعة، و[استأنف] الكلام بالأمر بالإنفاق إذ قال:

﴿ **يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ** ﴾ أي: الاشتغال بأحوالهما التي يستغنى عنها، ويجوز أن يكون عبارة عن الدنيا مطلقًا، لأنَّهما أعظم ما فيها.

[بلاغة] واللفظ نهيٌ للأموال والأولاد تجوُّزًا في الإسناد للمبالغة، والأصل لا تلهوا بأموالكم ولا أولادكم، أو تجوُّزٌ بالسبب عن المسبَّب، أي: لا تكونوا بحيث تلهيكم أموالكم ولا أولادكم.

﴿ **عَن ذِكْرِ اللهِ** ﴾ الصّلاة وسائر العبادات، الفرض والنفل، والعبادة سبب لخطور ذكر الله في القلب، فعبَّر بالمسبَّب عن السَّبب.

وعن الحسن: الفرائضُ، وعن الضحَّاك وعطاء: الصلاة المفروضة، وعلى الكلبيِّ: الجهادُ مع رسول الله ﷺ، وهو قول بعيد، وقيل: القرآن، **والعموم أولى**.

﴿**وَمَنْ يَّفْعَلْ ذَالِكَ**﴾ ما ذكر من إِلْهَاءِ الأموال والأولاد. ﴿**فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ إذْ ضيَّعوا أبدانهم وأموالهم وكلَّ ما لهم من الدنيا، ولم ينتفعوا به للآخرة، واستوجبوا النَّار. ولا يخفى ما في ذلك من التأكيد بإشارة البعد، والجملة الاِسمِيَّة، وضمير الفصل، والحصر.

﴿**وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم**﴾ «مِنْ» للابتداء، وقيل: للتبعيض، والأوَّل أولى، لشموله الإنفاق للكثير والقليل، إلَّا مَا يَبقَى الإنسانُ بإنفاقه محتاجًا، وذلك بالنظر واختيار الصلاح، بخلاف الأمرِ من أوَّل مرَّة بالبعض.

وذلك شاملٌ للإنفاق من المال، وللإنفاق من قوَّة البدن، وللإنفاق باللِّسان، ومن الجاه، ومن العلم بالدِّين؛ قال رسول الله ﷺ: «**خير النّاس من يشفع للنَّاس**». وعن عمرو بن دينار[1] عن رسول الله ﷺ قال: «**اشْفعوا تؤجَروا فإنَّ الرّجلَ منكم يسألنِي فأمنعه كيما تشفعوا فتؤجروا**»[2].

وعن الحسن البصريِّ: «الشفاعة يجري أجْرها لصاحبها ما جرت منفعتها». وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَّشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً...﴾ إلخ [سورة النساء: 85] هو الشفاعةُ بعضٌ لبعضٍ.

سأل رجل رسول الله ﷺ بعيرًا يغزو به، فبعثه إلى رجل من الأنصار، فجاء منه ببعير، فقال ﷺ: «**الدَّالُّ على الخير كفاعله**»[3].

---

(1) هو عمرو بن دينار أبو محمَّد الجمحيُّ المكِّيُّ، ولد سنة 46هـ، وقد روى الحديث عن ابن عبَّاس وأبي هريرة وغيرهما. وروى عن قتادة وشعبة وغيرهم. وكان فقيهًا ومفتي أهل مكَّة. تُوُفِّيَ سنة 126هـ. الموسوعة الفِقْهِيَّة الكويتيَّة، ج 7، ص 340.

(2) رواه **النسائيُّ** في كتاب الزكاة (65) باب الشفاعة في الصدقة، رقم 2556. و**أبو داود** في كتاب الأدب، باب في الشفاعة، رقم 5132 بنفس المعنى واختلاف في اللفظ. من حديث معاوية.

(3) تقدَّم تخريجه. انظر: ج 4، ص 502.

ويقال: لكلِّ شـــيء صدقة، وصدقة الرئاسة الشفاعةُ وإعانة الضُّعفاء، وعن بعض الأدباء: من كان دخَّالاً على الأمراء ولا يكون متشَفِّعًا فهو دَعِيٌّ.

أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «إنَّ عبدا من عبادي يأتي بالحســـنة فأدخله الجنَّة، قال: يا ربِّ ما تلك الحسنة؟ قال: تفريج كربة عن مؤمن ولو بشقِّ تمرة».

وقيل: المـــراد بالإنفاق الزكاة وما ينفـــق في الحجِّ، وبه قـــال ابن عبَّاس والضَّحَّاك.

﴿مِن قَبْلِ أَنْ يَّاتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ مقدِّمات الموت «والدِّرهم في الحياة خير من سبعين بعد الموت»، وفي الآية أمْرٌ بالإنفاق حَالَ الصِّحَّة، أمَّا إذا تُركَ الإنفاق حتَّى أتى مقدِّمـــات الموت، فالإنفاق حينئـــذ ضعيف، وهو مع ذلك أفضلُ من الإيصاء بالإنفاق، وجاء الأثر: «أنفق وأنت صحيح شـــحيح»، أي: شحُّ النفس بالطبع، تأمل البقاء وتخشى الفقر.

﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ﴾ هَلَّا، وهو لفظ يُقال عند الرغبة في شيء ﴿أَخَّرْتَنِي﴾ عن الموت ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ مدَّة قريبة، لَمَّا حضَرَهُ الموت لم يطمع إلَّا في مدَّة قصيرة ولو وجد الطويلة لرغب فيها أكثر، وذلك إذا لم يتيسَّر له التصدُّق حين حضر له أثر المـــوت، لفَقْدِ ما يتصـــدَّق بهِ، أو لفقد حضـــوره، أو عدم التصرُّف في ذلك، واختيار من يعطيه ذلك، أو ضعف عقله وتمييزه. وعن ابن عبَّاس: سؤال التأخير هو طلب الرجوع إلى الدنيا بعد الموت.

[صرف] ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ أتصدَّق، أبدلت التاء صَادًا وأدْغمت في الصَّاد، وقد قرأ بعض بالفكِّ. والمراد التصدُّق بما يمكن.

[نحو] ﴿وَأَكُن﴾ عطف على معنى إسقاط فاء ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، إذ لو أسقطت لجزم «أصَّدَّق»، وهو في غير كلام الله عطف توهُّم، أو الجزم في جواب شرط مقدَّر، أي: وإن أخَّرتني أكن.

﴿مِّنَ **الصَّالِحِينَ**﴾ المُؤَدِّين للفرائض والنفل، التاركين للمعاصي. وعن ابن عبَّاس: ﴿أَصَّدَّقَ﴾: أزَكِّي، ﴿وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾: أحجُّ. وعنه عن رسول الله ﷺ: «**من كان له مال يبلغه حجَّ بيت ربِّه أو يجب عليه فيه الزكاة فلم يفعل، سأل الرجعة عند الموت**»، فقيل له يا ابن عبَّاس: «**اتّق الله إنَّما يسأل الرجعة المُشرك**» فقال: سأتلو عليكم بذلك قرآنا: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُم...﴾[1] إلى آخر السُّورة. وعنه: نزلت الآية في مانع الزكاة، والله لوْ رَأَى خيرًا لَمَا سأل الرجعة.

﴿**وَلَنْ يُّوَخِّرَ اللهُ نَفْسًا اِذَا جَآءَ اجَلُهَا**﴾ إذا جاء آخر عمرها، فالأجل آخر المدَّة، وقيل: مدَّة العمر، ومعنى مجيئها انتهاؤها. ﴿**وَاللهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ فمجازيكم.

والله الموفِّق المستعان.

والصَّلاة والسَّلام على رسول الله وآله وصحبه.



(1) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره: مج 10، ص 811. وقال: أخرجه الترمذيُّ وابن جرير والطبرانيُّ، من حديث ابن عبَّاس.

64

تفسير سورة التغابن

مدنيَّة وآياتها 18 ـ نزلت بعد سورة التحريم

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (4) ﴾

مظاهر قدرة الله

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ**﴾ بلسان الحال أو القال ﴿**مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾ من الدَّوابِّ والملائكة. والمضارعُ للتجدُّد والاستمرار في هذا الموضع وشِبهِهِ. ومعنى التسبيح: التنزيه عمَّا لا يليق به، وهو متعدٍّ، ولكن جيء باللَّام لتضمُّن معنى الانقياد.

﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ عبارة عن المخلوقات كلِّها، كما يعبَّر عن الصحابة مطلقا بالمهاجرين والأنصار، كما صَرَّحَ به بعض المفسِّرين في أوائل سورة الجمعة. وقدَّم «السَّمَاوَاتِ» لشرفها وعدم المعصية فيها، وكثرة

العابدين فيها، وعـدم بطلان عبادةٍ مَّا من عبادتهم، وقوَّة تسـبيحهم وصفائه، وعنه ﷺ: «**ما من مولود إلَّا مكتوب في تشـبيك رأسه خمس آيات من فاتحة سورة التغابن**»، ذكره الشوشاوي[1].

﴿**لَهُ**﴾ وحده لا مع غيره ﴿**الْمُلْكُ**﴾ جميع المملوكات أجسامًا وأعراضا، ولا ملك لغيره إلَّا صورة وعارية منه، أو هو بالمعنى المصدريِّ.

[قلت:] وَهَبَنَا اللهُ أشـياء انتفعنا بها ونفعنا بها غيرنـا، ونُثاب على ذلك بفضله إن شاء الله الرحمن الرَّحيم، كما تسـتعير شيئا من غيرك لنفعك وتنفع غيرك بنفعك.

وقدّم المُلك على الحمدِ لأنَّه دليل الحمد، والحمد يكون على ما مَلَكَهُ.

﴿**وَلَهُ**﴾ وحده لا مع غيره ﴿**الْحَمْدُ**﴾ على ما أعطانا بلا واسطة مخلوق أو بواسطة، والحمد هنا الشـكر، أو الثناء على الأوصاف والأفعال، ﴿**وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ لأنَّ قدرته ذَاتِيَّة لا تتفاوت معها الأشياء.

﴿**هُوَ الذِي خَلَقَكُمْ**﴾ أيُّها النَّاس، استشهاد لقدرته ببعض أفعالِه، ومن أفعاله غيرُ ذلك، وهو خلقَ الجنَّ وخلق الملائكة وخلق غير ذلك. ﴿**فَمِنكُمْ كَافِرٌ**﴾ به ﴿**وَمِنكُم مُّومِـنٌ**﴾ به وذلك تَرتَّبَ على الخلق، أي: ترتيـب من خلقه إيَّاكم أنَّ بعضًا كافرٌ وبعضًا مؤمنٌ، كقوله: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ...﴾ إلخ [سورة الحديد: 26].

[أصول الدين] أو ذلك تفصيل لإجمالِ خَلْقِـه تعالى للمخاطَبين، كقوله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ...﴾ إلخ [سورة النور: 45]، فالكفر والإيمان في ضمن الخلق، فهما مخلوقان لله تعالى كسائر أفعال الخلق واعتقاداتهم.

---

(1) أورده **السـيوطيُّ** في الدر: مج 6، ص 251. وقال: أخرجه ابن حبَّان في الضعفاء، والطبرانيُّ وابن مردويه وابن عساكر. من حديث ابن عمرو.

والحجّــةُ النَّقْلِيَّة مثل قولــه تعالى: ﴿خَلَقَ كُلَّ شَــيْءٍ﴾ [ســورة الأنعام: 101، وسورة الفرقان: 2]، ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [سورة فاطر: 3].

وَالعَقْلِيَّةُ أن يقال: كيف يخلق الإنســان مثلا فعله؟ ولــو فعله خطأً أو في المنام؟ وكيف يخلقه غافلا عن أبعاضه ولا يدري كــم هي؟ ولا أحوالها مع تعمُّده للفعل، إذا تعمَّده مع حضور عقله؟.

وأمّا قوله ﷺ: «**إنَّ خلْــق أحدكم يُجمع في بطن أمِّــه أربعين يوما نطفة، وأربعين علقة، وأربعين مضغة، ثمَّ يبعث الله تعالــى ملَكا يكتب رزقه وأجله وعمله وشقاوته أو ســعادته، ثمَّ ينفخ فيه الروح**»(1). وحديث أبي ذرٍّ المرفوع: «**إذا مكث المنــيُّ في الرحــم أربعين ليلة أتــاه ملك النفوس، فعــرج به إلى الربِّ سبحانه وتعالى، فيقول: يا ربِّ أذكر أم أنثى؟ فيقضي الله ما هو قاض، فيقول: أشقيٌّ أم سعيدٌ؟ فيكتب ما هو لاق**» وقرأ من أوَّل السورة إلى قوله: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾(2) **فلا دليل فيهما، لأنَّ المعتزلة** يقولون: الفاعل يخلق فعله.

[أصول الدين] والله عالم بما يفعله علمًا أزليًّا، وقاضٍ، ويكون حجَّة على من زعم منهم أنَّه لا يعلمه الله تعالى حتَّــى يكون، فالحديث قاضٍ بعلمه قبل أن يكون، لا صريح في أنَّه تعالى خالقه.

ووجه الجمع بين الحديثين أنَّ الرافع فــي الحديث الثاني غير الرافع في الأوَّل، والرفع مرَّتين، وفي أحدهما ما ليس في الآخر.

وفي مســلم عنه ﷺ: «**خلق الله للنَّار أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للجنَّة أهلاً وهم في أصلاب آبائهم**» وذلك باختيارهم.

---

(1) رواه **البخاريُّ** في كتاب التوحيد، باب: ﴿وَلَقَدْ سَــبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا...﴾ رقم 7016. ورواه **مسلم** في كتاب القدر، باب كَيفِيَّة الخلق الآدميِّ، رقم 2643.

(2) روى **الربيع** في باب الحجَّة على القَدَرِيَّة، ج 2، ص 10، رقم 801 ما يقاربه معنًى.



والكفر والإيمان في الآية منظور فيهما إلى القضاء، أي: فمنهم من قضى كفره ومنهم من قضى إيمانه بلا إجبار. أو إلى الاختيار، أي: فمنهم من اختار الكفر، ومنهم من اختار الإيمان.

عاب الله تعالى من اختار الكفر مع دلائل قبحه شرعًا وعقلا، وقبحهُ إنَّما يُتصوَّر في شأن فاعله إذ فعله وقد نهي عنه، وبانت مضارُّه، لا في شأن خالقه، فإنَّه من حيث إنَّه مخلوق لله تعالى صواب لا خطـأ، إذ لا يَخلُق الخطأَ وغيرَ الصَّواب، كما خلق النَّار والبحر والحديد وسـائر الأشـياء المهلكة لمقارفها على وجه الإهلاك.

فنحن نقارف الكفـر بمعنى أنَّا نذكره على وجه بيانه، والاسـتدلال على تحريمه. وفي خلقه إنعام إذ يتبيَّن به مقدار الإنعام بالإيمان.

وقدَّم ذكر الكفر لكثرته ولتقدُّمه في الوجود في شأن المكلَّفين من حيث التكليـف، ولو تقـدَّم الإيمـان من حيـث ﴿أَلَسْـتُ بِرَبِّكُـمْ قَالُـوا بَلَىٰ﴾ [سـورة الأعراف: 172]، ومن حيث «**كلُّ مولود يولد على الفطـرة...**»[1] ﴿فِطْرَةَ اللهِ التِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [سورة الروم: 30].

وأيضا قدَّم الكفر لأنَّ المقصود بالـذات التهديد على كفر من كفر، وعن عطاء: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ بالله تعالى مؤمن بالكوكب، ﴿وَمِنُكم مُّومِنٌ﴾ بالله كافر بالكوكب، كما في حديث: «**أصبح من عبادي مؤمن...**» إلخ[2].

وقيل: ﴿فَمِنكُـمْ كَافِـرٌ﴾ بالخالق وهـم الدهريَّة، وأصحـاب الطبائع، ﴿وَمِنُكم مُّومِنٌ﴾ به. وعن أبي سـعيد الخدريِّ: ﴿فَمِنكُـمْ كَافِرٌ﴾ في حياته، مؤمن فـي العاقبة، ﴿وَمِنُكم مُّومِـنٌ﴾ في حياته، كافر فـي العاقبة. والمؤمن

(1) تقدَّم تخريجه. انظر: ج 5، ص 92.
(2) تقدَّم تخريجه. انظر: ج 4، ص 369.

الموحِّد شــامل للموفِّي والفاســق، والكافر المشــرك، أو المؤمــن الموحِّد الموفِّي، والكافر المشرك والفاسق.

[نحو] ولا يصحُّ العطف على الصلة لعدم الرابــط، والفاء إنَّما تكفي في الربط إذا كانت سَبَبِيَّةً، نحو: الطائر فيغضب زيد الذباب، فإنَّ الغضب مسبَّب عن طيران الذباب، إلَّا أن يتكلَّف أنَّ خلقهم سبب لكفرهم وإيمانهم، ولو لم يخلقوا لم يكن كفر ولا إيمان منهم لعدمهم، ويتخيَّل أنَّه ســبب. والفاء تمنع العطف على مجموع «هُوَ الذِي...» إلخ، ولو أجازه بعض.

﴿**وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ عليم بمــا تعملونه، أو عليم بعملكم من كفر وإيمان لا يخفى عنه، فهو يجزيكم عليهما.

﴿**خَلَقَ السَّــمَاوَاتِ وَالَارْضَ بِالْحَقِّ**﴾ بالحكمة البالغة التي لا يخفى أنَّها أمر ثابت صواب غير باطل متضمِّنــة لمصالح الدنيا والآخرة. ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَــنَ صُوَرَكُمْ**﴾ الفــاء لترتيب الإخبار لا الزمان، أو لترتيب الزمــان، لأنَّ مبدأ الخلق غيرُ حَسَنٍ لبادئ الرأي، مثل الأطوار قبل كمال الصورة، ويعقب الأطوارَ الحسنُ.

أو يُقَدَّرُ: أراد تصويرَكُم فأحســنه عن أوَّل، والخلقُ كلُّه حسن، لأنَّه صنعة لا طاقة لأحد عليها، ولا سيما خلق الإنســان لامتداد صورته، ولعقله وفكره وسائر قواه، وفيه ما في الملائكة وغيرهم وزيادة.

[قلت:] وما يظهر من قبح صورة إنســان أو غيره من المخلوقات إنَّما هو بالنسبة إلى ما هو أحســن، فقد يكون الشيء عندك حســنًا وإذا رأيت ما هو أحسنُ منه نقص عندَك، حتَّى قد تستقبحه، وهو غير خارج عن دائرة الحسن، ويقال: «شيئان لا غاية لهما الجمال والبيان».

والصورة: الشــكل المدرك بالعيــن. ﴿**وَإِلَيْهِ**﴾ لا إلى غيــره ﴿**الْمَصِيرُ**﴾ الصيرورة للجزاء على الإيمان والكفر بالإحياء بعد الموت.

﴿**يَعْلَمُ مَا فِــي السَّــمَاوَاتِ وَالَارْضِ**﴾ جزئيًّــا وكلِّيًّا، وجِسْــمًا وَعَرَضًا، وحاضرًا ومضمونًا. ﴿**وَيَعْلَمُ مَا تُسِــرُّونَ**﴾ يسرُّ بعضكم لبعض، أو تسرُّون في أنفســكم. ﴿**وَمَا تُعْلِنُونَ**﴾ يظهر بعضكم لبعض. ﴿**وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ اعتراض في آخر الكلام مقرِّر لما قبله من علمه تعالى بســرِّهم وعلنهم، فإذا علم ما في الصدور فأولــى أن يعلم ما خرج عنه، وسِــرٌّ أو عِلْمٌ[1] هذا لبادئ الرأي، وكلُّ ذلك عند الله في نفس الأمر سواء.

---

(1) كذا في النسخ. لعله يقصد: «أو عَلَنٌ» كما يقتضيه السياق. تأمل.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝5 ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝6 زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝7﴾

مظاهر الكفر عند المشركين، وجزاؤهم

﴿**أَلَمْ يَاتِكُمْ**﴾ أَلَمْ يأتكم يا أيُّها الكفرة مطلقا، أو كفَّار مكَّة ﴿**نَبَأَ الذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ**﴾ قبلكم، كقوم نوح وعادٍ وثمود ونمرود وقومه، وفرعون وقومه.

﴿**فَذَاقُوا**﴾ لكفرهم، كما دلَّت عليه الفاء فإنَّها للسببيَّة، ومطلق الترتيب لا باتِّصال، لأنَّهم أُمْهلُوا إلَّا إنْ عُدَّ إهلَاكُهُم في الدنيا اتِّصالاً، إذ لم يُمْهَلُوا للآخرة. ﴿**وَبَالَ أَمْرِهِمْ**﴾ ضرر شأنهم الذي هو الكفر، وعبَّر عن كفرهم بـ «أَمْرِهِمْ» إشعارًا بأنَّه جناية عظيمة، تقول: فعل زيد أمرًا، إذا أردت تهويل فعله، ومادَّة «و ب ل» الثقلُ والشدَّةُ، كما يسمَّى الطعام الثقيل على المعدة: وبِيلاً.

﴿**وَلَهُمْ**﴾ في الآخرة ﴿**عَذَابٌ اَلِيمٌ**﴾ لا يعرف قدر عظمه إلَّا الله.

[بلاغة] أسند الألم إلى العذاب مبالغةً كأنَّه متوجِّع، أو هو من الثلاثيِّ بمعنى الرباعي، أي: مُؤْلِمٌ، كنذير بمعنى منذر، وجليس بمعنى مجالس.

﴿**ذَلِكَ**﴾ المذكور من ذوق العذاب في الدنيا، وثبوت العذاب الأليم في الآخرة. ﴿**بِأَنَّهُ**﴾ بسبب أنَّ الشأن ﴿**كَانَتْ**﴾ أي: هي، أي: رُسُلهم، على التنازع، وأعمل الثاني وهو «تَاتِي» من قوله تعالى: ﴿**تَاتِيهِم**﴾.

[نحو] وقولُه: ﴿**رُسُلُهُم**﴾ فاعل «تَاتِي»، أو هو اسم «كَانَتْ» ولا ضمير فيه بل الضمير في «تَاتِي» على إِعْمَالِ الأوَّل. ﴿**بِالْبَيِّنَاتِ**﴾ الدلائل التكوينيَّة والمتلوَّة.

[نحو] ﴿**فَقَالُوا**﴾ عطف على «كَانَت» أو على «تَاتِيهِم» وفاعِلِه. ﴿**أَبَشَرٌ**﴾ فاعل لمحذوف، أي: أيهدينا؟ من باب الاشتغال في المرفوع، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَ اَحَدٌ﴾ [سورة التوبة: 6]، ﴿وَإِذَا السَّمَآءُ﴾ [سورة التكوير: 11]، لأنَّ الهمزة أميل إلى الفعل إذا وُجد، إلَّا أنَّه يبقى قوله: ﴿**يَهْدُونَنَا**﴾ بلا استفهام، إلَّا ما يحصل له من رائحته بالتفسير. والذي يظهر أنَّه مبتدأ والاستفهام ينسحب على الكلِّ، و«بَشَرٌ» جنس، ولذا عاد إليه واو الجماعة. وإذا أريد به واحد أُفرد الضمير، وإن نُعِتَ نُعِتَ بمفرد، كما قالت ثمود من هؤلاء المذكورين: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾ [سورة القمر: 24].

﴿**فَكَفَرُوا**﴾ بهم، أي: بالرسل، أو بها، أو بهنَّ، أي: الآيات ﴿**وَتَوَلَّوا**﴾ عن التأمُّل في البيِّنات، أو عن الإيمان بها أو بالرسل. ﴿**وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ**﴾ عنهم، أو عن كلِّ شيء، والأوَّل أولى، ويقدَّر العموم بعد «غَنِيٌّ».

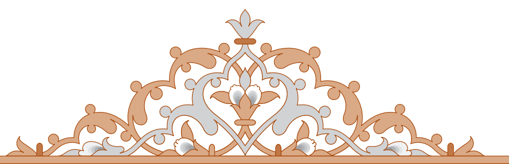
[نحو] والجملة حال بلا تقدير «لقد»، أو بتقديرها، والفعل على ظاهره، أو العطف على «كَفَرُوا» وهذا أولى، أو الفعل بمعنى أظهر غناه فإنَّه غير محتاج إلى إيمانهم فلم يزد لهم بيِّنات أخرى، بل عجَّل عذابهم.

﴿**وَاللَّهُ غَنِيٌّ**﴾ عن كلِّ شيء عنهم وعن غيرهم في العبادة وغيرها. ﴿**حَمِيدٌ**﴾ أهل للحمد، ولو لم يحمده حامد، كما في الأزل، أو يحمده المؤمنون والملائكة والدوابُّ والجمادات، وذلك حمد بلسان الحال ولسان القال، جمع بين الحقيقة والمجاز، أو يحمل على عموم المجاز، أو على لسان الحال، ولو من الناطق بقطع النظر عن خصوص نطقه.

﴿**زَعَمَ الذِينَ كَفَرُوا أَن لَّـن يُّبْعَثُوا**﴾ المراد أهل مكَّـة، ويجوز أن يكون الخطاب للعموم بتغليب المخاطبين، وهم أهل مكَّة، ومقتضى الظاهر: زعمتم (بالخطاب) مثل: ﴿أَلَمْ يَاتِكُمْ﴾ وأظهر ليصفهم بالكفر الموجب للذّمِّ، ويدلُّ على أنَّ المراد أهل مكَّة قولـه تعالى: ﴿**قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُـنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ**﴾. ومن الجائز التعميم في «الذِينَ كَفَرُوا»، والخطاب بعدُ لمخصوصين منهم، وهم أهل مكَّة، على الغائبين، وهم الأمم السابقة، وفيه زيادة فائدة.

[لغة] والزعم: الكذب هنا، أو القول الباطل، أو قول بلا دليل، أو دعوى العلم، وذلك كثير، وقد يستعمل بمعنى العلم واليقين. ويعمل عمل العلم في «أن» المشـدَّدة أو المخفَّفـة منها، وما بعدهـا باعتبار المصدر اسـتغناء عن منصوبين بوجود المسند والمسند إليه، قبل التأويل بالمصدر.

﴿**وَذَٰلِكَ**﴾ ما ذكر مـن البعث والجـزاء المعبَّر عنه بالتنبئـة. ﴿**عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ لكمال قدرته فلا يتعاصى عنه شيء أراده.



﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٠﴾

الأمر بالإيمان، والجزاء يوم القيامة

إذا كان الأمر كذلك ﴿**فَئَامِنُوا بِاللهِ**﴾ الذي علمتم دلائل وجوده وقدرته وخصوصه بما يوجب الأُلُوهِيَّة. ﴿**وَرَسُولِهِ**﴾ محمَّد الذي جاءكم بالآيات من عنده تعالى.

﴿**وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا**﴾ أي: القرآن الشبيه بالنور الذي يزول به ضرر الظلمة، ويَبِين بِهِ غيره كما يَبِينُ بالنور غيره، والإيمان به ﷺ يكفي عن ذكر القرآن، لكن ذكر للتنصيص عليه بذاته لا بمجرَّد التبع له ﷺ، ولئلَّا يَتوهَّم متوهِّم أنَّه رسولٌ كتابُهُ الإنجيلُ أو التوراة، أو لا كتاب له.

[قلت:] وكذلك إذا علمنا أنَّه رسول الله فقد علمنا أنَّ ما جاء به حقٌّ، وهو القرآن وسائر الوحي، ولكن نزيد: «وأنَّ ما جاء به حقٌّ» لننطق بما في هذه الآية كلِّها.

وعَدَلَ عن مُقتضى الظاهر وهو «أَنزَلَ» بالبناء للفاعل ـ أي: الله ـ إلى ﴿أَنزَلْنَا﴾ تعظيمًا للقرآن بصيغة عظمة الله تعالى.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من طاعة ومعصية وإيمان أو كفر. ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم بظاهره وباطنه.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ متعلّق بـ«خَبِيرٌ»، لأنّه نائب عن مجازيكم بما عملتم من خير أو شرٍّ أو بـ«تُنَبَّؤُنَّ». ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ اللّام للتوقيت، أو بمعنى في، وقد تفسّر لام التوقيت بفي، وادّعى بعض أنّها للتعليل على تقدير مضاف، أي: لأجل حساب يوم الجمع، وهو يوم القيامة، سمّي لأنّه يجمع فيه الأوّلون والآخرون، وقيل: الملائكة والثقلان، وقيل: الظالمون والمظلومون، وقيل: المطيعون والعاصون، وقيل: المؤمنون والكافرون.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: يوم الجمع ﴿يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ سمّي يوم القيامة يوم التغابن لظهور غبن بعض النّاس لبعض، كالتغابن في نحو البيع، قال تعالى: ﴿اشْتَرَوُاْ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ [سورة البقرة: 175]، وقال تعالى: ﴿هَلَ اَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم...﴾ إلخ [سورة الصّف: 10]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُومِنِينَ أَنفُسَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [سورة التوبة: 111]، فربحت صفقة المؤمن وخسرت صفقة الكافر، فالمظلوم يغبن الظالم، والسعيد يغبن الشقيّ.

[صرف] وليس التفاعل على بابه، لأنَّ الغبن من جانب واحد، وهو جانب المظلوم والسعيد، والمظلوم مغبون في الدنيا غابن في الآخرة، اللهمَّ إلَّا أن يسمَّى حال الشقيِّ والظالم غبنا أيضا تهكُّمًا بهما، أو مشاكلة مَعْنَوِيَّة لا لَفْظِيَّة، إذ لم يُذكَر الجانبان، وذلك بأن يسمَّى جزاء الظالم والشقيِّ غبنًا، وذلك أنَّ المظلوم يأخذ حسنات الظالم.

وما من سعيد إلَّا له مقام في النَّار يخلفه فيه الشقيُّ، وما من شقيٍّ إلَّا له أهل ومنازل في الجنَّة يخلفه فيها السعيد، فعنه ﷺ: «**ما من عبد يدخل الجنَّة**

إلَّا أُرِيَ مقعده من النَّار لو أساء ليزداد شكرًا، وما من عبد يدخل النَّار إلَّا أُرِيَ مقعده من الجنَّة لو أحسن ليزداد حسرة»[1].

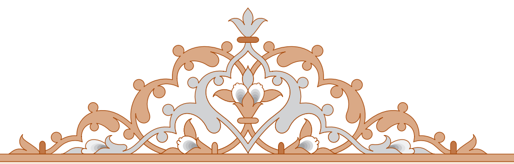
﴿**وَمَنْ يُّومِنۢ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا**﴾ فالإيمان بلا عمل لا يجزي مَن عليه العمل، بخلاف ما لو آمن إنسان ومات قبل وجوب الفرائض عليه، أو اختلَّ عقله أو جُنَّ أو بلغ مجنونًا أو عاقل وجنَّ، أو اختلَّ قبل لزوم فرض، أو مات تائبًا آخر عمره، ولم يعمل فإنَّ له الجنَّة.

﴿**نُكَفِّرْ عَنهُ سَيِّئَاتِهِ**﴾ الصغائر والكبائر لتوبته. ﴿**وَنُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الَانهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا**﴾ حال مقدَّرة، والجمع باعتبار معنى «مَن»، كما أنَّ الإفراد في «يُومِن» و«يَعْمَلْ» والهاء باعتبار لفظها. ﴿**أَبَدًا**﴾ لا تفْنَى ولا يُخرجون منها. ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ ما ذكر من تكفير السيِّئات وإدخال الجنَّات، أي: نيل ذلك. ﴿**الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ أو نَفْسُ ذلك هو المفوز به العظيم.

﴿**وَالذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِئَايَاتِنَآ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِيسَ الْمَصِيرُ**﴾ هي والآيتان مفسِّرتان للتغابن على جهة مطلق الإخبار لا بصورة التفريع. و«خَالِدِينَ» حال مقدَّرة على معنى يصاحبونها. و«الْمَصِيرُ» اسم مكان، أو مصدر، أي: بئس المصير.

---

(1) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره: مج 10، ص 123. بدون تخريج.



﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿11﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿12﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿13﴾ ﴾

كلُّ شيء بقضاء وقدر

﴿**مَا أَصَابَ**﴾ أحدًا ﴿**مِن**﴾ صلة في الفاعل ﴿**مُّصِيبَةٍ**﴾ مضرَّة.

[لغة] أصله اســم فاعل «أصاب» تغلَّبت عليه الِاسمِيَّة حتَّى لا ضمير فيه مستتر، وأصله في الخير والشرِّ، وتغلَّب اســتعماله في الشرِّ، وأجاز بعض أن يراد بها في الآية الخير والشرُّ، لورودها في الخير كما وردت في الشرِّ. ومعنى الإصابة اللحــوقُ مطلقًا، وزعم بعض أَنَّها في الخيــر من صوب المطر، وفي الشرِّ من إصابة السهم، وذلك دعوى، وحملُها على السواء أولى، وذلك مثل ما يصيب العبد في بدنه أو عقله أو عرضه أو ماله، أو ولده أو قرابته أو زوجه أو صاحبه، أو من يعزُّ عليه أن يصاب.

وفسَّرها بعض بما يشــمل الشرك والمعاصي ويناســبه ورودها بعد جزاء المؤمن والكافر، وأيُّ مصيبة أعظم منهمــا، وهذا في الموحِّد العاصي ظاهر، وفي المشــرك بعيد، لأنَّه لا يَعُدُّ الإشــراكَ والمعصية مصيبةً. ﴿**إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ**﴾ بإرادته أو قضائه.

﴿**وَمَنْ يُّومِنۢ بِاللهِ**﴾ ورسوله، والمراد بالإيمان بالله تعالى الإيمان بجميع ما يجب الإيمان به كالرسل والكتب. ﴿**يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾ إلى عدم الجزع بالمصيبة،

وفي ضمن ذلك أن يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ و[يهديه] إلى العلم بأنَّها من الله تعالـــى، وأنَّها عدل منه ﷻ، وإلـــى الإيقـــان بـ«أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»[1].

وعن مجاهد: إن ابتلي صبر وإن أعطي شكر، وإن ظلم غفر، وفسَّره بعض بشـــرح الصدر لازدياد الخير والعبادة، وقدَّر بعض من لـــم يؤمن بالله لم يهد قلبه. ﴿**وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ فهو عالم بإيمان المؤمن فيهدي قلبه.

﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُـــولَ**﴾ كرَّر الطاعة للفرق بين إطاعة الله ﷻ وإطاعة رســـوله في الْكَيفِيَّـــة، ولتأكيد الإيمـــان برســـوله ﷺ، كما عظَّمه بالإضافة إلى ضميـــر العظمة في قوله ﷻ: ﴿**فَـــإِن تَوَلَّيْتُـــمْ**﴾ عن الإطاعة ﴿**فَإِنَّمَـــا عَلَىٰ رَسُـــولِنَا الْبَلَاغُ**﴾ اســـم مصدر، أي: التبليـــغ، أو على حذف مضاف، أي: حصول البـــلاغ. وما عليه ﷺ إلَّا تبليغ الوحـــيِ، وقد بلَّغ بما لا مزيد عليه كما قال: ﴿**الْمُبِينُ**﴾ وهو رسول الله تعالى، تولَّوا أو لم يتولَّوا، ولكن أقـــام العلَّة مقـــام الجواب، أي: فـــإن تولَّيتم فعليكم عقـــاب التولِّي لا عليه، لأنَّه قد بلَّغ وما عليه إلَّا التبليغُ، والحصر إضافيٌّ، أي: عليه التبليغ لا تباعة تولِّيكم.

﴿**اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ**﴾ لا على غيره، متعلِّق بما بعده على أنَّ الفاء صلة، لـــم يقل: «وعليـــه» ليصـــرِّح بالألوهيَّة الموجبـــة للتـــوكُّل. ﴿**فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُومِنُونَ**﴾ وكذا غيرهـــم، وخصَّهم بالذكر لأنَّهم المؤتمـــرون بالأمر، ولأنَّ الإيمان بأنَّ الكلَّ منه تعالى يقتضي التوكُّل، وفي ضمن هذا أنَّ من لم يتوكَّل لم يؤمن، فليس في الحثِّ على التوكُّل أعظم من هذه الآية.

---

(1) يشير الشيخ إلى الحديث الذي رواه **الترمذيُّ** في كتاب القدر عن رسول الله، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشـــرِّه، رقم 2144. **والربيـــع** في كتاب الإيمـــان (12) باب في القدر والحذر والتطيُّر، رقم 72. من حديث عبادة بن الصامت.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾

التحذير من الافتتان بالأزواج والأموال والأولاد

﴿**يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنَ اَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ**﴾ احذروا الأزواج والأولاد كلَّهم لاشتمالهم على العدوِّ، ولا تدرون أنَّ الشرَّ من هذا أو هذه، أو من ذلك، أو تلك، ومن لم تظهر عداوته فربَّما تكون أو تظهر بعدُ، فلا تهلكوا آخرتكم لأجلهم بالحميَّةِ أو بجمع المال الحرام لأجلهم، أو منع الحقِّ منه لأجلهم، أو بمطاوعتهم في البقاء على الشرك والمعصية أو عدم الهجرة، أو عدم طلب العلم، وغير ذلك ممَّا لا يجوز.

أو بحُبِّ إرغاد عيشهم ولو بعد موته، ولو لم يطلبوه لذلك، أو بأن طاوعهم في منعه عن الجهاد، وخذوا حذركم، وأخذ الحذر واجبٌ ولو من الصديق ومن المتولَّى، إذْ لا يدري ما يحدث ولا ما بطن.



ويجوز ردُّ الضمير إلى العدوِّ مــن الأزواج والأولاد قال ﷺ: «**يأتي على النّاس زمان يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجه وولده يُعيِّرانه بالفقر فيركب مراكب السّوء فيهلك**»[1].

﴿**وَإِن تَعْفُوا**﴾ عمَّا أصابكم من شــرِّ عداوتهم في دينكــم أو دنياكم، أو فيهمــا ولا تعاقبوهــم. ﴿**وَتَصْفَحُوا**﴾ تُعْرِضــوا عن الحقد عليهــم، وعن أن تعَيِّروهم. ﴿**وَتَغْفِرُوا**﴾ لَهُمْ تَسْتُرُوا ذلك عن غيرهم، ولا تشكوا بهم إلى أحد، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ اعْفَوا وَاصْفَحُــوا واغْفروا ولو لم يفعلوا ذلك، فالجواب محذوف، أي: يثبكم، أو يفعل بكــم ما فعلتم معهم، ممَّا ذكر، نابَتْ عنه علَّتُه وهو قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ أي: لأنَّ الله غفور رحيم.

[سبب النزول] وقد قال ابن عبَّاس ﵄: نزل ﴿يَآ أَيُّهَــا الذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنَ اَزْوَاجِكُمْ...﴾ إلخ في قوم من أهل مكَّة أســلموا وأرادوا الهجرة فمنعهم أزواجهم وأولادهم، فلمَّا هاجروا وجَــدُوا النّاس قد فقهوا في الدِّين فهَمُّوا أن يعاقبوهم على المنع، وتفويت الفقه. رواه الترمذيُّ والحاكم والطبرانيُّ.

وعنه: نزلت في الرجل يريد الهجرة فتحبسُــه زوجــه وولده، فيقول: «أما والله لئن جمعنــي الله وإيَّاكم في المدينة لأفعلنَّ ولأفعلــنَّ». وفي رواية: «لئن جمعنــا الله تعالى في المدينة لــم نصبكم بخير». فجمــع الله بينهم ومنعوهم الخير فرجعوا إلى الخير لهم للآية.

وفي رواية: إنَّ عوف بن مالك الأشــجعيَّ أراد الغزو مع رسول الله ﷺ بعد الهجرة، فاجتمع عليــه أولاده وزوجه يبكون ويمنعونــه، فرقَّ لهم ولم يخرج للغــزو ثمَّ ندم، فهَــمَّ بمعاقبتهم. ففي الآيــة أن لا يحقد الرجل على زوجه وولده.

---

(1) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره: مج 10، ص 126. بدون تخريج.

﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ**﴾ قـدَّمَ الأموال لأنَّها أعظم فتنة مـن الأولاد، قال الله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰٓ﴾ [سورة العلق: 6 ـ 7]، قال كعب بن عياض وعبد الله بن أوفى: قال رسـول الله ﷺ: «**لكلِّ أمَّة فتنة وإنَّ فتنـة أمَّتي المال**»[1] ومعنى الحصر هنا أنَّ المـال والأولاد لا تخرج عن كونهما فتنـة، وإنَّما ينجو صاحبهما عنها بالتحرُّز عنها كالنَّار محرقةٌ أبدًا وإنَّما ينجو النَّاسُ بالتحرُّز عنها.

﴿**وَأَوْلَادُكُـمْ**﴾ مطلقًـا، ولو لم تظهر منـه عداوة ولم تكـن في قلوبهم ﴿**فِتْنَةٌ**﴾ سبب الافتتان في الدِّين، أو الاشتغال عنه، أو الفتنة: البلاء والمحنة، لترتُّب الإثم عليهم.

وشـدائد الدنيا والميل إليهم طبعيٌّ، فليتنبَّه له ولا يسترسل فيه، وقد فسَّر بعضهم الفتنة به، وإذا أمكنتكم الهجرة والجهاد فلا يفتنُكم عنهما الميل إلى المال أو الولد.

ويناسـبُ ما ذكرت مـن أنَّ الميْل إلى الولـد بالطبع مـا رواه بريدة أنَّه كان ﷺ يخطب، فأقبل الحسـن والحسـين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل ﷺ من المنبر فحمل واحدا من جانب وآخر من جانب، وصعد المنبر فقال: «**صدق الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، لَمَّا نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت إليهما**»[2]، رواه الترمذي والنسائي وأبو داود.

وعن عبد الله بن عمر أنَّ رسـول الله ﷺ يخطب فخرج الحسين إليه فعثر في ثوبه فسـقط فبكى، فنزل رسـول الله ﷺ، فتناوله النَّاسُ واحد عن واحد

(1) رواه **الترمذي** في كتاب الزهد. باب ما جاء إنَّ فتنة هذه الأمَّة في المال. رقم: 2336. و**الحاكم** في «مستدركه» كتاب الرقاق. باب في الرقاق رقم: 7896 من حديث كعب بن عياض.

(2) رواه **النسائيُّ** في كتاب الجمعة، باب نزول الإمام عن المنبر...، رقم: 1413. و**ابن حبَّان** في صحيحه، كتاب الفرائض، باب ذوي الأرحام، رقم: 6039. من حديث أبي بريدة.

حتَّى وقع في يد رسـول الله ﷺ، فقـال: «**قاتل الله الشـيطان، إنَّ الولد لفتنةٌ، والذي نفسي بيده ما دريت أنِّي نزلت عن منبري**»[1] رواه ابن مردويه.

[قلـت:] وانظر بين فعل رسـول الله ﷺ بالحسـن والحسـين وبين قتل الحسـين بكربلاء ظلمًا، وقتل الحسـن بالسـمِّ ظلما رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا، وهما صحابيَّان صغيران، لهما عقل عظيم من صغرهما.

﴿**وَاللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيـمٌ**﴾ لمن اختار الإيمان والهجـرة والجهاد، وأمر الدِّين عن الأولاد والأموال.

﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْـتَطَعْتُمْ**﴾ «ما» مَصدَرِيَّة على حـذف مضاف، أي: قدر اسـتطاعتكم، أو مَصدَرِيَّـة ظرفيَّـة، أي: ما دمتـم مسـتطيعين، أي: مـدَّة اسـتطاعتكم، ويناسـب الأوَّل ما روي أنَّه لَمَّا نزلت الآية قاموا حتَّى ورمت عراقيبهـم وتقرَّحت جباههـم. وكذا قولـه تعالى: ﴿اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِهِ﴾ [سورة آل عمران: 102]، ونسخت بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [سـورة البقرة: 286]، وشـهر أنَّه لَمَّا نزل ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قاموا حتَّى تورَّموا وتقرَّحوا، فنسخت بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

[قلت:] والظاهر أنَّه لا نسـخ في ذلك، بل المعنى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ بمجرَّد أداء الفرائض وترك المعاصي، وكذا معنى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْـتَطَعْتُمْ﴾، واحذروا فتنة المال والولد.

﴿**وَاسْمَعُواْ**﴾ مواعظه ﴿**وَأَطِيعُواْ**﴾ لا تخالفوه في أمره ونهيه. ﴿**وَأَنفِقُواْ**﴾ من أموالكم في وجوه الخير بإخلاص، نفْلاً وفرضًا، أو نفلاً، أو زكاة، أقوال، والصحيح الأوَّل.

(1) أورده **السيوطيُّ** في الدر: مج 6، ص 253. وقال: أخرجه ابن مردويه من حديث ابن عمر.

[نحو] ﴿**خَيْـرًا لأَنفُسِـكُمْ**﴾ تبـادر لي أنَّه خبـر لكونه في جـواب أمْرٍ محذوف، أي: افعلوا ذلك كلَّه يكن خيرًا، أي: منفعة لكم أو أفضل من إمساك الأموال ومـن الأولاد. وقال سـيبويه: مفعـول لمحذوف معطـوف بعاطف محذوف، أي: افعلوا خيرًا، وعن الكسـائيِّ: مفعول مطلـق، أي: إنفاقًا خيرًا، ويبعد أنَّه مفعول بمعنى المال.

﴿**وَمَنْ يُّوقَ شُـحَّ نَفْسِـهِ**﴾ بُخْلَها مع الحرص ﴿**فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ**﴾ تنفقوا أموالكم في وجوه الأجر.

[بلاغة] شـبَّه الإنفاق في وجوه الأجر على قصد التعويض من الله تعالى بإعطائه أحدًا على وجه الردِّ، فذلك استعارة تمثيليَّة.

﴿**قَرْضًا حَسَنًا**﴾ بأن كان من حلال وبإخلاص وطيب نفس، بلا قصد إلى ما يستحقر من المال شحًّا.

﴿**يُضَاعِفْهُ لَكُمْ**﴾ درهم واحد بعشرة إلى سبعمائة فصاعدًا. ﴿**وَيَغْفِرْ لَكُمْ**﴾ ببركةِ الإنفـاقِ ذنوبَكُم ﴿**وَاللَّهُ شَـكُورٌ**﴾ يعوِّض الجزيل فـي القليل والحقير ﴿**حَلِيمٌ**﴾ لا يعاجل بالعقوبة على الذنوب الكثيرة العظام.

﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ مرَّ تفسير ذلك.

والله الموفِّق المستعان.

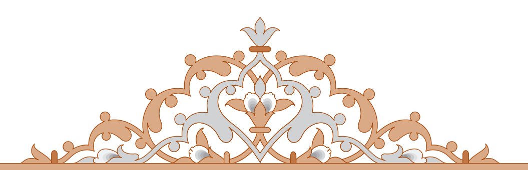
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



65

سورة الطلاق

مدنيَّة وآياتها 12 ـ نزلت بعد سورة الإنسان



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (1) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3)﴾

من أحكام الطلاق والعدَّة والأمر بالتقوى والتوكُّل على الله

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ﴾ أي: والمؤمنون، فذلك من باب الاكتفاء، بدليل قوله تعالى. ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ﴾ بضمير الجماعة، فهو

للنبيء ﷺ والمؤمنيـــن، أو الضمير للنَّبيء ﷺ لتعظيمه، فــلا يقدَّر المؤمنون، كقوله تعالى: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [سورة المؤمنون: 99]، في وجهٍ، وقول الشاعر:

«ألا فارحموني يــا إله محمَّد»

وعليه فحكم المؤمنين تبع لــه ﷺ، وحكم الأمَّة حكمــه، إلَّا ما خُصَّ به، أو يقدَّر القول هكذا: يا أيُّها النبيء قل إذا طلَّقتم النساء، أو ناداه وخاطبهم، وقدّم النداء ليتنبَّه لهم ويراعيهم، كمن أحضر قائما على عمَّاله وأمرهم بالعمل بحضرته، وليس ذلك ممَّا منع من خطابين بكلام واحد، لأنَّ النداء كلام وما بعده كلام، وإنَّما ذلك كقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ [سورة يوسف: 29].

ولَمَّا كان إمام أمَّتــه ﷺ خصَّه بالنــداء، وعمَّ الخطــابُ بالحكم، لأنَّهم لا يصدرون إلَّا عنه، كما يقال لرئيس القوم: يا فلان افعلوا كذا، إظهارًا لتقدُّمه، وصُدُورِهِمْ بِأَمره.

والمراد: إذا أردتم تطليق النســاء، فعبَّر عن الإرادة بالتطليق لأنَّها ســببه، وإلَّا لزم تحصيل الحاصل، لقوله تعالى: ﴿**فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ**﴾ وهو محال، أو لزم تطليق آخر، وهو غير مراد، وذلك من باب المشارفة، كقوله ﷺ: «**من قتل قتيلاً فله ســلبه**»[1]. ومن ذلك كان الماشــي إلى الصــلاة والمنتظر لها مثل المصلِّي في الثواب.

وأمَّا ما يُقال: إذا صدر منكم تطليقٌ فلْيَكُن لِعِدَّتهِنَّ، فليس كافيًا، لأنَّه كلفظ الآية يحتاج للتأويل، لأنَّه إذا صدر التطليق اســتحَالَ طلبُ تكوينه لِعِدَّة مع أنَّه قد وقع، بل يطلِّق طلاقا آخر، وليس مرادًا، بل يقال: إن أردتم صدور الطلاق.

[نحو] واللَّام للتوقيت، كقوله: كتبته لثلاث بقين، أو مستقبلات لعدَّتهنَّ، والكون الخاصُّ إذا عُلم جــازَ حَذْفُهُ وَذِكْره، وإذا لَمْ يُعلَــمْ وجب ذِكْرُهُ، وإذا

(1) تقدَّم تخريجه. انظر: ج 5، ص 342.

حذف فمع ضميرٍ، وأمَّا العامُّ فواجب الحذف، وهو أبدًا معلوم بالظرف، ويحذف وحده وينتقل ضميره للظرف، ويستتر فيه، وذلك في باب الحال، كالصلة والصفة والخبر في الحال أو في الأصل.

وتقدير: «مستقبلات» أو: «لاسْتقبال» بناءً على أنَّ العدَّة بالحيض، لوجوب أن لا يكون الطلاقُ في الحيضِ، وإذا كان في الطهر فليس الطهر مُدَّةً تامَّةً لمضيِّ بعضِه، والسُّنَّة الطلاق فيه قبل المسِّ فيه.

[فقه] والطلاق في الحيض بدعة إجماعًا، وكبيرةٌ على الأصحِّ، ومضى على الأصحِّ، وقيل: لا يُعتدُّ به، وكأنَّه غيرُ واقعٍ على أنَّ النهي يَدُلُّ على الفساد، ويردُّه قوله ﷺ: «**مُره ليراجعها**»، ويحمل القرء في سورة البقرة على الحيض.

[قراءات] وقد قرأ رسول الله ﷺ وابن عبَّاس وابن عمر: «فِي قِبَلِ عِدَّتِهِنَّ»، وعنهما وعن ابن مسعود: «لِقِبَلِ عِدَّتِهِنَّ». قال النوويُّ في شرح مسلم: قراءة ابن عبَّاس وابن عمر: «فِي قِبَلِ عِدَّتِهِنَّ» شاذَّة لا تثبت قرآنًا إلَّا بالإجماع، ولا يكون لها حكم خبر الواحد عندنا. قلت: وكذا قراءة: «لِقِبَلِ عِدَّتِهِنَّ».

[فقه] ومن قال: العدَّة بالأطهار فَسَّرَ القُرْءَ بالطُّهْرِ ولم يقدِّر: «لاستقبالِ»، أو «مستقبلات»، وعلَّق اللَّام بـ«طَلِّقُوهُنَّ»، وهو مذهب الشافعيِّ، والأوَّل مذهبنا ومذهب أبي حنيفة.

طلَّق ابن عمر زوجه حائضا، فذكر عمر رضي الله عنه ذلك لرسول الله ﷺ، فتغيَّظ فيه رسول الله ﷺ، ثمَّ قال: «**ليراجعها ثمَّ يمسكها حتَّى تطهُر ثمَّ تحيض فتطهرَ، فإن بدا له أن يُطلِّقها فليطلِّقها طاهرًا قبل أن يمسَّها، فتلك العدَّة التي أمر الله تعالى أن يطلَّق لها النساء**»[1] وذلك لِئَلَّا تطول العدَّة.

(1) تقدَّم تخريجه. انظر: ج 2، ص 57.

[فقه] وإنَّما شـرط طهـرا ثانيًا بعد حيـض ثانٍ ليحصـل حيض وطهر مَحْضَيْـنِ، لا كطهرٍ من حيـضٍ وقع فيه الطـلاق المنهيُّ عنـه، ولئلَّا تكون المراجعة للطلاق. كما يكـره النكاح للطلاق. وهذا اسـتحباب، فلو راجعها وطلَّقها أوَّل الطهر الذي يلي الحيض الـذي طلَّقها فيه لَجَازَ، ولَمْ يكن بدعة، وما تقدَّم روايةُ نافعٍ عن ابن عمر.

وروى يونس بن جبير[1] وأنس بن سيرين[2] عن ابن عمر: «مُرْهُ يراجعْها، فإذا طهرت فإن شاء طلَّقها وإن شاء أمسكها».

[فقه] فنقول: كلُّ طلاق لم يقع في الحيـض ولا في النفاس فهو طلاق السـنَّة إن لم يكن ثلَاثًا أو اثنين بمرَّة. وقيل: طلاق الآيسـة والصغيرة وغير المدخول بها والتي لم تر الدم، والحامل لا يكون بدعيًّا ولا سنِّيًّا.

[فقه] وإن طلَّقها في طهر بعد مسٍّ فيه فقيل: عَصَى، وكان بدعةً، لأنَّه ﷺ قال في حديث ابن عمر: «**قبل أن يَمَسَّها**».

[فقه] والخلـع كالطلاق، وقيل: الخلـع يجوز في الحيـض بلا بدعة، لأنَّه ﷺ أذن لثابت بن قيس أن يخالع زوجه ولم يسأله أحائض هي أم طاهر؟ وليس بشـيء، وَيَرُدُّه أنَّ الأحاديث لم تُبن على السـؤال عن الأحوال إلَّا إذا ادُّعي شيء أو ريبَ، ولا سيما أنَّه قد شهر النهي عن الطلاق في الحيض.

[فقه] والفداء طلاق، فالطلاق في الطهر بعد المسِّ فيه بدعة أيضًا، وهي دون بدعة الطلاق فـي الحيض. والنفاس كالحيض. والشـافعيُّ يقول: «لِقِبَلِ عِدَّتِهِنَّ» أوَّل الطهر، وقِبَلُ الشَّيْءِ ضِدُّ دُبُرِهِ.

---

(1) يونس بن جبير الباهلي، أبو غـلاب البصري، ثقة، من الطبقة الثالثة، تُوُفِّيَ بعد التسـعين، وأوصى أن يصلِّي عليه أنس بن مالك. **ابن حجر**: تقريب التهذيب، ج 2، ص 394.

(2) أنس بن سـيرين، من التابعين حدَّث عن جندب البجلي وابن عمر وابـن عبَّاس وغيرهم. وحدَّث عنه ابن عون، وخالد، وشعبة وغيرهم. وثَّقه ابن معين. وهو آخر من تُوُفِّيَ من طبقة التابعين سنة 120هـ. **الحمصي**: تهذيب سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 170.

ومن طلَّق ثلاثا بلفظ واحد عصى وبانت عنه. وطلَّق رجل زوجه ثلاثا فقال ﷺ وهو غضبان: «**أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم؟**»[1]. وطلَّق الصامت زوجه ألفًا فسأل ابنه عبادة بن الصامت رسول الله ﷺ فقال: «**بانت بثلاث في معصية الله تعالى، وبقيت تسعمائة وسبعة وتسعون عدوانًا وظلمًا إن شاء الله عذَّبه وإن شاء غفر له**»[2]. فالطلاق فوق الثلاث معصية وظلم لها.

وقيل: الطلاق بلفظ واحد ثلاثا أو اثنتين طلاق واحد، وحديث الصامت ردٌّ على ما شهر أنَّ طلاق الثلاث واحد على عهد رسول الله ﷺ. وعنه ﷺ: «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**»[3]. ولفظ أبي داود وابن ماجه: «**إنَّ من أبغض المباحات عند الله ﷻ الطلاق**». وفي رواية أبي داود: «**ما أحلَّ الله تعالى شيئا أبغض إليه من الطلاق**»[4]. وروي أنَّ العرش يهتزُّ به.

[سيرة] والشرع جاء بإمساكهنَّ ومجاملتهنَّ قال ﷺ: «**أحسنكم عند الله أحسنكم إلى عياله**»[5]، وقال: «**خيركم عند الله خيركم إلى نسائه**»[6] قاله لعبد الله بن رواحة أحد النقباء فرحا بفعله إذ لاين زوجه اتَّهمته بسريَّة له ليلة، فأنكر بمعرضة لا بكذب، فقالت: إن صدقت فاقرأ القرآن فقال:

شهدت فَلَم أكذب بأنَّ محمَّدا ... رسول الذي فوق السماوات من عل
وأنَّ أبا يحيى ويحيى كلاهما ... له عمل في دينه متقبَّل
وأنَّ التي بالجزع من بطن نخلة ... ومن ذاتها كلّ عن الخير معزل

(1) رواه **النسائي** في كتاب الطلاق، باب الثلاث المجموعة وما فيه من التغليظ، رقم: 3401. من حديث محمود بن لبيد.
(2) لم نقف على تخريجه.
(3) تقدَّم تخريجه. انظر: ج 2، ص 54.
(4) رواه **أبو داود** في كتاب الطلاق، باب في كراهية الطلاق، رقم: 2177. من حديث محارب.
(5) لم نقف على تخريجه.
(6) رواه **الترمذي** في كتاب المناقب. باب فضل أزواج النبي ﷺ، بلفظ «خيركم خيركم لأهله...». رقم: 3895. من حديث عائشة.

فقالت: زدني، فقال:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... كما لاح معروف من الفجر ساطع
أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا ... بـه موقنات أَنَّ ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا رقدت بالكافرين المضاجع

فقالت: زدني، فأنشد:

شهدت بأنَّ وعد الله حقٌّ ... وأنَّ النار مثوى الكافرينا
وأنَّ محمَّدًا يدعو بحقٍّ ... وأنَّ الله مولى المؤمنينا
وأنَّ العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش ربُّ العالمينا
ويحمله ملائكة شداد ... ملائكة الإله مسوَّمينا

فقالت: أَمَّا إذا قرأت القرآن فقد صدَّقتك، إِذَنْ صدق الله وكَذَبَ بصري. فأخبر النبيءَ ﷺ، فتبسَّم، فقال ما مرَّ. وقال أيضا: وجدتها فقيهة، أي: عالمة بأنَّ الجنب لا تجوز له قراءة القرآن.

﴿**وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ**﴾ اضبطوها ثلاثة قروء كواملَ. هذه حقيقة عرفيَّةٌ، وأصل الإحصاء: العدُّ بالحصى. ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ**﴾ احذروا تطويل العدَّة عليهنَّ بأن تُطلِّقُوهنَّ في الحيض فلا تبتدئ الحساب إلَّا من طهر ثانٍ بعد حيض ثانٍ لهذا الحيضِ، كما مرَّ في حديث ابن عمر.

والخطاب للأزواج المطلِّقين، ويجوز أن يراد باتِّقاء الله حَذَر أن يكون كلَّما شارفت انقضاء العدَّة طلَّقها، فتستأنف أخرى، بل كلُّ ذلك.

[قلت:] وأمَّا ما ذكر من أنَّه ﷺ أمر ابن عمر أن يطلِّقها في أوَّل كلِّ طهر فلا يصحُّ، لأنَّه ﷺ ينهى عن الطلاق فكيف يأمر بتعديده من لم يطلب التعديد؟ وإنَّما أَمَرَه بواحدة غير التي كان قد أوقعها على غير شريعة، ليكون قد طلَّق للسنَّة.

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ سـفهًا أو لبغض، أو غضبًا عليهنَّ، أو انتقامًا، أو كراهةً لِمُساكنَتِهِنَّ، أو لحاجة، أو أمرٍ مَّا، إلَّا ما أذن الشرع فيه. وشمل النهيُ التضييقَ عليهنَّ بأمر مَّا حتَّى يخرجن، وشمل الإشـارة بالإخراج. ﴿مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ من بيوت سكناهنَّ، فحذف المضاف، أو أضاف البيوت إليهنَّ لأنَّهنَّ سواكن فيها، وكأنَّهنَّ موالك لها، كما يقال لمكتري بيت: اِمض إلى بيتك. وفي ذلك تأكيد للنهي عن إخراجهنَّ لاسـتحقاقهنَّ السـكنى، كأنَّها أملاكُهُنَّ، مع أنَّها أملاك لـلأزواج أو غيرهم، وإن كانت أمـلاكا لهنَّ لم يتوهَّم أحدٌ جـواز إخراجهنَّ فضلاً عن أن ينهى عنه. ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَنْ يَّاتِينَ بِفَاحِشَـةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ لا ناهية، أو نافية بمعنى النهي.

[فقه] وخروجُهُنَّ محرَّم لا يطلبه، ولا يأذنـوا لهنَّ فيه، ولا يخرجن ولو رضُوا، وسُكْنَاهُنَّ حقٌّ مُؤكَّدٌ لله تعالى لا يحلُّ بالإباحة، وذلك مذهب الْحَنَفِيَّة. ومذهبنا ومذهب الشَّـافِعِيَّة جوازُ الخروج برضاهُ ورضَاهَا بلا تضييقٍ بِعُسْـر النَّفقة، أو كلامِ السُّوء حتَّى تخرج بسبب ذلك، وأنَّ السكنى حقٌّ لهنَّ، وعلى الأوَّل لو افتدت على أن لا سكنى لها اكْتَرَتِ البيت ولا تخرج منه، هذا نصُّ أصحاب هذا القول.

ولها الخروج لخوف انهدام أو غرق أو دابَّة مؤذية أو سرقة، ولها الخروج نهارًا لحاجةٍ لها كبيع غزل أو شراء قطن، أو صوف.

[سيرة] روي أنَّ نسـاء قتلى أُحُد توحَّشـن، فأذن لهنَّ رسول الله ﷺ أن يجتمعن في بيت إحدَاهُنَّ للتحـدُّث ويبتن في بيوتهنَّ، وأجاز ﷺ لخالة جابر التي طُلِّقَت أن تخرج لجدار نخلها.

[فقه] وإذا لزمتها العدَّة في السـفر وليس معها زوجها اعتدَّت في أهلها ذاهبةً وراجعةً. والبدويَّة تعتدُّ في ارتحالها وإقامتها.

والفاحشة المبيِّنة قيل: هي خروجهنَّ، كأنَّه قيل: لا يتصوَّر خروجهنَّ قبل انقضاء العدَّة إلَّا وخروجهنَّ فاحشة ظاهرة، لا يتصوَّر أن يكون خروجهنَّ غير فاحشة مبيِّنة، كما تقول: لا تشتم أمَّك إلَّا وأنت قاطع الرحم، وهذا أبلغ في النهي على الإطلاق، ولو برضاها ورضا زوجها.

[قلت:] والأوْلَى غيرُ هذا بأن تفسَّر الفاحشة بالزّنى، أو بالقيادة، أو بالمزمار، أو الغناء، أو الطبل، أو الكهانة، أو السحر، أو طول اللسان على زوجِها أو أقَارِبِهِ أو أهلِهِ أو جاره، أو السرقة، أو الردَّة، أو نشوزها على زوجها حتَّى طلَّقها، وإن تابت رجعت.

وقيل: الفاحشة ما فيه حَدٌّ، تخرج ليُقام عليها فترجع.

والاستثناء منقطع، قيل: أو تقدَّر باء السببيَّة، أي: إلَّا بإتيانهنَّ بفاحشة مبيِّنة، وفيه أنَّه يتمُّ الكلام على تقدير: لا يخرجن لطلبكم خروجهنَّ إلَّا بأن يأتين، كأنَّه قيل: إذا طلبتم خروجهنَّ فلا يخرجن إلَّا بسبب الفاحشة، فإن رضيتم بالسكنى مع ذلك وزجرتموهنَّ عن الفاحشة جازَ. أو تُعلَّق الباء بـ«تُخْرِجُوهُنَّ».

﴿**وَتِلْكَ**﴾ الأحكام من التطليق للعدَّة وإحصاء العدَّة واتِّقاء الله، وعدم الإخراج وعدم الخروج ﴿**حُدُودُ اللهِ**﴾ لا تُتَجاوز ولا يقصَّر عنها. والحصر إضافيٌّ منظور فيه إلى شأن الطلاق. ﴿**وَمَنْ يَّتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ**﴾ بالتفريط أو الإفراط ﴿**فَقَدْ ظَّلَمَ نَفْسَهُ**﴾ فَيُعَاقبُ، أو ظُلْمُ النَّفس مجَازٌ عن مسبَّبِهِ ولازمه وهو العقاب، وفسَّر بعضهم ﴿ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بأنَّه أضرَّ بها، أي: عرَّضها للضرر، والمَأْصَدَقُ واحد.

﴿**لَا تَدْرِي**﴾ أيُّها المُتَعَدِّي، وهذا على طريق الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب تأكيدًا للزجر عن التعدِّي. وقيل: [الخطاب] للنبيء ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِي...﴾ إلخ ترغيب في المحافظة على الحدود بعد الترهيب، كذا قيل، وهو واضح. وقد يُقال: إنَّه أنسب بالترهيب. ﴿**لَعَلَّ اللهَ**

يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ التعدِّي ﴿**أَمْرًا**﴾ جملة الترجية سدَّت مسدَّ مفعولَيْ «دَرَى» كجملة الاستفهام.

والمراد: لا تدري أيُّها المتعدِّي عاقبة الأمر لعلَّ الله يُحدث في قلبك بعدما فعلت مِمَّا هُو تَعَدٍّ أمرًا يقتضي خلاف ما فعلت، كإبدال بغضها بالحبِّ والإعراض عنها بالإقبال، وبتِّ الطلاق بالرجعة، أو تجديد النكاح.

[قلت:] ويحرم على من يُعرَضُ عليه أمر الطلاق أو كنايتُه أن يأمُره بثَلَاثِ تطليقاتٍ أو بالطلاق البائن، ومن فعل ذلك فقد ظلمها، وصار كمن قطع بين الزوجين، ونافر الآية ونَاقَضَهَا، فإنَّ الآية دَلَّت على أن لا يطلِّق إلَّا واحدةً رجعيَّة لعلَّ الله تعالى يُحدث في قلبه الرجعة.

﴿**فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ**﴾ بلغن آخر مدَّة العِدَّة ﴿**فَأَمْسِكُوهُنَّ**﴾ بالمراجعة بلا صداق، أو بعقد نكاح جديد بصداق ﴿**بِمَعْرُوفٍ**﴾ مع معروف، أو ملتبسين بمعروف منكم، كترك الحقد وعدم التعيير، وعدم التهديد بطلاق آخر، وحسن عشرة، وإنفاق حَسَنٍ، وكذلك من جَانِبِهنَّ، إلَّا أنَّ الآية سيقت لمعروف منهم وعدم قصد التطويل عليها بتطليق آخر في آخر مدَّة العدَّة.

﴿**أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ**﴾ لا بشتم وحقد وإفشاء مساوئها وذمِّهَا وبهتها.

[فقه] ﴿**وَأَشْهِدُوا**﴾ أيُّها المطلِّقون ﴿**ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ**﴾ لا عدلاً وامرأتين عدلين، وأجازه بعض، والإشهاد يكون عند المراجعة، ولا تصحُّ بدونه كما لا يصحُّ النكاح إلَّا به، وكذا إن أراد عقد النكاح عليها في العدَّة بدل الرجعة لا بدَّ من الإشهاد من باب أولى، وذلك مذهبنا وقديم الشافعي.

[فقه] وإن راجع بلا شهود أو بشاهد واحد ومسٍّ حَرُمَتْ، وفي الجديد ومذهب الْحَنَفِيَّة والْمَالِكِيَّة جوازُ الرجعة بلا شهود، وصحَّ الطلاق بلا إشهاد، وإنَّما يحتاج إلى الإشهاد عليه لِمَا يترتَّب عليه من

الأحكام، كدفع أن تدَّعــي هي أو هو ثبوت الزَّوجِيَّــة ليرث، وكدفع أن تنكر الرجعة لتتزوَّج.

[قلت:] وزعم بعــض عن أئمَّة من أهــل البيت أنَّه لا يصــحُّ الطلاق إلَّا بالإشهاد، وربَّما لا يصحُّ ذلك عنهم.

﴿**وَأَقِيمُوا**﴾ يا أيُّها الشهود ﴿**الشَّهَادَةَ لِلهِ**﴾ أخلصوها لله تعالى لا تكتموها ولا تنقصوا منها ولا تزيدوا فيها، بل أدُّوها كما أخذتموها.

[بلاغة] وفي الآية دليل على أن لا قُبح في ترك النداء مع عطف أمرين لمأمورين مع ظهور المراد كما هنا، فإنَّ الأمر في «أَشْهِدُوا» للمطلِّقين، وفي «أَقِيمُــوا» للشــهود، وكما فــي قولــه ﷻ: ﴿يُوسُــفُ أَعْـرِضْ...﴾ إلخ [سورة يوســف: 29]، ولا ســيما مع التخالف كمــا في الآيتين، فإنَّ «أَشْــهِدُوا» و«أَقِيمُــوا» ولو توافقا فــي الأمر والجَمعيَّــة لكن قد ظهــر أنَّ الأوَّل لغير الشهود، والثاني للشــهود، ولو توافقا بلا ظهورٍ مُنِعَ أو قَبُحَ، نحو: اضرب واخرج، تريد أمر زيد بالضرب وعمرو بالخــروج، فلا بدَّ أن تقول: اضرب يا زيد واخرج يا عمرو.

﴿**ذَٰلِكُمْ**﴾ إشارة إلى ما ذكر من الإمســاك بمعروف، أو الفراق بمعروف وإقامة الشهادة، أو إلى التطليقِ للعدَّة وما بعد ذلك إلى إقامة الشهادة، وقيل: الإشارة إلى إقام الشهادة.

والتعميم أَوْلَى لعــدم دليل للتخصيص، ولأنَّه أكثرُ فائدةً وأنســب بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ﴾، ولعلَّ وجه تخصيصها صعوبة المشي إلى تأديتها.

[فقه] وهي لازمة الأداء عليهم في الفرســخين، ولهــم الأجرة فيما بعدهمــا، ولو أغنياء، وفيهما إن كان أداؤها يشــغلهما عن الكســب وهم فقراء محتاجون.

﴿يُوعظُ بِهِ مَن كَانَ يُومِنُ بِاللهِ وَالْيَــوْمِ الَاخِرِ﴾ أي: يؤثِّر الوعظُ فيه، وأمَّا المشرك فكذلك أُمِرَ لأنَّه مخاطب بالفروع، إلَّا أنَّه لا يتأثَّر بالوعظ بذلك، إلَّا أنْ يشاء الله.

﴿وَمَنْ يَّتَّقِ اللهَ﴾ يأتمر بأوامره وينتهي بنواهيه المذكورة في هذه الســورة وفي غيرها ﴿يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ موضــع خروج، أو زمانه، أو نفس الخروج، والأوَّل أظهر. **والخــروج في الوجوه كلِّها هو من الهمــوم والمضائق من جهة الأزواج وغيرها من أمور الدِّين والدنيا والآخرة.**

وعن ابن عبَّــاس: قرأهــا النبيء ﷺ فقــال: «**مخرجا من شــبهات الدنيا وغمرات الموت، وشدائد الآخرة**»[1]، وقيل: من يتَّق الحرام يجعل له مخرجًا إلى الحلال، وقيل: من الشــدَّة إلى الرخاء، وقيل: من النَّار إلى الجنَّة، وقيل: من العقوبة ويرزقه الثواب، وقيل: من يتَّــق الله عند المصيبة يجعل له مخرجا إلى الجنَّة، **والعموم أولى.**

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِــبُ﴾ لا يعتقد في قلبه، والإنسان تارة يفعل ما يَظُنُّ أَنَّهُ يرزق به فيرزقــه الله، أو لا يرزقه، وقد يفعــل ما لا يَظُنُّ فيه رزقًا فيرزق به، ومن ذلك أن يستدين بلا قصدٍ أو بقصد أن يرزق.

وعن محمَّد بن عليٍّ[2] أنَّه كان يســتدين، فقيل له: أتستدين ولك كذا وكذا من المال؟ فقال: لأنَّ النبيء ﷺ قال: «**إنَّ الله تعالى مع المدْيُون حتَّى يقضي دينه**»[3]، فأُحبُّ أن يكون الله معي. وكذا روي عن عائشة أنَّها كانت تســتدين، فقيل لها: ما لك وللدَّين؟ فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(1) أورده **الســيوطي** في الدر: مــج 6، ص 257. وقال: أخرجه ابن المنذر وابــن أبي حاتم. من حديث ابن عبَّاس.

(2) تقدَّم التعريف به في: ج 7، ص 248.

(3) لم نقف على تخريجه.

«**من كان عليه دين ينـــوي قضاءَهُ كان معـــه من الله تعالى عـــونٌ**»[1]، فأنا ألتمس من الله تعالـــى عونًا. وكذا روي أنَّه قـــال ﷺ: «**تَعَرَّضُوا للرزق فإن غُلب أحدُكُم فليَسْتَدِنِ على الله تعالى ورسوله**»[2].

[قلت:] ولا يخفى أنَّ من استدان على نية عدَمِ قَضَاء الدَّيْن آكل للسُّحْتِ، ففي الحديث: «**من تزوَّج على نية أن يذهب بالصداق بعث زانيا، ومن اشترى على نية أن يذهب بالثمن بُعث سارقا**»[3].

قال أبو ذرٍّ: جعل رســـول الله ﷺ يتلو هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَتَّـــقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِـــبُ﴾ فجعل يردِّدها حتَّى نعسْـــت، ثمَّ قال: «**يا أبا ذرٍّ لو أنَّ الناس كلَّهم عملوا بهذه الآية لكفتهم**»[4]. رواه أحمد والبيهقيُّ.

[سيرة] وعن أبي صالح عن ابن عبَّاس قال عوف بن مالك: يا رسول الله، ابني ســـالم أسَـــرهُ العدُوُّ وجزعـــت أمُّه، وإنِّي محتـــاج، فمـــا تأمرني؟ قال: «**ما أمسى عند آل محمَّد إلّا مُدٌّ، آمرُك وإيَّاها أن تستكثروا من قول لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله**»، فقالت: نِعْمَ ما أمرك، فجعلا يكثران منها فتغفَّل العدُوَّ فاســـتاق غنمهم، وعن ابـــن عبَّاس: أربعة آلاف شـــاة فجاء بها إلى أبيـــه، وقيل: إبلاً، وقيل: مائة من الإبل غفل العدوُّ عنها، فنزلت: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ...﴾ الآية.

وقد كانوا شدُّوه بالقيد، فســـقط القيد عنه، أي: ببركة حوقلة أبويْه، فوجد ناقة لهم فركبها، ووجد سرحًا لهم، أي: غنمًا، وفي بعض الروايات ساق أعنزًا

---

(1) رواه **أحمد** في مسنده، كتاب حديث عائشة، باب حديث عائشة، رقم: 25655. من حديث عائشة.
(2) لم نقف على تخريجه.
(3) رواه **البيهقي** في شـــعب الإيمان، باب قبض اليد عن الأموال المحرَّمة... فصل التسديد في الدين، رقم 5549. من حديث صهيب.
(4) أورده **الآلوسيُّ** في تفســـيره، مج 10، ص 135. وقال: أخرجه أحمد والحاكم وصحَّحه، وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة والبيهقي. من حديث أبي ذرٍّ.

لهم فصاح بها فسارت كلُّها، فساق ذلك حتَّى نادى أبويه بالباب، ومعه الناقة والغنم، فنزلت الآية وقال: لك ما جئت به.

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ في الحديث القدسيِّ: «**إنِّي أجعل المخرج للمتوكِّل ولو كادته السماوات والأرض**»[1]، ويعجبني قول بعض:

هواي له فرضٌ تَعَطَّفَ أوجَفَا ... ومنهله عذب تَكَدَّرَ أم صَفَا

وَكِلْتُ إلى المعشوق أمرِيَ كلّه ... فإن شاء أحياني وإن شاء أتلفا[2]

وقول بعض: «من رضي بالله تعالى وَكيلاً وجَدَ إلى كلِّ خيرٍ سبيلا».

﴿إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ ما أراده ولا يفوته ﴿قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي: تقديرا قبل وجوده، فهو اسم مصدر، وقيل: مقدارًا من الزمان والقلَّةِ والكثرةِ وسائرِ الأحوال، وهذا بيان لوجود التوكُّل، لأنَّه إذا كان لكلِّ شيء من الرزق وغيره مقدارٌ أو تقديرٌ لا يتخلَّفُ لَمْ يبْقَ إلَّا التسليم له، قلت:

كم عاقل عاقل يجدُّ مفتقرًا ... ومُرغدِ العيش أبلهُ به الكَسَلُ

هذا الذي صَيَّرَ الألباب موقِنَةً ... بقَدَرِ الله إذْ لَمْ تُفِدِ الحيل

ومعنى «به الكسل»: فيه الكسل، أو معه الكسل، وقال العضد[3]:

كم عاقل قد كان ذا عُسر ... وجاهل جاهل قد كان ذا يُسر

تحيّر النّاس في هذا فقلت لهم ... هذا الذي أوجب الإيمان بالقدَرِ

(1) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره، مج 10، ص 136، وقال: أخرجه أحمد في الزهد من حديث وهب.

(2) هذان البيتان أوردهما بعض المفسرين، ومنهم **الآلوسي** في روح المعاني، ج 15، ص 119. ولم يعزه.

(3) هو عضد الدين عبد الرحمٰن بن أحمد الإيجي ينسب إلى بلدة «إيج» بفارس، عالم مشارك في العلوم العقلية والمعاني والفقه وعلم الكلام، له من التصانيف: المواقف في علم الكلام، وشرح مختصر الحاجب في أصول الفقه. توفي سنة 756هـ. الموسوعة الفقهية الكويتية. ج 11 ص 383.

وقال بعض:

كـــم مـــن أديـــب فهـــم عقلُه مُســـتكمل العقل مُقـــلٍّ عَدِيمْ
ومـــن جهـــولٍ مكثِـــرٍ مالُـــه ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيم﴾[1]

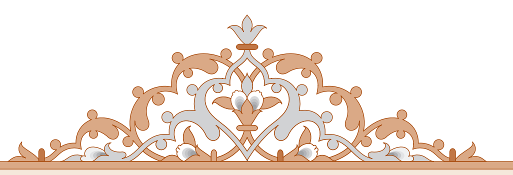
ولا يقرأ الشطر الأخير قراءة الشعر لأنّه من القرآن.

وهذا مضاد لقول من قال:

كم عاقل عاقل أعيـــت مذاهبه وجاهـــل جاهل تلقـــاه مرزوقا
هذا الذي صيّـــر الألباب حائرة وصيَّر العالم النحرير زنديقا[2]

(1) ينسب البيتان إلى الإمام عليٍّ كرم الله وجهه، ورد بلفظ: «...أديب فطن عالم...» ينظر ديوانه.

(2) نســـبهما أغلب المفســـرين والأدباء إلى: أحمد بن يحيى الراوندي. ينظـــر مثلا: **الطاهر بن عاشور**: التحرير والتنوير، ج7، ص255.



﴿وَاللَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝4 ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ۝5﴾

عدَّة اليائس والصغيرة

﴿**والَّلآئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ**﴾ من الحيض. و«مِنْ» للابتداء ﴿**مِن نِّسَآئِكُمْ**﴾ «مِنْ» للبيان متعلِّق بمحذوف حال من النُّون. وإيَّاسهنَّ لكبرهنَّ ببلوغهنَّ ستِّين سنة، أو خمسا وخمسين، أو خمسين أو تسعين، أو غير ذلك.

وقيل: غالب يأس عشيرةِ المرأة، وقيل: غالب سنِّ يأس نساء بلدتها التي هي فيها، فطيب الهواء والماء يبعد اليأس، وقد قيل: أبعدُ اليأس يأس نساء أندلس لذلك، والحكم لله، وكلُّ شيء بمشيئة الله، ولا إله إلَّا الله.

[قلت:] وقيل: اليأسُ أقصى عادة امرأة في نساء الدنيا، وهو قول يحرم به الفتيا لعدم وثوق حصوله.

﴿**إِنِ ارْتَبْتُمْ**﴾ تردّدتم في عدّتهنّ للجهل. ﴿**فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ**﴾ جواب الشرط، والشرط وجوابه خبر المبتدأ باعتبار الإخبار والإعلام، كأنَّه قيل: إن ارتبتم فإنِّي أقول لكم: عدَّتهنَّ ثلاثة أشهر.

[نحو] وقيل: الجملة هذه خبر المبتدأ، والفاء فيه صلة، وجواب الشرط محذوف، وهما في نية التأخير، أي: فعدَّتهنَّ ثلاثة أشهر إن ارتبتم فاعلموا أنَّها ثلاثة أشهر، ولا يخفى ما فيه من دعوى الحذف والتقديم والتأخير والتكرير.

يبقى أن يُقال: كيف يقال: إن ارتبتم بـ«إنْ» الشكِّيَّة، وقد علم الله أنَّهم شكُّوا؟ فقيل: «إنْ» في مثل ذلك للتحقيق، وقد قيل: مجاز مع ما في حيِّزها، واستعارة تمثيليَّة، وقيل: المعنى إن ارتبتم في دم البالغات مبلغ اليأس أَدَمُ حيض أو استحاضة؟ فإذا كانت هذه المرتاب بها فغير المرتاب بها أولى بهذه العدَّة.

وقال الزجَّاج: إن ارتبتم في حيضهنَّ، وقد انقطع عنهنَّ الدَّم، وكنَّ ممَّن يحيض مثلهنَّ ولم يحضن، أو قد حضن قبل وانقطع الدم قبل الاعتداد، أو فيه فعدَّتهنَّ ثلاثة أشهر كالتي لم تبلغ، وهذا أسهل لها.

[فقه] وقيل في التي بلغت ولم تحض: تعتدُّ ثلاثة أشهر كالتي لم تبلغ، وقيل: تعتدُّ سنة، وقيل: تعتدُّ إن حاضت في الاعتداد حيضتين، وانقطع عنها أتمَّت سنةً بهما، وقيل: هكذا ولو حاضت مرَّة واحدة فيه، وقيل: سنة ولو لم تحض فيه، وهذه أقوال تذكر في الفروع.

وقيل: الآية واردة في التي دام بها الدم ولا تدري أهو دم حيض أم استحاضة؟ كان قبل الاعتداد ودام فيه، أو حدث فيه واستمرَّ، وقيل: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ إن تيقَّنتم إيَّاسهنَّ وهذا من الأضداد.

[سبب النزول] وروي أَنَّهُ لَمَّا نزل الاعتداد بثلاث حيض في سورة البقرة قال أهل المدينة: «لقد بقي عدَّة الصغار والآيسات والحوامل» فنزلت في هذه السورة: ﴿وَاللَّآئِي يَئِسْنَ...﴾ إلخ، ونزل: ﴿وَأُوْلَاتُ الَاحْمَالِ...﴾. وفي رواية: قالوا بعد نزول الأقراء الثلاثة: فما عدَّة الصغار والكبار؟ فنزل: ﴿وَاللَّآئِي يَئِسْنَ...﴾ إلخ، فقال قائل: فما عدَّة الحامل؟ فنزل: ﴿وَأُوْلَاتُ الَاحْمَالِ﴾.

﴿**وَاللَّآئِي لَمْ يَحِضْنَ**﴾ عطف على ﴿اللَّآئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُم﴾ فهاء «عِدَّتهنَّ» عائدة إلى «اللَّآئِي يَئِسْنَ» وإلى «اللَّآئِي لَمْ يَحِضْنَ» لأنَّه في نيَّة التقديم، وهذا أولى من الحذف.

ومعنى ﴿لَمْ يَحِضْنَ﴾: لم يبلغن الحلم فعدَّتهنَّ ثلاثة أشهر، وأمَّا التي بلغت فما لها إلَّا ثلاث حيض، أو تبلغ الإيَّاس فتعتدُّ ثلاثة أشهر. وقال ﷺ: «**مروا الحائض أن تختمر**»[1]، أي: البالغة ولو لم تحض، فالحيض بلوغ سنِّ الحيض، وهنا تأتي الأقوال المذكورة مع قول الزجَّاج آنفا.

[فقه] وقول الإمام الأندلسيِّ أبي حيَّان في بحره ونهره: إنَّ قوله تعالى: ﴿وَاللَّآئِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ يشمل من لم يحض لصغر، ومن لا يكون لهنَّ الحيض البتَّة، كبعض النساء يعشن إلى أن يمتن ولا يحضن. و[يشمل] من أتى عليها زمان الحيض وما بلغت به ولم تحض، قال: وقيل هذه تعتدُّ سنة.

[فقه] وجمهور العلماء على أنَّ البالغة التي كانت تحيض وانقطع عنها الحيض أن تنتظر ثلاث حيض، أو تبلغ الإيَّاس فتعتدُّ ثلاثة أشهر، وهو قول عثمان وعليٍّ وزيد وعبد الله بن مسعود وعطاء والشافعيِّ وأصحاب الرأي.

وعن عمر: تتربَّص تسعة أشهر، فإن لم تحض اعتدَّت ثلاثة أشهر، وهو قول مالك. وقال الحسن: تتربَّص سنة، فإن لم تحض اعتدَّت ثلاثة أشهر، والتي بلغت ولم تحض تعتدُّ ثلاثة أشهر. وانظر وفاء الضمانة[2].

[فقه] ﴿وَأُوْلَاتُ الَاحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَّضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ تمام عدَّتهنَّ وضعُهُنَّ حملهنَّ، ولو علقة أو مضغة، مطلَّقات أو متوفَّى عنهنَّ أو مُفَاديات، أو نحو ذلك، أو حَرُمْنَ، أو طَلَّقْنَ أنفسهنَّ إن كان الطلاق بأيديهنَّ معلَّقا لمعلوم، أو غير معلَّق.

[فقه] سئل ابن عمر عن امرأة يتوفَّى عنها زوجها وهي حامل قال: لو ولدت وزوجها على سريره لم يدفن لَحَلَّتْ، ويدخل عليها في غير فرجها، رواه مالك والشافعي وعبد الرزاق.

---

(1) لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ وورد ما يؤيِّده معنى في حديث أسماء.

(2) القطب، وفاء الضمانة: ج 1، ص 129.

قال ابن مسعود: «من شـــاء لَاعَنْتُهُ أَنَّ الآية التي نزلت في سورة النساء القصرى ﴿وَأُوْلَاتُ الَاحْمَالِ﴾ نزلت بعد ســـورة البقرة بكذا وكذا شـــهرًا، وكلُّ مطلَّقة ومتوفًّى عنها أجلها أن تضع حملها»[1]، رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، ورواية ابن مردوَيْه: بسبع سنين، قيل: وَلَعَلَّه لا يَصِحُّ.

وكذلك قال أبو هريرة وأبو مســـعود الأنصاريُّ وعائشة وفقهاء الأمصار: «إنَّ عدَّة الحامل المطلَّقـــة والمتوفَّى عنها وضع الحمل، وقيل: أربعة أشـــهر وعشـــرا». قال أبيُّ بن كعب: قلت للنبيء ﷺ ﴿وَأُوْلَاتُ الَاحْمَـــالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَّضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أهي المطلَّقة ثلاثـــا والمتوفَّى عنها؟ قال: «هي المطلَّقة ثلاثا والمتوفَّى عنها».

[قلت:] وتسمية ابن مسعود لسورة الطلاق ســـورة النساء القصرى رواها البخاريُّ وأبو داود والنســـائيُّ وابن ماجه، فإنكار الداوي لها على ابن مسعود باطل، إذ لا مستند له في الردِّ على صحابيٍّ في أمر أثبته الصحابيُّ.

[قلت:] وزعم أنَّه لا يقال لشيء من ســـور القرآن: الصغرى ولا الكبرى، قلنا: لا بأس، لأنَّ الصِّغـــر والكِبَرَ في ذلك غير ذاتيٍّ بل بالنســـبة، فقد أخرج البخاريُّ عن زيد بن ثابت أنَّه قال: «طولى الطوليين» يعني سورة الأعراف.

[سيرة] وروي أَنَّهُ تُوُفِّيَ ســـعد بن خولة في حجَّة الوداع عن ســـبيعة بنت الحارث الأســـلميَّة، فوضعت بعده بثلاث وعشرين يوما أو بخمس وعشـــرين أو بأربعين، روايات، فاختضبت وتكحَّلـــت وتزيَّنت للنكاح، فقال لهـــا أبو الســـنابل: ما لك نكاح حتَّى تكمل أربعة أشـــهر وعشـــرا،

---

(1) رواه **أبو داود** في كتاب الطلاق باب عـــدة الحامل رقم 2307. **وابن ماجه** في كتاب الطلاق، باب الحامل متوفًّى عنها زوجها، رقم 2030. مع اختلاف في اللفظ. كما **أورده السيوطي** في الدر: مج 6، ص 261. وقال: أخرجه ابن مردويه. من حديث ابن مسعود.



فسئل ﷺ فقال: «**إنَّ لها ذلك، لأنَّ أَجَلَهَا قد خَلَا**». وقيل: سألته هي، كما في البخاري ومسلم. وفي ذلك نَسْخُ عموم آية أربعة الأشهر والعشر بهذه الآية، أو تخصيصها.

[فقه] قلت: وقال عليٌّ وابن عبَّاس: عدَّة الحامل المتوفَّى عنها أبعد الأجلين، وهو عندي أولى من حيث القاعدة، إلَّا أنَّ الحديث حجَّة، وذلك لأنَّ آية هذه السورة في الطلاق والكلام فيه قبل وبعدُ، ولأنَّ في ذلك عملا بالآيتين معا بلا نسخ لإحداهما: ﴿وَالذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا...﴾ إلخ [سورة البقرة: 240]، ﴿وَأُوْلَاتُ الَاحْمَالِ أَجَلُهُنَّ...﴾ إلخ. فإن زادت مدَّة الحمل فقد تربَّصت أربعة أشهر وعشرا، وإن قَصُرت وتربَّصت فقد وضعت وتربَّصت، فقد جمعنا بين النصَّين ولم نُلْغِ أَحدهما والمدَّتان معتبرتان بالحكم المنسوب إليهما لا لذاتهما فافْهم.

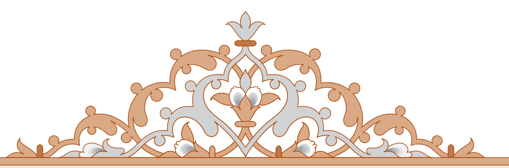
والإضافة في «حَمْلَهُنَّ» للجنس، فقام مقام الجمع، كما قال: ﴿وَأُوْلَاتُ الَاحْمَالِ﴾. وقرأ الضحَّاك: «أَحْمَالَهُنَّ»، وناسب الإفراد راحة الوضع، والله أعلم.

﴿**وَمَنْ يَّتَّقِ اللّهَ**﴾ في أحكامه ﷻ ومراعاة حقوقها وفهمها. ﴿**يَجْعَل لَّهُ مِنَ اَمْرِهِ يُسْرًا**﴾ يسهِّلْ له ما عسر. و«مِنْ» للبيان يتعلَّق بمحذوف حال من «يُسْرًا»، قدِّم على طريق الاهتمام وللفاصلة، أو بمعنى في، أو للتعليل، فيعلَّق بـ«يَجْعَل».

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ المذكور العالي الشأن من الأحكام. ﴿**أَمْرُ اللهِ أَنزَلَهُۥ إِلَيْكُمْ**﴾ لتعملوا به فلا تُضيِّعوه وليس حكما من غيره تعالى. وكاف «ذَلِكَ» للنبيء ﷺ، والخطاب بالجمع له ولأمَّته، أو لهم، أو له تعظيما كما في أوَّل السورة.

قلت: والقول بأنَّها لمجـرَّد الفرق بين الحاضر والمنقضـي غفلةٌ، إذ فيه استعمالها في غير ما وضعت له بلا تجوُّزٍ وقرينة وعلاقة.

﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ**﴾ في العمل بأحكامه والمحافظة عليها، ويجوز أن يكون الاتِّقاء في الموضعين لمعنى واحد كرِّر للتأكيد، كقوله: من يتَّق الله ينجُ، ومن يتَّق الله يدخل الجنَّة. ﴿**يُكَفِّرْ عَنهُ سَيِّئَاتِهِ**﴾ فإنَّ اجتناب الكبائر يمحو الصغائر ﴿**وَيُعْظِمْ لَهُۥ أَجْرًا**﴾ نية العمل بلا عمل بأجر عمله بلا مضاعفة، وعمله بعشر إلى ما فوق سبعمائة.



﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ (6) لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (7)﴾

وجوب السكنى والنفقة للمعتدّة والمرضعة

وكأنَّه قيل: ما التقوى في شـأن المعتدَّات؟ فقال: ﴿**أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُمْ**﴾ «مِن» للتبعيض، أي: أسكنوهنَّ بعض مكان سكناكم، بأن تسكنوا في جهة من بيت وتسكن في جهة منه أخرى، أو للابتداء، أي: خذوا لهنَّ مسكنا من مسكنكم. ﴿**مِّن وُجْدِكُمْ**﴾ من موجودكم ممَّا تطيقونه.

[نحو] والجارُّ والمجرور بدل كلٍّ من قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ وبعض أجاز عطف البيان في الجمل والمفردات والجارِّ والمجرور والمعارف والنكرات نظرًا للمعنى، وهو خروج عمَّا اصطُلح عليه.

﴿**وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ**﴾ في السكنى بما يمنع النوم أو الطهارة أو الصلاة، أو شغل، أو إسكان من لا يليق بهنَّ معهنَّ أو غير ذلك. ﴿**لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ**﴾ ليحصل التضييق المؤثِّر فيهنَّ حتَّى يلجأن إلى الخروج.

[قلت:] ومن البدع المحرَّمات أن يطلِّقها ويرسل إليها من يحمل متاعها ويخرجها من بيتها في داره ومن داره، وكان من الواجب أن يقول لها: لك

عليَّ السُّــكنى والنفقة إذا وجبت، فإن أبت إلَّا الخروج فذاك، وقلنا: السكنى حقٌّ لها لا لله تعالى أباحه الزوج لها.

﴿وَإِن كُنَّ﴾ أي: المطلَّقات، ﴿أُوْلَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُــواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فيخرجن، سواءٌ الطلاق الرجعيُّ والبائنُ والثلاثُ.

[فقه] والفــداء كالطلاق، وكذا ســائر الفرقة للحامل، ولــو ملاعنةً، إلَّا المتوفَّى عنها فلا نفقة لها عند الجمهور ولو حاملا. وعن عليٍّ وابن مســعود: نفقة المتوفَّــى عنهــنَّ الحواملِ في التركــة. ولا خلاف في وجوب ســكنى المطلَّقات الحوامل ونفقتهنَّ. ولا نفقة للمطلَّقة البائن ولا سكنى، قالت فاطمة بنت قيس: طلَّقني زوجي أبو عمرو بن حفص بن المغيــرة المخزومي البتَّة، فخاصمتُه في الســكنى والنفقة، فلم يجمعهما لي رســول الله ﷺ وأمرني أن أعتدَّ في بيت ابن أمِّ مكتوم، ثمَّ أنكحني أُسامة بن زيد.

وقال الحســن ومالك والشافعي: لها الســكنى فقط، وقال أبو حنيفة: لها الســكنى والنفقة، فعن عمر ســمعت رســول الله ﷺ يقول: «**للمبتوتة النفقةُ والســكنى**». ونســب لأكثر أهل العلم أنَّ للبائنة ـ بخلعٍ أو طلاقِ الثلاثِ أو بِلِعَانٍ ـ السُّكنى، ولو غير حاملٍ.

وعن ابــن عبَّاس: لا ســكنى لهنَّ إلَّا إن كنَّ حوامل، ونســب للحســن والشــعبيِّ، ولا نفقة لهنَّ، إلَّا إن كنَّ حوامل، ونســبه لابن عبَّاس والحســن والشعبيِّ والشــافعيِّ وأحمد. وعن ابن مســعود: لهنَّ النفقة ولو غير حوامل، وبه قال النخعيُّ والثوريُّ وأصحاب الرأي.

[فقه] والصحيح **أن لا نفقة ولا ســكنى للَّتي اختارت نفســها لعتق**، أو بلوغ، أو وقوع شيء شَرَطَتْهُ، أو فسخِ نكاحٍ بعيب. والمعتدَّة من وطء شُبْهةٍ أو لحرمةٍ إلَّا إن كانت حاملا فلها النفقة. وقال الشــعبيُّ والثوريُّ والنخعيُّ بقول

عليٍّ المتقدِّم. ولا سكنى للمتوفَّى عنها عند ابن عبَّاس وعائشة وعطاء والحسن وأبي حنيفة، وقال عمر وعثمان وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر ومالك والثوريُّ وإسحاق وأحمد: لها السكنى.

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ ما ولدن ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على الإرضاع، ﴿وَأْتَمِرُواْ﴾ أيُّها الآباء والأمَّهات ﴿بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: ليأمر بعضكم بعضًا بالمعروف وتشاوروا.

[صرف] واللَّام في قولي: لِيَأمُرْ، لَامُ الأمْرِ. فَـ «ائتَمِرُوا» افْتَعِلُوا (بكسر العين) من الأمر، بمعنى تَآمَرُوا، بوزن تَفَاعَلُوا (بفتح التاء والعين) فعل أمر، فالافتعال في الآية بمعنى التفاعل.

والمعروف: الأمرُ الجميلُ في الأجرة والإرضاع والكسوة والفراش والغطاء والدهن، وغير ذلك ممَّا يحتاج إليه الولَدُ بلا مَشاحَّة أو معاسرة من أحد الأبوين.

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ خطاب للآباء والأمَّهات، أي: تضايقتم في الأجرة وطلب الزيادة ونحو ذلك، وامتنعتْ من الإرضاع، بدليل قوله تعالى: ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ﴾ أي: للأب بالأجرة أو دونها ﴿أُخْرَى﴾ أي: امرأة أخرى، أو مرضعة أخرى، وتسميتها مرضعة أخرى باعتبار أنَّ الأمَّ من شأنها أن تكون مرضعة لولدها، ومرضعة أخرى بمعنى تأَهَّلتْ للإرضاع، سواء كانت ترضع غير هذا الولد من قبلُ أم لا.

[قلت:] وفي الآية عتاب للأمِّ، كما إذا سألت أحدًا فمنعك فقلت: يعطيني الله، أو فلان بإذن الله، فيبقى العيبُ فيكَ، ووجه عتاب الأمِّ على ترك الإرضاع أنَّها بصورة قطع الرحم، وأنَّها شحَّت على ولدها وهو ثمرة فؤادها، وأنَّ لبنها غير متموَّل ولا مبخول به في العرف، وأنَّ اللبن للفحل فهو للأب أصالة، إلَّا

أنَّها لو باعته لجاز، وكذا إن سقت به من خرج عن الرضاع جاز، وذلك بخلاف الأب فإنَّ اللَّوم عليه دون اللَّوم عليها لأنَّه يعطي ما يُتموَّل.

ويجوز دخوله في العتاب: كيف يضايق الأمَّ في الأجرة وهي أحقُّ بولدها وأشفق عليه؟ وكيف لا يرغب فيها ولو بزيادة على غيرها؟ أو يُقَدَّرُ: وإن تعاسرتم لم يمت جوعا لأنَّه سترضع له أخرى.

أو اللَّفظ إخبار والمعنى أمر، أي: فليسترضع له الأب أخرى، أو فلترضعه أخرى، على فرض الكفاية. وإن لم يقبل إلَّا عن أمِّه أجبرت ولها الأجرة، وكذا إن لم يقبلْ إلَّا عن امرأة أخرى تجبر هذه الأخرى ولها الأجرة.

﴿**لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ**﴾ وَسْعٍ في المال ﴿**مِّن سَعَتِهِ**﴾ مصدر بمعنى اسم الفاعل، أي: من واسعه، أي: على قدر ماله الواسع.

[فائدة] ويقال: يكون الرجل سيِّد الرجال إذا كانت فيه ثلاث من داخل البيت: توسيعُ الطعامِ واللباس على أهلهِ قدر طاقته، ومذاكرة أهله بما علم من العلم، واستعمال ما رأى من أهل الورع، وثلاث من خارج البيت: استفادة العلم من العلماء، ومخالطةُ أهل الورع، وطلب قوته وقوت عياله من حلال.

﴿**وَمَن قُدِرَ**﴾ ضُيِّقَ ﴿**عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَاهُ اللهُ**﴾ هذا اللفظ دليل على أنَّ الرزق ما ملك، فالرزق اسم مُلْكٍ ولو لم ينتفع به، لأنَّه سمَّاه رزقا قبل أن ينفق، أمَّا إذا أنفق فقد انتفع بالإنفاق، والمعنى: فلْينفق من الرزق الذي آتاه الله، إلَّا أن يقال: سمَّاه رزقا باعتبار مآله للإنفاق.

وزعم محمَّد بن المواز أنَّ النفقة وجبت على الأب والأمِّ بقدر الإرث، وهو باطل، إلَّا إن كان ابن أمِّه ولقيطها أو ملاعنًا عليه فعليها وحدها، وإن عجزت فعلى عصبتها.

﴿لَا يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْسًا اِلَّا مَآ اٰتَاهَا﴾ «مَا» مفعول ثان بمعنى الطاقة أو الرزق، على حذف مضاف، أي: إلَّا قدر ما آتاها، وهذا القدر هو المقدار الذي يناسب أن ينفقه من جملة ماله القليل، وفي ذلك تطييب لنفس المُعْسر، وتسليةٌ لنفس الأمِّ.

[فقه] وفي الآية دليل على أنَّ المعسر الذي لا يجد ما ينفق على زوجه لا ينفسخ نكاحه وهو الصحيح ومذهبنا، وعليه الجمهور وعليه عمر بن عبد العزيز وأبو حنيفة، فَتَصْبِرُ أو تحسب عليه نفقة المعسر على يد حاكم، فإن أيسر بعدُ قَضَاها.

وعن أبي هريرة والحسن وابن المسيّب ومالك وأحمد والشافعيِّ وإسحاق: يفسخ النكاح بالعجز عن الإنفاق، ويفرَّق بينهما ولا يعدُّ تطليقا، فهي بعد ذلك له على ثلاث.

[قلت:] وفي كلِّ واحدة من قوله ﷻ: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾، وقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَاهُ اللّٰهُ﴾، وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْسًا اِلَّا مَآ ءَاتَاهَا﴾، أخذُ الأدب عن الله إذا وسَّع الله ﷻ فوسِّع وإذا قَتَرَ فَأَقْتِر، وفي الحديث المرفوع: «**إذا وسَّع الله عليك فوسِّع، وإذا قتر فأَقتر**»[1].

﴿سَيَجْعَلُ اللّٰهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وعدٌ لفقراء ذلك الوقت، أو من بعدهم بفتح أبواب الرزق أزواجًا كانوا أو غير أزواج، والمراد بالذَّات فُقَرَاءُ ذَلك الوقت هُمْ وأزواجهُمْ، وقد يُقال: المراد باليُسر اليُسر العظيم ليطابق ذكر اليسرين في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا اِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [سورة الشرح: 5 ـ 6]، فيكون تنوينه للتعظيم.

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره: مج 10، ص 140. بدون تخريج.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿8﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿9﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿10﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿11﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿12﴾ ﴾

وعيد المخالفين، ووعد الطائعين
والتذكير بقوَّة الله

﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ**﴾ كم من قرية، فهي للتكثير، أي: أهل قرية، أو قرية اسم لأهلها مجازًا، وقد مرَّ ذلك. ﴿**عَتَتْ**﴾ خرجت بالفساد والتجبُّر، والجملة خبر «كَأَيِّنٍ»، أو صفة والخبر «أَعَدَّ اللهُ...» إلخ. ﴿**عَنَ اَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ**﴾ لم تَأْتَمِر بأمر الله ورسوله، ولم تَنتهِ بنهي الله ورسوله.

﴿**فَحَاسَبْنَاهَا**﴾ لعتوِّها ﴿**حِسَابًا شَدِيدًا**﴾ على مثقال الذرَّة ﴿**وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا**﴾ يُستنكر ولا يُعرف ولا يخطر وصفه بالبال لشِدَّتِهِ، والحساب والتعذيب بصيغة المضيِّ لتحقُّق الوقوع، وكذا الذوق في قوله ﷻ: ﴿**فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا**﴾ ثقل شدَّة عُتُوِّها، وقال الكلبيُّ: العذاب النكر الجُوع والقحطُ والسيفُ وسائر المصايب، فالذوق والحساب على ظاهرهما من المضيِّ على هذا.

﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ خُسرانا عظيما. ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ هذا تكرير لذكر الوعيد ﴿فَاتَّقُوا اللهَ يَآ أُوْلِي الْاَلْبَابِ﴾ لتنجو من ذلك العذاب.

[نحو] ﴿الذِينَ ءَامَنُوا﴾ نعت أو عطف بيان لـ«أُوْلِي» لا بدل، لعدم أن يحلَّ محلَّ «أولي»، لأنَّه مقرون بـ«ال»، والمقرون بها لا يدخل عليه حرف النداء إلَّا ما خُصَّ، إلَّا أنَّه لا يلزم حلولُ البدلِ محلَّ المبدل منه دائما، إذ قد يخرج عن ذلك.

[بلاغة] ناداهم الله ﷻ ليتنبَّهوا إلى قوله: ﴿قَدَ اَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ﴾ أرسل، عبَّر عن الإرسَالِ بالإنزالِ ترشيحًا لتسميته ﷺ ذكرًا على استعارة الذكر له، أو على التجوُّز الإرساليِّ لعلاقة التسبُّب، لأنَّ الإرسال مسبَّب عن الإنزال فـ«أَنزَلَ» مجاز مرسل. قد أنزل ﴿ذِكْرًا﴾ أي: نبيئًا عظيما كثير الذِّكر وعظيمه، كأنَّه نفس الذِّكر لتكثيره تلاوة القرآن، أو اسم مصدر بمعنى التذكير، كأنَّه نفس التذكير لتكثيره وتعظيمه، أو يقدَّر: ذَا ذِكْرٍ، أو يُؤوَّلُ بِذَاكِرٍ أو مُذَكِّرٍ.

وقيل: ﴿ذكرًا﴾: جبريل وتذكير النبيء تذكير من جبريل إلَّا أنَّه لا يوصف جبريل بكثرة قراءة القرآن، لأنَّه ماله منها إلَّا نزولها على لسانه، والتنكير على كلِّ حال للتعظيم.

﴿رَسُولاً﴾ بدل من «ذِكْرًا»، ويجوز إبقاء الإنزال على حقيقته، فيكون «ذِكْرًا» بمعنى القرآن و«رَسُولاً» تابع كذلك على حذف مضاف، أي: ذا رسول أو ذكر رسولٍ. ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمُۥٓ ءَايَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ الجملة نعت لـ«رَسُولاً».

﴿لِيُخْرِجَ﴾ متعلِّق بـ«أَنزلَ»، والضمير عائد إلى الله أو «يَتْلُو» والضمير إلى الرسول، أو إلى الله تعالى. وإسناد الإخراج إلى الرسول مجاز للتسبُّب. ﴿الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ حصل لهم الإيمان والعملُ بعد إنزال

الذِّكر، وقبل نزول الآية، فالإيمـــانُ والعملُ الحاصلانِ لهم لم يكُونَا لهم قبلُ، وكانا بالإخراج بعدُ، أو المعنى: من قضَى الله أن يؤمن ويصلح.

[بلاغة] ﴿**مِنَ الظُّلُمَاتِ**﴾ استعارة تصريحيَّة للشرك والمعاصي لجامع الأضرار. ﴿**إِلَى النُّـــورِ**﴾ إلى الدِّين الحقِّ، اســتعار له لفظ النُّور اســتعارة تصريحيَّة لجامع النفع.

﴿**وَمَنْ يُّومِنۢ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا نُّدْخِلْهُ جَنَّـــاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الَانهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا**﴾ «خَالِدِينَ» حَالٌ من الهاء باعتبار وقوعها على جماعة، ولو أفرد لفظُها باعتبار لفظ «مَن» كما اعتبـــر لفظُه في «يُومِن» و«يَعْمَلْ» والهاءِ في قوله تعالى: ﴿**قَدَ اَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا**﴾، وهذه الجملة حال من الهاء أيضا أو من المستتر في «خَالِدِينَ».

[صرف] وشـــهر أنَّ مراعاة اللفظ ثـــمَّ مراعاة المعنى جائـــزةٌ بلا ضعف، بخلاف مراعاة المعنى ثـــمَّ مراعاة اللَّفـــظ فإنَّها لا تجـــوز أو ضعيفة، وعلى جوازها بلا ضعف يعود هَاءُ «لَهُ» إلى «مَن» مراعـــاة للَّفظ بعد عود «خَالِدِينَ» إلى معناها، وذلك معتبر ولـــو بين كلامين لا مخصوص بـــكلام واحد، فلا يكفي في الجواب أنَّ «خَالِدِينَ» معتبر بهاء «نُدْخِلْهُ» لا بـ«مَن».

ومعلوم أنَّ من في الجنَّة له الرزق الحسن، ولكن أفادت هذه الجملة أَنَّ الله أَحْسَـــنَ له الجزاء علـــى إيمانه وعَمَلـــهِ، وأَنَّ رزق الجنَّـــة عظيمٌ بحيثُ يُتَعَجَّبُ منه.

[نحو] ﴿**اللَّهُ الذِي**﴾ مبتدأ وخبر، أو «الله» بدل مـــن لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿قَدَ اَحْسَـــنَ اللَّهُ لَـــهُ﴾، و«الذِي» نعت، أو «اللَّهُ» نعـــت ولو كان جامدًا لنعته بما هو كالمُشْـــتَقِّ، كما يجيء الحال جامدًا لنعته بالمشتقِّ نحو: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [سورة فصّلت: 3].

﴿**خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الَارْضِ مِثْلَهُنَّ**﴾ مثل معطوف على «سَبْعَ»، ولا بأس بالفصل بين العاطف والمعطوف بالجارِّ والمجرور هنا، لأنَّ الجارَّ والمجرور هنا حال من المعطوف، وكأنَّه جزء منه، وليس ممَّا يختصُّ بالشعر.

وما هنا إلَّا كقولكَ: «أكرمتُ الزُّيُودَ ومِن النساء هندًا»، فلا حاجة إلى جعل «مِثْلَهُنَّ» منصوبا بـ«خَلَقَ» محذوفا هكذا: وخلق من الأرض مثلهنَّ.

والمراد: مِثْلَهُنَّ في أنَّهنَّ سبعٌ، بين كلِّ واحدة والأخرى خمسمائة عام، وغلظ كلِّ واحدة خمسمائة عام، وفي كلِّ واحدة من الستِّ سكَّان هم ملائكة، أو جنٌّ، أو كلاهما، أو من شاء الله. وعن ابن عبَّاس: ملائكة أو جنٌّ.

وقيل: **لا يعلم من فيهنَّ إلَّا الله**. وجاء ذلك العدد ومقدار ما بين الأرضين منهنَّ في حديث أحمد والترمذيِّ إلَّا الغلظ، وذلك هو الصحيح وعليه الجمهور.

[ردُّ خرافات الأقدمين] لا ما قيل: إنَّ في كُلِّ واحدة من الستِّ مثل ما في هذه من آدم ونوح وجميع الأنبياء وجميع ما في هذه، فيكون اختصاصه ﷺ بختم النبوءة باعتبار هذه الأرض **وذلك تخليط**. وقيل: سبع أرضين متماسَّة يحملهنَّ ثور على صخرة **إلى آخر التخاليط...**

ومنها: أنَّها ـ أي الأرضين ـ سبع منبسطات تفرق بينهنَّ البحور لا واحدة فوق واحدة، وعبارة بعض: إنَّ الأرض واحدة إلَّا أنَّ الأقاليم سبعة، وليس القائل بالسبع المنبسطة مريدًا للأقاليم، وصحَّ في الحديث: «**اللَّهمَّ ربَّ السماوات السبع وما أظللن، وربَّ الأرضين السبع وما أقللن**»[1]. ومعنى خلق سبع أرضين من الأرض أنَّها أرض واحدة فتقها سبعًا.

(1) تقدَّم تخريجه. انظر: ج 1، ص 309.

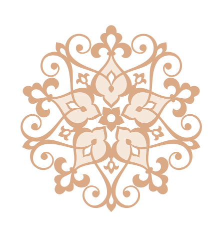
﴿**يَتَنَزَّلُ الاَمْرُ بَيْنَهُنَّ**﴾ بين كلِّ سماء وسماء، وبين السماء والأرض، وبين كلِّ أرضين. و﴿الاَمْرُ﴾: قضاؤه وقدره، ونفاذ ملكــه وتَصَرُّفه، وفي كلِّ أرض خلق وما يجري عليهم من أمر الله تعالــى، وفي الأرض من حياة وموت وفقر وغنًى ووحي.

ويروى أنَّه التقى ملائكة في وسط هذه الأرض وكلٌّ قال: جئت من ربِّي، واحد من الشــرق والآخر من الغــرب والآخر من تحت العــرش والآخر من الأرض السابعة، لا إله إلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿**لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَــيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ تعليل لـ«يَتَنَزَّلُ» أو لـ«خَلَقَ» أو تَعْليلٌ بأخبرتكم، أو بفعلت ذلــك فتعظِّموه، وتؤمنوا بالبعث ﴿**وَأَنَّ اللهَ قَدَ اَحَاطَ بِكُلِّ شَــيْءٍ عِلْمًا**﴾ لاســتحالة أن يفعل ذلك مَن لَم يحط علمُه بكلِّ شيء.

ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم.

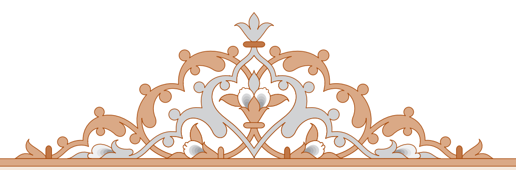
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد.



66

تفسير سورة التحريم

مدنيَّة وآياتها 12 - نزلت بعد سورة الحجرات



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٢ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ٣ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ٥﴾

معاتبة بعض زوجات النبيء ﷺ

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ المراد منع النَّفس عمَّا حلَّ مع اعتقاد أنَّه حلال، وإلَّا فتحليل الحرام وتحريم الحلال خطأ، حاشاه ﷺ ﴿مَآ أَحَلَّ اللهُ لَكَ﴾.

[سيرة] هو العسل حرَّم شرْبَهُ، كان يمكث عند زوجه زينب بنت جحش ويشربه عندها، فاتَّفقت عائشة وحفصة على أنَّه إذا دخل على إحداهما أن تقول

له: إنِّي أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير، فدخل على إحداهما فقالت ذلك، فقال: لا بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعود، وقد حلفت ولا تخبري بذلك أحدًا، فنزلت: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ أقرَّت بذلك عائشة.

[لغة] والمغافير (بفتح الميم) جمع مغفور (بضمِّها وبالغين المعجمة) له رائحة كريهة علك العرفط، وقيل: نبات له ورق عريض، وقيل: هو شوك لهُ نَوْرٌ يأكل منه النحل، والعرفط علكه.

وكان ﷺ يكره الرائحة الكريهة، وكان ﷺ يحبُّ الرائحة الطيِّبة جِدًّا للطافة نَفْسِهِ، ولأنَّه يلاقي جبريل والملائكة فَشَقَّ عليه تلك الرائحة فحرَّم العسلَ إذ ظنَّ أنَّ تلك الرائحة منه، لأكل النحل ذلك، وفي نفس الأمر لا رائحة من ذلك فيما شرب من ذلك العسل.

إلَّا أنَّ ظاهر روايةٍ عن سودة أنَّ الرائحة متحقِّقة عليه، وهي أنَّ سودة قالت: أكلت مغافير، قال: لا، قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: سقتني حفصة شربة عسل، فقالت: جرست نحله العِرفَط، فَحَرَّمَ العسل، فنزلت، إلَّا إنْ تواطأت مع عائشة أن تقول ذلك أو كان من عند نفسها احتيال.

وفي البخاري ومسلم أنَّ الشرب عند حفصة، والمتواطئتين على القول عائشة وسودة، وأنَّ العسل من عكَّة أهدتها لحفصة امرأة من قومها.

وعن ابن عبَّاس: شرب من شراب عند سودة من العسل، فدخل على عائشة فقالت: إنِّي أجد منك ريحًا، فدخل على حفصة، فقالت: إنِّي أجد منك ريحًا، فقال: أراه من شراب شربتهُ عند سودة، والله لا أشربه، فنزلت.

ومعنى أُراه (بفتح الهمزة وضمِّها) بمعنى أظنُّهُ، وظاهر هذه الرواية أنَّه شراب رُكِّبَ من عسل لا عسل وحده، وظاهر ما مرَّ أنَّه عسل وحده، وتحتمله هذه على أنَّ «مِنْ» للبيان.



[سيرة] والصحيح أنَّ الشرب عند زينب، وهو المشهور، وهو رواية للبخاريِّ، وفي الأخرى له عن عائشة أنَّ الشرب للعسل في بيت حفصة، والقائلة سودة وصفيَّة.

[سبب النزول] وروي عن أنس أنَّه كانت له ﷺ أمة يطأها ـ يعني مارية ـ فلم تزل به عائشة وحفصة حتَّى حرَّمها على نفسه، فنزلت، كما روي عن ابن عبَّاس أنَّ الآية نزلت في سُرِيَّته.

وعبارة بعض: إنَّ المشهور أنَّها مارية، وأنَّه ﷺ وطئها في بيت حفصة في يومها إذ خرجت إلى أبيها بإذنه ﷺ، فعاتبته وبكت، وقالت: فعلت ذلك في بيتي ويومي وفراشي، وما رأيت لي حقًّا، وما تفعل ذلك بإحدى نسائك، فقال: «**ألا تَرْضَيْنَ أن أُحَرِّمَهَا فلا أقربها**» قالت: بلى، فَحرَّمها وضربت الحائط بينها وبين عائشة فبشَّرتها، وقالت: أراحنا الله منها، ومع ذلك لم تزل عائشة به ﷺ حتَّى حلف أن لا يقربها.

وروي أنَّ هذا في بيت حفصة في يوم عائشة، وروي أنَّه خلا بها في يوم عائشة، وعلمت بذلك حفصة، أي: لأنَّه كان ذلك في بيتها، فقال لها: اكتمي ذلك عليَّ، وقد حَرَّمتُ مارية على نفسي، وأبشِّرك أنَّ أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أُمَّتي. فأخبرت بذلك عائشة، وكانتا متصادقتين على سائر نساء النبيء ﷺ.

[سيرة] وطلَّق حفصةَ إذ أخبرت عائشةَ بما استكتمها، واعتزل نساءه، ومكث تسعا وعشرين ليلة في بيت مارية، فنزل جبريل عليه السلام فقال: راجعْها فإنَّها قَوَّامةٌ صوَّامةٌ، وإنَّها لمن نسائك في الجنَّة.

ويجوز الجمع بأنَّه حرَّم مارية وحرَّم العسل فنزلت الآية فيهما، و«مَا» واقعة على غير العالم وهو العسل، أو وطء مارية، وهو المشهور فيها،

ويجوز وقوعها على مارية، وهي عالمة لا غير عاقلة، كقوله ﷺ: «**سبحان ما سخَّركنَّ لنا**»[1]. وشهر ذلك في المماليك، لأنَّها مال، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَانُكُمۡ﴾ [سورة النساء: 36].

﴿**تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَاجِكَ**﴾ استئناف نحويٌّ للعتاب، أو بيانيٌّ، كأنَّه قال ﷺ: ما جهة الإنكار عليَّ يا ربِّ؟ وقد فعل مثله غيري من الأنبياء، كما قال الله جلَّ وعلا: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَآئِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ [سورة آل عمران: 93]، فقال: إنَّك تبتغي مرضاة أزواجك. أو الجملة تفسير لـ﴿تُحَرِّمُ﴾، بأن يجعل ابتغاء مرضاتهنَّ عين التحريم مبالغة في كونه سببًا للتحريم، وفيه تفخيم عظيم، كذا قيل.

وأقول: لا تظهر فائدة في المبالغة في جعله سببًا، فضلاً عن أن يُقال: فيه تفخيم عظيم.

ويجوز أن تكون الجملة حالاً من المستتر في «تُحَرِّمُ»، فيكون محلُّ العتاب هو ابتغاء المرضاة، كقولك: لِمَ مشيْت إلى المسجد راكبًا؟. ولا يلزم من الحاليَّة ذلك لجواز أنَّ العتاب على نفس التحريم وحده، أو عليهما كقولك: لِمَ جئت إلى المسجد آخر الوقت متكاسلاً؟.

و«مَرۡضَاتَ» مصدر ميميٌّ بمعنى الرضا. وإضافة الأزواج إلى الكاف للجنس، فيصدق ولو بالواحدة، كحفصة إِذِ اغْتَاظَتْ بوطء مارية في بيتها، والاثنتين كحفصة اغتاظت لذلك وعائشة اغتاظت ليومها.

﴿**وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ ما فعله الرسول ﷺ من منع نفسه من وطء مارية وشرب العسل أو كليهما، ليس معصية بل مكروه، فغفر الله سبحانه هذا الفعل المكروه.

أو عدَّه معصية في حقِّه لعظم شانه عند الله تعالى، وعظم إِنْعَامِهِ عليه، كما

---

(1) أورده كثير من المفسرين على أنه من أقوال العرب. ولم نقف عليه حديثا لرسول الله ﷺ. ينظر على سبيل المثال: **الزمخشري**: الكشاف، ج 2، ص 518.

يعدُّ عليه عدم العفو معصية، وكذا ترك ما هو أولى، ففي ذكر المغفرة له على ذلك تشريف له إذ عدَّ عليه لعظمه ذنبا ما ليس ذنبًا.

﴿قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ جعل الله تعالى تحريم الإنسان الشيء على نفسه بمعنى جعله كأنَّه محرَّم عليه من الله ﷻ يمينًا، إذا حَنَثَ فَعَلَ ما ذكره الله تعالى في سورة المائدة من عتق أو إطعام عشرة مساكين أو صوم ثلاثة أيَّام إن لم يجد.

ولم يشهر عنه ﷺ إلَّا ما مرَّ في رواية شرب العسل عند سودة أنَّه قال: والله لا أشرب العسل، فقيل: لزمته كَفَّارَة اليمين، لأنَّه ﷺ حنث نفسه بشرب العسل، أو وطء مارية، فقيل للتحريم، كان معه يمين أو لم يكن معه يمين، وقيل: لليمين، وإنَّه قد قال ـ كما روى بعضٌ ـ: والله أيضا لا أطأ مارية، فيكون قد أعطى الكَفَّارَة، كما قال زيد بن أسلم والشعبي. وعن مقاتل: أعتق رقبة على تحريم مارية.

وقيل: لا تلزمه، لأنَّه غُفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وبه قال الحسن. وإنَّ قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللهُ...﴾ إلخ تعليم لأمَّته، وفيه أنَّه تلزم الكَفَّارَة في الجملة ولو بلا ذنب، فقد جمع الله تعالى له الغفران ولزوم الكفَّارة، والأصل في الخطاب أن يشمله، وأنَّ أحكامه وأحكامنا واحدة إلَّا ما تبيَّن خصوصه به.

[فقه] ومن حرَّم زوجه، أو قال الحلال عليه حرام ولم يستثن زوجه، فقال أبو بكر وعمر وزيد وابن مسعود وابن عبَّاس وعائشة عليه كَفَّارَة يمين، وقال جماعة لا شيء عليه، ونسب لمسروق والشعبيِّ.

روى البخاريُّ ومسلم(1) عن ابن عبَّاس من حرَّم امرأته فلا شيء عليه، ثمَّ تلا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: 21]، ولعلَّ مراده

(1) رواه **مسلم** في كتاب الطلاق، باب وجوب الكَفَّارَة على من حرَّم امرأته ولم ينو... رقم 18 (1473) من حديث ابن عبَّاس.

أنَّه لا طلاق بذلك ولا إيــلاء ولا ظهار، ولا فرقة، وفي النســائيِّ أنَّه ﷺ قال لرجل حرَّم زوجه: «**كَذِبْتَ وَعَلَيْكَ مُغَلَّظَة عتق رقبة**»[1].

[فقه] وقيل: تحريم الزوج إيلاءٌ، وقيل: ظهارٌ، وقيل: طلاقٌ بائنٌ، وقيل: ثلاث مُطلقًا، وقيل: ثلاثٌ فــي المدخول بها وأمَّا غيرهــا فبقدر ما عنَى من واحدة أو اثنتين أو ثلاث. والأولى أنَّه إن لم ينْو طلاقًا ولا ظهارا ولا إيلاء فما عليه إلَّا كَفَّارَة يمين، وإن نوى ذلك كان عليه ما نوى.

وذلك أنَّه قد يهمل ولا ينوي شــيئا، أو ينوي تحريم ذاتها فكفَّارة يمين، وإنْ حرَّم أَمَته أو عبده ونوى العِتق وقع العتق، وإن لم ينو فكفَّارة يمين.

وإنَّما تلزم في كلِّ مســألة إذا فعل ما حلف عليه كوطء زوجه أو ســريَّته، وقيل: إذا لم ينو فلا كَفَّارَة.

ومن حرَّم حلالا فيمين، وقيل: لا عليه. ومعنى قوله: «فليس بشيء»[2] أنَّه لا يكون ذلك طلاقًا ولا إيلاءً ولا ظهارًا. وعن ســفيان: إن لم ينو شــيئا فلا شيء عليه.

[لغة] و«تحلَّة» مصدر حَلَّل، والأصل: تحلِلَة، نقلت كسرة اللَّام إلى الحاء فأدغمت اللَّام، وهو من الحلِّ ضدّ العقد، فالحالف عقد على نفســه والكفَّارة فكٌّ له كحلِّ عقدة الخيط وذلك في الحنث، ويقع الحلُّ أيضا بعد الحنث.

﴿**وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ**﴾ ســيِّدكم المتولِّي أموركم. ﴿**وَهُوَ الْعَلِيمُ**﴾ بما يصلحكم فيوجبه أو يحرِّمــه أو يبيحه أو يكرهه أو يندبكم إليه. ﴿**الْحَكِيمُ**﴾ فلا يُشــرِّع ولَا يَفْعلُ إلَّا ما هو صوابٌ وحكمةٌ وإتقان.

---

(1) رواه **النســائيُّ** في كتاب الطلاق، بــاب تأويل قوله تعالى: ﴿يَــآ أَيُّهَا النَّبِيءُ لِــمَ تُحَرِّمُ...﴾ رقم: 3420. من حديث ابن عبَّاس.

(2) في رواية البخاري عن ابن عبَّاس.

﴿وَإِذَ اَسَرَّ النَّبِيءُ اِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ مفعول به لـ«اذْكُرُوا» (بصيغة الجماعة) خطاب للمؤمنين أو للنَّاس عمومًا، أو «اذكر» (بالإفراد) خطاب لمن يصلح له، والإسرار: قوله لعائشة وحفصة على وجه السرِّ: إنَّ أبويكما يليان الخلافة بعدي.

[سيرة] وعن ابن عبَّاس أنَّه ﷺ أَسَرَّ إلى حفصة تحريم مارية، وأنَّ أبا بكر وعمر يليان النَّاس بعدي. وروى أبو نعيم عن عليٍّ وابن عبَّاس: «إنَّ خلافة أبي بكر وعمر لفي كتاب الله تعالى». ﴿وَإِذَ اَسَرَّ النَّبِيءُ...﴾ إلخ قال لحفصة: إنَّ الخليفة من بعدي أبو بكر ومن بعد أبي بكر عمر.

وروى بعض الشيعة عن الزجَّاج لَمَّا حرَّم النبيء ﷺ مارية أُخبر أنَّه يملك من بعده أبو بكر وعمر، وذلك البعض هو الطبريُّ من أَجَلِّ الشيعة، والشيعة أعمُّ من الروافض، والروافض بعض من الشيعة، وهم من رفضوا من آل البيت موسى الكاظم لَمَّا رأوه يحبُّ أبا بكر وعمر، وكذا روى أبو جعفر الباقر، وزاد أنَّ كلَّ واحدة حدَّثت أباها.

وفي رواية لأبي نعيم وابن عديٍّ وابن مردويه عن عليٍّ وابن عبَّاس: إنَّ الإسرار قوله لحفصة: «أبوك وأبو عائشة واليا النَّاس من بعدي، فإيَّاك أن تخبري أحدًا».

[فقه] وإذا كان هذا زلَّةً بطل قول بعض بجواز التكلُّم بالسرِّ المستكتم عند من اطمأنَّ إليه لا يُفشِيه، كأمين وزوج وصديق، وكيف وقد قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى اللهِ...﴾ إلخ.

وإذا أثبت الشيعة هذا فقد أبطلوا قولهم في أنَّ الخلافة حقٌّ لعليٍّ لا لأبي بكر وعمر، ونسمع منهم في هذا العصر عند الطواف: الحمد لله الذي جعل الخلافة في عليٍّ، أو الحمد لله الذي جعل الإمام عليًّا. ونقول: الإمام عليٌّ بعد عثمان حقًّا، وأخطأ الشيعة وَمَن يطوف بهم ويقول ذلك بهم.

[قلت:] ولا يجوز أخذ الأجرة على الطواف بأحدٍ مطلقًا، ولا سيما من يقول في طوافه ذلك، وهي سحت باتِّفاق، يجب أن يخرج عن الطواف بهم.

ويجوز أن يكون الإسرار في شأن شرب العسل، فقد روي أنَّه قال لعائشة ـ وقيل: لحفصة، وهو أصحُّ ـ: كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود، وقد حَلَفْتُ، لا تخبري بذلك أحدًا.

والحديث: تحريم العسل أو تحريم مارية كما قيل، أو خلافة أبي بكر وعمر أو كلُّ ذلك. والمشهور ـ وهو قول الجمهور ـ أنَّ بعض الأزواج: حفصة، وكونها عائشة روايةٌ شاذَّةٌ عن ابن عبَّاس.

[سيرة] وَلَمَّا أفشت حفصة إلى عائشة، أو عائشة إلى حفصة ـ وقد استكتمهما ـ طلَّق نساءه لذلك الإفشاء، وتشديد عائشة عتابه على العسل، وطلبهنَّ النفقة، مع أنَّه لا يجد، وأقسم أن لا يدخل عليهنَّ شهرًا، وقيل: لم يطلِّقهنَّ ولكن أقسم أن لا يدخل عليهنَّ، ودخل عليهنَّ ودخل على عائشة أوَّلاً في التاسع والعشرين فقالت: لم يكمل الشهر، فقال: إنَّ هذا الشهر يكون تسعًا وعشرين.

والصحيح أنَّه لم يطلِّقهنَّ، وأمر رسول الله ﷺ مناديًا على باب المسجد: إنَّ رسول الله ﷺ لم يُطلِّق نساءه، فخيَّرهنَّ، فاختارته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا إذ بدأ بها فتتابعن، وقال لها: «شاوري أهلك»، قالت: لا أشاور أحدًا فيك.

﴿**فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ**﴾ تلك البعضُ وهي حفصة، أي: أَخْبَرَتْ به عائشة. ﴿**وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ**﴾ أظهر الله تعالى نبيئه، أي: أعلمه ﴿**عَلَيْهِ**﴾ أي: على ذلك الحديث المُسَرِّ، أي: جعله الله مطَّلِعًا على إفشائه بحذف مضاف أو بدون حذفه، أي: أعلمه أنَّه مُفْشَى، وكأنَّه ﷺ حاضر حال إفشائه سامع له من لسان الناطقة به المطلوب منها أن لا تنطق به لأحد.



ويجوز عـود الهاء على مصـدر «نَبَّـأَ» المذكَّر، أي: علـى التَّنبيء بوزن التفعيل (مختوم بالهمـزة قبلها ياء مثنَّاة من تحت)، لكـن يضعف هذا، لأنَّ الضمير قبلُ وبعدُ للحديث، وعلمُ الشيء ظهورٌ عليه وغلبة عليه.

﴿**عَرَّفَ بَعْضَـهُۥ**﴾ أعلم حفصة بعضَـهُ، أي: أعلمها أنِّي قـد علمت أنَّك أفشـيت بعض ما ألْزَمْتُكِ أن لا تفشـيه. قال ابن عبَّاس: هـذا البَعْضُ تحريم مارية. وقيل: الخلافة، والمراد بالإفشـاء هنا الإظهار، ولو مرَّة، ولو لإنسـان واحد يكتمه، وذلك الإفشاء زلَّة ممَّن أَفشتْهُ رَضِيَ اللهُ عَنهَا قد غفرها الله تعالى لها، وهو الرحمن الرَّحيم.

وذلك البعض: هو قول حفصـة لأبيها: إنَّه ﷺ أخبرنـي أنَّك خليفةٌ من بعده، أو هو قوله ﷺ: «كنت شـربت عسـلاً عند زينب بنـت جحش ولن أعود». أو بعض الأزواج: عائشـة، والبعض الذي عرفه ما ذكر، أو هو تحريم مارية أو العسل.

﴿**وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ**﴾ هـذا البعض هو ما بقي ممَّا أخبـرت به غيرها هذه المستكتمة، الجملة ثلاثة [أمور]: الخلافةُ، وشربُ العسلِ، وتحريمُ مارية. قال ابن عبَّاس: هذا البعض هو الخلافة، وقيل: تحريم مارية أخبرها ﷺ في بعض ما أفشت منها ولم يخبرها بالبعض الآخر الذي أفشته لئلَّا يشتدَّ عليها العتاب جدًّا.

وقد روي عن الإمام عليٍّ: «ما استقصى كريمٌ قطُّ». وأجاز بعض أن يكون «عرَّفَ» بمعنى جَازَى، أي: جَازاها على بعض بالعِتاب أو بالتطليق ثمَّ راجعها.

﴿**فَلَمَّا نَبَّأَهَا**﴾ أي: أنبأ تلك المرأة التي استكتمها فلم تكتم، فأخبرها بأنَّك لم تكتمي بل أخبرت غيرك بكذا. ﴿**بِهِۦ**﴾ أي: بذلك البعض الذي نبَّأت غيرها.

﴿**قَالَتْ**﴾ له ﷺ: ﴿**مَنَ اَنبَأَكَ هَٰذَا**﴾؟ من صَيَّـرَكَ عالِمًا بهذا الذي ذكرتَ أنَّه ذكرتُه لغيري؟

تخاف حفصة مثلاً أن تكون عائشة قالت له ﷺ: إنَّ حفصة أخبرتني بكذا، وإذا كان قــد قال لكلِّ واحدة في ســرٍّ: إنَّ أبــاك خليفةٌ، أو إنَّهمــا خليفتان، فكلتاهما مستكتمة، فمن أفشت بعضه خافت أن تكون الأخرى المفشى إليها هي المخبرة له ﷺ.

والحديث متعدِّد، ولا بدَّ لذكر لفظة بعضه، وهو شــرب العسل، وتحريم مارية، والخلافة، وأفشــت إحداهنَّ الْكلَّ. أو المراد اثنان من ذلك أفشــتهما، فأخبرها بأنَّك أفشيت كذا ولم يذكر إفشاء الباقي.

﴿**قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ**﴾ الذي لا يخفى عنه شــيء ولم يخبرني به من أفشيت إليه.

﴿**إِن تَتُوبَآ إِلَى اللهِ**﴾ يا عائشــة وحفصة من اتِّفاقكمــا على قولكما: فيك رائحة المغفور، وليســت به، تُنَحِّيَانِهِ عــن زينب، وما لكمــا تَنْحِيَتُهُ عنها[1]، وتمنعانه من الانتفاع بالعســل، وحقَّ عليكما أن تُقِرَّاهُ على ما يُحبُّ وتزيداه، ومِن منعِكُمَاهُ عن مارية سريَّة له يُحبُّها مؤمنةً غريبةً، وكان حقًّا عكس ذلك.

ذكر واحدة فقط بلفــظ الغيبة، وهو بعض أزواجه، فــإنَّ الظاهر من قبيل الغيبة، والأخرى مضمونة في قوله: ﴿فَلَمَّا نَبَّــأَتْ﴾ وهي مفعول به محذوف على طريق الغيبــة بالظاهر أيضا، علــى صورة الإبعاد عن صــورة الخطاب. وحين يشتدُّ العتاب يخاطب من أعرض عنه أوَّلاً.

قال ابن عبَّاس ﵁: لَمْ أَزَلْ حريصًا على سؤال عمر ﵁ عن المخاطبتين حتَّى حججْت معه وعدل عن الطريق وعدلت معه بأداوة ماءٍ، ونزل، وصببت الماء على يديه وتوضَّأ، فقلت: «يا أميــر المؤمنين، من المخاطبتان من أزواج النبيء ﷺ فــي قوله تعالــى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى اللهِ...﴾ إلخ؟ فقــال: واعجبًا لك

(1) الكلمة من نَحَا يَنْحُو فلانًا عن الشيء أي صرفه عنه، ونحَّاهُ عن موضعه تنحيةً صرفه وعزله.

يا ابن عبَّاس هما عائشة وحفصة، وحدَّثني الحديث بطوله. ذكر ذلك في البخاري، وبعد مدَّة رأيته أيضا في مسلم.

وقوله: «واعجبًا» تعَجُّبٌ من عدم معرفة ابن عبَّاس بهما إلى وقت سُؤاله، وقال الزهريُّ: المعنى أنَّه كره أن يسأله عن ذلك.

وفي الحديث عن عمر: «كنَّا معشر قريش نغلب نساءنا، وَلَمَّا قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلُبُهم نساؤُهم، فتعلَّمت نساؤنا منهنَّ، وقد تهجر النبيء ﷺ إحدى نسائه اليومَ إلى الليل»، فقيل له ﷺ: «كنَّا نغلب نساءنا وَلَمَّا قدمنا المدينة غلبَتْنا»، فتبسَّم رسول الله ﷺ، قال عمر: دخلتُ على رسول الله ﷺ وما رأيت في بيته ﷺ شيئا إلَّا آهِبَةٌ ثلاثة، فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسِّع على أمَّتكَ، فقد وسَّع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله تعالى، فقال: «**يا ابن الخطَّاب أولئك قوم عُجِّلت لَهُم طيِّباتهم في الدنيا**». والآهبة: الجلود، جمع إهاب[1].

[لغة] ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أنَّث القلوب بتأويل الجماعة، وأقلُّها اثنان، أو ثلاثة حقيقة واثنان تجوُّزًا وتوسُّعًا، وما لهما إلَّا قلبان، ولم يقل: قلبَاكُمَا لئلَّا تجتمع صِيغَتَا تثنية، وهذا هو الكثير، ويليه الإفراد وإرادة الجنس، نحو: فقد صغا قلبكما، وبعده التثنية نحو: قَلْبَاكُمَا، وهي الأصل، هذا كلام ابن مالك. وقال أبو حيَّان: الإفراد مخصوص بالشعر عند أصحابنا، يعني أهل أندلس.

ومعنى ﴿صَغَتْ﴾: مالت عن الواجب من إعَانَتِهِ على ما يُحبُّه ﷺ. والجملة جواب، على معنى: أصبْتُمَا في التوبة، فاستعمل السبب ـ وهو ميل القلب ـ في المسبَّب، وهو كون التوبة أصابت محلَّه، أو الجواب محذوف أَقامَ علَّته مقامه، فقد أدَّيتما الواجب أو أصابت توبتُكما محلَّهَا، لأنَّه قد صغت قلوبكما.

ويجوز أن يكون صاغت بمعنى مالت إلى الحقِّ، وهو التوبة، فتكون الجملة جوابًا بلا تأويل ولا حذف، إلَّا أنَّ هذا لا يتبادر ولو كان حسنًا، ولأنَّه

---

(1) ويُجمع على أُهُبٍ. ينظر: **ابن سيده**: المخصَّص، ج 1، ص 405.

ليس فيه ما فيما تقدَّم مـــن الفوائد مع اختصار اللَّفظ، ولأنَّــه تنافيه قراءة ابن مسعود: «فَقدْ زَاغَتْ قُلُوبُكُمَا».

وأمَّا مســألة كون الجواب ماضيا لفظا ومعنًى فغير مســلَّمة عندي، سواء كان لفظ «كان» أو غيره، لأنَّ الجــواب منتظرٌ، فإذا قلت: إن قام زيد قام عَمْرٌو أمس، فمعناه صحَّ قيامه أمس، والصحَّة مترتِّبة لا ماضية، ومنه قول الشاعر:

«إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة»(1)

أي: تبيَّن أنِّي لم تلدني، وهذا التبيُّن مترتِّب.

﴿**وَإِن تَظَّاهَــرَا عَلَيْهِ**﴾ تتظاهــرا، أبدلت تاء الماضي ظــاء وأدغمت، أي: تتعاونا عليه فيما يسوؤُه، كَفِرَاقِ مارية، وترك العسل، وإظهار ما أَسَرَّ ولم تتوبا أو دمتما على التظاهر. ﴿**فَــإِنَّ اللهَ هُوَ مَــوْلَاهُ**﴾ إنَّه تعالى مولاه، أي: ســيِّده تظاهرتا عليه أو لم تظَّاهرا، فالجواب محذوف، دلَّت عليه علَّته، أي: انتقم الله تعالى منكما ـ حاشاهما ـ أو نصره الله عليكما، أو لم يعدم ناصرًا، لأنَّ الله هو سيِّده لا يترك نصرته.

ويجوز أن يكون ﴿هُوَ مَوْلَاهُ﴾ بمعنى ناصــره عليكما، أو على كلِّ أحد فتدخلا بالأولى، فلا حذف ولا تأويل.

[نحو] ﴿**وَجِبْرِيلُ**﴾ مبتدأ خبره مع ما عطــف عليه «ظَهِيرٌ»، أو عطف على مســتتر في «مَوْلَاهُ» إذا ضَمَّنَّــاهُ معنى ناصــرًا وتالي أمره، أو مبتــدأ خبره مع «صَالِحُ» فحذف، أي: وجبريل وصالح المؤمنين مَوْلَيَاهُ، أو مواليه بالجمع، لأنَّ إضافة «صَالِحُ» للجنس، والملائكة ظهيــر مبتدأ وخبر. أو «صَالِحُ» مبتدأ عطف عليه «الْمَلآئِكَةُ»، و«ظَهِيرٌ» خبره. وموالاةُ غير الله نصرُه، أو كونه تابعًا له ﷺ.

(1) وتمام البيت: «ولم تَجِدي من أن تُقِــرِّي بها بُدًّا». وهو لزائد بن صعصعة الفقعســي. **إميل بديع يعقوب**: شواهد اللغة العَرَبِيَّة، ج 2، ص 175.

﴿وَصَالِحُ الْمُومِنِينَ﴾ الإضافــة للجنس، فهو في معنى الجمع، أو حذفت واو الجمع من الخــطّ تبعًا لحذفها من النطق للســاكن، كـ﴿يَدْعُ الِانسَــانُ﴾ [سورة الإسراء: 11]، و﴿يَمْحُ اللهُ﴾ [سورة الشــورى: 24]، و﴿يَدْعُ الدَّاعِ﴾ [سورة القمر: 6]، و﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [سورة العلق: 18].

وقيل: ﴿صَالِحُ الْمُومِنِينَ﴾ عليٌّ. روت الشــيعة أنَّــه لَمَّا نزلت الآية أخذ النبيء ﷺ بيد عليٍّ فقال: هذا صالح المؤمنين أيُّها النَّاس. وروى ابن مردويه عن أسماء بنت عميس مثله، وعن مقاتل: أبو بكر وعمر وعليٌّ، وقيل: الخلفاء الأربعــة. وعــن ابن عمر: أبــو بكر وعمــر، وكذا عــن ابن مســعود، وكان العبَّاس ﵁ يقرأ: «وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَر».

ولعلَّ مراد هؤلاء التمثيل لا التخصيص، كما روى ابن مســعود عنه ﷺ: «**مِن صَالِحِ الْمُؤمِنِينَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَر**»[1]. ومعنى ﴿ظَهِيرٌ﴾ مُعينُون أو ناصرون، وأفرد لأنَّه بوزن مصدر السير والصوت، أو لأنَّ المراد فريق ظهير.

﴿**وَالْمَلَآئِكَةُ بَعْدَ ذَالِكَ**﴾ النَّصْر ممَّن ذُكر أو بعد من ذُكر، والبعديَّة ترتيبٌ ذكريٌّ، أو ذلك هو الله كما قال: ﴿ذَالِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ﴾ [سورة الأنعام: 102]. ﴿**ظَهِيرٌ**﴾ نُكِّرَ تعظيمًا.

﴿**عَسَــىٰ رَبُّهُۥ إِن طَلَّقَكُــنَّ أَن يُبَدِّلَــهُۥ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ**﴾ في الإســلام والإيمان والتوبة، وما بعد ذلك بمعنى ما يكون أفضل ممَّا فيكنَّ من الحســن الدِّينيِّ والدنيويِّ، وزيادة ما لم يكن فيكنَّ، أو خيرًا بالجمال واللَّذَّة مع هؤلاء الصفات منكنَّ.

والخطــاب لأزواجه كلِّهنَّ، لأنَّهنَّ في ســاحة الوحــي والحضور والعزِّ، والمقصودُ بالذَّات عائشــةُ وحفصــةُ المخاطبتان. والمــراد: إن طلَّقكنَّ ولم

(1) أورده **السيوطي** في الدرِّ، ج8، ص 223، وقال: أخرجه ابن عساكر، عن ابن مسعود.

يراجعكـــنَّ، فلا يشــكل بأنَّه طلَّق حفصـــة، وقال أبوهـــا: «لـــو كان فينا خيرٌ ما طلَّقك»، وأوحى الله إليـــه أَنْ راجعها فإنَّهـــا صَوَّامةٌ قوَّامـــةٌ وزوجٌ لك في الجنَّة، وأيضا المراد: إن طلَّقكنَّ كلَّكنَّ.

وقيل: اجتمعت نســـاء النبيء ﷺ في الغيرة عليـــه، وعليه فليس المقصود بالذات عائشة وحفصة فقط، بل كلٌّ مقصود بالذات، نَعَمْ هما أشدُّ.

وعن عمر رضي الله عنه: اجتمع نساء النبيء ﷺ في الغيرة عليه، فقلتُ: عسى ربُّه إن طلقكنَّ أن يبدِّله خيرًا منكنَّ، فنزلت الآية.

[نحو] و«عَسَى» من الله تحقيقٌ إذا لم يكن شـــرط، وهنا شرط. و«أَن يُبَدِّلَهُ» خبر «عَسَى»، أي: تبديلاً، أي: ذا تبديل، أو مُبدِّلاً، أو عسى أمر ربِّه التبديلُ، وما قَبْلَ «إِنْ» وبعدها مُغْنٍ عن جوابها، ولم يطلِّقهنَّ فهنَّ خير نساء على الأرض.

﴿**مُسْلِمَاتٍ**﴾ مُقِرَّاتٍ بالوحدانيَّة والرسالة. ﴿**مُّومِنَاتٍ**﴾ خالصات الإيمان، بالعمـــل الصالح أو منقـــادات. ﴿**قَانِتَـــاتٍ**﴾ عابدات، مطلـــق العبادات على مواظبة، أو مصلِّيـــات أو مطيلات القراءة في الصلاة أو لَيْـــلاً. ﴿**تَآئِبَاتٍ**﴾ من الذنوب لا معصُومات، كما روي عنـــه ﷺ: «**لو لم تذنبوا لأتى الله تعالى بقوم يذنبون ويتوبون فيغفر لهم**»[1].

﴿**عَابِدَاتٍ**﴾ متذلِّلاتٍ لأمره ﷺ ﴿**سَـــآئِحَاتٍ**﴾ صائماتٍ فرضًا ونفلاً كما جاء في الحديث مرفوعًا[2]، وذلك أنَّ الســـائح لا زادَ لـــه، وقيل: ذاهبات في الطاعة لله تعالـــى أيَّ مذهب، لا يخصّنَّ شـــيئا، ولا منتهـــى لهنَّ مخصوص يقتصرن عليه، كالسائح النازع للوطن.

(1) رواه **مســـلم** في كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاســـتغفار توبة، رقم 7141. من حديث أبي هريرة.

(2) أورده **الســـيوطيُّ** في الدر: مج 6، ص 270، وقال: أخرجه عبد بن حميـــد وابن المنذر. من حديث عكرمة.

[قلت] ولا يحلُّ هذا في الإسلام، إنَّما هو جهاد ونية. وقيل: مهاجراتٍ.

﴿ثَيِّبَاتٍ﴾ مفارقات لأزواج متقدِّمة بطلاق أو غيره زالت عذرتهنَّ أو لم تزل، كما نفسّر به الثيّب في الفقه: بأنَّها التي قد تزوَّجت قبلُ وتعرب عن نفسها في العقد. وقيل التي زالت عذرتهنَّ.

[صرف] وذلك من ثاب يثوب (بمثلثة) بمعنى الرجوع، كَـ«تَابَ يتوب» (بالمثناة)، إذا رجعت عن زوجها المتقدِّم، ووزن ثيِّب «فَيْعِل»، الأصل: «ثَيْوِب» قلبت الواو ياء وأدغمت فيها الياء لاجتماعها مع ياء قبلها ساكنة، وقيل: «فَعِيل»، أي: «ثَوِيب»، وقدِّمت الياء الساكنة فكان القلب والإدغام.

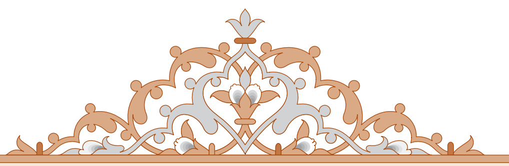
﴿وَأَبْكَارًا﴾ جمع بِكر، وهي من لم تتزوَّج ولم تزل عذرتها، أو زالت. وذلك من البكرة، وهي أوَّل النَّهار، إذْ حَالُها قبل حال الثيِّب.

لم تعطف الصفات الأوائل، لأنَّهنَّ يجتمعن في واحدة، وعطف «أبكارًا» لأنَّه لا يجتمع معناه مع معنى ثيِّبات في واحدة، ولأنَّ المعنى: أزواجًا بعضهنَّ ثيِّبات وبعضهنَّ أبكارًا.

وقيل: هذه واو الثمانية زائدة مثل: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [سورة التوبة: 112]، ﴿وَفُتِّحَتَ اَبْوَابُهَا﴾ [سورة الزمر: 73]، ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [سورة الكهف: 22]، واعترض بأنَّ واو الثمانية على القول بها إنَّما تكون حيث لم يحتج إليها الكلام، والذي عندي أنَّ واو الثمانية ثابتة بالاستقراء، إلَّا أنَّها عاطفة أو حاليَّة أو نحو ذلك، بأن تكون في النعت الثامن أو الحال الثامن أو الخبر الثامن أو نحو ذلك[1].

وافتخرت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بأنَّه ﷺ لم يتزوَّج بكرًا غيرها، وردَّت عليها فاطمة رضي الله عنهنَّ بأنَّه ﷺ بَكَّر مع أمِّي خديجة لم يتزوَّج قبلها غيرها، وذلك بأمره ﷺ أن تردَّ عليها بذلك.

(1) راجع ج 12، ص 325 والجزء 8، ص 322.



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ⁦6⁩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ⁦7⁩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ⁦8⁩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ⁦9⁩﴾

الأمر بالوقاية من النار والتوبة النصوح وجهاد الكفَّار

﴿**يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ قُواْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا**﴾ نوعا عظيمًا من النار لا ضوء له، وهو نار الآخرة، ونعتها بقوله: ﴿**وَقُودُهَا النَّاسُ والْحِجَارَةُ**﴾ الذي تتَّقِد بـه النَّاس والحجارة كما تتَّقـد نار الدنيا بالحطب، وكمـا تتَّقِد في هذا العصر حجـارة بالنـار لإجراء السـفن ونحوهـا، ولمصالح غيـر الإجراء، ويسمُّونها: الفحم الحجري.

وازدادت على نار الدنيا أنَّها كما تشتعل بحجارتها تشتعل بأبدان داخليها من النـاس والجنِّ، ولـم يذكر الجـنَّ لأنَّهم تبـع للنَّـاس، أو أراد بالنَّاس ما يشملهم.

ووقاية النفس بأداء الفرائض وترك المعاصي، وإن شئت فأداء الفرائض، لأنَّ ترك المعاصي فريضة فهو داخل في أداء الفرائض، وإن شئت فترك المعاصي، لأنَّ ترك الفرائض معصية. ومعنى وقاية الأهل: نهي الأولاد والأزواج والمماليك واللَّقيط، ومن قام عليه الإنسان بنحو استخلاف عن فعل المعصية، وترك الفرائض، وتعليمهم التوحيد وعلم ما يجب علمه والأدب.

وعنه ﷺ: «**إنَّ من أشدِّ النَّاسِ عذابًا يوم القيامة من جهل أهله**»[1] قال عمر: يا رسول الله نقي أنفسنا فكيف لنا بأهلينا؟ فقال: «**تنهونهم عمَّا نهاكم الله، وتأمرونهم بما أمركم الله، فيكون ذلك وقاية بينهم وبين النار**»[2].

ويروى: «هنَّ» مكان «هم» في ذلك كلِّه، فإمَّا لدخول الأولاد في الأنفس كما قال بعض في الآية، وإمَّا للعلم بالقياس عليهنَّ، والنهي من باب أولى قال ﷺ: «**رحم الله رجلا قال يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينَكم يتيمكم جيرانكم**»[3].

﴿**عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ**﴾ الجملة نعت آخر، وهم الزبانية التسعة عشر وأعوانهم، أو التسعة عشر تسعة عشر نوعا لا فردًا.

ويروى: «**ما بين منكبي أحدهم مسيرة مائة عام**»[4]. [قلت:] فإن كان هذا الطول حقًّا من الحديث آمنَّا به، وإن كان كذبًا فما الدَّاعي إليه؟ وقد كان يكفي أن يكون كالآدميِّ يُقوِّيه الله أن يضرب جبلاً ويجعله دَكًّا تنسفه الرياح، وليس ذلك الكذب يزيد خشوعًا، ولو كان الناريُّ يكبر حتَّى إنَّ سنَّه كجبل أُحُد.

---

(1) أورده عدَّة مفسِّرين بصيغة: «وقيل» ولم نقف عليه حديثا لرسول الله ﷺ. ينظر مثلا: **الزمخشري**: الكشاف، ج 4، ص 572.

(2) أورده **السيوطي** في الدر: مج 6، ص 270. وقال: أخرجه ابن مردويه من حديث زيد بن أسلم.

(3) أورده **الآلوسي** في تفسيره: مج 10. ص 156. بدون تخريج.

(4) أورده **الآلوسي** في تفسيره مج 10 ص 157. وقال: أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وأوَّل الحديث عنده: «إنَّ خزنة النار تسعة عشر ما بين منكبي أحدهم مسيرة مائة خريف...» من حديث أبي عمران الجوني.

[أصول الدين] ونؤمن بملائكة النار هكذا إجمالاً وبغلظهم وشدَّتهم هكذا وأنَّهم خلقوا للتعذيب، يضرب الناريَّ فيصير كلُّه طِحْنًا.

﴿**لَّا يَعْصُونَ اللهَ مَآ أَمَرَهُمْ**﴾ هذا لنفْي العناد والاستكبار عنهم، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [سورة الأنبياء: 19]، ولإثبات القَبُول باطنًا فإنَّ العصيان صفة الباطن.

[نحو] الجملة نعت ثالث لـ«مَلَائِكَةٌ» و«مَا» مَصدَرِيَّة، والمصدر بدل من لفظ الجلالة بدل اشتمال، هكذا نقول اصطلاحًا، أي: لا يعصون أمره، كقوله تعالى: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [سورة طه: 93]، فأوقع المعصية على الأمر، ولا حاجة إلى تقدير: في أمره، أو في ما أمرهم به، بتقدير «ما» اسمًا وتقدير «في» والرابط.

﴿**وَيَفْعَلُونَ مَا يُومَرُونَ**﴾ نعت رابع بواسطة العطف، أي: يفعلون أمره، أي: يتَّبعونه ولا يخالفونه، ضدَّ قد عصوا أمره، وقدَّر بعض ما يؤمرون به، على أنَّ «مَا» اسم، والرابط مجرور مقدَّر للعلم به، ولو لم تف شروطه.

وهذه الجملة لنفي الكسل والتثاقل، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتَرُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 19ـ20]، فلا تتكرَّر مع الجملة قبله التي لنفي العناد. والمضارع فيهما للتجدُّد والاستمرار.

أو ﴿لَا يَعْصُونَ اللهَ﴾ فيما مضى، والمضارع لحكاية الحال، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُومَرُونَ﴾ للتجدُّد والاستمرار في المستقبل.

وكلُّ زمان له ماض يحكى ومستقبل يتجدَّد، وذلك من باب الطرد والعكس، وهو كلُّ كلامين يقرِّر أوَّلهما مفهوم الثاني، ويقرِّر الثاني مفهوم الأوَّل، مبالغةً في أنَّهم لا يقصِّرون عمَّا كلِّفوه من أمر أهل النار.

﴿**يَآ أَيُّهَا الذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ مقول لقول مستأنف أو لقول حال من واو «يُومَرُونَ». يقولون ذلك للكفَّار

عند إدخال النَّار، والحال محكيَّة، والفعل لما يؤمرون بعد الإدخال، وإن كان حال التعذيب فمقارِنة. و«ال» في «الْيَوْمَ» للعهد الحضوري.

وإنَّما نهوهم عن الاعتذار لأنَّه لا عذر لهم، ولأنَّه لا ينفعهم، ويجوز أن يكون المقول المقدَّر حاليًّا لا قاليًّا، أي: يعذِّبونهم عذاب من لا عذر لَهُمْ. وما كانوا يعملون هو ترك ما فرض أو ندب إليه، وفعل ما حرِّم أو كره، كذا قيل، وفيه أنَّه لا يتعلَّق عقاب بالمندوب إليه تركًا ولا بالمكروه فعلا.

﴿**يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا تُوبُواْ إِلَى اللهِ**﴾ من الذنوب كلِّها. وفي مسلم عن الأغَرِّ بن يسار المزني، قال رسول الله ﷺ: «**يا أيُّها الناس توبوا إلى الله تعالى، فإنِّي أتوب إليه في اليوم مائة مرَّة**»[1]. رواه مسلم عن أبي هريرة.

وفي البخاري ومسلم: «**لَلَّهُ أفرح بتوبة عبده المسلم من أحدكُم سقط عن بعيره وأضلَّه في أرض فلاة...**»[2] الحديث. وفي مسلم عن أبي موسى الأشعريِّ عن النبيء ﷺ: «**إنَّ الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النَّهار، ويبسط يده في النهار ليتوب مسيء اللَّيل، حتَّى تطلع الشمس من مغربها**»[3]. وعن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِرْ**»[4] رواه الترمذي.

(1) رواه **مسلم** في كتاب الذكر والدعاء. باب استحباب الاستغفار والاستكثار رقم: 2702 **وأحمد** في مسند الشاميِّين، حديث الأعز المزني رقم: 17391. من حديث ابن عمر.

(2) رواه **البخاري** في كتاب الدعوات، باب التوبة... رقم: 5950. **ومسلم** في كتاب التوبة، باب في الحضِّ على التوبة والفرح بها، رقم: 2675. من حديث أبي هريرة.

(3) رواه **مسلم** في كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكرَّرت الذنوب، رقم: 2759. من حديث أبي موسى الأشعري.

(4) رواه **الترمذي** في كتاب الدعوات. باب في فضل التوبة والاستغفار. رقم: 3537 من حديث ابن عمر. **وابن ماجه** في كتاب الزهد. باب ذكر التوبة. رقم: 4253 من حديث ابن عمرو.

[بلاغة] ﴿**تَوْبَةً نَّصُوحًا**﴾ خالصة خلوصًا عظيما كعسل ناصح، أي: خالص من الشمع، وليس إسنادُ الخلُوصِ إلى التوبة مجازًا في الإسناد، وإن قلت ضربتُه ضربًا شديدًا لم تكن الشِّدَّة مجازًا للضرب بل حقيقة، ونسبة الخلوص للأمرِ حقيقة، وذلك أنَّ النصح بمعنى الخلوص، وأنَّه لازم، وإن قلنا: إنَّه متعدٍّ بمعنى نصح الفاعل أو نصح النَّاس إذا رأوا أثرها فيفعلون مثلها فالإسناد مجاز عقليٌّ، لأنَّ النَّاصح هو الإنسان ينصح نفسه بالتوبة لا التوبةُ ويصلح فساد المعصية.

وفسَّر بعضهم النصوح أنَّها تنصح صاحبها، وقيل: النَّاسَ، لظهور أثرها فيقتدون بها، قال معاذ بن جبل: يا رسول الله، ما التوبة النَّصوح؟ قال: «**أن يندم العبد على الذنب ويعتذر إلى الله ﷻ ولا يعود إليه كما لا يعود اللَّبن إلى الضرع**»[1]. وروي هذا موقوفا عن عمر وابن مسعود وأُبي.

وفي الحديث مرفوعا: «**الندم توبة**»[2]. وعن محمَّد بن كعب القرظي: «التوبة النصوح: استغفار باللِّسان، وإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيِّئ الإخوان». وعن الكلبيِّ: «الاستغفار باللِّسان والندم بالجنان، والإمساك بالأبدان». وسمع عليٌّ أعرابيًّا يقول: «اللَّهمَّ إنِّي أستغفرك وأتوب إليك»، فقال: «يا هذا إنَّ سرعة اللِّسان بالتوبة توبة الكاذبين»، قال: فما التوبة؟ قال: «الندم على الذنب الماضي، وإعادَةُ الفرض الذي لزمه، وردُّ المظلمة إن كانت لمخلوق، واستحلال الخصم، والعزم أن لا يعود، وإذاقة النفس مرارة الطاعة، وإذابة النفس فيها كما ربَّاها بالمعصية وحلاوتها».

[فقه] والندم خوفَ العقاب توبةٌ، والندم طمعا في الجنَّة توبةٌ، والندم إجلالا لله تعالى توبةٌ، وهذه أقوى، ولا بدَّ في الكلِّ من قضاء حقِّ الله أو حقِّ المخلوق، كقضاء صلاة أو صوم تركه، وإعطاء كفارة لزمته أو ما للضعفاء،

(1) أورده **السيوطي** في الدر، ج 8، ص 227. وقال: أخرجه ابن مردويه، من حديث معاذ.

(2) رواه **ابن ماجه** في كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم: 4252. من حديث عبد الله بن عمر.

وضمان مال أو بدن أفسـده أو عرض نقصه كما لا يحلُّ، وأن يذعن لما لزمه من ضرب أو قتل أو حبس، وأن لا يبغض من تبرَّأ منه بحقٍّ.

[قلت:] والندم خوفَ الجلد أو الحـدِّ أو القطع أو الرجم أو نحو ذلك أو لتعيير النَّاس أو أمر دنيويٍّ ليس توبـةً. وإن اجتمع بعض هذه مع ما هو توبة فالتوبة على حالها.

والتوبة واجبة على الفور من الذنب مطلقًا. وذكر بعض أنَّ تأخيرها ساعةً ذنبٌ آخر، أو ساعتين ذنبان وهكذا. وذكر بعض أنَّ تـرك التوبة من الكبيرة ساعة كبيرتان: فِعْلُهَا وتأخُّـرُ التوبة. و[تـرْك التوبة] ساعتين أربعٌ [هي]: الأُوليان وتـرك التوبة علـى كلٍّ منهما. وثلاثَ ساعاتٍ ثمـانٌ. والقولان للمعتزلة، وإذا تاب ثـمَّ رجع رجع عليه ما مضى من الذنـب، عندنا، وعند المعتزلة والباقلاني. وقال الأَشـعَرِيَّة: لا يرجع عليه ما مضى بل الرجوع إليه ذنب آخر مستأنف.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمُۥٓ أَنْ يُّكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا اَلَانهَارُ﴾ صيغـة الطمع أو الترجِّي من الله جزم علـى عادة الملوك في استعمال ذلك، وحكمة ذلك الإشـعارُ بأنَّ المغفرة والإثابة تَفَضُّلٌ منه تعالى، إذ لا واجب عليه سـبحانه، والتلويح بأنَّ على المكلَّـف أن يكون بين خوف ورجاء ولو نصحت توبته أو لم يذنب قطُّ.

[أصول الدين] وإذا صحَّت توبة العبد عند الله ﷻ وكان سعيدًا لا يموت مُصِرًّا، فقد وعده الله سـبحانه بالمغفرة والثواب، وهـو لا يخلف الوعد ولا الوعيد، فذلك واجب الوقوع، بمعنى أنَّه لا بدَّ منه، هذا معنى وجوبه إذا أطلق فهو واجب في وعده لا عليه حاشاه.

وزعمت المعتزلة أنَّه يجب عليه تعالى قبول التوبة النَّصوح وهو خطأ، ولا يجزم بقبول توبة أحدٍ إلَّا بالنَّص إلَّا توبة المشـرك، فإنَّا نجـزم بقبولها لقوله

تعالى: ﴿قُل لِّلذِينَ كَفَرُواْ إِنْ يَّنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [سورة الأنفال: 38]، وحديث: «**الإسلامُ جَبٌّ لِمَا قبله**»[1]. وإن ارتدَّ لم يرجع عليه ما قبل إسلامه.

وأمَّا قوله ﷺ: «**التوبة تجبُّ ما قبلها**»[2] فهو في الموحِّد وغيره على ظاهره، بشرط أن لا يموت مصرًّا، وذلك بوعد الله ﷻ، ومعنى دعائنا بقبول التوبة أن تكون خالصةً ولا تعقب بذنب يموت مصرًّا عليه.

﴿**يَوْمَ**﴾ متعلِّقٌ بـ«يُدْخِلَ» ﴿**لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيءَ**﴾ المعهود محمَّدًا ﷺ ﴿**وَالذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ**﴾ الإخزاء الإفضاحُ، أي: لا يصيِّره خَزِيًّا، أي: فاضحًا، بل له أنواع الإكرام، أو الإخزاء: التصيير ذا خزاية، أي: انكسار وذلّ في نفسه، بالحياء المفرط، بل يجعله ناعما مبتهجا، أولا يُصَيِّرُه ذا خزي، أي: استخفاف من غيره لهُ واحتقار، بل منصورًا محترمًا مكرَّمًا، ولا يجوز تفسيره بذلك كلِّه أو في متعدِّد منه إلَّا على جواز استعمال الكلمة في معنييها أو معانيها.

و«الذِينَ» معطوف على «النَّبِيءِ»، والمراد بالإيمان الإيمان الكامل، وهو المتبوع بالعمل، وفي ذلك تعريض بإخزاء المشركين والفسَّاق، ودعاء المؤمنين إلى الحمد والشكر على النجاة من الإخزاء. و«مَعَهُ» حال من «الذِينَ» مبتدأ، أو «مَعَهُ» خبر.

﴿**نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**﴾ يتقدَّم أمامهم أينما ساروا، أو سُمِّيَ اللمعان سعيًا. والجملة مستأنفة. ﴿**وَبِأَيْمَانِهِمْ**﴾ في أيمانهم.

[نحو] والعطف على «بَيْنَ»، ويتعلَّقان بـ«يَسْعَى»، أو بمحذوف حال من ضمير «يَسْعَى». والجملة الكبرى مستأنفة أو خبر لـ«الَّذِينَ».

---

(1) تقدَّم تخريجه. انظر: ج 5، ص 338.

(2) لم نقف عليه حديثا لرسول الله ﷺ. وقد ورد ما يفيد معناه كحديث: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له». الذي رواه **ابن ماجه**، وغيره.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إذا رأوا نور المنافقين مطفأً عند ابن عبَّاس والحسن، وقبل ذلك وبعده.

[نحو] والجملة مستأنفة أو خبر لـ«الَّذِينَ» ثانٍ، أو حال من «الذِينَ»، قيل: أو من ضمير «يَسْعَى»، والرابط ظاهر بمعنى المضمر، وهو «نُور» في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا...﴾.

﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ المشركين بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ المضمرين للشرك في قلوبهم المظهرين التوحيد في ألسنتهم، بالوعظ والتحذير منهم، وإقامة الحدود ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ على الكُفَّار والمنافقين. ﴿وَمَأْوَايهُمْ جَهَنَّمُ﴾ للعذاب الغليظ فيها ﴿وَبِيسَ الْمَصِيرُ﴾ جهنَّم، أو مأواهم.

[نحو] والعطف عطف قصَّة على أخرى، كذا قيل، قلت: بل العطف على شأنه لتمام المناسبة بين قوله: ﴿مَأْوَايهُمْ جَهَنَّمُ﴾ وقوله: ﴿بِيسَ الْمَصِيرُ﴾، إلَّا إنْ أريد بعطف القصَّة على أخرى عطف «مَأْوَايهُمْ جَهَنَّمُ» على «جَاهِدِ» أو على «اغْلُظْ»، ومع هذا لا يخلو عن مناسبة، لأنَّ فيهما معا الوعيد للكفَّار والمنافقين.

[بلاغة] وإنَّما في ذلك عطف اسْمِيَّة خبريَّة على إنشائيَّة فِعْلِيَّة، وهو جائز وارد في القرآن، كما في عطف «بِيسَ الْمَصِيرُ» وهي فِعْلِيَّة على «مَأْوَايهُمْ جَهَنَّمُ» وهي اسْمِيَّة، ولا مانع من جعل واو قوله: ﴿وَمَأْوَايهُمْ﴾ واو الحال.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿10﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿11﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿12﴾﴾

أمثلة للنِّساء الكافرات والنِّساء المؤمنات

﴿**ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾ وذلك في اللَّوح المحفوظ، أو في خلق القرآن، أو ذلك إنشاء، كقولك: «اشتريت» عاقدًا للشراء، ومعنى ضرب المثل إثباتُ غريب يُعرف به أمر آخر مشاكل له. ومَحَطُّ ضرب المثل خيانة المرأتين مع أنَّهما مع نور النَّبيئين الهاديين، وهما من أهل النار ولا ينفعهما النبيئان، وكذلك لا تنفع قرابة النبيء ﷺ من كفر به.

[نحو] و«مَثَلاً» مفعول ثان مقدَّم. و«امْـرَأَتَ» مفعـول أوَّل مؤخَّر. و«لِلَّذِينَ» متعلِّق بـ«ضَرَبَ»، أو نعت لـ«مَثَلاً» لا متعلِّق بـ«مَثَلاً» كما قيل، لأنَّه جامد، وعلى تأويله بمماثل يحتاج لتقدير مضاف، أي: مماثلا لحال الذين كفروا، نَعَمْ فيه وفي جعله نعتا عدمُ الفصل بين «ضَرَبَ» ومتعلَّقه. وأخَّر المفعول الأوَّل ليتَّصل بما يفسِّره، وهو كون المرأتين تحت عبدين... إلخ. وتعدَّى [«ضَرَبَ»] لاثنين لمعنى التصيير، ولك جعل

«مَثَلاً» مفعولا به و«امْرَأَتَ» بدلاً منه متعدِّيا لواحد، أي: أثْبَتَ في المماثلة امرأةَ نوحٍ... إلخ.

﴿امْرَأَتَ نُوحٍ﴾ اسمها والِعَة أو والهة. ﴿وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ اسمها وَالهة على أنَّ امرأة نوح والعة، واسمها والعة على أنَّ امرأة نوح والهة.

﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾ نبيئين عظيمين أدَّيَا ما لزمهما من حقِّ العبوديَّة لله تعالى، قَدْرَ جهْدِهِمَا: نوح ولوط عليهما السلام. قلت: وغاية حقِّ الله عز وجل لا طاقة لمخلوق في القيام بها. ﴿مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ متحرِّزيْن عن الفساد والبطَالَة، حتَّى إنَّ لهما سعادة الدنيا والآخرة.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بإضمار الشرك وإعانة أهله بكلِّ ما وجدتا، ونفاقِ إظهارِ التوحيد لهما. ومن ذلك أنَّ امرأة نوح تقول للنَّاس: إنَّ نوحًا مجنون. وأنَّ امرأة لوط تدُلُّ قومه على الضيف ليفحشوا بهم، وأنَّهما إذا أوحي إليهما أفشتا الوحي على الوجه الذي لا يليق بزيادة أو نقص أو تبديل، وأنَّهما تنمَّان. وقيل: كفرهما كفر جارحة لا إضمار شرك.

وقيل: إنَّ خيانتهما الزنى، وقيل: الشرك والزنى، ويردُّهما أنَّ الزنى في أزواج الأنبياء نقيصة فيهم، فلا تتصوَّر، بخلاف الإشراك فإنَّه ليس في قلوب المشركين نقصًا وعيبا، بل يعدُّونه حقًّا، لعنهم الله ولعن اعتقادهم، وعن ابن عبَّاس موقوفا: «**ما زنت امرأة نبيء قطُّ**»[1] رواه أشرس بسنده إلى النبيء صلى الله عليه وسلم.

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾ أي: العبدان الصَّالحان بسبب خيانتهما ﴿عَنْهُمَا﴾ عن المرأتين الخائنتين، وهما زوجان للعبدين الصالحين ﴿مِنَ اللهِ﴾ حال من قوله: ﴿شَيْئًا﴾ مفعول لـ«يُغْنِي»، بمعنى: لم يَدْفَعَا شيئا من عذاب الله عنهما بالشفاعة للزوجيَّة. أو مفعول مطلق، أي: لم يغنيا عنهما إغْنَاءً مَّا.

(1) رواه **الطبريُّ** في تفسيره قولًا لابن عبَّاس، بلفظ: «بَغَتْ»، ج 15، ص 343ـ344 والرواية التي ذكرها الشيخ أوردها **ابن عساكر** في تاريخه، ج 50، ص 318.

﴿وَقِيلَ﴾ قال الله تعالى لهما كما يليق بــه، أو الملائكةُ يوم القيامة، والمضيُّ لتحقُّق الوقوع. أو عند موتهما، والمضيُّ على ظاهره. ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ وموت الكافر أو قبره أوَّل الآخرة ومفتاح لنار الآخرة، بل يعذَّب أيضا في قبره، أو روحه بنار منها. والمراد: مع سائر الدَّاخلين الذين لا وَصْلَةَ لَهُمْ بالعباد الصالحين، فكأنَّهما لم تكن لهما وصلة، وهمـــا النبيئان، إذْ لم تتَّبعاهما، وكذلك لا ينتفع مَن قَرُبَ من الكُفَّار إليــه ﷺ بقرابته، وكذلـــك لا تنفع أمَّهات المؤمنيـــن زوجِيَّتُهُنَّ للنبيء ﷺ لو ارتكبن محظورا ولم يتبيَّن ـ حاشاهنَّ ـ. والآية دالَّة على ذلك كلِّه.

﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ امْــرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ على حدِّ ما مرَّ كلِّه، إلَّا أنَّ ما مرَّ في أنَّ وصلـــة المؤمنين لا تنفع الكفرة، وهذا فـــي أنَّ وصلة الكفرة لا تضرُّ المؤمنين كما لَمْ يضرَّ كفر فرعون زوجه المســـلمة آسية بنت مزاحم، وهي في أعالي الجنَّة وهو في أسافل النَّار.

﴿إِذْ قَالَــتْ﴾ متعلِّق بمضاف محذوف مبدل من «امْرَأَتَ» بدل اشـــتمال، أي: ضرب الله مثلا امـــرأة فرعون قولها إذ قالت ﴿رَبِّ ابْنِ لِــي عِندَكَ﴾ أي: في محلِّ رضاك، وهذا معنى العنديَّة، وهي الرتبة الشريفة، وهو متعلِّق بـ«ابْنِ» وكذا إن قدِّر مضاف، أي: عند عرشـــك، ويجوز كونه حالاً من قوله: ﴿بَيْتًا﴾ ولو نكرة لتقدُّمها عليه، ولو تأخَّر لكان نعتًا، وعليه فَقُدِّمَ لمزيد التشريف بالعندية، وللاهتمام بها.

﴿فِي الْجَنَّــةِ﴾ بدل من «عِندَ»، قيـــل: أو عطف بيان. وعلـــى تعلُّقهما معا بـ«ابْنِ» قيل: قدِّم «عِندَ» إشارةً إلى قولهم: «الجار قبل الدار»، بمعنى: إذا أردت ســـكنى دارٍ أو شـــراءها مثلا للســـكنى فاعرف أوَّلاً من جارها لعلَّه جار سوء فتجتنبها، أو جار خير فترغب فيه، والله الرَّحمن الرَّحيم خير جار وخير وليٍّ.

﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ﴾ جسده ونفسه الخبيثة ﴿وَعَمَلِهِ﴾ هو الإشراك وسائر المعاصي، ومنها قتله وتعذيبه من لا يستحقُّ ذلك. وقدَّمت فرعون على عمله لشدَّة بغضها عَمَلَهُ، حتَّى كأنَّه شيء متجسِّد تلطِّخ به بدنه ممَّا هو مستقذر.

أو اعتبرت فرعون عامًّا بجسده وعملِه لاشـــتماله على اعتقاده وما يتولَّد منه، متضمِّنًا له، كأنَّه راســـخ في جوارحه وسائر جســـده، فعطفت عليه عَمَلَهُ عطف خاصٍّ على عامٍّ، لأنَّه الطامَّـــة الكبرى من حيث وجوده خارجا، ودخل في عمله جماعةُ إيَّاهَا، وليس في شريعتها تحريم تزوُّج مسلمة بمشرك.

[قصص] ويقال هي عمَّة موسى، آمنت بموسى حين سمعت بتلقُّف العصا ما ســـحر به، فعذَّبها بأربعة أوتاد فـــي يديها ورجليها وإذا تفرَّقـــوا عنها أظلَّتها الملائكة عليهم السلام، وزادها الله قوَّة علـــى عبادته، وأضجعها على ظهرها وجعل على صدرها رحا واستقبل بها عين الشمس، فرفعت رأسها إلى السماء فقالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾، فأجاب دعاءها فرأته في حينها، وهو درَّة بيضاء، وقيل: أمر أن تلقى عليها صخرة عظيمة فرفع الله عز وجل روحها، فألقيت على جسد لا روح فيه، وهي تأكل وتشرب في الجنَّة بروحها إلى قيام الساعة.

[قلت:] والآية وأمثالها دلائل على أنَّ الدعاء بالنَّجاةِ عند الملِّمات مشـــروع. ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ القبط وغيرهم من أعوان فرعون من مصر أو غيرها.

﴿وَمَرْيَـــمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ عطـــف على امرأة فرعون، فقد انســـحب عليها ضرب المثـــل، إذ كانت في قوم كثيريـــن مضرِّين لها وباهتيـــن لها، وكافرين بحالها وحال ابنها، ولم يَصُدَّها ذلك عن عبادة الله تعالى، وما ضرَّها كفرهم، ونالت على مقاساة أهله والتمسُّك بدين الله عز وجل خير الدنيا وخير الآخرة.

[قلت:] وفي الآية تســـلية لمن لا زوج لها من النســـاء بعدها إذا تمسَّكن بعبادة الله تعالى وتورَّعن.

﴿التِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ عن الزنـــى وما يقرب منه، وهي بعيدة عن قرب الفحش، لكن ذكر الله عز وجل هذا ردًّا علـــى باهِتيها، وهذا أولى ممَّا قيل: المعنى الكناية عن العفَّة، كما يُقال: فلان نقيُّ الجيب، على أنَّ الفرج جيب قميصها، وهو مخرج رأســـها، وعنقها منه، وهذا ولو كان أبلغ لكنَّه خلاف الظاهر. ألا

ترى إلى قوله تعالـــى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ وهو قراءة أيضا في هذه الســـورة، وهذا أقوى ممَّـــا قيل: إنَّ جبريـــل أراد النفخ فـــي جيب قميصها، وقالـــت: ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [ســورة مريم: 18]، فتباعـــدت عنه فنفخ فيه كارهةً. والفرج منفذ في الجسد، حقيقة في سَوأَة الإنسان وغيرها، لا ما قيل ـ ونسب للأكثر ـ من أنَّه حقيقة بين الرجلين ثمَّ صار حقيقة فيها، نَعَمْ شُهِر فيها.

﴿**فَنَفَخْنَا**﴾ أســند النفخ إليه تعالى على طريق المجاز العقليِّ إعظاما لها رَضِيَ اللَّهُ عَنهَــا، ولأثر النفــخ. والنَّافخ حقيقةً جبريــل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا أولى من اعتبار التجوُّز بحذف المضاف المتغيِّر الإعراب به، أي: فنفخ رسولنا. ﴿**فِيهِ**﴾ أي: في فرجها. ولا مانع من أن يرســـله الله إليها حتَّى يقابل فرجها فينفخ فيه بحيث لا يراه ولا يمسُّه، وهو الظاهر.

وقيل: نفخ في مخرج عنقها ورأسها من قميصها فوصل فرجها، فصحَّ أنَّه نفخ فيه إذ وَصَلَهُ، وهذا مجاز لعلاقة الجوار، لأنَّ الجيب باعتبار الإيصال منه إلى الفرج كأنَّه مجاور له، وأيضا إذا شـــملهما بدن واحد فكأنَّهما متجاوران. وأجاز بعضهم عود الهاء إلى الحمل المدلول عليه بالمقام، على أنَّه كان فيها عيسى بلا روح ثمَّ نفخ فيه الروح، وقيل: وُجد فيه بالنفخ حَيًّا دُفعة.

﴿**مِن رُّوحِنَا**﴾ روح لنا، بلا توسُّـــط لجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، والمـــراد الروح الذي خلقه الله عَزَّ وَجَلَّ، وجعل من بعضه عيسى. والإضافة للتشريف.

﴿**وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا**﴾ صحف آدم وصحف إدريس وصحف إبراهيم وصحف موســـى، وســـمَّاها كلمات لقلَّتها بالنســـبة إلى الكتب. وقيل: وعده ووعيده وأمره ونهيه.

﴿**وَكِتَابِـــهِ**﴾ هو الإنجيل، أو جنـــس كتب الله التـــوراة والزبور والإنجيل والقرآن وغيره من كتبه، بل الإضافة للاســـتغراق، ردًّا على من أنكر الإنجيل وعلى من أنكر القرآن.

والقرآن ولــو تأخَّر نزوله لكنَّه مذكــور في التــوراة والإنجيل وغيرهما، فآمنت بما وجد وما سيوجد نزوله، كما آمنت برسول الله ﷺ لذِكره في الكتب الســابقة، يدلُّ على أنَّ المراد عموم الكتب قراءة ﴿وَكُتُبِـهِ﴾ بالجمع. وقيل: المراد بالكتــاب الكتب والصحف، وبالكلمات ســائر ما يوحى إلى الأنبياء، وقيل: اللَّوح المحفوظ وما فيه.

﴿وَكَانَتْ مِــنَ الْقَانِتِينَ﴾ المبالغين في العبــادة وإخلاصها، ومرَّ كلام في معنى القنوت، ولم تكن التــلاوة «من القانتات»، أو «وَكانــت قانتة» تعظيمًا لعبادتها، كأَنَّها من الرجال المبالغين بها. و«مِنَ» للتبعيض.

وقيل: المعنى أنَّها صدرت من نســل القانتين، لأنَّها من ذرِّيَّة هارون أخي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والأصل أنَّ الفرع يتبع الأصل، وقد قيل: إنَّ الغالب ذلك، و«مِنَ» على ذلك للابتداء، وكونها من نسلهم مدح لها كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [سورة الأعراف: 58].

وذكرت في وفاء الضمانة وغيره حديث أحمد: «**ســيِّدة نســاء أهل الجنَّة مريم، ثمَّ فاطمة، ثمَّ خديجة، ثمَّ آسية، ثمَّ عائشة**»[(1)] وحديث البخاري: «**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلَّا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمــران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمــة بنت محمَّد ﷺ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»[(2)]، وذلك أنَّ الثريد ـ لحم ومرق وخبز مفروق فيه ـ لذيذ سهل الأكل، فإمَّا أن يريد سائر نساء الأمَّة غير فاطمة، كما قدِّمــت فاطمة عنها في الحديث لكونها بضعــة منه ﷺ، وإمَّا أن

(1) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره: مج 10، ص 165. وقال: أخرجه أحمد في مسنده.

(2) رواه **البخاريُّ** (الجزء الأوَّل منه) في كتاب الأنبياء، بــاب قول الله: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّلذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَةَ...﴾ رقم: 3230. **ومســلم** في كتاب فضائل الصحابة، بــاب فضائل خديجة أمِّ المؤمنين، رقم: 2431. من حديث أبي موسى.

يريد عموم النساء والفضل لها من جهة حسن الخلق وحلاوة المنطق، والفصاحة والبلاغة وجودة العقل، والتحبُّب للزوج.

وَحَفِظَتْ [عائشة] من الحديث ما لم يحفظه رجل، وخوطبت في الآية لكن خوطبت معها حفصة: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى اللهِ...﴾ إلخ، وأنَّها بنت أفضل الخلق بعد الرسل الصدِّيق رضي الله عنه، فللتفضيل جهات، فلعلَّه أيضا فضِّل عليها من فضِّل باعتبار كثرة العبادة والمصايب، كما أنَّ تفضيل من فضِّل على فاطمةَ هو بذلك الاعتبار، وأنَّها في نفسها أفضل النساء إذْ هِيَ بضعة من أفضل الخلق، وفي الطبرانيِّ عنه ﷺ: «**زوَّجني الله مريم ابنة عمران وامرأة فرعون وأخت موسى**»[1].

والله أعلم وهو الموفِّق.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



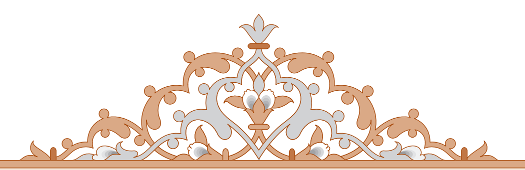
(1) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره: مج 10، ص 165. وقال: أخرجه الطبرانيُّ من حديث سعد بن جنادة.



67

تفسير سورة الملك

مكِّـيَّة وآياتها 30 ـ نزلت بعد سورة الطور



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿1﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿2﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿3﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿4﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿5﴾﴾

أدلَّة القدرة الإلهيَّة

[قصص] ضرب رجل خباءه على قبر ولم يدر به، فسمعه يقرأ تبارك الملك حتَّى ختمها، فأخبر رسولَ الله ﷺ، فقال له: «**هي المانعة هي المنجية من عذاب القبر**»(1)، وعنه ﷺ: «**إنَّ سورة هي ثلاثون آية شفعت لصاحبها حتَّى غفر له، وهي تبارك الملك**»(2).

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الْمُلْكُ**﴾ البركة النموُّ والزيادةُ،

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره: مج 10، ص 170. وقال: أخرجه الطبرانيُّ من حديث ابن مسعود.

(2) رواه **ابن ماجه**، في كتاب الأدب، باب ثواب القرآن. رقم: 3786. من حديث أبي هريرة.

كثرت خيراته الدِّينِيَّة وَالدُّنيَوِيَّة وَالأُخرَوِيَّــة، وزيادتها مع الدوام. فإمَّا أن يقدَّر مضاف، أي: تبارك خيراتُ الذي له الملك، أو يفسَّر بِتَعَاظَمَ بالذات عمَّا سواه.

[أصول الدين] وإنَّما تزداد أفعاله ومتعلَّقاتهــا، وأمَّا صفاته فلا تزداد ولا تنقص. وصيغة التفاعل للمبالغة، لأنَّ المتفاعلين كلٌّ يعالج أن يكون غالبا في الفعل، وذلك يســتدعي تجويد الفعل أو كثرته، تعالى ﷻ عن أن يغالبه أحد. واســتدلَّ على ذلك بالإســناد إلى ما هو كالمشــتقِّ، وهو الموصول باعتبار صلته، فإنَّ ثبوت الملك له وحده كالعلَّة لذلك.

[بلاغة] و«بِيَدِهِ الْمُلْكُ» استعارة تمثيليَّة فلا تجوز في بعض أفراده، وهي أولى من أن يجعــل «الْمُلْكُ» حقيقــة على حدة، و«يَد» مجــازًا عن الإحاطة والاستيلاء، وأفاد ذلك على كلِّ حال اســتغناءهُ تعالى واحتياج غيره إليه، كما قيل: إنَّ العرف العامَّ أنَّ الملك لا يطلق إلَّا على ذلك. وتقديم «بِيَدِهِ» للحصر.

﴿**وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ من إبقاء الموجودات ذاتًا وعرضًا وإفنائِها وإيجاد المعدوم. والجملة قبل هذه في شأن التخصيص بالموجود، أو عظم الشأن.

﴿**الذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ**﴾ بدلٌ من ﴿الذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾.

[فلسفة] والموت صفة وجوديَّة تضادُّ الحياة، وقيل: زوال القوَّة الحيوانيَّة وإبانة الروح عن الجســد. والحياة: القوَّة الحسَّاسة مع وجود الروح في الجسد. ويدلُّ على أنَّه وجوديٌّ إيقاع الخلق عليــه، لأنَّ الخلق إيجاد، والإيجاد يُحَصِّــلُ الوجودَ، وفي معناه عَدُّ التروك أفعالاً، كما سمَّى الله تعالى ترك الواجب كسبًا وفعلاً وعملاً.

وأيضا العدم أزليٌّ لا أوَّل له، وحدث الوجودُ بإيجاد الله ﷻ.

وأمَّا ما ورد فــي الحديث: **أَنَّ الله ﷻ يُحضِر الموتَ يــوم القيامة بصورة كبش يعرفه أهل المحشر أنَّه الموت فيذبح فييأسون من الموت**[1]، وفي كلام

(1) رواه **الشــيخان** وغيرهما. **البخاري**: كتاب التفســير، باب تفسير ســورة مريم، رقم: 4453. **ومســلم**: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبَّارون... رقم: 7360. من حديث أبي سعيد الخدري.



ابن عبَّاس: «إنَّ الموت في صورة كبش أملح لا يمرُّ بشـــيء إلَّا مات، وخلق الحياة بصورة فرس أبلق لا يمرُّ بشيء إلَّا وجد ريحه وحيي» فتمثِيلٌ.

وقال بعضٌ: ذَلِكَ على ظاهره، وإنَّ هذا الفرس هو الذي أخذ السامريُّ من أثره ترابًا وألقاه على صورة العجل فحيي بإذن الله ﷻ، وإنَّ الأنبياء يركبونه.

[فلسفة] وقيل: الموت أمر عدميٌّ، وهو عدم الحياة عمَّا من شأنه الحياة، واختاره بعض، وأجاب قائله عن إيقاع الخلق بأنَّ الخلق بمعنى التقدير، وهو يتعلَّق بالأمر العدميِّ، كما يتعلَّق بالوجوديِّ.

ويبحث بـأنَّ في إيقاع الخلق علـى العدم نفيُ الأزل فيقـال: لم يزل الله يخلق عدمًا، فلا أوَّل لخلقه فلا أزلَ، وذلـك لا يجوز، كما لا يجوز أن يقال: لم يزل الله يخلق الأشـياء بِلا أوَّلٍ لخلقه. وإن قال: الموت ليس عدما مطلقا صِرْفًا بل عدم شيء مخصوص، ومثله يتعلَّق به الإيجاد والخلق، فذلك رجوع إلى كونه وجوديًّا.

وقال أيضا: الخلق بمعنى الإنشاء والإثبات، ويبحث بأنَّ الإنشاء أو الإثبات هو نفس الإيجاد، فإنَّ الإنشـاء أو الإثبات لا يتصوَّر إلَّا بحصول شيء أُنشِئَ أو أُثْبِتَ وذلك إيجاد للموصوف به حالاً لم يكن قبله من صحَّة العلم والقدرة.

وفي ذكر الموت زجر عن الكسـل والمعصية، وحثٌّ على الطاعة. وجاء: «**أكثِروا ذكْرَ هَادِمِ اللَّـذَّات**»(1)، لأنَّ الموت باب الجزاء، وفي ذكر الحياة دعاء إلى الشكر.

وقَدَّم ذكر الموت لأنَّه رجوع إلـى الأصل الذي هو العدم، ولأنَّه زجر من أعظم الزواجر كما هو قاهر، ولأنَّ تذكُّـره داع إلى العمل، ولأنَّه نعمة يتوصَّل بها إلى ثواب ما عمل في الحياة من الخير، كمـا أنَّ الحَيَاةَ نعمة يتوصَّل بها إلى عبادة الله ﷻ، ولينغِّص ما ذَكَر بعده من الحياة، فلا يغترُّ بها.

---

(1) تقدَّم تخريجه، انظر: ج 3، ص 83.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليُعاملكم معاملة المختبر، فالكلام اســتعارة تمثيليَّة، وهي أبلغ من الاستعارة المفردة التي هي تشــبيه التكليف المترتِّب عليه الوفاء أو عدم الوفــاء بأمر أحدٍ مَنْ دُونَه بشــيء أو نهيه لِيَعلم هــل يمتثل. ولم أحمل الابتلاء على ظاهره لاستلزامه الجهل تعالى الله عنه.

[صرف] وإنَّما صحَّ أن يقولوا: «أَبْلَغُ» ببناء اســم التفضيل مِن «بَالَغَ» بناءً على جواز بنائه من الرباعــي بالزيادة، مع أنَّــه لا مانع من بنائه مــن «بَلَغَ» الثلاثي، بمعنى: بلغ رتبة عظيمة.

ويُقال: ثلاثة يُساوِمْنَ العبدَ كلَّ يومٍ: بليَّة نازلةٌ، ومنيَّة قاضيةٌ، ونعمة زائلة.

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ جملة استفهاميَّة علّق الاستفهام فيها بـ«يَبْلُوَ» عمَّا يســتحقُّه من التعدية بالباء، وهكذا التعليق يكون أنواعًا، أو عن عمل النصب في مفردٍ، لتضمُّن معنى يَعْلَمُ، أي: ليعلمكم أيُّكم أحسن عملا.

[نحو] والحقُّ أنَّ التعليــق يكون عن المفعول الثاني كمــا يكون عنهما، نحو: علمت زيدًا هل قام. وغفل الزمخشــريُّ ومتابعوه في منع تســمية ذلك تعليقًا، ثمَّ رأيته مَذْهَبًا لأهل أندلس.

والمراد بالعمل عمل القلب والجوارح، ودخل في العمل الترك الذي هو طاعة كترك الرياء، فإنَّ الترك متفاوتٌ، بعضٌ أشــدُّ من الآخر فيه، وأبعد عن المقارفة؛ قال رسول الله ﷺ: «**أيُّكم أحســن عقلاً وأورع عن محارم الله تعالى وأســرع في طاعــة الله** ﷻ»[1]. وحاصله: أيُّكم أحســن أخذًا عــن الله وفهما وامتثالاً. والأجر يتفاوت بتفاوت ما ذكر.

وجاءت الآية طبق قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [ســورة الذَّاريات: 56]، فالمعصية بمعزل عن خلق الجــنِّ والإنس وعن الصواب،

---

(1) أورده **الســيوطي** في الدر، ج5، ص361، وقــال: أخرجه ابن جرير وابن أبــي حاتم وابن مردويه، عن ابن عمر.

حتَّى كأنَّها لا تكون البتَّةَ أو إلَّا شــذوذًا، فلم يكن التلاوة: أيُّكم يطيع وأيُّكم يعصي، فكأنَّه لا يكون إلَّا الطاعة، وأنَّه لا بدَّ منها أصالة، فجعل التفضيل فيها بين الكاملة والأكمل منها.

﴿وَهُوَ **الْعَزِيزُ**﴾ الغالب الذي لا يُرَدُّ عمَّا أراد ﴿**الْغَفُورُ**﴾ لمن تاب.

[نحو] ﴿**الذِي خَلَقَ سَــبْعَ سَــمَاوَاتٍ**﴾ خبر ثالث لـ«هُوَ». ﴿**طِبَاقًا**﴾ نعت لـ«سَــبْعَ» لجواز نعت العدد، كما يجوز نعت ما أضيف إليــه العدد وهو في الأصل مصدر «طابَقَ» نُعِتَ بــه مبالغةً، أو لتقدير: ذوات طبــاق، أو للتأويل بمطابقات (بفتح الباء وكســرها)، أي: طابق بعضُها بعضًا فكلُّ واحدة مطابقة ومطابقــة، أو طابقها الله ﷻ، أي: جعلهــا متطابقة. أو مفعــول مطلق، نعت لمحذوف، أي: طوبقت طباقًا، فـ«طوبقت» نعتٌ لـ«سَــمَاوَاتٍ» أو لـ«سَبْعَ». وقيل: ما لا يوجد إلَّا مع ما عمل فيه، هو مفعول مطلق ولو كان جسمًا، نحو: خلق السماوات والأرض، وحفرت البئر، ونسجت الثوب، وبنيت الدَّار.

ومعنــى ﴿طِبَاقًا﴾: بعضٌ فــوق بعض، لا متلاصقة كما زعم الفلاســفة، وبعض الإســلاميِّين، والحديث يردُّ عليهم، لنصِّه أنَّ بين كلِّ واحدة وأخرى خمســمائة عام. وانظر من أين ثبت للفلاســفة الإيمان بالســماوات الســبع وغالبهم مشركون غير كتابيِّين، ولعلَّ المراد فلاسفة الإسلام.

﴿**مَّا تَرَى**﴾ يا من يصلح للرُّؤية عمومًا، النبيء ﷺ وغيره، وهذا هنا أولى، أو الخطاب للنبيء ﷺ والوجهان فيما بعد.

[نحو] و«مَا» نافية، و«مِــنْ» زائدة في المفعول به، أو اســتفهاميَّة إنكاريَّة مفعول بــه لـ«تَرَى». و«مِــن» للبيان في قولــه ﷻ: ﴿**فِي خَلْــقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ**﴾، والجملة مســتأنفة على الاســتفهام، ونعتٌ لـ«سَــبْعَ» على النفي، والرابط «خَلْقِ»، لأنَّه وضع موضع الضمير، أي: ما ترى فيهنَّ، فوضع «خَلْقِ» موضع الهاء، وأضيف للرحمن، والذوق يقبل ذلك.

[نحو] ولا فرق بين الخبر والنعت في ذلك ولو منعَهُ ابن هشام في النعت أن يربط بظاهر موضوع موضع المضمر. والمراد بـ﴿خَلْقِ الرَّحْمَنِ﴾ سبع السماوات، وإذا لم تجعل الجملة نعتًا جاز أن يراد به السماوات، وأن يراد به عموم الخلق، قيل: وهو أولى، فتكون الإضافة للجنس، وعلى الأوَّل للعهد.

والظاهر إرادتُه السماوات، لقوله: ﴿مِن فُطُورٍ﴾ أي: انشقاق، وتفسيره بالخلل مطلقا خلاف الأصل، وعلى كلِّ حال فهو مصدر بمعنى مفعول. والتفاوت هنا تخالف يوجب نقصا بعدم التناسب والاستواء، وذلك عيب واضطراب.

استدلَّ بعضٌ على أنَّ البصر أفضل، لقوله تعالى: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿حَسِيرٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [سورة الغاشية: 17]، إلى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ وغير ذلك كثير، فامْتنَّ علينا بالإبصار لمخلوقاته استدلالاً عليه تعالى.

وقيل: السمع أفضل، لقوله تعالى: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، وقوله تعالى: ﴿الذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [سورة الزمر: 18]، قيل: وللابتداء به في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَارِهِمْ﴾ [سورة البقرة: 7]، ويردُّه أنَّ «عَلَىٰٓ أَبْصَارِهِمْ» من جملة أخرى، وأنَّه أخِّر في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمُۥٓ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [سورة الأعراف: 195]، واختار بعضهم الأوَّل لأنَّ منافع البصر أكثر.

﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ بسبب إخباري لك بعدم التفاوت يظهر لك صدقه، سبحان أصدق القائلين، وإن كنت في ريب فارجع البصر إلى خلق الرحمن يزل ريبك، والمراد بالرجع: استئناف النظر لا بقيد تقدُّم نظر، وذلك وارد، وإن اعتبرنا تقدُّم نظر في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ﴾، لأنَّ الإنسان خلق له النظر واستعمله بلا أمر له من الله فهو قد نظر ثمَّ أمره الله بالنظر.

﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ «مِن» صلة للتأكيد في المفعول به، والفطور مطلق الشقِّ، ولو كان أصله الشقُّ طولاً، وفسَّره بعض بمطلق الخلل مجازًا، وابن عبَّاس بالوهن مجازًا. والجملة مستأنفة، أو معلَّق عنها «انظر» محذوفًا، أو معلَّق عنها «ارْجِعِ الْبَصَرَ» لتضمُّنه معنى «انظر».

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ مفعول مطلق، أي: رجعتين، يُقال: كرَّ، أي: رَجَعَ. واللَّفظ ثلاث نظرات: الأولى بقوله: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ والاثنتان بقوله: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ وإن عدَّدنا واحدة في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَى﴾ فأربع. وعلى كلِّ حال ليس المراد الأربع أو الثلاث فقط، بل التعدُّد الكثير، إذ لا يرجع البصر خاسئًا وهو حسير بمجرَّد أربع أو ثلاث، فكرَّتين من ذكر اثنين مراد به الكثير، كالتثنية في «لبَّيك وسعديك». ويكون ذلك أيضا بمفردين متعاطفين كقوله:

لو عـدَّ قبر وقبـر كان أكرمَهم ... ميتا وأبعدَهم عن منزل الذَّام[1]

والمراد: قبور كثيرة جدًّا، وقيل: لا مانع من إبقائه على ظاهره من المرَّتين، إذ يمكن الغلط بالأولى فيستدرك بالثانية، فتتمَّ ثلاث، وفيها كفاية.

وزعم بعض أنَّ الأولى ليرى حسنها واستواءها، والثانية ليبصر كواكبها في سيرها وانتهائها، وقيل: ما في الآية إلَّا مرَّتان: الأولى ﴿فَارْجِعِ البَصَرَ﴾، والثانية ﴿ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ﴾ بمعنى: حَصِّلْ برجعه تمامَ اثنتين، وكلُّ ذلك ليس بشيء.

﴿يَنقَلِبِ اِلَيْكَ الْبَصَرُ﴾ يرجع إليك ناظر عينيك. ﴿خَاسِئًا﴾ خائبًا من وجود فطور، ومعنى رجوع العين رجوعها عن النظر إلى ذلك عن غيره، وفسَّر

---

(1) البيت لعصام بن عبيد الزُّماني في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي. وللرقاشي في البيان والتبيين. **إميل بديع يعقوب**: معجم شواهد اللغة العَرَبِيَّة، ج 7، ص 282.

بعض «خَاسِئًا» بمتحيِّرًا. ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ كليل من تكرار النظر، منقطع، فعيل بمعنى فاعل، أو بمعنى كفَّه الله عن أن يرى خللا لعدم الخلل فهو بمعنى مفعول، والجملة حال ثانية أو حال من المستتر في «خَاسِئًا».

ثمَّ إن كنَّا نرى السماء الدنيا جسمًا أخضر فإنَّا لا نرى السماوات الأخر **وآمنَّا بكلِّ ما قال الله ﷻ فهمناه أو لم نفهمه**، وهذه الخضرة المائلة إلى السواد لا أتحقَّقها جسمًا بل جَوٌّ عجز البصر عن نفاذه، فالشيء الذي أمرنا الله بالنظر إليه سماء آمنَّا بوجودها. ومعنى أمره إيَّانا بالنظر إليها النظَرُ إلى جهتها، فننظر ولا نحصل بنظرنا فطورا فيها لعدم إدراكنا إيَّاها، وكفى ذلك في انتفاء إثبات الفطور، وكأنَّه قيل: هل تعلم فيها فطورا؟ فاستعمل نظر وجهك لعلَّه يحصل لك به علم به، ألا ترى أنَّ السماوات فوق هذه إنَّما لنا علم بها لا إدراك بالبصر إلَّا ما فيهنَّ من النيِّرات، فلعلَّ إدراك النيِّرات إدراك للسماوات كلِّها، ولو انشقَّت لأصاب نيِّراتها خلل.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا﴾ القريبة إليكم وإلى الأرض بالنسبة إلى ما فوقها من السماوات، وأمَّا بالنسبة إلى من تحت العرش فهي البُعْدَى، وهذه تحلية بالزينة بعد التخلية عن الفطور، كما هو المعتاد من تقديم التخلية عن التحلية.

و«الدُّنيَا» نعت لـ«السَّمَاءَ» وهو اسم تفضيل المؤنَّث. ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ بنجوم، ولو ما كان منها فوقها، لأنَّها تحلية، ومنها الشمس والقمر.

[بلاغة] سمَّاها باسم السراج [في الفرقان: 61، والنبأ: 13] استعارة تصريحيَّة، قيل: أو سمَّى النجم سراجًا على الاستعارة ثمَّ جمعه ونُكِّر للتعظيم، أي: مصابيح عظيمة، ليست كمصابيحكم، وما رأيتم من ضوئها إلَّا قليلاً لبعدها، وهذا أولى من أن يُقال: نُكِّرت للتنويع.

والمراد: النجوم السيَّارة والثوابت، وكلُّها مضيئة، وبعضها أضوأ من بعض، وهي في أفلاك مرسومة فيها، والأفلاك غير السماوات، وفلك فوق فلك.

وقيل: المراد الكواكب المضيئة. وعن عطـاء: الكواكب كالقناديل بأيدي الملائكة بين السماء والأرض، كما يزيَّن السقف بقناديل تحته، ولا دليل له.

وقيل: السـماء الدنيا فلك القمر، والسـتُّ الباقيات أفلاك السيَّارة الباقية على الترتيب المشهور. والكرسيُّ فلك الثوابت.

وزعم الفلاسـفة قبَّحهم الله ﷻ أنَّ من النجوم ما لا يصل إلينا شعاعه إلَّا في عدَّة سنين، وأنَّ شـعاع الشـمس يصل إلينا في ثمان دقائق وثلاث عشرة ثانيـة، وأنَّ بيننا وبينها أربعةً وثلاثين مليونا من الفراسـخ[1]. والمليون: ألف ألف، والمليار في هذه اللغة: ألف مليون.

﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ جعلنا المصابيح ﴿رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ المريدة لاستراق السمع.

[صرف] [رُجُومًا] جمع «رَجْم»، مصدرٌ بمعنى راجم، فالمصابيح رواجم، أسند إليهنَّ الرجم مع أنَّه فعل للملائكة لأنَّهنَّ آلته، أو مصدر بمعنى ما يرجم به، أو جمع راجم كشاهد، وشهود، وقاعد وقعود. وكونُه جمعًا أولى.

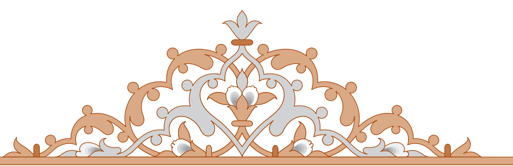
كيف ترجم بها وهـي في السـماوات أو فوقهنَّ؟ وكيـف لا تنقضي أو لا تنقـص مع طـول الزمان؟ والنجـم علـى ما زعموا أعظم مـن الأرض، والجواب: إمَّا أنَّهنَّ تحت السماء، كما قيل: يُشعل الملَك منها ما يرجم به كما يؤخذ القبس مـن النَّار ولا تفنى بـه ولا تنقص، وإمَّا أنَّها فـي فلك أقدر الله الملك بالشعل منها مع بعدها، وإمَّا أنَّ الضمير عائد إلى النجوم المزيَّن لكن مرادا بها نجوم أخرى على الاستخدام.

(1) وهذا ما يثبته علم الفلك في أيَّامنا بحسابات وآلات دقيقة.

﴿**وَأَعْتَدْنَا**﴾ هيَّأنَا ﴿**لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ**﴾ عذاب النار السعير، أي: الموقدة، وإنَّما لم يقرن بتاء التأنيث لأنَّ معناه مسعورة، وفعيل بمعنى مفعول يذكَّر، ككحيل بمعنى مكحولة.

وهم مُحْرقون بالشهب في الدنيا وبنار الآخرة في الآخرة. وإنَّما أثَّرت فيهم النارُ مع أنَّهم من النَّار لأنَّ نار الشهب ونار الآخرة أقوى من النار التي هم منها، وأيضا ليسوا نارا محضة بل هي أغلب عناصرهم، كابن آدم خلق من تراب ومع ذلك يتضرَّر بالتراب.





﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝6 إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝7 تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝8 قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝9 وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝10 فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝11﴾

عذاب الكفار واعترافهم بضلالهم

[أصول الدين] ﴿**وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ من الجنِّ والإنس ﴿**بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ**﴾ قدَّم الخبر للحصر الإضافيِّ، أي: وللذين أشركوا، لَا للموحِّدين العاملين الصالحات التائبين من معاصيهم، فلا دليل فيه لمن يقول: الموحِّد لا يدخل النار ولو مات مصرًّا، وهم المرجئة، وللأشعريَّة قولان: قول بأنَّ منهم من يقول: يدخل بعض، وقول بأنَّ ذلك جائز لا واقع.

﴿**وَبِيسَ الْمَصِيرُ**﴾ هي. ﴿**إِذَآ أُلْقُوا فيهَا**﴾ طرحهم الملائكة فيها كما يطرح الحطب في النار القويَّة ﴿**سَمِعُوا**﴾ أي: سمع الكفَّار الملقون فيها ﴿**لَهَا**﴾ أي: لجهنَّم مرادا بها النار، أو للنَّار السعير المذكورة. واللَّام بمعنى «من» الابتدائيَّة متعلِّق بـ«سَمِع»، أو باقية على معناها متعلِّقة بمحذوف حال من قوله ﷻ: ﴿**شَهِيقًا**﴾.

والشهيق: صوت النَّار بأن كان صوتها كصوت الحمار، سمِّي به على الاستعارة التصريحيَّة، وذلك شدَّة منها، وتغيُّظ عليهم بأن يخلقه الله ﷻ لها. أو الشهيق: صوت أهلها السابقين فيها، على حذف مضاف، أي: لأهلها، أو

أسند شهيق السابقين إليها لأنَّها محلُّهم، وذلك شهيق الداخلين مطلقا يسمعونه من أنفسهم، ويسمعه بعض من بعض، وأسند إليها كذلك كما نسب إليهم لا إليها في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [سورة هود: 106]، وغيرهما، كالكلام للملائكة، والكلام لله تضرُّعًا غير نافع، وعتاب بعض لبعض، قبل تمام ستَّة آلاف من دخولهم، وبعد تمامها يقتصرون على الزفير والشهيق.

﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ تغلي بهم كالقدر بما فيه. والجملة حال من مجرور اللَّام. ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ تتميَّز، حذفت إحدى التاءين، كما قرأ بهما طلحة، أي: تتفرَّق وينفصل بعض من بعض ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ أو بسبب الغيظ، وهو الغضب الشديد، يخلق الله عَجَّلَ لها عقلاً وغضبًا وبغضًا لأهل الكفر لكفرهم كما مرَّ آنفًا، فلا مجاز.

[بلاغة] أو شبَّه اشتعال النَّار بهم بالضرِّ الواقع باغتياظ المغتاظ على المغتاظ عليه، على الاستعارة التصريحيَّة، أو شبَّه النَّار بإنسان شديد الغيظ ورمز لذلك بذكر لازم الإنسان وهو الغيظ، فإثبات الغيظ لها تخييليَّة، أو الغيظ نفسه تخييليَّة، أو الغيظ تصريحيَّة للازمها الشبيه بلازمه وهو نفس شدَّتها.

أو يبقى الغيظ على معناه الحقيقي تابعا للاستعارة. ويجوز أن يكون الإسناد إليها مجازا عقليًّا وحقيقته للملائكة، أو مجازا بالحذف، أي: تكاد ملائكتها. والتميُّز في ذلك كلِّه غير واقع، لأنَّه قال: ﴿تَكَادُ﴾ والواقع الغيظ. وجملة «تَكَادُ» خبر ثان لـ«هِيَ» أو حال من ضمير «تَفُورُ».

﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ جماعة من الكُفَّار.

[أصول الدين] ولا يخفى أنَّ أهل الفترة لا يقال لهم: ﴿أَلَمْ يَاتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ولا يقولون: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا...﴾ إلخ، بل يقال لهم: ألم يجعل لكم الدلائل الكونيَّة؟ فيقولون: بلى جعلت، وكذا صاحب الجزيرة فهم مكلَّفون بالتوحيد

لا بسائر الأحكام الشَّرعِيَّة، إذْ لم يجدوا من يأخذونها عنه. ويدلُّ لهذا قوله ﷺ لعديٍّ: «**لو قال أبوك حاتم مرَّة لا إله إلَّا الله لاستغفرت له**»[1] فاكتفى بكلمة الشهادة له، إذ كان من أهل الفترة.

[نحو] و«كُلَّ» ظرف زمان، و«مَا» مَصدَرِيَّة، أي: كلُّ إلقاء، فإلقاءٌ مصدر استعمل اسمًا للزَّمان، كجئت طلوع الشمس، كأنَّه قيل: كُلُّ وقت إلقاء فوج فيها. وهو متعلِّق بقوله: «سَأَلَ» من قوله تعالى:

﴿**سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا**﴾ خزنتها مالكٌ وأعوانه، سؤال توبيخ يحصل لهم تعذيب لأرواحهم، مع العذاب الجسميِّ، الحاصل لها بواسطة أبدانهم، والسائل مالك من باب الحكم على المجموع أو كلُّ واحد يسألهم.

﴿**أَلَمْ يَاتِكُمْ نَذِيرٌ**﴾ نبيء يخبركم عن هذه الدار يتلو عليكم آياته أو مع غيرها من المعجزات، وينذركم لقاء يومكم هذا، والجملة مفعول به لـ«سَأَلَهُمْ» لتضمُّنه معنى القول، وهو معلَّق بالاستفهام.

﴿**قَالُوا**﴾ أي: فَرْدٌ منهم، أو كلُّ فردٍ على حدِّ ما مرَّ ﴿**بَلَىٰ**﴾ قال كلُّ فوج: بلى، أي: ليس لم يجئنا بل جاءنا، وهذا معنى ﴿بَلَى﴾ نفسه بلا تقدير جملة بعده، فقوله تعالى: ﴿**قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ**﴾ تأكيد لمعنى ﴿بَلَى﴾ وزيادة تحسُّر منهم.

[قلت:] وأخطأ من يقدِّر الجملة بعد «بلى» و«نعم»، ونحوهما من معناهما، لأنَّ ما يقدِّرونه هو نفس معناهنَّ، وإنَّما يجوز تقديره تفسيرًا لا اعتقادًا أنَّ هناك محذوفًا إذ لا محذوف.

﴿**فَكَذَّبْنَا**﴾ نُذُرَنَا، كلُّ فوج كذَّب نذيرهُ. ﴿**وَقُلْنَا**﴾ في شأن ما أنزل الله ﷻ ﴿**مَا نَزَّلَ اللَّهُ**﴾ عليكم لأنَّكم بشر مثلنا. ﴿**مِن شَيْءٍ**﴾ مَّا من الأشياء، كما أكَّدوا العموم بـ«مِن» الصلة في المفعول به، أي: شيئا من كتاب أو وحي، أو

---

(1) لم نقف على تخريجه فيما بين أيدينا من مصادر.

في المفعول المطلــق، أي: ما نزَّل الله تنزيلاً مَّــا، والأوَّل أولى، أو ما نزَّل الله على أحد من شيء لا عليكم ولا غيركم.

﴿**اِنِ انتُمُوٓ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ**﴾ بعيدٍ عن الحقِّ، خاطب كلُّ فوجٍ نذيره في الدنيا، اعترفوا بذلك حيــن لا ينفعهم الاعتراف، والمــراد أنَّ كلَّ فوج يقول لنذيره: ﴿اِن انتُمُوٓ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: أنت وأمثالك.

أو أقام الله تكذيب الواحد مقام تكذيب الــكلِّ فعبَّر عنهم به لاتِّفاقهم في أصول التوحيد، وفي أنَّ كُلًّا جَاء بما جــاء به من الله لا غير. ويجوز أن يكون الخطاب إطلاقُه على الجماعة، أو مصدر على تقدير مضاف، أي: أهل نذير.

﴿**وَقَالُواْ**﴾ للخزنة ﴿**لَوْ كُنَّا نَسْــمَعُ**﴾ كلامًا ﴿**أَوْ نَعْقِلُ**﴾ شيئًا ﴿**مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّــعِيرِ**﴾ اعترفوا بذلك للخزنة، لأنَّ في ضمن خطاب الخزنة لهم: ألم تســمعوا آيات ربِّكــم؟ ألم تعقلوا معانيهــا؟ لأنَّ الخزنــة يعرفون أنَّ الله لا يكلِّف إلَّا من يســمع ويعقل، ويعرفون أنَّ النُّذُر جاءوهم بما يدركون معناه إذا سمعوه.

وأصحاب السعير جملة أهل النار، وقيل: خصوص الشياطين لأنَّهم المراد في قوله تعالــى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّــعِيرِ﴾ وليس كذلك، فإنَّ السَّــعير للجنِّ والإنــس معا، قــال الله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَــا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِــلاً وَأَغْلَالاً وَسَــعِيرًا﴾ [سورة الإنســان: 4]، وغير ذلك. وقَــد ذُكِّرُوا بالســعير أيضًا في قوله: ﴿فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

نزَّلوا ســمعهم وعقلهم منزلــة العدم لعــدم انتفاعهم بهمــا، كأنَّهم صُمٌّ مجنونون، وفيه تلويح بأنَّهم لا يدركون منقولاً ولا معقولاً.

ويجوز أن يكون المعنى: لو كنَّا نسمع ما أتانا به النذير سماعَ قبولٍ وتقليدٍ مع الجزمِ، أو نعقله: نُعمِل فيه عقولنــا بالتدبُّر والبحث لأَدْرَكْنَا الحقَّ وآمَنَّا به

لأنَّه حقٌّ؛ فذلك شامل للإيمان التقليدي والنظري، أو الأحكام التعبُّديَّة وغيرها؛ فـ«أَوْ» للتَّنويعِ لا للتردُّد، لأنَّهم لا يشكُّون أنَّ الإيمان تقليدًا لا ينفعهم، ولا أنَّ الإيمان بالنظر لا ينفعهم، بل يجزمون بالنفع، والعقل هنا الإدراك لما أنذِرُوا به لا مطلق إدراك أمر الشرع بمجرَّد العقل، فإنَّه لا يصحُّ، فلا دليل للمعتزلة في الآية على التحسين والتقبيح.

﴿**فاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ**﴾ الإضافة للجنس، فكأنَّه قيل: بذنوبهم، وهي تكذيبهم وسائر معاصيهم. ﴿**فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ الأصل سحق الله أصحاب السَّعير سحقًا، والفعل متعدٍّ كقوله:

. . . . «وتسحقه ريح الصبا كلَّ مسحق»(1)

فحذف العامل وفاعله، وناب عنه المصدر ونصب معمول ذلك العامل، وهو «أَصْحاب» فقوّي باللَّام لام التقوية لضعف المصدر في العمل، وسمَّوا هذه اللَّام لام التبيين، في مثل هذا كسقيا لك، لا في كلِّ تقوية باللَّام.

[نحو] وإذا ثبتت تعدية «سحق» كما ثبت لزومه لم نحتج أن نقول كما قال بعض: الأصل أَسْحق اللهُ أصحابَ السَّعير إسْحَاقًا، فحذفت وجعل «سُحْقًا» اسم المصدر الذي هو إسحاق، والإسحاق بمعنى الإبعاد، وسحق والسّحق كذلك، أو بمعنى البعد، وأنت خبير بأنَّ الشياطين ليسوا بأولى من الإنس بالسَّعير ولا مخصوصين به، فلا حاجة إلى دعوى أنَّ اسم السَّعير غلب في الآية على الإنس، وأصله للجنِّ.

---

(1) هذا عجُز بيت لامرئ القيس، وصدره: «يَجُولُ بآفاقِ البلادِ مغرِّبا». ينظر ديوانه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿12﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿13﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿14﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿15﴾﴾

وعد المؤمنين بالمغفرة والنعيم

﴿**إِنَّ الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم**﴾ يخافون عذابه مع تعظيمه ﷻ ﴿**بِالْغَيْبِ**﴾ حال من «رَبّ» أي: ثابتا في الغيب عنهم، إذ لا يشاهدونه، أو من الواو، أي: ثابتين في الغيب عن الله ﷻ، فغيبته عنهم هي عين غيبتهم عنه بذلك المعنى، ولا يخفى عنهُ شيء من الأجسام ولا من الأعراض، ولا ما يُدَّعى من الجواهر. أو ثابتين في الغيب عن النَّاس لا يخصُّون عبادتهم بعلمهم أو بحضورهم، كما هو شأن المرائي. أو ثابتين في الغيب بما في قلوبهم.

﴿**لَهُم مَّغْفِرَةٌ**﴾ عظيمة لذنوبهم بسبب تلك الخشية. ﴿**وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾ في الآخرة، وقدَّم المغفرة على الأجر لقاعدة أنَّ التخلية قبل التحلية، ولأنَّ دفع المضارِّ أهمُّ للنَّاس مثلاً من جلب المنافع.

[سبب النزول] وكان ﷺ يخبرهم بما أسرُّوا فقالوا: أَسِرُّوا كلامَكُم لئلَّا يسمع ربُّ محمَّدٍ ما تقولون فيخبره به، فنزل قوله تعالى: ﴿**وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ أي: باعتقادةِ أو تكييفةِ صاحبة الصُّدور، أي: بما في القلوب التي في الصدور، فسمَّى الصَّدْرَ قلْبًا لأنَّه مَحَلُّه.



أو «ذات» هي القلوب، أي: بالقلوب التي هي صاحبة الصدور، أي: هي في الصدور. وعلمُه بالقلــوب كناية عن علمه بما فيهــا، أو المراد العلم بها وبما فيها.

قدَّم السِّــرَّ لأنَّه هو الذي اهتمُّوا به إخفاءً عنه ســبحانه عن أن يخفى عنه شــيء، ولتقدُّم الســرِّ في الوجود، إذْ لَا ظهور إلَّا بعد خفاء، ولو بالعدم قبل الإيجاد، فإنَّ المعدوم لا يصــدق عليه أنَّه ظاهر. والخطــاب للمعهودين كما رأيت، ويجوز أنَّه على العموم للمكلَّفيــن فيدخل المعهودون أوَّلاً، وأجيز أنَّ الخطاب لأصحاب السَّعير على طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب.

﴿**أَلَا يَعْلَمُ**﴾ يعرف ﴿**مَن خَلَقَ**﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاريِّ و«لَا» نافية. وفي «يَعْلَمُ» ضمير لله تعالى. و«مَن» مفعول بــه للعقلاء، كيف لا يعلمهم مع أنَّه هو الخالق لهم، وعلمــه بهم عبارة عن علمه بما احتووا عليه من أســرار واعتقاد وتكييف، كعلمه بأجســامهم وأحوالهم الظاهرة على حدٍّ ســواء. أو «مَنْ» فاعل «يَعْلَمُ» وهو الله تعالى، أي: ألا يعلم من خلقهم ســرَّهم؟. وأجيز ـ على ضعف ـ وقــوع «مَنْ» على غير العاقــل، وهو السِّــرُّ، وأنَّها مفعول به لـ«يَعْلَمُ»، أي: ألا يعلم الله السِّرَّ وهو الخالق له.

﴿**وَهُوَ اللَّطِيفُ**﴾ العليم بدقائق الأمور الخفيَّة ﴿**الْخَبِيرُ**﴾ العليم بها وبكلِّ شــيء، فهذا ذكر للعامِّ بعد الخاصِّ فلا يتكرَّر معه. وأيضا في اللُّطف إيصالُ المصْلحةِ برفق، وليس هذا في الخبرة.

[نحو] والجملة حال من «مَنْ» على أنَّــه لله، أو من ضمير «يَعْلَمُ» على أنَّ فيه ضمير الله، والرابط الضمير وَوَاوُ الحال، أو مِن «مَنْ» والرابط واو الحال، قيل: أو حال من ضميــر «خَلَقَ» والربط بهما معًا، وهــذه الحاليَّة لا تنافي أن يكون «يَعْلَمُ» ممَّا لم يتعلَّق غرض الكلام له بمفعــول، هكذا: أليس ذا علم؟ وكأنَّه قيل: أليس ذا علم وهو عالم بالخفيَّات؟ كقولك: أليس زيد شجاعًا وقد

قتل بطل بني فلان؟ فقد أفــادت جملة الحال ما لم يدخل في قولك: أليس ذا علم؟ لأنَّه ليس فــي قولك: أليس ذا علم تعرُّضٌ لأفــراد العلم، وهب أنَّه فيه لكن لا صراحا.

﴿هُوَ الذِي جَعَلَ لَكُــمُ الاَرْضَ ذَلُولاً﴾ صفة مبالغة من اللَّازم، كالضروب من المتعــدِّي، وهو يكون بلا تــاء مع المؤنَّــث بمعنى عظيمة الــذّلِّ، ضدَّ الصعوبة، يسهل عليكم جِدًّا السلوك فيها.

[بلاغة] والذلُّ يكون للحيــوان لا للجماد، لكن شــبَّهَهَا بمن ذَلَّ حتَّى لا يردُّ عن نفسه مضرَّة، ورمز إليه بلازمه، فهو تبع للمكنيَّة باق على معناه. أو استعارة على طريق التخييليَّة، أو إثباته تخييليَّة، أو استعارة لشيء هو للأرض شبيه به، وهو عدم ردِّها على من مشــى فيها. أو بمعنى: عظيمة الذِّلِّ (بكسر الذَّال) وهو ســهولة الانقياد، وعليه فذَلُولٌ يجوز أن يكون اســتعارة من دابَّة ذلول، أو تشبيهًا.

و«لَكُمْ» متعلِّق بـ«جَعَلَ» بمعنى أثبت أو خلق، و«ذَلُولاً» حال، وعلى أنَّه من باب ظنَّ يكون «ذَلُولاً» مفعولاً ثانيًا. وعلى كلِّ حال تقديمه على ما بعده آت على الأصــل، وليس حقُّه التأخير عن المفعولين كمــا قيل، فضلاً عن أن يقال: قدِّم على طريق الاهتمــام بالإثبات للمخاطبين وبهم، والتشــويق إلى ما بعده فيخبرهم به، وقد اســتعدُّوا له، فيتمكَّن دخوله في قلوبهم، نعم ذلك صحيح إن علِّق بـ«ذَلُولاً»، وليس بلازم، ولا هو الأصل.

﴿فَامْشُــوا﴾ لمصالحكم أَمْرَ إِبَاحَةٍ، وقيل: طلب الســعي للأمور المباحة والعبادة. ﴿فِي مَنَاكِبِهَا﴾ لا تتعطَّلون عن المشي لذُلِّها أو لذِلِّها، فالفاء للسببيَّة.

[لغة] والمنكب مجتمــع ما بين العضد والكتف، وليــس لها عضد ولا كتف فذلك ثبــات لغاية التذلُّل، لأنَّه مِــنْ أباعِدِ ما يُطَأُ من الإنسـان بالقدم،

وقيل: هو أرقُّ شـــيء في البعير، وأبعد عن أن يطأ بالقدم، وهو غير مسلَّم به، وعن ابن عبَّاس: مناكبها جبالها، ويجوز أن يكون المنكب ظاهرها.

[بلاغة] وعن الحسن طرقها على الاســتعارة التصريحيَّة، وهي من لازم ما شــبِّهت به الأرض على الاســتعارة المكنية، وهو البعير، والمشبَّه به غير مذكور كما هو شأن المكنية، وليس ﴿ذَلُولاً﴾ صريحًا فيه بل أريد به الأرض، ولعلَّ اختصاص المناكب بالذِّكر لكون الراكب كثيرا ما يركب من جهة العنق التالية للمنكب.

زعم بعض أنَّ الأرض أربعة وعشــرون ألف فرسخ، للســودان اثنا عشر ألفا، وللروم ثمانية آلاف، وللفرس ثلاثة آلاف، والباقي للإســلام، وربَّما هذا في زمان المأمون بن هارون الرشيد. والفرسخ: ثلاثة أميال، والميل: اثنا عشر ألف ذراع، والذراع: ثلاثة وثلاثون إصبعا.

وعن حذيفة بن اليماني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيء ﷺ: «**الدنيا مسيرة خمسمائة عام؛ ثلاثمائة عام بحار، ومائة عمران، ومائة خراب**»[1]. ويقال: وســط الأرض مكَّة ولو بســط خيط إلى الجهات منها لتســاوت إليها، وصحَّحــه بعض. وقيل: وسطها وادي سرنديب حيث نزل آدم من الجنَّة لاستواء الليل والنَّهار فيه.

﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ انتفعوا برزقه، فاســتَعمَلَ الخاصَّ في العامِّ لحكمة أنَّ المقصد الأعظم الأهمَّ هو الأكل، وهذا أولى مــن إبقائه على ظاهره، وتقدير عام، أي: كلوا مــن رزقه وانتفعــوا به، ويجــوز أن يكون ﴿كُلُــواْ﴾ بمعنى: اكتســبوا، لعلاقة أنَّ الاكتســاب ســبب وملزوم للأكل في البطــن وللانتفاع المطلق، أو للانتفاع المطلق المعبَّر عنه بــالأكل مجازًا مبنيًّا على مجاز، أريد بالأكل الكسب وبالكسب الانتفاع.

---

(1) أورده **الســيوطي** في الدر، ج 4، ص 601. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمر. ولا شكَّ أنَّ ما يتعارض مع حقائق العلم لا يُلتفتُ إليه.

قال رســول الله ﷺ: «**إنَّ الله يحبُّ العبد المؤمن المحترف**»[1] والاحتراف لا ينافي التوكُّل. مرَّ عمر رضي الله عنه بقوم فقال: من أنتم؟ فقالوا: المتوكِّلون، فقال: بلى المتأكِّلون، المتوكِّل الرجل ألقى حبَّه في الأرض وتوكَّل على الله.

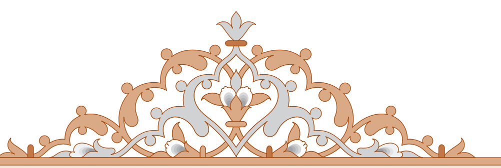
وإذا فُسِّـر الأكل بالكســب فالأمر في الآية طلب على ظاهره، وإذا فُسِّر بالأكل أو الانتفاع فللإباحة.

﴿**وَإِلَيْهِ**﴾ لا إلى غيره ﴿**النُّشُــورُ**﴾ بالبعث للجزاء على شكر النعم وعلى كفرها، فخذوا من الدنيا ما ينفعكم في الأخرى، والجملة معطوفة على إحدى الجملتين قبلها عطف اسْــمِيَّة خبريَّة علــى فِعْلِيَّة طَلَبيَّة، أو علــى «جَعَلَ لَكُمُ الَارْضَ ذَلُولاً»، أي: وإليه النشــور لنتيجة جَعْلِ الأَرْضِ لكم ذلولا وتصرُّفكم فيها، قيل: أو حال من وَاوِ «كُلُوا» مقدَّرة، أي: معتقدين أنَّكم تنشرون.

---

(1) أورده **الســيوطي** في الدر، ج8، ص238، وقال: أخرجه الطبراني وابــن عديٍّ والبيهقي في الشعب، عن ابن عمر.





﴿ءَامِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩﴾

أنواع من الوعيد للمكذِّبين والعبرة بالأمم السابقة

﴿ءَامِنتُم مَّن فِي السَّمَآءِ﴾ هو الله ﷻ، والظرفيَّة مجازيَّة معتبر فيها معنى التصرُّف في السماء تَجَوُّزًا في الإسناد، أو يقدَّر مضاف، أي: من في السماء أَمْرُهُ، وحذف «أَمْر» ونابت الهاء عنه، وخلفها ضمير رفْعٍ مستتر في ما تعلَّق به «فِي السَّمَآءِ».

أو يقدَّر مضاف قبل «مَـن»، أي: خالق من في السماء، أو «فِي» بمعنى على، ولا يزول به الإشكال إلَّا بالتأويل، كما أوِّلت «فِـي» بالتصرُّف، لأنَّ الاستعلاء الحسِّيَّ محال عن الله كالمظروفيَّة، فمعنى العلوِّ القهرُ والغلبة.

وقيل: الكلام مبنيٌّ على زعم العرب الجَاهِلِيَّة أنَّ الله في السماء، واستبعد بعض المحقِّقين ذلك، ولا بأس [في ذلك]، كما قد يسمَّى الصنم إلهًا باعتبار اعتقاد أهله، حيث لا لبس، وكما توصف أصنامهم بصفة العقلاء المذكَّرين.

أو ﴿مَن فِي السَّمَآءِ﴾: الملائكة الموكَّلون بتدبير هذا العالم، وقيل: جبريل الذي هو ملك الخسف.

[أصول الدين] وتأويل المتشابه هو الحقُّ، وجمهور سلف قومنا على إبقاء المتشابه بلا تأويل، ويقولون: إنَّه على ظاهره إلَّا أنَّه بلا تكييف، وهو جهالةٌ وظلمة مع وجود العلم والنور، وكثيرًا مَّا أوَّل ابن عبَّاس وغيره من الصحابة المتشابه، فلو كان التأويل حرامًا أو مكروها لما فعلوه.

[قلت:] والتأويل تأييدٌ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11]، وعملٌ به، وفي تركه مع إمكانه تقصيرٌ في الدين، وإبقاء للمرتاب على ارتيابه، وتقوية وإعانة للشبهة. وأمَّا قوله ﷺ: «**آمنوا بمتشابهه**»[1] فليس فيه النهي عن التأويل، بل أَمْرُه بالإيمان نهيٌ عن إنكاره وجعْلِه من غير الله، أو أمْرٌ بالوقف لمن لم يدرك التأويل.

وأمَّا اكتفاؤه من الأَمَةِ بإشارتها إلى السماء حين قال: من ربُّك؟ وإليه حين قال لها: من نبيئك؟ فلعلمه بأنَّها أرادت أنَّ قضاءه في السَّماء وتصرُّفَه[2]، وإلَّا لزم أنَّها وصفت الله ﷻ بأنَّه حالٌّ في السماء ولم يَنهَهَا ولم يُعْلِمْهَا، وذلك محال في حقِّه ﷺ، وما لا ندركْ معناه نُبقِهِ بلا تأويل ونؤمن به.

﴿اَنْ يَّخْسِفَ بِكُمُ الاَرْضَ﴾ بدل اشتمال بتأويل المصدر مِن «مَن»، كأنَّه قيل: آمنتم خسفَه؟ أو مقدَّر بحرف الجرِّ، أي: في خسفه، أو من خسفه. والخسف: الإذهاب في باطن الأرض، والباء للملابسة.

﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ تتحرَّك في الخسف بكم في الجوانب أو فوق وأسفل.
﴿أَمَ اَمِنتُم مَّن فِي السَّمَآءِ اَنْ يُّرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ حجارة صغارًا يرميكم

(1) رواه **ابن حبَّان** في صحيحه، كتاب الرقائق، باب قراءة القرآن، رقم: 745. من حديث ابن مسعود.

(2) إشارة إلى الحديث الذي رواه **أبو داود** في كتاب الأيمان والنذور باب في الرقبة المؤمنة، رقم 328 عن الحكم السلمي، ولفظه: «قال: قلت: يا رسول الله جارية لي صككتها صكَّة. فعظم ذلك على رسول الله ﷺ فقلت: أفلا أعتقها؟ قال: ائتني بها، قال: فجئت بها، قال: أين الله، قالت: في السماء، قال: من أنا، قالت: أنت رسول الله، قال: أعتقها فإنَّها مؤمنة».

بها، وإسـناد الحصب إلى الحجارة الصغار مجاز عقليٌّ أو استعارة للحجارة، وذلك أنَّ الحاصـب هو الذي يضـرب غيـره بالحصبـاء. و«أَم» للإضراب الانتقاليِّ إلى وعيد آخر، وللاستفهام التوبيخيِّ.

وقدَّم ذكر الخسف في الأرض لتقدُّم ذكر الأرض التي سهَّلها للمشي في مصالحكم، وإذا لم تشـكروا الإنْعَامَ بها كانت نقمة لكم بالخسف، وخلقت لعبادة الله فعبدتم فيها الأصنام كفـرًا بنعمتها، فتكون لكم عقابًا بالخسـف، وأخَّر الحصب من السـماء لتأخُّر ذكرها إذا لم تعبدوه شـكرًا لنعمه التي مِن السـماء، كما قال مُمتنًّـا: ﴿وَكُلُواْ مِـن رِّزْقِهِ﴾، ﴿وَفِـي السَّـمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [سورة الذَّاريات: 22]، وكانت السـماء محلًّا لأن ترفع إليه الأعمال الصالحة التي تجب عليكم، والكلم الطيِّب، فَعَكَسْتُمْ، تأَهَّلْتُمْ أن تُهْلَكُوا من جَانِبِهَا. والكلام في ﴿اَنْ يُّرْسِلَ﴾ مثله في ﴿اَن يَّخْسِفَ﴾.

﴿**فَسَـتَعْلَمُونَ**﴾ حين لا ينفعكم العلم ﴿**كَيْفَ نَذِيرِي**﴾ إنذاري، هو إنذارٌ عظيمٌ تتحقَّقونَهُ إذا نزل عليكم ما يتضمَّنه الإنذار من العقاب.

﴿**وَلَقَدْ كَذَّبَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ قبـل كُفَّارِ مكَّة من المهْلَكِينَ، كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم فرعون، ومن مُسِخَ من بني إسرائيل.

[بلاغة] وهـذا اغتياب بعد خطـاب، كصورة من تخاطب وأيسـت منه فقطعت الكلام عنه، وتارة يشـتَدُّ العتاب فتخاطب بعد الاغتياب، وذلك واردٌ في القرآن، فلكلٍّ مقام ما يناسبه.

وأقول: كلُّ المعاني المحتملة في القرآن هي معان له إذْ كانت تُسْـتَحْضَرُ عند التأمُّل.

﴿**فَكَيْفَ كَانَ نَكِيـرِي**﴾ إنكاري، أي: عقابي، والإنكار سـبب للعقاب، وملزوم له، فعبَّر به عنـه، ومثل هذا في قوله تعالى: ﴿كَيْـفَ نَذِيرِي﴾ وذلك وعيد بالعذاب الشديد المهول، وكلَّما ذكر الوعيد فهو تسلية لرسول الله ﷺ.

﴿أَوَ لَمْ يَرَوا﴾ أَعَمَوْا ولَمْ يَرَوْا ﴿إِلَى الطَّيْرِ﴾ جمع طائر، أو اسم جمع وهو أَوْلى، كَرَكْبٍ وراكب. ﴿فَوْقَهُم﴾ يتعلَّق بمحذوف حالٌ من «الطَّيْرِ»، أو نعتِه على ما تقدَّم في المقرون بـ«ال» الجنسيَّة، ولا يصحُّ تعليقه بـ«يَرَوْا» لأنَّ الرؤية تقع في الأرض لا فوق، واستعمال العين للنظر في الأرض لا في الجوِّ، اللهمَّ إلَّا أن يُرَاعَى أثر ذلك الاستعمال. أو متعلِّق بقوله: ﴿صَآفَّاتٍ﴾، أو حال من المستتر في «صَآفَّاتٍ»، و«صَآفَّاتٍ» حال من «الطَّيْرِ» ومن المستتر في «فَوْقَ» أو في متعلَّقه إذا علِّق «فَوْقَ» بمحذوف حالاً.

﴿صَآفَّاتٍ﴾ أي: باسطاتٍ، ومفعوله محذوف، أي: باسطات أجنحتهنَّ وقوادمهنَّ، وهو الريش المتقدِّم. ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أجنحتهنَّ جانبًا، عطف على «صَآفَّاتٍ» فيؤول إلى «صَآفَّاتٍ» لتقدُّم «صَآفَّاتٍ»، أي: وقابضات، لا العكس، بتأويل «صَآفَّاتٍ» إلى «يَقْبِضْنَ»، أي: يصفِّفن ويقبضن، ولأنَّ الأصل في الحال المفرد لا الجملة. وعطف الفِعلِيَّة على الوصف والعكس جائزان، ومَنَعَ السُّهَيْلِيُّ[1] العكس لقلَّته كقوله:

بات يُغَشِّيها بِعَضْبٍ باتر ... يقصد في أَسْؤُقِهَا وجائر[2]

بجرِّ «جائر»، عطف على جملة، يقصد التي هي في محلِّ جرٍّ نعت ثانٍ لعَضبٍ، كأنَّه قيل: قاصد وجائر. قال الله ﷻ: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ [سورة الأنعام: 95]، فيرجع لفظ «مُخْرِجُ» إلى «يُخْرِجُ» لتقدُّم «يخرج» عكس ما هنا.

---

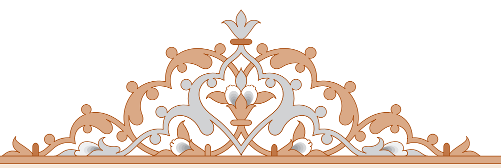
(1) السهيلي: هو عبد الرحمٰن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي السهيلي، حافظ عالم باللغة والسير، ضرير، ولد في مالقة، وقد كفَّ بصره وهو في السابعة عشرة من عمره ونبغ. أقام بمراكش مؤلِّفًا إلى أن تُوُفِّيَ سنة 581هـ. له تصانيف كثيرة منها: «الروض الأنف في شرح السيرة النَّبَوِيَّة لابن هشام»، وكتاب: «الإيضاح والتبيين لما أبهم من تفسير الكتاب المبين». **الزركلي**: الأعلام، ج 3، ص 313.

(2) أورده صاحب البحر بلا نسبة. انظر: **ابن حيَّان الأندلسي**، التفسير المحيط: ج 6، ص 302.

وَلَمَّا كان الأصل في الطيران مدَّ الأطراف وبسـطها كالسـباحة في الماء، وبه تقطع المسافة، وكان القبض طارئًا ليحصل البسط المُحرِّكُ جاء دَالُّه وَصْفًا ودالُّ القبض فعلاً يتجدَّد.

﴿**مَا يُمْسِـكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ**﴾ الواسـعُ الرَّحمـة للطَّيـر بإِلْهامها ذلك، ولغيرها، والجملة حال أخرى مـن «الطَّيْرِ». ﴿**إِنَّهُ بِكُلِّ شَـيْءٍ بَصِيرٌ**﴾ دقيق العلم، قويُّ القدرة، ولو شاء لمشت الطير في الهواء بلا جناح.

وأثقل الأشياء يمسـكه بلا عمدٍ، ألا ترى إلى السَّماوات والأرض؟ وألا ترى إلى صخرة بيت المقدس فيما قيل؟.



﴿ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (20) أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21) أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (22) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (23) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (26) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ (27) ﴾

توبيخ المشركين واختصاص الله بالغيب

﴿ أَمَّن هَذَا الذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ ﴾ «أَمْ» منقطعة للإضراب الانتقاليِّ عن الإضراب الانتقاليِّ قبله، دون الاستفهام التوبيخيِّ، لوجود الاستفهام بعدها بـ«مَنْ». وقول البصريِّين: إنَّ «أَمْ» المنقطعة أبدًا بمعنى بل.

والاستفهام الإنكاريُّ أو الحقيقيُّ ينبغي تقييده بما لم يوجد استفهام بعدها، أمَّا إذا وجد كما هنا وكما في قوله تعالى: ﴿أَم مَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة النمل: 84]، ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [سورة الرعد: 16]، فلمجرَّد الإضراب.

[نحو] وصرَّح بعضٌ بأنَّها مع وجود الاستفهام بعدها تكون للإضراب والاستفهام تأكيدًا عند البصريِّين في ظاهر إطلاقهم. وذكر بعض أنَّها تأتي للإضراب وتأتي للاستفهام، وتأتي لهما. و«مَنْ» خبر

مقدَّم، و«هَذَا» مبتدأ لأنه معرفة، وعَكَسَه سيبويه، وهكذا في الاستفهام وأفعل التفضيل عنده. وقيل: «مَنْ» موصولة في الموضعين فاعل لـ«آمَنَكُم» محذوفًا.

والإشارة بـ«هَذَا» إلى مفروض، أو إلى جنس الأوثان لاعتقادهم أنَّها تحفظهم من النوائب وترزقهم، فكأنَّها جند ناصر رازق، فأنكر الله عليهم هذا الاعتقاد، أي: آمَنكُم الذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُمْ... إلخ فحذف المبتدأ من أوَّل الصلة.

والجملة متعلِّقة بقوله تعالى: ﴿أم مَّنْ هَذَا الذِي يَرْزُقُكُمْ﴾. وقيل: متعلِّقة بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوا اِلَى الطَّيْرِ...﴾ إلخ. والمراد: ينصركم من الله ﷻ، أو من عذابه، لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمُوٓ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [سورة الأنبياء: 43].

[نحو] و«يَنصُرُكُمْ» نعت «جُندٌ». وإفراد الضمير المستتر باعتبار لفظ «جُندٌ»، وذلك على طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب. و«مِن دُونِ» متعلِّق بـ«يَنصُرُ»، كقوله تعالى: ﴿مَنْ يَّنصُرُنِي مِنَ اللهِ﴾ [سورة هود: 30]، أو بمحذوف نعت لـ«جُندٌ» بعد نعته بـ«لَكُم».

﴿إِنِ الْكَافِرُونَ﴾ العابدون للأصنام ﴿إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ أمر غير نافع، بل ضارٌّ غرَّهم به الشيطان من زعمهم أنَّ أصنامهم تشفع لهم من بأس الله في الدنيا إنْ جَاؤُوا في الآخرة إنْ صَحَّ البعث، وأنَّها تحفظهم.

والغيبة بالاسم الظاهر بعد الخطاب إيذانٌ بأنَّهم أَهل للإعراض عنهم لشدَّة قبحهم، وتصريح بعلَّة غرورهم، وذَمُّهم بها وهي الكفر.

﴿اَمَّنْ هَذَا الذِي يَرْزُقُكُمُوٓ إِنَ اَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ بإمساك المطر أو مبادئه، أو بما شاء، ولو جاء المطر وأثمرت الأرض والشجر. ﴿بَل لَّجُّواْ﴾ تَمَادَوْا ﴿فِي عُتُوٍّ﴾ طغيانٍ ﴿وَنُفُورٍ﴾ عن الحقِّ لثقله عليهم.

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي﴾ أجهلتم في كلِّ مقام فمن يمشي ﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؟ استعارتان تمثيليَّتان على طريق الاستفهام التقريري.

[بلاغة] شبَّه المشرك واعتقاده وأفعاله وأقواله المخالفة للحقِّ بمن يمشي على وجهه مطلقًا، ولو في طريق مستوٍ، فكيف وهو في طريق منحرف منخفض مرتفع، لجامع المضرَّة والهلاك؟. وشبَّه المسلم واعتقاده وأفعاله وأقواله الموافقة للحقِّ بمن يمشي على رجليه في طريق مستو لا مضرَّة فيه، لجامع المنفعة والسلامة، ولم يُصَرِّح بطريق الكافر لأنَّه لا يستحقُّ مسلكُه اسمَ طريق معتبَر، لأنَّه في ضلال، لكن ذكر ما يدلُّ على سوء مسلكه.

ويجوز أن يكون المعنى: إنَّ الكافر يمشي على رجليه لكن لا يزال يقع على وجهه، وهذا مصرِّح بأنَّ المسلم يمشي على رجليه، لكن ليس في «مُكِبًّا» ما يدلُّ على التكرار، وعلى هذا الجواز يتعلَّق «عَلَى» بـ«مُكِبًّا» وعلى ما قبله بـ«يَمْشِي»، كما تعلَّق «عَلَى صِرَاطٍ» بـ«يَمْشِي».

[لغة] و«مُكِبًّا» مطاوع كَبَّ المتعدِّي، وهو من أَفْعَلَ المطاوعِ لِفَعَلَ، كمريت الناقة فَأَمْرَتْ، وشنقْتُ البعير فَأَشْنَقَ رفع رأسه، وقَشَعَت الريحُ الغيم فَأَقْشَعَ، ونزفتُ البئر فَأَنْزَفَتْ، ونَسَلْتُ ريش الطائر فأَنْسَلَ. انظر شرحي على لامية الأفعال[1].

وأجيز أن يكون أَكَبَّ للصيرورة أو للدخول، كأَلْأَمَ: صَارَ لَئِيمًا، وَأَصْبحَ: دخل في الصباح وأيمن: دخل اليمن، وكلُّ ذلك غير المطاوعة.

نعمْ، المرجع إلى معنًى واحد، فليس كما قيل: إنَّ المطاوعة الصيرورة، فإنَّ المطاوعة تقتضي تقدُّم الداعي.

---

(1) قصيدة لابن مالك الأندلسي في تصريف الأفعال، وهي من المتون المقرَّرة للتدريس في المغرب العربي. وقد طبع الشرح في سلطنة عمان مؤخَّرًا في أربعة أجزاء.

ومعنى السويِّ: مستوي الجسد لا مستوي الجهة لأنَّه لا يظهر من اللَّفظ، ولأنَّ الصراط المستقيم يغني عنه.

وقيل: المكِبُّ الأعمى، والسويُّ البصير، على الكناية أو المجاز المرسل أو الاستعارة التمثيليَّة.

وقيل: الآية على الحقيقة بأنَّ الله يبعث الكافر ماشيا على وجهه في طريق مُضِرٍّ، والمؤمن ماشيا على رجليه في طريق مستقيم، فالمراد المشي في الآخرة، فقيل لرسول الله ﷺ: كيف يمشي الكافر على وجهه؟ فقال: «**إنَّ الذي أمشاه في الدنيا على رجليه قادرٌ أن يمشيه في الآخرة على وجهه**»[1].

والمراد في ذلك كلِّه على كلِّ وجهٍ العموم، ولا ينافيه ما روي أنَّها نزلت في أبي جهل لعنه الله وحمزة رضي الله عنه، لأنَّ العبرة بعموم اللَّفظ، فهي عامَّة لكلِّ كافر وكلِّ مؤمن، وعلى أنَّها فيهما [فـ]هي على ظاهرها من الحقيقة، أو على المجاز السابق، أو الكناية.

بقي أنَّه لا هداية للكافر، فما معنى إعمال التفضيل بينه وبين المؤمن؟ فإمَّا أن يكون «أَهْدَى» خارجًا عن التفضيل، كأنَّه قيل: ألكافر مهتدٍ أم المؤمن؟ وإِمَّا أن يكون المعنى: ألكافر أشدُّ هدى في دعواه أم المؤمن في دعواه؟.

وليس من باب: «العسل أحلى من الخلِّ» ـ كما زعم بعضٌ ـ وإنَّما يكون منه لو قال: «أفمن يمشي مكبًّا على وجهه أضلُّ»، كما يقال: «الخلُّ أحمض من العسل» والمؤمن أهدى من الكافر، بمعنى: ذاك في شأنه أشدُّ من ذاك في شأنه، مثلا: حلاوة العسل أشدُّ من حموضة الخلِّ.

بقي أنَّ «أَهْدَى» بمعنى أشدُّ اهتداء لا أشدَّ هداية لغيره، فكأنَّه اسم تفضيل

(1) رواه الشيخان وغيرهما بلفظ قريب. **البخاري**: كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم: 6158. **مسلم**: كتاب صفة القيامة، باب حشر الكافر على وجهه، رقم: 7265 من حديث أنس بن مالك.

من الخماسيِّ سماعًا. و«أَمَّنْ يَّمْشِي» معطوف على «مَنْ يَّمْشِي» فهو مقدَّم على «أَهْدَى» في التقدير، فـ«أَهْدَى» خبر لهما كما تقول: أزيد أم عمرو أفضل.

﴿**قُلْ**﴾ للكفرة ﴿**هُوَ**﴾ لا غيره ﴿**الذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ**﴾ لتسمعوا الآيات وسائر الوحي، وتعملوا به، والسمع باقٍ على المعنى المصدريِّ، فلذلك أُفرد، أي: خلق السمع في آذانكم. ﴿**وَالَابْصَارَ**﴾ لتعتبروا بها في مخلوقات الله تعالى. ﴿**وَالَافْئِدَةَ**﴾ القلوب لتتفكَّروا بها فيما أبصرتم، وفيما سمعتم.

﴿**قَلِيلاً**﴾ شكرًا قليلاً أو زمانًا قليلاً ﴿**مَّا تَشْكُرُونَ**﴾ «مَا» صلة لتأكيد القلَّة، والخطاب للمشركين، والقلَّة على ظاهرها، لأنَّه قد يصدر منهم الشكر وينقضونه، ولا ينتفعون به، أو القلَّة النفي، فَمَا يصدر منهم من صورة الشكر غير شكر لشركهم. والجملة مستأنفة لا حال مقدَّرة، لأنَّهم حال الخلق غير ناوين الشكر بعدُ، فليس كما قيل: إنَّ الحالية أفضل.

﴿**قُلْ هُوَ**﴾ لا غيره ﴿**الذِي ذَرَأَكُمْ**﴾ خلقكم وكثَّركم ﴿**فِي الَارْضِ**﴾ لتعبدوه. ﴿**وَإِلَيْهِ**﴾ لا إلى غيره ولا مع غيره ﴿**تُحْشَرُونَ**﴾ يجمعكم الله بالبعث للجزاء، كما قدر على خلقكم أوَّل مرَّة فاستعدُّوا لذلك.

﴿**وَيَقُولُونَ**﴾ لتكذيبهم وشدَّة عُتوِّهم. ﴿**مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ**﴾ أي: الموعود، وهو الحشر، في أيِّ وقت يثبت؟ أَبَعْد عام أو عامين أو أكثر أو أقلَّ؟ نموت ونبعث في تاليه.

وقيل: الموعود يوم بدر، **وهو ضعيف**، وقيل: الرمي بالحصى، وقد رمى به يوم بدر ويوم أُحد، **وليس القولان بشيءٍ إذ لم نعلم حديثًا** أنَّه أعلمَهُم أنَّه سيرميهم فيقولوا: متى هذا الرمي؟.

﴿**إِن كُنتُمْ**﴾ يا محمَّد وأصحابه، إذ قالوا بقوله ﷺ. ﴿**صَادِقِينَ**﴾ في

دعواكم، وجواب الشـرط محذوف، أي: فَبَيِّنُوهُ لنا، أو أغنى عنـه «مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ» لتضمينه معنى: بيِّنوا لنا هذا الوعد.

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ﴾ به على التعيين ﴿عِندَ اللهِ﴾. ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة الأعراف: 187]. ﴿وَإِنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أُنذركم بها، وبغيرها.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾... إلخ أي: أتاهم فرأوه فلمَّا رأوه، وذلك لتحقُّق الوقوع، وكأنَّه وقع وَرَأَوْهُ، والرؤية عِلمِيَّة أو بصريَّة، وعليه فالمرئيُّ أثره وهو الأجساد المبعوثة ﴿زُلْفَةً﴾ حال، أو مفعول به ثانٍ على معنى العِلْم، أي: مُزْدَلِفًا، أي: مقتربًا أو ذا زلفة، أي: قُرْبٍ أو نفس القرب مبالغةً أو ظرف، أي: في وقت قريب، قيل: أو في مكان قريب.

وهذا القرب في ذلك كلِّه عند الله ﷻ، وأمَّا عندهم فبعد مدَّة عظيمة، أو هو عندهم قريب إذا رأوه كأَنَّ أعمارهم وما بعدها إلى ذلك الوقت لحظة، وتفسير بعضهم الزلفة بالحاضر تفسير بالمعنى، وقيل: «زُلْفَةً» حظوة، أي: حظوة للمؤمنين، أو هو بمنزلة عذاب للكافرين، كما استعملت البشارة للمؤمنين.

﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ساءت رُؤيَتُهَا وجوهَهُم، فتكون سوداء متغيِّرة ذليلة، ووضع «الذِينَ كَفَرُوا» موضع المضمر ليصفهم بالكفر الموجب لذلك السوء الذي أصابهم.

﴿وَقِيلَ﴾ قالت الملائكة، أو المؤمنون، أو الأنبياء، أو قال الله لهم توبيخًا ﴿هَذَا الذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾ تفتعلون من دعا، قلبت التاء بعد الدَّال دالاً وأدغمت فيها الدَّال، أي: تدَّعون كذب رسول الله ﷺ بسببه وهو البعث. والباء سَبَبِيَّة. أو تطلبونه أن يحضر، والباء صلة في المفعول به. وقدِّم بطريق الاعتناء به وللفاصلة.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿28﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿29﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿30﴾﴾

دعاء كفَّار مكَّة على النبيء بالهلاك والردُّ عليهم

وكان المشركون يدعون الله ﷻ أن يهلك رسول الله ﷺ والمؤمنين، ويقولون: سيهلكون، أو يذلُّهم الله تعالى، لأنَّهم فرَّقوا الألفة بين الناس، وقطعوا بما يقولون إنَّه من الله ﷻ فأنزل الله تعالى:

﴿**قُلْ**﴾ لهم ﴿**أَرَأَيْتُمْ إِنَ اَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَن مَّعِيَ**﴾ من المؤمنين قبل أن ينصرنا عليكم، والمعنى: أروني ما الحال؟ ويجوز أن يكون الإهلاك الإذلال. ﴿**أَوْ رَحِمَنَا**﴾ أحيانا ونصرنا ﴿**فَمَنْ يُّجِيرُ**﴾ يمنع ﴿**الكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ اَلِيمٍ**﴾ يصيبهم ولا بُدَّ يوم القيامة؟ فمن يجيركم من عذاب أليم؟ استفهام نفي، أي: لا مجير لكم، أي: يصيبكم عذاب الآخرة حَيينا أو متْنَا قبلكم، ووضع «الْكَافِرِينَ» موضع المضمر ليذكُرهم بالكفر الموجب للهلاك.

أو المراد: الكافرون على العموم، فيدخل هؤلاء بالأولى لا مجير لكم من النَّار، بخلافنا فإنَّ الله يجيرنا بإيماننا وينعمنا في الجنَّة، فآمنوا تكونوا مثلنا، وفي تمنِّيهم موت النبيء والمؤمنين التمنِّي لأعدائهم بدخول الجنَّة ووصول الخير.

[قلت:] وهذا أولى من أن يُقال: إن أهلكني الله ومن معي من المؤمنين بالموت ونحن نرشدكم فمن يرشدكم؟ فلا بدَّ من أن تعذَّبوا في النار

لضلالكم، وإن رحمنا بالنَّصر وقَتَلْنَاكُم فما لكـــم إلَّا النَّار، لأنَّ المقتول على أيدينا من أهل النَّار. وأوْلى من أن يُقال: إن أهلكنا في الآخرة مع إيماننا فأنتم أحقُّ بالإهلاك لكفركم.

﴿قُلْ﴾ لهم مجيبًا عن تمنِّيهم ما لا ينفعهم بل يضرُّهم ﴿هُوَ﴾ أي: الشأن، خبره جملـــة المبتدأ، أو الخبر من قولـــه: ﴿الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِـــهِ﴾ أو الضمير لله و«الرَّحْمَنُ» خبره، و«ءَامَنَّا بِهِ» خبر ثانٍ، فيرحمنا بإيماننا به، وليس غير راحم فيضيع إيماننا، فهو يرحمنا به كما يهلككم بكفركم.

﴿وَعَلَيْهِ﴾ لا علـــى العدد والعُدَّة ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ فينصرنـــا في الدنيا والآخرة، وأنتم توكَّلتم على عددكم وعدَّتكم فيخذلكم فيهما ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ في الآخرة وعند الموت ﴿مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ من ضلَّ في حياته.

﴿قُلَ اَرَأَيْتُمُۥٓ إِنَ اَصْبَحَ مَآؤُكُمْ﴾ مطلق مياههم لا خصوص ماء زمزم وبئر ميمون الحضرمـــي، كما قيل عن الكلبي بأنَّهما ســـبب النزول، بل عليه نقول أيضا: ســـبب النزول لا يخصِّص الحكم. ﴿غَوْرًا﴾ ذاهبًا في الأرض تنشـــفه، وهو مصدر أخبر به مبالغةً، أو يقـــدَّر: ذا غَوْرٍ أو غائرًا. ﴿فَمَـــنْ يَّاتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾؟ مبصرًا بالعين جارٍ، والميم زائدة.

[صرف] ووزنه في الأصل مفعول، مِنْ عَانَه: أبصره بعينه، وأصله: معيون فحذفـــت الضمَّة لثقلها على الياء، فالْتقى ســـاكنان حـــذف الثاني وهو الواو، وكسرت العين لتبقى الياء، أو الميم أصل والزائد الياء من مَعَنَ الشيء ظهر.

ويروى أنَّه سمع الآية رجل فقال: يأتي به الفُؤُوسُ، فأصبح عين مائه غائرًا.

[تسبيحة] بسم الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلَّا الله، بسم الله ما شاء الله لا يسوق الخير إلَّا الله، بسم الله ما شاء الله لا يأتي بالحسنات إلَّا الله، بسم الله ما شـــاء الله ما كان من نعمة فمن الله، بسم الله ما شـــاء الله لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم، ولا إله إلَّا الله.

وكان ﷺ إذا قرأ ﴿بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ قال: «**يأتي به ربُّ العالمين**»(1)، ومن قال: إنَّ النبــيء ﷺ زاد في القرآن أو قال: لا تجوز الصلاة عليه إذا ســمعه تالٍ من تالٍ فقد أشرك(2)، وتكون بصوت دون صوت القرآن.

وفي الأثر: بلغنا أنَّــه ﷺ طلع درجات منبره وهنَّ ثــلاث درجات، فأوَّل درجــة طلعها قال: «**آميــن**»، فطلع الثانية فقــال: «**آمين**»، فطلــع الثالثة فقال: «**آمين**»، وَلَمَّا انصــرف قيل له: يا رســول الله، حدِّثنا على مــاذا أمَّنْت ثلاث مرَّات؟ فقال: «**سمعت الملائكة يتكلَّمون في السماء يقولون: من ذكرت عنده يا محمَّد ولم يصلِّ عليك فجزاؤه جهنَّم، فقلت: آمين، ومن أدرك أحد والديه أو كليهما ولم يدخل به الجنَّة فجزاؤه جهنَّم، فقلت: آمين، ومن أدرك رمضان ولم يدخل به الجنَّة فجــزاؤه جهنَّم، فقلت: آمين، ولدعائهــم أمَّنتُ ثلاثًا**»(3). وفي رواية: «خيَّرَهُ الله».

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



---

(1) لم نقف على تخريجه.

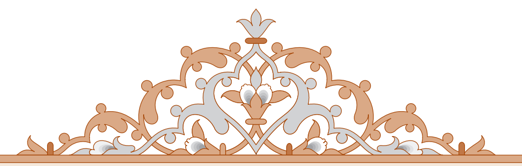
(2) الحكم بالشــرك على الأوَّل ـ وهو من قال: إن النبــيء ﷺ زاد في القــرآن ـ حكمٌ معقول ومقبول شــرعًا؛ لأنه رَدَّ نصًّا قطعيًّــا: ﴿إِنَّا نَحْــنُ نَزَّلْنَا الذِّكْــرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (ســورة الحجر: 9). وأمَّا الحكم بالشــرك على الثاني فلا يسوغ؛ لأنَّ المســألة اجتهاديَّة، باعتبار أنَّه منشغل بالتلاوة ولا يقطعها. (المراجع).

(3) تقدَّم تخريجه. انظر: ج 11، ص 357.

68

تفسير سورة القلم

مكِّيَّة إلَّا الآيات 17 ـ 33 و 48 ـ 50 فمدنيَّة، وآياتها 52 ـ نزلت بعد سورة العلق



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ نٓ ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿1﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿2﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿3﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿4﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿5﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿6﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿7﴾﴾

كمال الدين والخلق عند النبيء ﷺ

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نٌّ﴾ اسم لهذه السورة ثلاثيٌّ، كتب منه حرف واحد، وهو الحرف الأخير منه، لأنَّه صورته في الخطِّ وأسقطت النُّون الأولى والواو بعدها، أو هو النُّون الأولى، لأنَّ الأوَّل أولى بالثبوت والأواخر أولى بالتغيير، أي هذه نون، أي: سورة تسمَّى في اللَّوح المحفوظ نونًا، أو هو الحوت، كقوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ﴾ [سورة الأنبياء: 87]، وهو حوت يسمَّى: البَهْمُوت (بفتح الموحَّدة وإسكان الهاء)، وقيل: ليوتا، وقيل: ليوثيا. وعن عليٍّ: «بلهوت» [...][1].

(1) في نسخة (أ) و(د) أساطير أوردها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ عن كعب الأحبار. ينظر: ج 6، ص 298 ـ 299. ط. حجرية.

وقيل [النون] الدواة، وهو ضعيف غير راسخ في العربيَّة، وإن صحَّ في لغة فهي ضعيفة. وقوله:

إذا ما الشوق برَّح بي إليهم ألقت النون بالدمع السَّجوم

أظنُّه مصنوعًا. ويقال: هو نهر في الجنَّة.

وقيل: نون الرَّحمن فرِّقت حروفه [في أوائل بعض السور] في ﴿الر﴾، ﴿حم﴾، ﴿ن﴾، وقيل: مفتاح ناصر ونصير، وقيل: تنبيه عن أنَّه يوحى إليه الآن كلام، وإن جعل قَسَمًا فالواو بعدها عاطفة، أو غير قسم فالواو حرف قسم، كذا قيل.

[قلت:] وفيه أنَّها إذا جعل قسمًا والواو عاطفة لزم دخول حرف قسم عليه حتَّى يكون مجرورًا عطف عليه مجرور، وأين الجرُّ في نون؟ وأيُّ اسم في العَرَبِيَّة معرب صحيح الأخير مُسَكَّن وصلا ووقفًا؟ ولا يعرف ذلك في قراءة من القراءات.

[قراءات] والحقُّ عندي إدغام النُّون في الواو بغنَّة، ولم تكتب شدَّة الواو لئلَّا يتوهَّم الإدغام الصريح، بخلاف ما إذا ضبط النون قبلها بوقفة فوقفتها دليل الغنَّة.

﴿**وَالْقَلَمِ**﴾ جنس الأقلام الكاتبين من الجنِّ والإنس والملائكة وقلم اللوح المحفوظ، أقسم الله تعالى به لكثرة منافع الكتابة، إذْ كُتِبَتْ كُتُبُ الله تعالى وسائر وحيه بالقلم، وما نزل مكتوبًا كتبه النَّاس أيضًا، ويكتب به العلوم وسائر المنافع، وشمل أقلام الكرام الكاتبين.

وعظم شأن القلم في اللَّوح المحفوظ، وهو أوَّل مخلوق بعد روح نبيئنا ﷺ ونوره[1]. ولا آلة أنفعُ من القلم. و«ال» للجنس. وقيل: المراد أقلام الكرام

(1) الله أعلم بصحَّة هذا، وهو من الأمور الغيبيَّة.

الكاتبين. وقيل: للعهد، وهو قلم اللَّوح المحفوظ، وعن معاوية بن قرَّة مرفوعًا: «**نون لوحٌ من نور، والقلمُ قلم من نور يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة**»[1].

والسكون للوقف الجاري مجرى الوصل.

﴿**وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾ الواو للكاتبين المدلول عليهم بالقلم، و«مَا» اسم، أي: يسطرونه، أو حرف مصدر، أي: وسطرهم. ولله أن يقسم بما شاء من خلقه، وهو مطلق المكتوب أو الكتابة من حيث إنَّها صنعة خلقها، أو مصنوع خلقه، فله أن يقسم بأجسام الكافرين من حيث إنَّها مخلوقات له، وخلقه فعل عظيم.

وقيل: الواو ضمير القلم المراد به قلم اللَّوح المحفوظ، عبَّر عنه بضمير جماعة الذكور تعظيمًا له.

[نحو] ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ الباء الأولى متعلِّقة بمحذوف حال مِنْ المستتر في «مَجْنُونٍ»، لأنَّه اسم مفعول يتحمَّل الضمير، وهي للملابسة، والباء الداخلة على «مَجْنُونٍ» صلة في خبر «مَا» لتأكيد النَّفي، لا تمنع من تقدُّم الحال، وهي حال لازمة، فلا يُقال: يوهم أنَّه يصيبه الجنون، إذَا لم يلتبس بنعمة ربِّه، أو تُعَلَّق هذه الباء الأولى بـ«مَا» لتضمُّنه معنى: انتفى، أي: انتفى بنعمة ربِّك عنك الجنون.

وليس المراد بالجنون الجنون حال حدوثه، فإنَّ الجنون مستمرٌّ منفيٌّ عنه، ويجوز أن تكون الباء الأولى هذه للقسم، وجملة «ما أنت بمجنون» في نيَّة التقديم مغنية عن جوابه.

والآية ردٌّ لقولهم: ﴿يَآ أَيُّهَا الذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [سورة الحجر: 6]، ومثل ذلك. وقيل: المعنى ما أنت مجنونا والنعمة لله، كما

---

(1) أورده **السيوطي** في الدر. وقال: أخرجه ابن جرير.

تقول: ما كان كذا والحمد لله، فـ«بِنِعْمَتِهِ» خبر لمحذوف، أي: ذلك بنعمة ربِّك، أي: انتفاء الجنون ثابت بنعمة ربِّك.

﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ على رميهم لك بالجنون والكذب والسحر، وما لا تتَّصف به، وسائر مضارِّهم لك، وعلى التبليغ لهم ﴿لَأَجْرًا﴾ ثوابًا عظيمًا في الآخرة ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع، فهو دائم، أو غير مذكور لك من جهتنا على طريق احتقارك لأجله، والتغلُّب عليك به، لأنَّ الله أكرم الأكرمين لا يشحُّ ولا يبخل، ولا سيَما أنَّه أعطاه لمن أحبَّه، ولا من جهة غيرنا، لأنَّه ليس العطاء من غيرنا.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ العطف في الموضعين على جواب القسم، أو الواو للحال، والمعنى: لا توصف بالجنون، والحال أَنَّ لك لأجْرًا، وأَنَّك لَعَلَى خُلقٍ عظيمٍ، فوق خلق أهل العزم وغيرهم من أولياء الله.

[سيرة] لا يترك شيئًا من العبادات ومكارم الأخلاق، ولا يقرب شيئًا ممَّا يحرم في الشرع أو يكره أو لا ينبغي، ومن كان كذلك فبعيد عن الجنون، وعن مبادئه وعن كلِّ شيء يشينه.

وقد قيل: إنَّ المراد خُلقُ الله تعالى، حاشاه عن صفات الخلق، بمعنى: إنَّ الله كريم، فهو ﷺ يحبُّ الكرم ويتعاطاه، وعفوٌّ فهو يحبُّ العفو ويعفو، وعالم فهو يكتسب العلم، وجوَاد فهو يجود، وغير ذلك من الصفات التي تمكن في المخلوق، إلَّا أنَّ معانيها في شأن الله مغايرة لمعانيها في شأن الخلق، لأنَّه سبحانه وتعالى لا يشبهه الخلق ولا يشاركه، وهو ﷺ يرضى برضا الله، ويسخط بسخطه.

وعن أبي الدرداء: «يرضى لرضا القرآن، ويسخط لسخطه، فذلك خلقه العظيم»(1)، وفيه ﷺ ما في القرآن من المحاسن، والتبرُّؤ ممَّا تبرَّأ منه القرآن.

---

(1) رواه **البيهقي** في شعب الإيمان، الكتاب الرابع عشر من شعب الإيمان، وهو باب في حبِّ النبيء ﷺ، باب: فصل في خلق الرسول ﷺ وخلقه، رقم: 1428. من حديث عائشة.

قال سعد بن هشام: قلت لعائشة: ما خُلُقُ رســـول الله ﷺ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: «فإنَّ خلقه القرآن»[1].

[سيرة] يُــؤَدِّي الفرائض كلَّها، ويتــرك المعاصي كلَّهــا، والمكروهات ومســاوئ الأخلاق كلَّها، ويفعل مكارم الأخلاق كلَّها، ويحســن إلى الخلق كلِّهم ويتحبَّــب إليهم، القريب والبعيد، والعدوِّ والصديق، ولا ينتقم لنفســه. جبذه أعرابيٌّ جبذة أثَّرت في عاتقــه بثوب عليه غليظ، وقال: أعطني يا محمَّد من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه مبتسمًا فأمر له بعطاء.

[سيرة] ولا يُخيَّر إلَّا اختار ما هو أيســر، إلَّا الإثْمَ فهو أبعد الخلق عنه، ولا ينزع كفَّه حتَّى ينزع مصافحُهُ، ولا يصرف وجهه حتَّى يصرف عنه، وقال: «**بعثني الله تعالى لتمام مكارم الأخلاق، وتمام محاسن الأفعال**»[2]، وقال ﷺ: «**يدرك المؤمن بحسن الخلق درجة الصائم القائم**»[3]، وقال: «**لا شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق**»[4]، وقال: «**إنَّ من أحبِّكم إلى الله تعالى وأقربكم منِّي مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا**»[5].

---

(1) رواه **أحمد** في مسنده، كتاب عائشة. باب حديث عائشة، رقم: 24080. و**البخاري** في الأدب المفرد، باب من دعا الله أن يحسِّن خلقه، رقم: 311. من حديث عائشة.

(2) أورده الشيخ بالمعنى مع زيادة، ولفظ الحديث: «إنَّما بعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق».

(3) رواه **الحاكم** في «مستدركه» كتاب تواريخ المتقدِّمين من الأنبياء والمرسلين باب ومن كتاب آيات رسول الله ﷺ... رقم: 4221. و**البيهقي** في «السنن» كتاب الشهادات. باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها... رقم: 21379. من حديث أبي هريرة.

(4) رواه **أبو داود** في كتاب الأدب. (39)باب في حسن الخلق، رقم: 4799 و**أحمد** في «مسنده» كتاب بقية حديث أبي الدرداء، رقم: 26971. من حديث أبي الدرداء.

(5) رواه **الترمذي** في كتــاب البرِّ والصلة، بــاب ما جاء في معالي الأخــلاق، رقم: 2018. من حديث جابر. كمــا روى **البخاري** الشــطر الأوَّل منه في كتاب الأدب. باب حســن الخلق والسخاء وما يكره من البخل... رقم: 5688. من حديث ابن عمرو.

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ في أيِّكم المفتون عن الصواب، في أيِّ فريق، أفي فريق الذي هو النبيء والمؤمنون؟ أو في فريق المشركين؟ وذلك أنَّهم يزعمون أنَّ النبيء ﷺ مفتون عن الحقِّ، واتَّبعَهُ المؤمنون، وهو فيهم.

والكفَّار مفتونون تحقيقًا عنه لا واحدٌ فقط، لكن جعل فيهم التبعيض للمشاكلة، أو يجعل فيهم المفتون على سبيل البدليَّة، كلُّ واحد تجده على حدة مفتونًا، وهو في جملتهم، أو يعتبر أكبرهم عنادًا فهو المفتون فيهم، كأبي جهل والوليد بن المغيرة وأتباعه.

[نحو] والباء بمعنى «في» كما قرأ ابن عبلة: «فِي أيِّكُمْ»، ولا تجوز زيادة الباء في المبتدأ، فلا يقال: «أيِّكم» مبتدأ، وإنَّما ذلك في: «بحسبك درهم».

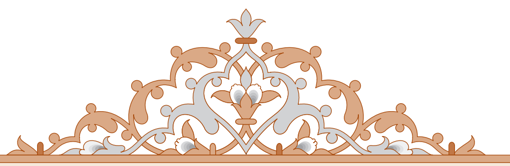
وقيل: المفتون المجنون ونسب لابن عبَّاس وسعيد بن جبير ومجاهد، وقيل: المفتون بمعنى المصدر، أي: الفتنة، أي: الجنون، كما روي عن الحسن، والباء بمعنى في أو مع، والمعنى: في أيِّكم من يستحقُّ هذا الاسم لخطإ هو عمله في غير معمل.

وأشبه المجنون في أنَّه لا يفرِّق بين الضُرِّ والنفع، بل يؤْثر الضُرَّ ويحسبه نفعًا، وذلك تعريض بأبي جهل ونحوه.

والجملة مفعول لـ«تُبْصِرُ» أو لـ«يُبْصِرُ» معلَّقًا بالاستفهام، ويقدَّر مثله للآخر لا على التنازع، إذ لا يصحُّ هنا الإضمار للمهمل.

والإبصار بمعنى العلم، وذلك تهديد بعذاب الآخرة، وقيل: بغلبة الإسلام على الكفر، حتَّى يقتلوا ويسلبوا، وقيل: بعذاب يوم بدر.

وأكَّدَ ما ذَكَرَ من الوعد والوعيد بقوله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ هو يجزي كُلًّا بما يستحقُّه. الضالُّ هو كالمجنون، إذْ لم ينتفع بعقله، والمهتدي العاقل الذي عمل بعقله في اتِّباعه دين الله ﷻ.



﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾

الأخلاق الذميمة عند الكفَّار

﴿**فَلَا تُطِعِ**﴾ يا محمَّد ﴿**الْمُكَذِّبِينَ**﴾ الفاء تفريع على الوعيد الذي تضمَّنته الآية قبلها، أو يقـدَّر: إذا تقرَّر في عقلك ما ذكر من أوَّل السورة إلى هنا فلا تطع المكذِّبين، وهو لم يطعهم ولا يطيعهم، وهو بعيد عن ذلك، ولكنَّ اللهَ ألهَبَه وهَيَّجَهُ بأن قال لـه: دُمْ على مخالفتهم لتكذيبهـم، وكلُّ مكذِّبٍ للحقِّ تجب مخالفته.

أو المراد النهي عن ملاينتهم ومداراتهم، مع أنَّه لا يلاينهم إلَّا استحبابًا إلى الدين، وسمَّى الملاينة طاعة لهم كطاعة الله تعالى، أو بمعنى الإذعان لهم تنفيرًا عنها، ولأنَّه العمدة في الدين، فلا يليق تغيير خلاصة الدين به على وجه مَّا، ويناسب هذا قوله تعالى:

﴿**وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ**﴾ أحبُّوا وتمنَّوا إدهانـك، أي: ملاينتك لهم، فكانوا لذلك يُدهنون لك ليحصـل منك الإدهان. و«لَـوْ» للتمنِّي، وهي وما بعدها تفسير لـ«وَدُّوا»، ومفعولـه محذوف، أي: وَدُّوا الإدهـان، ويجوز أن تكون مَصدَرِيَّـة، أي: ودُّوا منك إدهانًا يترتَّب عليـه إدهانهم، أو ودُّوا صدور الإدهان منك ومنهم.

وإدهانهم ملاينة مخالِفَةٌ لباطنهم، وإدهانه ملاينته لهم، ولا يحبُّون مخالفة باطنه لها، ويُقال: ودُّوا أن تعبدَ آلهتهم مع إلهك، ويعبدوا إلهك مع آلهتهم، أو تترك بعض ما يكرهون ويتركون بعض ما تكره، وطلبوا منه أن يمسح بعض آلهتهم بيده.

﴿**وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ**﴾ قيل: الوليد بن المغيرة، أو الأسود بن عبد يغوث، أو الأخنس بن شريق، أقوال يراد بها التمثيل، أو سبب النُّزول، والمعنى: كثير الحلف يعتاده في الباطل والحقِّ.

[قلت:] وكثرة الحلف تدلُّ على عدم استشعار عظمة الله ﷻ، ولذلك بدأ به هذه المناهي، وهو أصل كلِّ شرٍّ، وذلك لأنَّه لا يخلو عن حنث، فذلك تهاون به تعالى، والمتهاون به يقتحم كلَّ سوءٍ، ولا يبالي بسوء ظاهر ولا باطن في قلب ولا في جارحة، فتَحَصَّلَ من ذلك ذَمُّ كثرة الحلف ولو في الحقِّ، لما فيها من الجرأة على اسمه تعالى، ولا سيَّما أنَّهم يحلفون أيضًا بغير الله تعالى.

ورسول الله ﷺ لم يطع كلَّ حلَّافٍ ولا يطيعه، لكن المُراد التهييج على المداومة على مجانبة ذلك.

[قلت:] ومشهور العبارة إباحة أن يطيع بعض الحلَّافين الموصوفين في الآية، وليس ذلك مرادًا ولو تقدَّمت أداة السلب على أداة العموم، وقد كثر في القرآن إرادة عموم السلب ولو تقدَّمت أداته.

﴿**مَّهِينٍ**﴾ حقير ذليل لقلَّة خيره، وكثرة شرِّه وقبائحه، وتفسير ابن عبَّاس بالكذب تمثيلٌ له بالسوء لا حصر في الكذب، وقيل: قليل الرأي والتمييز، ومن شأن مهانة النَّفس على صاحبها الكذبُ.

﴿**هَمَّازٍ**﴾ طعَّانٍ في الأَعراض بلسانه، أو بعينه أو بيده. ﴿**مَّشَّآءِۢ بِنَمِيمٍ**﴾ عامل بالنميمة، وهي نقل الكلام على جهة الإفساد، وقيل: النَّميم جمع أو اسم جمع والنميمة مفرده.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ للمـــال لا يتصدَّق بفرض ولا نفل، أو الخير الإســـلام والمال، واللَّام داخلة على المفعول للتقوية، ومفعوله الآخر محذوف، أي: منَّاعٍ للخير النَّاسَ، فإنَّه يتعدَّى لاثنين ولِوَاحِدٍ، فيجوز أن تكون اللَّام بمعنى من، أي: منَّاع النَّاس من الخير، يمنع أولاده وقرابته من الإســـلام، ويقول: لا أعطيكم إن آمنتم فهو لا يفعل الخير، ويمنع منه غيره، ضالٌّ مضِلٌّ.

وإذا تعدَّى لاثنين فالأوَّل له فعل كالإنســـان والدابَّــة، فإنَّه يقال: منع النَّاس الخيـــر فامتنعوا، أو منع الدَّابـــة المرعى فامتنعت، وقس علـــى هذا كلَّ ما ليس أصله المبتدأ والخبر، وذكر الثاني هنا لأنَّ المقام له أنســـب، لأنَّه لذكر الخروج عن الخيور، ولتعميم المحذوف، فهو يشمل الدَّوابَّ، فإنَّه قاسي القلب لا يرحم الدَّوابَّ. **ويجوز أن يكون كاللَّازم بالنظر إلى الأول، كأنَّه قيل لا يفعل الخير.**

﴿مُعْتَدٍ﴾ مجاوز للحدِّ في الظُّلمِ، مُسْـــرِفٌ في الشـــرور، لا يَتَنَزَّهُ عن شرٍّ أَحبَّته نفسه. ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الآثام وهي الصغائر والكبائر. ﴿عُتُلٍّ﴾ دافع للنَّاس غليظ عليهم بشـــدَّة الخصومة بالباطـــل، أو بالضرب أو الحبـــس، وعن ابن عبَّاس: الشديد الفاتك، أي: القاتل على غفلة.

وقيل: اللَّئيم الفاحش الســـيِّئ الخلق، وقيل: الشـــديد فـــي كفره، وقيل: الأكول الشـــروب القويُّ الشـــديد، لا يزن في الميزان شـــعيرة، يدفع المَلَكُ سبعين ألفا من هؤلاء في النَّار بمرَّة.

﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ متعلِّق بمحذوف، أي: نذكر بعد ذلك قولنا زنيم، على أنَّه متَّبع لما قبله كالعلاوة للحمـــل، وخصَّه بذلك لأنَّ الزنامة قبيحـــة في العقول، ولأنَّها ليســـت من فعله، وهكذا. كما يقال: «مررتُ بزيدٍ العالِمِ» فتقول زائدًا لنعتٍ آخَر: «الشجاعِ» بالجرِّ، أو تقول: أقول: «الشجاع». ولا يتعلَّق بـ«عُتُلٍّ»؛ لأنَّ معنى تعلُّقه به أنه يفعل العتلِّيَّة بعدما فعل ما مرَّ، وليس هذا مرادًا في الآية والله أعلم.

وإن شئت فَقدِّر: ذكرت العتلِّيَّة بعد ذلك، وهذه البعديَّة كالترتيب الذكريِّ، بالفاء أو بثمَّ، ويجوز أن تكون بمعنى مع، أي: عَتَلَ مع ذلك، أو زَنَمَ مع ذلك.

﴿زَنِيمٍ﴾ ملحق بقوم ليس منهم، أو منتسب إلى غير أبيه، أو إلى غير عشيرته، وعن ابن عبَّاس: إنَّه ولد الزنى، وعنه: من يعرف بالشرِّ كما تعرف الشاة بالزنمة، وعنه: من يمرُّ على القوم فيقولون: رجل سوء، يعني يُكثر الشرَّ حتَّى عرف به. وعلى كلِّ حال هو مشبَّه بغُدَّةٍ تتدلَّى في عنق المعز، أو بفلقَةٍ من أُذُنٍ شُقَّتْ، فهي تتدلَّى، وبطرف الجلد من الأكارع.

وفي ديوان حسَّان من نسخة مجوَّدة مكتوبة بالقالب:

زنيمٌ تَداعتْه الرِّجال زيادةً ... كما زيد في عُرض الأديمِ الأَكارِعُ

[قلت:] والناشئ من نطفة الزنى يخبث غالبًا، وكذا يحمل على الغالب قوله ﷺ: «**لا يدخل الجنَّة ولد الزنى**»[1] أو أراد إنَّ فيه ما يصدُّه عن الطاعة فقد يصدُّه وقد لا يصدُّه، وليس المراد على [غير] معنى الغالب، أو إن أحسن لم يدخل الجنَّة مع السَّابقين لأنَّ فيه ما يمنعه من عمل السَّابقين.

قال ﷺ: «**لا يدخل الجنَّة عاقٌّ، ولا ولد زنية، ولا منَّان ولا مدمن خمر**»[2] بمعنى أنَّ هذه الصفات معرِّضة للموت على الإصرار، أوْ لأنْ لا يكون من السَّابقين عملاً. وقيل: المعنى ولد الزنى لا يدخل الجنَّة بعمل أبويه، بل بفضل الله، على أنَّ أطفال السُّعداء يدخلونها بعمل آبائهم، وأطفال الأشقياء بمحض فضل الله، ولا خير إلَّا بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقيل: الزنيم من يحبُّ أن يؤتى من دبره. وفي رواية: إنَّ المراد الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان دَعِيًّا في قريش ادَّعاهُ المغيرةُ بعد ثماني عشرة من

(1) رواه **ابن حبَّان** في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل الصلوات الخمس، رقم 1723، من حديث جابر بن عبد الله.

(2) رواه **أحمد** في مسند عبد الله بن عمرو، رقم 6823. ورواه **البيهقي** في شعب الإيمان، باب في برِّ الوالدين فصل في عقوق الوالدين وما جاء فيه، رقم 7875. من حديث عبد الله بن عمرو مع تقديم وتأخير.

مولده. وقيل: الحَكَم، طريدُ رسول الله ﷺ، وقيل: الأخنس بن شريق، وأصله من ثقيف وعِدَادُهُ في زهرة، وقيل: الأسود بن عبد يغوث، وقيل: أبو جهل.

ولا يخفى أنَّه ليس المراد شخصًا واحدًا لقوله تعالى: ﴿كُلَّ حَلَّافٍ...﴾ إلخ. وأقول: سبب النُّزول هؤلاء المذكورون بأشخاصهم مشارًا بهم إلى غيرهم، وهذا واردٌ في شعر امرئ القيس وغيره.

فلا يبطل ما روى الطبريُّ أنَّه لم يعرف رسول الله ﷺ مَن المُرادُ حتَّى نزلت الآية، فعرف أنَّه أحد هؤلاء، وفي عنقه زنمة، ولا يبحث بأنَّه الزنمة ليست من فعله ولا ذَمَّ فيها شرعًا لجواز ختم الكلام بما لا ذَمَّ فيه بيانًا له بعد ذمِّه، نحو: لا تجالس الفاسق الخائن الذي داره عند دار فلان.

لَمَّا وصف رسول الله ﷺ بالجنون وصفه الله تعالى بعشر أوصافٍ قبيحةٍ، كما أنَّ من صلَّى عليه وسلَّم يصلِّي الله عليه عشرًا.

﴿اَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ مقدَّر لام التعليل، معلَّقة بـ«تُطِعْ»، أي: لا تطع كلَّ حَلَّافٍ... إلخ لأَن كان ذا مال وبنين، أي: لكونه ذَا مال وبنين. وهو ﷺ بعيدٌ عن طاعة أحَدٍ لِمَالِهِ وبنيه، ولكنَّه إلهابٌ على المداومة والزيادة في البعد عن ذلك.

وَلَمَّا كان بعيدًا عن ذلك تكلَّف له بعضٌ بتعليقه بكذب محذوفًا، أي: كذب ذلك المذموم لأَنْ كانَ، أو بـ«قَالَ» ولو كان معمول الجواب لا يقدَّم على أداة الشرط، للتوسُّع في الجارِّ والمجرور والظرف، كما أجاز بعضهم التوسُّع فيها قياسًا مطلقًا قيل.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الاَوَّلِينَ﴾ هي أساطير، أشياء سَطَّروها، أي: كَتَبُوهَا وليست من الله، والجملةُ نعت آخر.

﴿سَنَسِمُهُ﴾ نجعل له سمة ﴿عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ الأنف، يوم القيامة بالنَّار، قيل: هو تعذيب على أنفه في جهنَّم، وهو قول المبرِّد، وقيل: يُوسَم يوم القيامة على أنفه بالنَّار في المحشر، يعرف أهل المحشر بها كُفرَهُ.

وقيل: الخرطوم وجْهُه يوسم بالسواد قبل دخول النَّار، تسميةً للوجه باسم بعضه، وقيل: الوسم على الخرطوم في الدنيا خطم أنفه يوم بدر بالسيف سِمَةً يبعث بها، ويبحث بأنَّ هذا واحد والآية كلِّيَّة، وبحث بأنَّ أبا جهل قتل يوم بدر، والباقين ماتوا قبل بدر إلَّا الحكم ولم يُسم هو ولا هم.

وقيل: الوسم في الدنيا بالإهانة والإذلال بحيث يكون كالوسم على الأنف، فهو يتلى ذَمُّهُ أبَدًا في القرآن في حياته وبعدها.

وفي تسمية أنفه خرطومًا إهانة لاشتهار الخرطوم في أنف الخنزير والفيل، وكأنَّه خنزير، فإمَّا أنَّه شبِّه بأحدهما وسمِّي باسمه ورمز إليه بذكر لازمه، وإمَّا أنَّه سمِّي المطلق بالمقيَّد، ولا يصحُّ أن يكون سمَّى أنفه بالخرطوم للشَّبه، لأنَّ أنفه لم تشبه أنف الخنزير، وصحَّ هذا في الآخرة بأن يبعث وأنفه كأنف أحدهما.

واختير الأنفُ لأنَّه عضو يذكر بالعِزِّ وكذا الوَجْهُ فإذا وُسم فيه فذلك غاية في الهوان، وقد لعن رسول الله ﷺ من كوى دابَّة في وجهها[1]، فكيف في أكرم موضع منه وهو الأنف؟ وممَّا يقال: الجمال في الأنف. قال بعض النَّاس:

وحسن الفتى في الوجه والوجه عاطل   فكيف إذا ما الخال كان له حليا[2]

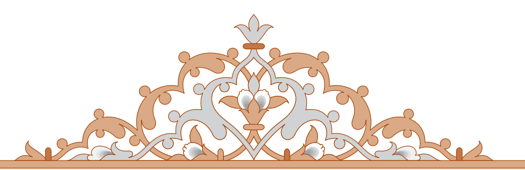
واشتقَّ منه الأنفة في التعزُّز، ويُقال: فلان شامخ الأنف، ويُقال: حمى أنفه، وفي الذَّمِّ: جذع أنفه ورغم أنفه.

وقال النضر بن شميل: المعنى: سنحُدُّه على الخمر، أي: على شربها، ويبحث بأنَّ هؤلاء الكفرة ماتوا قبل تحريم الخمر، إلَّا الحكم فبعده، ولم يحد عليها، ولا يعاقبون عليها في الآخرة إذ ماتوا قبل تحريمها.

---

(1) رواه **البيهقي** في الكبرى، كتاب قسم الصدقات، باب ما جاء في موضع الوسم، رقم: 13038، من حديث جابر.

(2) لم نقف على قائل هذا البيت.



﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿17﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿18﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿19﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿20﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿21﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿22﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿23﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿24﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿25﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿26﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿27﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿28﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿29﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿30﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿31﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿32﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿33﴾﴾

قصَّة أصحاب الجنَّة وعاقبة الغرور

﴿**إِنَّا بَلَوْنَهُمْ**﴾ أهل مكَّة بقحط سبع سنين ﴿**كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ**﴾ وهم موحِّدون عند الجمهور، وعن الحسن أنَّهم مشركون [وهذا بعيد].

[نحو] وكَمَا تتعلَّق حروف الجرِّ غير الزائدة وغير ما يشبه الزائد تتعلَّق الكاف على الصحيح، فتتعلَّق بالفعل قبلها هنا، ولو قلت: فعلت كفعل زيد لعلّقت الكاف بالفعل قبلها، و«مَا» مَصدَرِيَّة، أي: بلوناهم كبلاء أصحاب الجنَّة، فلا حاجة إلى جعلها اسمًا مفعولاً مطلقًا، أي: بلوناهم مثل بلائنا أصحاب الجنَّة، ولا إلى جعل «مَا» اسمًا، أي: كالبلاء الذي بلوناه أصحاب الجنَّة، أو بلاء كبلاء بلوناه أصحاب الجنَّة.

[قصص] قيل: والجنَّة في أرض اليمن قريبًا من صنعاء بينهما ستَّة أميال، تسمَّى تلك الأرض صوران، وكانت لرجل مؤمن من الحبشة يخرج منها حقَّ الله ﷻ، ويُطعم منها المساكين، ومات فقال بنوه: إن كان أبونا لأحمق، يطعم المساكين، وأقسموا لا يعطون منها مِسْكِينًا، وبه قال ابن عبَّاس.

وقيل: كانت لشيخ من بني إسرائيل يمسك قوت سنةٍ ويتصدَّق بالباقي، وتقول بنوه: لا تتصدَّق، وَلَمَّا مات أقسموا لا يعطون منها مسكينًا[1].

وقيل: كانت لرجل صالحٍ على فرسخين من صنعاء في اليمن، يترك للمساكين ما أخطأه المنجل، وما في أسفل الأكداس، وما أخطأه القطاف من العنب، وما بقي على البساط تحت النخلة إذا صرمت، وما يَنْتَثِرُ إذا داسوا، فكان يجتمع لهم كثير من ذلك، وكأنَّها كبيرة جِدًّا تثمر كثيرًا، أو المساكين الطالبون لذلك قليل، وقال بنوه بعده: هذا المال قليل والله لا نُعطي مسكينًا، نحن كثيرون ذوو عيال فبَكَّروا إلى صرمها خفية.

﴿إِذْ﴾ متعلِّق بِـ«بَلَا» الثاني. ﴿اَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ يقطعُنَّ ثمارها ﴿مُصْبِحِينَ﴾ وقت الدخول في الصباح، وهذا ذكر لحاصل كلامهم، ولو روعي لفظهم لقيل: لنصرمنَّها بالنون، تقول: حلف الزيدون إنَّهم لا يقومون، أو حلف الزيدون إنَّا لا نقوم، فإنَّ لفظهم: والله لا نقوم (بالنُّون)، وتقول: حلف زيد لا يقوم عمْرو، أوْ حلف لا تقوم (بالخطاب)، والخطابُ: لفظه حال الحلف، ولو حلف على الغيبة لقيل: حلف لا يقوم عمرو.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ ويقال: أوسطهم أراد الاستثناء وأمرهم به، ولم يطيعوه فتبعهم، فهو لم يستثن كما لم يستثنوا، لا يخرجون منها شيئا للمساكين، كما كان أبوهم يفعل، هذا ما ظهر لي وهو الحقُّ إن شاء الله.

(1) ضرب الله مثلًا للمشركين بحال أصحاب هذه الجنَّة لعلَّهم يستفيقون من غفلتهم وغرورهم بالمال والبنين.

وقيل: لا يرجعون عمَّا قالوا من عدم إعطاء المساكين، وفيه أنَّه لا دليل في الآية على هذا، بل ظاهرها على هذا: لا يرجعون عن صرمها مصبحين، ولو كان قد يلمح من الإصباح الإخفاءُ أو الاختلاسُ عنِ الطلَّاب ـ إلَّا بما بعدُ من قوله ﴿يَتَخَافَتُونَ...﴾ إلخ ـ بخلاف قولنا: ولا يخرجون منها حصَّة فإنَّه ظاهر المعنى مقبول، ولو كان لم يذكر لمن الحصَّة.

وقيل: المعنى لا يقولون: إن شاء الله، وفيه أنَّه إفراط عظيم في القسم، ولفظ الثني صالح لذلك كلِّه، كما تقول: ما قام القوم إلَّا زيد، فكما خرج زيد عن القوم كذلك خرج ما لم يشأ الله، وخرج الرجوع عن الشيء بعد القول به.

[نحو] والجملة معطوفة على «لَيَصْرِمُنَّهَا»، فقد انسحب عليها القسم السابق إلَّا أنَّها لم تؤكَّد بالنون، وكأنَّهم استغنوا عن توكيده باحتيالهم بتعجيل الصرم، وقوَّتهم في الاختلاس، أو على «مُصْبِحِينَ» فهي حال بالعطف، وهذا يغني عن جعل الواو للحال من فاعل «يَصْرِمُ»، والمضارع على حاله، لأنَّهم حين الحلف يقولون: لا نستثني، نعم إن عطفناه على «أَقْسَمُوا» فالمضارع لاستحضار الحالة الماضية كأنَّها مشاهدة لغرابتها.

﴿**فَطَافَ**﴾ أحاط بسبب إقسامهم ﴿**عَلَيْهَا**﴾ على الجنَّة ﴿**طَآئِفٌ**﴾ بلاء طائف، أو أمر طائف، لأنَّ إهلاك جنَّتهم عذاب لقلوبهم.

[قصص] فعن ابن جريح: شهاب مستطيل من النَّار خرج إليها من واديها، وقيل: من السماء. وقيل: المراد طاف عليها ملك طائف، وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، [قيل:] اقتلعها وطاف بها حول البلد ووضعها قرب مكَّة عند الطائف، الذي هو بلدة، ولا يوجد في الحجاز مثلها ماء وشجرًا وعنبًا وثمارًا، وسمِّيت البلدة باسم ما طاف على تلك الجنَّة، **وذلك ضعيف.**

﴿**مِّن رَّبِّكَ**﴾ مرسل من ربِّك، أو ثابت من ربِّك بلا توسُّط مخلوقٍ فيها، وتحقيق هذا والجري على ظاهره، وهو أولى أن يكون الطائف إحراقًا بنار بلا

توسُّــط ملك، أو إذْبالها وإزالة نضرتها، أو إفْناؤها أو نقلها، ولو كان ما جرى على يد جبريل آتيًا من الله، وأنَّه هو ملك الخســف والصعق والأسواء، **اللَّهمَّ بك ننجو من الأسواء دنيًا وأخرى.**

﴿**وَهُــمْ نَآئِمُونَ**﴾ ليلاً، وهــو وقت الاســتغراق في النوم. وعــن الفرَّاء تخصيص الطائف بالأمر الذي يأتي ليلاً.

[بلاغة] وقيل: «نَائِمُونَ» استعارة تبعيَّة للغافلين غفلة تامَّة، والأوَّل أصحُّ، كما يناســبه قوله: ﴿مُصْبِحِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿**فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ**﴾ إلَّا أن يُقال «مُصْبِحِينَ» ترشــيح للاســتعارة لتبادر أنَّ الإصباح عن النَّوم في اللَّيل، ومعنــى ﴿كَالصَّرِيمِ﴾ كالبســتان الــذي صرمــت ثمــاره، أي: قطعت، أي: كالمصروم، فعيل بمعنى مفعول. وظاهر هذا أنَّها بقيت في مكانها على حالها إلَّا أنَّها أتلف الله عَجَّلَ ثمارها، فأشــبهت في عدم وجود الثمار البســتانَ الذي قَطَعَ صاحبُه مثلا ثمــارَه، أو المراد أنَّها صرمت ثمارها وخشــبها كما يصرم الثمار ويبقى ذلك، أو شبَّه إزالتها أو نقلها بالصَّرم للثمار فقط.

[لغة] وعن ابن عبَّاس: كالرماد الأسود لغة خزيمة، وعنه: الصريم أرض باليمن ذات رمل لا تنبت شيئًا، وقيل: الصريم قطعة من الرمل مستطيلة خرجت من معظم الرمل لا تنبت البتَّــة، أو تنبت ما لا ينفع. وقــال الفرَّاء: الصريــم اللَّيل، احترقت واســودَّت كاللَّيل. وقيل: كالصُّبح في البيــاض لزوال خضرتها كمــا يبيضُّ الزرع المحصود، فالصَّريم يطلق على اللَّيل والنَّهار، لأنَّ كلَّ واحد ينصرم عن الآخر.

[لغة] والآن ســئلت عن الأصف وليس من تفسير الآية، ويُقال: اللَّصف. وقال أبو عمرو بــن العلاء: الأصــف الكَبَر، وأمَّا الذي ينبــت في أصله مثل الخيار فهو اللَّصف، وهو في حديث ذكرته في «تحفةِ الحِبِّ»[1]. وذكر بعض

(1) كِتَاب تحفة الحِبِّ في أصل الطبِّ، من مُؤَلَّفات الشــيخ رَحِمَهُ اللهُ، نشرته وزارة التراث القومي والثقافة، عُمان، 1405هـ/1985م.

أنَّ اللَّصف ثمرة حشيشــه لها عصارة يصطبغ بها، وهو يمرئ الطعام، ويسمِّيه أهل العراق الكَبَر، يعظم شجره ويتَّسع، ومنْبَتُه القيعان وأسافل الجبال، أو هو أذن الأرنب ورقه كورَقِ لســانِ الجمل، وأدقُّ وأحسن، زهرُهُ أزرق فيه بياض، وله أصل ذو شعَب إذا قُلع وحُكَّ الوجه به حَمَّره وحسَّنه، والصحيح أنَّه شيء ينبت في أصول الكَبَر، وأمَّا ثمر الكَبَر فهو الشَّفْلَحُ، قال الجوهري: وهو أيضًا جنس من التمر.

﴿فَتَنَادَوْا﴾ نادى بعض بعضًا بسبب إقْســامِهم ﴿مُصْبِحِينَ أَنُ اغْدُوا﴾ اخرجوا، وعُدِّي بـ«عَلَى» لتضمُّن معنى: أقبــل، أو «عَلَى» بمعنى إلى، أو هو من غــدا يَغْدُو عليهــم إذا أغار، يجِــدُّون في الصَّرم كمــا يجدُّونَ في الإغارة، وعليه يكون الكلام اســتعارة تمثيلية، و«أَنْ» مفسِّرة، وأنا أعجب ممَّن يصحِّح جواز أن المَصدَرِيَّة داخلة على الأمر ونحوه من الإنشاء فيقدِّرُ هنا: بأن اغدوا.

﴿عَلَى حَرْثِكُــمُۥٓ﴾ أي: مَحروثكم، أي: بســتانكم، فإمَّا تســمية للنخل والشــجر حرثًا مجازًا، وإمَّا أن يكون في جنَّتهم حرث فذكروه وحده، اهتمامًا به أكثر من اهتمامهم بالنخل والشــجر، بل يطلق الشجر أيضًا على النخل، أو يقدَّر: على حرثكم وشجركم، وإمَّا التسمية للْكلِّ باسم الجزء.

﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِيــنَ﴾ مُريدين للصَّرم، أي: قطع الثمــار، حرَّكوا إرادتهم لزيادة التنشيط، وقيل: المراد: إن كنتم جازمين قاطعين برأي الصَّرم.

﴿فَانطَلَقُــواْ وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ يتكلَّمون بإسْــرار في شــان الصَّرم. و«أَنْ» حرف تفسير كما مَرَّ، ويدلُّ له قراءة إسـقاطها: «فتنادوا مصبحين اغدوا على حرثكم»، لا حرف مصدر كما زعموا، والجملة بعد إسـقاطها نفس ما تنادوا به، فذلك عين التفسير.

وكذا في قوله: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ للأخذ منها، كما كان المساكين يدخلونها للأخذ في زمان أبينا. و«لَا» ناهية للمسكين مطلقًا أن يدخُلَها، أو المراد نهيُ بعض بعضًا من تمكين المسكين من دخولها.

[لغة] ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ على غيظٍ وغضب، ممَّا يفعل أبُوهم، كما يدلُّ له قراءة فتح الرَّاء، أو على منع المساكين من الأخذ، يُقال: حردت الإبلُ إذا منعت ألبَانَهَا، أي: قلَّتْ، والسَّنَةُ: قَلَّ مطرها وخصبها، أو المعنى: على انفراد عن المساكين، يُقال: حرد عن كذا، أي: انْفَرَدَ عنه.

[نحو] وهو متعلِّق بـ«غَدَوْا»، أو بمحذوف حال من الواو، كأنَّهم ركبوا الحَرَدَ، وهو مركب لا يوصلهم إلى خيرٍ مَّا.

أَوْ بقوله: ﴿قَادِرِينَ﴾ فقدِّم للفاصلة والحصر الإضافيِّ، أي: إنَّما قدروا على الغضب أو العزم على المنع فقط للمساكين، أو على منع ثمارها عن المساكين لأنفسهم. وعلى كلِّ حال أرادوا منع المساكين فعوقبوا بِمَنْع ثمار جنَّتهم.

[بلاغة] وفي الحرد مشاكلة للحرث، وفي ذلك تهكُّمٌ بهم، إذْ غَدَوْا على حرثٍ وتحصَّلوا على حرْدٍ نتيجةً لهم. ويجوز أن يكون ﴿قَادِرِينَ﴾ بمعنى مضيِّقين على المساكين في الأخذ، فلا يعلَّق به «عَلَى حَرْدٍ»، أو بمعنى قادرين في اعتقادهم على صرمها كلِّها بلا إعطاء مسكين.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ رأَوْا مَحَلَّها أو جُدرانها أو حُدُودَها على أنَّها أُتْلِفَتْ أو نُقِلَتْ، أو رَأَوهَا نفْسَهَا على أنَّها أحرقت، وبقيت أو زالت نضارتها وخضرتها وثمارها.

﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ تائهون عن طريق جنَّتنا، وما هذه جنَّتنا، وهي في موضع آخر غير هذا، أو هذه جنَّتنا أو هذا موضعها لكن أَضْلَلْنَا[1] عن

(1) كذا في النسخ، ويبدو أنَّ الأنسب: «ضللنا». ينظر الفوارق بين الثلاثي والرباعي في مصادر اللغة، مثل: اللسان، ج 11، ص 390 مادَّة: «ضلل».

الصَّواب في نيَّتِنا مَنْع المســاكين فعوقبنا بالحرمان منها كما قال: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ ممنوعون من خيرها لذلك.

﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ﴾ أحســنهم عقْلاً ورأيًا وديانةً، وقيل: سنًّا، وقد قال لهم: تُوبوا إلى ربِّكم من نيَّةِ منع المساكين، وامضوا إلى صرمها وإعطاء المساكين منها، وعصوه وذهب معهم. ﴿أَلَــمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا﴾ تحضيض ﴿تُسَــبِّحُونَ﴾ تذكرون الله، وتتوبون إليه من نيَّة منعكم، لئلَّا تعاقبوا دنيًا وأخرى.

[قلت:] والتسبيح على نيّة التوبة توبةٌ واعتراف. وقيل: التسبيح الاستثناء بأن يقولوا: إن شــاء الله، نزَّهوا الله عن أن يكون غير ما لم يرد كَوْنَه، وكان في شرعهم «سبحان الله» مثل «إن شاء الله» في شرعنا.

[فقه] وشرعُ من قبلنا شرعٌ لنا ما لم ينسخ، حتَّى إنَّ بعض الْحَنَفِيَّة قالوا: لو قال: زوجُه طالقٌ سبحان الله، كان استثناء، ولم يقع طلاق، وكذا العتق.

[قلت:] والحقُّ أنَّ الطلاق والإعتاق يقعان ولا يفسَــخُهما الاستثناء، وأمَّا غيرهما فلا نحتاج فيه إلى شرع من قبلنا بل نحتاج إلى النيَّة، فإذا نوى بقوله: «سبحان الله» الاستثناء صَحَّ.

وقيل: ﴿تُسَبِّحُونَ﴾ معناه تستغفرون، عَبَّر به عنه لأنَّ التنزيه تعظيمٌ لهُ عن أن يُعصى بذَنْبٍ، وقيل: تذكرون الله تعالى شكرًا للنعمة.

﴿قَالُواْ سُــبۡحَانَ رَبِّنَا﴾ نَزَّهْنَاهُ عن أن يُعصى وتُكْفَرَ نعمَتُهُ، وهذا إنشاء، أو تَنَزَّهَ اللهُ عن ذلك، وهو إِخْبَارٌ خَضَعُوا بهِ لله ﷻ، وبهذا الخضوع يكون إنشاءً. ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أَنفُسَنَا بالمعصية، والمساكينَ بمنع حقِّهم.

﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ الكلامُ في ذلك كُلٌّ لا كلِّيةٌ، فإنَّ بعضًا قال بالصرم منعًا عن المســاكين، وبعضًا صوَّب، وبعضًا سكت راضيًا،

والأوسط نهى نهيًا ضعيفًا، إذْ كان الواجب عليه أَن لا يذهب معهم. ولوم الأوسط لهم ظاهرٌ، فقد يقولون له ملاومة: هلَّا عزمت على منعنا؟ ويقول المصوِّب للقائل الأوَّل: غَرَرتنَا واتَّبعناك، ويقول له: لِمَ اتَّبَعْتَنِي؟ وللساكت: لِمَ سَكَتْتَ واتَّبَعْتَنِي؟ لو نهيتني لاتَّبعتُك أو لَتَدَبَّرْنَا.

﴿**قَالُواْ يَاوَيْلَنَآ**﴾ نادوا هلاكَهُم في اللَّفظ، والمراد حضوره فذلك الوقت وقتُ مجيئه لهم، أو يا حرف تنبيه وويل مفعول مطلق، أي: هلكنا هلاكًا. ﴿**إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ**﴾ مجاوزين الحَدَّ في حقِّ الله تعالى، إذ منعنا حقَّ المساكين، أو لم نشكر النعمة إذ لم نصنع صُنع أبينا.

﴿**عَسَىٰ رَبُّنَآ أَنْ يُّبَدِّلَنَا**﴾ يُعطينا لتوبتنا ﴿**خَيْرًا مِّنهَآ**﴾ من جنَّتنا. ﴿**إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَغِبُونَ**﴾ مستأنف، أو تعليل جمليٌّ، وقدِّم «إِلَى رَبِّنَا» اهتمامًا بالله وللحصر وللفاصلة، وللتشويق إلى المتعلَّق، وهو الرغبة، وعدِّيت بـ«إِلَى» لتضمُّن معنى الرجوع.

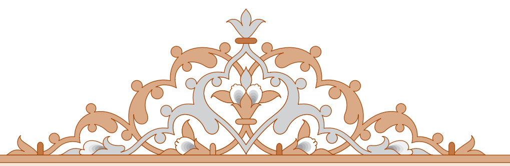
وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إنَّهم تابوا وأخلصوا ودعوا الله أن يبدِّلهم خيرًا منها فيعملوا كأبيهم، فأعطاهم الله تعالى جنَّة خيرًا منها تسمَّى الحيوان، يحمل البغل عنقودًا منها كالرجل الأسود القائم، وهم مسلمون عصوا بذلك وتابوا.

ويُقال: كانوا من أهل الكتاب نصارى الحبشة. قيل: توقَّف الحسن في إيمانهم، لأنَّ المشرك إذا أصيب تضَرَّع إلى الله عز وجل وسبَّح واستغفر ورَغِبَ إلى الله تعالى. وقيل: جزم بشركهم.

﴿**كَذَالِكَ الْعَذَابُ**﴾ مبتدأ وخبر. و«ال» للجنس، أي: عذاب الله مثل ذلك العذاب الذي أوقعه على أصحاب الجنَّة، فليحذر أهل مكَّة أن يصرُّوا على ما هم عليه، فيصيبهم مثل ما أصاب أهل الجنَّة، ولو كانت للعهد وأشير بلفظ «ذَالِكَ» إلى عذاب أهل الجنَّة لَكَان تشبيهَ الشيء بنفسه.

وإن كانت الإشارة إلى ما أصاب أهل مكَّة من القحط، و«الْعَذَابُ» عذاب أهل الجنَّة و«ال» للعهد ـ إنْ صَحَّ ـ فيكون عذاب أهلها شبيهًا بعذاب أهل مكَّة، لكن هذا معنى ضعيف، والقويُّ أن يُشبَّه عذابٌ يستحقُّونه في الدنيا بعذابِ أهل الجنَّةِ يُهدِّدُهم به.

﴿**وَلعَذَابُ الْاخِرَةِ أَكْبَرُ**﴾ من عذاب الدنيا لدوامه ومزيد شدَّته. ﴿**لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ**﴾ لو كانوا من أهل العلم لعلموا أنَّه أكبر، أو لو كانوا يعلمون شيئًا من أمر الدِّين، وهكذا تستحضر في مثل هذا.



﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿34﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿35﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿36﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿37﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿38﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿39﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿40﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿41﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿42﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿43﴾ ﴾

جزاء المتَّقين وإنكار التسوية بين المطيع والعاصي

﴿**إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ للشرك والإصرار على الذنب، والتقديمُ للحصر والاهتمام بما سبق، والتشويق إلى اللَّاحق. ﴿**عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ في عِلمه، أو في الآخرة، لأنَّه لا يتصرَّف فيها غيره، متعلِّق بما تعلَّق به اللَّام على حدِّ ما مرَّ. ﴿**جَنَّاتِ النَّعِيمِ**﴾ الخَالِصِ الذي لا يُكدِّره شيءٌ من مرض، أو حزن، أو ذلٍّ، أو زوال، أو غير ذلك، أو ألَمِ جسَدٍ، أو استعلاء عدوٍّ، وهكذا...

﴿**أَفَنَجْعَلُ**﴾ أَنَجُورُ فَنَجْعَلُ؟ أو أيستوي الإيمان والكفر عندنا فنجعل؟ ﴿**الْمُسْلِمِينَ**﴾ الموحِّدين العاملين ﴿**كَالْمُجْرِمِينَ**﴾ بالإشراك، أو ما دونه من الكبائر. وذلك ردٌّ لقولهم: إن كان البعث حقًّا كنَّا كمحمَّد وأتباعه إن لم نكن أفضل منهم. والاستفهام للإنكار.

[فقه] والواجبُ على كلِّ مكلَّف تفضيلُ المسلم وحبُّه، وأن يُحِبَّ أن يحبَّه المسلمون. والمسلم على دعامة من الياقوت في الجنَّة مع الأعمى والمقعد الصَّابرين.

[وعظ وإرشاد] وإطعامُ المسلم أو الحامل أو المريض سُلَّم إلى الجنَّة. ومن أبغض مسلمًا، أو تَيَمَّمَ بلا عذر، أو أفتى بلا علمٍ تغلي عظامه في النَّار كما يغلي العدس، ومن أبغَضَ المسلمَ، أو أيِس [من رحمة الله] أو أمِن [مِنْ عقابه] لم يَزِنْ عند الله تعالى خردلة. والملائكة تفرح بحبِّ المسلم، ونفقةِ السِّرِّ، والدعاءِ في مكانٍ خالٍ، وذلك ولاية للملائكة، لأنَّه يوافق طبائعهم.

ويُقال: لا يقبل الله تعالى عَمَلَ مُبْغِضِ المُسْلِم والآيِس والآمِن. إذَا أَحَبَّ الله عبدًا أعطاهُ الصَّلاةَ والصَّوم وحُبَّ المسلم، وإذا أبغضه تركهنَّ، ومن أَحبَّ المسلم وصلَّى وأمرَ ونَهى خلص من الذنوب واستنار عقله، ويحزن الشيطان أربعين يومًا إذا رأى الألفة بين المسلمين. ومن أحبَّ المسلمين نجا معهم من إبليس.

[وعظ] تَمَنَّت امرأة أن تكون مع مسلم تعمل ما يعمل، وأخرى أن تكون مع عاصٍ تأمره وتنهاه، وأخرى أن تُعالج طعامًا حارًّا للمسلمين في البرْد، وتبدِّل ثيابهم المبتلَّة بالماء[1].

[من أقوال السلف] قال أبو مرداس لجنون بن يمريان[2]: إيَّاك ومفارقة المسلمين وبغضهم، والترْكَ بعد الاجتهاد. من أحبَّ المسلمين ورضي بقضاء الله وسخَا، عدل أجرُ ذلك سبع سماوات وسبع أرضين، ويُقال: يكون لمن يُحبُّ المسلمين، ولمن يدعو في الخلوة، ولمن يكسب الحلال لأهله عروقٌ في الإسلام كعروق الشجر في الأرض.

---

(1) يشير الشيخ إلى قصَّة «منزو» مع زميلاتها، انظر: طبقات المشائخ في المغرب للدرجيني، ج 2، ص 309.

(2) أَبُو صالح جنون بن يمريان الوارجلاني السدراتي من العلماء العاملين الورعين كان شيخ الإباضية بوارجلان في أوائل القرن الرابع. انظر: معجم أعلام الإباضية، ج 2، ص 232. وأبو مرداس لعله: مهاصر السدراتي التبرستي، غير أن هذا نفوسي، وذاك وارجلاني.

ويُقال: أدرك شابٌّ من بني إسرائيل الجنَّة بثلاث كلمات: «يا ربِّ علمتَ أنِّي أحبُّ طاعتك ولوْ أَنِّي أعملُ بمعاصيك، وعلمت أنَّ المسلمين عندي خير مــن الكافرين ولو كنــتُ منهم، وإذا جاءني مســلم وكافر فــي حاجة أقضي للمســلم دون الكافر». ويُقال: لا يجتمع حبُّ المســلمين وأداء الأمانة وصلة الرَّحم والوفاء بالعهد إلَّا في المســلم، ويهدمُ الحســناتِ بغضُ المســلمين والنميمة وأيْمَان الفجور والحسد.

﴿مَا لَكُمْ﴾ هذا كلام مستقلٌّ عمَّا بعده، ولو تناسبا، والاستفهام توبيخ، أي: أيُّ شيء حصل لكم من خلل الفكر والرأي؟ ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بفضلكم على المؤمنين أو مساواتكم لهم، استفهام تعجيب واستبعاد لذلك عن فهم كلِّ عاقل.

هذا نفي للدليل العقلي على ما يقولــون، ونَفَى الدليلَ النَّقليَّ بقوله: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ﴾ بل ألكم كتاب من الله تعالى؟ ﴿فِيــهِ﴾ أي: في الكتاب، متعلِّق بقوله: ﴿تَدْرُســونَ﴾ أي: تقرؤون، وقوله: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ مفعول لِـ«تــدرس» أي: تقرؤون فيه هذه الجملــة التي هي قولك: «إِنَّ لَكُــمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّــرُونَ» فهي محكيَّة بـ«تــدرس»، لأنَّ فيه معنى القــول، أو ضمِّن تدرس معنى العلم فَعُلِّق باللَّام عن الجملة[1].

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ﴾ عهود، إطْلاقٌ للجزء على الكلِّ، فإنَّ العهد يمين وزيادة وملزوم للقســم، أو المراد: أقســام ﴿عَلَيْنَا﴾ نعت «أَيْمَانٌ» ﴿بَالِغَةٌ﴾ نعت ثانٍ، أي: بلغت النِّهاية فــي التأكيد ﴿اِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ متعلِّــق بـ«لَكُمْ»، لنيابته عن ثبتتْ أو ثابتة أو بتَثْبُت، أو بثابتة، أي: لا تــزول عهدتُها إلَّا إذا جاء يوم القيامة وأنفذنا مضمونها، أو بـ«بَالِغَةٌ» أي: تبلغ يوم القيامة وافرةً لم ينقص منها بعض.

(1) في نســخة ب زيادة فــي الإعراب: وجملــة «فِيهِ تَدْرُســونَ..» إلــى آخره نعــت «كِتَابٌ». و«تَخَيَّرُونَ» صلة «مَا» أو صفتها. والرابط محذوف، أي: الأمر أو الحكم الذي تختارونه، أو أمرًا أو حكما تختارونه. وهاء «فِيهِ» عائدة إلى الكتاب تأكيد.

﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ جواب «أَيْمَانٌ» ولو فسّر بالعهود، لأنَّ العهد في معنى القسم. هذا نفي لأن يكون لهم من الله وعد بما يقولون، ووعده لا يتخلَّف.

﴿سَلْهُمْ﴾ يا محمَّد سؤال تبكيت ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ﴾ الحكم ﴿زَعِيمٌ﴾ كفيل، ولو قال: أيُّكم لجاز، لأنَّه ﷺ إذا قصد سؤالهم يقول: أيُّكم؟ والخطاب قبلُ يقتضي أن يُقال: إنَّ لكم لما تحكمون أيُّكم بذلك زعيم، لكن ترك خطابهم إلى خطابه ﷺ إسقاطًا لهم عن رتبة الخطاب، بَعْدَمَا خاطبهم.

و«أَيُّهُمْ...» إلخ مفعول لـ«سَلْ»، عُلِّق عنه بالاستفهام، لأنَّ السؤال كالعلم لأنَّه سبب للعلم وملزوم له.

﴿أَمْ لَهُمْ﴾ بل ألهم؟ ﴿شُرَكَآءُ﴾ يشاركونهم في هذا القول من العقلاء الماضين أو الحاضرين، أو أصنام آلهة لهم تحكم لهم بأنَّ لهم ما للمسلمين في الآخرة، وهذا نفي لأن يصحَّ لهم تقليد. ﴿فَلْيَاتُوا بِشُرَكَائِهِمُ﴾ تشهد لهم بذلك ﴿إِن كَانُواْ صَادِقِينَ﴾ في دعواهم.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ متعلِّق بـ«يَاتُواْ» قبله، أو بمحذوف للتهويل يقدَّر مؤخَّرًا، أي: «يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ...» إلخ يكون كيت وكيت، أو بـ«خَاشِعَةً»، أو بـ«تَرْهَق»، أو هو مفعول به لـ«اذكُرْ».

وهو يوم القيامة. وقيل: هو وقت مرضهم الذي عجزوا فيه، أو يوم الهرم والعجز، أو وقت مشاهدة الملائكة عند الموت، لقوله تعالى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ ولا تكليف يوم القيامة، ويردُّه أيضًا أنَّه تكليف بما لا يطاق في تلك الأوقات، ولا سيَّما عند المشاهدة، وأيضا المريض ونحوه يمكنه القضاءُ ولو بالإيماء.

[بلاغة] والسَّاق: ما فوق الكعب، وكشْفُها كناية عن شدَّة الأمر، لأنَّه إذا أريد مزاولة أمر عظيم يزال الثوبُ عن السَّاق لئلَّا يعطِّل عن العمل. أو ذلك

استعارة تمثيليَّة. أو الساق أصل الشيء، وهو ما ينبني عليه باقيه، أي: يكشف عن أصل الأمر، وتبدو حقيقته، وتُعاينُ، فالسَّاق استعارة تصريحيَّة أَصلِيَّة، و«يُكْشَفُ» ترشيح مجاز مرسل عن البيان، أو باق تبعًا للاستعارة. وذلك اليوم ـ كما قال ابن عبَّاس ـ أشدُّ زمان في القيامة.

ومن استعمال السَّاق في معنى الشدَّة قول جرير:

أَلَا رُبَّ ساهي الطرف من مازن   إذا شمَّرت عن ساقها الحربُ شمَّرا

وقول كعب بن زهير:

فإن شمَّرت لك عن ساقها   فدُنْها ربيعُ ولا تسأم

وقول شاعر:

سنَّ لنا قومك ضرب الأعناق   وقامت الحرب بنا على ساق[1]

[أصول الدين] ومن أثبت لله ساقًا على ظاهره أشرك بهذا الاعتقاد، وأشرك بتفسير القرآن به، ويكفي في المتشابه ما ورد التصريح به مضافًا إلى الله تعالى مثل: يد الله، ووجه الله، وعين الله، والاستواء على العرش، فنُؤوِّلُه بما يليق بوحدانيَّته، وأمَّا ما لم ينسب إليه فما الدَّاعي إلى نسبته إليه وجعله من المتشابه؟!.

[نقد أحاديث] وما ورد من إثباته على ظاهره في الحديث كذب موضوع، ولو كان في الصحيحين وغيرهما[2]، مثل ما روي عن أبي سعيد عنه ﷺ:

---

(1) استشهد به ابن عباس على أنَّه من ديوان العرب، وأورده **السيوطي** في الدر ج 8، ص 254، وقال: أخرجه الفريابي وسعيد بن منصور...

(2) نقل **الآلوسي** في تفسيره عن سعيد بن جبير أنَّه سئل عن الآية: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٍ﴾ فغضب غضبا شديدا وقال: إنَّ أقواما يزعمون أنَّ الله سبحانه يكشف عن ساقه، وإنَّما يكشف عن الأمر الشديد، وعليه يحمل ما في الحديث على الأمر الشديد أيضا، وإضافته إليه ﷻ لتهويل أمره، وأنَّه أمر لا يقدر عليه سواه. الآلوسي: روح المعاني، مج 10، ص 43.

«يكشف ربُّنا عن ساقه فيسجد له كلُّ مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدًا»[1].

[تأويله] وإن صحَّ الحديث فالسَّاق فيه عبارة عن شيء يظهره الله لهم ممَّا شاء ممَّا يخلق، أو كناية عن الأمر الشديد. وكذا حديث: «يتبع كلُّ أحد يوم القيامة معبوده، إلَّا المؤمنون فيبقون حتَّى يجيء ربُّهم، فيعرفونه بساقه يكشفها لهم، وفيها علامة» أعوذ بالله ﷻ من الكفر كلِّه، وإن صحَّ الحديث فمعناه: إتيان ملك من ملائكة الله تعالى، ولا يقولون: أنت ربُّنا، وإن قالوا فالمعنى: أنت مَلَكُ ربِّنا، وهذا قول عياض، وهو عالم عظيم[2].

ومن كلامه أيضًا أنَّه يجوز أن يكون السَّاق علامة بينه تعالى وبين المؤمنين من ظهور جماعة من الملائكة على خلقة عظيمة، وقد تكون ساقًا مخلوقة جعلها الله علامة للمؤمنين خارجة عن السوق المعتادة، ولكن في كلام آخر له: «يتجلَّى الله في صورة حسنة»، ولعلَّه أراد: يتجلَّى لهم بملَكٍ، وأنَّهم يقولون له: «أنت ربُّنا» بمعنى أنت ملَكُ ربِّنا أو رسول ربِّنَا.

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ يدعوهم الله تعالى بما شاء، أو الملَكُ، وقيل: يدعوهم سجود المؤمنين شكرًا يغتبطونه ولا يجدونه، وهو خلاف الظاهر أنَّ الدَّاعي الله أو الملك توبيخًا وتقريعًا على تركهم السجود في الدنيا، وتحسيرًا لهم على أمْر نافع لهم لو فعلوه في الدنيا وفاتهم ولا يداركونه، لا تكليفًا لَهُم.

(1) رواه **البخاري** في كتاب التفسير، باب ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، رقم 1871، من حديث أبي سعيد الخدري.

(2) القاضي عياض، هو عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، أبو الفضل، عالم المغرب وإمام أهل الحديث في زمانه، ولد سنة 476هـ، ولي قضاء سبتة وغرناطة. وَتُوُفِّيَ بمراكش مسمومًا على يد يهوديٍّ سنة 544هـ. له تصانيف كثيرة. منها: «شرح صحيح مسلم». **الزركلي**: الأعلام، ج 5، ص 99.

﴿**فَلَا يَسْتَطِيعُونَ**﴾ لا يستطيعونه، وحذف المفعول للفاصلة. يريدون السجود فيجعل الله ظهورهم عظمًا واحدًا لا مفصل له كصياصي البقر[1]. ﴿**خَاشِعَةً**﴾ حال من الواو في «يُدْعَوْنَ» أو في «لَا يَسْتَطِيعُونَ». ﴿**أَبْصَارُهُمْ**﴾ فاعل «خَاشِعَةً». وإسناد الخشوع إلى الأبصار لظهور أثره فيه، وحقيقتُه للقلوب.

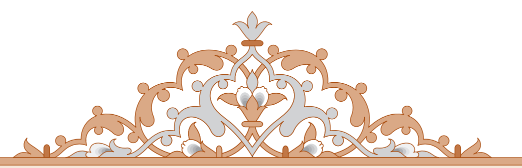
﴿**تَرْهَقُهُمْ**﴾ تغشاهم ﴿**ذِلَّةٌ**﴾ عظيمة، والجملة مستأنفة أو حال. ﴿**وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ**﴾ في الدنيا ولا يأتونه، وحذف هذا لظهوره. والجملة حال محكيَّة، يدعوهم الرسول والمؤمنون إلى السجود لله وحده مطلقًا.

ومقتضى الظاهر: «يدعون إليه» وأظهره لزيادة التقرير، أو لأنَّ هذا السجود سجود خاصٌّ، وهو سجود الصلوات الخمس، أو المراد به الصلوات الخمس سمِّيت باسم جزئها الأعظم وهو السجود. «**أقرب ما يكون العبد من ربِّه إذا كان ساجدًا**»[2]، أو لأنَّ السجود هنا جميع الطاعات معبَّرًا به عن الصلاة، المعبَّر بها عن مطلق العبادات، إذْ كانت أفضَلَها، فهو من بناء المجاز على المجاز، والدعاء دعوة التكليف، وقيل: الأذان والإقامة. ﴿**وَهُمْ سَالِمُونَ**﴾ قادرون عليه.

---

(1) «أي قرونها، واحدتها: صيصة بالتخفيف». **ابن منظور**: اللسان، ج 7، ص 51. مادَّة: «صيص».

(2) رواه **مسلم** في كتاب الصلاة، باب ما يقال الركوع والسجود، رقم: 482، من حديث أبي هريرة.



﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿44﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿45﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿46﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿47﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿48﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿49﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿50﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿51﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿52﴾﴾

تهديد الكفَّار، وأمر النبيء بالصبر والتذكر

﴿**فَذَرْنِي**﴾ إذا كان الأمر هكذا من حالهم فذرني، أو عطف على «يُدْعَونَ» الأخير عطف إنشاء على إخبار. ﴿**وَمَن يُكَذِّبُ**﴾ مع من يكذِّب، والواو للمعيَّة. ﴿**بِهَٰذَا الْحَدِيثِ**﴾ القرآن، لا تَطْلبْ أن تشفع لهم، ولا يرِقَّ قلبك عليهم، أو إنِّي كافيك شأنهم في التعذيب.

﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم**﴾ نُنزِّلهم في العذاب درجة درجة بالإمْهال، وإدامة الصحَّة، وازدياد النِّعم، كما جاء الحديث عنه ﷺ **أنَّه إذا رأيت أحدًا مقيمًا على المعاصي، والنعمُ تزداد عليه فاعلم أنَّه مُسْتَدْرَجٌ**، وقرأ الآية[1]. والمؤمن إذا أذنب عجَّل الاستغفار والتوبة، وإذا تجَدَّدت نعمة قابلها بالشكر، والمعنى: كُلَّما جدَّدوا معصية جدَّدنا لهم نعمة وأنْسيْناهم شُكرها، وهي سبب إهلاكهم. ﴿**مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ أنَّ ذلك استدراج، ويتوهَّمون أنَّ ذلك تفضيل لهم على المؤمنين.

(1) من المفسِّرين من أورده وعزاه إلى النبي ﷺ مثل: **النسفي**، ج 4، ص 411، ولم يخرِّجه. ومنهم من أورده بلفظ: «قيل»، **كالآلوسي**، ج 18، ص 43.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ﴾ أُمْهِلْهُمْ ليــزدادوا إثْمًا ويتوهَّمــوا أنَّ ذلك لِحُبِّ الله ﷻ لهم، وإرادةٌ للخير لهم. ﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ عقابي، سمَّاه كيدًا، والكيد في الأصل: الاحتيــال، لأنَّه بصــورة الاحتيال، إذْ فعــل بهم ما يُوهم فوزهــم ونجاتهم، ومرادُه: إهلاكهــم لكفرهم به، وكفر نعمتــه تعالى. ﴿مَتِيــنٌ﴾ قَوِيٌّ لا يدفعه شيء، ولا ينقص منه. والجملة متعلِّقة بـ«ذَرْنِي»، وتعليل له، أو بـ«نَسْتَدْرِجُ».

﴿أَمْ تَسْــَٔلُهُمْ﴾ بل أتســألهم؟ ﴿أَجْــرًا﴾ دنيويًّا علــى تبليغ الوحي. ﴿فَهُمْ﴾ بسببه ﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ مصدر ميميٌّ، أي: غرامة. ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ مُلزَمون ما يثقلهم، وهــذه الجملة مثل قولــه تعالى: ﴿فَهُــوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّــن رَّبِّهِ﴾ [ســورة الزمر: 22]، معطوفة على قوله تعالى: ﴿تَسْــَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ عطف إخبار واسميَّةٍ على إنشاءٍ وفعليَّةٍ.

﴿أَمْ عِندَهُمُ﴾ بل أعندهم؟ ﴿الْغَيْبُ﴾ علم الغيب، أي: الأشياء الغائبة، أو ذوات الغيب، أو اللَّوح المحفوظ، ســمِّي غيبًا لأنَّ فيه الأشياء الغائبة. ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما يعلمُون من الغيب، فهم يســتغنُون عنك وعن علمك، والكتابة للمحافظة عليه، أو يكتبون من اللَّوح المحفوظ.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّــكَ﴾ هو عدم التعجيل بإهلاكهــم، فإنَّك منصور في حينك، وفيما بعد، ولو لم يظهر لك النصر الحاضر، أو اصبر على ظهوره.

[سبب النزول] عَرَضَ نفسَهُ عليه السلام على القبائل في مكَّة فآذاه ثقيف، فأراد الدعاء عليهم، فنزلت الآية. وقيل: أراد الدُّعاء على الذين تركوا مقامهم الذي أمرهم رســول الله ﷺ بملازمتِــه، وأن لا يفارقُــوه، ولو رأوا رســول الله ﷺ والمؤمنين مقتولين تأكلهم الطير، وفارقُوهُ لَمَّا رأوا المشركين منهزمين، فخرج عليهم مــن ورائهم كمين الكفَّار، فنزلــت الآية، وعليه فالآيــة مَدَنِيَّة، فيكون «حُكْمِ رَبِّكَ» قضاؤُه بمفارقة المقام، وانهزام المؤمنين، وموت من مات منهم بذلك. وقيل: أراد أن يدعو على المنهزمين يوم أحد عند اشتداد القتال فنزلت.

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ فتُبتلى بما ابتلِي به، وهو يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو ذو النُّون.

[بلاغة] ولفظ «ذو النُّون» أعظم من لفظ «صاحب الحوت»، فإنَّه بمعنى: من له شأن النُّون وقصَّتُه، وكذا «ذو المال» بمعنى من لـه المال وتأهَّل له، بخلاف «صاحب الحوت» و«صاحب المال» فإنَّه أفاد صحبةً وهي دون ذلك المعنى، ولو أريد به ذلك المعنى؛ لأنَّ لفظ الصُّحبة ليس صريحًا في ذلك. وتفسير «ذو» بـ«صاحب» تسامحٌ واختصارٌ، كما قال ابن حجر: إنَّ «ذو» تفيد تعظيم الموصوف بها، ففي مدح يونس قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَذَا النُّونِ﴾ [سورة الأنبياء: 87]، وفي النَّهي عن متابعته: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾. وكذا لفظ النُّون أشْرَف، إذ جعل مبدأ هذه السورة من لفظ الحوت.

[نحو] ﴿إِذْ﴾ متعلِّق بمحذوف حال من «صَاحِب»، وإذا أفاد الإخبار ونحوه كالحاليَّة بالزمان على الذات جاز نحو: «لا تكن اليوم كعمرو أمس». وسواء قدَّرنا: «ثابتًا كصاحب الحوت» أو «مضطربًا كصاحب الحوت»، أو جعلنا «كان» بلا خبر، وكأنَّه قيل: مضطربًا كاضْطراب صاحب الحوت ومغاضبته واغتياظه على قومه، فيجوز تعليق «إِذْ» باضطراب صاحب الحوت.

وعبارة بعض: «إِذْ» منصوب بمضاف محذوف، أي: لا يكن حالك كحاله وقت ندائه. اهـ. وهذا ما أفاد تعليقًا ولا هو كلام صحيح من حيث التعليق، وصحَّ من حيث المعنى.

﴿نَادَىٰ﴾ حذف المنادى، أي: نادَى اللهَ، أو نادى ربَّه، لأنَّ المدار في النَّهي على قوله: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ وهو جملة حاليَّة من ضمير «نَادَى» لا على النِّداء، لأنَّ النِّداء أمر حسن مأمور به قال: ﴿لَّآ إِلَهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: 87]. ومعنى «مَكْظُومٌ»: مملوء القلب على قومه إذ دعاهم ولم يؤمنوا، من كظم السقاء إذا ملأَهُ.

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ لم يقــرن الفعل بتاء التأنيث لأنَّ الفاعل على ظاهر مجازي التأنيث، ولا سيَّما أنَّه مفصول، و«أَن» مَصدَرِيَّة، والمصدر مبتدأ، أي: لولا تدارُكه نعمةٌ من ربِّه (بضمِّ الرَّاء) موجودٌ، أو مداركةُ نعمةٍ من ربِّه موجودة. والنِّعمة: توفيقُه للتوبة المقبولة.

﴿لَنُبِذَ﴾ طُرِح بعنف ﴿بِالْعَرَآءِ﴾ أي: فــي العراء، وهي الأرض الخالية من الشــجر والنبات والبناء. ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ لغضبه وذهابه بــلا إذن من ربِّه، وَلَمَّا تاب توبةً تُقبل أَلْقَاهُ الله في أرض أنبت الله تعالى عليه فيها شجرة، وهو محمود.

[قلت:] ولا يصحُّ ما قيل: لنبــذ بعراء يوم القيامة، ولا الاســتدلال عليه بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَــبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [سورة الصَّافَّات: 143ـ144]، لأنَّ الحاصل أنَّ النِّعمة اقتضت أن ينبذ لا بعراء الدنيا، ولولاها لبقي فــي بطنه إلى يوم يُبعثــون. ولم يقل: للَبِث فــي بطنه إلى يوم يبعثون، وطرح في العراء من مواضع الحشر.

قيل: كيف وصف بالــذَّمِّ وهو نبيء؟ فقيل: ذلك قبــل النبوءة، والتأجيلُ بالعذاب أن لم يؤمنوا ليس بوحي إليه، وقيل: ذلك من باب «حسنات الأبرار سيِّئات المقرَّبين». وقيل: إنَّ كلمة «لَوْلَا» دلَّت على أنَّه لم يقع ما يوجب الذَّمَّ.

ويدلُّ على أنَّــه قبل النبــوءة قوله تعالــى: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّــهُ﴾ عطف على مســتأنف محذوف مجرَّد من عاطف، أي: تداركَتْهُ فَاجْتَبَــاهُ رَبُّهُ، أي: اصطفاه للرِّسالة بعد أن كان نبيئًا في قومه غير رسول، أو اصطفاه للنبوءة والرسالة بعد أن كان في قومه غير نبيء، وغير رســول، يدعوهم إلــى الله تبعًا لمن قبله من الأنبياء أو نيابة عن رســول، أو نبيء فــي زمانه من أنبياء الشــام، وبعدُ كان رسولاً أرسله الله إلى مائة ألف أو يزيدون.

﴿فَجَعَلَهُ مِــنَ الصَّالِحِينَ﴾ من الكاملين في الصَّــلاح بأن يؤدِّي الفرائض والنفل على الوجــه الأكمل باجتهاد وإخلاص، ويتــرك المعاصيَ والمكروهَ،

وخلافَ الأَوْلى. ومن قال: كان قبل ذلك غير نبيء صحَّ له أن يقول ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ معناه: من الأنبياء.

﴿**وَإِنْ يَكَادُ الذِينَ كَفَرُواْ**﴾ «إِن» مخفَّفة ﴿**لَيَزْلِقُونَكَ**﴾ يصرَعونك. واللَّام للفرق بين الإثبات المراد والنفي. وقيل «إِنْ» نافية خفيفة، واللَّام للاستثناء، يكادون يزلقونك في الأرض كالزلق في سبخةٍ مبتلَّة لشدَّة عدوانهم.

﴿**بِأَبْصَارِهِمْ**﴾ ينظرون إليه نظرًا شديدًا نظر بغض، وذلك مبالغة في وصف بغضهم له ﷺ، لأنَّ النظر ولو اشتدَّ ببغض لا يصرع أحدًا فحاصله: لو أمكن أن يزلقوه بأبصارهم لأَزْلَقُوه، كأنَّه سَرَتْ عداوتُهُم له ﷺ من قلوبهم إلى عيونهم.

والزَّلْقُ على ظاهره. و«يَكَادُ» مجاز عن الشدَّة، لأنَّ شدَّة بغضهم ونظرهم لا يزلق ولا يقرب من الإزلاق، وفي كلام العرب والعجم ذلك، يُقال: نظر إليَّ نظرًا يكاد يصرعني، ويكاد يأكلني، وذكر ذلك بلا لفظ القرب من قال:

يتقارضون إذا التقَوْا في موطن نظرًا يُزِلُّ مواطِئَ الأقدام(1)

وقيل: «يَكَادُ» على حقيقته، والإزلاق مجاز عن الإهلاك، وإنَّه كان في بني أسد عيَّانون، فأراد بعض منهم أن يَعِينَ رسول الله ﷺ ونجَّاه الله ﷻ فنزلت الآية، وكان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة فيرفع جانب الخباء فيقول: لم أر كاليوم إبلاً ولا غنمًا أحسن من هذه، فتسقط طائفة منها وتموت، وطلبه الكفَّار أن يَعِينَ رسولَ الله ﷺ فأجابهم وشرع في ذلك بأن قال:

قد كان قومك يحسبونك سيِّدًا وأخالُ أنَّكَ سَيِّدٌ معيون

ولم يؤثِّر فيه شيء، فأنزل الله تعالى الآية، وقالت قريش ليعِنوه: ما رأينا مثله ولا مثل حججه، ولم يؤثِّر فيه.

(1) أورده صاحب اللِّسان وغيره بلا نسبة. **ابن منظور**: لسان العرب، ج 11، ص 112، مادة «قرض».

[قلت:] وقراءة هذه الآية تدفع ضرر العين بإذن الله تعالى، والعين حقٌّ كما قال ﷺ: «**العين حقٌّ لو كان شيء يسبق القدر لقلتُ العين**»[1]. وقال ﷺ: «**لا تزال العين بالجمل حتَّى توردَه القدرَ ولا بالنخلة حتَّى توردها التنُّور**»[2]. وأمر المعيان أن يغتسل وتُصبَّ غُسالَتُه على المعين. وقال ﷺ: «**إنَّ العين لتُولع بالرجل بإذن الله تعالى حتَّى يصعد حالقا ثمَّ يتردَّى منه**»[3].

[الرقية من العين] وقالت أسماء بنت عميس: يا رسول الله، إنَّ ولَدَ جعفر تُسرع إليهم العين فهل أسترقي لهم؟ قال: «**نعم، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين**»[4]. وفي ذلك أحاديث كثيرة. قال الحسن: دواء من أصابته العين أن تقرأ عليه هذه الآية.

ولا يختصُّ العين بالنَّفس الخبيثة، وقد يكون من النُّفوس الزكيَّة، وقد كان رسول الله ﷺ يأمر الصحابة بالتحرُّز عن العين بذكر الله، ويمكن أن يكون العين مختصًّا بالنَّفس الخبيثة أصَالةً حتَّى إنَّ النَّفس الزكيَّة يصدر منها عين بحسب خبثها الأصلي. ولا يختصُّ العين بمن يبغض بل يكون أيضًا فيمن يحبُّ.

ولا يختصُّ أن يكون في الأمر الحَسن بل يكون أيضًا في القبيح، وقيل: يختصُّ بالمستحسن، ونسب هذا إلى الشهرة، ويعارضه أخبار النَّاس أنَّه وقع في المستقبح والمستحسن، وفي غير ذلك، فالكفَّار يبغضون رسول الله ﷺ وأرادوا أن يعينوه، ولا دليل على عدم اختصاص العين بما يستحسن في ذلك،

---

(1) رواه **عبد الرزاق** في مصنفه، كتاب الجامع، باب الرقى والعين والنفث، رقم: 19770. و**البيهقي** في شعب الإيمان، الكتاب السابع والسبعون من شعب الإيمان. باب في أن يحبَّ الرجل لأخيه المسلم ما يحبُّ لنفسه، باب في إصابة العين، رقم: 11222. من حديث ابن عبَّاس.

(2) لم نقف على تخريجه.

(3) رواه **أحمد** في مسند الأنصار، رقم 20795، من حديث أبي ذرٍّ.

(4) رواه **الترمذي** في كتاب الطب، باب الرقية من العين، رقم: 2059. عن عروة بن عامر.

لأنَّهم قد استحسنوا منه أشــياء مع كفرهم وبغضهم، كبلاغته وجمالِه وصِدقِه في سائر كلامه وأحْوالِه، وما يذكر من القرآن، والقرآن بليغ، كما قال الله تعالى: ﴿لَمَّا سَمِعُواْ الذِّكْرَ﴾. وأيضًا قد يتعاطون عينه ولو لم يستحسنوا منه شيئًا.

[فقه] ويحبس العائن لئلَّا يضرَّ النَّاس، فإن لــم يكن له مال فنفقته من بيت المال. ومن قال: العين تستقلُّ عن الله في التأثير أشرك كإشراك من قال باســتقلال النوء بالمطر، ومن قال: تضرُّ بإذن الله فــلا كفر، ولو قال: تنبعث قوَّة سُــمِّية من عين المِعْيَان إلى من ينظر إليه، ولكن يكون العين أيضًا بلا نظر إلى شيء.

وروي أنَّ ســليمان بن عبد الملك أعجبــه جماله في المــرآة، فقال: كان محمَّد نبيئنــا ﷺ، وأبو بكر صدِّيقًــا، وعمر فاروقًا، وعثمــان حبيبًا، ومعاوية حليمًا، ويزيد صبورًا، وعبد الملك سائسًا، والوليد جبَّارًا، وأنا الملك الشبابُ، وأنا الملك الشَّابُّ، فمات قبل تمام الشهر، فلعلَّه عان نفسه، وقد قال ﷺ: «**إذا رأى أحدكم ما يعجبه من نفسه فليقُل ما شاء الله لا قوَّة إلَّا بالله**»[1].

﴿**لَمَّا سَمِعُواْ الذِّكْرَ**﴾ القرآن لشدَّة بغضهم وحسدهم.

[نحو] و«لَمَّــا» ظرف متعلِّــق بـ«يَــكَادُ» أَوْ بـ«يَزْلِقُ». ومن قــال: «لَمَّا» الوُجوديَّة حرفٌ قال: يقدَّرُ جوابُها بعدُ لِدلَالَةِ ما قَبْلُ، وأقولُ: بل أغْنَى ما قبلها عن جوابها.

﴿**وَيَقُولُونَ**﴾ لِشِــدَّة حســدهم على بلاغة القرآن وبدائعــه، ولحيرتهم، ولتنفير النَّاس عنه ﷺ ﴿**إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ**﴾ مع أنَّه ليس من شــأن المجنون البلَاغةُ والصِّدْقُ دائمًا وحسنُ السيرة وملازمة الصَّواب.

---

(1) روى **الطبرانــي** و**الحاكم** في المســتدرك من حديــث عامر بن ربيعة ما يقاربــه معنى آخر الحديث عندهما: «فليدع له بالبركة، فإنَّ العين حقٌّ».

وجملة «يَقُولُونَ» معطوفة على «يَكَادُ» لا على «يَزْلِقُونَكَ»، لأنَّهم قالوا، لا قرُبوا من القول بلا فعل. ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: الذِّكر. ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ تذكير بالصَّواب والحقِّ، وقيل: شرف وفضل، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [سورة الزخرف: 44]. ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ حال من واو «يَقُولُونَ»، والرابط واو الحال، وحصَّتهم في العالمين. [أي: وهم من جملة العالمين].

[نحو] وقيل: الضمير لرسول الله ﷺ، أي: وما هو إلَّا ذُو ذكرٍ، أي: تذكير، أي: مذكِّر، أو ما أمره إلَّا ذكر، أي: تذكيرٌ أو نفسُ الذِّكر مبالغة فتكون الجملة صريحةً في ردِّ دعوى جنونه.

والأولى أنَّ الضمير للذِّكْرِ بمعنى القرآن، وفيه كفاية في ردِّ ذلك بل زيادة، فإنَّ دعوى جنونه بسبب ادِّعائه القرآن من الله ﷻ، فإذا كان القرآن من الله ﷻ فقد نفى جنونه بالبرهان، والله أعلم.

وهو الموفِّق والمستعان،
ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم،
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.





69

تفسير سورة الحاقَّة

مكِّـيَّة وآياتها 52 ـ نزلت بعد سورة الملك

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ٱلۡحَآقَّةُ ① مَا ٱلۡحَآقَّةُ ② وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ③ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ④ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ⑤ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ⑥ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ⑦ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ⑧ وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ⑨ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ⑩ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ⑪ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ⑫﴾

عظم يوم القيامة والاعتبار بما وقع للأمم السابقة

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَآقَّةُ**﴾ السَّـاعة الحاقَّة، أو الحالة الحاقَّة، أو القيامة الحاقَّة، وذلك يوم البعث، أو يوم موت الأحياء إلَّا الله.

[قلت:] ومعنى كونها حقًّـا في الأوجه كُلِّها أنَّه يجـب وقوعها، أو تثبت فيها الأمـور الحَقَّة من انكشـاف الغطاء عـن المحقِّ والمخطـئ، والصِّدقِ والكذِبِ والجزاءِ، أو أَنَّه تحِقُّ فيها الأمور، أي: تظهر حقيقتُها وتشاهد بعد أن كانت أخبارًا، أو أَنَّه تغلب معانِدَها بإنكاره لها، وتغلبه بالعقاب.

[صرف] كما يقال: حاققتُه (بألِف) أي: عالجت أن أغلبه فحقَقْتُه (بدون ألف وبالفتح)، أي: غلبته، وأنا أحُقُّه (بضمِّ الحاء) وأنا حَاقُّه، وذلك كلُّه بحسب الأصل، ثمَّ كان علمًا بالغلبة ليوم القيامة مثلاً.

﴿**مَا الْحَآقَّةُ**﴾ «مَا» مبتدأ عند سيبويه، والخبر «الحاقَّة»، وبالعكس في قول آخر، وهو أرجح، لأنَّ معنى: مَن زيد؟ زيد من هو؟ ولا يقصد المتكلِّم معنى قولك الذي هو زيد من هو؟ ويناسبُه أنَّ الأصل الإخبار بالنكرة عن المعرفة. والجملة خبر «الْحَاقَّةُ» والرابط «الْحَاقَّةُ». والأصل: الحاقَّة ما هي؟ بالإضمار وأظهر للتهويل.

وزاد بالإظهار التهويلَ في قوله ﷻ: ﴿**وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْحَآقَّةُ**﴾ الأصل وما أدراك ما هي؟ وفي الاستفهام ـ وهو للتهويل ـ شعور بأنَّها لا تُعلم بالحقيقةِ، لأنَّ الاستفهام في الأصل عَمَّا لم يُعلم.

[نحو] وجملة «مَا الحَآقَّةُ» سدَّت مسدَّ المفعول الثاني والثالث لكونه بمعنى أعلم، وقال بعض: عَلَّقَتْهُ عن التعدِّي إلى الثاني بالباء، ولا ثالث له، مستدلًّا بقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدْرَاكُم بِهِ﴾ [سورة يونس: 16]، وما تقدَّم أولى. وأَمَّا الباء فللإلصاق، و«أدْرَاكُم» أعرفَكُمْ وجملة «مَآ أَدْرَاكَ مَا الحَآقَّةُ» معطوفة على «مَا الحَّآقَّةُ».

﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِالْقَارِعَةِ**﴾ «ال» للعهد الذِّكري، فإنَّ القارعة هي الحاقَّة، ومقتضى الظاهر: كذَّبت ثمود وعاد بها (بالإضمار)، وأظهر ليصفها بالقرع، أي: الضرب، لأنَّ القيامة تضرب النَّاس والجنَّ والملائكة بالإقراع والأهوال، والسَّماءَ بالصَّدع والجبالَ بالدَّكِّ والإطارةِ، والنُّجوم والقمرين بالطمس، والأرضَ بوقوع ما فيها من بناء وبالتبديل.

﴿**فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ**﴾ أهلكهم الله ﴿**بِالطَّاغِيَةِ**﴾ بالصَّيحة المجاوزة للحَدِّ، وقد قال الله ﷻ فيهم: ﴿وَأَخَذَ الذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [سورة هود: 67]،

كما عبَّر عنها في سورة أخرى [سورة الأعراف: 78] بالرجفة وفي أخرى بالصاعقة، [سورة الذاريات: 44]، والرجفة وهي الزلزلة مسبَّبة عن الصَّيحة ولازمة لها، والباء للآلة، تعالى الله.

أو الطَّاغية مصدر بمعنى الطغيان، والباء سَببِيَّة، أي: أهلكوا لطغيانهم، لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ [سورة الشمس: 11]، لكن ذَكَرَ التَّكذِيبَ لَا الإهلاكَ، إلَّا أنَّ الإهلاكَ مُسَبَّبٌ عن التكذيب ولازمٌ له.

أو الطَّاغية: الفعلة الطاغية، وهي عقر النَّاقة. أو الطاغية: عاقرُها، فتكون التاء للمبالغة، والباء للسببيَّة أيضًا في ذلك، وكذا إن قيل: بسبب الفئة الطاغية، وهم الذين قصدوها بالقتل، ورضي الباقون.

والأَوْلى ما تقدَّم، ويدلُّ له قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ**﴾ لذكره أنَّها أُهلكت عادٌ بكذا لا بسبب كذا، وأَنَّ الأصل في وزن «فاعل» أن لا يكون مصدرًا، وفي ذلك جمع وتفريق، ولو قيل: أُهلِكتْ ثمود بطغيانهم وعادٌ بريح لم يكن ذلك فيه، والصرصر الباردة أو الصائتة.

﴿**عَاتِيَةٍ**﴾ شديدة الهبوب، أو قهرت عادًا، على الاستعارة أو المجاز المرسل، أو عتت عن الخُزَّان الملائكة بإذن الله تعالى على التجوُّز كذلك. ويجوز أن تكون الاستعارة تمثيليَّة. فما قدروا على ردِّها ولا على الهروب منها، ولا على التستُّر عنها، ولا ينفعهم ستر، وهي مأمورة تجبذهم من الستر وتدقُّهم.

وعن الإمام عليِّ بن أبي طالب: لم تنزل قطرةٌ إلَّا بمكيال على يدي ملك إلَّا يوم نوح، فإنَّه تعالى أذِنَ للماء دون الخُزَّان فطغى الماء على الخُزَّان فخرج، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَآءُ﴾. ولم ينزل شيء من الريح إلَّا بمكيال على يدي ملك إلَّا يوم عاد، فإنَّه أذِن لها دون الخزَّان فخرجت، فذلك

قوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾. والْمَثَلُ إذا علم منه أصْلُ المقصود بلا نظر إلى أصل القصَّة جاز أن يُقال: إنَّهُ كناية عن المقصود بلا تناول للتجوُّز الاستعاريِّ والإرساليِّ.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ الجملة نعت ثان أو مستأنفة، وفائدة ذكر التسخير نفي أن تكون بالطبع أو بمجرَّد اقتران الكواكب بعضها ببعض، ونزولها في بعض المواضع، فهي بدون توسُّط شيء أو بتوسُّط الطبع، أو الاقتران لكن بخلق الله ذلك الطبع، وخلق تأثيره وبخلق اقتران الكواكب ونزولها وخلق تأثيراتها.

[لغة] ﴿حُسُومًا﴾ جمع حاسم، كشاهد وشهود، وقاعد وقعود، ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ [سورة البروج: 6]، المعنى: متتابعات، مِنْ حَسَمَ الدَّابَّةَ إذا كواها مرارًا متتابعة لداء، شبَّه تتابع اللَّيالي بتتابع الكيِّ على الاستعارة التبعيَّة.

[بلاغة] أو أطلق المقيَّد وهو لفظ الحسم الموضوع لمتابعة الكيِّ على مطلق المتابعة، وأخذ من هذا المطلق متابعة الأيَّام واللَّيالي، واشتقَّ منه حاسم، وجمع على حسوم، أي: توبع حتَّى استأصلهم بالهلاك كما يزال داء الدَّابَّة بالكيِّ المتتابع.

أو معنى الحسم القطع، أي: حاسمات أدبارهم، أو حاسمات الخير عنهم، أو حاسمات لحياتهم. أو الحسم إزالة الأثر، يُقال: حسم الشيء أزال أثره. أو ﴿حُسُومًا﴾ مصدر، أي: تحسمهم حسوما أو لأجل الحسوم.

وإسناد الحسم في ذلك كلِّه من الإسناد إلى الزمان، إلَّا إذا قدَّرنا: تحسمهم حسوما، فإليه وإلى الريح، ويدلُّ على أنَّه للريح قراءة السُّدِّي بفتح الحاء، فإنَّه وصف مفرد، كما أنَّ الريح مفرد فهو حال من مفعول «سَخَّر»، أو من «رِيحٍ».

[لغة] وتســمَّى تلك الأيَّام أيَّام العجوز، قيل: لأنَّ عجوزًا توارت في سرب فنزعها الرِّيح في اليوم الثامن فأهلكتها، أو لأنَّها عجز الشــتاء، فالعجوز بالواو بمعنى العُجُز (بضـمِّ الجيم بلا واو)، وأســماؤها: الصِّن، والصنبــر، والوبر، والأمر، والمؤتمر، والمعلن، ومطفئ الجمر، ومكفئ الظعن، والثامنُ هو الأوَّل.

﴿فَتَرَى﴾ يا محمَّد أو يا من يصلح للرؤية لو حضرتها، أو تعلم ﴿الْقَوْمَ﴾ عادًا ﴿فِيهَا﴾ أي: فــي الأيَّام واللَّيالــي، وقيل: في مهابِّ الريــح، وقيل: في ديارهم لدلالة الكلام على ذلك، ولو لم يجر له ذكــر، والأوَّل أولى لجريان ذكر اللَّيالي والأيَّام ﴿صَرْعَى﴾ جمع صريع بمعنى مصروع.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أسَافل نخل ﴿خَاوِيَةٍ﴾ خالية عن مغرسها، وذلك تمثيل حَسَنٌ بما يستحسن في التمثيل، ولو كانت أجسامهم أعظم أعجازًا من ذلك، وزاده حسنًا أنَّ أعجازهم أعظم ممَّا فوقها أو تحتها من أجسامهم.

[بلاغة] وفي الآية تشــبيه الأقوى بما دونه، فإنَّ أجسام قوم عاد أكبر من أعجاز النَّخل، كما شــبَّه الحور باللُّؤلؤ والمرجان في ســورة الرحمن، وكما قال: ﴿مَثَلُ نُــورِهِ كَمِشْــكَاةٍ فِيهَا مِصْبَــاحٌ﴾ [ســورة النور: 35]. وقيل: خلت من الأرواح كجذوع نخل بلا روح، وقيل: عذِّبوا سبعة أيَّامٍ تحت الرِّيح وماتوا في الثامن وألقتهم الرِّيح في البحر.

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ أي: نفس باقية، أو هو مصدر كالبقاء.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ﴾ ومن معــه، ومجيئه مجيئهم ﴿وَمَــن قَبْلَهُ﴾ من الأمم، كقوم هود وقوم صالــح المذكورين وقوم نوح ﴿وَالْمُوتَفِـكَاتُ﴾ القرى التي أَفَكَهَا الله أو جبريل فائتفكت، أي: قلبَهَــا فانقلبت، وهي قرى قوم لوط، على حذف مضاف، أي: أهل المؤتفكات، أو ســمُّوا باســم المحلِّ، أو الإســناد مجازيٌّ عقليٌّ. والدليل في ذلك كلِّه لفظ «جَآءَ».

وقوله: ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ بالفعلة الخاطئــة، أو الأفعال الخاطئة، والخطأ إنَّما هو للفاعلين، وإســناده لفعلهم إنَّما هو مجاز عقليٌّ، وذلك مبالغة، أو خاطئة: أفعال ذاتُ خطأٍ، وذلــك مبالغة أيضًا فهو أنســبُ. وقولهم: لا يؤنَّــث وزن فاعل في النسب غير مسلَّم، أو أرادوا أنَّه لا يجب تأنيثه. أو الخاطئة مصدر بمعنى الخطأ.

﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أفرد الرســول مع أنَّ المعنى الجمع باعتبار أنَّ كلَّ أمَّة عصت رسولَها فيما أمر به، أو نهى عنه، أو سمَّى الرسل رسولاً لأنَّ دعوتهم واحــدة، إذ كلٌّ يدعو إلى ما أوحــي إليه، ولا أحد منهم يدعــو إلى غير الله، أو لأنَّهم يدعون إلى التوحيد وتوابعه، ولو اختلفت بعض شرائعهم، أو لأنَّ الإضافة للجنس فهو كالجمع، وقيل: المراد موسى، وقيل: عيسى، وقيل: كلاهما.

﴿فَأَخَذَهُمُۥ﴾ أي: الله ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ زائدة في الشدَّة جزاءً لهم على زيادة قُبح اعتقادهم وأفعالهم وأقوالهم. ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَآءُ﴾ جاوز الحدَّ في الكثرة على حدِّ ما مرَّ آنفًا حتَّى علا فوق أعلى جبال الدنيا خمسة عشر ذراعًا لإضْرَار قوم نوح وضُرِّهم إيَّاه ضرًّا شــديدًا مع طول مدَّتهم علــى أنواع الكفر، ومنها إنكار البعث كما أنكره قومه ﷺ، فليخافوا عليــه عقابًا عظيمًا في الدنيا يعقبه عقاب في الآخرة لا ينقطع.

والمشــهور أنَّ الطوفان عمَّ الدنيا كلَّها، وقيل: لا، وقيل: بعث نوح غرابًا ليخبره هل نضب الماء فرأى جيفة فــوق الماء فأكل منها فلم يرجع إلى نوح، وقيل: رجع، وذلك يناســب أنَّ الســفينة فوق الماء لا بين ماء الســماء وماء الأرض مسقفة كما قيل.

﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ في أصلاب آبائكــم، أو يقدَّر مضــاف، أي: حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم ﴿فِي الْجَارِيَةِ﴾ السفينة، ســفينة نوح عليه السلام، حملناكم فيها حتَّى انقضى الماء أحياء، غير غرقــى، والحمل كما يطلق على الرفع والوضع فوق الدَّابَّة والســفينة مثلاً، يُطلــق على الإبقاء، تقول لمن أتاك بشــيء على

ظهره: حمله إليَّ، فلا يلزم أن يقــدَّر: حملناكم فوق المــاء، وحفظناكم حال كونكم فيها. والمرأة حامل ما لم تُسقط، وتقول: لا تستريح ما دامت حاملًا.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ لنجعل الحملة المعلومة من «حَمَلْنَاكُمْ» التي هي عبارة عن إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين تذكيــرًا لكم بكمال قدرتنا، وقوَّة قهرنا للكفرة، ورحمتنا للمؤمنين.

[صرف] و«تَذْكِرَةً» اســم مصدر هو تذكير، وليس موقعًا على الأذن، بل على الإنســان باعتبار قلبه وعقله، وهــذا أولى من جعله بمعنــى تذكُّرًا، لأنَّ التذكُّر ليس فعلا للجعلة بل مســبّب، بخلاف التذكيــر فإنَّها عظة وآية مذكِّرة كالناطق بالتذكير.

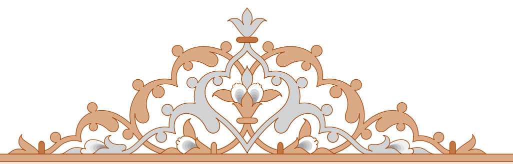
ويجــوز ردُّ «هَا» «نَجْعَلَهَــا» للجارية، وهو المتبادر لأنَّه صــرَّح بها وأنَّها أقرب، ومعنى جعل السفينة تذكرة جعلها باعتبار الإنجاء فيها، وباعتبار إدراك بعض أوائل الأمَّة بعض ألواحها على الجــودي، وإدراك بعضها ـ فيما قيل ـ بعضُ النَّاس بعد الإسلام بكثير[1].

﴿وَتَعِيَهَآ﴾ تحفظها ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ من شــأنها أن تحفظ ما سَمِعت وتنشره وتعمل به كما قال قتادة: «الواعية هي التي عقلت عن الله تعالى، وانتفعت بما سمعت عن الله تعالى»؛ ولذلك نكَّرها تنكيرًا مفيدًا للقلَّة.

[بلاغة] وإسناد الوعي إلى الأذن مجاز لعلاقة التسبُّب واللُّزوم، والواعي حقيقةً صاحبُ الأذن بقلبه، وفي الحديث مرفوعًا أنَّه قال رسول الله ﷺ لعليٍّ: «**إِنِّي دعــوت الله أن يجعلها أذنك يا علي**»[2]، قال عليٌّ: فما ســمعت شــيئًا فنسيته، وما كان لي أن أنسى.

(1) راجع: ج 6 من التفسير، ص 416.

(2) أورده **الآلوسي** خبرا في تفسيره مج 10 ص 53، وأورده **ابن كثير** حديثا مرفوعا عن مكحول وقال: رواه ابن جرير من طريق مكحول أيضا مرسلا.



﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۝13 وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۝14 فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝15 وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝16 وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ۝17 يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝18﴾

بيان بعض أهوال يوم القيامة

﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ**﴾ نفخ إسرافيل في الصور، وجواب «إِذَا» قولُه تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾. ﴿**نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ**﴾ نفخة البعث، بدليل ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾، ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ...﴾ إلى ﴿... تُعْرَضُونَ﴾ فإنَّ ذلك بعد البعث. [وجواب «إِذَا»].

وعن ابن عبَّاس: إنَّها نفخة الموت، واختاره غيري ممَّن تقدَّم، وقال: إنَّه المناسب لما بعدُ، وليس كذلك، والنفخة للوحدة، فـ«وَاحِدَةٌ» نعت توكيد، ولا يقبل قول من قال: إنَّ النفخة موضوع للنَّفخ مطلقًا، والوحدة مستفادة من «وَاحِدَةٌ»، وإِنَّه نعت مقيِّد لا مؤكِّد، وذلك خلاف الظاهر.

وعلى كلِّ حال أفادت الوحدة أنَّ هذه الأمور العظام المعقَّبة للنفخ كفت فيها نفخة واحدة، لا زائد عليها، ومعلوم أنَّه لو شاء لأوقعها بلا نفخ. وحَسُنَ التذكيرُ لمجازيَّة التأنيث، والظهور، والفصل بقوله: ﴿فِي الصُّورِ﴾. وليس كما قيل: إنَّ «نَفْخَةٌ» في معنى الفعل وحرف المصدر، وأنَّه حسن التذكير لهذا أيضًا، فإنَّا لا نسلِّم أنَّ المعنى: فإذا نفخ في الصور أن ينفخ نفخة واحدة، أو إذا نفخ في الصور أَنْ نفخ نفخة واحدة.



﴿وَحُمِلَتِ الْاَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ حملها الله تعالى بقدرته، وهو العليُّ العظيم القدير، وهذا أولى من أن يُقال: يرفعها بريح أو ملك، أو بتوسُّط زلزلة يحصل بشـدَّتها ارتفاع، أو بخلق قوَّة جاذبة في الهواء، أو هذه القوَّة الجاذبة مخلوقة في الأرض، أو في الهواء كامنـة، وإذا كان ذلك الوقت أنهضها الله جلَّ وعلا، أو خلق أو يخلق فيها قوَّة تدفع الجبال.

﴿فَدُكَّتَـا﴾ أي: الفرقتان، فرقـة هي الأرض وفرقة هـي الجبال، كقوله تعالى: ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجر: 85]. ﴿دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ صيِّرتا كالدقيق الحاصـل بالطحن فتصير ﴿كَثِيبًـا مَّهِيلاً﴾ [سـورة المزَّمّل: 14]، وقيل: فرِّقت أجزاؤها، كما قال: ﴿هَبَآءً مُّنبَثًّا﴾ [سـورة الواقعة: 6]، وقيل: الدكُّ الضرب على ما ارتفع حتَّى يسـتوي مع ما انخفض، ولا ضـرب حقيقة يحصل به التسوية والبسط.

أو المراد: التسوية والبسط، لأنَّهما ينشآن عن الضرب ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [سـورة طه: 107]، وأرض دكَّاءُ منبسطة، وبعير أدَكُّ لا سنام له، وأرض دكَّاء سـهلة ليِّنة، والأرض في ذلك اليوم كذلك بالدَّكِّ، فقيل: تتفتَّت الجبال وتنسـفها الرياح وتبقى الأرض مسـتوية، والكلام في «دَكَّةً وَاحِدَةً» مثله في «نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ».

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: وقـتَ نُفِخَ في الصور وحملـت الأرض والجبال ودكَّتا، وهو متعلِّق بقوله ﷻ: ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَـةُ﴾ أي: القيامة التي أنكروها، أي: إذا كان ذلك فقـد حصلـت القيامة من القبـور قبلـه، فأهل القبـور يخرجون ويشاهدون ذلك، وقيل: يقع ذلك ويبعثون على أثره فيشاهدون ما يشاهدون.

[وصف صخرة بيت المقدس] وقيـل: ﴿الْوَاقِعَةُ﴾: صخرة بيت المقدس، هي الآنَ بين السماء والأرض بلا عمدة من تحت ولا علاقة من فوق، والطوَّاف يضرب الجلد المسـامت لها بإصبعه فيتحرَّك، فيتبيَّن للناظـر أنَّها غير معتمدة

عليه، وتدخل تحتها وتجول ولا ترى عمدة، ويجول الطوَّاف بعصاه فوقه فيتبيَّن للناظر أنَّه لا علاقة لها. وهي صفــراء أكبر من صخرة جبل أبي العبَّاس الوليلي الكبرى[1]، **وتفسير الواقعة في الآية بصخرة بيت المقدس لا يقبل.**

﴿**وَانشَقَّتِ السَّــمَآءُ**﴾ تفتَّت، أو كانت أبوابًا ﴿وَيَوْمَ تَشَّقَّقُ السَّمَآءُ بِالْغَمَامِ وَنُــزِّلَ الْمَلَآئِكَةُ تَنزِيلاً﴾ [ســورة الفرقان: 25]، ﴿وَفُتِّحَتُ السَّــمَآءُ فَكَانَتَ اَبْوَابًا﴾ [ســورة النبأ: 19]، و«ال» في «السَّمَاء» للجنس، وهو هنا مستغرق، أو للاستغراق، فشمل السماوات السبع.

أو المراد: هذه السماء، لأنَّها التي يقرب مشــاهدتها ولو كان الستُّ أيضًا تنشــقُّ، كما أنَّ المراد بالأرض هذه لا مع الســتِّ تحتها، ويناسب هذا قوله تعالى: ﴿عَلَىٓ أَرْجَآئِهَا﴾ ولو احتمل أرجاء السماوات السبع.

﴿**فَهِــيَ يَوْمَئِذٍ**﴾ وَقْــتَ إِذْ كان ذلك، وذلك وقت متَّســع تقــع فيه أمور ـ يا أرحم الرَّاحمين ارحمنا ـ متعلِّق بقوله: ﴿**وَاهِيَةٌ**﴾ ضعيفة، وكلُّ ما ضعف فهو واه، أو شبَّهها بســقاء واهٍ ورمز إليه بلازمه إذ شهر فيما قيل، وهي السقاء إذا انخرق، كقوله:

خَلِّ سَــبيل مــن وَهى سِــقَاؤُهُ وَمَــن هُريــق بالفلاة مَــاؤُه[2]

ولا نســلِّم خصوص هذه الشهرة بل شُــهر اســتعمال «وَهَى» بمعنى ضعف مطلقًا.

﴿**وَالْمَلَكُ**﴾ جنس الملائكة، وهو أعمُّ من الملائكة عند بعض، قال بعض أئمَّة أندلس: لا يظهر أنَّه أعمُّ.

---

(1) صخرتان كبيرتان، كلٌّ واحدة على شكل بعير على الأرض واقعتان على منكب هذا الجبل، وتحت الجبل مقبرة الشيخ أبي محمَّد. وذلك قبالة «بني يزقن» مدينة المؤلِّف بميزاب.

(2) قال الأصمعي: هو من أمثال العرب، ولم ينسبه. ينظر أبو علي **القالي**: الأمالي، ج 1، ص 280.

[بلاغة] قلت: ولعلَّ دعوى أنَّه أعمُّ أنَّ البيان بالجنس لا يتصوَّر منه بقاء فرد في مقام العموم مع وجود الجنسيَّة، بخلاف العموم بصيغة الجمع فإنَّه تعداد للأفراد، فالبيان بالجنس بيان ببرهان، والأمر كذلك لكن باعتبار الحكم الواقع عليه هو دون الاستغراق، لأنَّ ما للجنس يصلح صرفه ولو لواحد، بخلاف العموم إن قلت: كُلُّ، فلا يخفى أنَّه أعمُّ، مثل: كُلُّ رجل.

﴿**عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا**﴾ جوانبها التي لم تنشقَّ، والمفرد: رجا، وألفه عن واو. التجأ الملائكة إلى أطرافها خوفًا من عظمة الله ﷻ، أو اجتماعًا للنزول. وقد مرَّ أنَّ ذلك كلَّه بعد البعث يشاهده أهل الموقف، ينزل أهل كلِّ سماء أضعاف أهل سماء تحتها.

وقيل: ذلك الانشقاق بعد موت الملائكة عند النفخة الأولى، ويحيون قبل سائر الموتى. وقيل: ﴿الْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ على شقِّها، ينظرون إلى شقِّ الأرض وما أتاهم من الفزع، وفي هذا زيادة على ما في الآية، وهو ضعيف.

وقيل: يقفون على الأرجاء لحظة فيموتون ولا يبقى ذو روح حيًّا عند نفخة الموت، لا ملك ولا حوراء ولا غيرهما. وإن فرضنا أنَّ أرواح الموتى حيَّة الآن ماتت في ذلك الوقت. وعن ابن جبير: إنَّ ضمير «أَرْجَائِهَا» للأرض، يحيط أهل كلِّ سماء بأهل سماء تحتها بأطراف الأرض.

[قلت:] ولا يصحُّ ما قيل: **إنَّ انشقاق السماء وما ذكر تمثيل لخراب هذا العالم**[1]، بل المراد ظاهر ذلك كما جاءت به الأخبار.

﴿**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ**﴾ إلى أرض المحشر، وقيل: في مكانه. ﴿**فَوْقَهُمْ**﴾ فوق الجنِّ والإنس والملائكة وسائر ما بعث، أو فوق الملائكة الذين على الأرجاء. وقيل: الهاء للثمانية في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾ لشدَّة الهول، قيل:

(1) وهذا ما يميل إليه كثير من العلماء الآن، وأمَّا ما جاءت به الأخبار فليس كلُّ ما نُقِل صحيحًا.

وأمَّا اليوم فأربعــة ﴿ثَمَانِيَةٌ﴾ أي: يحمل ثمانيةٌ عــرشَ ربِّك فوقهم، أي: فوق ظهورهم، أو فوق رؤوسهم، فـ«فَوْقَهُمْ» على هذا في نيَّة التأخير عن «ثَمَانِيَةٌ». وفي ذلك تعظيم للعــرش بكونه فوق ظهورهم، أو رؤوســهم لا بين أيديهم كالمرفوع إلى الصدور، أو متدلِّيًا بالأيدي.

وصرَّح العبَّاس ﵁ بأنَّه فوق ظهورهم، وهو أشــدُّ إعظامًا من كونه فوق الرؤوس. وقال ابن العربي: على كواهلهم.

[أصول الدين] وقيل: الحمل كناية عن عظمة الأمر بما يشاهد من أحوال الســلاطين يوم خروجهم على النَّاس للقضاء العامِّ، وليــس الله حالًّا بالعرش الآن ولا يومئذٍ. والقديم لا يتصوَّر مباشــرة الحادث له، والقديم لا يتحيَّز ولا يخفُّ ولا يثقل.

وفي ابــن ماجه عن العبَّــاس ﵁ في تفســير الآية: ثمانيــة أوعالٍ، بين أظلافهنَّ وأوراكِهنَّ ما بين ســماء إلى ســماء، فوق ظهورهنَّ العرش، ما بين أسفله وأعلاه ما بين السماء والسماء، [قلت:] والمراد ملائكة من نُورٍ بصورة الوعل، وهو تيس الجبل...[1].

وعن الضحَّاك: ثمانية صفوف، لا يعلم عدَّتهم إلَّا الله ﷻ.

والحمل على الجمع وظاهره من إرادة الأفراد أولى، كما قال ابن العربي في فتوحاته[2]، [قلت:] تحصَّلت لي من مكَّة نســخة منه بالقالب معها كلام لبعض الأشــعريَّة يبيِّن ما خالف فيه الأَشــعَرِيَّةَ، مثل قوله: كقولنا إنَّ صفات الله ليست زائدة عليه، وقد أذعنوا له ما لم يذعنوا لغيره، وهو مرادهم بالشيخ الأكبر.

(1) في نســخة «ب»، وفي الطبعة العمانية: زيــادة في الحديث عن حملة العــرش وأوصافهم، راجعها إن شئت. أو كتاب القزويني في عجائب المخلوقات.

(2) تقدَّم التعريف به وبالكتاب في ج 13، ص 342.

وعن ابن مسعود: غلظ كُلِّ سماء خمســـمائة عام، وبين كُلِّ سماء وسماء خمسمائة عام، وبين السابعة والكرسيِّ خمسمائة عام، وبين الكرسيِّ والعرش خمسمائة عام. وعن العَبَّاس رضي الله عنه عن رَسُــول الله ﷺ: «بين الأرضين والسماء اثنتان وسبعون ســنة»، أو قال: «إحدى وســبعون»، أو قال: «ثلاث وسبعون، وبين كُلِّ سماء وسماء وفوق الســابعة بحر طوله كَذَلِكَ، وفوق البحر أوعال ثمانية، بين ظلــف كُلِّ واحد وركبته كَذَلِكَ، عَلَيْهِم العرش، ومن أســفله إِلىَ أعلاه مثل ذَلِــكَ، وَهَؤُلَاءِ الأوعال حملة العرش». ويــروى: أَنَّ بين فوق عين كُلِّ واحد وطرفها خمسمائة عام، وبين شحمة أذنه وكتفه خمسمائة عام، وكذا بين أســفل ظلفه وكعبه، وكذا بيــن كعبه وركبته[1]، **والله أعلــم بصحَّة ذلك**، وقدرة الله تعالى صالحة لأضعاف ذلك أضعافًا لا منتهى لها.

﴿**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ**﴾ بالحســاب كما يعرض الجند على السلطان والخيل عليه، أو على سائسها، أو متولِّي شــأنها ليعرف أحوال ذلك. و«يَوْمَئِذٍ» متعلِّق بـ«تُعْرَضُ» بعده.

وعن الحسن عن أبي موسى ـ لا عن أبي هريرة، لأنَّ الحسن لم يسمع من أبي هريرة ـ: «يعرض النَّاس يوم القيامــة ثلاث عرضات، فأمَّا عرضتان فجدال ومعاذير، وأمَّا الثالثة فعند ذلك تَطَّاير الصحف، فآخِذٌ بيمينه وآخذٌ بشماله».

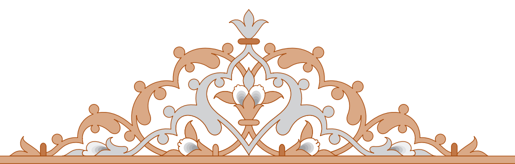
والتقدير: يــوم إذ يحمــل العرش فوقهــم ثمانيــة، أو يــوم إذ نفخ في الصور... إلخ. والجملة مســتأنفة، ولا حاجة إلى جعلها بدلاً إذا قُدِّر: يوم إذْ نُفِخَ... إلخ، للفصل الكثير، ولأنَّ العرض ليس نفسَ وقوعِ الواقعةِ وانشــقاقِ السماء ولا بعضَه، وإنْ قيل: بدل اشتمال فتكلُّف.

(1) ســبق التعليق على مثل هذه الأخبار وأنهــا لا تثبت إِلَّا بقطعيِّ الثبــوت والدلالة، وهو متعذِّر هنا. (المراجع).

﴿**لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَـةٌ**﴾ فِعله خافية، أي: لا يتصـوَّر أن يكون الخفاء يومئذ فضلاً عـن أن يقال: خفيت خافية، وإنَّما العرض لإفشـاء الحال وإقامة الحجَّة وإظهـار العدل، فإذا لم تخف عن الله يومئـذٍ فأولى أنَّها لم تخف يوم فعلها، هذا بادئ الرأي، **والأمر عند الله سواء قبلُ وبعدُ، وذلك تهديد.**

وقيل: لا تخفـى عن النَّـاس كقولـه تعالـى: ﴿يَـوْمَ تُبْلَى السَّـرَآئِرُ﴾ [سورة الطارق: 9]، والجملة مستأنفة، أو حال من واو «تُعْرَضُونَ»، ويومئذٍ يعاقبون على لبس الحرير والذهب، وعلى ما أخذوا من مال بالقمار أو الربا، أو على ما هو محرَّم وعلى إخفاء مالٍ ودعوى الإفلاس. [قلت:] أمَّا بلا إخفاء فلا إلَّا إن كان الإفلاس لإسراف أو صرف في معصية.

[فقه] وإذا ألزم جبَّار ناسًا مالاً جَازَ جمعُه بالعدل على طريقة ما ألزمهم، ولا إثم على جامعه، ومن ألزمه الإثم أخطأ.



﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ٢٣ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ٢٤﴾

حال الأبرار الناجين يوم الحساب

﴿فَأَمَّا مَنْ اوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ هو كتاب واحد جامع لكتبه المتعدِّدة بقدر أيَّامه، فإنَّ لكلِّ يوم وليلة قبله صحيفة، وتكتب حسناتُه من حين الطفولة، وقيل توصل صحفُه بعضها لبعض ﴿فَيَقُولُ﴾ لشدَّة فرحه وافتخاره بعد قراءته. [قيل] والسطر الأول أبيض يقرأه فيبيضُّ وجهه. ولعلَّ المراد: السطر الأوَّل من سطور حسناته أسفل الورقة لِمَا شُهر من أنَّ المسلم يرى سيِّئاته أوَّل كتابه فيشتدُّ ضيقه، ثمَّ حسناته أسفل، وهذا أشدُّ ما يكون فرحًا عكس الكافر. ولا كتاب للأنبياء والآلافِ السبعين الداخلين الجنَّة بغير حساب، ومنهم الصدِّيق رضي الله عنه ، ولا كتاب له. وأوَّل من يأخذ كتابه عمر، وله شعاع كشعاع الشمس، وبعده أبو سلمة بن عبد الأشدِّ[1].

[نحو] ﴿هَآؤُمُ اقْرَءُواْ كِتَابِيَهْ﴾ مفعول به لـ«اقْرَءُوا» ومفعول «هَآؤُمُ» محذوف لأنَّه فضلة، ولأنَّ اللغة الفصحى أنَّ اسم الفعل لا يتَّصل به الضمير على التنازع، أي: هاؤموه. ولو كان مفعولا به لـ«هَاؤُمْ»، لقيل: «اِقرَؤُوه» بالعمل في الضمير، لكن قد تحذف الفضلة.

(1) الله أعلم بصحَّة ما نقله الشيخ رحمه الله من أمور غيبيَّة الأصل فيها اعتماد النصِّ القطعيِّ سواء هنا أم فيما سيأتي عن أهل النار. (المراجع).

[لغة] ومعنى «هَآؤُمْ» خذوا. وجاءني في هذه الأيَّام كتاب سيبويه بخطِّ القالب، مع شرح صغير، وفيه: «العرب: تقول: هاءَ يا رجلُ بالفتح، وهاءِ يا امرأة بالكسر، وهاؤما يا رجلان، أو امرأتان، وهاؤم يا رجال وهاؤمن يا نسوة» انتهى. وهو متعدٍّ.

وقيل: معناه تعالوا، فيتعدَّى بـ«إلى»، وعلى كلِّ حال ميمه ونونه كميم أنتما وأنتم وأنتنَّ، وَقِيلَ: أصله هاكم أسقطت الكاف، وجعل مكانها الهمزة، وَقِيلَ: «هاؤم» كلمة وضعت لإجابةٍ عند الفرح، كما روي: نادى أعرابيٌّ رسول الله ﷺ بصوت عالٍ فأجابه ﷺ بصولة صوته: «**هاؤم**»(1).

فالمعنى خذوا يا أصحابي أو تعالوا إليَّ يا أصحابي، أو إنَّ لي فرحًا يا أصحابي فافرحوا معي، يدعو حاضريه إلى قراءة كتابه فرحًا به، ثمَّ يقرأه.

والهاء فيه وفي «حِسَابِيهْ» و«مَالِيَهْ» و«سُلْطَانِيَهْ» و«مَاهِيَهْ» هاء السَّكت تثبتُ وقفًا ووصلاً.

﴿**إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ**﴾ موقن أنِّي ملاق حسابيه، فإنَّ المؤمن لا يشكُّ في الحساب، ولا يرجِّحه بل يجزم به في حياته. ويجوز إبقاءُ الظنِّ على ظاهره، بمعنى أنَّه كان في الدنيا أو عند موته يظنُّ أنَّه ملاقٍ حسابه اليسير الذي وَجَدَهُ في الآخرة، وهو الحساب السَّهل، فالظنُّ في السهولة لا في مطلق الحساب.

وفيه أنَّه ليس كلُّ مؤمن يرجِّح أنَّه يحاسب يسيرًا، بل ذلك لا يجوز لوجوب استواء الرجاء والخوف، نعم يجوز ترجيح الرجاء عند الاحتضار.

[قلت:] فلعلَّ ظَنَّ يُسْرِ الحساب يكون عند الاحتضار، كما قال حذيفة ﵁ عند احتضاره: «الآن الرجاء فيك أمْثَلُ»، ويناسبه أنَّ الشياطين عند

(1) رواه **الترمذي** في كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة، رقم: 3535. من حديث صفوان بن عسال.

الاحتضار على أشــدِّ ما يكونون من الإضلال خوف فوت المؤمن عنهم، وقد قال الله تعالى: «**أنا عند ظنِّ عبدي فليظنَّ بي ما شــاء**»[1] فمن ظنَّ بعمله خيرًا لكونه قد أحْسَنهُ جاز له ذلك، وهذا يناسب القول بأنَّه لا بأس ما لم يَعْرَ قلبُه عن الخوف أو عن الرجاء.

والحســـاب ثلاثة: الحســـاب الحقيق وهو الذي بمناقشـــة، وهو للشقيِّ، والحساب الذي هو سهلٌ من أوَّل الأمر، والذي فيه بعض تضييق أو كثيره، ثمَّ يعفى عنه.

ويجوز أن يكون المعنى: إنِّي ظننت أنَّ حسابي يكون عسيرًا لسُوء أعْمالِي ولم يكن كذلك، وذلك مناسب لفرحه في قوله: «هَآؤُم».

[قلت:] ولا يقبــل قول من قال: إنَّ الظنَّ على ظاهــره من حيث إنَّ المرء لا يخلو من الوساوس، لأنَّا نقول: لا يشــكُّ المسلم، وما قد يقع ويجتهد في نفيه شيء قليل نادر منقطع، لا يستحضره المؤمن يوم القيامة.

﴿**فَهُوَ فِي عِيشَــةٍ**﴾ نوع عظيم من العيــش ﴿**رَّاضِيَةٍ**﴾ إســناد الرضا إلى العيشة تجوُّزٌ في الإسناد مجاز عقليٌّ، أو مجاز بالحذف، أي: راض صاحبُها.

أو وزن فاعلة هنا للنَّسَب، أي: ذات رضًا، أي: ملتبِّسة بالرضَا، لكن رضا صاحبها، أو جعلت بنفسها راضيةً مبالغة.

﴿**فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ**﴾ بدل على حذف مضاف، أي: في عيشــة جنَّة عالية، أو نعت ثانٍ، والمراد بعُلُوِّها علوُّ قدرها أو علــوُّ مكانها، أو يقدَّر: عال درجاتُها، أو عال خيراتُها من بناء وشجر، وتفســيرُه بالعلوِّ الحسِّيِّ والمعنويِّ استعمال للكلمة في حقيقتها ومجازها.

---

(1) تقدَّم تخريجه. انظر: ج 4، ص 426.

[صرف] ﴿**قُطُوفُهَا**﴾ جمع قِطْفٍ (بكسر القاف) وهو ما يؤخذ ويقطع من الثمار قبل الجذاذ، رطبًا أو عنبًا أو غيرهما، وليس جمعًا للقَطف (بالفتح) الذي هو مصدر، لأنَّ الأصل في المصدر أن لا يجمع إلَّا باعتبار الدلالة على الأنواع، ولا يراد هنا أنواع القطع بل أنواع المقطوع، اللَّهمَّ إلَّا أن يراد أنواعه باعتبار متعلَّقه وهو ما يقطع.

﴿**دَانِيَةٌ**﴾ قريبة ينالها المضطجع والقاعد والمتكئ والقائم، **أو دُنُوُّها قربُ تناولها وهي عالية إذا أرادها وليُّ الله تدلَّت إليه** ولو مضطجعًا. أو ﴿دَانِيَةٌ﴾: غير ممتنعة ببعد ولا شوك، كما يُطلق البعيد بمعنى الممتنع ولو قريبًا.

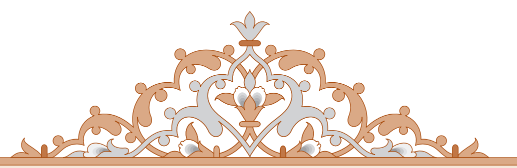
﴿**كُلُواْ وَاشْرَبُواْ**﴾ يُقال لهم: كلوا واشربوا ﴿**هَنِيئًا**﴾ مفعول مطلق، أي: أكلا وشربًا هنيئًا. وأفرد مع أنَّ منعوتَه متعدِّد لأنَّه بوزن فعيل بمعنى فاعل، وهو بوزن المصدر، والمصدر يصلح للقليل والكثير. أو يقدَّر: كلوا هنيئا واشربوا هنيئًا، أو هو مصدر، أي: هنئتم هنيئًا.

﴿**بِمَآ أَسْلَفْتُمْ**﴾ أمضيتم من الأعمال الصالحة مطلقًا لا خصوص الصوم على الصحيح، متعلِّق بـ«هَنِيئًا». أو يتنازع فيه الثلاثة: كلْ واشربْ وهنيئًا. ﴿**فِي الاَيَّامِ الْخَالِيَةِ**﴾ الماضية في الدنيا، وَقِيلَ: أريد أيَّام الصوم.

وقيل: الخالية من الشهوات النفسية من اللذَّات والمعاصي، يقول الله تعالى: «**يا أوليائي طال ما نظرت إليكم في الدنيا، وقد قَلُصت شفاهكم من الأشربة، وغارت أعيُنكم، وخمصت بطونكم، فكلوا اليوم في نعيمكم، وكلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيَّام الخالية**»[1].

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره، مج 10، ص 60، بلاغا عن يعقوب الحنفي.





﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿25﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿26﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿27﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿28﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿29﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿30﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿31﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿32﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿33﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿34﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿35﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿36﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿37﴾﴾

حال الأشقياء يوم القيامة

﴿**وَأَمَّا مَنُ اوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمُ اوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمَ اَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ**﴾ لِمَا يرى من السُّوء، والمراد تمنِّي أن يكون لا كتاب سُوء لَهُ ولا حساب فضْلاً عن أن يُؤتى كتابا ويدري حسابًا، أو المراد التضرُّر والتحسُّر جدًّا في الحساب والكتاب، حتَّى إنَّه رضي أن يعذَّب بدونهما.

وهو شامل للفاسق يؤتى كتابَه بشماله كالمشرك، ووقف بعض قومنا، وقال بعض قومنا: يأخذه بيمينه، ولا يتصوَّر هذا إلَّا بناء على أنَّه سيخرج منها إلى الجنَّة، وقال بعض منهم: إنَّه يأخذ كتابه بيمينه بعد الخروج منها.

وكلٌّ يقرأ كتابه، وبذلك وردت الأخبار، وزعم بعض أنَّ بعض المشركين لا يقرأه لدهشه حتَّى لا يُميِّزَ، وبعض يقرأه، وكلُّ أحد يقرأ كتابه ولو كان لا يعرف القراءة في الدنيا، والشقيُّ يقرأ السطر الأوَّل أسود فيسودُّ وجهه، ولا بياض في كتابه. وشُهر أنَّه يقرأ حسناته أوَّلاً فيفرح، ثمَّ يُعقَّب بسيِّئاته فيشتدُّ

كربُه، وأوَّل من يأخذ كتابه بشماله الأسود بن عبد الأشد. وكافر الجنِّ ككافر الإنس، وهو منهم. ومؤمن الجنِّ كمؤمن الإنس.

﴿**يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ**﴾ يا ليت الموتة التي متتها في الدنيا استمرَّت، وقطعت عنِّي البعث، دلَّ عليها المقامُ ولو لم يَجْرِ لها ذكر، أو يا ليت هذه الحالة التي أنا فيها أماتَتْهُ، أوْ يا ليت الحياة الدنيا كان بدلها أنَّه لم يخلق.

﴿**مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَه**﴾ «مَا» حرف نفيٍ، والمفعول محذوف، ومَالِ فاعل مضاف لياء المتكلِّم، أي: ما أغنى عنِّي المال الذي لي شيئًا، أي: ما دفع عنِّي ضُرًّا، وكان يحسب أنَّ ماله أخلده، وأنَّه يفضل به على غيره في الآخرة إن كانت.

أو «مَا» من قوله ﷻ: ﴿مَالِيَهْ﴾ اسم، و«لِيَهْ» جار ومجرور وهاء السَّكت. وهذا يعمُّ المال والأعوان والجاه والصحَّة، أي: ما أغنى عنِّي الذي لي من المال والأعوان... إلخ شيئًا.

أو «ما» الأولى استفهاميَّة مفعول به، أي: أيَّ شيء دفع عنِّي من الأضرار؟ أو مفعول مطلق، أي: أيَّ إغناء أغنى عنِّي المال الذي لي؟ أو الذي لي من المال... إلخ.

وليس كلُّ أحد من الأشقياء له مال وأعوان وجاه، فإمَّا أن تكون الآية تهديدًا لمن له ذلك من قريش أو غيرهم، وإمَّا أن نجعل «ما» الثانية بحسب الشقيِّ، أي: الذي لي من كذا بحسب ماله ولو جِسْمُه وحْدهُ.

﴿**هَّلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ**﴾ تَلَفَتْ حجَّتي التي أحتجُّ بها في الدنيا كما قال ابن عبَّاس وجمهور المتقدِّمين، أو زالت حجَّتي إذْ نطقت جوارحي بشركي، أو التسلُّط على بدني الذي أُمِرتُ بأن أطيع الله به. وليس المراد ملكُه وتسلُّطه على النَّاس وآلاته، فإنَّه ليس ذلك لكلِّ شقي، كما قال



عبد بن حميد[1]: «ما كُلُّ من دخل النَّار كان أمير قريةٍ»، إلَّا إن أريد به تهديد من له ذلك في قريش.

﴿**خُذُوهُ**﴾ يقول الله ﷻ للزبانية: خذوه من موقفه ﴿**فَغُلُّوهُ**﴾ اربطوه بالأغلال ﴿**ثُمَّ الْجَحِيمَ**﴾ مفعول ثانٍ لـ«صَلُّوهُ» بعده، قُدِّمَ على طريق الاهتمام والحصر والفاصلة.

والجحيم طبقة من النَّار، أو النَّار المتأجِّجة مطلقًا. ﴿**صَلُّوهُ**﴾ أدخِلوه، لكفره بالله العظيم، وأيضًا لتعاظمه على النَّاس إن كان يتعاظم.

﴿**ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ**﴾ متعلِّق بـ«اسْلُكُوهُ»، والفاء فيه صلة للربط، وقيل: التقدير: ثمَّ مهما يكن من شيء فاسلكوه في سلسلة ذرعها... إلخ، فقدَّم «فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا...» إلخ عوضًا عن المحذوف، وللحصر، كأنَّه قيل: لا تسلكوه إلَّا في هذه السلسلة لأنَّها أفظع، أو ثُمَّ مهما يكن من شيء ففي سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا اسلكوه. و«ثُمَّ» في الموضعين لتفاوت أنواع التعذيب من الغلِّ والتصلية والسلك في سلسلة، كما هو أنسبُ بمقام التهديد، فذلك أولى من الحمل على تراخي الزمان.

﴿**ذَرْعُهَا**﴾ قياسُها أو مقدارُها في الطول ﴿**سَبْعُونَ ذِرَاعًا**﴾ الجملة نعت سلسة والذراع ذراع البدن هكذا، أو ذراع الشقيِّ المربوط بالسلسلة، وذلك تعرفه العرب فيفسَّر به. وعن ابن عبَّاس ذراع المَلَكِ. وهو مقدار ما بين الكتف وأعلى الأصابع. وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي عن رسول الله ﷺ: «**لو أرسل حجر على رأس السلسلة لسارت أربعين خريفًا ولم تبلغ أصلها**» وهي تقطع خمسمائة عام قبل طلوع الفجر[2].

(1) تقدَّم التعريف به في ج 10، ص 207.

(2) رواه **الترمذي** في كتاب صفة جهنَّم، رقم: 2791، عن عبد الله بن عمْرو.

ومن التخليط الذي لا يشمُّ رائحة القبول ما قيل: الذراع سبعون باعًا، والباع ما بين الكوفة ومكَّة. وقال سفيان الثوريُّ: كلُّ ذراع سبعون ذراعًا من ذراع النَّاس. وعن ابن عبَّاس: لو وضعت حلقة السلسلة على جبل لذاب كالرصاص.

﴿**فَاسْلُكُوهُ**﴾ ادخلوه بأن تلفُّوها عليه، سمَّى جعله في وسطها باللَّيِّ عليه إدخالاً على طريق الاستعارة لجامع التوسُّط. وعن ابن عبَّاس إنَّ أهل النَّار يكونون فيها كالثَّعلب في الجُبَّة، والثعلب طرف خشبة الرمح، والجبَّة الزُّجُّ وهو مركزه. ونُسبَ الزجَّاجُ النحويُّ المفسِّر [للزُّجِّ] كاللَّبَّان والثَّمَّار، لأنَّه كان يبيعه أو يصنعه.

وعن ابن عبَّاس: اسلكوها فيه بأن تدخل في دبره وتخرج من فمه، ويروى بالعكس، ويروى من منخريه وينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود ويشوى، ففي ذلك قلب. وما ذكرت أولى وعليه الجمهور.

﴿**إِنَّهُ كَانَ**﴾ في الدنيا أو في علم الله، والأوَّل أظهر ﴿**لَا يُومِنُ بِاللّٰهِ الْعَظِيمِ**﴾ والجملة تعليل جمليّ، أي: لأنَّه لا يؤمن بالله العظيم عُذِّب بذلك العذاب العظيم. ﴿**وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ**﴾ إطعام ﴿**الْمِسْكِينِ**﴾ فـ«طعام» اسم مصدر هو الإطعام، كالعطاء بمعنى الإعطاء، ويجوز كون الطعام نفس ما يؤكل، فيقدَّر مضاف، أي: ولا يحضُّ على بذل طعام المسكين. ومفعول «يَحُضُّ» محذوف، أي: لا يحضُّ أحدًا على إطعام المسكين فضلاً عن أن يطعمه من ماله.

والحضُّ: الحثُّ، وإذا كان تارك الحضِّ بهذه المنزلة ولو كان يطعمه من ماله فكيف تارك الإطعام؟.

[فقه] ثمَّ إنَّ إطعام المسكين نسخ وجوبه بالزكاة، بقي أنَّه لزم الواجِدَ تنجيتُهُ من الهلاك، ولزم وليّه إنفاقُه. ثمَّ إنَّه يجوز أن يكون ذلك كناية عن

إنكار البعث والجزاء فهو لا يحضُّ على إطعامه ولا يطعمه، لأنَّه لا يرجو ثوابًا يأتيه بعد الموت.

[قلت:] والآية تضمَّنت النهي عن أقبح العقائد وهو الكفر، وأشنع الرذائل وهو البخل، وقسوة القلب التي في ضمن البخل. وفي العقاب على ترك الحضِّ خطاب الكافر على الفرع كالأصل.

﴿**فَلَيْسَ لَهُ**﴾ بسبب ذلك ﴿**الْيَوْمَ**﴾ يوم القيامة ﴿**هَاهُنَا**﴾ في مقام الحساب ﴿**حَمِيمٌ**﴾ قريب أو صديق يحميه عن العذاب، أي: يمنعه ﴿**وَلَا طَعَامٌ اِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ**﴾ مائع في النَّار، يشبه ما يجري من الجراح إذا غسلت، فهو دم وماء يسيل من لحوم أهل النَّار وذلك هو الصديد، وذلك أولى من تفسيره بالزقُّوم.

وفسَّره بعض بالضريع، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ اِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [سورة الغاشية: 6]. قال ﷺ: «**لو أنَّ دلوًا من غسلين يهراق في الدنيا لأنتن أهلها**»[1] رواه أبو سعيد الخدريُّ. لَمَّا منعَ الطَّعامَ في الدنيا أطعمه الله في الآخرة طعام سوء.

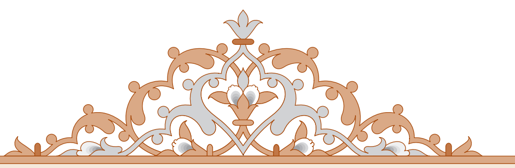
وكان أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحضُّ أهله على تكثير المرق لأجل المساكين، ويقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع نصفها بالصدقة؟ اقتبس ذلك من الآية. وعن الحسن: أدركت أقوامًا يعزمون على أهلهم أن لا يرُدُّوا سائلاً.

[نحو] ووزن «غِسْلِينٍ» فعلين، من الغسل، وخبر «لَيْسَ» كلمة «لَهُ» لا «هُنَا»، لأنَّ المقام لذكر مَا لَهُ أو ليس له، لا لذكر ما هنا أو ليس هنا، ولا اتِّصال له بِـ«لَيْسَ»، ولو جعلنا الخبر «هنا» لكان «لَهُ» متعلِّقًا بـ«هُنَا»، وقدِّم

(1) رواه **الحاكم** في كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحاقة، رقم 3850، من حديث أبي سعيد الخدري.

عليه ـ مع أنَّ الأصل في العامل المعنوي أن لا يتقدَّم عليه معمولُه ولو ظرفًا، وإنَّما كان هنا عامِلاً معنويًّا ـ لأنَّه ناب عن ثبت أو ثابت، وليس فيه لفظ ثبت أو ثابت، ولو علَّقناه بثبت أو ثابت المحذوف لكان كالمعنويِّ، لأنَّه أُلْغِي وناب عنه لفظ «هُنَا». ولا يتعلَّق «لَهُ» بـ«لَيْسَ»، لأنَّ «لَيْسَ» لا يعلق بها شيء.

﴿**لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَاطِـُٔونَ**﴾ الجملة نعت «غِسْلِينٍ» أو مستأنفة. و﴿ٱلْخَاطِـُٔونَ﴾ المشركون والفاسقون، أخطؤوا كُلُّهم الصَّوابَ إلى الباطل.



﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٤٨ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٥٢ ﴾

تعظيم القرآن وإثبات نزوله بالوحي من الله

﴿ **فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ** ﴾ لَأنَا أُقسم، بلام الابتداء فحذفت همز أنا ونونه. أو «لا» ناهية، أي: لا تخطئوا، كما دلَّ عليه ﴿ لَا يَاكُلُهُۥٓ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾. أو «لَا» زائدة للتأكيد، فإذا كان الجواب منفيًّا فلا تأكيد للنفي، وإذا كان مُثْبتًا كما هنا فهي تأكيد للإثبات، فيرجع إلى معنى قولك: لا تنكروا هذا المثبت، أو نَفَى القسم لظهور الأمر. و«مَا تُبْصِرُونَ» ما تشاهدون من آثار القدرة والأجسام والدنيا والإنس والخَلق والنِّعم الظاهرة.

﴿ **وَمَا لَا تُبْصِرُونَ** ﴾ الله ﷻ وأسرارَ قدرته، والأرواح والآخرة، والسماوات الستَّ، والعرش والكرسيَّ والجنَّة والنَّار، والجنَّ والملائكة، والنِّعم الباطنة، واللَّوح المحفوظ، وما ستره ولم يُظْهِرْهُ في اللَّوح، وما في بطن الأرض وسائر الأرضين السبع، وما بينهنَّ، والأرواح، وما في البحر وأرضه. والحاصل العموم في الموضعين.

[سبب النزول] قال الوليد بن المغيرة: محمَّد ﷺ ساحر، وقال أبو جهل: شاعر، وقال عتبة: كاهن، فأنزل الله ﷻ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ من الله تعالى إلى خلقه، والرسول لا يقول من عنده ﴿كَرِيمٍ﴾ على الله تعالى، وهو سيِّدنا محمَّد ﷺ على الصَّحيح، وقيل: جبريل رسول إلى سيِّدنا محمَّد ﷺ، ويردُّه أنَّ الذي يصفونه بالشعر والسحر والكذب والكهانة ونحو ذلك هو سيِّدنا محمَّد ﷺ، لا جبريل، وأضيف إليه ﷺ، لأنَّه يبلِّغه إلى النَّاس.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ هذا دليل على أنَّ الرسول هو محمَّد ﷺ لا جبريل، لأنَّ الذي يقولون: إنَّه شاعر هو سيِّدنا محمَّد ﷺ لا جبريل عليه السلام فأبطل قولهم: إنَّه شاعر.

وقيل: المعنى: إنَّه لَقَول جبريل لا قول محمَّد الذي تَدَّعُون أنَّه شاعر، فتحصل من رسالة جبريل رسالة محمَّد، ويبحث بأنَّ الأصل في الرسالة والأكثر أن تنسب إليه ﷺ لا إلى جبريل، فيجب الحمل عليه حتَّى يوجد دليل قاطع.

والحقُّ أنَّ الرسول سيِّدنا محمَّد ﷺ، لأنَّهم إنَّما يؤمنون أو يكفرون به، وقد ذكر الإيمان بعدُ، ولقوله: ﴿الْوَتِينَ﴾ وقوله: ﴿عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾.

وهو ﷺ لا يقول الشعر من عنده، وإنْ ذَكَرَ شعر غيره انكسر في لسانه، أو قدَّم وأخَّر وكان يقول:

تَفَاءَل بما تهوى يكن فَلَقَلَّمَا يقال لشيء كان إلَّا تَيَسَّرَا[1]

يقرأه قراءة النثر، ويقول: «لشيء قد كان» ولا يصحُّ أن يتمَّه صحيحًا، وإن صحَّ فإنَّما يقرأه نثرًا. ويقول:

«ستبدي لك الأيَّام ما كنت جاهلاً ويأتيك من لم تزوِّد بالأخبار»[2].

---

(1) لم نقف على تخريجه.

(2) أورده **السيوطي** في الدرِّ، ج 7، ص 71. وقال: أخرجه عبد الرزَّاق وعبد بن حميد وابن جرير... عن قتادة.

وإنَّما هو: «ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّد»[1]. ويقول الصدِّيق: أشهد أنَّك رسول الله، ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة يس: 69]، وكان يقول يوم الخندق:

«اللَّهمَّ لا عَيْش إلَّا عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة»[2]

يُكَسِّرُه، فأجابه الأنصار:

«نحن الذين بايعوا محمَّدًا على الوفاء ما بقينا أبدًا»

وعن سلمان أنَّه ﷺ قال يوم الخندق عند ضربه بالمعول:

«باسم الإله وبه بدأنا ولو عبدنا غيره شَقِيْنَا
فحبَّذَا ربًّا وحَبَّذَا دِينًا»[3]

وعن البراء بن عازب أنَّه ﷺ قال:

«أنا النَّبِيء لا كَذب أنا ابن عبد المطَّلب»[4]

وعن جندب أنَّه ﷺ عثَر فأصاب إِصْبعَهُ جُرحٌ فقال:

«هل أنتِ إلَّا إصْبعٌ دُميتِ وَفِي سَبيل الله مَا لقيت»[5]

فإمَّا أن يكسر الوزن بتغيير أو يقرأه نثرًا، وإن قال شعرًا من عنده فإنَّه لم يدر أنَّه شعر ولكن اتَّفق له وزنه وقرأه نثرًا.

﴿قَلِيلاً مَّا تُومِنُونَ﴾ «قَلِيلاً» مفعول مطلق، أي: تؤمنون إيمانًا قليلاً كالإيمان بالله وأنَّه خلق السماوات والأرض. و«مَا» زائدة لتأكيد القلَّة، أو نكرة

(1) البيت لطرفة بن العبد.
(2) رواه **البخاري** في كتاب الجهاد والسير، باب البيعة في الحرب أن لا يفرُّوا، رقم: 2801، من حديث أنس.
(3) أورده **الهيثمي** في بغية الباحث، باب غزوة الخندق وقريظة: رقم: 690، عن أبي عثمان.
(4) رواه **البخاري** في كتاب الجهاد والسير. باب بغلة النبي ﷺ، رقم: 2719، من حديث البراء.
(5) رواه **البخاري** في كتاب الجهاد والسير. باب من ينكب في سبيل الله، رقم: 2648، من حديث جندب.

تامَّة. والقلَّة بمعنى الضعف، وذلك أنَّ التصديق لم يخل عنه قلوبهم لقوَّة الدلائل، ولكن عاندوا بألسنتهم، مع ما فيهم من الرغبة في أن يكون غير صَادِقٍ وابتغاء العوج والتشبُّث بشُبْهَةٍ مَّا.

وقيل: القلَّة النفي هنا، ولا يخفى أنَّه خلاف الظاهر، فلا يحمل عليه القرآن، وإنَّما يحمل على النَّفي إذا دلَّ دليل، نحو: أقلُّ رجل يقول كذا إلَّا زيدٌ، وقَلَّ رجل يقول كذا إلَّا زيد، وقوله:

أُنيخَتْ فألقَتْ بلدة فوق بلدة قليلاً بها الأصواتُ إلَّا بُغامُها[1].

ولم تستعمل العرب «قَلِيلاً» في النفي إذا نصب بالفعل.

وقيل: «قَلِيلاً» ظرف، أي: زمانًا قليلا تؤمنون بألسنتكم، وذلك وقت يقال لهم: مَنْ خَلَقَكم؟ أو مَن خَلَقَ السماوات والأرض؟ ويبحث بأنَّ المقام للإيمان برسول الله ﷺ.

ويجوز أن تكون «مَا» نافية، و«قَلِيلاً» مفعول مطلق، أو ظرف زمان، أي: ما تؤمنون ولو إيمانا قليلاً أو زمانًا قليلاً، على أن لا صدر لِـ«مَا» إذا لم تعمل عمل ليس.

[سيرة] والآية من دواعي عمر إلى الإسلام، جاء يستمع ليْلاً خِفيةً، فسمعه يقرأ فقال: شاعر، فقرأ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، فقال: كاهن، فقرأ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾، وقال: كاذب، فقرأ: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ وَلَوْ تَقَوَّلَ...﴾ إلخ.

﴿**وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ**﴾ لأنَّ كلام الكهانة ليس على طريق القرآن من الوعظ والإخبار بأحوال القرون السابقة، والوعظِ والأحكامِ الشَّرعِيَّة، وقد شاهدوا الكهانة. ﴿**قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ**﴾ مثل ﴿قَلِيلاً مَّا تُومِنُونَ﴾، لو لم يهملوا التذكُّر لم يقولوا ذلك.

---

(1) البيت من الطويل، وهو لذي الرمَّة في ديوانه: ص 1004. والبلدة الأولى صدر الناقة، والبغام صوت الناقة. لسان العرب، ج 1، ص 480 مادَّة: «بلد».

[بلاغة] وذكر الإيمان مع نفي الشعر، والتذكُّر مع نفي الكهانة لأنَّ مباينة القرآن للكهانة تتوقَّف على تذكُّر أحواله ﷺ ومعاني القرآن، ومنافاةُ القرآن للشعر ظاهرةٌ لفظًا ومعنًى لا يحتاج لتذكُّر.

﴿**تَنزِيلٌ**﴾ مُنَزَّلٌ بلسان جبريل على محمَّد ﷺ ﴿**مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ خبر ثانٍ لـ«إِنَّهُ»، وهذا أولى من أن يكون خبرًا لمحذوف، أي: هو تنزيل. ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الَاقَاوِيلِ**﴾ أي: عالج قولاً كاذِبًا.

[صرف] والتقوُّل تفعُّلٌ، والتفعُّل للاكتساب والعلاج، والكذب بالأصالة، كالأمر الصعب الذي يعالَج. والأقاويل جَمْعُ أَقْوَالٍ، فهو جمع الجمع، أو جمع أَقْوُولَة (بضمِّ الهمزة) كأُحدوثة وأُعجوبة، فهو جمع لمفرد غير مستعمل، والمعروف في الأفعولة التعظيم لا التحقير كما قيل. واختار القول العظيم، لأنَّ كلَّ كلام من القرآنِ عظيمٌ عجيبٌ، فكأنَّه قيل: لو كان تلك الأقوال العجيبة كذبًا منه لانتقَمنَا منه.

﴿**لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ**﴾ يده اليمنى، أي: أَمْسَكْنَاهُ بيمينه. والباء للإلصاق. والإسناد مجازيٌّ، وحقيقته لجبريل. أو يقدَّر مضاف، أي: لأَخَذَ مَلَكُنَا. أو الباء صلة، و«مِنْ» للابتداء متعلِّقة بـ«أخذ»، أو بمحذوف حال من «الْيَمِينِ» على أنَّ الباء زائدة، و«مِنْ» للتبعيض.

ومثل ذلك في قوله: ﴿**ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ**﴾ هو عِرْقُ القلب الذي إذا قطع مات صاحبُه، أو عِرقُ الظهر المسمَّى بالنُّخاع، أو عرقُ بين القلب والحلقوم لا حياة مع قطعه، وذلك تصوير للإهلاك بصورة فظيعة، كما يأخذ سيَّاف السلطان رجلا بيده، ويضرب عنقه بالسيف. والإسناد في «قَطَعْنَا» حقيق.

[نحو] ﴿**فَمَا مِنكُم مِّنَ اَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ**﴾ عطف على «قَطَعْنَا» عطف اسْمِيَّة على فِعْلِيَّة، و«مِنكُمْ» متعلِّق بمحذوف حال من المستتر في «حَاجِزِينَ»، أو من «أَحَدٍ» على قول جواز الحال من المبتدأ وَ«مِن» الثانية صلة لتأكيد النفي في اسم

«مَا»، وهاء «عَنْهُ» عائدة إلى رسول الله ﷺ، المعبَّرِ عنه بالرسول. والضمير في «تَقَوَّلَ» وما بعده [كذلك عائد إلى الرَّسُول ﷺ]، أي: فما يحول أحد بيننا وبينه، أو عائدة إلى القطع المعلوم من «قَطَعْنَا». و«حَاجِزِينَ» خبر «مَا». وجُمِع لأنَّ «أَحَد» منكَّر عامٌّ للنَّفْي قبله، كقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [سورة البقرة: 285]، وقدَّم «عَنْهُ» للفاصلة، وبطريق شدَّة الاهتمام بقتله لو تقوَّل.

﴿وَإِنَّهُ﴾ الرسول، أو القرآن على حدِّ ما مرَّ، والرسول أولى ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ هم مَن كَتَبَ الله ﷻ تَقْوَاهُ يُؤمِنُ بِهِ مِن شِرْكٍ ويُؤثِّر فيه، أو يزيد فيه تذكُّرًا بعد الإيمان، وإن شئت فتَذْكِرَةٌ لِكُلِّ أحدٍ وخصَّ المتَّقين لأنَّهم المنتفعون به.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ يا أهل مكَّة، والتبعيض المشهور في النِّصف وما دونه باعتبار من سيؤمن منهُم بعد الفتح، فالمراد من يكذِّب ولا يؤمن، وَقِيلَ: الخطاب للمؤمنين بأنَّ منهم من سيرتَدُّ، والقلَّة واضحة.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآن وهذا ممَّا يقوِّي الضمير في «إِنَّهُ» للقرآن ﴿لَحَسْرَةٌ﴾ عظيمة ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يعاقبون على تكذيبه، وحسرة عليهم بمشاهدة نجاة المؤمنين وثوابهم، وليس بممنوع أنَّ الرسول حسرة عليهم إذْ كذَّبوا به وشاهدوا صدقه في الآخرة. وقيل: الهاء للتكذيب، وما تقدَّم أولى وكذا الكلام في قوله ﷻ:

﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ حقٌّ هو اليقين، وقيل: حقٌّ من اليقين، أو عين اليقين، ويقال: أعلى مراتب العلم حقُّ اليقين، كعلم العاقل بالموت إذا ذَاقَهُ، ودونه عين اليقين، كعلمه به عند معاينة ملائكته، ودونه علم اليقين كعلمه به في سائر أوقاته.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ نَزِّه الله ﷻ عَمَّا لا يليق به بذكر اسمه العظيم، شكرًا على ما أوحي إِلَيْك من هذا القرآن، ونَفْيِ التقوُّل.

سبحان ربِّي العظيم، سبحان ربِّي الأعلى.

اللَّهُمَّ وَفِّقنا وأعنَّا.

وصلِّ على نبيئك محمَّد وآله وصحبه وسلِّم.

70

تفسير سورة المعارج

مكِّـيَّة وآياتها 44 ـ نزلت بعد سورة الحاقة

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿1﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿2﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلْمَعَارِجِ ﴿3﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٖ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٖ ﴿4﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرٗا جَمِيلًا ﴿5﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿6﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴿7﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿8﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿9﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ﴿10﴾ يُبَصَّرُونَهُمْۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ﴿11﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿12﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ﴿13﴾ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿14﴾ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿15﴾ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ﴿16﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿17﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿18﴾﴾

تهديد المشركين وإثبات وقوع يوم القيامة

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَــالَ﴾ جرى ﴿سَآئِلُۢ﴾ واد سائل ﴿بِعَذَابٍ﴾ كما تقول: ســال الوادي بالماء، وذلك استعارة، شــبَّه تتابع العذاب بسيلان الماء، أو كناية عن كثرة الهلاك، وذلك عذاب يوم بدر، أو عذاب جهنَّم. وعن زيد بن ثابت: «ســائل واد في جهنَّــم». والمضي لتحقُّق الوقــوع، وذلك من السيلان، كما قرأ ابن عبَّاس: «سَالَ سَيْلٌ»، والسيل: الماء الجاري.

[صرف] ويجوز أن يكون الأصل: «سَأَلَ» بالهمزة بمعنى دَعَا فقلبت ألفًا، أو على لغة من يقول: سال يسال بمعنى دعا، بالألف في الماضي والمضارع منقلبة عن ياء مكســورة في الماضي مفتوحة في المضارع قلبت ألفا فيهما، وقيل: عن واو، ومن ذلك قول حسَّان إذْ سَألت هذيل رسول الله ﷺ أن يُبيح لها الزِّنى:

سَالَتْ هُذَيْلُ رسول الله فاحشة ضَلَّتْ هذيلُ بما قالت ولم تصب

والمشــهور في معنى الدعاء «سَــأَلَ» بالهمزة، كما قرأ بها الجمهور، يقال: ســأل بالطعام، أي: دعا به أن يُؤتى به، كقولــه تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَــا بِفَاكِهَةٍ﴾ [ســورة صٓ: 51]، وقد قيل: أصله التعدِّي بنفســه كما هو الظاهر، ولكن قرن بالباء لتضمُّن معنى الاهتمام، أو مجاز عن معنى الاهتمام المتســبِّب للدعاء الملزوم له. وقد قيل: الباء زائدة في المفعول به، أي: طلب عذابًا يقع، وقيل: بمعنى عن.

والسَّــائل النضر بن الحارث إذ قال: ﴿اللَّهُــمَّ إِن كَانَ هَذَا هُــوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ اَوِ اِيتِنَا بِعَذَابٍ اَلِيمٍ﴾ [سورة الأنفال: 32].

أو الحارث بن النعمان إذ بلغه قول رسول الله ﷺ في حقِّ عليٍّ: «**من كُنتُ مولاه فعليٌّ مولاه**»[1] فقــال: «اللَّهمَّ إن كان ما يقول محمَّــد حقًّا فأمطر علينا حجارة من السَّماء أو اِئْتنا بعذاب أليم، فرماه الله بحجر على دماغه فخرج من دبره فمات. وَلَكِنَّ الموجود في الســير أنَّه قال ذلــك لعليٍّ في غدير خم، في أواخر سِــنِي عمره، فلا تكون الســورة مكيَّة، مع أنَّها مكيَّة إجماعا ـ كما قال القرطبيُّ ـ إلَّا ﴿وَالذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾.

وقيل: أبو جهل، إذ قال: «فأسقط علينا كسفًا من السماء أو اِئْتِنَا بعذاب أليم».
وقيل: نوح إذ سأل عذاب قومه. وقيل: هو رسول الله ﷺ استعجل عذاب قومه.

(1) رواه **الترمذي** في كتاب المناقب، باب مناقب علي بن أبــي طالب، رقم: 3713. من حديث زيد بن أرقم.

وتنكير «سَـائِلٌ» للتعظيم علـى القولين، والقول بأنَّـه واد، [لأنَّه نكرة]، وللتحقير على ما قيل: إنَّه النضر، أو أبو جهل، أو الحارث.

﴿**وَاقِـعٍ لِّلْكَافِرِينَ**﴾ أي: واقع علـى الكافرين كما قرأ بـه أُبي، أو اللَّام للتعليل أو صلة لـ«وَاقِعٍ». وأجيز أن يتعلَّق بمحذوف نعت لـ«عَذَابٍ».

[سبب النزول] وعن الحسن وقتادة: إنَّ أهل مكَّة خوَّفهم رسول الله ﷺ بعذاب فسـألوه على من يقع؟ فنزلت. قيل: على هذا يكون الوقف على «وَاقِعٍ» والابتداء بـ«لِلْكَفِرِينَ»، أي: هو للكافرين، وهو غفلة فإنَّه لا يلزم، فإنَّهم سألوه فنزلت الآية.

والإعراب كما مرَّ، ولا إشكال، فجوابهم هو مجموع «سَالَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِّلْكَافِرِينَ» وما في الآية إخبار عن سؤالهم.

﴿**لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ**﴾ الجملة نعت آخر لـ«عَذَابٍ». وإذا احتمل النعت والحال كما هنـا فالحمل علـى النعت أولـى، أو مسـتأنفة. ﴿**مِّـنَ اللهِ**﴾ نعت آخر لـ«عَذَابٍ»، أو متعلِّق بـ«وَاقِعٍ». و«مِن» للابتداء، ولا معنى لتعليقها بـ«دَافِعٍ» وجعلها للابتداء، إذْ لا يصحُّ أن يقال: لا يبتدئ أحد دفْعَه من الله، وإنَّما يصحُّ أن يقال: ليس له دافع ثابت من الله.

﴿**ذِي الْمَعَارِجِ**﴾ عن ابن عبَّاس: هي السَّماوات، لأنَّ الملائكة تعرج فيها بالأوامر والنَّواهـي، أو أنواع الأعمـال والأذْكار من المؤمنيـن، أو المعارج مراتب الملائكة. وعن ابن عبَّاس وقتادة: الفضائلُ والنِّعم، لأنَّ إنعامه وأفضاله مراتب، أو غرف السعداء، أو ما يدلُّ على عظم شأنه تعالى.

ويناسب التفسيرَ بالسَّماوات وما فوقها أو أعمَالِ المؤمنين قولُه تعالى: ﴿**تَعْـرُجُ الْمَلَآئِكَةُ وَالـرُّوحُ**﴾ عطف خاصٍّ على عـامٍّ لتفضيله، أو لمطلق إثبات عظمة لَهُ.

وشُـهِرَ أنَّ جبريل أفضل الملائكة، ألا ترى أنَّه الآتي بكتب الله إلى أنبيائه وسائر الوحي؟ وهو المراد بالروح في الآية.

وقيل: إسرافيل أفضل، ويدلُّ له أنَّه الذي يأخذ من اللَّوح المحفوظ الكتب إلى جبريل، وقيل: الروح ملائكة حفظة على الملائكة، لا تراهم الملائكةُ، كما أنَّ على بني آدم حفظة من الملائكة لا يرونهم، فهم أفضل من سائر الملائكة، وقيل: خلقٌ لله ﷻ على صورة الإنسان غير ملائكة حفظة على الملائكة مطلقًا، وقيل: أعظم الملائكة جسمًا، هُو وحدَه صفٌّ وهم كلُّهم صفٌّ. وقيل: «ال» للجنس والمراد أرواح الموتى المؤمنين، لأنَّ أرواح الكفرة تُردُّ من السَّماء الدنيا.

[أصول الدين] ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى عرشه، كما أنَّ الأوامر والنواهي من العرش، تعالى الله عن التحيُّز والجسميَّة والحلول. أو معنى الغاية أنَّ الأمور لا تتجاوزه إلى غيره، بمعنى أنَّه الخالق لها، والمبقيها، والمتصرِّف فيها، والمفنيها، أو إلى مكان خلقه الله لانتهاء الملائكة إليه لا يتجاوزونه.

﴿فِي يَوْمٍ﴾ مقدار من الزمان. [قلت:] ولا يجري الزمان على الله تعالى. وهو متعلِّق بـ«وَاقِعٍ»، وقيل: بـ«دَافِعٍ»، وقيل: بـ«تَعْرُجُ»، وهو أولى.

﴿كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ كسنِيكُم، وذلك مدَّة وقوف النَّاس في المحشر والحساب، وأمَّا يوم القيامة فلا ينتهي.

وسئل رسول الله ﷺ عن مقدار خمسين ألف سنة: ما أطوله! فقال: «**والذي نفسي بيده لَيَخِفُّ على المؤمن حتَّى يكون عليه أهون من صلاة مكتوبة يصلِّيها في الدنيا**»[1]. وعن ابن عمر: «**يوضع للمؤمنين يومئذ كراسي من ذهب، ويظلَّل عليهم الغمام، ويقصر عليهم ذلك اليوم ويهون حتَّى يكون كيوم من أيَّامِكُم هذه**»[2].

---

(1) رواه **أحمد** في مسنده، مسند أبي سعيد الخدري، رقم: 11320. و**أبو يعلى** في مسنده، مسند أبي سعيد الخدري، رقم: 1390. من حديث أبي سعيد.

(2) أورده **الآلوسي** في تفسيره، مج 15، ص 71، أثرا عن ابن عمر.

وقيل: العــدد عبارة عن الطــول لا حقيقته، ويردُّه ظاهــرُ الآية والحديثُ المذكور، إذْ أبقى الآية على ظاهرها، وأجابــه بالتخفيف على المؤمن، وإنَّما يعبَّر عن الكثرة بالسبعة أو بالسبعين أو نحو ذلك لا بمثل هذا العدد العظيم.

وادَّعــى بعــض أنَّ الحديــث المذكور يــدلُّ علــى أنَّ المــراد التطويل لا خصوص العدد، وقيل: المراد أنَّه لو كان قضاء ذلــك اليوم بين النَّاس في الدنيا على يد مخلوق أو على أيدي الإنــس والجنِّ والملائكة كلِّهم لكان في خمسين ألف سنة، وذلك العدد كناية عن كثرة الحساب.

وقيل: ذلك على ظاهره؛ خمسون موطنًا، كلُّ موطن ألف سنة، والله يفرغ منه في نصف يوم، كما جاء الحديث[1]، أو في ســاعة كما في أثر، أو لحظة. وإذا علِّق بـ«تَعْرُجُ» فذلك في الدنيا من وجه الأرض إلى منتهى العرش.

وقيل: من قعر الأرض الســابعة غلَظُ كلِّ أرض، وبين كلِّ أرض وأخرى، وسماء وأخرى، وبين الأرض والسَّماء، وبين السَّــماء السابعة وقعر الكرسي خمسمائة عام، وذلك أربعة عشر ألف عام، ومن قعر الكرسيِّ إلى العرش ستَّة وثلاثون ألف عام، وذلك خمسون ألف ســنة، والملك يصعد إلى العرش في ساعة أو أقلَّ من الأرض السابعة.

وقيل: هذا العدد من الأرض إلى العرش هبوطًا وصعودًا، وقيل ذلك مدَّة الدنيا من حين خلقت، إلَّا أَنَّهُ لا يعرف أحد ما مضى أو ما بقي، وذلك تمثيل **للبعد لا تحقيق للعدد.**

﴿**فَاصْبِــرْ صَبْــرًا جَمِيلاً**﴾ متعلِّــق بقوله: ﴿سَــالَ﴾، على أنَّ السَّــائل النبيء ﷺ ســأل تعجيل العذاب، فقــال الله ﷻ: ﴿فَاصْبِــرْ...﴾ إلخ، أو هو النضر، أو أبو جهل إذ ســأل تعجيل العذاب، فضجــر ﷺ بذلك، فقيل له:

---

(1) رواه **ابن المبارك** في الزهد كلامًا لابن مسعود، ولإبراهيم (؟)، رقم 1313، 1314.

«اصْبِرْ». أو سيلان الوادي بالشرِّ موعود لقومك فاصبِر، **فالصبر الجميل: ما لم يشْكُ فيه إلى غير الله، ولم يجزع قلبُه من الله** ﷻ، وقيل: ما لم يتغيَّر فيه صاحبُه عمَّا هو عليه قبلُ.

﴿**إِنَّهُمْ**﴾ أي: كفَّار مكَّة، أو قومك ﴿**يَرَوْنَهُ**﴾ يرون العذاب الواقع، أو اليوم المذكور في قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ﴾ على أنَّه يوم الحساب، وعلى أنَّه يتعلَّق بـ«تَعْرُجُ» أو بـ«دَافِعٍ» أو بـ«وَاقِعٍ» أو بـ«سَالَ» من السيلان، أو إنَّهم يرون يوم القيامة المدلول عليه بـ«وَاقِعٍ» في أحد الأوجه. ومعنى ﴿يَرَوْنَهُ﴾ يعلمونه في زعمهم، وذلك راجع إلى معنى الاعتقاد، وكأنَّه قيل: يعتقدون بُعْدَهُ أو استحالتَهُ كما قال:

﴿**بَعِيدًا**﴾ عن الإمْكان أو عن الوقوع ولو كان مُمْكِنًا، وإذا أثبتوا شفاعة آلهتهم يوم القيامة لهم فعلى فرض وقوعه، وإذا أُريد عذاب الدنيا فهو مُمْكِنٌ عندهم لكن استبعدوه. وجملة «إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ...» إلخ تعليل لقوله: «اصْبِرْ»، ولو كان المستعجلُ النضر أو أبا جهل. وقيل: إن كان أحدهما فمستأنفة، والأوَّل أولى لأنَّ المعنى: اصبر صبرًا جميلاً فقد قرب الانتقام منهم.

﴿**وَنَرَاهُ قَرِيبًا**﴾ نعلمه علمًا حقيقًا قريبًا بالزمان، كأنَّه يكون غدًا، أو نراه قريبا من الإمكان، على المشاكلة لرؤيتهم له بعيدًا من الإمكان، وعلى المجاراة لكلامهم، إذ لا معنى لوصف الممكن بالقرب من الإمكان، فإنَّ الممكن ممكن جزمًا لا قريب من الإمكان قربًا فقط.

أو المراد بِقُرْبِهِ نفس إمكانه، وقرب الوقوع سبب للإمكان، وذلك واجب بإيجاب الله، وما كان كذلك جاز وصفه بالإمكان، بخلاف ما وجب بالذَّات فإنَّه لا يتَّصف بالإمكان، وهو صفاته، وإن فسَّرنا الكلام بقولنا: يرونه بعيدًا من الإمكان ونراه قريبًا من الوقوع كان نقضًا لكلامهم لا مشاكلة.

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَآءُ كَالْمُهْلِ﴾ متعلِّق بـ«قَرِيبًا»، أي: يقرب وقوعه عقب حصول كونها كالمهل، أو واقع في ذلك اليوم، أو ممكن فيه، أو متعلِّق بيقع محذوفًا دلَّ عليه «وَاقِعٍ».

[نحو] أو بدل من «فِي يَوْمٍ» إن علِّق بـ«وَاقِعٍ»، ومجموع الجارِّ والمجرور كأنَّه اسم منصوب. أو بدل من «يَوْمٍ» على محلِّه لصُلُوح إسقاط «فِي» ونصب «يَوْمَ». ويجوز أن يبدل من لفظة المجرور على أنَّ فتحة «يَوْمَ» الثاني بناء على قول الكوفيِّين بجواز بناء الظرف إذا أضيف لجملة، ولو كان فعلها مضارعًا معربًا.

[نحو] ويجوز تعليق «فِي» بـ«تَعْرُجُ»، وتبدل «يَوْمَ» من «فِي يَوْمٍ»، على أنَّ المراد يوم القيامة، وإذا أريد بالعذاب عذاب الدنيا تعلَّق «يَوْمَ» بمحذوف، أي: «يوم تكون السماء كالمهل...» إلخ يكون كذا وكذا. ويجوز إبدال «يَوْمَ» من هاء «يَرَوْنَهُ» إذا أعيدت إلى يوم القيامة، ويجوز كونه مفعولاً لـ«اذْكُرْ».

والمُهْل: ما يكون في قعر الزيت، وقيل: ما أذيب من فضَّة أو نحاس أو نحوه.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ﴾ جمعت مع «ال» للاستغراق ولاختلاف ألوانها بيض وحمر وسود ﴿كَالْعِهْنِ﴾ الصوف مطلقًا، أو الأحمر خلقةً، وهو أضعف الصوف، أو المصبوغ ألوانًا. تكون الجبال كالصوف في الخفَّة تطيِّرها الريح تسير ثمَّ تهدُّ وتدقُّ وتطيِّرها الريح وتصيِّرها هباءً، ويقال: تصير رملاً مهيلاً ثمَّ عِهْنًا منفوشًا، ثمَّ هباء منثورًا.

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ﴾ قريب بالنسب أو بالصداقة ﴿حَمِيمًا﴾ عن حاله لاشتغال كلٍّ بحاله، أو لظهور الأحوال بلا سؤال، أو لا يسأله أن يحمل عنه ذنبًا، أو لا يسأله شفاعة أو نصرًا أو منفعة مَّا. وقيل لا يسأل حميم أحدًا عن حميم أسعيد أم شقيٌّ؟ وأين هو؟ وهو ضعيف، لأنَّ فيه النَّصب على نزع الجارِّ.

﴿**يُبَصَّرُونَهُمْ**﴾ الواو للأحِمَّاءِ الأوَّليــن، والهاء للآخرين، يجعلهم الله تعالى باصرين بهم، فلا يسألون أين أحمَّاؤُهم أو أسعِدُوا أم شقوا؟ لظهور السعادة على صاحبها أو الشقاوة، كبياض الوجه وسواده، يبصر الرجل أباه وأخاه وقرابته فلا يسألهم، وعن ابن عبَّاس: «يتعارفون ساعة من النَّهار ثمَّ لا يتعارفون».

[نحو] وجمع الضميريــن لعموم مرجعهمــا بالتنكير في ســياق النفي. والجملة مستأنفة، كأنَّه لَمَّا قيل: ﴿لَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ قيل: لعلَّ ذلك لأنَّه لا يبصره؟ فقيــل: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ كذا قيــل، وفيه أنَّ قوله: ﴿لَا يَسْــأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ يتبادر منه الحضور، وإذا قيل: لا يســأل زيد بكرًا تبــادر أنَّه يمكنه السؤال وهو حاضر، لكن لا يسأله.

[نحو] فالأولى أنَّ الجملة حال من «حَمِيــمٌ» المرفوع، أو من المنصوب، أو منهما، والمعنى: إنَّه لا يقع السؤال من بعض لبعض مع حضورهم لظهور ما يغني عن السؤال، أو للشــغل عنه، وليس المعنى على النعت، لأنَّ المقام للعموم فــلا يقيَّــد بالتبصير، فلو قيــل: لا يســأل الأحمَّاء أحمَّاءهــم الذين يبصَّرونهم كان دون ذلك المعنى، والآية تفيد أنَّ الأقارب والأصحاب يحضر بعض بعضًا وذلك لحساب المخالطة.

﴿**يَوَدُّ الْمُجْرِمُ**﴾ يتمنَّى أو يحبُّ كلُّ مذنب مشــرك، وكلُّ فاســق، فـ«ال» للاستغراق، وإِفْرادُ ضميره بعدُ باعتبار لفظه. ﴿**لَوْ يَفْتَدِي**﴾ «لَوْ» مَصدَرِيَّة، أي: يَوَدُّ الافتداء، أي: حصول الافتداء، بمعنى يودُّ حصول الاشــتغال بالفداء مع قبوله عنه. ﴿**مِن عَذَابِ يَوْمَئِذٍ**﴾ هو عــذاب لزمه، وهو عامٌّ لا مخصوص، إلَّا أنَّ كلَّ مجرم يَوَدُّ لو يفتدي ممَّا له من العذاب.

[نحو] والقــراءة بإضافة «عَذَابِ» لـ«يَــوْمَ»، ففتحةُ «يَــوْمَ» بناءٌ، لإضافته لمبنيٍّ، كما مرَّ في قوله تعالــى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ [ســورة النمل: 89]. فكلُّ «يَوْمَ» قبل «إِذْ» في القرآن فتحُه بناءٌ، ولو لم يكن مضافًا إليه، فإذا كان مضافًا

إليه كما هنا فهو في محلِّ جرٍّ، وإذا لم يكن كذلك فهو في محلِّ نصب لا معْرَبٌ منصوب، وذلك في قراءة نافع.

[نحو] [قلت:] ومن العجيب جعل «لَوْ» للتمنِّي مع أنَّ «يَوَدُّ» يفيده، فيدَّعى أنَّه لا مفعول له، ويقدَّر: يودُّ المجرم ما لا يدركه، فيبقى «لَوْ يَفْتَدِي» بلا عامل فيتعطَّل، أو يقدَّر له: يقول لو يفتدي... إلخ معبَّرًا به عن: «لو أفتدي» (بضمائر التكلُّم)، أو يضمَّن «يَوَدُّ» معنى القول، والجملة مستأنفة لبيان أنَّه يتمنَّى الافتداء ولو بأعزِّ النَّاس إليه، والمعنى على هذا لا خصوص تمنِّي الافتداء بالأعزِّ إليه. وَقِيلَ: حال من الواو، وجوَّز بعض أن تكون حالاً من الهاء إن كانت الهاء للسائل، أو من الواو إن كانت الواو للسائل.

﴿**بِبَنِيهِ**﴾ بدأ بهم الله لأنَّهم أعزُّ، ولم يذكر البنات لأنَّ الكفرة قد يرغبون عنهنَّ، حتَّى إنَّهم يقتلونَّهُنَّ، ولذلك لم يَقُلْ: بأولاده لشموله الإناث، ويجوز أن يراد بالبنين ما يشمل من عزَّت منهنَّ.

﴿**وَصَاحِبَتِهِ**﴾ زوجه، قدَّمها لأنَّها إذا أحبَّها تكون أعزَّ من الأخ للنفع وشدَّة العشرة والألفة، كما أشار إليه بلفظ الصحبة. ﴿**وَأَخِيهِ**﴾ مطلقًا، ولا سيما الشقيق. ﴿**وَفَصِيلَتِهِ**﴾ أي: عشيرته الأقربين الذين فصل عنهم، واختاره بعض المحقِّقين، أو عشيرته المنفصلة عنه، أو آبائه الأدنين كما قاله ثعلب، أو الفخذ. ﴿**التِي تُئْوِيهِ**﴾ أي: تضمُّه بشمولها إيَّاه، أو تضمُّه عند النائبة.

﴿**ومَن فِي الَارْضِ جَمِيعًا**﴾ من الإنس والجنِّ والملائكة والحيوانات والجمادات. و«مَن» لتغليب العاقل، ويجوز أن يكون اللفظ كناية عن الخلق كُلِّهم، ولو ملائكة السَّماوات، والسَّماواتِ والأرضين والعرش والكرسيِّ، إذ لا يتصوَّر له أن يحبَّ أن يحرق بالنَّار الدائمة دائمًا فيها اختيارًا لغيره عن نفسه، **والكلام على كلِّ حال باعتبار أنَّه مالك لذلك.**

﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإنجاء، لأنَّه لا يملك ما ذُكر ولو ملكه وطلب الافتداء به لم يقبل عنه، لا لتراخي الإنجاء، لأنَّه لا يتمنَّى أن يتراخى، بل يُحِبُّ العجلة، ﴿يُنجِيهِ﴾ معطوف على «يَفْتَدِي»، والمستتر عائد إلى الافتداء المعلوم من «يَفْتَدِي»، وهو أولى من عوده إلى «مَن».

﴿كَلَّآ﴾ ردع للنَّاس عن أفعال المجرم الموجبة لِمَا أعدَّ للمجرم، أو ردع للمجرم عن وُدِّه لذلك، وتصريح بأنَّه لا ينجو. ﴿إِنَّهَا﴾ أي: النَّار المعلومة من ذكر العذاب، ومن الإخبار عنها بقوله ﷻ: ﴿لَظَىٰ﴾ ألفه للتأنيث، فمنع الصرف، وهو عَلَمٌ على النَّار مطلقًا، أو للدركة الثانية من فوق، أو عَلَم على الجنس الذي هو اللَّهب، كأنَّها نفس اللَّهب الخالص مبالغة، معدول عن «ال».

ويجوز أن يكون بمعنى اللَّهب، فمنع الصرف إجراء للْوَصْل مجرى الوقف. وقيل: الضمير لمبهم فسَّره «لَظَى»، فإن كان ضمير الشأن فضمير الشأن لا يفسِّره إلَّا الجملة و«لَظَى» مفرد، وإن أريد مبهم غير ضمير الشأن كما هو الظاهر كان المعنى أنَّ شيئًا منها هو لظى، فلا يصحُّ إلَّا إن أريد أنَّه جيء به على صورة المبهم، ولو أريد به مخصوص هو النَّار، كما يراد بفاعل «نِعْمَ» مخصوص معيَّن، ويعبَّر عنه بالجنس، نحو: نعم الرجل زيد.

﴿نَزَّاعَةٌ﴾ خبر ثانٍ، أو نعت لـ«لَظَى» على معنى اللَّهب لا على أنَّه علم ﴿لِّلشَّوَى﴾ الأطراف، كالأيدي والأرجل، أو الأعضاء التي ليست بمقتل، كما يُقال: رمى فأشوَى، أي: لم يقتل، أو لحم الساقين، أو العصب والعقب، أو محاسن الوجه، وبه قال أبو العالية، أو الدماغ. وكلُّ ما نَزَعَتْ يرجع.

وَفُسِّر «نَزَّاعَةٌ» بالأكل تنزعه وتأكُلُه ثمَّ يرجع ولا تنزع العظم. أو الشوى: اللحم المشويُّ بالنَّار، تشويه النَّار مثل ذلك، ونزعه قطعه فرقا. أو جمع شواة وهي جلدة الرأس، ونسب لابن عبَّاس.

أرســـل أميرٌ إلى أبي ذرٍّ مالاً فقال: أكُلَّ المســـلمين أعطي مثل هذا؟ فردَّه وقرأ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ نَزَّاعَةٌ لِّلشَّوَىٰ﴾.

[فقه] وهذا بناء على تحريم عطاء الأمراء عطـــاء لم يَعْتَدِلْ، أو خيف أن يكون من حرام.

ومرَّ الإمام عثمان بأبي ذرٍّ نائمًا على جدار المسجد، فقال لعبد له: خذ هذه الدنانير وأعطها الرجل إذا يقظ، فإن قبلهـــا فأنت حرٌّ، فلم يقبلها، وقال له العبد في قبولها فكاك رقبتي، فقال أبو ذرٍّ في قبولها اســـترقاق رقبتي، وهذا لريبة في مال عثمان أو في عطائه أكثر ممَّا له، أو لظنِّه أنَّ عثمان يستميله منتصرًا به.

[فقه] وأجاز عليٌّ أخذ العطيَّة من السلطان الذي بيده حلال وحرامٌ، وكذا ابن عمر وابن عبَّاس، وقـــال بعض: إن كان أكثر ماله حـــلالاً فخذ، أو حرامًا فلا، أو سواء فالأفضل الترك، وزعم بعض أنَّه يجوز أخذ عطيَّة السلطان مطلقًا ما لم تعلم أنَّها حرام لم تَقُدْهُ ديانته إلى حلِّه، وخصَّ بعضهم هذا بالدراهم.

﴿تَدْعُواْ﴾ خبر آخر تثبت للمُدْبِرِ المتولِّي ولا بدَّ له منها، كأنَّها تقول أنت لي وأنا لك، كذا ظهر لي، فيكون الدعاء مجازا اســـتعاريًّا أو إرساليًّا للجذب، أو يخلق الله لســـانا تناديه بلا عقـــل، أو مع عقل كما يخلـــق ذلك في الأيدي والأرجل والجلود، فتناديهم بأســـمائهم وأســـماء آبائهم، وبه قال ابن عبَّاس، وروي أنَّها تقول: إِلَيَّ يا كافر، أو يا منافق.

وروى الخليل عـــن العرب: دعا بمعنـــى أهلك، يقولون: دعـــاه الله، أي: أهلكه، فيجوز تفسير الآية به، وأظنُّ قوله:

دعـــاك الله مـــن رجـــل بأفعى إذا نامت العيون سرت عليكا[1]

(1) البيت لأبي النجم، وأورده صاحب المعجم المفصل بلفظ:

دعـــاك الله مـــن قيـــس بأفعـــى إذا نـــام العيـــون ســـرت عليكا

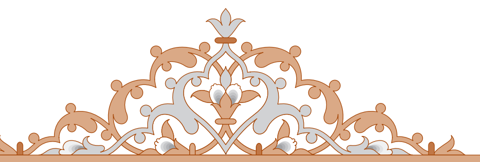
إميل يعقوب: المعجم المفصَّل في شواهد اللغة، ج 5، ص 262.

مصنوعًا، أي: أهلكك الله من رجل، **ويجوز أن يكون إسـناد الدعاء إليها مجازا عقليًّا والإسناد الحقيقيُّ للزبانية، أو يقدَّر مضاف، أي: تدعو زبانيتها.**

﴿**مَنَ اَدْبَرَ**﴾ فـي الدنيا عن الحقِّ أو عن التوحيـد ﴿**وَتَوَلَّىٰ**﴾ أعرض عن الطاعة ﴿**وَجَمَعَ**﴾ المـال ﴿**فَأَوْعَى**﴾ أوْعاه، أي: جعله فـي وعاء وخزنه، بلا إخراج للحقِّ الواجب فيه، من زكاة وضيافـة لازمة، وإطعام من يجب إطعامه مطلقًا وكفَّارة.

وكان عبد الله بن عيْكم[1] لا يربط كيسَـهُ ويقول: سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَـىٰ﴾، وليس الربط حرامًا بل قد يجـب الربط إذا خاف التلف بعدم الربط، ولكن جارَى ظاهر الآية.

(1) هكذا ورد في نسـخة المؤلف وفي جميع النسـخ الأخرى، والصـواب: عبد الله بن عكيم الجهني قيل له صحبة، أسلم في حياة النبيء ﷺ، صلَّى خلف أبي بكر وعمر، وحدَّث عن عمر وعليٍّ وابن مسعود، تُوُفِّيَ سنة 88هـ. **الذهبي**: سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 121.



﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿19﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿20﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿21﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿22﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿23﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿24﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿25﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿26﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿27﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿28﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿29﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿30﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿31﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿32﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿33﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿34﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿35﴾ ﴾

الخصال العشر التي تهذِّب طبع الإنسان المؤمن

﴿**إِنَّ الإنسَانَ**﴾ الجنسُ ثمَّ يُستثْنَى المؤمن، أو الإنسان الكافر، والعُموم أولى، لأنَّ الإنسان من عادته الهَلَع ولو نزلت في أبي جهل لأنَّ خصوص السبب لا يخصِّص العموم. ﴿**خُلِقَ هَلُوعًا**﴾ فسَّره الله تعالى ـ كما قال ابن عبَّاس ـ بقوله:

﴿**إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا**﴾ وحاصِلُه السرعة هكذا، فهو يسرع إلى ترك الخير وإلى فعل الشرِّ، يقال: ناقة هلوع، أي: سريعة.

[قلت:] وفي ذلك النهيُ عن العجلة إلَّا الخير بحيث تُحصِّل العجلة إليه بلا خللٍ، وليس تفسيره بالآية لغويًّا بل بيانيًّا لما قصد به فيها، تقول: فلان راغب في الأكل إذا رأى طعامًا أكله، وزيد خاشع إذا سمع القرآن بكى، وقد فسَّره ابن عبَّاس بالحريص على ما لا يحلُّ.

وقيل: ﴿هَلُوعًا﴾ شحيحًا بخيلاً، وقيل: ضجورًا، وقيل: ضيّق القلب.

و﴿الشَّرُّ﴾: الفقر والمرض ونحوهما ممَّا يكره، و﴿الْخَيْرُ﴾: المال والصحَّة وما يرغب فيه، و«ال» فيهما للجنس. و«جَزُوعًا» و«مَنُوعًا» صفتا مبالغة، والجزع أعمُّ من الحزن، فإنَّه حزن يصرف الإنسان عمَّا هو بصدده. ويُقال: جزع الحبل قطعه، وجزعُ الوادي مُنقَطعه.

والمنع: الإمساك عن إعطاء المال وما ينتفع به. و«إِذَا» الأولى متعلِّقة بـ«جَزُوعًا»، والثانية بـ«مَنُوعًا»، وكلتاهما خارجة عن الشرط.

أفادت الآية أنَّ الإنسان مطبوع من أوَّل خلقته على الهلع، ويظهر منه إذا نفخ فيه الروح، ولا سيَّما إذا ولد. وإنَّما أمِرَ ونُهِيَ لأنَّ الله ﷻ أقدره على معالجته فيزول أو يضعف، وقيل: إذا غلبه استتر ولم يزل، وكذا في جميع الأمور الطبعيَّة إذا كُلِّفَ فيها، وقيل: غير مطبوع عليهما لكن يرسخان فيه حتَّى كأنَّهما طُبِعَا فيه، وليس كذلك، ألا ترى الصبيَّ كيف يرغب في الرضاع؟ وكيف يبكي إذا زوحم في شيء؟.

﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ...﴾ إلخ استثناء متَّصل، أي: إلَّا هؤلاء المصلِّين فإنَّهم لا يجزعون ولا يمنعون، بل يغالبون الجزع والمنعَ، وإن زلُّوا رجعوا. **والذَّمُّ والعقاب على عدم العلاج**. وقيل: الاستثناء منفصل، أي: لَكِنِ المصلُّون لا يدبرون ولا يتولَّون، بل يدومون على التوحيد والعبادات، فهم في مقابلة من أَدْبر وتَوَلَّى في عملهم وجزائهم.

﴿**الذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ**﴾ قدَّم «عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ» للفاصلة، وترغيبًا في الاهتمام بالصلاة. قال ﷺ: «**خذوا من العمل ما تطيقون، فإنَّ الله تعالى**

لا يملُّ حتَّى تملُّوا»[1]. قال ﷺ: «**أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها**». وروي «**أحبُّ الأعمال إلى رسول الله ﷺ أدومها وإن قلَّ**»[2].

[سيرة] وكان عمله ﷺ ديمة، وكان إذا صلَّى صلاة دام عليها، وكذا ما يفعله من أعمال النفل، إلَّا أنَّه لا يشهره، بل يرغِّبهم بلطف لئلَّا يتكلَّف النَّاس ما يشقُّ عليهم، حتَّى كأنَّه واجب، فقد يضجرون أيضًا فيتركونه البتَّة.

وجاء في الخبر وروي حديثًا: «**إنَّ الْمُنبتَّ لا ظهرًا أبقى ولا أرضًا قطع**»[3] (بضمِّ الميم وشدَّ التاء)، أي: المنقطع في فلاة من الأرض لإثقاله على راحلته بشدَّة السير، أو بعظم الحمل، لا دابَّةَ أبقى سالِمَةً، ولا بلدةً قصدها وصَل إليها، ومثل ذلك في العبادات النافلة.

ومعنى دوامهم على صلاتهم في الآية المداومة على الصلوات الخمس بشطورها وشروطها، كما قال: ﴿يُحَافِظُونَ﴾، والإخلال ببعض ذلك ترك لها كتركها البتَّة، والصحيح ذلك.

وقيل: معنى مداومتهم أنَّهم إذا دخلوا فيها داموا معها ولا يخرجون بقلوبهم على قدر الطاقة، ولا يلتفتون، ولا يفعلون ما ينافيها من الأشغال، وكذا قال عمران بن حصين وعقبة بن عامر والزجَّاج، وإنَّه ليس المراد كما

(1) رواه **البخاري** في كتاب الصوم، باب صوم شعبان، رقم 1859. ورواه **ابن حبَّان** في صحيحه، كتاب البرِّ والإحسان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها، رقم 353. من حديث عائشة.

(2) رواه **أحمد** في مسنده، رقم: 24789. ورقم: 25811 من حديث عائشة.

(3) رواه **البيهقيُّ** في كتاب الصلاة (638) باب القصد في العبادة والجهد في المداومة، رقم 4743. و**الزبيدي** في الإتحاف، ج 5، ص 161، من حديث جابر. وَأَوَّلُ الحديث عندهما هو قوله ﷺ: «إنَّ هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، فإنَّ المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى».

تقولون: لا يزالون يصلُّون الخمس وما رتَّبوه لأنفسهم من النَّفل، وما تقدَّم أولى، لأنَّه الظاهر في الآية، ولأنَّه المناسب لما بعد ذلك في الآية، فإنَّه للتكرير، وأيضًا التكرير يعمُّ ذلك وزيادة، وأيضًا ما ذكروه مأخوذٌ من قوله: ﴿يُحَافِظُونَ﴾ كاف عنه.

وقال أبو جعفر الطبريُّ: المراد في الآية صلاة النَّفل مطلقًا، وقيل: ما ورد منها في السنَّة والفرض، وقيل: الفرض والنَّفل منها مطلقًا، وقال ابن مسعود: المداومة عليها أداؤها في مواقيتها، وهو نصٌّ في أنَّها الصلاة المفروضة، ولا إشكال فيه، لأنَّ مرادَه أنَّه لا يتركها حتَّى يخرج وقتها.

[قلت:] ومِن تركها الإخلالُ ببعضها، ومن ذلك أن يهوي للسجود ويتحامل على جبهته ليوصل الحصيرَ للأرض، فإنَّ ذلك التحريك ليس من الهوي للسجود، بل زيادة ونقص من الهَوي للسجود.

ومن ذلك ركوع نساء هذه البلاد بإيماء قليل لا يصلن أيديهنَّ لركبهنَّ، وكان الواجب عليهنَّ أن يركعن ركوع الرجل، ولا بأس بظهور أعجازها.

﴿**وَالذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ**﴾ نصيب معلوم يوظِّفونه على أنفسهم، مثل أن ينوي أن يتصدَّق في كلِّ يوم جمعة، أو في أوَّل الشهر، أو كلَّ يوم بدرهم، أو رغيف، أو أقلَّ أو أكثر رغبة في الثواب وشفقة على النَّاس، وليس المراد الزكاة، لأنَّها فرضت في المدينة، وعُيِّنَتْ فيها بمقاديرها، وقيل: فرضت في مكَّة غير معلومة المقدار، فكانوا يعطون ما تيسَّر لا مقدَارًا معلومًا وعُيِّنت في المدينة بعدُ، وقيل: المراد الزكاة، وإنَّ هذا مدنيٌّ جعل في سورة مكِّيَّةٍ كما مرَّ.

﴿**لِّلسَّآئِلِ**﴾ يسأل النَّاس بلسانه أو بإشارته، أو يريهم علامة الحاجة أو نحو ذلك أن يعطوه. ﴿**وَالْمَحْرُوم**ِ﴾ الذي حَرَمَهُ النَّاس، أي: لا يعطونه لأنَّهم يظنُّونه غنيًّا إذْ تَعفَّف لا يسألهم ولا يتملَّق إليهم، ولا يُريهم علامة الحاجة.

والممدوحــون في الآية يتفرّســون فيــه الحاجــة فيعطونــه، أو يعمُّون بصدقاتهم ويرغبون فيها فيصادفونه، والذين يحرمونه غير هؤلاء الممدوحين.

﴿وَالذِيــنَ يُصَدِّقُــونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ يــوم الجزاء على الأعمــال، والمراد بالتَّصديق العمل بمقتضاه، تســميةً للمســبَّب باســم السَّــبب علــى التجوُّز الأصْليِّ، واشــتقَّ منه «يُصَدِّقُ» علــى طريق التجوُّز الإرســاليِّ التبعيِّ، ومن صَدَّق به ولم يستعدَّ له فكأنَّه جهله، يُقال: مات من علم أنَّه يموت، أي: استعدَّ للموت، ومات من لم يعلم أنَّه يموت، أي: لم يستعدَّ للموت.

﴿وَالذِينَ هُم مِّنْ عَــذَابِ رَبِّهِمْ﴾ قُدِّمَ للفاصلة وللدُّعــاء إلى الاهتمام به ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ خائفون على أنفســهم مع ائتمارهم بما أمروا به، وانتهائهم عمَّا نهوا عنه، استقصارًا لأنفُســهم، وإجلالاً واستعظامًا لله ﷻ، ولأنَّهم لا يدرون بم يختم لهم، ولا يــدرون أنَّهم أتوا كما أمروا، قال الله جــلَّ وعلا: ﴿وَالذِينَ يُوتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ اَنَّهُمُوٓ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [سورة المومنون: 60].

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَامُونٍ﴾ لا يجوز لأحد ـ ولو كان ملكًا مقرَّبًا، ولا نبيًا مرسلاً، من علم بسعادة نفســه ومن لم يعلم ـ أنْ يأمن عذاب الله تعالى، والخوف فيمن علم سعادة نفسه تعبُّديٌّ وزيادةٌ في العبادة.

﴿وَالذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَــىٓ أَزْوَاجِهِمُوٓ أَوْ مَا مَلَكَتَ اَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِيــنَ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِــكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَــادُونَ وَالذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ قَدَّم «لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ» لِمَا مرَّ، والمعنى: أنَّهم محافظون على حقوق الأمانات والعهــود. وجمَعَ الأمانة لكثرتها وأفرد العهد لقلَّتــه، ولأنَّ لفظ العهد مصدر في الأصل اســتعمل بمعنــى معهود، ويجوز إبقاؤه على المَصدَرِيَّة، فإنَّه يُقال: رعى المعهودَ ويُقال: رعى عَهْدَهُ.

قلت: ومن كثرة الأمانة أنَّ حقوق الشــرع كلَّها أمانة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الَامَانَةَ عَلَى السَّــمَاوَاتِ والَارْضِ وَالْجِبَالِ﴾ [ســورة الأحزاب: 72]، وكلمة

الشـــهادة قبول للأماناتِ، والأعضاء وقوّاتُها أمانات، والصلاةُ والزكاةُ وحقوقُ الأزواجِ والأرحامِ والجارِ والمماليكِ والعيالِ والســيِّدِ والمسلمين، والأموالُ والوعدُ وكلُّ ما أُمر به أو نُهيَ عنه.

فمن وفَّى بذلك فقد رعاه ومن خان في شـــيء من ذلك فقد خان. ويروى أنَّ الله ﷻ لَمَّا خلق الفرج في الإنسان قال: «هذه أمانة فحافظ عليها».

وفي الأمالي[1] حدَّثنا أبو عُمر قال: أخبرنا الغطفانيُّ عن رجاله، قال: سُئل أبو عبد الله جعفر بن محمَّد بن عليٍّ عن قول رســول الله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[2]، قال فأدار دارة كبيرة وأدار في وسطها دارة صغيرة، وقال: الكبيرة هي الإســلام، والصغيرة هي الإيمان، فــإذا زنى خرج في ذلك الوقت من الإيمان إلى الإسلام، فإن كفر خرج من الدارة الكبيرة إلى الشرك. والمــراد بالإيمان هنــا التوحيد والعمــل الصالح معا، وبالإســلام التوحيد. والأمالي كتاب لأبي علــيٍّ القالي ألَّفه فــي قرطبة وكان يتــردَّد في الحجاز وبغداد ثمَّ دخل أندلس وسكن قرطبة.

قال أنس: خطبنا رســول الله ﷺ وقال: «**لا إيمان لمن لا دين له، ولا دين لمن لا عهد له**»[3]. وقال ﷺ: «**أربع من كنَّ فيه فهــو منافق خالص، ومن فيه خصلة منهنَّ كانت فيه خصلة مــن النِّفاق حتَّى يدعهــا: إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»[4] رواه ابن عمر.

---

(1) تقدَّم التعريف بالكتاب وبصاحبه في ج 14، ص 359.

(2) رواه **البخاري** في كتاب الحدود (6) باب الســارق حين يسرق، رقم 6400 و6424 و**النسائيُّ** في كتاب قطع السارق (1) باب تعظيم السرقة، رقم 4885 و4886، من حديث أبي هريرة.

(3) لم نقف على تخريجه بهــذا اللَّفظ. وقد روى **ابن حبَّان** في صحيحــه، كتاب الإيمان، باب فرض الإيمان، رقــم: 194 ما يقاربه معنى بلفــظ: «لا إيمان لمن لا أمانة لــه». و**أحمد** في مسنده، رقم: 11975، من حديث أنس.

(4) تقدَّم تخريجه في ج 2، ص 324.

ودخل في الأمانة المستحبُّ والمندوب إليه والمكروه كراهة تنزيه، لأنَّ المقــام للمدح، فالقائم بهنَّ ممــدوح، ولو كان لا عقــاب على من لم يقم بهنَّ، وذلك أنَّهــنَّ داخلات في الأمر والنَّهي، فالمســتحبُّ والمندوب إليه مأمور بهما أمــرَ ترغيبٍ لا أمر إيجــابٍ، والمكروه منهيٌّ عنــه نهي تنزيه لا نهي تحريم.

[فقه] ومن الأمانة أن يقول لك: هذا سِرِّي عندك أو يتكلَّم لك، ويلتفت لئلَّا يسمع غيرُك.

﴿**وَالذِينَ هُم بِشَهَادَتِهِمْ قَآئِمُونَ**﴾ في التقديم مَا مرَّ، والقيام بأداء الشهادة داخل في رعي العهد، وخصَّه بالذكر ـ قيل ـ لإبانة فضْلِها، بل لئلَّا يتوهَّم أنَّه غير واجبٍ، ولأنَّها حــقٌّ للعبد محضٌ، وما كان من الأمانــة حقًّا للعبد فهذا أحقُّ منه.

[فقه] وكذا القيام بأخذ الشــهادة، أي: تحمُّل الشهادة، فإنَّه فرض كفاية، وقد يشمله لفظ الشهادة، أي: بشهادتهم اللَّازمة لهم أخذًا وأداءً، إلَّا أنَّ الأخذ فرض كفاية والأداء فرض عين، وقد يكون الأخذ فرض عين إذا لم يوجد من يأخذ إلَّا اثنــان مثلاً، والأداء فرض كفاية إذا لم يمكــن أداؤها فاحتاج آخذها إلى من يأخذها عنه. والشــهادة كثيــرة وأفرد اللَّفظ لأنَّه مصــدر، وقرأ بعض بالجمع لاختلاف أنواعها.

[قلت:] ومن أقرَّ بشــيءٍ أو فعله وشــاهده إنســان ولم يحمِّله الشهادة أو حمَّله إيَّاها ولم يقبل، وكلُّ من علم بشيء ولم يحمَّل فيه شهادة لزمه أن يؤدِّيه إن طُلبَ إلى أدائه، وقيل: لم يلزمه إذْ لم يُستشهد، قولان.

﴿**وَالذِينَ هُم عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ**﴾ بــدأ الصِّفات بالصلاة وختم بها لفضْلها والترغيب فيها، والتنفير عن التهاون بها، ولأنَّها تجلب سائر الصفات

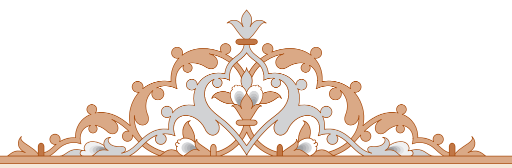
الحسنة، وتنهى عن الصفات السـيِّئة، ولأنَّها معراج المؤمنين، ولأنَّها مناجاة ربِّ العالمين، ولذا جعلت قرَّةَ عَيْنِ رسول الله سيِّد الخلق ﷺ[1].

والمراد هنا المحافظة على شروطها ومسـتحبَّاتها، وحضور القلب فيها، وإعظام مقامها، وما مرَّ في ذاتها، وهذا في أحوالهـا فلا تكرير، والموصوف بتلك الصفات متَّحِـدٌ، والعطف تنزيل لتغاير الصفات منزلـة تغاير الذَّوات، كأنَّه قيـل: إلَّا المصلِّيـن الجامعين للـدَّوام على الصـلاة، وأداء حقِّ المال، والتصديق بيوم الدِّين، والإشـفاق من عذاب الله ﷻ، وحفظ الفروج، ورعي الأمانات والعهد، والقيام بالشهادة، والمحافظة على الصلاة.

﴿**أُوْلَئِكَ**﴾ المذكورون ﴿**فِـي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ**﴾ خبـر «إنَّ»، أو الخبر «مُكْرَمُونَ» و«فِي جَنَّاتٍ» متعلِّـق بـ«مُكْرَمُونَ» وقدِّم للحمل على الاهتمام به وللفاصلة.

---

(1) يشير إلى الحديث الذي رواه أنس عن الرسـول ﷺ، وقال: قال رسول الله ﷺ: «حبِّب إليَّ النسـاء والطيب، وجعلت قرَّة عيني في الصلاة». رواه **النسائي** في كتاب عشرة النساء، باب حبِّ النسـاء، رقم: 3940. و**أبو يعلى** في مسـنده في كتاب ثابت البنانـي، عن أنس، باب ثابت البناني عن أنس، رقم: 3530. من حديث أنس.



﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝٣٨ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ۝٣٩ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٤١ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ۝٤٢ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾

أحوال الكفَّار المكذِّبين للرسول ﷺ في الدنيا والآخرة

﴿**فَمَالِ الذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ**﴾ في الجهة التي تليك.

[نحو] واللَّام حرف جرٍّ كتبت منفصلة في الإمام، و«مَا» مبتدأ استفهاميَّة تعجبيَّة، و«الذِينَ» خبر، و«قِبَلَكَ» ظرف متعلِّق بمحذوف حال من «الذِينَ». ﴿**مُهْطِعِينَ**﴾ حال ثانية، أو حال من المستتر في الحال قبله.

بمعنى: مسرعين إليك ليسمعوا شيئًا يهزؤون به ويمنعون من ينضمُّ إليه في حاله.

﴿**عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ**﴾ حال أخرى أو حال من المستتر في «مُهْطِعِينَ»، أو متعلِّقٌ بـ«مُهْطِعِينَ»، أو بقوله تعالى: ﴿**عِزِينَ**﴾ قدِّم بطريق الاهتمام بذكر انتشارهم حولك يمينًا وشمالاً، أو هما عبارة عن الجهات الأربع، وهو حال أخرى، أو حال من ضمير الحال في قوله: ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ إذا لم نعلِّق «عَنِ الْيَمِينِ» بـ«عِزِينَ» أو علَّقناه بـ«مُهْطِعِينَ».

[لغة] و«عِزِينَ» جماعات مطلقًا، وخصَّ بعضٌ كلَّ جماعةٍ بثلاثة أشخاص لا أقلَّ ولا أكثر، فالاثنان ليسا عزة، والأربعة فصاعدًا ليسوا عزة، وأصْلُها: عزوة، فلام الكلمة واو محذوفة عوّضت عنها التاء، سمِّيت لأنَّ كلَّ فرقة تعتزي إلى ما لم تعتز إليه الأخرى، أي: تنتسب.

[قلت:] ولعلَّ هذا بحسب الأصل، وإلَّا فقد يجتمع في جماعة واحدة أفرادٌ كلُّ واحدٍ من جماعة غير جماعة الآخر، وقد يكنَّ كلُّهنَّ من نسب واحدٍ. وقيل: لَامُهَا هاءٌ عُوِّضَت عنها التاء.

[سيرة] كان رسول الله ﷺ يُصَلِّي عند الكعبة ويقرأ القرآن فيجتمع المشركون حوله حِلَقًا يستهزئون بما يقرأ، ويقولون: لئن دخل محمَّد وأصحابه الجنَّة لَنَدْخُلَنَّها قبلهم، ولئن كانت النَّار حقًّا لننجونَّ منها قبلهم، وكما فَضُلْنَا في الدنيا بالمال والأولاد والجاه نَفْضُل عليهم في الآخرة.

وأخذ بعض من الآية أن لا يجتمع المسلمون فرقًا بل جماعة واحدة، لأنَّ دينهم واحد، وكلمتهم واحدة لا كالمشركين.

وردَّ الله ﷻ إمْكان دخولهم الجنَّة وهم على الكفر بقوله تعالى: ﴿**أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُّدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ**﴾ مع اختلاف أديانهم، ولم يجمعهم دين واحد سوى الكفر مع كثرتهم، ودين كلِّ واحد هواه، فماذا يجمعهم إلى الجنَّة؟ وإنَّما يدخلها من تمسَّك بدين واحد حقٍّ، ولا يوجد هذا إلَّا إيمانًا بالله ورسوله وإسلامًا. و«جَنَّةَ» مفعول ثانٍ، والأوَّل نائب الفاعل مستتر.

﴿**كَلَّآ**﴾ ارتَدِعُوا عن هذا الطَّمع، وعلَّل الردع بقوله تعالى: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ**﴾ يعرفون من النطفة والعلقة وسائر الأطوار، فلا فضل لأحدٍ على أحدٍ إلَّا بالإيمان والعمل، أو خلقناهم من ذلك فَكَمَا قَدَرْنَا على خلقهم من ذلك قدرنا على بعثهم، فكيف يكفرون بالبعث وهو في بادي الرأي أسهل من النشأة الأولى؟.

أو إذا رجعوا إلى شيء يستحقُّون به الجنَّة غير الإيمان لم يجدوه، إذ لم يخلقوا من نور كالملائكة، بل من النطفة، وسائرُ الأطوار القذِرة لا تناسب عالَمَ القُدْسِ إن لم تُحَلَّ بالإيمان والعمل، والملائكة المخلوقون من نور لم يتأهَّلوا لرضا الله تعالى إلَّا بالإيمان والطاعة.

أو خلقناهم من نطفة وما بعدها بقدرتنا، ونحن قادرون أن نخلق مثلهم للطاعة فيطيع ولا يستهزئ بالدِّين ونهلكهم. و«مِن» للابتداء في ذلك كلِّه.

أو خلقناهم من أجل ما يعلمون من النبيء ﷺ من الإيمان والعبادةِ وأصرُّوا على الكفر فمن أين لهم الجنَّة؟ و«مِن» للتعليل، قيل: يدلُّ للوجه الأخير قبلَ هذا قوله تعالى:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ...﴾ إلخ. تقدَّم الكلام في مثل هذا، والمراد: إذا خلقناهم من نطفة فَلَا أُقْسِمُ... إلخ. والمراد: مشارق الشمس المائة والثمانون، ومغاربها المائة والثمانون، وذلك ثلاثمائة وستُّون، أو مشارق الشمس والقمر ومغاربهما، أو مشارقهما ومغاربهما، ومشارق سائر الكواكب ومغاربها. والمراد: ربُّ المخلوقات كلِّها.

﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ ونهلكهم لكفرهم بمرَّةٍ، والتفضيل بحسب دعواهم، وإلَّا فما هم إلَّا شرٌّ، أو «مِنْ» غيرُ تفضيليَّة، فتعلَّق بـ«نُبَدِّلَ»، فيكون «خَيْرًا» بمعنى حسنين فيقابله قباح، وهم قباح.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ بالمنع عمَّا أردنا من خلق بدلهم إن أردناه.

والأولى فيما زعم بعض أنَّ قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ...﴾ إلخ تعليل للردع عن الطمع، كأنَّه قيل: من أنكر البعث فكيف يتَّجه طمعه في الجنَّة؟ والطمع فيها والاستهزاء بالبعث متناقضان. وقيل: المعنى إنَّا لقادرون أن نعطي محمَّدًا ﷺ

من هو خير، وهم الأنصار، وقد فعـل، والحمد لله، أصَرُّوا على الكفر فدخلوا النَّار وآمن الأنصار فدخلوا الجنَّة.

﴿**فَذَرْهُمْ**﴾ لا تكترث بهم واقطع طمعك عن إيمانهـم ﴿**يَخُوضُواْ**﴾ في إنكار البعث والاستهزاء بالوحي ﴿**وَيَلْعَبُواْ**﴾ في دنياهم ﴿**حَتَّىٰ يُلَاقُواْ يَوْمَهُمُ الذِي يُوعَدُونَ**﴾ فاتركهم، إن تركتهم أصرُّوا أيضًا، فلا يؤمنون ألححت عليهم أو تركتهم، فإنَّهم لا يؤمنون حتَّى يلاقوا يوم موتهم.

﴿**يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الَاجْدَاثِ**﴾ بدل من يـوم موتهم المذكور، فإنَّ ذلك كلَّه وقت واحد يبقون في قبورهم بَعْضَهُ، ويخرجون من الأجداث في بعضه، أو يقدَّر: اذكر يوم يخرجون من الأجداث، أو يعلَّق بـ«تَرْهَقُ».

أو «يَوْمَهُمُ الـذِي يُوعَدُونَ» هو يـوم البعث، و«يَـوْمَ يَخْرُجُونَ» بدل من «يَوْمَهُـم»، فيقال: كيـف يبقون على الخـوض واللَّعب بعد المـوت إلى أن يبعثوا؟ الجـواب: إنَّ المراد البقاء على حكمهما إلى يـوم البعث مع انضمام وقوعهمـا خارجًا إلى حكمهما قبل المـوت، فإنَّهم إذا ماتوا لـم ينتقلوا إلى الإيمان النَّافع.

وقيل: يومهم هو يوم بدر، وقيل: يومهم يوم نفخة الموت، على أنَّ الكلام على الكفَّـار مطلقًـا، لا علـى خصـوص المعاصرين لرسـول الله ﷺ لأنَّ المعاصرين له لا يبقون أحياء إلى ذلك الوقت. والأَجْدَاث: القبور.

﴿**سِرَاعًا**﴾ جمع سريع، بمعنى مسـرع ﴿**كَأَنَّهُمُۥ إِلَىٰ نَصْبٍ**﴾ مصدر بمعنى مفعول، أي: إلى صنم منصـوب للعبادة من دون الله سـبحانه، أو بمعنى العَلَم الموضوع للدلالـة على الطريق، فإنَّ الكفرة يسـارعون إلـى الصنم إذا قصدوا عبادته، والمسافرون يسارعون إلى علامة الطريق. [قلت:] ولا تظهر هذه السرعة، **فالأُولى أَوْلى**، نعم إذا تخيَّلوا العلامة وقد ضَلُّوا أسرعوا إلى جهتها ليتحقَّقوا.

وقيل: شبكة ينصبها الصائد، فإذا وقع فيها صيد أسْرع إليها قبل أن ينفلت، وقيل: ما ينصب علامة لنزول المَلِك وسيره يسرع إليه الجند. وقُدِّم للفاصلة على قوله تعالى: ﴿**يُوفِضُونَ**﴾ أي: يسرعون، وقيل: ينطلقون، والجمهور على الأوَّل.

﴿**خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ**﴾ إسناد الخشوع إلى الأبصار مجاز عقليٌّ، لأنَّ الخشوع حقيقة للقلب، ولكن لَمَّا كان يظهر أثره في العين أسند إليها. ﴿**تَرْهَقُهُمْ**﴾ تغشاهم ﴿**ذِلَّةٌ**﴾ شديدة.

﴿**ذَٰلِكَ الْيَوْمُ**﴾ مبتدأ وخبر ﴿**الذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ**﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل على عموم الكفر، ولسان الرسول ﷺ على أنَّ المراد قومه. و«الذِي» نعت «اليَوْمُ»، أو «اليَوْمُ» تابع لـ«ذَٰلِكَ» و«الذِي» خبر، أي: ذلك اليوم هو اليوم الذي يوعدونه من الوعد في الشرِّ أو الوعيد فيه، أو من الإيعاد.

يا حيُّ يا قيُّوم يا ذَا الجلال والإكرام ارحمْنَا في الدنيا والآخرة.

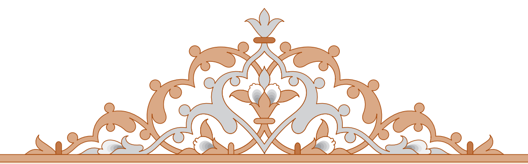
وصَلَّى الله على سيِّدنَا محمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم.



71

تفسير سورة نوح عليه السلام

مكِّيَّة وآياتها 28 ـ نزلت بعد سورة النحل



﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤﴾

رسالة نوح عليه السلام

[قصص] ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا**﴾ قيل: اسمه عبد الغفَّار بن لَمك، بفتح اللَّام وإسكان الميم، وقيل: بفتحهما، وقيل: لامك بألف وفتح الميم ابن متُّوشلخ (بفتح الميم وضمِّ التَّاء مشدَّدة وإسكان الواو وفتح الشين واللَّام)، وقيل: بوزن متدحرج، ابن أخنوخ (بفتح الهمزة والخاء وضمِّ النون، وقيل: بإسقاط الهمزة، وهو إدريس عليه السلام، ابن يَرْدٍ، بفتح الياء المثنَّاة تحت وإسكان الراء والتنوين، لأنَّه ولو كان عَلَمًا أعجميًّا لكنَّه ساكن الوسط، كما نقول في نوح إذْ قيل إنَّه أعجميٌّ ابن مَهْلائيل (بفتح الميم وإسكان الهاء) ابن قينان (بكسر القاف وإسكان الياء) ابن أنوش (بفتح الهمزة وضمِّ

النون) ابن شيت بن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ. هذا هو الصحيح. وذكر بعضٌ عن أكثر الصحابة أن إدريس بعد نوح وأمه شمخى بنت أنوش. ويقال: إنَّ ابنه سامًا نبيء. وكان بين آدم ونوح عشرة قرون بعث الله نوحًا لأربعين سنة، فلبث في قومه ألف سنة إلَّا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله تعالى، وعاش بعد الطوفان ستِّين سنة حتَّى كثر النَّاس، وقيل: ولد بعد موت آدم بمائة وستٍّ وعشرين سنة.

وهو أطول الأنبياء عمرًا، قال ملك الموت: كيف وجدت الدنيا يا أطول الأنبياء عمرًا؟ قال: «كبيت دخلت من باب وقِلْتُ فيه وخرجت من باب آخر». ولا يعارض بالخضر ولو قلنا: إنَّه ـ أي الخضر نبيء ـ لأنَّ الكلام فيمن يموت قبل قرب الساعة.

وكان قبله آدم رسولا إلى زوجه وأولاده، ويُقال له شيخ المرسلين وآدم الثاني، وهو دقيق الوجه طويل الرأس واللحية والقامة، عظيم العينين غليظ العضدين كثير لحم الفخذين، ضخم السرَّة عظيم الجسم، وقد صوِّرت الأنبياء في حريرة لَمَّا رأى الصحابة صورة سيِّدنا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرَفوها كما ذكرته في «ردِّ الشرود» وقبره في مسجد الكوفة[1]، أو بالجبل الأحمر، أو بذيل جبل لبنان، أو بمدينة الكرك.

ولقِّب بنوح لأنَّه كثر بكاؤه على نفسه، قيل: وعلى قومه إذْ دعا عليهم، وأنَّه قيل: رأى كلبًا أجرب قذِرًا فبصق عليه فأنطقه الله تعالى: أتعيبني أم تعيب خالقي؟ فتاب ونَاحَ، ولا يصحُّ ذلك وإن صحَّ فإنَّما بصق على الأرض، وعليه بمعنى لأجله، وصحَّح بعض أنَّ اللَّفظ عجميٌّ معرَّب ومعناه بالسريانية الساكن.

﴿اِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ بأرض الكوفة وفيها سكن، وهناك أرسل ـ قيل ـ إلى من يليها لا إلى أهل الدنيا كُلِّهم، وإنَّما أرسل إلى أهل الدنيا كلّهم سيِّدنا ونبيئنا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشهر غيرُ ذلك.

---

(1) الكوفة أسست في عهد عمر بن الخطَّاب فكيف يكون قبره في مسجدها؟! يجب التمييز بين قصص القرآنِ وقصص الرواة. (المراجع).

وشـــهر أيضًا أنَّ نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أُرســـل إلى أهل الأرض كلِّهم، وأنَّ الغرق عمَّ الدنيا كلَّها، وأنَّ النَّاس كلَّهم من أولاده الثلاثة، وقيل: إنَّ الغرق لم يعمَّ الدنيا وإِنَّ الهنـــد لم يصله الغـــرق، كما قيـــل: إنَّ قومًا آمنوا في موضـــع بعيد منه، وأحاط بهم الماء كالجدران، وبما يرعون فيه، فيحتمل أنَّه مَنْ لم يصبه الغرق لم يلدوا، ويحتمل أنَّهم ولدوا.

[نحو] ﴿**أَنَ اَنــذِرْ قَوْمَكَ**﴾ «أَنْ» مفسِّـــرة لتقدُّم معنـــى القول دون حروفه لا مَصدَرِيَّة على تقدير الباء لدخولها على الأمـــر، ولا خارج للأمر فضلاً عن أن يتعدَّى إليه بالباء، وهذه حجَّة لا يحـــام حولها، وليس كقولك: زيد أَكرمه، لأنَّه معنى مقبول، ولا كقوله تعالى: ﴿**أَنْ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهَا**﴾ [سورة النور: 9]، لأنَّ المعنى: اللَّهمَّ اغضب عليها، وهو معنى مقبول قبل التأويل، وحكاية سيبويه: «كتبت إليه بأن قم» شاذَّة.

﴿**مِن قَبْلِ أَنْ يَّاتِيَهُـــمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ**﴾ الإغراق أو نـــار الآخرة، ومبدؤُها من قبورهـــم، وإنَّما قلت هذا لأنَّ موتهـــم ليس متَّصلاً بدخول جهنَّم، وإن فُسِّـــر الإتيان بالظهور صحَّ تفسيره بعذاب جهنَّم بعد البعث.

وكأنَّه قال قائل: فما فعل بعد هذا الإرسال؟ أو ما قال بعد هذا الإرسال؟ فأجابه الله عَزَّ وَجَلَّ بقوله: ﴿**قَالَ**﴾ لهم ﴿**يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُـــمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ**﴾ منذر ظاهر الإنذار، من «أبـــان» اللاَّزم أو مظهر لكم ما خفي عنكـــم، وهو أمر الدين من «أبان» المتعدِّي. واللَّام للتقوية، لأنَّ المعنى: إنِّي إيَّاكم منذر، أو للتعليل، أي: أنذركم لأجل نفعكم لا لأجرٍ تعطونيه.

﴿**أَنُ اعْبُدُوا اللهَ**﴾ بأنواع العبادة، أو المعنى وَحِّدُوهُ. ﴿**وَاتَّقُوهُ**﴾ احذروا عقابه أو عَظِّموه بقلوبكـــم. ﴿**وَأَطِيعُونِ**﴾ فيما أنهاكم عنه من عبادة غير الله ســـبحانه، و«أَنْ» تفســـيريَّة. ﴿**يَغْفِرْ لَكُم**﴾ مجزوم في جواب أمرين، ولا ضير، لأنَّهما ليسَا جازِمَيْهِ، بل الجازم محذوف، أي: إن فعلتم يغفر لكم. وعلى قول: إنَّهما جازمان

يقدَّر للأوَّل: «يَغْفِرْ لَكُمْ...» إلخ ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ إذا قيل: «مِنْ» زائدةٌ في الإيجاب ومع المعرفة فمدخولها مفعول به، أي: يَغفِرْ لكم ذنوبَكم كلَّها. والمشهور أن لا تزاد «مِن» في الإيجاب، ولا مع المعرفة فهي للتبعيض.

[فقه] فالمغفور الذنوب السابقة على الإيمان، أو ما يعدُّ ذنبًا يجوز[1] البقاء عليه بعد الإيمان. وأمَّا ما لا يجوز البقاء عليه بعد الإيمان فلا يغفر، بل لا بدَّ من التنصُّل منه، كتزوُّج من لا يجوز تزوُّجه. قال بعض: وكَمَالٍ غُصِبَ وَبَقِيَ إلى الإيمان، وكاستعباد حُرٍّ، وقيل: ذلك البعض ما بينهم وبين الله تعالى، وقيل: مغفرة الذنوب جميعًا بالإيمان مخصوص بهذه الأمَّة.

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ عن العذاب ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أجل موتكم، ولا يصيبكم بعد موتكم، كقولك: لا أكلِّمه ما دام حيًّا، ومعلوم أنَّه لا يكلِّمه إذا مات، وإن لم يعبدوه ويتَّقوه ويطيعوا نوحًا لم يجمع لهم ما بين المغفرة والتأخير إلى الأجل المسمَّى، بل لهم التأخير إليه فقط مع العذاب فيه.

﴿إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ فاحذروا أن يجيء وأنتم مصرُّون فتهلكوا. ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لو كنتم من أهل العلم لسارعتم إلى العبادة والتقوى، أو لعلمتم أنَّ أجل الله لا يؤخَّر إذا جاء، أي: إذا قرب مجيئُه لأنَّه إذا حضر لم يتصوَّر تأخيره، ومرَّ كلام في مثل هذا.

وكان المؤمنون يخافون الإهلاك فوعدهم الله تعالى أن يتمَّ أجلهم المعلوم عنده، وهم آمنون من أن يقتلهم عدوُّهم، ولا يصحُّ ما مُثِّل به من أنَّ الكفَّار على رأس تسعمائة فإن تابوا وآمنوا زادهم مائة وإلَّا أهلكهم، لأنَّه ما لِحَيٍّ إلَّا أجل واحد، والله تعالى لا يجهل ولا تبدو له البدوات، وإن قيل: ذلك على التأنيس كالإمداد بخمسة آلاف من الملائكة للنبيء ﷺ صحَّ ذلك.

---

(1) في نسخة المؤلف (د): «ولا يجوز». ولكن لا بد من الاستغفار والتوبة منه بطبيعة الحال.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝5 فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝6 وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝7 ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝8 ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝9 فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝10 يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝11 وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝12 مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝13 وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝14 أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝15 وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۝16 وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝17 ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝18 وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝19 لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝20﴾

مناجاة نوح ربَّه وشكواه من قومه

﴿**قَالَ رَبِّ**﴾ يا ربِّ ﴿**إِنِّي دَعَوْتُ**﴾ إلى العبادة والاتِّقاء والإطاعة ﴿**قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا**﴾ دائمًا بلا فتور.

[بلاغة] فقوله: ﴿لَيْلاً وَنَهَارًا﴾ كناية عن المداومة، وإلَّا فليل ونهار ليل واحد ونهار واحد، وليل ونهار نكرتان مستعملتان في الإثبات للاستغراق، وهذا العموم عرفيٌّ، لأنَّه ليس يستغرق أوقات اللَّيل والنَّهار، بل المراد الإكثار، كفلان لا يضع عصاه عن عاتقه، أي: يكثر السفر.

﴿**فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي**﴾ إلى العبادة والاتِّقاء والإطاعة ﴿**إِلَّا فِرَارًا**﴾ من العبادة والاتِّقاء والإطاعة، والفرار حقيقة بالأرجل، واستعمل في المبالغة

في الإعراض، حتَّى كأنَّهم فَرُّوا فلم يحضروا كلامه، وإسْنادُ الزيادة حقيقةٌ إليهم، أي: يزيدون أنفسهم فرارًا فقط، وأسندها إلى الدعاء لأنَّه سبب لها، ثَبَتَ لهم الكفر، وَلَمَّا دعاهم كذَّبوه فهذا كفر زادوه، ثمَّ إذا دعاهم كفروا أيضًا وكذَّبوا، فهذا كفر آخر، وهكذا...

وأيضًا كذَّبوا بحجَّته، وإذا جاءهم بحجَّةٍ أخرى كذَّبوها، وإذا جاءهم بأخرى كذَّبوها أيضًا، وهكذا، ولو قال: لم يجيبوني لم يفد ذلك. و«فِرَارًا» مفعول ثانٍ، ولعلَّه هو الأوَّل لأنَّه الفاعل في المعنى، لأنَّ الذي يزداد الفرارُ لا هم.

﴿**وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ**﴾ إلى العبادة والاتِّقاء والإطاعة، وأجيز عدم التقدير بمعنى: كلَّما صدر منِّي الدعاء، والمرجَّحُ الأوَّل. و«ما» مَصدَرِيَّة، والمصدر ظرف زمان أضيف إليه «كُلَّ»، فكأنَّ «كُلَّ» ظرف زمان متعلِّق بـ«جَعَلُواْ»، وهذا وما بعده كلام مستقلٌّ لا تفصيل مجمل. ﴿**لِتَغْفِرَ لَهُمْ**﴾ بسبب العبادة والاتِّقاء والإطاعة.

﴿**جَعَلُواْ أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ**﴾ أطراف أصابعهم، كلُّ واحد يجعل طرفي أصبعين من أصابعه في خرقي أذنيه، لئلَّا يسمعوا، وذلك حقيقة، **أو المراد عدم قبول ما سمعوا حتَّى كأنَّهم لم يسمعوا** كما لا يسمع من سدَّ أذنيه بأصبعيه.

﴿**وَاسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ**﴾ بالغوا في الاستتار عنه بثيابهم بجعلها غاشية لهم مغطِّية، مبالغة في عدم السَّمع، وزيادة أن لا تراه أعينهم، وذلك حقيقة.

أو المراد مزيد الفرار، وقيل: حقيقة لكن لئلَّا يعرفهم فيدعوهم، وذلك أنَّه يدعو أكابرهم بحسب نظره، ويدعو العامَّة كذلك، ويدعو من لا يعاجله

بالأذى حتَّى يتمَّ كلامه، وكلٌّ بحسب مقامه في الدعاء، فكان من يظنُّ أنَّ نوحًا يدعوه يستر نفسه، **وَهَذَا ضعيف ينافي قوله**: ﴿كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ وتقدير: كلَّما أردت دعاءهم إلغاء للظاهر إلى الباطن بلا داعٍ.

﴿**وَأَصَرُّواْ**﴾ دَاوَمُوا على الكفر، من الصرِّ على الشيء بمعنى الشدِّ عليه، أي: صاروا ذوي صَرٍّ، أي: ملازمة للكفر. ومن العجيب ما قيل من جعله مِنْ أَصَرَّ الحمار على الأتان إذا رفع أذنيه وسوَّاهما يتبعها للسفاد، تشبيهًا لحالهم في الكفر بحال الحمار، مبالغةً في ذمِّهم، وأَعجَبُ مِنْ قائِلِهِ مَنْ يستحسنه!.

﴿**وَاسْتَكْبَرُواْ**﴾ عن اتِّباعي ﴿**اسْتِكْبَارًا**﴾ عظيمًا، وقيل: نوعًا من الاستكبار غير معهود، ولا يصحُّ، لأنَّ التنكير يدلُّ على التعظيم أو التحقير لا على النَّوع، والاستكبار دعوى أنَّ له كِبْرًا وليس له.

﴿**ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّيَ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا**﴾ هذا تعميم لوجوه الدعوة، وقوله: ﴿لَيْلاً ونَهَارًا﴾ تعميم للأوقات.

و«ثُمَّ» للتراخي الرتبي في الموضعين، فإنَّ الجهار أشدُّ من الإسرار وأغلظ، والجمع بينهما أغلظ من الإفراد. أو للتراخي الزمانيِّ على الأصل، باعتبار مبدأ كلٍّ من الإسرار والجهار ومنتهاه، وباعتبار منتهى الجمع بينهما لئلَّا ينافي عموم الأوقات المذكورة.

وقد قدَّم لهم الإسْرار لأنَّه أجلب، فالحاصل تقدُّم الإسرار ويليه الجهار، ثمَّ الجمع بينهما في مقام واحد، فلا تكرار بين الجهار والإعلان.

والجهار مصدر جاهرَ، والنَّصب على المفعوليَّة المطلقة، لأنَّ الجهار نوع من الدعاء، كقعدت القرفصاء، أو لأنَّ «دَعَوْتُهُمْ» مستعمل في معنى جاهرتهم، كقمت وقوفا، أو لتقدير مضاف، أي: دعاء جهار، والجهار يستعمل في الدعاء



وغيـره، أو حال لتأويله باسـم الفاعـل، أي: مجاهِرًا ولتقديـر مضاف، أي: مصاحب جهـار، أو مبالغة كأنَّه نفس الجهار. وفي لفـظ الجهار مفاعلة، فهو يجهر لهم بالدعاء وهم يجهرون له بالردِّ والإنكار.

﴿**فَقُلْتُ**﴾ بعد قولي: آمنوا بالله وحده واعبدوه وحده ﴿**اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ**﴾ من إشـراككم ومعاصيكم، وذَكـرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نَفْسَـهُ بالرُّبُوبيَّةِ لأنَّهـا أدْعَى إلى الاستغفار **فإنَّ من ملَكَكَ وأنعم عليك يَحِقُّ أن تشكره ولا تكفره.**

﴿**إِنَّـهُ كَانَ غَفَّـارًا**﴾ كثيـر المغفرة وعظيمهـا، فإنَّكم كثيـرو المعاصي وعظيموها، ومقيمون عليها زمانًا طويلاً ومع ذلك يغفرها بتوحيد ساعة.

وزاد علـى المغفرة الإحسـان إليهم بمـا يرغبون فيه مـن إدرار المطر، والإمداد بالأموال والبنين والجنَّات والأنهار في الدنيا، مع ما لهم في الآخرة.

قد قطع الله عَزَّ وَجَلَّ عنهم المطر وأعقم نساءهم أربعين عامًا، أو سبعين، لكفرهم بنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فوعدهم بما ذكر من المطر وما ذكر معه إن آمنوا، وذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿**يُرْسِـلِ السَّـمَآءَ**﴾ المطر ﴿**عَلَيْكُم مِّـدْرَارًا**﴾ من جهة السَّـماء أو من السَّحاب.

[لغة] وكلُّ ما أظلَّك فهو سماء لك، وسقف البيت سماء. والمدرار: كثيرة الدُرور، أي: السـيلان، ولم تلحقه التاء لأنَّ صفـات المبالغة لا تلحقها التاء التي للتأنيث.

﴿**وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـاتٍ**﴾ في الدنيا وليس المراد في الآخرة كما قيل. ﴿**وَيَجْعَل لَّكُـمْ أَنْهَارًا**﴾ أعاد لفظ الجعل لتغاير الجنَّات والأنهار، بأنَّ لهـم في الجنَّات عَمَـلاً دون الأنهار، وَلَمَّا لـم يتغاير الأموال والأولاد وكانت مـن الله عَزَّ وَجَلَّ لم يُعِدْ لفظ الإمداد، كذا قيـل، وفيه أنَّ لهم في الأموال عملا، وأنَّ الأنهار مناسب للجنَّات بلا إعادة للفظ الجعل.

[بلاغة] فالجعل إنَّما أعيد لشدَّة الاحتياج إلى الأنهار للشرب والغسل والطَّعام، وشدَّة احتياج الجنَّات إليها، إذ لا بقاء لها مع عدم الأنهار، ووجودها بلا بقاء لا عبرة به، ولم يكرِّر الإمداد مع البنين لأنَّ عدم التكرير هو الأصْل إلَّا لِدَاعٍ لهُ، ولا داعي هنا، بل هنا داع إلى عدمه، لأنَّ الأموال والبنين كشيء واحد في المحبوبيَّة، والمال يتكدَّر بعدم الولد، والولادة تتكدَّر بعدم المال.

وأخَّر البنين لأنَّ آخر أمر الأموال إليهم بإعطاء الأب أو بالإرث، ولأنَّها تحتاج إليهم، ولا سيَّما أهل البَدْوِ، لشأن الرَّحيل والنزول، والحمل على الدَّوابِّ والإنزال عنها، والرعي وتدبير أماكن الرعي.

اشتكى رجل إلى الحسن الجدب، والآخر الفقْر، والآخر عدم ولادة الابن، والآخر جفاف بستانه، فقال لكلِّ واحد: استغفر الله تعالى، فقال له الرَّبيع بن صبيح: أمرتهم بشيء واحد مع اختلاف مسؤولاتهم؟ فقال: قال الله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمُ...﴾ إلخ.

وخرج عمر يستقي ولم يزد على الاستغفار حتَّى رجع، فقيل: لم تستسق؟ فقال: طلبت الغيث بمجادح السَّماء، فقرأ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمُ...﴾ إلخ. نجمٌ تنسبُ إليه الجَاهِلِيَّةُ المطرَ، وقيل: هو الدبران، خاطبهم بما عرفوا وهو يعتقد أنَّه لا نَوْءَ إلَّا بالله تعالى.

﴿**مَا لَكُمْ**﴾ استفهام إنكار لأن يليق سبب ما في عدم رجاء الله عز وجل. ﴿**لَا تَرْجُونَ لِلهِ وَقَارًا**﴾ لا تخافون. كقول أبي ذؤيب:

«إذا لسعته النحل لم يرج لسعها»

أيْ لم يَخَفْ لسعها. أو المعنى: لا تعتقدون. وقيل: لا تبالون، ويحتمله كلام أبي ذؤيب.

وقيل: لا تأملون ولا تطمعون أن يوقِّركم الله تعالى، أي: يُعظِّمكم بالرضا عنكم والثواب على أعمالكم في الطَّاعة إن عملتم، وهذا لا يناسب قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ لأنَّ خلقهم أطوارًا ليس ممَّا يدعوهم إلى الطمع في الثواب والرضا عنهم.

وعن ابن عبَّاس: لا ترون لله عظمةً، ويُقال: لا تعرفون له حقًّا، ولا تشكرون له نعمةً.

[بلاغة] ومقتضى الظاهر: ما لكم لا تثبتون لله وقارًا، لَكِنَّ لفْظَ الرَّجاء المناسب للظنِّ دلالةٌ على أنَّه ليس لهم في تعظيم الله ﷻ ولو أقلُّ قليل، ولو بلا جزم، بل بنحو ظَنٍّ، مع أنَّه لا أقلَّ من أن يظنُّوا لِقُوَّة الدلالة وكثرتها.

والجملة حال من الكاف. و«لِلهِ» حال من قوله: ﴿وَقَارًا﴾ أي: عظمة في نفس الأمر، أو في نفوس النَّاس، أو حلمًا، والحليم يعاقب إذا رأى ما يكَدِّر صفو حلمه، أي: لا تخافون عاقبة حلمه، كما فسَّره ابن عبَّاس بالعاقبة.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ حال من الكاف، أو من لفظ الجلالة، والمفرد طور، أي: حال، فالأطوار: العناصر والأغذية، والنطف والعلق والمضغ والعظام واللُّحوم والخلق الآخر، على ذلك الترتيب.

وقيل: الأحوال المختلفة بعد الولادة من الصِّبا والشباب والكهولة والشيخوخة بعدها، والقوَّة والضعف، والألوان والهيئات والأخلاق، والصحَّة والسقم، وكمال الأعضاء ونقصها، والغنى والفقر، والعقل وعدمه، والطول والقصر، وكمال الحواسّ الخمس ونقصها، وقيل: معناه مختلفين، لا يشبه بعضٌ بعضًا حتَّى لا تمييز.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ مفعول ثانٍ لـ«خَلَقَ» بمعنى صَيَّر أن كنَّ طبقًا واحدًا، وجعلهنَّ بالفتق سبعًا، [كما في الآية 30 من

سورة الأنبياء]، ومعنى المطابقة أنَّ بعضًا فوق بعض مقابل له، وقيل: تطابقهنَّ في الحسن والاشتمال على الحكم وجودة الصنعة، وهو قول مخالف للظاهر وللأخبار الواردة.

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾ في مجموعهنَّ، إذ هو في السَّماء الدنيا، لكن لَمَّا جمعهنَّ اسم السماء والشَّفافَةُ والعلوُّ والتطابق صرن كواحدة، فنسب إليهنَّ ما لواحدة، وليس من باب الكليَّة والجزئيَّة، لأنَّه ليست إحداهنَّ جزءًا من الأخرى، ولا هنَّ جزءًا من واحدة.

وعن ابن عبَّاس وابن عمر: إنَّ وجه الشمس والقمر إلى فوق، فهما مضيئان فيما فوقهما أيضًا، فقال: ﴿فِيهِنَّ﴾. ﴿نُورًا﴾ يضيء الأرض وما فيها ليلاً.

﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ للدنيا بالضَّوْء كالمصباح في البيت، وضوؤها ذاتيٌّ لها قام بها لم ينعكس إليها من غيرها، كما أنَّ المصباح لم ينعكس إليه الضَّوء من غيره، ولو قبس من غيره، بخلاف القمر فإنَّ ضوءه انعكس إليه من غيره على المشهور انعكس إليه من الشمس. ويقدَّر: وجعل الشمس فيهنَّ، على حدِّ ما مرَّ في القمر، وهي في السَّماء الرابعة على المشهور.

﴿وَاللهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الاَرْضِ﴾ بإنبات آدم منها، أو بالأطوار المتولِّدة منها. ﴿نَبَاتًا﴾ اسم مصدر، أي: إنباتًا عجيبًا.

[بلاغة] وأنبت استعارة لأنشأ تبعيَّة، أو شبَّه الإنسان بنحو النخلة أو الشجرة ورمز لذلك بذكر لازمها وهو الإنبات، ووجه الشبه النموُّ والنفع.

ولا حاجة إلى تقدير: أنبتكم من الأرض إنباتًا فنبتتم نباتًا عجيبًا، على الاحتباك، وأنبتكم فنبتتم نباتًا، لمجرَّد كون النبات ثلاثيًّا مصدرًا لِفعلٍ ثلاثيٍّ، إذ يكفي عن ذلك ما مرَّ من جعله اسما للإنبات.

واختار بعضهم هذا التقدير مدَّعيًا أنَّ الإنبات فعلٌ لله تعالى، ولا يَحُسُّون فعلَه حتَّى يعدُّوه عجيبًا، بخلاف نبتتُّم نباتًا عجيبًا، وفيه أنَّ المشاهد هو صورة الإنسان ومشاهدتُها على ما هي أمر لا يختلف بالإنبات والنبات.

﴿**ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا**﴾ بالموت والدفن، ويجوز أن يكون معنى الإعادة فيها ردُّه ترابًا على أنَّه يصير ترابًا أو شبيهًا به. ﴿**وَيُخْرِجُكُمْ**﴾ منها بالإحياء والبعث، ولم يعطف بـ«ثمَّ» لأنَّ الزمان من حيث يموت إلى ما لا نهاية له زمان واحد، بخلاف زمان الإنبات وزمان الإخراج فهما جنسان لا جنس واحد. ﴿**إِخْرَاجًا**﴾ محقَّقًا لا ريب فيه.

﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْاَرْضَ بِسَاطًا**﴾ أي: كالفراش تتقلَّبون فيها، ولو كانت كريَّة الشكل على الصَّحيح، إلَّا أنَّ كريَّتها لا تتبيَّن لنا لعظمها، وإلَّا أنَّ خطَّ الاستواء بسيط غير كري.

[هيئة] والأرض مكوَّرة على صورة الكرة، ودورها خمسة آلاف ميرياميتر على قياس الفرنسيس. والماء يغمر الجزء الأعظم من سطحها.

والمغرب جهة غروب الشمس، وهو مقابل للمشرق، والشمال هو الجهة التي أمامك إذا جعلت المشرق يمينك والمغرب شمالك، والجنوب هو الجهة المقابلة للشمال.

[جغرافيا] وكرة الأرض خمسة أقسام أوربا وآسيا وإفريقيا وأمريكا وأوقيانوسيا، وهذه الأقسام متخلِّلَة بالبحر، والبحر المحيط ثلاثة: المحيط المغربي، ويسمَّى بالفرنسيس: أوسيان أطلنتيق، وهو ممتدٌّ بين أوربا وإفريقيا وأمريكا، والمحيط الأكبر ويسمَّى بالفرنسيس: أوسيان باسيفيق[1] وهو ممتدٌّ بين آسيا وأمريكا، والمحيط الهندي وهو ممتدٌّ بين إفريقيا وآسيا

(1) أي: Océan Atlantique و: Océan Pacifique.

والأوقيانوســيا، وتوجد بعض أجزاء من البحر المحيط بآسيا، وهي في أوربا أربعة: الأوَّل البحر الأوســط بين أوربا وإفريقيا وآسيا، ويتَّصل من جهة جبل طارق إلى برِّ الشــام، والثاني بحر بانطــس أو بحر الموســكو بين المملكة العثمانيــة، ومملكة الموســكو، والثالث بحر الشــمال بين جزائــر الإنكليز ومملكة ســويد، والرابع بحــر بلطيق بين مملكة بيروســيا ومملكة ســويد ومملكة الموسكو.

وقدَّم «لَكُمْ» للاهتمام بخطابهم، وذِكْر ما يدلُّ على نفعهم، فإنَّ اللَّام للنفع.

﴿لِّتَسْــلُكُواْ﴾ اللَّام الأولى اســتقراريَّة في المفعول الثاني، وليس معناها معنى هذه، وكذا إن علِّقت بـ«جَعَلَ» بمعنى خلق، فإنَّها للنفع وهذه للتعليل. ﴿مِنهَــا﴾ أي: فيها، أو «مِــنْ» للابتداء، أي: من موضع منهــا إلى موضع، أو المعنى: لتتَّخــذوا منها، ويجــوز تعليقها بمحــذوف حال من قولــه تعالى: ﴿سُــبُلاً﴾ فتكون للتبعيض. ﴿فِجَاجًا﴾ نعت «سُــبُلاً»، أي: طرقًا واسعة، لأنَّه صفة مشــبَّهة، وقيل: غير صفة بل اســم للطريق الواســع، أو للمســلك بين الجبلين، فيكون عطف بيان على القول بجوازه في النكرات أو بدلاً.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿21﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿22﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿23﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿24﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿25﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿26﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿27﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿28﴾﴾

شكوى نوح إلى الله من مساوئ قومه والدعاء عليهم

﴿**قَالَ**﴾ لمناجاة الله تعالى ﴿**نُوحٌ**﴾ أُظهِر لطول الفصل ﴿**رَّبِّ**﴾ يا ربِّ ﴿**إِنَّهُمْ**﴾ أي: إنَّ غير المتجبِّرين بالمال والولد، أو المجموع لا الجميع، بدليل قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾. ﴿**عَصَوْنِي**﴾ من حين بلَّغت الرسالة إليهم إلى الآن.

﴿**وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا**﴾ كَفَرَ أكابِرُهم ذَوو المال والولد استغناء بحالهم واتَّبعهم باقيهم تقليدًا أو مداهنةً أو طمعًا أو خوفًا. ﴿**وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا**﴾ الجمع في «مَكَرُوا» باعتبار معنى «مَن»، والإفراد قبلُ للَفظها، واختير الجمع هنا والإفراد قبلُ ليكون أشدَّ وأعظم في الدلالة على قوَّة المكر، والعطف على «لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ»، أو على «عَصَوْنِي»، وهذا أنسب لكون العاطف هو الواو وهي لا ترتِّب.

والأوَّل أنســب لدلالته على أنَّ المتبوعين ضمُّوا إلى الضَّلَالِ الإضْلَالَ، ولأنَّ ما بعده من صفات المتبوعين الرؤساء، وإذا قلت في الضمير: إنَّه جَمْعٌ فالمراد أنَّه ضمير الجماعة.

[لغة] وفُعَّال بالضمِّ والشــدِّ صفة مبالغــة، وهي لغة اليمــن كَكُبَّار هنا، وقراءة في قول الشاعر:

بيضاء تصطاد الغَوِيَّ وتســتبي بالحسن قلب المسلم القُرَّاء[1]

روي بضمِّ القاف، وكالوُضَّاءِ بالضمِّ والشدِّ في قوله:

والمــرء يُلْحِقُه بفتيــان النَّدَى خُلُقُ الْكَرِيمِ وَلَيْسَ بِالوُضَّاءِ[2]

وسمع أعرابيٌّ جاهلٌ رسولَ الله ﷺ يقرأ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ فقال: «ما أفصح رَبَّك يا محمَّد!» لا يدري أنَّ الله سبحانه لا يوصف بالفصاحة ولا بالبلاغة والمبالغة، وإذا أُطلق شيء من ذلك في كلامه فالمعنى اعتباره في كلام العرب.

﴿**وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ**﴾ لا تتركوا احترامهــا وعبادَتَها إلى عبادة ربِّ نوح ﴿**وَلَا تَذَرُنَّ وُدًّا...**﴾ إلخ ذِكر خــاصٍّ بعد عامٍّ لمزية هذا الخاصِّ عندهم، فإنَّ هذه الخمسة أعظم آلهتهم، والثلاثة الأولى أيضًا أفضل الخمسة، ولذلك كانت بإعادة «لا»، وقيل: لم يُعد «لا» مــع الأخيرين لكثرة تكرار «لَا»، وعدم اللَّبس لظهور أنَّ السلب كلِّيٌّ لا كلٌّ، ولو لم تتكرَّر. ويذكر الخاصُّ قبل العامِّ أيضًا لمزيَّته نحو: قام زيد والقوم.

[قصص] وكانت أســماؤها أســماء لرجال صالحين مــن قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مَاتُوا، فنصب مَن بَعدهم أنصابًا في مجالســهم، وسمَّوها بأسمائهم ليجتهدوا في العبــادة إذا رأوهــا وتُذَكِّرُهم، وذلك بوسوســة الشــيطان، ومات هؤلاء النَّاصبون أيضًا واندرس العلم، فعُبِدَتْ.

---

(1) البيت لزيد بن تركي الزبيدي في لسان العرب مادَّة «قرأ»، ج 11، ص 79.

(2) البيت لأبي صدقة الدبيري كما في لسان العرب. مادّة: «و.ض.أ» ج 15 ص 322.

وعن محمَّد بن كعب القرظيِّ: أسـماء لخمسـة بنين من ولـد آدم عُبَّاد، فمات واحد منهم فحزنوا، وقال لهم الشـيطان: أصوِّر لكـم مثله في قبلتكم تذكرونه إذا رأيتموه، قالوا: لا نصلِّي إلى شـيء، قال: نُصوِّره آخر المسـجد فرضوا ففعل، وَلَمَّا مات الأربعة صوَّرهم أيضا في مؤخَّره، وما زال أمر دينهم ينقص حتَّى عبدوها وتركوا عبادة الله عَجَّلَ، فأرسل الله إليهم نوحًا.

وذكر عروة بن الزبير أنَّ «وُدًّا» كان أكبرهم وأبرَّهم لأبيه آدم.

ويروى أنَّ «ودًّا» أوَّل معبود غير الله، ويروى أنَّه كان رجلاً مسـلمًا محَبَّبًا في قومه، مات فعسـكروا حول قبره في بابيل، وجزعوا، فقال لهم إبليس في صورة إنسـان: أصوِّرُ لكم مثله يكون في ناديكم فتذكرونـه، ففعل، ثمَّ قال: أجعل لـكلِّ أحد منكم مثله في بيتـه، ففعل فهم يذكرونه، فـدرس العلم ثمَّ عبد الذرِّيةُ تلك الصور.

وانتقلت هـذه الأصنام إلى العـرب، فكان وُدٌّ على صـورة رجل لكلب بدومة الجنـدل. ﴿**وَلَا سُـوَاعًا**﴾ هو على صـورة امرأة، انتقـل إلى هذيل. ﴿**وَلَا يَغُوثَ**﴾ على صورة أسد، انتقل إلى مراد، ثمَّ لبني غطيف بالجرف عند سبأ، قال أبو عثمان النهدي: رأيت يغوث من رصاص يحمل على جمل أجرد يسـيرون معه ولا يهيِّجونه ولا ينزلون إلَّا حيث برك وحدَهُ بلا مُبْرك فينزلون، فيقولون قد رضي لكم المنزل.

وعن ابن عبَّاس: كانت هذه الأصنام الخمسـة مدفونة فأخرجها الشيطان للمشركين من العرب. وكانت لهم أصنام أُخر: اللَّات لثقيف، والعُزَّى لسليم وغطفان وجشـم، ومنـاة لخزاعة بقديد، وإسـاف ونائلة وهبـل لأهل مكَّة، ويسمُّون بعبدِ وُدَّ وعبد يغوث وعبد العزَّى ونحو ذلك.

﴿**وَيَعُوقَ**﴾ على صورة فرس، انتقل إلى همذان. ﴿**وَنَسْـرًا**﴾ على صورة نسر، انتقل إلى حمير لآل ذي الكلاع.

[قلت:] وما ذكر أنَّها على صورة ما ذكر مُخالفٌ لما ذكر أنَّها على صورة ناس صالحين، وهو الأصحُّ، إلَّا وُدًّا فإنَّه على صورة رجل وليست باقية على أعيانها، بل يصوَّر مثلها، أو بقيت الأسماء فاتَّخذت العرب أصنامًا بأسمائها. وقد ذكر الآلوسي أنَّ الإفرنج أخرجت في حدود الألف والمائتين والستِّين أصنامًا وتماثيل من أرض الموصل كانت منذ نحو ثلاثة آلاف سنة.

﴿**وَقَدَ اَضَلُّوا**﴾ أي: الرؤساء ﴿**كَثِيرًا**﴾ من النَّاس قبل هؤلاء الموصين بأن يتمسَّكوا بعبادة الأصنام، وليسوا بأوَّل من أضلُّوا، بدليل المُضَيِّ و«قَدْ»، فالإضلال استمرَّ إلى زمان الإخبار بإضلال الطائفة الأخيرة.

أو الكثير هؤلاء الموصون، فالأصل: وقد أضلَّ الرؤساء الموصَيْن المخاطبِين بقوله[1]: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ فوضع «كَثِيرًا» موضع ذلك.

وقيل: الواو للأصنام لتنزيلهم منزلة العقلاء عندهم، ويؤيِّده القرب، إلَّا أنَّه يبعده أنَّ المحَدَّث عنهم الرؤساء فهم أولى بردِّ الضمير إليهم، وأيضًا ذكر الخمسة من كلامهم كما قال: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ...﴾ إلخ، ﴿وَقَدَ اَضَلُّواْ﴾ من كلام الله تعالى، وأيضًا الإضلال أنسب بالعقلاء، وهو حقيقة فيهم مجاز في غيرهم.

﴿**وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إلَّا ضَلَالاً**﴾ من كلام نوح عليه السلام، كما لا يخفى، ولا يحتمل غيره، وهو ممَّا ينسحب عليه «قَالَ»، فقد عَطَفَ نوحٌ الإنشاء على الإخبار، وهو قوله: «عَصوْني»، ويجوز أن يقدَّر: «قَالَ» معطوفًا بالواو، هكذا: وقال: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إلَّا ضَلَالاً﴾ فلا تكون نَصًّا في أنَّه عليه السلام قال هذا بالعطف، وتكون الواو من كلام الله تعالى، كما قال بكر: أطاع الله زيدٌ أكرِمْهُ، فتقول: قال بكر: أطاع اللهَ زيدٌ، وقال: أكرِمهُ، وحذفْتَ «قال» الثاني وأبقيْتَ الواو التي من كلامك.

ولك أن تجعل الواو من كلام نوح عاطفة على إنشاء محذوف، أي: «اُخْذُلْهُمْ ولا تزِدْ». ثمَّ إنَّ مقتضى الظاهر: ولا تزدهم إلَّا ضَلالاً، وأظهر

(1) كذا في النسخ، لعل الأنسب: «بقولهم»، أي: الرؤساء.



ليصفهم بالظُّلم الموجب لهلاكهم، وإشعارًا باستحقاق العذاب، وإبداءً لعذر نوح في الدعاء عليهم.

ولك العطف على «رَبِّ» مع ما بعده، لأنَّ النداء إنشاء، أو لأنَّه بمعنى الشكاية المتضمِّنة للطلب، فمعنى «يَا رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي»: انصرني عليهم، واختاره بعض واستحسنه، وليس كذلك.

والمراد بالضلال أن يخطئوا في احتيال المكر فلا يتمَّ لهم فلا يؤثِّر في دينك، ولا يصلح عليه أمر دنياهم. أو المراد الضلال في الدين، وهذا بعْدَ أن أُوحِيَ إليه ﴿اَنَّهُ لَنْ يُّومِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَ ـ امَنَ﴾ [سورة هود: 36]، أو مطلقًا، لأنَّه أيس منهم.

والزيادة في ضلال الدِّين سببُ الهلاك، كما فَسَّرَه بعض بالهلاك، وبعض بالعذاب، وبعض بالضلال في أمر الدنيا، وإذا قلنا: في الدِّين، فإنَّ الله تعالى أباح له ذلك، وإلَّا فإنَّه مبعوث للصرف عن الضلال، ولا يكفي جوابا أنَّه قاله بعد أن أوحي إليه ﴿اَنَّهُ لَنْ يُّومِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَ ـ امَنَ﴾.

﴿**مِمَّا خَطِيئَاتِهِمُۥ**﴾ «مِن» للتعليل متعلِّقة بـ«أُغْرِق» بعدها، وقدِّم للحصر على طريق الاهتمام بذكر ما أوجب الإغراق، وللتشويق إلى ذكر ما يترتَّب على الخطايا، و«مَا» صلة للتأكيد، أو نكرة تامَّة «خَطِيئَاتِهِم» بدل منها.

﴿**أُغْرِقُوا**﴾ بالطوفان ﴿**فَأُدْخِلُوا نَارًا**﴾ عظيمة، قيل: أو نوعًا منها، وذلك نار البرزخ التي يحرق بها قبل البعث، يحرقون بها في الماء، وفي ذلك إثبات عذاب القبر وفي ذلك خطاب الكفَّار بفروع الشرع، لأنَّ الخطيئات يشمل غير الشرك والله قادر. وقد قيل:

لا تعجبنَّ لأضداد إذا اجتمعت فالله يجمع بين الماء والنَّار[1]

(1) البيت لأبي بكر بن الأنباري. ينظر: **الثعلبي**: الكشف والبيان، ج 10، ص 47.

ألا ترى أنَّ النَّار تنزل من السَّحاب؟ وأنَّها تستخرج من العود الأخضر؟. وإن أريد نار الآخرة، أي: سيدخلون نارا بعد الموت، فالفاء لمجرَّد السببيَّة لا اتِّصال فيها، أو هي للاتِّصال وفصلُ البرزخ كَلَافصل عند الله ﷻ، وأيضًا وجود السبب بمنزلة وجود المسبَّب.

﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ﴾ لم يصادفوا لأنفسهم، ففيه عمل عامل في ضميرين لمسَمًّى واحد بلا تبعيَّة، لأنَّ أحد الضميرين مجرور بالحرف، مثل هذا في القرآن كثير لا يختصُّ بباب «ظَنَّ». ولك جعْل «يَجِدُوا» بمعنى يعلموا.

﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ حال من قوله ﷻ: ﴿أَنصَارًا﴾ كلُّ واحد لم يجد ناصرًا عن العذاب، وفيه تعريض بأنَّ آلهتهم لم تقدر على نصرهم، وتهَكُّم بأنَّ لهم أنصارًا لا تقدر على نصرهم.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ﴾ يا ربِّ ﴿لَا تَذَرْ عَلَى الَارْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ حال من قوله تعالى: ﴿دَيَّارًا﴾ بفتح الدَّال وشدِّ الياء بمعنى أحدًا، ولا يستعمل في الإثبات.

[صرف] وأصله دَيْوَارًا بوزن فَيْعَال، قلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء، ومعناه: يسكن دارًا، أو يدور، أي: يتحرَّك، لا بوزن فَعَّال من صفات المبالغة، وإلَّا قيل دَوَّار.

و«الأرض» إمَّا عامَّة على أنَّه أُهلك كُلُّ من فيها وَكُلُّهُم كفَّار إلَّا الأطفال والمجانين من الطفوليَّة، عمَّهم عذاب الدنيا، ويبعثون على غير كفر، وقيل: أعقموا أربعين عامًا أو سبعين عامًا[1]، ومن آمن لم يغرق ولَوْ لَمْ يكن في السَّفينة كما روي أنَّه سار في الأرض بعد الخروج من السفينة ووجد قومًا فقال: لماذا لم تغرقوا؟ قالوا: ما قلت في دعائك؟ فقال قلت: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الَارْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ فقالوا: لسنا كافرين[2]. [وتباعَدَ عنهم الماء

(1) وقد اسْتبعد الشيخ هذا القول. انظر: ج 6، ص 417.

(2) انظر: ج 6، ص 417.

كالحيطان، وقال لهم ملك: اِرعوا في هذه الأرض عدد بقاء الماء][1]. ولا يريد بدعائه ما يشمل الكفَّار الذين لم تصلهم دعوته فإنَّهم أهل فترة؛ لأنه لا يجوز أن يدعو عليهم قبل أن يبلِّغهم.

ويحتمل أنَّه ليس في الدنيا إلَّا قومه الكافرون، ومن آمن منهم، ويجوز أن يكون أباح الله له الدعاء على الكُفَّار ولو أنَّهم لم تبلغهم دعوته.

﴿**إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ**﴾ كلَّهم أو بعضهم ﴿**يُضِلُّوا عِبَادَكَ**﴾ الذين آمنوا، ويضلُّوا أولادهم إذا بلغوا، على أنَّهم لم يعقموا، وأولاد من آمن، وهذا ظنٌّ منه لكثرة ما رأى منهم في طول عمره، أو أيقن بقوله تعالى: ﴿لَنْ يُّومِنَ...﴾ إلخ [سورة هود: 36]، وكان الرجل يأتي بولده ويقول: لا تؤمن بهذا، فإنَّ أبي قد أوصاني أن لا أومن به، ونشؤوا على ذلك موصًى بعد موصٍ.

﴿**وَلَا يَلِدُواْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا**﴾ لأنَّ الكبار يضلُّون الصغار، قال محمَّد بن كعب القرظيُّ: ما دعا عليهم إلَّا بعد أن أُخرج من أصلابهم كلُّ من يؤمن.

﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي**﴾ ذنوبي، وقيل: أراد غفران دعائه على قومه انتقامًا، وهو خطأ، إذ لا ينتقم نبيء، بل دعا نصرةً للإسلام.

قلت: واعلم أنَّه جرت عادة بني مضاب إذا قرؤوا آيات وسورا مخصوصات آخرهنَّ سورة النَّاس أن يبسملوا ويقرؤوا ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ...﴾ إلخ، وقلت لهم: إنَّ أصحابنا كرهوا قراءةَ البسملة وسط قراءة القرآن، والبَدْءَ بها في غير أوَّل سورة في قراءة القرآن، فتركوها.

وقال جاهل: إنَّ قولنا: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ...﴾ إلخ السورة ليس قرآنًا لأنَّا دعونا به دعاء. وهذا كفر شرك، لأنَّه نقص من القرآن، وقد يعتبر قوله: لأنَّا دعونا به تأويلا فيكون نفاقًا، والأولى أن لا يعتبر، لأنَّه يقرؤه على أنَّه قرآن، فقد تناقض كلامه، والناقصُ من القرآن ملعون كالزائد فيه.

(1) إضافة من (أ) غير موجودة في (د).

وليس قوله ﷺ: «بَلَـى» بعد قوله تعالى: ﴿أَلَيْـسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ زيادةً، ولا تتوهَّم الزيادة، ومن نسب الزيادة في القرآن إليه ﷺ فقد أشرك، ومن فعل مثل ما فعل النبيء ﷺ حَلَّ له وَأَدَّى السُّنَّة، ولم يكن ذلك منه زيادة فيه.

وكان أهل نفوسة وأهل جربة يصلُّون على النبيء ﷺ ويسلِّمون إذا قرؤوا اسمه في القرآن جماعة أو فرادى.

وذكر الأخضريُّ[1] أنَّه من ذكر اسمه أو سمعه صلَّى عليه، وأنَّ كلَّ دعاء أو عبادة منه مقبول ومنه مردود إلَّا الصلاة عليه فمقبولة، أي: لأنَّها نفع له ﷺ.

﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ أي: لمك وأُمِّي شِخَى، وكانا مؤمنين لا مشركين، ولذلك دعا لهما بالمغفرة. وعن ابن عبَّاس: آباؤه كلُّهم مسلمون إلى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل: أراد آدم وحوَّاء. ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ منزلي، وهو الأظهر، وفي معناه: أهلي، وهو مشهور، أو سفينتي، أو مسجدي، ونسب للجمهور وابن عبَّاس، وقيل: شريعتي، على الاستعارة، كما يُقال لمدينة: دار الإسلام، وقبَّة الإسلام، وفسطاط الدين.

﴿مُومِنًا﴾ أخرج به زوجه وابنه كنعان، وقيل: لم يجزم بخروج كنعان إلَّا بعد ما قيل: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ اَهْلِكَ﴾ [سورة هود: 46]. ﴿وَلِلْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ﴾ من لدن آدم إلى آخر الدهر، من الإنس والجنِّ، وهذا تعميم بعد تخصيص. ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ أراد قومه، أو العموم فيدخلون.

وأظهر على الأوَّل لِمَا علمت من اعتبار ذكر وصفهم الموجب للتَّبار، ولو قال: ولا تزدهم ـ بِرَدِّ الهاء إلى قومه الكافرين ـ لم يشكل، لكن أظهر لذلك. ﴿إِلَّا تَبَارًا﴾ هلاكا، وهو أولى من قول مجاهد: خسارًا، وكما

(1) هو عبد الرحمٰن بن محمَّد الصغير بن عامر الأخضريُّ، من أهل بسكرة جنوب قسنطينة بالجزائر، ولد سنة 910هـ، وهو أديب منطقيٌّ، له مشاركة في بعض العلوم، وهو صاحب منظومة «جوهر المكنون»، و«الدرَّة البيضاء» في الفرائض. تُوُفِّيَ سنة 953هـ. وضريحه في زاوية بنطيوس. معجم أعلام الجزائر، ص 14.

أجابه الله عَزَّ وَجَلَّ في قومه بالهلاك أجابه في الدعاء للمؤمنين بالغفران، جعلنا الله الرَّحمن الرَّحيم منهم.

عن ابن عبَّاس: أوَّل من يدعى يوم القيامة قوم نوح، فيقولون: ما بلَّغنا شيئًا، فيقول: يا ربِّ بلَّغتهم تبليغًا مشهورا حتَّى بلغ خاتم النبيئين محمَّدًا ﷺ وأمَّته، فيؤتى بهم فيصدِّقونه بما في هذه السورة، فيقولون: كيف شهدت علينا أنت وأمَّتُك وأنتم آخر النَّاس؟ فيقول رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا...﴾ إلى آخر السورة، فتقول الأمَّة: هذه شهادتنا نشهد ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنِ اِلَـٰهٍ اِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: 62]، فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [سورة يس: 59]، أشهدُ أنَّ القرآن حقٌّ.

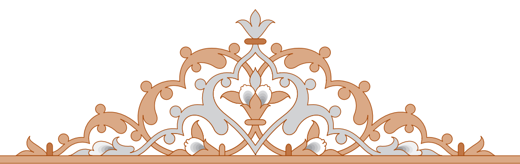
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



72

تفسير سورة الجنِّ

مكِّيَّة وآياتها 28 ـ نزلت بعد سورة الأعراف



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝1 يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝2 وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝3 وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝4 وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝5 وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝6 وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝7﴾

إيمان الجنِّ بالقرآن

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ**﴾ لقومك لعلَّهم يؤمنون بك كما آمن الجنُّ بك وليسوا من جنسك، وكيف لا يؤمنون بك وهم أفضل من الجنِّ وأعقل؟.

قيل: الجنُّ حيوان هوائيٌّ يتشكَّل بأشكال مختلفة. وقيل: جواهر، لا أجسام ولَا أعراض، بعضها شرِّيرة كريهة محبَّة للشرور، وبعضها خَيِّرة كريمة محبَّة للخيور، ولا يعلم عدَّة أنواعهم إلَّا الله ﷻ، وقيل: أجسام مختلفة لطيف وكثيف، علويٌّ وسفليٌّ، أقدرها الله تعالى شأنُه على أفعال عجيبة.

﴿**اوحِيَ إِلَيَّ...**﴾ إلخ صريح في أنَّه لم يؤمر بموعـدٍ لهم ومعرفةٍ وقَصْدٍ لأَنْ يعظهم بالقرآن، بل حضروه وهو لا يدري بهم، بل علم بالوحي؛ فعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا: «ما قرأ رسول الله ﷺ على الجنِّ ولا رآهم وإنَّما انطلق بطائفة من أصحابه لسوق عكاظ».

وقد حيل بين الجنِّ والسماء بالشـهب فقالوا: ما ذلك إلَّا لشيء حدث، فاضربُوا مشارق الأرض ومغاربها، فمرَّ من ذهب إلى تهامة منهم بالنبيء ﷺ وهو يصلِّي الفجر بأصحابه بنخلة، فاستمعوا له فقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين السَّماء، ورجعوا إلى قومهم وقالوا: «يَا قَوْمَنَا...» إلخ فأنزل الله تعالى ﴿قُلُ اوحِيَ إِلَيَّ...﴾ إلخ وعكاظ سوق صغيرة معروفة بقرب مكَّة، تقصدها العرب في الجَاهِلِيَّة في كلِّ سنة مرَّة وفي أوَّل الإسلام، وتهامة ما نزل على نجد من بلاد الحجاز، سمِّيت تهامة لتغيُّر هوائها، ومكَّة من تهامة، ونخلة من أودية مكَّة قريب منها.

وليس في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ...﴾ إلخ [سورة الأحقاف: 29] ما يصرِّح بأنَّه ﷺ على عهد بهم وعلى قصد بصرفهم إليه إلَّا بعد إخبار الله تعالى بالصرف، ولا دليل فيه على أنَّه أرسلهم إلى قومهم نُذُرًا بل سمعوا فأنذروا قومهم.

وأمَّا ما روي عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنهُ أنَّه قال عن النبيء ﷺ: «أتاني داعي الجنِّ فذهبت معه، وقرأت عليهم القرآن»، وانطلق بِنَا وأرانا آثارهم وآثار نيرانهم[1]، فهو واقعة أخرى. ووفادة الجنِّ [عليه] ستُّ مرَّاتٍ والحافظ حجَّة، والمثبت مقدَّم على النَّافي، كابن مسعود وأبي هريرة، إذ حكيا هذه ولم يعلم ابن عبَّاس بها فنفاها أو نفاها عن أَنْ تفسَّر بها الآية هذه.

وقصَّة الجنِّ وكلامهم معه ﷺ قبل الهجرة بثلاث سنين وقيل كانت سنة إحدى عشرة من النبوءة، وابن عبَّاس صغير وما ناهز الحلم إلَّا في حجَّة الوداع.

(1) رواه **مسلم** في كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح... رقم: 1035، عن ابن مسعود.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: صلَّى النبيء ﷺ العشـــاء ثمَّ انصرف، فأخذ بيدي حتَّى أتينا مكان كذا، فأجلســـني وخطَّ عليَّ خطًّا وقال لا تبرح، وأتاني رجال منهم كالزط، وقال: ما جاءني إلى الســـحر، وجعلت أسمع الأصوات، وقلت: أين كنت يا رســـول الله؟ قال: أرســـلت إلى الجنِّ، فقلـــت ما الأصوات التي سمعت؟ قال: أصواتهم حين ودَّعوني وسلَّموا عليَّ[1]. **وأحاديث القصَّة كثيرة.**

وعن ابن عبَّاس: كان للجنِّ مقاعد يســـتمعون من الملائكـــة، فلمَّا بعث رسول الله ﷺ منعتهم الملائكة منها بالشـــهب، فأخبروا إبليس فقال: هذا لأمرٍ حدث في الأرض، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائمًا يُصلِّي بين جبلين في مكَّة فأخبروه، فقال: لهذا الحدث مُنِعتم.

﴿**أَنَّهُ اسْـتَمَعَ**﴾ عالجوا السَّمع، قال عكرمة: ســـمعوا ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وقيل: سورة الرَّحمن.

[قلت] واعلم أنَّه إذا ذكر في حديث أو أثر أوَّل الســـورة بلا ذكر بســـملة فاعلم أنَّهـــا مرادة، ولا تذكر تخفيفًـــا واختصارًا، مع العلم بهـــا بأنَّها أوَّل كلِّ سورة سوى سورة التوبة. وقد تذكر كما مرَّ آنفًا.

﴿**نَفَرٌ**﴾ ثلاثة من أهل حرَّان، وأربعة من أهل نصيبين، التي باليمن، وعن عكرمة: اثنا عشـــر ألفًا، والأوَّل أظهر، وهم من الشـــيصبان وهـــم أكثر الجنِّ عددًا، وعامَّة جنود إبليس منهم، والمشـــهور في اللغة أنَّ النفر ما بين الثلاثة والعشرة، وقد يُطلق على ما فوق العشرة، كما روي عن الشعبيِّ: حدَّثني بضعة عشر نفرًا، وقد يُطلق على المفرد كما في كلام الشعبيِّ هذا.

ويُطلـــق النفر على الجـــنِّ كما في الآيـــة، وعلى الإنـــس، وعلى الرجال والنِّساء، وقيل: يطلق الرهط والنَّفر إلى الأربعين، وإنَّ الرهط يرجعون إلى أب

(1) أورده **الزيعلي** في نصب الرايـــة، كتاب الطهارات، باب في الأَسْـآرِ وغيرهـــا. وقال: رواه الطحاوي في كتابه. من حديث ابن مسعود.

واحد كما يُقال: رهط من الأنصار، بخلاف النفر، فلا يشرط فيه وحدة الأب، وأطلق على القوم في قوله ﷻ: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [سورة الكهف: 34].

﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ واحده جنِّيٌّ، وهو مطَّرد في مثل ذلك، كإِنسٍ وإنسيٍّ، وعربٍ وعربيٍّ، وبربر وبربريٍّ، وتُرْك وتركيٍّ. والجنُّ أجسام عاقلة ناريَّة لقوله ﷻ: ﴿وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [سورة الحجر: 27]، وقوله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ الْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [سورة الرحمن: 15]، والمراد أنَّ النَّار تغلَّبت عليهم كما أنَّ آدم من تراب معه ماء.

وقيل: أجسام ناريَّة تغلَّب عليها الهواء، وكلُّهم يقبلون التشكُّل بأشكال مختلفة، وقيل: صنف منهم، ومن شأنهم الخفاء، ولهم قوَّة على الأعمال الشَّاقَّة.

[قلت:] وألَّفت رسالة في إمكان رؤيتهم على صورهم ووقوعها. وفي بعض التفاسير ما نصُّه: وقد تُرى بصور غير صورها الأَصلِيَّة بل وبصورها الأَصلِيَّة التي خلقت عليها كالملائكة عليهم السَّلام، وهذا للأنبياء عليهم السَّلام ومن شاء الله تعالى من خواصّ عباده ﷻ منها ما إِنْ حُبِسَ انحبس، وما لا ينحبس.

﴿فَقَالُواْ﴾ أي النَّفر لَمَّا رجعوا إلى قومهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا﴾ كلامًا يقرأ وكتابًا يقرأ، ومعنى كلامًا يقرأ بجمع بعضه لبعض يسرد، والمقصود كتاب من السَّماء. ونكِّر تعظيمًا. ﴿عَجَبًا﴾ بليغ في العِظَمِ، كأنَّه نفس العجب، كما تقول: زيد صوم إذا أكثر الصَّوم، أو بمعنى مفعول أي معجوبًا به.

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ الحقِّ والصَّواب من التوحيد والإيمان ﴿فَئَامَنَّا بِهِ﴾ بذلك القرآن عقب سمعنا بلا تأخير، كلَّما تمَّ كلام آمنَّا به، ويجوز عود الضمير إلى الله تعالى إلَّا أنَّ إظهار «ربّ» بعدُ يناسب عوده إلى «قُرْءَانًا». والباء صلة للفعل مُعَدِّية له أو سببيَّة.

﴿وَلَن نُّشْـرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ لما في ذلك القرآن من الدلائل المسـموعة، ومعانيها المطابقـة لإدراك عقولنا، والتفريع بالفاء والتعقيب منسـحبان على «لَن نُّشْرِكَ» فكان بالواو.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي ربُّنـا، وقوله: ﴿تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَـا﴾ معترضة قبل مجيء الخبر وهو قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أو الهاء للشأن و«تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا» خبر، و«مَا اتَّخَذَ صَاحِبَـةً وَلَا وَلَدًا» خبر ثانٍ، لأنَّ الجدَّ العظمـة، و«تَعَالَى» تعاظم عظمة ربِّنا، وهذه مبالغة، كما إذا بالغت في قيام زيد أسندت إلى قيامه قيامًا، فقلت: قام قيامُه (بالرفع).

أو الجدُّ: الملك والسلطان أو الغنى، والجمهور على الأوَّل وفي جميع ذلك هو مسـتعار من الجدِّ بمعنى البخـت، وليس قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ﴾ تفسـيرًا لـ﴿تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ كما قيل به في وجـه جعل الخبر «تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا»، بل ذِكْرٌ لبعض ما شمله، فترك العطف لقصد الإخبار استقلالاً لكونه تفسيرًا كما قيل.

وهو على كلِّ حال متعالٍ عن الصاحبة والولد لجـدِّه بمعنى العظمة، أو السلطان أو الغنى.

سـمعوا من القرآن ما ينفي عنه الصاحبة والولد اللَّذيـن اعتقدهما كفرة الإنس والجنِّ، فوعظوا به قومهم الواصفين له تعالى بهما.

﴿وَإِنَّهُ...﴾ إلـخ من كلامهم عطف على «إِنَّا سَـمِعْنَا» وكذا ما يأتي بعدُ، والجملة اثنا عشـر [قولًا]، آخرها ﴿وَإِنَّا مِنَّا الْمُسْـلِمُونَ﴾ (بالكسر) إلَّا «أَنَّهُ اسْـتَمَعَ»، و«أَنَّ الْمَسَاجِدَ» فليسـا من قول الجنِّ بل مِمَّا أُوحي، وهما بالفتح إعْمالاً لقوله: ﴿أُوحِيَ﴾.

﴿وَإِنَّـهُ كَانَ يَقُـولُ سَـفِيهُنَا﴾ إبليس، كما هـو ظاهر الإفـراد، وذلك قول الجمهور، وقيل: مردة الجنِّ، والجمع مسـتفاد من جعل الإضافة للجنس، وعلى

الأوَّل الإضافة للعهد. ﴿**عَلَى اللهِ شَطَطًا**﴾ بُعْدًا وهُوَ نسبة الصاحبة والولد إلى الله ﷻ، مدحهم باعتقادهم أنَّ قول ذلك بعيد جدًّا حتَّى كأنَّه نفس البعد، أو يقدَّر مضافٌ، أي: ذا شطَطٍ، أو يُؤَوَّل بالوصف ويكفي المدح بمجرَّد اعتقادهم بُعده.

﴿**وَإِنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ الِانسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِبًا**﴾ فقلَّدنا السفيه، والآن لَمَّا ظفرنا بالدليل على نفيه تُبْنَا ورجعنا إلى الحقِّ، و«كَذِبًا» مفعول للقول، ونصبه القول مع أنَّه مفرد لأنَّه عبارة عن الجملة، فإنَّ معنى «كَذِبًا» أنَّ لله صاحبةً وولدًا، وليس مفردًا محضًا، كقولك: قال زيد الله، أي: ذكر لفظ الجلالة.

وسَمَّوا القول كذبًا مبالغةً، والأصل: قولا مكذوبًا، أو قولاً ذا كذبٍ، أو هو مفعول مطلق، والمفعول به محذوف، أي: يقولون: اتَّخذ الله الصاحبة والولد قولاً كذبًا.

[نحو] وإذا وقعت «أَنْ» بفتح الهمزة وإسكان النُّون أو بشدِّها بعد «عَلِمَ» أو «ظنَّ» أو نحوهما كفى المصدر عن مفعولين لاشتمال اللَّفظ قبل التأويل على المسند والمسند إليه، وقيل: المصدر مفعول أوَّل، والمفعول الثاني محذوف وجوبًا كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا ظَنَنَّآ أن لَّن تَقُولَ﴾، وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ﴾ [سورة المزمل: 20]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ [سورة التوبة: 78]، أي: ظننَّا انتفاء قول الإنس والجنِّ... إلخ ثابتًا، ألم يعلموا علم الله سرَّهم ونجواهم ثابتًا؟.

﴿**وَإِنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الِانسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ**﴾ يعتصمون بهم، ويلتجئون إليهم في دفع الآفات.

كان إذا أمسى الرجل من العرب في واد وخاف على نفسه نادى بأعلى صوته: «يا عزيز هذا الوادي، أعوذ بك من السُّفهاء الذين في طاعتك»، يريد السُّفهاء سفهاء الجنِّ، وبالعزيز كبيرهم في الرئاسة. وقال رسول الله ﷺ بدله: **«إذا أصاب أحدًا منكم وحشةٌ أو نزل بأرض مجِنَّةٍ فليقل: أعوذ بكلمات الله**

التَّامات اللَّاتي لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر من شرِّ ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السَّماء وما يعرج فيها ومن فتن النَّهار ومن طوارق اللَّيل إلَّا طارقًا يطرق بخير»[1].

وعن كردم بن أبي السائب الأنصاريِّ: خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة أوَّل ما ذكر رسول الله ﷺ بمكَّة فأوانا المبيت إلى راعي غنم، فلمَّا انتصف اللَّيل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم، فوثب الرَّاعي فقال: «يا عامر الوادي جارَك»، فنادى منادٍ لا نراه يا سرحان أرسله، فأتى الحمل يشْتَدُّ حتَّى دخل الغنم، ولم تصبه كدمة، فأنزل الله تعالى بمكَّة ﴿وَإِنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾.

[قلت:] وفي الآية إطلاق الرَّجل على الجنِّ، وهو وارد في الحديث وسائر كلام العرب حقيقةً لا مجازًا، فلا حاجة إلى تأويل بعضهم الآية بتعليق «مِنَ الْجِنِّ» بـ«يَعُوذُونَ»، وأنَّ المعنى: إنَّه كان رجال من الإنس يعوذون من شرِّ الجنِّ برجال من الإنس، يقول الرجل مثلاً: أعوذ بحذيفة بن بدر من جنِّ هذا الوادي، فإنَّ هذا تكلُّفٌ منافٍ للظاهر الذي عليه الجمهور، دعاه إلى هذا التكلُّف أن لا يطلق الرَّجل على الجنِّ، ثمَّ نقول: إنَّه سمع من كلام العرب، والأصل أنَّ إطلاقه عليهم حقيقة، ومن نفى أنَّه حقيقة أجازه على التجوُّز، والصوابُ أنَّه حقيقة كما يطلق المرأة عليهم والطفل والشيخ والذكر والأنثى.

﴿**فَزَادُوهُمْ**﴾ الواو للرِّجال العائذين، لأنَّهم المحَدَّث عنهم، وهم من الإنس، والهاء للجنِّ. ﴿**رَهَقًا**﴾ تكبُّرًا وعتوًّا، تقول الجنُّ المتعوَّذُ بهم: سُدْنَا الجنَّ والإنس، وبذلك قال مجاهد. وقال قتادة وأبو العالية: الرهقُ الإثم، فالمعنى أنَّ الإنس زادوا الجنَّ إثمًا، لأنَّهم عظَّموهم فزادوا استحلَالاً لمحارم الله تعالى.

---

(1) أورده **الآلوسي** في تفسيره، مج 10، ص 107 خبرا وقال: أخرجه أبو نصر السبحري في الإبانة من طريق مجاهد عن ابن عبَّاس، وقال: حديث غريب جدًّا.

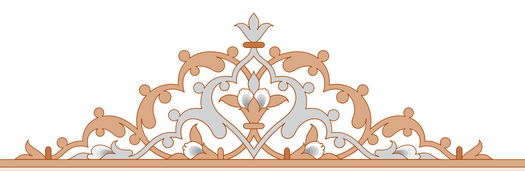
ويجوز عود الواو لرجال الجنِّ، والهاء لرجال الإنس العائذين، بمعنى: إنَّ الجنَّ زادوا الإنسَ إثمًا بأن أضلُّوهم حتَّى استعاذُوا بهم، وقدَّر بعض: فاتَّبعوهم فزادوهم رهقًا.

[قلت:] ومن العياذة بالجنِّ إلقاء الملح والرماد حيث عثر الإنسان، أو أصيب بضُرٍّ ظنًّا أنَّ ذلك من الجنِّ، ومن العياذة بهم ذبح شاة في نفس الموضع الذي يريدون حفر البئر فيه، أو في دار يريد الحفر فيها للبئر، **وكلُّ ذلك حرام**؛ لأنَّ قصدهم التملُّق إلى الجنِّ بإلقاء الملح والرماد، فهو كالذبح لهم، وكذا إلقاء الكسبرة أو نحوها لهم بنار أو بلا نار.

﴿**وَإِنَّهُمْ**﴾ أي: الإنس الكفرة ﴿**ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ**﴾ أيُّها الجنُّ، أو إنَّ الجنَّ الكفرة ظنُّوا كما ظننتُم أيُّها النَّاس الكفرة، فعلى هذا الوجه يكون هذا من كلام الله ﷻ، والأوَّل أظهر، لأنَّ الكلام قبلُ وبعدُ للجنِّ، ووجهه أنَّهم بيَّنوا للجنِّ أنَّ ما عليه الإنس من إنكار البعث خطأ كما أخطأتُم بذلك، وقد جمعكم وإيَّاهم الخطأ، ووجْهُ الثاني أنَّ المتبادر أن يقولوا: أنتم ظننتُم كما ظنُّوا، والخطاب للجنِّ لو كان ذلك من كلام الجنِّ المستمعين.

﴿**أَن لَّن يَبْعَثَ اللهُ أَحَدًا**﴾ بعد موته، أو لن يبعث الله رسولاً، والأوَّل أولى بدليل الاستقبال بـ«لَنْ»، ولو كان المراد نفي الرسالة لأطلقوا نفيها ولم يخصُّوه بالاستقبال، إلَّا أن يكونوا نصارى كفَّارا يقولون: ختمت النبوءة بعيسى.

[نحو] واسم «إِنَّ» ضمير الشأن و«لَنْ يَّبْعَثَ...» إلخ خبر «إِنَّ»، والمصدر مفعول به على التنازع، وإعمال الأوَّل هنا أولى من الثاني، لأنَّ الأوَّل سيق له الكلام، والثاني بطريق التشبيه، واللَّفظ قبل التأويل بالمصدر مشتملٌ على المسند والمسند إليه، فاكتفي به عن المفعولين، أو المفعول الثاني محذوف وجوبًا، أي: ظنُّوا كما ظننتم انتفاء بعثِ الله أحدًا ثابتًا فحذف ثابتًا كما مرَّ.



﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ٩ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ١٣ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ١٤ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥﴾

حديث الجنِّ عن أحوالهم وأنفسهم

﴿**وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّمَآءَ**﴾ طلبنا خبرَها أو سماع كلام أهلِهَا، واللَّمس المسِيسُ للاختبار، استعير للطلب لجامع التوصُّل بكلٍّ إلى المطلوب، وقيل: عبَّر به عن الطلب على التجوُّز الإرسالي، استعمالاً للَّفظ في لازم معناه، والطلب لازمٌ للَّمس للاختبار، كذا قيل، وفيه أنَّ المسَّ للاختبار هو نفس الطلب.

وليسوا يصلون إلى السَّماء لأنَّ بينها وبين الأرض خمسمائة عام، وَهَبْ أنَّهم وصلوها لَكِنَّ غلظها كذلك فكيف يسمعون؟ والله ﷻ قادر، لَكِنَّ الظاهر أنَّ مرادهم طلب معرفة ما ذُكر، إلَّا أنَّه أتى من السَّماء إلى ما تحتها قريبًا من الأرض وَلَمَّا أتى منها نسب إليها وعبَّر بلمسها. أو السَّماء **ما فوق من الجوِّ أو الجهة. أو يقدَّر مضاف، أي: جهة السَّماء.**

﴿فَوَجَدْنَاهَا﴾ لقيناها فقوله: ﴿مُلِئَــتْ﴾ حال على تقدير «قَدْ»، لأنَّ الفعل ماضٍ مثبت، وأجيز بلا تقدير. أو معنى «وَجَدْنَاهَا» علمناها، فـ«مُلِئَتْ» مفعول ثانٍ، ومن قبل بعثه ﷺ لم تملأْ، بَلْ فيها مواضع للسَّمع خالية عن الرَّصد.

﴿حَرَسًــا﴾ اســم جمع لا جمع، لأنَّه بوزن المفرد، كفرح، وقيل: جمع حارس كخــادم وخَدَم، والصَّحيــح الأوَّل، ويــدلُّ له وصفــه بالمفرد، وهو قوله ﷻ: ﴿شَــدِيدًا﴾ وعلى أنَّه جمــع فإنَّما وصف به لأنَّــه بوزن المصدر، كصهيل، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَآئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [ســورة التحريم: 4]، وقوله: ﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [ســورة فاطر: 10]، إذا قيل إنَّه جمع كلمة لا اسم جمع، و«حَرَسًا» تمييز محوَّل عن الفاعل بمعنى: إنَّ الحرس والشهب مالئان للسَّماء.

﴿وَشُهُبًا﴾ جمع شهاب، وهو ما قبس من النَّار، ولا مدخل لِلَمْسِ السَّماء ووجودها مملوءة حرسًــا شــديدًا وشــهبًا في الإيمان، فكيف يساق ذلك في جملة ما سيق للإيمان؟ والجواب أنَّ المراد إنَّا نُخبركم بذلك، وأنَّ ذلك دلالة على قدرة الله ﷻ، وأنَّه حُفظ للوحي الحادث الآن، أو يفسَّر: آمنَّا بما ينسحب على ذلك ونحوه، ممَّا لا يدخل في الإيمان.

﴿وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَــا﴾ موضعًا قريبًا منها ﴿مَقَاعِــدَ﴾ بدل من «موضع» المحذوف، والمفــرد مَقْعَد (بفتح الميم والعيــن)، أي: موضع القعود، وهي مواضع قعود في الهواء يطيرون إليها، وقيل: يقف واحد على آخر حتَّى ينتهوا إليها، وهو مرويٌّ عن رسول الله ﷺ.

﴿لِلسَّــمْعِ﴾ لأجل أن تســمع ما تقول الملائكــة، متعلِّــق بـ«نَقْعُدُ»، أو بمحذوف نعت «مَقَاعِدَ»، أي: ثابتة للسَّمع، أو يقدَّر كونٌ خاصٌّ، أي: صالحة للسَّمع، لخلُوِّها عن الحرس والرصد والرَّمي بالشهب.

﴿فَمَنْ يَّسْــتَمِعِ الْاٰنَ...﴾ إلخ عطف على «إِنَّا كُنَّا نَقْعُــدُ...» إلخ. و«الآنَ» ظرف للزمان الحاضر، وهو وقت متَّسع يرمى بالشهب في بعضه قبل تكلُّمهم

بهذا أو بعده، وفيه على الظنِّ في وقت التكلُّم وما بعده، والمضارع للتجدُّد، وحكاية ما مضى يقينًا، والحال والاستقبال ظنًّا، وقيل: «الآنَ» هنا للاستقبال لقوله: ﴿يَسْتَمِعِ﴾، وهو مضارع للاستقبال.

﴿يَجِدْ﴾ يَلْقَ ﴿لَهُ﴾ لنفسه، وفيه عمل عامل واحد في ضميرين لمسمًّى واحد، متَّصلين بلا تبعيَّة في غير باب «ظنَّ» وما ألحق به، وهو مقيس، لأنَّ أَحَدَهُما بحرف جرٍّ، وهو كثير في القرآن مقيس، فلا تَهِمُوا.

﴿شِهَابًا رَّصَدًا﴾ نعت مبالغة، كأنَّه نفس الرَّصد، وهو الحرس والمراقبة، أو يقدَّر: براصد، أو بمصاحب رصد، وهو مفرد. وإنْ جعلناه اسم جمع أو جمع راصدٍ على ما مرَّ آنفًا فإنَّما وُصِف المفرد به لقوَّته جِدًّا، كأنَّه شهب متعدِّدة كقوله:

كَأنَّ نُسُوعَ رَحْلِي حين ضَمَّتْ حوالب غُرَّزًا وَمِعًى جِيَاعًا[1]

إذ وصف المعى (واحد الأمعاء) بجياع، وهو جمع.

[نحو] ويجوز ـ على بعد ـ أن يكون اسم جمع، والمنعوت جمع محذوف، أي: يجد له ذوي شهاب رَصَدًا، أي: راصدين، ويجوز أن يكون مصدرًا تعليلاً، أي: لأجل الرَّصد، وفيه اختلاف الفاعل، فإنَّ فاعل الوجود الشيطان، وفاعل الرَّصد الملائكة، فإنَّ الرَّصد للملائكة يرصدون المستمع فيرجمونه بالشِّهاب لئلَّا يستمع، فيحترق ويبقى حيًّا أو يموت، وإن جعل علَّة لمحذوف نعت لـ«شِهَابًا»، أي: شهابًا عُدَّ للرَّصْدِ صحَّ، والأصل عدم الحذف.

وفي الآية وجود الرَّجم بالشُّهب ومقاعد للسَّمع قبل بعثه ﷺ، ولكن كَثُرَ بعد بعثه ﷺ وشُدِّدَ، فالذي من آياته ﷺ كثرتُه وتشديدُه، أو كان الرَّمي قبله ﷺ لحوادث، وَلَمَّا بعث كان لرجم الشياطين عن الاستماع، أو له ولغيره.

---

(1) البيت من الوافي للقطامي في ديوانه، ص41. **إميل يعقوب**: المعجم المفصَّل في شواهد اللغة، ج11، ص193.

[قلت:] ويقع في رمضان مع أنَّه روي أنَّ الشـياطين تصفَّد فيه، فنقول: صفِّدت فيه المـردة دون عامَّتهم، وإنَّها صفِّدت عن مضـرَّة النَّاس لا عن الاسـتماع، ومن أدلَّة وقوع الرَّمي فـي الجَاهِلِيَّة قولـه ﷺ في جماعة من الأنصار وقد رمي بنجم فاستنار: ما كنتم تقولون لهذا في الجَاهِلِيَّة؟ قالوا: نقول يموت عظيمٌ أو يولد عظيـمٌ[1]. ووقوعه في أشـعار الجَاهِلِيَّة كقول بشر بن أبي حازم:

والعير تتبعها الغبار وجحشـها ينقض من خلفها انقضاض الكوكب

وفي ذلك ردٌّ لقول من قال: لا رمي قبل مبعثه بالشـهب، وقيل: كان قبل وبعد، ولم يزدد بعد.

﴿وَإِنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾ أراد الله ﷻ ﴿بِمَن فِي الْاَرْضِ﴾ بكثرة حراسة السَّـماء وتشـديدها بالرَّمي ﴿أَمَ اَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَـدًا﴾ خيرًا، ذكروا الله في الخير ولم يذكروه في الشـرِّ مع أنَّ الكلَّ خلق لله تعالى تأدُّبًا في اعتقادهم، إذْ لم ينسبوا الشرَّ إليه تعالى.

قيل: أو فاعل الشـرِّ عندهم إبليس وأتباعه، لكن هذا باعتبار جاهليَّتهم، ويردُّه أنَّ هذا الكلام بعد إسلامهم، وأنَّ قولهم: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْاَرْضِ﴾ بمعنى أريد بهم من جهة السَّماء، ولا يتوهَّمون أنَّ إبليس في جهة السَّماء أراد الشرَّ بمن في الأرض، ويجاب بأنَّهم حكوا ما يقولون في جاهليَّتهم، ألا ترى إلى قولهم: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾؟.

وإنَّما ذكروا شأن الإسلام بعدُ في قولهم: ﴿وَإِنَّا ظَنَنَّآ أن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ...﴾ إلخ لا في هذا الكلام، وكذا قوله:

(1) رواه **الترمذي** في كتاب تفسير القرآن، باب سورة سبأ، رقم: 3224. من حديث ابن عبَّاس.

﴿وَإِنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾ أرادوا به صلاح الدنيا والعرف، كمكارم الأخلاق، لا صلاح الدِّين، فإنَّ هذا بيان لحالهم قبل استماع القرآن، كما قالوا: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ فإنَّ المراد: طرائق في الكفر، ويُجاب عن قولهم: ﴿أُرِيدَ بِمَن فِي الَارْضِ﴾ بأنَّه لَا يَلْزَمُ أن تكون الإرادة في اعتقادهم مِمَّن في السَّماء.

﴿وَمِنَّا دُونَ ذَالِكَ﴾ «دُونَ» نعت لمبتدأ محذوف خبره «مِنَّا»، أي: ومِنَّا قوم دون ذلك الصَّلاح منغمسون في الفساد من مساوئ الأخلاق، وهذا الحذف مطَّرد إذا كان الموصوف المحذوف بَعْضَ اسمٍ مجرور بـ«مِنْ» مقدَّم، والنعت ظرف، كقولهم: منَّا أقام ومنَّا قعد، أي: فريق أقام وفريق قعد.

﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ تفسير لقولهم: ﴿مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَالِكَ﴾ وفي «دُونَ» معنى «غير»، والمعنى: كنَّا ذوي طرائق قدد، أي: ذوي مذاهب مختلفة، وهذا أولى من تقدير المضاف أوَّلاً هكذا: كانت أحوالنا طرائق، لأنَّ الأوَّل متمكِّن في محلِّه، والتغيير بالأواخر أولى، ولا بدَّ من التقدير، لأنَّ المقام ليس لمبالغتهم في الطرائق، فضلاً عن أن يُقال: بالغوا حتَّى جعلوا أنفسهم نفس الطرائق القدد. وهو جمع قدة، أي: قطعة من قطع، قال الشاعر:

القابض الباسط الهادي بطاعته في فتنة النَّاس إذْ أهْوَاهُمُ قِدد[1]

﴿وَإِنَّا ظَنَنَّآ﴾ علمنا ﴿أن لَّن نُّعْجِزَ اللهَ فِي الَارْضِ﴾ مَرَّ إعراب مثله، و«فِي الَارْضِ» حال من المستتر، كائنين في أيِّ موضع من مواضع الأرض بالاستتار، ولو في أقطارها أو جوفها. ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ مصدر بمعنى اسم الفاعل، وهو حال، أي: هاربين في الأرض، ومصاحبين الهروب، قيل: أو مصدر منصوب على التعليل، وليس كذلك، لأنَّه بمعنى: نعمل إعجاز الله ليحصل الهروب، وليس هذا معنًى صحيحًا، أو تمييز عن الفاعل، أي: لن يُعجزه هَرَبُنَا.

---

(1) البيت للراعي النُّميري. ينظر ديوانه. (الموسوعة الشعرية).

ويجوز أن يكون معنى الآية: لن نُعجز الله تعالى إذا أراد بنا أمرًا من إهلاكٍ أو غيره من التصرُّفات، ولن نعجزه هربًا إن طَلَبَنَا مع سعة الأرض طولاً وعرضًا. وقيل: هربًا إلى السَّماء لو استُطِيع.

﴿وَإِنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰٓ﴾ القرآن ﴿ءَامَنَّا بِهِ﴾ على الفور بلا تأخير. ﴿فَمَنْ يُّومِنۢ بِرَبِّهِ﴾ أي: لأنَّه من يؤمن بربِّه ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ فهو لا يخاف، أو فقد لا يخاف، بـ«قَدْ» التي للتحقيق، وإنَّما قدِّرت لأنَّ قوله تعالى: «لَا يَخَافُ» يصلح أن يكون شرطًا فيجب تجريده من الفاء، وجزمُه.

[نحو] وأجاز ابن مالك أن لا يقدَّر المبتدأ وَلَا «قَدْ»، وأنَّ الجملة في محلِّ جزم لكثرة ورودِ ذلك في المنفيِّ بـ«لَا»، وَوَرَدَ بلا نفي أيضًا، مثل: ﴿فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنهُ﴾ [سورة المائدة: 95].

﴿بَخْسًا﴾ نقصًا على الظلم في الجزاء، ويستعمل البخس بمعنى النقص ولو بلا ظلم. ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ ذلًّا يغشاه، ومادَّة «ر هـ ق» الإشراف على الشيء، يُقال: غلام مراهق، أي: يقارب. وتغشى النَّار الكفرة، والنَّار غاشية لهم، واللَّيل يغشى النَّهار.

والمعنى: إنَّ الله عدلٌ لا ينقص من حسنات المؤمن أو من ثوابه، ولا يجورُ عليه بعدم قبول توبته، وقد تاب نصوحًا، ولا بزيادة في سيِّئاته ولا يحمل ذنب غيره عليه، ولا بإذلالِه، وقد فعل ما يُعزُّه.

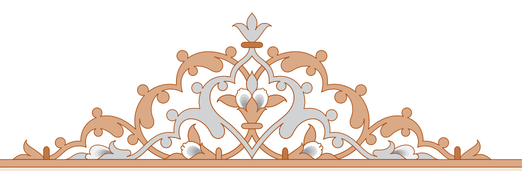
وليس في هذا المعنى ما يوهم أنَّ الله يجور على الكافرين، بل هو بأعماله يستحقُّ النقص عن بلوغ الخير، لا يناله البتَّة، ويستحقُّ الإذلال، وذلك أولى من أن يفسَّر البخس والرهق بالجزاء بهما، استعمالا للسبب في مقام المسبَّب، بمعنى أنَّ الله تعالى لا يبخس أحدًا، ولا يُقارب ظلمه، فليس المؤمن يخاف جزاء يترتَّب عليهما، وما مرَّ أولى، لأنَّه حقيقة ظاهرة المعنى لا مجاز.

﴿وَإِنَّا﴾ معشر الجنِّ ﴿مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ من حين سمعنا وهم نحن ﴿وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ المائلون عن الإسلام، وهم من حضر منَّا القرآن ولم يؤمن، وسائر الجنِّ الكفرة، أو من الجنِّ مسلمون بالإنجيل الذي لم يغيَّر، وعمل به، وترتَّب على ذلك أنَّهم قسمان: أهل جنَّة وأهل نار، كما قال: ﴿فَمَنَ اسْلَمَ﴾ من الجنِّ والإنس، وقيل: أرادوا الجنَّ، [أسلم أي:] أَذعَنَ للتوحيد والعمل بمقتضاه. ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ أي: من أسلم، والجمع لمعنى «مَن»، كما أنَّ الإفراد في «اَسْلَمَ» لِلَفظها، وإشارة البعد لتعظيمهم.

﴿تَحَرَّوْا﴾ قصدوا ﴿رَشَدًا﴾ صلاحًا عظيمًا يوصلهم إلى الجنَّة، ولم يذكر الجنَّة بل سبيلها كذكر الشيء بذكر برهانِهِ الذي لا يتخلَّف، وهو لا يخلف الوعد ولا الوعيد.

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ﴾ من الجنِّ والإنس، على حدِّ ما مرَّ في ﴿مَنَ اسْلَمَ﴾ ﴿فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ توقد بهم، كما توقد النَّار الدُّنيَوِيَّة بالحطب، وذلك استعارة أو تشبيه بليغ، قولان، في مثل: زيد أسد، أو إنَّ زيدًا أسدٌ، أَوْ كان زيدٌ أسدًا. وذلك في كلام الجنِّ، وقيل: من كلام الله ﷻ فرَّعه عن كلام الجنِّ، وهو خلاف الظاهر، لأنَّ الكلام قبلُ للجنِّ، والأصل أن لا يكون كلام من أحد والتفريع عليه من غيره.

[قلت:] وأخطأ من قال: إنَّ لكَفَرة الجنِّ عقابًا وليس لمطيعهم ثواب، والله أعدل من ذلك، وقد علمت أنَّ ثوابهم في لفظ الرشد المتسبِّب للجنَّة.



﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿16﴾ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ نَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿17﴾﴾

بسط النعم على الإنسان فتنة له أحيانا

﴿وَأَن لَّوِ اسْــتَقَامُواْ﴾ إلخ عطف على «أنَّه اسْـتَمَعَ»، كأنَّه قيل وأوحي إليَّ أن لو استقاموا، واســم «أَنَّ» ضمير «هُمْ»، أي: وأنَّهم، أو الشأن، أي: وأنَّه، والواو للإنس والجــنِّ، وقيل: للجنِّ، وعن ابن عبَّاس: للقَاسِــطِينَ، والمراد: لو دخلوا الدِّين واســتقاموا عليه. وفي ردِّ الضمير للجنِّ نظر، لأنَّه قيل: لا ينتفعون بالمطر ولا يحرثون إلَّا إن أُريد بسقي الماء الغدق الكناية عن توسيع الرزق.

﴿عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ دين الإســلام ﴿لأَسْــقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ مُطْبِقًا واســعًا، وخصَّ الماء مــع أنَّ المراد مطلق توســيع الرِّزق لأنَّ المــاء أصل المعاش، وكثرته سبب للســعة، كما قيل: «المالُ حيث الماء، والوبال حيث الاشتهاء»، ولعزَّته عند العرب ولا سيَّما الأعراب.

﴿لِّنَفْتِنَهُمْ﴾ نختبرهم ﴿فِيهِ﴾ هل يشكرون؟ أي: نعاملهم معاملة المختبر، فالكلام استعارة تمثيليَّة، ﴿ولَوَ اَنَّ أَهْلَ الْقُرَىا ءَامَنُوا...﴾ إلخ [سورة الأعراف: 96]، وقيل: ﴿لَوِ اسْتَقَامُوا﴾: لو ثبتوا على الدِّين السَّابق، لأنَّ الجانَّ ـ وهو إبليس ـ كان مؤمنًا عابدًا ثمَّ كفر وعصى، فالمعنى: لو دام على دينه وتبعه أولادُه الجنُّ على طريقتهم التي هي الكفر، ولم يُســلِموا باســتماع القرآن لوسَّــعنا عليهم

الرزق استدراجًا لنعذِّبهم تعذيب من وُسِّع عليه ولم يشكر، وهو فوق تعذيب من لم يوسَّع عليه.

وقيل: لو كفر من أسلم من النَّاس، **وكلا القولين خروج عن الظاهر**، فإنَّه لا دليل على الاستدراج، فإنَّ اللَّفظ يعمُّ الاستدراج وغيره، فإنَّ الاختبار أعمُّ من الاستدراج، وكَأَنَّ قائله راعى أنَّ لفظ الفتنة أظهر في الاستدراج، ثمَّ إِنَّه لا يخفى بُعد استعمال الاستقامة على الطريقة الاستقامة على الكفر، وأيضًا يعارضهما قوله تعالى: ﴿وَلَوَ اَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ...﴾ إلخ.

ولا دليل لهما في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُّعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ**﴾ كما زعم بعض أنَّه توكيد لمضمون السَّابق من الوعيد، أي: لنستدرجهم فيتَّبعوا الشهوات التي هي موجبة للبطر الذي منه الإعراض.

ويبحث فيه بأنَّه توكيد لقوله: ﴿فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ وأنَّه ذكر لبعض ما شمله الاختبار، و«ذِكْرِ رَبِّهِ» أي: ذكره لربِّه بالإيمان، وقيل: بمعنى عبادة ربِّه تجوُّزًا، وقيل: ذكره تذكيره، وفي هذا أضيف المصدر للفاعل، وكذا إن فُسِّر بالموعظة أو بالوَحْي.

﴿**نَسْلُكْهُ**﴾ تعدَّى لاثنين لتضمُّن معنى ندخله، أو يقدَّر: نسلك به، فحذف الباء واتَّصلت الهاء بـ«نَسْلُكْهُ». ﴿**عَذَابًا صَعَدًا**﴾ مصدر نعت به مبالغةً، حَتَّى إنَّ العذاب نفس الصعود عليهم، أو بمعنى الوصف، أي: صاعدًا عليهم، أي: عذابًا عاليًا على المعذَّب، وهذا الصعود معنويٌّ لا حسِّيٌّ، لأنَّ العالي عليه حِسًّا هو ما يعذَّب من سلاسل ومقامع ونار، وغير ذلك لا تَوَجُّهُ.

أو العالي توجعه فهو راجع إلى معنى المشقَّةِ والغلبة، فكأنَّه قيل: عذابًا شاقًّا أو غالبًا، يُقال: فلان في صعد من أمره، أي: في مشقَّة.

وفي الحديــث الأمر بذكر خصــال الخاطب للنِّكاح، فــكان عمر يقول: ما تصَعَّدني شــيء كما تصَعَّدنِي خطبة النِّكاح، أي: ما غلبني، وكانوا يذكرون خصال آباء المتزوِّج، وخصاله التي اكتســبها، فشــقَّ عليه معرفته بها، ومدح المتزوِّج بها في وجهه وعشيرته، ولحضور النَّاس، ونَظَرِ بعضٍ لبعضٍ حسدًا، أو استهزاء وتعجُّبًا من ذكره.

وعن أبي ســعيد الخدريِّ: ﴿صَعَــدًا﴾ جبل في النَّــار، يعالجون صعوده لينجوا من النَّار، فكلَّما وضعوا أيديهم وأرجلهــم عليه ذاب. وقيل: جبل في جهنَّم من صخــرة واحدة أملس يجبر على صعــوده، كلَّما وصل أعلاه انحدر إلى أســفله، فعلى أنَّه جبل فــي القولين يكون بدلا مــن «عَذَابًا» على حذف مضاف، أي: عذابًا عذاب صعدٍ، أوْ هُو المفعــول الثاني و«عَذَابًا» تعليل، أي: نسلكه صعدًا للتعذيب.

قيل: لَمَّا قرأ القرآن وســمعه الجنُّ قالوا: نحن بعيدون منك، فنزلت الآية وهي قوله تعالى:

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٠ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۝٢٣ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ۝٢٤﴾

تعجُّب الجنِّ من دعوة الرسول وخلود العصاة في النَّار

﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ**﴾ وهذا على أنَّ المراد بـ«المَسَاجِدِ» الأرض مطلقًا كما قال ﷺ: «**جعلت لنا الأرض مسجدًا**»[1]، والصحيح المواضع المعدَّة للصلاة والعبادة. ﴿**لِلهِ**﴾ مختصَّة به، وبنيت له.

والعطف على «أَنَّهُ اسْتَمَعَ» والعاطف أغنى عن ذكر «أُوحِيَ»، وكأنَّه قيل: وأوحي إليَّ أنَّ المساجد لله، وقيل: بتقدير اللَّامِ متعلِّقة بـ«تَدْعُو» بعده، أي: لا تدعو مع الله أحدًا لأنَّ المساجد لله، أي: لا تدعو مع الله أحدًا فيها.

كانت اليهود والنَّصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم كفروا، فأمرنا بإخلاص العبادة لله تعالى إذا دخلنا مساجدنا، لأنَّ الإشراك فيها أشدُّ قبحًا،

(1) رواه **الربيع** في كتاب الطهارة، باب فرض التيمُّم، رقم: 167، من حديث ابن عبَّاس. ورواه **البيهقيُّ** في كتاب الطهارة، باب الدليل على أنَّ الصعيد الطيِّب هو التراب، رقم 1054، من حديث أبي هريرة.



وقال الحسن: المساجد كلُّ موضع سجود، مصلًّى أو مسجدًا أو غير ذلك، والأرض كلُّها مسجد لهذه الأمَّة، كما روي: «**جعلت لي الأرض مسجدًا**» و«**حيثما أدركتكم الصلاة فصلُّوا**»[1].

ومَنْ قَبلَنا يصلُّون في بيعهم وكنائسهم، إلَّا من خصَّ كعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والخضر ومن أشبههما في السياحة من الأنبياء، إلَّا أنَّ الخضر من هذه الأمَّة بعد بعثة النبيء ﷺ، وكذا عيسى إذا نزل، فالأرض كلُّها له مسجد، قال ﷺ: «**لو كان موسى حيًّا لَم يسعه إلَّا اتِّباعي**»[2]. والله أخبرنا أنَّ الأرض جعلت للصلاة فلا تجعلوها للمعصية، ولا تسجدوا فيها لغير الله تعالى.

وقيل: المساجد المسجد الحرام، أي: الكعبة نفسها، أو الحرم كلُّه، والجمع لأنَّ كُلَّ ناحية منه مسجد له قبلة مخصوصة، أو لأنَّه قبلة المساجد.

وقيل: هو وبيت المقدس، كما روي عن ابن عبَّاس: أنَّه لا مسجد حين نزلت إلَّا هما، واثنان جمعٌ حقيقةً أو مجازا، **وذلك كُلُّه خلاف الظاهر، والظاهر ما مرَّ أوَّلاً**، ورواية ابن عبَّاس هذه لا توجب تفسير الآية بهما.

وقال سعيد بن جبير: المساجد جمع مسجَد (بفتح الجيم) وهي القدَمان والركبتان والكفَّان والوجه، وفي الحديث: «**أمرت أن أسجد على سبعة آراب، ولا أكفَّ شعرا ولا ثوبًا**»[3]. وقيل: المساجد جمع مَسجد (بفتح الميم) مصدر بمعنى السجدة.

---

(1) رواه **البخاريُّ** في كتاب التيمم (1) باب قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا...﴾ رقم 335. وَأَوَّلُ الحديث قوله: «أعطيت خمسا لم يعطهنَّ أحد قبلي...»، من حديث أبي هريرة. كما رواه **مسلم** في كتاب المساجد، رقم 1 (520) وَأَوَّلُ الحديث قوله: «أيُّ مسجد وقع في الأرض أوَّلا...»، من حديث أبي ذرٍّ.

(2) تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج 10، ص 450.

(3) رواه **أبو داود** وغيره بلا زيادة: «ولا أكف...» ولم نقف على تلك الزيادة، وبصيغة الغائب: «إذا سجد العبد...». كتاب الصلاة، باب أعضاء السجود، رقم: 891. من حديث العباس.

﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ فيها. هذه الفاء ومِثْلُهَا ممَّا يتبادر تعليق الظرف فيما بعدها تُشبه فاء الجواب، لتضمُّن الكلام معنى الشرط، كأنَّه قيل: فإن لم تُوحِّدوه فلا تدعوا مع الله أحدًا فيها، فإنَّه أقبح إشراك.

والخطاب للجنِّ، لِمَا روي أنَّهم قالوا: كيف نشهد الصلاة معك يا رسول الله على بعدنا عنك؟ فنزلت، بمعنى اعبدوا الله حيثُ كنتم تقبل عبادتكم إن لم تشركوا، وقيل: الخطاب عامٌّ.

﴿وَإِنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ﴾ محمَّد رسول الله ﷺ ﴿يَدْعُوهُ﴾ يعبده بصلاة الفجر في نخلة. والجملة حال من «عَبْدُ». وعبَّر بالعبد لذكره ﷺ نفسه بلفظ التواضع، يقول: «إنِّي عبد الله ورسوله»، لأنَّ الآية على لسانه، وأيضًا لينبِّه اللهُ الجنَّ على أنَّ العبادة من العبد لا تُسْتَبْعَدُ إذ تعجَّبوا من صلاته وصلاة أصحابه بصلاته معه.

﴿كَادُواْ﴾ أي: الجنُّ ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ﴾ متعلِّق بـ«يَكُونُ»، أو بمحذوف حال من قوله: ﴿لِبَدًا﴾ أي: متضامِّين بالزحام ليشاهدوا ما هو عليه من القيام والركوع والسجود والقراءة بمن معه، ولم يروا مثله قبل ذلك، فتعجَّبوا.

واللِّبد جمع لِبْدَةٍ، كسِدْرَةٍ وسِدَرٍ، وهي الشيء المتلبِّد الملتصق بعضه ببعض. وذلك استعارة، أو تشبيه بليغ. وقيل: الواوانِ لكفَّار قريش والعرب، وقيل: للجنِّ والإنس، والمعنى على هذين القولين الاجتماع على عداوته ومخالفته وإطفاء نوره لَمَّا قام يدعوهم إلى توحيده وما يتعلَّق به من العبادة، وأبى الله إلَّا نصرهُ وتَبْديدَ لِبَدِهِمْ.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾ أعبده ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ في العبادة، وهي أمر تقبله العقول، لا أمر يتعجَّب منه، أو يوجب الإطباق على عداوتي.

﴿قُلِ اِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي: نفعًا، والرشد سبب للنَّفع فعبَّر به عنه، والمالك للضرِّ والنَّفع هو الله ﷻ، أو الضرُّ: مضرَّة الدِّين، والرشد صلاحه، كما قرأ أُبيٌّ: «غَيًّا وَلَا رَشَدًا»، والضرُّ مسبَّب عن الغيِّ، فعبَّر به عنه.

وإنَّما القادر على الخذلان والتوفيق الله ﷻ، ولا أجبركم على الرشد. ولا دليل على أنَّ الأصل: لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا ولا غيًّا ولا رشـدًا فحذف من كلٍّ واحد ما يقابل ما في الآخر على طريق الاحتباك.

﴿**قُلِ**﴾ يا محمَّد لأعدائك، وقد قالوا: اترك ما تدعونا إليه نُجِرْكَ ﴿**اِنِّي لَنْ يُّجِيرَنِي**﴾ لن يمنعني ﴿**مِنَ اللهِ أَحَدٌ**﴾ من عذابه، وما أراد بي من سوء إن أراد بي ذلك، وقيل: لَمَّا ازدحم عليه الجنُّ قال سـيِّدهم وردان أَلَا أرحلهم عنك؟ فنزل قوله تعالى: ﴿قُلِ اِنِّي لَنْ يُّجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ﴾.

﴿**وَلَنَ اَجِدَ مِن دُونِهِ**﴾ من دون قضائِه، متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿**مُلْتَحَدًا**﴾، أو بمحذوف حال منه، وهو اسـم مكان، أي: موضع الْتحـاد، أو مصدر ميميٌّ، أي: التحادًا، وأجيز تقديم معمـول المصدر الظرفيِّ عليه ولو انحلَّ إلى الفعل وحرف المصدر.

والالتحاد: الميل والانحراف، وقد فسَّـر الكلبيُّ ﴿مُلْتَحَدًا﴾ بمدخل في الأرض، والسُّـدِّيُّ بالحرز. وهذا وما قبله بيان منه في عجزه عن أمر نفسـه، وقوله: ﴿لَآ أَمْلِكُ﴾ بيان لعجزه عن أمر غيره.

﴿**اِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللهِ وَرِسَـالَاتِهِ**﴾ اسـتثناء متَّصل من قولـه: ﴿لَآ أَمْلِكُ﴾، والفصل بما بينهما ولو طال لا يضرُّه، لأنَّه بمناسبٍ وتأكيدٌ. وإن فسَّرنا الضرَّ والرشاد بالغيِّ والصلاح كان الاسـتثناء منقطعًا، أو من تأكيد المدح بما يشبه الذمَّ، فيرجع إلى الاتِّصال كقوله:

ولا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم بهنَّ فلول مـن قراع الكتائب[1]

وذلك بالنظر إلى «ضُرًّا»، أي: لا أملك لكم ضرًّا «إلَّا بلاغًا...» إلخ. وإن استثني من «مُلْتَحَدًا» كان منقطعًا، لأنَّ البلاغ والرسالات ليست من الملتحد.

(1) البيت من الطويل للنابغة الذبياني في ديوانه، ص44. انظر: **إميل يعقوب**: المعجم المفصَّل في شواهد اللغة، ج1، ص345.

وعن الحسن: إنَّ الاستثناء منقطع، أي: لن يجيرني أحد لكن إن بلَّغت رحمني ربِّي. وقيل: المعنى: لن أجد شيئًا أعتصم به إلَّا أن أبلِّغ، فهو متَّصل.

و«مِنْ» للابتداء، أو بمعنى «عن»، كما قال ﷺ: «**بلِّغوا عنِّي ولو آية**»[1]، وما تقدَّم أولى، والمعنى: لا أملك لكم إلَّا تبليغًا منه أو عنه، ورسالاته التي أرسلني بها الله ﷻ، وقيل: «رِسَالَات» معطوف على لفظ الجلالة، أي: إلَّا أن أبلِّغ عن الله وعن رسالاته.

﴿**وَمَنْ يَّعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ**﴾ بالإشراك أو بالكبيرة مُصِرًّا عليها. ﴿**فَإِنَّ لَهُ**﴾ للعاصي، واللَّام للاستحقاق ﴿**نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ**﴾ حال مقدَّرة من ضمير الاستقرار. والجمع لمعنى «مَن». ﴿**فِيهَآ أَبَدًا**﴾ بلا نهاية.

﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ**﴾ من الوعد، لأنَّه يستعمل في الشرِّ والخير، أو من الوعيد، أو من الإيعاد، والمراد: عذاب جهنَّم، وقيل: يوم بدر، ويدلُّ للأوَّل قوله: ﴿قُلِ اِنَ اَدْرِي أَقَرِيبٌ...﴾ إلخ فإنَّه ردٌّ للمشركين في إنكار البعث، فإنَّ النضر بن الحارث قال: متى يكون يوم القيامة؟ فأوحى الله ﷻ: قل لهم: هو واقع لا محالة، ولا أدري وقته، كما في الآية بَعدُ.

و«حَتَّى» حرف ابتداء، ولا تخلو عن غاية، والتفريع من الغاية، وكأنَّه قيل: فإذا رأوا، فالحاصل أنَّهم لا يزالون مكذِّبين فإذا رأوا العذاب المعدَّ لهم. وقدَّر بعض: دعهم حَتَّىٰٓ إِذَا... إلخ، وهو ضعيف.

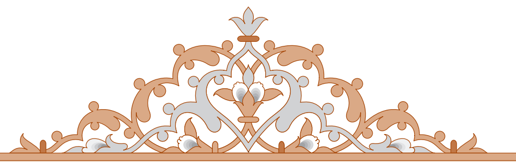
وأجاز بعض أن يكون غاية لقوله: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ إن فُسِّرَ بالتلبُّد على الكفر، ولو طال الفصل، لأنَّه بأمور مناسبة له، ولا يخفى أنَّ كثرة الفصل

(1) رواه **البخاريُّ** في كتاب الأنبياء (50) باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم 3461. ورواه **الترمذيُّ** في كتاب العلم عن رسول الله، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل، رقم 2669، مع زيادة في آخره، من حديث عبد الله بن عمرو.

تُضْعِفُهُ ولو حسن المعنى، ولا بأس بالتفريع على قوله: ﴿فإنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ...﴾ إلخ، أي: هي لهم وعيدًا، فإذا رأوها إنجازًا.

﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ السين لتأكيد الوعيد لا للاستقبال، لأنَّ الاستقبال أفادته «إِذَا»، ولو جعلت للاستقبال كان المعنى: إذا تمَّ الاستقبال المعبَّر عنه بـ«إِذَا» استأنف استقبال آخر، وليس ذلك مرادًا، لأنَّ علمهم بمن هو أضعف ناصرًا يحصُل باستقبال «إذا» حينَ تمَّ، فإذا رأوا العذاب علموا ذلك قبل دخولهم النَّارَ، ولا يتأخَّرُ علمهم إلى دخولها.

﴿مَنَ اضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ وهو هم لا النَّبيء ﷺ والمؤمنون، ـ وصلَّى الله على من أسلم رُوحَه لمحو وُجُوده، وسلَّم إليه كلِّيَّته لدوام شهوده، ليكون بالفناء بقاؤه، وبالغيبة لقاؤه، وبالفقر غناؤه، وبالذُّلِّ عزُّه وولاؤه ـ. والجملة استفهاميَّة معلَّق عنها «يَعْلَمُ»، أَوْ موصولة مفعول لـ«يَعْلَمُ» بمعنى يعرف، وحذف صدر الصِّلة، أي: من هو أضعف لطولها.



﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ۝25 عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝26 إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝27 لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ۝28﴾

تعيين وقت السَّاعة مختصٌّ بالله عالم الغيب

﴿قُلِ اِنَ اَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾؟ حالٌّ متوقَّع في كلِّ ساعة، أوْ له أجَلٌ كما قال: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ أي: زمانًا بعيدًا، بدليل جعله مقابلاً لقوله: ﴿اَقَرِيبٌ﴾، وإلَّا فالأمد يستعمل في القريب والبعيد، ويحتملهما، وإذَا أريد التخصيص نصب الدليل كالمقابلة هنا، وكوصفه بالبعيد في قوله ﷻ: ﴿تَوَدُّ لَوَ اَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَداَۢ بَعِيدًا﴾ [سورة آل عمران: 30]، ويُقال: أمد قريب.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ نعت «رَبِّي» أو خبر لمحذوف، أي: هو عالم الغيب. و«ال» للاستغراق، أي: عالم كلِّ غيب، أو للعهد، والمعهود الغيب المستغرق. ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ إظهارًا تامًّا، وإذا أظهر على غيبه أحدًا فليس بالكُنْهِ ليثبت تفرُّد الله ﷻ بعلم الغيب. ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ الإضافة للعهد الاستغراقي، أي: غيبه كلِّه لا يُطْلع الله أحدًا على شَيْءٍ مَّا منه، فالعموم للسلب الكلِّي، ولو تقدَّم السلب على مفيد العموم.

[بلاغة] أو الإضافة للاختصاص، والمختصُّ به العموم المستغرق، وأظهر ولم يضمر لتأكيد شأنه، والفاء للتفريع على تفرُّده تعالى بعلم الغيب.



[قلت:] وللأولياء كرامات، ولا مانع من أن يخبر الله تعالى أحدًا بإلهام أو ملك على غير طريق النبوءة، أو بغير ذلك، وبالجنِّ تسمع من الملائكة، وإنَّما الممنوع أن يعلم بلا إخبار من الله تعالى.

قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «**لقد كان فيمن قبلكم من الأمم ناسٌ مُحَدَّثُونَ من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن في أمَّتي أحدٌ فعمر بن الخطَّاب**»[1]. والمحدَّث (بفتح الدَّال مشدَّدة): من يُلقَى في قلبه، وذلك واقع وجائز، ولو كان أمرًا خارقًا للعادة، وليس فيه التباس بالنبوءة، لأنَّ صاحبه لا يدَّعي النبوءة. وأحكامُ النجوم وغيرها لا تفيد القطع.

﴿**إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ**﴾ الاستثناء منقطع، أي: لكن من ارتضى من رسول فإنَّه يظهره على بعض غيبه، بقدر ما يليق بالحكمة، إظهارًا بغير الكنه من وظائف الرسالة. و«مِنْ» للبيان، أي: هو رسول مَّا من الرسل، متعلِّقة بمحذوف، حال من الرابط المحذوف، أو من «مَنْ».

﴿**فَإِنَّهُ يَسْلُكُ**﴾ يجري ﴿**مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ**﴾ كناية عن جميع جهاته ﴿**رَصَدًا**﴾ حرسًا من الملائكة عليهم السَّلام، تحرسه من تعرُّض الشياطين له، بسلب أو تخليط أو إلقاء على الكهنة قبل الرسول. ﴿**لِّيَعْلَمَ**﴾ الضمير المستتر عائد إلى «مَنْ»، وهو الرَّسول المرتضى ﴿**أَن**﴾ أي: أنَّه، والضمير للشأن. ﴿**قَدَ اَبْلَغُواْ**﴾ أي: أبلغ الملائكة الرَّاصدون إليه، أي: إلى ذلك الرَّسول ﴿**رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ**﴾ الموحى بها إليه التي أظهرها الله تعالى لهم وللملائكة الرَّاصدين لا بالكنه.

والمشهور أنَّ المبلِّغ جبريل وحده، وضمير الجمع في الموضعين مراعاة للمجموع، إذ كان جبريل من جملة الملائكة، كقولك: بنو تميم أكرموا زيدًا، والمكرم واحد وإكرامهم واسع وتريد واحدًا.

---

(1) رواه **البخاريُّ** في كتاب مناقب الصحابة (6) باب مناقب عمر بن الخطَّاب ﵁، رقم 3689، من حديث أبي هريرة.

ولا مانع من إرادة الجمع، لأنَّه قد يجيء غير جبريل، كإسرافيل وحده، أو مع جبريل، أو الجمع تعظيمًا لجبريل، وجاء عن ابن عبَّاس: «لا آية إلَّا معها أربعة من الملائكة يحفظونها حتَّى تصل النبيء ﷺ» وقرأ الآية. ويروى أنَّه جاء مع سورة الأنعام سبعون ألف ملك[1].

﴿**وَأَحَاطَ**﴾ الله تعالى ﴿**بِمَا لَدَيْهِمْ**﴾ عند الرَّصد ﴿**وَأَحْصَىٰ**﴾ أي: الله ﴿**كُلَّ شَيْءٍ**﴾ ممَّا كان أو يكون، أو هو في حال النُّزول ﴿**عَدَدًا**﴾ فَرْدًا فَرْدًا وجُزْءًا جُزْءًا.

[قلت:] وأصحاب الكرامات ليسوا على يقين ممَّا انكشف لهم، بل ترجيح، بخلاف الرُّسل فإنَّهم على يقين، فإنَّ حاصل الآية: ليعلم الرَّسول أنَّ ما أبلغ إليه حقٌّ من الله لا شيء [منه] من غير الله تعالى، وأنَّه أبلغته إليه الملائكة الآتون به من الله ﷻ. ويجوز أن يكون ضمير «يَعْلَمَ» لله ﷻ، ويجوز أن يُراد بضمير الجمع في الموضعين الرُّسل، أَفرَدَ الضمير أوَّلاً مراعاة للَّفظ في قوله: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ وَجَمَعَهُ بعد ذلك مراعاة لِمَا قصد به من الجنس، فالمعنى: ليعلموا أنَّهم قد أبلغوا إلى أقوامهم ما هو حقٌّ.

والله الموفِّق.
ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم.
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



(1) أورد **السيوطي** في أوَّل تفسير سورة الأنعام عدَّة روايات موقوفة ومرفوعة في هذا الشأن، رواها ابن مردويه والطبراني وغيرهما. عن ابن عبَّاس، وابن مسعود وغيرهما.

73

تفسير سورة المزَّمِّل

مكِّيَّة إلَّا الآيات 10 ـ 11 و 20 فمدنيَّة، وآياتها 20 ـ نزلت بعد سورة القلم

هذا اسم من أسماء النبيء ﷺ وآتاه الوسيلة، فمن سمعه في قراءة القرآن أو غيرها فلْيُصَلِّ عليه كسائر أسمائه المختصَّة به وغير المختصَّة به، ففي الطبرانيِّ أنَّه ﷺ ارتقى على المنبر فأمَّن ثلاث مرَّات ثمَّ قال: أتدرُونَ لِمَ أمَّنت؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال جاءني جبريل فقال: «**إنَّه من ذكرت عنده فلم يصلِّ عليك فأبعَدَهُ الله وأسحقه، قلت**: آمين، **ومن أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرَّهُمَا دخل النَّار فأبعده الله، وأسحقه، قلت**: آمين، **ومن أدرك رمضان فلم يغفر له دخل النَّار فأبعده الله وأسحقه، قلت**: آمين»[1].

وفي الطبرانيِّ والبزَّار أنَّه ﷺ دخل المسجد وصعد المنبر فقال: آمين آمين آمين، وَلَمَّا انصرف قيل: يا رسول الله، رأيناك صنعت شيئًا ما كنت تصنعه؟ فقال ﷺ: إنَّ جبريل تبَدَّى لي في أوَّل درجة فقال: «**يا محمَّد من أدرك والديه فلم يدخلاه الجنَّة فأبعده الله، ثمَّ أبعده، فقلت**: آمين، **ثمَّ قال لي في الدرجة الثانية: ومن أدرك شهر رمضان فلم يغفر له فأبعده الله ثمَّ أبعده، فقلت**: آمين، **ثمَّ تبدَّى لي في الدرجة الثالثة فقال لي: ومن ذكرت عنده فلم يصلِّ عليك فأبعده الله ثمَّ أبعده فقلت**: آمين». وروى ابن خزيمة وابن حبَّان واللَّفظ له أنَّه ﷺ صعد المنبر فقال: «**آمين آمين آمين**» فقيل:

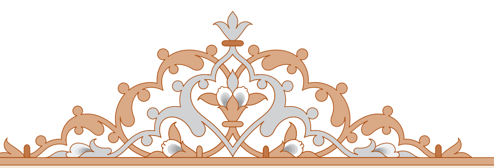
---

(1) راجع الجزء 11، ص 354 لهذا الحديث وما بعده في تفسير الآية ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَآئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيءِ﴾ (سورة الأحزاب: 56).

يا رسول الله، صعدت المنبر فقلت: آمين آمين آمين؟ فقال: «**إنَّ جبريل أتاني فقال: من أدرك شهر رمضان فلم يغفر له فدخل النَّار فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين، ومن أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرَّهما فمات فدخل النَّار فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين، ومن ذكرت عنده فلم يصلِّ عليك فمات فدخل النَّار فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين**». وفي الترمذيِّ: «**رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلِّ عليك، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثمَّ انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر، فلم يدخلاه الجنَّة**». وفي الطبرانيِّ عن الحسين بن عليٍّ: «**من ذكرتُ عنده فخطئ الصَّلاة عليَّ خطئ طريق الجنَّة**»، وكذا لابن الْحَنَفِيَّة، إلَّا أنَّه قال: «**نسي الصَّلاة**» بدل «**خطئ الصَّلاة**»، ومثله لابن ماجه والطبرانيِّ. وفي النسائيِّ وابن حبَّان عن الحسين مرسلاً وفي الترمذيِّ موصولا بعليٍّ: «**البخيل من ذُكرتُ عنده ولم يصلِّ عليَّ**». وفي رواية ابن أبي عاصم: ألا أخبركم بأبخل النَّاس؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**من ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ فذلك أبخل النَّاس**». وفي الحاكم عن كعب بن عجرة أنَّه قال ﷺ في درجاته الثلاث: «**آمين**»، ولمَّا نزل قلنا له: ما سمعنا منك؟ قال: «**إنَّ جبريل قال في الأولى**: «**بَعِدَ من أدرك رمضان فلم يُغفر له، وفي الثانية: بَعِدَ من ذُكرتَ عنده فلم يصلِّ عليك، وفي الثالثة: بَعِدَ من أدرك أبواه الكِبَرَ أو أحدهما فلم يُدخلاه الجنَّة، وقلت: آمين، في كلِّ مرَّة**». ومثله لابن حبَّان إلَّا أنَّه يذكر العتبة بدل الدرجة، وقدَّم رمضان وأخَّر ذكره ﷺ.

[قلت:] ويبعد حمل ذلك الوعيد على من ترك الصلاة عليه عند سماعه اشتغالا بلهو أو لعب محرَّم أو بوجه مشعر بعدم تعظيمه ﷺ، بل أخذ الناس بالأقوال ميلًا إلى الراحة، وغفلوا عن أحاديث الوعيد. والقول بمرَّة في العُمُر من متروك العلم.





﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿1﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿2﴾ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿3﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿4﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿5﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿6﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿7﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿8﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿9﴾ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿10﴾﴾

تثبيتٌ وإرشاد للنبيء ﷺ عند بدء الدَّعوة

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَآ أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ أصله: «الْمُتَزَمِّلُ»، كما قرأ به أُبيٌّ، أبدلت التَّاء زايًا وأدغمت في الزَّاي، وهو من التفعُّل للطلب، أي: زمِّليني يا خديجة، رَضِيَ اللهُ عَنهَا. أو للمطاوعة على أنَّه بلا أمر منه.

[سيرة] كان يتعبَّد في حراء فجاءه جبريل أوَّل ما جاءه فضمَّه حتَّى بلغ منه الجهد وأطلقه، فقال: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، فضمَّه كذلك إلى ثلاث، فقال: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ إلى ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: 1 ـ 5]، فرجع إلى خديجة رَضِيَ اللهُ عَنهَا كالمغشيِّ عليه أو كالمحموم، فقال: زمِّليني زَمِّليني، فلحقه جبريل وهو مزمَّل أو بعد الخروج عن الغطاء. والتزمُّل التغطِّي، والتزميل التغطية. وقيل: تزمَّل بثيابه دون أن يأمر بتزميله.

على أنَّ قريشًا قالوا في دار النَّدوة: سَمُّوه باسم ينفر النَّاس عنه، فقيل: ساحر، فقالوا: ليسه، فقالوا: كاهن، فقالوا: ليسه، وقالوا: مجنون، فقالوا: ليسه،

وقاموا على أن يقولوا: مفرِّق بين الأحبَّة، فبلغه ذلك فتزمَّل في ثيابه كالحازن، فأتاه جبريل في حينه فناداه باسم مشتقٍّ من فعله، على عادة العرب في ذلك تأنيسًا له كالملاعب وتنشيطًا على تلقِّي الوحي، وكذا على القول الأوَّل.

كما غاضب عليٌّ فاطمةَ لشيء بينهما، ونام على تراب لصق بجنْبه، فدخل عليه رسول الله ﷺ فقال: «قُم يا أبا تراب»، فكان هذا كنية له بعدُ.

[قلت:] وليس كما قيل: إنَّه عتاب لطيف بالرأفة ليستعدَّ لِمَا وعد الله ﷻ في قوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي...﴾ إلخ وأنَّ التزمُّل كفعل من لا يهمُّه أمرٌ، فإنَّ ذلك سوء أدب، وإنَّما يفسَّر خطابه بالعتاب حيث هو ظاهر فيه بلا تكلُّفٍ، كقوله ﷻ: ﴿عَبَس...﴾ إلخ، ويندفع سوء الأدب بأن أراد نهْيَه عن شكل من لا يهتم بما يُهِمُّ، وقد تزمَّل في ثيابه للصَّلاة.

وقيل: المراد المستعدُّ لحمل أعباء الرسالة، فيكون استعارة تبعيَّة، مِنْ تَزَمَّلَ الحملَ الثقيلَ، أي: عالج حمله، وفيه أنَّه نبيء حين نزول ذلك، وإنَّما يكون رسولاً بعدُ، إلَّا أن يقال: إنَّه سيكون متَحَمِّلاً للرسالة، وما هنا استعداد له، أوْ هذا بعد قصَّة خديجة المذكورة.

وجاء في حديث جابر بن عبد الله أنَّه قال ﷺ: «**كنت على جبل حراء فنوديت: يا محمَّد، إنَّك رسول الله**»[1]. وقيل: تزمَّل في ثيابه فخرج ولقيه جبريل عند الباب فقال له: يا أيُّها المزَّمِّل، وقيل: نام متزمِّلاً في ثيابه فناداه بذلك. والصَّحيح الأوَّل، وعليه الجمهور.

﴿**قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً**﴾ قم في اللَّيل إلى الصَّلاة والذِّكر، وقيل: ﴿قُم﴾ بمعنى صلِّ ﴿**نِّصْفَهُ**﴾ قيل: هو بدل «قَلِيلاً» بدلَ كلٍّ، وفيه تسمية النِّصف

(1) أورده عدَّة مفسِّرين بهذا اللفظ، منهم: **الزمخشري** في الكشَّاف، ج 4، ص 646. ورواه **البخاري** باختلاف في اللفظ، في كتاب التفسير، باب سورة المدَّثِّر، رقم: 4638ـ4640. من حديث جابر بن عبد الله.

قليلاً، والهاء للّيْل، ويوجِّه تسمية النِّصف بعضًا وقليلاً بأنَّ النِّصف المقوم فيه قويٌّ كأنَّه الكلُّ، والنِّصف الآخر كأنَّه أقلُّ من النِّصف، قيل: أو سمَّاه قليلاً بالنسبة إلى الكلِّ، وفي هذا الإبدال بيان ما أبهم، وهو قوله تعالى: ﴿قَلِيلاً﴾.

﴿**أَوُ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً**﴾ أي: من النِّصف ﴿**اَوْ زِدْ عَلَيْهِ**﴾ أي: على النِّصف إلى الثلثين، وهكذا قُلْ على ما ظهر لي، وإلَّا فقل: الضَّمير في «مِنْهُ» للَّيل، لأنَّ الكلام مبنيٌّ على اللَّيل. وفي الوجه الأوَّل ردُّ الضمير للأقرب، وعلى الثاني يكون المعنى: قم نصف اللَّيل، أو انقص من اللَّيل قليلاً، وهذا القليل ما دون النِّصف.

وحاصل الوجهين أن يقوم نصف اللَّيل أو أقلَّ من النِّصف، أوْ أكثر من النِّصف، وقد يتقوَّى الثاني بأنَّ فيه جعل معيار النَّقص والزَّيد النِّصف المقارن للقيام، وهو أَوْلى مِنْ جعله النِّصف العاري منه بالكليَّة وإن تساويا كمِّيةً، وأجيز إبدال «نِصْفَ» من «قَلِيلاً» مع جعل «قَلِيلاً» الثاني نصف النِّصف وهو الرُّبع، وهاء «عَلَيْهِ» لهذا القليل، والمزيد على هذا القليل الذي هو الربع نصف الربع، أي: قم نصف اللَّيل أو انقص من النِّصف قليلاً نصفه، أو زد على هذا القليل قليلاً نصفه، كأنَّه قيل: قم نصف اللَّيل أو نصف نصفه، أو زد على نصف النِّصف نصف نصف النِّصف، فاللَّيل على ستَّة عشر قسمًا فيقوم ثماني ساعاتٍ أو أربعًا أو ستًّا.

والحاصل أنَّه خُيِّر بين أمرين: أن يقوم أقلَّ من نصف اللَّيل جزمًا، وأن يختار أحد الأمرين: النقصان من نصف اللَّيل، والزِّيادة عليه. أو خُيِّر بين ثلاثة: بين قيام نصف اللَّيل، وبين قيام أقلّ من النِّصف، وبين قيام الزَّائد عليه، على جعل «نِصْفَهُ» بدلاً من «قَلِيلاً».

وعن الكلبيِّ: القليل الثلث، وعن وهب بن منبِّه أنَّه ما دون العُشر والسدس. والآية دليل على جواز استثناء النِّصف.

[تهجُّد] وكانوا لا يدرون ثلث اللَّيل، أو ثلثيه أو نصفه، فكانوا يحتاطون حتَّى يكونوا على يقين من القدر مُدَّةَ سَنَةٍ عند عائشة، فانتفخت أقدامهم، وقيل: ستَّة عشر شهرًا، ونسخ ذلك بالخمس المفروضات. ولا سورة نَسَخَ آخرُهَا أَوَّلَهَا إلَّا هذه.

﴿**وَرَتِّلِ**﴾ في قيام اللَّيل وغيره ﴿**الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً**﴾ ميِّزْ كلَّ حرف من آخَر كأنَّ بينهما فسحة كما يكون ترتيل الأسنان، وهو تفسُّح سنٍّ عن أخرى خلقةً أو صنعةً، وهو بالصنعة حرام كما في الحديث[1].

وعن الإمام عليٍّ أنَّه سئل رسول الله ﷺ عن ترتيل القرآن فقال: «**بَيِّنْهُ تَبْيينًا ولا تنثره نَثْر الدَّقل، ولا تَهُذَّهُ هذَّ الشِّعر، قفوا عند عجائبه، وحرِّكوا به القلوب، ولا يكن هَمَّ أحدكم آخر السورة**»[2]. وكان ﷺ **يمدُّ ويقرأ حرفًا، ويقف على رأس كلِّ آية.**

والقرآن إمَّا بمعنى القراءة لكتاب الله تعالى، وإمَّا بمعنى كتاب الله سبحانه.

﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ**﴾ اختار هذا على أن يقول: سنوحي إليك، لأنَّ الإلقاء عليه مشعر بالثقل، والقرآن ثقيل كما قال ﷻ: ﴿**قَوْلاً ثَقِيلاً**﴾ هو القرآن المتلوُّ، وثِقْلُهُ معنويٌّ، فإنَّه شاقٌّ لما فيه من التكاليف من الأوامر والنَّواهي والحدود وللوعيد، ولا سيَّما على رسول الله ﷺ، فإنَّه يشقُّ عليه أخذه عن جبريل، فإنَّه يعرق جبينه عند أخذه عنه ولو شتاء، كما روي عن عائشة، ويعمل به ويحفظه ويعلِّمُهُ النَّاس، ويأمرهم به.

وفي ذلك ثقل حسِّيٌّ، قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنهَا: إذا أوحي إليه راكبًا على ناقته وضعت جرانها فما تقدر أن تتحرَّك، حتَّى يفرغ، وقرأت: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي...﴾ إلخ. وأوحي إليه وفخذه على فخذ زيد، فكادت ترضُّ فخذ زيد.

وقيل: ثقله شدَّة جودة معناه ولفظه، ويُقال للشيء الذي له شأنٌ عظيم: إنَّه ثقيل. قال البخاريُّ ومسلم والرَّبيع عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنهَا وعن أبيها: إنَّ

---

(1) يشير إلى الحديث الذي رواه **الربيع والبخاريُّ** في صحيحَيْهما: «لَعَنَ اللهُ النَّامِصَةَ وَالْمُتَنَمِّصَةَ، وَالْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ، وَالْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ». الربيع كتاب الأشربة (41) باب في الْمُحَرَّمَات، رقم 637. والبخاري كتاب التفسير (364) باب ﴿وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ رقم 4606 و4605. من حديث ابن عبَّاس.

(2) رواه **البغويُّ** في تفسيره معالم التنزيل، ج 8، ص 251. موقوفا على ابن مسعود.

الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ وعلى آله: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ: «**أحيانًا يأتيني في مثل صلصلة الجرس، وهذا أشدُّه عليَّ، فينفصم عنِّي وقد وعيت ما قال، وأحيانًا يتمثَّل لي الملك رجلاً فيكلِّمني فأعي ما يقول**»[(1)].

وقيل: ثقله لزوم التجرُّد للتأمُّل فيه، وتصفيَة السِّرِّ. وقيل: كثرة ثوابه، وقيل: يعبَّر عن هذا بثقله في الميزان، وقيل: ثقله لما فيه من المحكم والمتشابه، والنَّاسخ والمنسوخ.

وقيل: ثقيل على المشركين والمنافقين، لأنَّه يضادُّهم، وخصوصًا على المنافقين، لأنَّه يفضحهم. ويُقال: كلُّ حرف في اللَّوح المحفوظ كجبل لا تطيق الملائكة كلُّهم على حمله واستخراجه، إلَّا إسرافيل فأقدره اللهُ على ذلك **ولا مستند لهذا. أو الثقل في ذلك كُلِّه مجاز.**

قيل: ولا يُقال: سورة أو آية خفيفة، لأنَّ الله ﷻ وصف القرآن بالثِّقل.

﴿**إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ**﴾ أي: النَّفس، أو النُّفوس التي تنشأ في اللَّيل، أي: تنهض للعبادة فيه ـ صلاة أو غيرها ـ من النَّوم. وأنشأ الله الشيءَ: بعثَهُ، ونشأ شيءٌ: حدث.

[قلت:] وأخطأ من قال: إنَّ اللَّفظ حبشيٌّ معرَّب، وهكذا كلُّ لفظ صحَّ في لغة العرب إذا ادَّعى أحدٌ أنَّه معرَّب فقد أخطأ وعصى[(2)].

والإضافة بمعنى في، قيل: أو على، أي: قام متغلِّبًا على اللَّيل، وأجاز بعض أنَّه مصدر، كالعافية والعاقبة، والإضافة بمعنى في كذلك، أو من نسبة الفعل إلى زمانه، كقولك: قام ليلُه (بالرفع).

وقيل: ﴿نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ على معنى العبادة فيه ولو لم يتقدَّم نَوْمٌ، وسواء أوَّل اللَّيل وآخره ووسطه، وهو قول زين العابدين. وعن عائشة: القيام بعد

(1) رواه **الربيع** في مسنده (2) باب في ابتداء الوحي، رقم 2، من حديث عائشة.

(2) «وعصى» إضافة من نسخة (أ) وليست في مسودة المؤلف (د).

النَّوم. وقيل أيضًا: ناشئته ساعاته، لأنَّه تنشأ ساعة بعد ساعة. وقيل: ﴿نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾: ساعاته الأُوَل، والنَّاشئة: ذات أو عبادة أو ساعة. والإخبار بـ«أَشَدُّ وَطْئًا» مجاز إذا فسِّر بساعة أو عبادة.

وعن الكسائيِّ: ساعته الأولى، كما قيل عن ابن عمر وأنس: إنَّهما ما بين المغرب والعشاء. وعن زين العابدين عليِّ بن الحسين بن عليِّ بن أبي طالب أنَّه كان يصلِّي بين المغرب والعشاء، ويقول: هذه ناشئة اللَّيل. وقيل: كلُّ صلاة بعد العشاء هي ناشئة اللَّيل.

وقيل: العبادة آخره. وعن ابن عبَّاس وابن الزبير: اللَّيل كلُّه ناشئة، وما بين المغرب والعشاء ساعة، كما بين الفجر وطلوع الشمس.

﴿**هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا**﴾ أي: موافقة بأن يوافق القلب اللِّسان، وعبادة النَّهار دون ذلك لعوارض تشغل، والمعنى: يواطئ قلبها لسانها، على أنَّ الناشئة النَّفس أو النُّفوس، والإسناد مجازيٌّ، أو يواطئ فيها قلب القائم لسانه إن أريد بالناشئة القيام، أو العبادة، أو السَّاعة، أو السَّاعات.

أو ﴿أَشَدُّ وَطْئًا﴾ أثقل على النَّفس لاعتيادها النَّوم فيه. وعن ابن عبَّاس: ﴿أَشَدُّ وَطْئًا﴾ أضبط لأداء العبادة، لأنَّ الإنسان إذا نام لا يدري متى يستيقظ. وقيل: أسهل للمصلِّي، لأنَّ النَّهار للتصرُّف في الأشغال بخلاف اللَّيل، والإسناد مجازيٌّ. أو المعنى: أشدُّ موافقة لما يراد من الإخلاص، فلا مجاز.

﴿**وَأَقْوَمُ قِيلاً**﴾ أصوب قراءةً، وأصحُّ قولاً من النَّهار لِهَدْأَةِ النَّاس، وسكون الأصوات. وقيل: أبين قولاً بالقرآن، وأبعد من الرياء، وأكثر ثوابًا.

﴿**اِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً**﴾ أي: تصرُّفًا طويلاً في أشغالك الدُّنيَوِيَّة المباحة وسائر العبادة التي هي غير عبادة الليل، كالأمر والنهي، والتعليم، والذهاب إلى موضع لأمر دينيٍّ، كالإصلاح بين النَّاس، وكالنَّوم لتتقوَّى به على عبادة اللَّيل.



[بلاغة] واللَّفظ مستعار من التنقُّل في الماء، أو مجاز مرسل، من استعمال المقيَّد في المطلق، فذلك جامع لعمل الدِّين والدنيا، وهو أنسب للمقام.

وقيل: السَّبح: الفراغ الباقي لِمَا فات، وهو أن يعمل بالنَّهار ما فاته من عبادة اللَّيل، وهو مناسب لـ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنَ اَرَادَ أَن يَّذَّكَّرَ أَوَ اَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: 62]، ففيه تلويح إلى شكر الله تعالى على أنَّه لم يكلِّفه استيعابهما، وعلى إثباته تدارك ما فات فذلك كلُّه للدِّين، ولا شيء فيه من الدنيا. و«فِي» متعلِّقة بما تعلَّق به «لَكَ» أو بـ«سَبْحًا» المَصْدَرِ، للتصرُّف في الظروف، فلا بأس بتقديم المعمول الظرفيِّ عليه.

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ دُمْ على ذِكره دوامًا عرفيًّا، وهو الإكثار، لا حقيقيًّا كالمَلَك لا يفتر عن الذِّكر، إذْ لم يخلق الله ذلك في طاقة البشر، وهذا تعميم للعبادة بعد تخصيصها باللَّيل.

والإضافة للجنس، فشملت أسماءَه، مثل: يا الله يا رحمن يا رحيم، يا ذا الجلال والإكرام، أنت سبُّوح قدُّوس لا إله إلَّا الله، الحمد لله، سبحان الله العظيم، سبحان ربِّي العظيم، سبحان ربِّي الأعلى، الله أكبر ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم، وسائر العبادات المشتملة على اسم الله، وقراءةَ القرآن، وزاد بعضٌ دراسةَ العلم، لأنَّها في معنى ذكر الله تعالى.

﴿وَتَبَتَّلِ﴾ انقطع ﴿اِلَيْهِ﴾ بقلبك، فذلك عبادة بالجارحة وعبادة بالقلب، أو تأكيد لما قبله، والانقطاع إليه قلبًا وظاهرًا، ورفض الدنيا. وقيل: تَوَكَّلْ. ﴿تَبْتِيلاً﴾ مقتضى الظاهر: تبتُّلاً، فهو اسم مصدر للفاصلة، ولأنَّ التبتُّل متضمِّن لمعنى التبتيل، وقيل: قال: ﴿تَبْتِيلاً﴾ إشارة إلى معنى بتِّل نفسك، أي: احملها على التبتُّل، وأيضًا لا بدَّ من التَّبتيل حتَّى يحصل التَّبتُّل.

وذكر التبتُّل أوّلاً لأنَّه المقصود، و«التبتيل» ثانيًا لأنَّه صَرْفٌ إلى التبتُّل، وفعْلٌ موصل إليه، وهو قطع النَّفس إليه، والتبتيل تصرُّفٌ، والمشتغل بالتصرُّف لا يكون متبتِّلاً، إلَّا أنَّ هذا الصرف عبادة أيضًا لأنَّه آلة للتبتُّل.

﴿**رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**﴾ أي: هو ربُّ المشرق، أو مبتدأ خبره قوله: ﴿**لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ**﴾. و«ال» للاستغراق، فشملت مشارق الشمس والقمر والنُّجوم ومغاربها، وقرأ ابن عبَّاس: «رَبُّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ» بالجمع، ومرَّ كلام في ذلك[1].

﴿**فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً**﴾ عطف إنشاء على إخبار، والفاء سَبَبِيَّة، اتَّخِذْهُ وَكِيلاً لأنَّ له المشارق والمغارب، مالكٌ لكلِّ شيء، فهو الذي يتوكَّل عليه، ويفوَّض الأمر إليه، إذ ليس في يد غيره شيء.

و«وَكِيلاً» فعيل بمعنى مفعول، على الحذف والإيصال، والأصل: وكيلاً إليه، أي: موكولاً إليه، حذف الجارُّ وانتصب مدخوله كالمفعول، فوصل بـ«وكيل» بستر ضمير رفع في «وَكِيلاً» بدلاً منه.

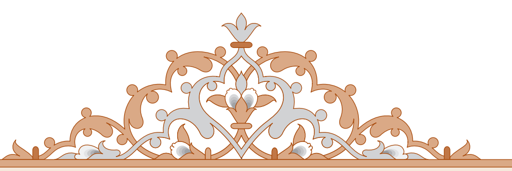
ولا مقابلة بين التبتُّل والتوكُّل فضلاً عمَّا قال بعض المحقِّقين: إنَّ مقام التوكُّل فوق مقام التبتُّل، لأنَّا فسَّرنا التبتُّل بالانقطاع إليه تعالى بالعبادة، والتوكُّل: ترك الأمر لله تعالى، وأمرنا بالجمع بينهما، وإنَّما يكون ذلك لو فسَّرنا التبتُّل بالخضوع إليه تعالى في طلب الحوائج، لِمَا في التوكُّل من رفع الاختيار.

﴿**وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ**﴾ من قولهم: ساحر، وقولهم: مجنون، وقولهم: كاهن، وقولهم: مفتر، وقولهم: أساطير الأوَّلين، وقولهم: يعلِّمه بشر، وقولهم: يفرِّق بين الأحبَّة.

﴿**وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً**﴾ بأن لا تكافِئَهُمْ على سوئهم، وَكِلْ أمرهم إلى الله تعالى، فَسَيُكَافِئَهُمْ، فهذه تسلية له ﷺ، كما قال:

---

(1) راجع في هذا الجزة تفسير الآية 40 من سورة المعارج.



﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿11﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿12﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿13﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿14﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿15﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿16﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿17﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿18﴾﴾

تهديد الكفَّار وتوعُّدُهم

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ سأنتقِمُ منهم مطلقًا، فيدخل هؤلاء أوَّلاً، أو المراد هؤلاء الصناديد المستهزئون أو بعضهم، وعليه فمقتضى الظاهر: ذرني وإيَّاهم، وعبَّر عنهم بموجب الانتقام وهو التكذيب. وقيل: المراد المتَكَفِّلُون بالإطعام يوم بدر.

[بلاغة] والواو للمعيَّة، والجملة مجاز مركَّب بدون استعارة، عبارة عن «إِنِّي أنتقم منهم». ويجوز أن يكون استعارة تمثيليَّة بأن شبَّه صور اقْتراف المعاصي مرَّة بعد أخرى، والإمْهَالَ ـ مع العَدِّ على المعاصي عَدًّا بَعْدَهُ الانتقامُ في الدنيا والآخرة ـ بصورة متعَدٍّ على غيره، مع العَدِّ على ذلك المتَعَدِّي عَدًّا يليه العقاب على ذلك التعدِّي، اغْتياظًا عليه، إلَّا أنَّ الله تعالى لا يغتاظ، لأنَّه لا يلحقه ضرٌّ ولا نفعٌ.

﴿أُوْلِي النَّعْمَةِ﴾ التنعُّم، تلذُّذًا بالمال وصحَّة البدن واللِّباس والمركب، وهو مصدر، أَمَّا بالكسر فهو نفس ما يتنعَّم به، وأَمَّا بالضمِّ فالمسرَّة.

﴿وَمَهِّلْهُمْ﴾ اعتقد أنَّ الله مَهَلَهُمْ، عَبَّر عن اللَّازم والمسبَّب بالملزوم والسبب، وذلك أنَّ الممهِّل هو الله تعالى لا رسوله ﷺ. ﴿قَلِيلاً﴾ زمانًا قليلاً أو تمهيلاً قليلاً، والشدُّ للتعدية لا لتكثير الكُفَّار الممهَّلين، إلَّا أن يُقال: اختار الشدَّ عن الإمْهال لذلك.

[لغة] ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ﴾ عندنا ﴿أَنكَالاً﴾ جمع نِكْلٍ (بكسر النُّون) وهو أوفق لهذا الجمع، أو بفتحها، والأوفق لهُ: أَنكُل وهو القيود الشديدة، وهو المعروف في اللُّغة، وفسَّرها الكلبيُّ بالأغلال.

وعن الشَّعبيِّ: لم تجعل الأنكال في أرجلهم حَبْسًا عن الهروب لأنَّه لا موضع في النَّار يهربون إليه يستريحون فيه، أو ينجون فيه، ولا يفوتون الزَّبانية بل لِتَسْتَقِلَّ بهم إذا أرادوا الارتفاع.

﴿وَجَحِيمًا﴾ نارًا شديدة الاتِّقاد ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ صاحب نشب في الحلق، ثمَّ بَعْدَ شِدَّة ينزل يحرق ما في بطونهم، فيخرج مع ما فيها من الأمعاء، ثمَّ تعاد، يجبرون على أكله، أو يخلق الله فيهم اشتهاءه لكونه بصورة طعام، فلا يجدون من أنفسهم حذرًا منه، وذلك هو الضَّريع والزَّقُّوم. وعن ابن عبَّاس: شوك من نارٍ لا ينزل ولا يخرج. ﴿وَعَذَابًا اَلِيمًا﴾ هو عذاب عظيم، نوع آخر من العذاب لا يعرف قدره إلَّا الله تعالى الرَّحمن الرَّحيم.

وعن أبي داود أنَّ النبيء ﷺ سمع رجلاً يقرأ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً﴾ فصعق. وروي أنَّه ﷺ قرأها وَلَمَّا بلغ ﴿أَلِيمًا﴾ صعق. وأمسى الحسن عند خالد بن حسَّان صائمًا، فأتاه بطعامٍ، فعرضت له الآية فقال: ارفعه، وكذا عرضت له في اللَّيلة الثانية والثالثة وقال: ارفعه، فجاء ابنه بثابت البنانيِّ ويزيد الضبي ويحيى البَكَّاء[1] فلم يزالوا به حتَّى شرب شربة من سويق. [قلت:] ولا يجوز تكلُّف الصعق.

(1) يحيى بن مسلم، أو ابن سُلَيم، أبو مسلم البكَّاء البصريُّ مولاهم، وقد ضعَّف المحدِّثون رواياته، إلَّا أنَّه زاهد كثير البكاء. تُوُفِّيَ سنة 130هـ. **ابن حجر**: تقريب التهذيب، ج 2، ص 367.

﴿يَوْمَ﴾ متعلِّقٌ بـ«عذاب»، أو بمحذوف نعت له، أو حال، أو بـ«اَلِيمًا» أو بـ«ذَرْنِي» أو بمتعلَّق «لَدَيْنَا». ﴿تَرْجُفُ﴾ تضطرب وتتزلزل. ﴿الاَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ بذاتها كما هُو ظاهر العطف، أو تبعًا لتزلزل الأرض.

﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ﴾ أظْهرَ إعظامًا للهوْل إذ كانت تذوب مع عظمها وصلابتها وارتفاعها.

[لغة] ﴿كَثِيبًا﴾ ككثيب، وهو الرَّمل المجتمع، ومادَّة كثب للجمع، وهو فعيل بمعنى مفعول، أي: مكثوب ثمَّ تغلَّبت عليه الإسمِيَّة فصار اسمًا لذلك الرَّمل، فلا يتحمَّل ضميرًا. وذلك تشبيه بليغ، أو استعارة، أو حقيقة بأن يُصيِّرها الله تعالى رملاً مرتفعًا عريضًا على صورة الجبل.

﴿مَّهِيلاً﴾ صفة مشبَّهة بمعنى رخوًا ليِّنًا تدخلها القدَم، وقيل: فعيل بمعنى مفعول، يُقال: هاله فهو مهيل، أي: نثره، ثمَّ يكون كثيبًا ثمَّ يهال. وقيل: كثيبًا بالفعل مهيلاً بالقوَّة، وبعد ذلك يطار بالفعل.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ﴾ الآن ﴿إِلَيْكُمْ﴾ الخطاب للمكذِّبين المعهودين أو لبعضهم، على طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، الالتفات لجليلٍ، ألا ترى إلى الاستشهاد عليهم بالرَّسول وتشبيه تكذيبهم لرسول الله ﷺ بتكذيب فرعون لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مع المواجهة لهم بذلك، كأنَّه ينتقم منهم الآن مع ما ينتقم منهم به في الآخرة، كما فعل ذلك بفرعون؟ وقيل: الخطاب للعموم، فلا التفات، إلَّا إن أريد بالمكذِّبين العموم.

﴿رَسُولاً﴾ هو محمَّد ﷺ فعَصَيْتُموهُ ﴿شَاهِدًا﴾ يوم القيامة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بما فعلتم من الشِّرك وما دونه من المعاصي.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾ هو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يُذكر للعِلْم به، وليحصل تعظيمه بتنكير «رَسُولاً» كـ«رَسُولاً» الأوَّل. والكاف حرف، أي:

إرْسـالاً ثابتا كإرسـالنا إلى فرعون، أو اسْـمٌ، أي: إرْسالاً مثل إرسـالِنَا إلى فرعون. ﴿**فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ**﴾ المعهود، ولم يضمر له ولا لفرعون تفظيعًا لشأن عصيانه، من حيث [إنَّه] رسـول الله ﷺ لا من حيث إنَّه موسى، وكذلك أظهر «رسول» الأوَّل ولم يقل: إنَّا أرسـلنا إليكم محمَّدا ولا سيَّما وقد وصف بالشهادةِ عليهم، ولو آمنوا به لكان شاهدًا لهم.

﴿**فَأَخَذْنَـاهُ**﴾ بالإغراق ﴿**أَخْـذًا وَبِيلاً**﴾ ثقيلاً بالمشـقَّة والإيجاع كالكلإ الوبيـل الوخيم الذي لا يهضـم في البطن. والأخـذُ الوبيلُ غيـرُ داخل في التشبيه، لأنَّهم لم يؤخذوا أخذًا وبيلاً حين نزول الآية إلَّا من حيث تخويفهم بأنَّهم قد استوجبوا الأخْذَ الوبيل الذي لفرعون أو أشدَّ، فأمهلهم بلطفه.

﴿**فَكَيْفَ تَتَّقُونَ...**﴾ إلخ ترتيب على الإرسـال والعصيان ﴿**إِن كَفَرْتُمْ**﴾ بقيتم على الكفر، وقيـل: هو على ظاهره لكن جيء به على صورة الشـكِّ تَنْبِيهًا على بُعد الكفر مع تبليغ هذا الرَّسـول إليهم، حتَّى كأنَّه لم يقع وشَكَّ في وقوعه.

﴿**يَوْمًا**﴾ مفعول به لـ«تتَّقي»، أي: كيـف تتَّقون نفس ذلك اليوم فلا يأتي عليكم؟ أو كيف تتَّقون هول ذلك اليوم؟ أو كيف تتَّقون عذاب اليوم؟ أو هو ظرف لـ«تتَّقي»، أي: كيف تعبدون الله في ذلك اليوم فتنجوا، والآخرة ليست دارَ عملٍ فاعْملُوا الآن. قيل: أو هو مفعـول لـ«كَفَرْتُمْ» بمعنى: أنكرتم، كيف يرجى إقلاعكم عن الكفر وقد جحدتُم ذلك اليوم؟.

﴿**يَجْعَلُ**﴾ ضميـر «يَجْعَلُ» لليوم، علـى التجوُّز بالإسـناد إلى زمان الفعل، فإنَّ الجاعِلَ حقيقـةً هو اللهُ تعالى. والجملة نعـت «يَوْمًا»، والرابط ذلك الضمير، وإن رددنا الضمير إلى الله تعالى فالرابط محذوف، أي: يومًا يجعل الله فيه ﴿**الْوِلْدَانَ شِـيبًا**﴾ جمع أشـيب كأحمر وحُمْرٌ، وأصله شِوب كسر الشِّين لتبقى الياء.

والشيبُ حقيقة، فعن ابن مسعود: يقول الله تعالى لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «قم فابعث بعث النَّار من ذرِّيتك، فيقول: يا ربِّ لا علم لي إلَّا ما علَّمتني، فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: ابعث من كلِّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فيساقون إلى النَّار» وهؤلاء من يدخل النَّار بغير حساب، وهم ياجوج وماجوج وما أشبههم من بني آدم، وحينئذٍ يشيب كلُّ وليد.

وجاء في ذلك حديث مرفوع في الصَّحيحين: يقول الله عَزَّوَجَلَّ: «**يا آدم**»، **فيقول**: «**لبَّيك وسعديك والخير في يديك**»، **فيُنادَى** «**إنَّ الله يأمرك أن تُخرِج من ذرِّيتك بعث النَّار**»، **قال**: «**يا ربِّ، وما بعث النَّار؟**»، **قال**: «**من كلِّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعون**»، وفيه: «**أيُّنا ذلك الرَّجل؟!**»، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أبشِرُوا، الرجلُ منكم، والباقون من يأجوج ومأجوج**»[1].

وفيه «**أرجوا أن تكونوا ربُع أهل الجنَّة**»، فكَبَّروا، ثمَّ قال: «**ثلث أهل الجنَّة**» فكبَّروا ثمَّ قال: «**شطرهم فكبَّروا**» وهذا الترتيب أوقع في النَّفس، وأبلغ في الإكرام، وظهور الاعتناء بهم، وتكرير البشارة، وتجديد الشكر.

وفي حديث آخر: «**أهل الجنَّة ثمانون صفًّا أنتم ثلثان منهم**»[2] وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الرَّجل منكم**» تمثيلٌ، لأنَّه يكون أيضًا من الأمم السَّابقة، أو الخطاب في «منكم» لبني آدم لا للصَّحابة خصوصًا. وممَّا يزاد به شيب قوله: «ابعث بعث النَّار»، وأنَّه تسعمائة وتسعة وتسعون.

صلُّوا على المختار فهو شفيعكم ... في يوم يبعث كلُّ طفل أشيبا[3]

[قصص] وكم ميِّتٍ ورد في الأخبار أنَّه بعث في الدنيا أشيب وقد مات غير أشيب، ومن ذلك أنَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رأي قيحًا يخرج من قبر، فقال: يا ربِّ

(1) رواه **البخاري** في كتاب الأنبياء (10) باب قصَّة ياجوج وماجوج، رقم: 3170، ورقم: 4464 و6165 و7045، من حديث أبي سعيد الخدري.

(2) رواه **الطبرانيُّ** في الكبير، رقم: 10350. من حديث عبد الله.

(3) البيت لعبد الرحيم بن أحمد البرعي اليماني (ت: 803 هـ). ينظر: الموسوعة الشعريَّة.

ما هذا؟ قال: صلِّ ركعتين، فصلَّى ودعا، فخرج إنسان منه نصف لحيته أشيب، فقال له: ما هذا؟ فقال: متُّ بلا شيب، فنودي بي وتوهَّمت البعث فشاب نصف لحيتي، وقال: وما حالك؟ فقال: في خير إلَّا أنّي كنت قاضيًا فاستمعت إلى كلام خصم دون آخر فهذا القيح يخرج من الأذن لذلك.

وقيل: جعل الولدان شيبًا **عبارة عن الشدَّة، لأنَّ من اشتدَّت عليه الهموم أسرع إليه الشيب، أو هو وصف لذلك اليوم بالطُّول** وتمثيل له، بأنَّ الولدان يبلغون فيه أَوَانَ الشيب، لا حقيقة الشيب، ولا ذلك المقدار فقط من الزَّمان، بل أطول.

ونقدِّم له «لا إله إلَّا الله» والإيمان بكلِّ ما يجب الإيمان به، [قلت:] ونسأله التوفيق للوفاء، وإكثار الصَّلاة والسَّلام على النبيء ﷺ، وذلك على العموم.

وقال السُّدِّيُّ: هم أولاد الزنى، وقيل: أولاد المشركين، وهما ضعيفان إذ لا وجه للتخصيص، ولا ذنب للولدان المذكورين.

وقوله: ﴿**السَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ**﴾ نعت آخر، والهاء لليوم، والباء للآلة، أي: منشقٌّ بذلك اليوم لشدَّة هوله مع عظمها وقوَّتها، فما بالك بغيرها؟ والباء بمعنى في، أي: منشقَّة فيه لهوله، ويجوز أن يكون الانفطار عبارة عن ثقله عليها الآن في الدنيا لشدَّته وخوفها أن يقع، والثِّقل سبب للانشقاق في الجملة، ولا انشقاق حقيق، ولكن تمثيل وتخييل.

[قلت:] والصَّحيح أنَّ الانشقاق حقيق، وأنَّه يوم القيامة.

وإن رددنا الهاء إلى الله ـ كما هو مذهب مجاهد ـ فالرابط بين النعت والمنعوت محذوف، أي: منفطر فيه بالله، أي: بأمره.

[صرف] والسَّماء يذكَّر ويؤنَّث، والتأنيث أكثر كَمَا في القرآن، كقوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت: 11]، ولو كان مذكَّرًا لَقيلَ: قالا تغليبًا

علـى الأرض، وقوله: ﴿إِذَا السَّـمَآءُ انفَطَـرَتْ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّـمَآءُ انشَقَّتْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالسَّـمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ وقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْرًا﴾ [سورة الطور: 9]، ومن تذكيره قول الشَّاعر:

ولو رَفَـعَ السَّـماءُ إليـه قومًا لحقنا بالسَّـماء وبالسَّحاب[1]

وهاء «إليه» للسَّماء، ولم يقل: رفعت السَّماء إليها، وقيل: ذُكِّر لتأويله بالسَّقف. والحكمة الإدهاش بزوال أداة الإظلال تمثيلاً بزوال الظلِّ لزوال السَّقف.

وقيل: التذكيـر للنَّسـب، أي: ذات انفطار، كمرضـع، أي: ذات رضاع، وحائض، أي: ذات حيض. وقيل بتأويل شيء منفطر، بمعنى أنَّه تبدَّلت وزال حكمها، ولم يبق لها إلَّا اسـم شيء. ولا يصحُّ أنَّ السَّـماء اسم جنس مفردُهُ سماءة، وأنَّه ذُكِّر لذلك كشجر وبقر وكَلِم، لأنَّ كلًّا من السَّماء والسَّماءة مفرد.

﴿**كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً**﴾ الجملة نعت آخر لـ«يَوْمَ»، والرابط الهاء عائدة إليه. وإضافة الوعد إليه إضافة مصدر لمفعوله، والفاعل الله، أو الهاء لله، والإضافة للفاعل، والمفعول ضمير اليوم محذوفًا، أي: وعْدُ الله به.

(1) أورده عدَّة مفسِّـرين ولغويِّين ولم ينسـبوه. وفي ديـوان **الفرزدق**: «ولو رَفَـعَ الإله». ينظر: الموسوعة الشعريَّة.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿19﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿20﴾﴾

التخفيف من قيام الليل
والأمرُ بتلاوة القرآن والقيام بالأعمال الصالحة

﴿**إِنَّ هَٰذِهِۦ**﴾ هذه الآيات المتلوَّة أو الأمور المضمونة فيها من رجف الأرض، وكون الجبال كثيبًا مهيلاً، وجعل الولدان شيبًا، وانفطار السَّماء ﴿**تَذْكِرَةٌ**﴾ عظة.

﴿**فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ**﴾ إلى رِضى ربِّه ﴿**سَبِيلًا**﴾ يوصله إليه، وهو الإيمان والعمل. ومفعول «شَآءَ» مقدَّر من جنس الجواب، كما هو المعتاد، أي: من شاء اتِّخاذ السَّبيل الموصلة إلى الخير اتَّخذَ... إلخ، أو من شاء اتِّخاذ السَّبيل إلى ربِّه اتَّخذ إلى ربِّه سبيلاً، أي: لم يُمنعْ من اتِّخاذ السَّبيل، وقدَّره بعض من غير الجواب هكذا: من شاء الاتِّعاظ، أي: حصول الاتِّعاظ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ الَّيْلِ﴾ أي: أقلَّ من ثلثي اللَّيل، فإنَّه يلزم من قرب الشيء إلى آخر قلَّة الأحياز، فعبَّر بالملزوم عن اللَّازم، أو استعارَ الدُّنوَّ للقلَّة، وفي ذلك جعل الثلثين قليلاً لأنَّ «أدنى» اسم تفضيل، والجواب: إنَّ الله ﷻ عَدَّهما قليلاً باعتبار عظمته. وأولى من ذلك أن نجعل «مِن» ليست تفضيليَّة، بل التي يتعدَّى بها الدُّنوُّ، تقول: دنا من كذا، ونُخْرِجُ «أَدْنَى» عن التفضيل، فيكون المعنى: ما يقرب من ثلثي اللَّيل.

﴿وَنِصْفِهِ وَثُلُثِهِ﴾ عطف على «ثُلُثَي» فيكون يقوم ما يقرب من الثلثين تارة، وما يقرب من النِّصف تارةً، وهو ما فوق الثلث بقليل، وما يقرب من الثلث تارة، وهو ما دون النِّصف، ما لم يصل ثلثًا كالرُّبع.

والحاصل أنَّه يقوم أقلَّ من الثلثين وأقلَّ من النِّصف وأقلَّ من الثلث، وهذا فيما علم الله تعالى أنَّه يقع من رسول الله ﷺ والطائفة التي معه، وقوله تعالى: ﴿قُمِ الَّيْلَ...﴾ إلخ فيما أمره الله به، وبذلك يُجاب عن التخالف بين قراءتنا بالجرِّ وقراءة نصب «نِصفَهُ» و«ثُلُثَهُ» عطف على «أَدْنَى»، فإنَّ حاصلها أنَّك تقوم أقلَّ من الثلثين وتقوم نصف اللَّيل تارة، وتقوم ثلث اللَّيل أخرى.

﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الذِينَ مَعَكَ﴾ عطفًا على المستتر في «تَقُومُ» لوجود الفصل، كأنَّه قيل: تقوم أنت وطائفة من الذين معك أدنى من ثلثي اللَّيل، و«مِنْ» للبيان، أي: وطائفة هم الذين معك، وقيل: للتبعيض، والبعض الآخر يقوم غير القيام المذكور. وقيل: لم يجب عليه، وهو ضعيف.

﴿وَاللهُ يُقَدِّرُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يخلق مقادير ساعاتهما ويعلمها، وأنتم لا تعلمونها فلا بأس عليكم في نقص مِمَّا عُيِّن لكم، إذْ لا تصِلون إلى حسابه لدقَّته، يعجز عنها أصحاب الآلات.

﴿عَلِمَ أَن﴾ أنَّ الشـأن أو أنَّكم ﴿لَّن تُحْصُوهُ﴾ لن تطلبوا تقدير الأوقات، فعَامَلَكُم بالأوسع، ولا سيَّما أنَّ العرب يشقُّ عليها الحساب. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بترك المقدار في القيام، شبَّه الترخيص بقبول التوبة لجامع رفع العقاب.

[سيرة] قال سـعدُ بنُ هِشَـام لعائشـة: يا أمَّ المؤمنين، أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ، فقالت: ألسْت تقرأ ﴿يَآ أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾؟ قال: بلى، قالت: «فإنَّ الله تعالى افترض قيام اللَّيل في أوَّل السُّورة هذه، فقام نبيء الله وأصحابُه حولاً وأمسك الله تعالى خاتمتها اثنا عشر شهرًا في السَّماء»، يعني لم تنزل الخاتمة «حتَّى أنزل الله تعالى في آخر السورة التخفيف، وصار قيام اللَّيل تطوُّعًا» وفي رواية عنها: «دام ثمانية أشهر»، وعن قتادة: عامًا أو عامين.

وقيل: القيام وَجَبَ، إنَّما التخيير في المقدار، ثمَّ نُسـخ بعد عشر سنين، **وقيـل: وجب عليـه ﷺ دون غيـره**، كمـا قـال: ﴿فَتَهَجَّدْ بِـهِ نَافِلَـةً لَّكَ﴾ [سورة الإسراء: 79]، أي: زيادة واجبة.

وعن ابن عبَّاس: وجب على الكلِّ ثمَّ نسـخ عن غيره، فمن شـاء تطوَّع، وبقي الوجوب عليه إلى أن مات، وقيل: فرض في مكَّة ثمَّ نسخ وجوبه عنهم، وعنه: بالصَّلوات الخمس، وهذا في البخاري ومسلم[1].

ويروى عن ابن عبَّاس أنَّه صلَّى ركعـة بالفاتحة والآية الأولى من البقرة، وركعة بالفاتحة والآية الثانية منها، فقال: «هذا قراءة ما تيسَّر»، وقيل: الآية في قراءة القرآن بلا صلاة، فقيل: مائة آية، وقيل: السـورة التي قلَّت آياتها كسورة الكوثر وكسورة الإخلاص.

(1) انظر: **البخاري** كتـاب التهجُّد (10) باب كيـف كان صلاة النبيء ﷺ وكـم كان يُصَلِّي من الليل، رقم: 1089 وما بعدهُ. من حديث عائشـة. ورواه **مسـلم** في كتاب صلاة المسـافرين وقصرها (26) باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم 764. من حديث ابن عبَّاس.

وعن أنس مرفوعًا: «**من قرأ خمســين آيــة في يوم وليلة لــم يكتب من الغافلين**»[1]، من قرأ آية كتب من القانتين، ومن قرأ مائتي آية لم يحاجَّه القرآن يوم القيامة، ومن قرأ خمســمائة كتب له قنطار من الأجر، وروي: أربعون آية، وروي: عشرون بدل خمسين.

وعن أبــي هريرة مرفوعًا: «**من قرأ عشــر آياتٍ لم يُكتب مــن الغافلين**»[2]. وكان عبد الله بن عمرو بن العاصي يصوم الدَّهر ويقرأ القرآن كلَّ ليلة، فقال ﷺ: «**صُم يومًا وأفطِــرْ يومًا كداود، واقرأ القرآن في كلِّ شــهر**» قال أطيق أكثر فقال: «**في كلِّ عشر**» فقال: أطيق أكثر، فقال: «**في كلِّ سبع ولا تزد على ذلك**»[3].

﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّــرَ مِنَ الْقُرْءَانِ**﴾ أي: صلُّوا ما تيسَّــر لكم من الصَّلاة في اللَّيل عبَّر عن الصلاة بجزئها الذي هو القراءة، كما عبَّر عنها في غير هذه الآية بجزئها الذي هو الرُّكوع، وبجزئها الذي هو السُّجود.

وقيل: فرض الله تعالى القيام بمقدار معيَّن في قوله تعالى: ﴿قُمِ الَّيْلَ...﴾ إلخ ثمَّ نسخ بمقدار مَّا منه في قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُم فَاقْرَءُوا...﴾ إلخ ثمَّ عن الأمَّة وجوبُــه بالصَّلَواتِ الخمــس، وقيل: وجب عليهم القيام ثمَّ نســخ وأمروا بقراءة شيء من القرآن، أي: إن شقَّ عليكم فاقْرأوا بدلَهُ شيئًا من القرآن على النَّــدب. وفي الأثر: «من قــرأ مائة آية»، وفي أثر: «خمســين في ليله لم يحاجَّه القرآن»، وفي أثر: «كُتِب من القانتين».

---

(1) رواه **الدارمي** في كتاب فضائل القرآن، باب ومن قرأ خمســين آيــة، رقم 3320، من حديث عبد الله بن عمرو.

(2) رواه **الدارميُّ** في كتاب فضائل القرآن، باب ومن قرأ عشــر آيــات، رقم 3317، من حديث تميم الداري.

(3) روى **الشــيخان** وغيرهما ما في معناه. البخاري، كتــاب فضائل القرآن، بــاب في كَمْ يقرأ القرآن، رقم: 4765. من حديث عبد الله بن عمرو.

[فقه] [قلت:] وأخطأ مـن أجاز الصَّلاة بدون فاتحة الكتاب، فعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**لا تُجزي صلاة لم يُقرأ فيها بفاتحة الكتاب**»[1] وعنه أنَّه قال ﷺ: «**كلُّ صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خدَاج**»[2]، أي: نقصان عن حدِّ الإجْزاء، فهي باطلة، بدليل الحديث الآخر المذكور، وحديث أبي هريرة: «**أمرني رسول الله ﷺ أن أخرج وأنادي: لا صلاة إلَّا بفاتحة الكتاب**»[3] وذلك في كلِّ ركعة للإمام والمأموم والفذِّ.

[فقه] ومن ترك حرفًا واحدًا عمدًا فسدت صلاتُه، ومن ترك ما دون النِّصف بلا عمدٍ صحَّت صلاته، ولو علم في الوقت، لأنَّ ترك القليل كعدم التَّرك، وإن ترك نصفًا أو أكثر بلا عمد فسدت، لأنَّ ذلك كَتَركِ الكلِّ. وأقول: تفسد بترك القليل والكثير سهوًا، اللَّهمَّ إلَّا حرفًا أو كلمة سهوًا، وزعم الشافعيُّ أنَّه تجب قراءة الفاتحة في نصف الصلاة، وأبو حنيفة يغني بالتسبيح عنها في الرَّكعتين الأخيرتين في الرُّباعيَّة وفي الثالثة من المغرب، وزعم الحسن البصريُّ أنَّه تكفي في ركعة واحدة.

﴿**عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ**﴾ تعليل جمليٌّ، أي: نسخ عليكم وجوب القيام لأنَّه علم أن سيكون، أي: إنَّه، أي: الشَّأن، أو إنَّكم سيكون منكم مرضى، فخفَّف على الكلِّ ليحصل الاتِّفاق في ذلك، ولا يثبت التخالف.

[فقه] ومن يصلِّ قاعدًا بإيماء فليخفض للسجود أكثر ممَّا يخفض للرُّكوع، ويكون ركوعه أسفل[4]، لأنَّه إيماء كالسجود، والتحيَّة ليست إيماء فهي على

---

(1) رواه **البخاري** في كتاب صفة الصلاة (13) باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم 723. و**مسلم** كتاب الصلاة (11) باب وجوب قراءة الفاتحة في كُلِّ ركعة، رقم 394، من حديث عبادة بن الصامت.

(2) رواه **الربيع** في كتاب الصلاة (38) باب القراءة في الصلاة، رقم 222 من حديث أنس بن مالك.

(3) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره، مج 10، ص 141، من حديث أبي هريرة.

(4) في هامش (أ): «لعلَّه: ويكون رفعه من السجدة الأولى أسفل من الركوع لأنه إيماءٌ... إلخ. تأمل».

حالها في الصحَّــة، إلَّا أنَّه ينحني في قراءتها بعض انحنــاء ليجد رفعًا إلى قراءة الرَّكعة الثالثة، لأنَّ شأن القراءة أن تصحب بالرفع، ولا قراءة إلَّا برفع من السُّجود أو من التحيَّات، إلَّا قراءة الركعة الأولى، أو قراءة ما أحرم فيه على ركعة واحدة.

[فقه] وإن صلَّى نفلاً مستندًا صحَّ، ولو كان يقع لزوال ما استند إليه لجواز النَّفل مضطجعًا، والاستناد أولى من الاضطجاع، فليُصَلِّ الفرض مستندًا ولو كان يقع لزوال ما استند إليه، لأنَّ ذلك صورة قعود، والقعود أولى من الاضطجاع.

﴿**وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ**﴾ يمشــون مســافرين للتجر ﴿**فِــي الَارْضِ**﴾ أريد ما يشمل المســافرين في البحر لأنَّهم في الأرض أو خصَّ الأرض لأنَّها أشدُّ في التعب. وقوله تعالــى: ﴿**يَبْتَغُونَ**﴾، أي: يطلبون، حــالٌ. ﴿**مِن فَضْلِ اللهِ**﴾ بعضَ فضل الله تعالى مــن رزق، وذلك مانع من قيام اللَّيل، فنســخ عمَّن لم يُسافر أيضًا للتوافق.

﴿**وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾ قرن الله المسافرين للتجر بالمجاهدين في ســبيل الله تعالى لفضلهم، قال عمر ﵁: «ما من حال يأتيني عليه الموت بعد الجهاد في سبيل الله أحبُّ إليَّ من أن يأتيني وأنا بين شعبتي جبل ألْتمِسُ من فضل الله تعالى» وتلا الآية.

وعن ابن مسعود عن رســول الله ﷺ: «**ما من جالب يجلب طعامًا إلى بلد من بلاد المسلمين فيبيعه لسعر يومه إلَّا كانت منزلتُه عند الله بمنزلة الشهداء**»، ثمَّ قرأ ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ...﴾ إلخ[1]. ويروى عن ابن مســعود ﵁: «**أيُّما رجل جلب شــيئًا إلى مدينة من مدائن المســلمين صابرًا مُحتسبًا فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشــهداء**». فالأجر لمن يبيع بســعر يومه، أي: في وقته

---

(1) أورده **السيوطيُّ** في تفســيره، مج 10، ص 142، وقال: أخرجه ابن مردويه. وأورده **السيوطيُّ** في الدرِّ، ج 6، ص 311. وقال: أخرجه ابن مردويه من حديث ابن مسعود.

ولو بعد يـــوم أو يومين أو أكثر غيـــر منتظر للغلاء، وإن انتظـــره حلَّ له، لأنَّه جالب من سفر، لكن لا ثواب له.

وقد يعمِّم الفضل بما يشـــمل السـَـفر للعلم أو للزيارة أو لأمر دينيٍّ، ولا يُعارضه الحديثُ وكلامُ عمر، لاحتمال أنَّهما بيان لبعض ما يشمله اللَّفظ.

﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنهُ**﴾ من القرآن بلا مشقَّة في الصَّلاة وغيرها. ﴿**وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ**﴾ المفروضة وهي الخمس، فُرِضَتْ في مكَّة ليلة الإسراء لكنَّ السورة من أوَّل ما نزل والإسراء متأخِّر. ﴿**وَءَاتُواْ الزَّكَاةَ**﴾ المفروضة في المدينة.

فهذه الآيات مدنيَّات جعلن في ســـورة مكِّيَّة، أو حقِّقت الصلاة المفروضة والزكاة في المدينة، ونزل أصلهـــنَّ في مكَّة، لكن هذا لا يتَّجـــه في الصَّلوات الخمس، لأنَّهنَّ حقِّقن في مكَّة، ولو اتَّجه في الزَّكاة بأن بُيِّن نصابُها في المدينة.

[قلت:] ولعلَّ المراد بالصَّلاة ما وجب قبل الخمس ثمَّ نســـخ بالخمس، وبالزَّكاة ما يجب التصدُّق به ثمَّ نسخ بالزكاة المعيَّنة، وعبارة بعض: الآية ممَّا تأخَّر حكمه عن نزوله.

﴿**وَأَقْرِضُواْ اللهَ قَرْضًا**﴾ اســـم مصدريٌّ، أي: إقراضًا ﴿**حَسَـــنًا**﴾ اســـتعار الإقراض للإنفاق فـــي وجوه الأجر، أو الاســـتعارة تمثيليَّة بأن شـــبَّه الإنفاق للأجر والإثابة عليه بقرض المال وردِّه.

[قلت:] ومعنى الحســـن الإنفاقُ من حلَالٍ، والإخلَاصُ على وجه يدخل السُّرور على الفقراء أو الأغنياء أو الحيوان بلا مَنٍّ ولا أخذ عوضٍ، وقد قيل: المراد الزَّكاة المذكورة أعاد ذكرها بهذه الطريقة.

﴿**وَمَا تُقَدِّمُواْ**﴾ في الدُّنيا ﴿**لأَنفُسِكُمْ**﴾ في الآخرة ﴿**مِّنْ خَيْرٍ**﴾ عمل صالح من صدقة وصلاة وزكاة وصوم وأمر ونهيٍ، وتعليم علم وغير ذلك من العبادات ﴿**تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ**﴾ تَلْقَوا ثوابه مُدَّخرًا.



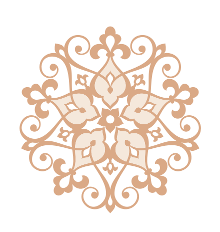
[نحو] ﴿هُوَ﴾ تأكيدٌ للهاء، اســتعارة لضمير الرَّفع للنَّصب و«خَيْرًا» حال من الهاء، وإن جعلنا «تجد» بمعنى تعلم كان مفعولاً ثانيًا له، وكان لفظ «هو» ضمير فصل واقعًا بين معرفة هي الهاء، وما يلحق بالمعرفة، فإنَّ اسم التفضيل في حكم المعرفة، إذا بقي على التَّفضيــل، ولذا لا تدخل عليه «ال»، لكن إن قرن بـ«مِنْ» التفضيليَّة وإلَّا جازت «ال».

﴿خَيْرًا﴾ ممَّا توصون بــه ﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ ما عَمِلَ مــن طاعة في الحياة خيرٌ ممَّا يوصى بســبعين، وعن عبد الله بن مســعود ﷺ قال رسول الله ﷺ: «**أيُّكم ماله أحبُّ إليه من مال وارثه**»؟ قالوا: يا رسول الله ما أحد إلَّا ماله أحبُّ إليه مــن مال وارثــه، قــال: «**اعلمــوا ما تقولون**» قالــوا: ما نعلــم إلَّا ذلك يا رسول الله، قال: «**ما منكم رجل إلَّا مال وارثه أحبُّ إليه من ماله**» قالوا كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «**إنَّما مال أحدكم ما قدَّم ومال وارثه ما أخَّر**»[1].

﴿واسْــتَغْفِرُواْ اللّهَ﴾ من ذنوبكم فإنَّكم لا تخلون منها، ولو أقمتم الصَّلاة وآتيتم الزَّكاة وأقرضتم الله قرضًا حسنًا، ولستم تخلون من تقصير ولو في حال العبادة، فقد يصدر الرياء لحظة، ويغفل عنه، وقد يصدر استشعار دخول الجنَّة بها حال عملها ولو لحظة، ويغفل عن الاســتغفار، وقد يعتدُّ بها ولم يستغفر الله. ﴿إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على العموم في المستغفرين وفي الذنوب.

والله أعلم وهو الموفِّق.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

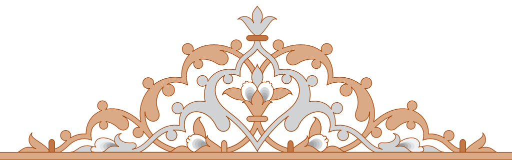


(1) رواه **ابن حبان** كتاب الزكاة باب صدقة التطوع رقم 3330 من حديث الحارث بن سويد.

74

تفسير سورة المدَّثّر

مكِّيَّة وآياتها 56 ـ نزلت بعد سورة المزمل



﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ⑦ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ⑧ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ⑨ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ⑩ ﴾

إرشادات للرسول ﷺ في بدءِ الدعوة

﴿ **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَآ أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ** ﴾ أصله: المتدثِّر كما قرأ به أُبي، أبدلت التَّاء دالاً وأدغم، مِنْ تَدثَّر بمعنى: لبس الدِّثار، وهو ما فوق الثوب الذي يلي البدن، كما قال ﷺ في مدح الأنصار أو في تفضيلهم على سائر النَّاس غير المهاجرين، أو غير قريش، أو على قريش أيضًا والمهاجرين أيضًا من وَجْهٍ: «**الأنصار شعار والنَّاس دثار**»[1]، والشعار الثَّوب الذي يلي الجلدة والشعر.

نودي ﷺ باسم من فِعْلِهِ ملاطفة ومؤانسة له على حدِّ ما مرَّ في المزَّمِّل، عن ابن عبَّاس.

---

(1) رواه **ابن ماجه** في المقَدِّمَة، فضائل الأنصار، رقم: 163، مع زيادة في آخره هي قوله: «ولو أنَّ الناس استقبلوا واديًا أو شعبا، واستقبلت الأنصار واديًا لسلكت وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار». من حديث سهل بن سعدٍ.

[سبب النزول] صنـع الوليد بـن المغيرة طعامًا لقريـش فأكلوا فقال: ما تقولون فـي هذا الرجل؟ فاختلفـوا على حدِّ ما مرَّ، ثـمَّ اتَّفقوا على أنَّه سـاحر مُؤثِّر، فحزن رسـول الله ﷺ فقنع رأسـه وتَدَثَّر، ونزلت إلى قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

قال جابر بن عبد الله: قال رسول الله ﷺ إذْ سـألته عن الآية: «**لَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي بِحِرَاءَ وقد جاورت فيها شـهرًا هبطتُّ فنوديت، فنظرت يمينًا وشمالاً وخلفًا فلم أر شيئًا فرفعت رأسـي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسـيٍّ في الهواء، ورعبت، فقلت لأهلي: دثِّروني دثِّروني، وصبُّوا عليَّ ماء باردًا، فنزلت ﴿يَآ أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَاهْجُرْ﴾**».

وفي رواية: «**لَمَّا قضيت جواري في حراء هبطت فاستبطنت الوادي...**» إلخ[1].

وعن جابر: إنَّها أوَّلُ ما نزل، ولا يصحُّ عنه هذا، فإنَّ هذه السـورة نزلت بعد سـورة المزَّمّل بثلاث سـنين، وهو وقت إرسـاله، وكان قبلها نبيئًا غير رسـول، ألا ترى إلى قوله: «**فإذا الملك الذي جاءني بحـراء**»، فإنَّه جاءه فيها فضمَّه فقال: اقرأ وأطلقه، وقال: ما أنا بقارئ، كان ذلك ثلاثًا، وفي الثالثة قال: ﴿اِقْرَأْ: بِسْـمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْرَأْ بِاسْـمِ رَبِّكَ﴾ إلى ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فجاء أهلَه فقال: زمّلوني زمّلوني.

فأوَّل ما نزل سورة اقْرَأْ، وكان إسرافيل يتعهَّدُه بكلمات، وَلَمَّا تمَّت ثلاث سنين رجع إليه جبريل وأمره بالإنذار، وهذا التدثُّر هو التزمُّل لا تدثُّر آخر.

[قلت:] ولعـلَّ الخطاب بـ﴿يَـآ أَيُّهَا الْمُزَّمِّـلُ قُمِ الَّيْلَ﴾ بعـد أن كان له أصحاب يقومون بقيامه لا في قوله: «زمّلوني»، إذ لا أصحاب له حينئذ، اللَّهمَّ إلَّا إن كان له أصحاب على الهدى قبل النبوءة، وليس هذا معروفًا.

(1) رواه **البخاري** في كتاب التفسير، باب سورة المدَّثِّر، رقم: 4640. من حديث جابر بن عبد الله.

ولعلَّ جابرًا أراد الأوَّليَّة بالإضافة إلى الإرسال بالإنذار، أي أوَّل ما نزل من الإرسال بعد فترة الوحي.

[الردُّ على الصوفية] وقيل: «المدَّثر» الغائب في حراء أو في ثيابه، أو في صورة عن الحقيقة المحمَّديَّة، أو عن أنظار الخلق، فلا يعرف حقيقته إلَّا الله تعالى، والقولان للمتشدِّقين الصوفيَّة، يُغيِّرون القرآن عن ظواهره إلى ما هو خارج عن معناها، وحقيقتُه يعلمها الله تعالى وحده كما قال في البردة:

أعيى الورى فَهْمُ معناه فليس يُرى ... للقرب والبعد فيه غيرُ منسجمٍ
كالشمس تَظهَرُ للعينيْنِ من بُعُدٍ ... صغيرةً وتُكلُّ الطرف من أُمَمِ
فمبلغ العلم فيه أنَّه بَشَرٌ ... وأنَّه خير خلق الله كُلِّهم[1]

وقيل: المدَّثِّر بالنبوءة والكمالات، وقيل: المستريح الفارغ، لأنَّه في ثلاث السنين الأولى لم يكلَّف بالتبليغ، وفي ذلك كلِّه نودي بذلك تأنيسًا.

﴿قُمْ﴾ من مضجعك، أو قم من فراغكَ، أو تشدَّد بالعزم وقم بالرسالة، وذلك قبل فرض الصلوات الخمس ﴿فَأَنذِرْ﴾ عشيرتك، لأنَّ الأقارب أحقُّ بالتقديم، كقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاَقْرَبِينَ﴾ [سورة الشعراء: 214]، أو أنذر النَّاسَ كلَّهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاس بَشِيرًا وَنذِيرًا﴾ [سورة سبأ: 28].

والمراد: أنذِرْهم العذاب إن لم يؤمنوا، ولم يقل هنا: وبشِّرِ، لأنَّ هذا مقام بدَأ لمن توغَّلوا في الكفر، فإنَّما يناسبهم التقريع، مع أنَّه لا يخلو الإنذار من التلويح إلى التبشير. ولا مانع من تقدير: «وبَشِّر» فحذف،

---

(1) الأبيات للبوصيري في بردته، والبوصيري هو شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري، ولد بدلاص ونشأ ببوصير ثم انتقل إلى القاهرة، وتعلَّم علوم العربية والأدب فقال الشعر في جده وهزله، ومن أشهر قصائده الهمزيَّة والبردة وتوفي بالإسكندرية سنة 695هـ. أحمد الهاشمي جواهر الأدب: ج 4 ص 467.

والحكمة في حذفه ما ذكرت من البدأة، ولا من تنزيله منزلة اللَّازم، أي: قد استرحت فاشرع في الإنذار.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ عن الشريك وصفات النّقص، والتقدير: واعبد ربَّك فكبِّره، فحذف المعطوف عليه، أو كبِّر ربَّك، وعلى هذا الفاء صلة، لشبه الشرط والجواب، أو يقدَّر: ومهما يكن من شيء فكَبِّر رَبَّك، وَلَمَّا حذف ذلك قدَّم «ربَّكَ»، وكذا في نظائر ذلك.

[سيرة] وَلَمَّا نزلت، قال: الله أكبر، وكبَّرت خديجة وفرحت، وعلمت أنَّه الوحي، وكانت تنتظره لِمَا تسمع به من علماء أهل الكتاب، ومن عمِّها ورقة بن نوفل والكهَّان. والشيطان لا يأمر بالتكبير.

وقدَّم تكبير الله على الجمل الآتية لأنَّه تعظيم لله تعالى، وتوحيد عن الشريك، ولا شيء قبل ذلك، وللتشجيع لرسول الله ﷺ على الإنذار، وعدم المبالاة بالنَّاس، لأنَّه أكبر من كلِّ شيء وهو يحفظه.

وعن أبي هريرة: قلنا: يا رسول الله، بم نفتح الصَّلاة؟ فنزل: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

[نقد الرواية] [قلت:] وفيه أنَّ السورة من أوائل ما نزل، وإسلام أبي هريرة بعد الهجرة بسنين ثلاث، ولعلَّه توهَّم أنَّه نزلت حين أجابه ﷺ بأن غاب مدَّة يسيرة فأجابه، أو لبث هناك مدَّة قليلة فأجابه، أو التقدير بِمَ نفتح الصَّلاة؟ فقال: إنَّه نزل فيما مضى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ عبارة عن التخلُّق بمكارم الأخلاق والأمور الدِّينِيَّة، وتجنُّب مساوئ الأخلاق والمكروهات، وما خالف الدِّين، لأنَّ من لا يرضى بتنجُّس ثيابه ودنسِها أولى أن لا يرضى بتنجُّس بدنه ودنسه، ويُقال: فلان طاهر الثَّوب، ونقيُّ الذيل، بمعنى بريءٌ من العيوب والأدناس، وفي عكس ذلك يُقال: فلان دنس الثَّوب، إذا كان فيه وصف خبيث، كالزنى والغدر، وإذا وفَّى وأصلح قيل: طاهر الثَّوب.

وإلى ذلك يرجع قول بعض: طهِّر ثيابك عن أن تكون مغصوبة أو محرَّمة بوجه مَّا، وقول قتادة: طَهِّر نفسك عن المعاصي، وقول مجاهد: أَصْلِحْ عَمَلَكَ، وكذا عن ابن عبَّاس، وعنه: تجنَّب الغدر، وقول الحسن والقرطبيِّ: حَسِّن خُلُقَك.

وقول بعض: الثيَّاب عبارة عن النَّفس، وعن ابن جبير: الثَّوب القلب، وقول بعض: الجسم، وقول بعض: طهِّر دثارات النبوءة عن أدناس الطبيعة، كالحقد وقلَّة الصبر.

[بلاغة] وذلك كلُّه كناية لا مجاز. واختير في الكناية أنَّها حقيقة يؤخذ منها معنى مُرادًا، والثوب كالشيء اللَّازم للإنسان، وهو مشتمل عليه، فحكموا به عن الإنسان، يُقال للغادر: إنَّه لَدَنِسُ الثَّوب، ويُقال: الكرم في ثوبه والعفَّة في إزاره، وإذا عفَّ الرَّجل وصَدقَ ووفَّى قالوا: هو طاهر الثِّياب.

وقيل: الثِّياب: النساء، قال الله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ [سورة البقرة: 187]، وتطهيرهنَّ بالأدب والأمر الشرعيِّ، وقيل: المراد اختيار المؤمنات العفائف، ويبعد ما قيل: المراد النَّهي عن جماع الحيض والدبر.

وقيل: تطهيرها غسلها من الأنجاس مطلقًا لا لخصوص الصَّلاة، وكان المشركون لا يبالون بالأنجاس فأمر بخلافهم.

قيل: لَمَّا ألقوا عليه ساجدًا فرث شاة ودمها رجع حزينًا فتدثَّر فنزل ﴿يَآ أَيُّهَا الْمُدَّثِّر قُمْ فَأَنذِرْ﴾ لا يمنعك سفههم عن الإنذار، وكبِّر ربَّك عن أن لا ينتقم منهم، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ عن الدَّم والفرث.

وقيل: طهِّر ثيابك عن النَّجس للصلاة، واعترض بأنَّ المقام ليس لها إلَّا ما قيل المراد بالتكبير تكبير الإحرام، ومرَّ ما فيه. وقيل: ﴿ثِيَابَكَ﴾: بدنك، اغسله من الأنجاس بحيث يشمل الاستنجاء المعهود، ويبحث بأنَّه كان في

المدينة. وقيل: اجعل ثيابك قصيرة فوق الكعب لا تنجرُّ على الأرض كما يفعل المتكبِّر، ومن لازم ذلك تنجُّسها وتوسُّخها، وفيه تكبُّر.

وقد جاء مرفوعًا: «**إنَّ إزارة المؤمن إلى أنصاف ساقيه، ولا بأس ما لم تكن تحت الكعب، وما تحته في النَّار**»[1]. أو طهِّر ثيابك للصَّلاة عن الأنجاس والأوساخ، وكان ﷺ يغسل ثيابه عن الأوساخ الظاهرة للصلاة ولغيرها، [قلت:] وفي الآية وجوب اللِّباس للصلاة ولا صلاة للعاري.

﴿**وَالرِّجْزَ فَاهْجُرْ**﴾ الرجز العذاب، عَبَّر به عن سببه وملزومه وهو المعصية، أو يقدَّر مضاف، أي: مُوجب الرِّجز، أو المراد التجوُّز بالإسناد الإيقاعي، أو المراد العذاب بلا تجوُّز، أي: اهجر العذاب بترك المعاصي، أو الأمر القبيح، أو الصنم مطلقًا، أو اسم لإساف ونائلة، أو النَّفس الأمَّارة بالسُّوء.

أو الدنيا، وقد مرَّ أنَّ الدنيا أهون على الله تعالى من ذراع خنزير ميِّتٍ بال عليه كلب في يد مجذوم، والنبيء ﷺ متَّصف بذلك الهجر، وتحصيل الحاصل لا يجوز، فالمراد: دُمْ على الهجر، أو زِدْ منه، أو الخطاب له والمراد غيره، كقولهم: «إيَّاك أعني واسمعي يا جارة».

﴿**وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ**﴾ لا تُعْطِ أحدًا شيئًا طالبًا أو طامعًا أَن يعطيك أكثر منه. والجملة حال من المستتر في «تَمْنُن»، ولا يخفى أنَّ تقديره: «لأن تستكثر» بحذف اللَّام، وأنَّ ورفع الفعل خلاف الأصل، فلا ينبغي التخريج عليه.

[فقه] وذلك حرام على النبيء ﷺ[2]، وقيل: مكروه، والصَّحيح الأوَّل، وحلال لغيره حيث لا رِبًا.

---

(1) رواه **الربيع** في كتاب الصلاة (145) باب في الثياب والصلاة فيها وما يستحبُّ من ذلك، رقم: 272. مع اختلاف في اللفظ وزيادة في آخره. ورواه **أبو داود** في كتاب اللباس، باب في قدر موضع الإزار، رقم: 4093، من حديث أبي سعيد الخدري.

(2) أي إعطاء أحد شيئا طالبا أو طامعا أن يعطيه أكثر.

ولا رجوع فيما أعطى الله تعالى على الصَّحيح، قال شـــريح: المستغزِر[1] يُثاب من هبته، ويحتمل أنَّه أراد أنَّه يُعْطَى قدر هبتــه. قال بعض: هُما ربوَانِ: رِبًا حرامٌ ورِبًا حلالٌ، فالحلال الهديَّة يهديها الرَّجل ليعطى أكثر منها، والحرام الرِّبا المنصوص عليه.

أو المعنى: لا تعــط وأنت تعتقد أنَّ ما أعطيت كثيــرٌ، فإنَّ ذلك إعجاب، ولولا بُخل في فاعل ذلك لما فعله.

أو لا تمنن بحسناتك على الله تعالى، معتقدًا كثرتها، فإنَّ ذلك مبطلٌ لها، وكذا لا يحســن لفاعل الحســنات أن يعتدَّ بها لأنَّها من الله تعالى، ولا يدري هل قبلت أو هل صحَّت.

وأمَّا مدح النبيء ﷺ: «**مَن إذا أحسن استبشر وإذا أساء استغفر**»[2] فمعناه يستبشــر طامعًا في فضل الله تعالى لا مُعْتَدًّا بها، فإنَّه يعتقد كأنَّه لم يعملها من حيث إنَّها لا تســتقلُّ في جلب نفــع أو دفع ضُرٍّ، والمعنــى: لا تضعف عن عملك بترك الزيادة قانِعًا بما صدر لك منه.

[قلت:] ومن ذلك أن يقول: دَعَوْتُهم فلم يقبلــوا، فيترك دعاءهم. ويُقال: حبل منين، أي: ضعيف.

أولا تقطع عملك مســتكثِرًا لِمَا صدر منــه، ولا تَمْنُن على أصحابك بما تُعَلِّمهم من أمر الدِّين مثل المستكثر عليهم.

﴿**وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ**﴾ على أذى المشــركين وأداء الفرائض، وعلى المصائب وعدم الاستكثار إن دعتْك إليه نفسُــك، وعلى القتال إذا فُرِضَ عليك، أوْ إنْ فُرض عليك، وسائر العباداتِ وعن الشَّهوات.

---

(1) المستغزِرُ: «الذي أهدى إليك لتكافئه وتزيده». **ابن قتيبة**: غريب الحديث، ج 3، ص 753.

(2) لم نقف على تخريجه.

وعن ابن عبَّاس: الصبر في القرآن ثلاثة: صبر على أداء الفرائض، وله ثلاثمائة درجة، وصبر عن المحارم وله ستُّمائة، وصبر على المصائب عند الصدمة الأولى، وله تسعمائة، قال ﷺ: «**أسألك من الصبر ما تهوّن به عليَّ المصائب**»[1]. قال الله ﷻ: «**إذا أصبتُ بَدَنَ عَبْدِي أو مَالَهُ أو وَلَدَهُ فصبر جميلا لم أنصَبْ لَهُ ميزانًا أو أنشر له ديوانًا**»[2].

﴿**فَإِذَا نُقِرَ**﴾ نفخ نفخة البعث على الصَّحيح، وقيل: نفخة الموت. والنفخ صوت، عبَّر عنه بسببه وملزومه، لأنَّ النَّقر الضرب على شيء ليحصل الصوت، والفاء سببيَّة، أي: اصْبر لأنَّ لهم يومًا عسيرًا ينتقم منهم فيه، وهذا ممَّا يُقَوِّي ما ذكرتُ لَكَ من أنَّ هذه السورة بعد ثلاث سنين من النبوءة، إذْ تضمَّنت التشديد على الكفرة والتسلية له ﷺ.

﴿**فِي النَّاقُورِ**﴾ فَاعُول، من النقر المعبَّر به عن مسبَّبِه ولازمه، وهو الصوت. ﴿**فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ**﴾ الإشارةُ إلى وقت النقر المعلوم من «إِذَا» لا إلى نفس «إِذَا»، والبعد لعظم الهول.

[نحو] و«يَوْمَ» توكيد لـ«ذَلِكَ» مبنيٌّ على الفتح، مثل قعد جلس زيد، كأنَّه قيل: ذلك اليوم، ولا يجوز أن يكون بدلاً، لأنَّ بدل الكُلِّ لا بدَّ أن يفيد شيئًا غير الأوَّل، كالأخوَّة في: «جاء زيد أخوك»، والزيديَّة في «جاء أخوك زيد». أو متعلِّق بمحذوف حال من «يَوْمَ» على سبيل التجريد، كأنَّه تولَّد منه يوم آخر لشدَّته، أو على أنَّ العامَّ كلٌّ لجزئه وظرفٌ له، بمعنى أنَّه بعض منه، كما تقول: يوم عاشوراء في المحرَّم، بمعنى أنَّه جزء منه.

---

(1) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره مج 10، ص 150. بدون أن يخرِّجه ولا أن يذكر سنده.

(2) أورده **الزبيدي** في الإتحاف، ج 9، ص 27. كما أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره، مج 10، ص 150. وأوَّل الحديث عندهما هو قوله: قال الله تعالى: «إذا وجَّهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثمَّ استقبل ذلك بصبر جميل...» بدون تخريج ولا سند.

[نحو] أو يومئذ في محلِّ رفع خبر للتعظيم، كما تقول: زيد هو زيد، و«أنا أبو النجم وشعري شعري». وقد حمل على ذلك حديث: «**من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله**»[1]. فـ«يَوْمٌ» بعده بدلٌ أو خبر ثانٍ.

﴿**يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ متعلِّق بـ«عَسِيرٌ»، ﴿**غَيْرُ يَسِيرٍ**﴾ نعت مؤكِّد لمنعوته، وهو «يَوْمٌ عَسِيرٌ» كأنَّه قيل: يوم عسير على الكافرين غير يسير عليهم، يُعطَوْنَ كتبهم في شمائلهم، وتسودُّ وجوههم، ويُعذَّبون. ولا حاجة إلى تعليقه بـ«يَسِير» مع ما فيه من تقديم معمول المضاف إليه على المضاف، ولو أجازه بعض في «غَيْرَ» تنزيلا لها منزلة «لا» النافية، حيث قيل: لا صدر لها إذا لم تعمل عمل لَيْسَ ولا عمل إن.

[قلت:] وعلى كلِّ حال أشارت الآية إلى أنَّه لا عسر يومئذ على المؤمنين، ولو كانت تصيبهم شدَّة هي دون العسرة.

وعن بهز بن حكيم صلَّى بنا زرارة بن أوفى فقرأ: ﴿يَآ أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ وَلَمَّا بلغ ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ خَرَّ مَيِّتًا فكنت فيمن حمله[2].

وعن ابن عبَّاس: لَمَّا نزلت ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم الصور؟ وحنى جبهته يستمع متى يؤمر**» قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: قولوا: «**حسبنا الله ونعم الوكيل وعلى الله توكَّلنا**»[3].

---

(1) رواه **البخاريُّ** في كتاب بدء الوحي (1) باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ. رقم: 1. ورواه **الترمذيُّ** في كتاب فضائل الجهاد (16) باب ما جاء فيمن يقاتل رياء وللدنيا. رقم: 1647. وأوَّل الحديث قوله ﷺ: «إنَّما الأعمال بالنِّيات، وإنَّما لكلِّ امرئ ما نوى...»، من حديث عمر بن الخطَّاب.

(2) رواه **الحاكم** في المستدرك، كتاب التفسير (74) باب تفسير سورة المدثِّر، رقم: 3871. من حديث بهز بن حكيم.

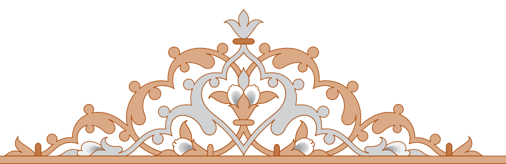
(3) أورده **السيوطيُّ** في تفسيره، ج 6، ص 313. وقال: أخرجه ابن أبي شيبة والطبرانيُّ وابن مردويه. كما أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره، مج 1، ص 152. من حديث ابن عبَّاس.

ولفظ «عَسِيرٌ» يغني عن ذكر «غَيْر يَسِــيرٍ»، ولكن ذكر «غَيْرُ يَسِيرٍ» تأكيدًا، كقولك: أنا محبٌّ لــك غير مبغض، أو ذُكِرَ على معنى أنَّه غير يســير كما هو يسير على المؤمنين.

[قصص] لَمَّا جمع أدفنــوش[1] لعنه الله ﷻ جموعًا كثيــرة لملاقاة أمير المؤمنين يوسف بن تاشــفين[2] الذي دخل أندلس للجهاد، قال مُعجَبًا بحاله: أقاتل بهذا الجيش ربَّ محمَّد والإنس والجــنَّ والملائكة، ورأى في نومه أنَّه ركب فيلاً وفي يده طبل صغير يضرب فيه، فلم يعرف قسّيسوه تأويلها، فسأل موحِّدًا فاســتعفاهُ فأبى، فقال: تهلكون لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ مع قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِــيرٍ﴾ فكانت الدَّائرة عليه كما عُبِّر، وفيها طُعن طعنةً أعرجته إعراجًــا لازمًا له بقيَّة عمــره إلى أن مات هَمًّــا وحزنًا لقتل أمير المســلمين يوسف بن تاشفين ابنه، ولقتل عساكره إلى جهنَّم ودار الذُّلِّ.

(1) هو الفونس السادس، وقد تغلَّب عليه أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين في المعركة الأخيرة بالقرب من بطليوس بعد أن استفحل أمره، وتعرف هذه المعركة الفاصلة بالزلاقة.

(2) تقدَّم التعريف به في ج 6، ص 31.



﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا (17) إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30)﴾

تهديد زعماء المشركين

﴿**ذَرْنِي وَمَن خَلَقْتُ وَحِيدًا**﴾ حال من الياء، ذرني وحدي معه، فإنِّي أكفيك في الانتقام منه، أو من التاء، أي: لم يشركني في خلقه أحد، فهو في قبضتي أهلكه بلا حاجة إلى معين لي، أو من «مَن» أو من ضميره المحذوف، أي: خلقته منفردًا عن المال والولد والرئاسة. وهو الوليد بن المغيرة على الصَّحيح، وقيل: إجماعًا.

[قلت:] وذلك ممَّا يؤيِّد قولي: إنَّ السورة هذه نزلت بعد ثلاث سنين، لأنَّ شأن الوليد وأحواله ليست أوَّل الوحي، وكان يلقَّب في قومه بالوحيد لانفراده عنهم بالأموال والأولاد واستحقاق الرئاسة، فتهكَّم الله ﷻ عليه بلفظ «وحيد» على أنَّه حال من «مَنْ» أو الهاء المقدَّرة، أو بصرفه إلى الوحدة العظيمة في الخبث أو إلى الوحدة من أبيه إذْ كان دعيًّا.

﴿**وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا**﴾ مبسوطًا أو مزيدًا تستمرُّ زيادته، وعن النعمان بن بشير: المال الممدود الأرض، لأنَّها مُدَّت، والصحيح العموم.

وقد قيل: له الضرعُ والزرعُ والتجارةُ والإبلُ والبقر والجنان والعبيد والجواري والخيل، في مكَّة والطائف وما بينهما، وله بستان في الطائف لا تنقطع ثماره صيفًا ولا شتاءً.

وعن عمر رضي الله عنه: إنَّه المال المستغلُّ شهرًا بعد شهرٍ، وذلك مدٌّ لا انقطاع له. وعن ابن عبَّاس: له ألف دينار، وعن قتادة: ستَّة آلاف دينار، وقيل: تسعة آلاف مثقال فضَّة، وعن سفيان الثوريِّ: أربعة آلاف درهم، وعنه: ألف ألف درهم.

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ حضورًا معه في مكَّة يتمتَّع بهم لاستغنائه عنهم في العمل لوجود الخَدَمةِ، وحضورًا في المجامع لوجاهتهم، أو تسمع شهادتهم فيما يتحاكم فيه، وهم عشرة عند مجاهد، وقيل: ثلاثة عشر، وقيل: سبعة، الوليد بن الوليد وخالد وهشام أسلموا، والعاصي وقيس وعبد شمس وعمارة قتل يوم بدر كافرًا أو قتله النَّجاشيُّ لجناية في حرمه، ولم يصحَّ ما روي من إسلامه.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ كفراش على فراش بالجاه والرئاسة والجمال وطول العمر حتَّى إنَّه يلقَّب بريحانة قريش، واجتماع المال والجاه هو الكمال عند أهل الدنيا. وعن ابن عبَّاس وسَّعت له ما بين اليمن والشَّام.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنَ اَزِيدَ﴾ له مالاً وولدًا وتمهيدًا على ما هو له في الدنيا، أو أزيد له الجنَّة في الآخرة، لِمَا روي أنَّه قال: إنْ كان محمَّد صادقًا فما خلقت الجنَّة إلَّا لي.

و«ثُمَّ» للاستبعاد، فإنَّه في غنًى تامٍّ لا مزيد له في شأن مثله، وإنَّه في كفر النِّعمة يستحقُّ النَّقص لا الزِّيادةَ، ومثل ذلك الاستبعاد قولُك: تسيء إليَّ ثمَّ ترجو إحْساني؟ وليس خارجًا عن التفاوت الرتبيِّ كما قال بعض: نُزِّل البعدُ المعنويُّ منزلة البعد الزمانيِّ.

﴿**كَلَّآ**﴾ لا تطمع، وكأنَّه قيل: لِمَ قطع رجاءه؟ فقال تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا**﴾ معانِدًا لأدلَّة التوحيد وآيات القرآن والعناد يمنع الزيادة، وقد قيل: إنَّه عالم بأنَّ الحقَّ مع النبيء ﷺ وجحد بلسانه، فما زال ـ بعد نزول الآية كما قال مجاهد ـ في نقص من مَاله وولَدِه حتَّى هلَكَ. فذلك جزاؤه في الدنيا، وأمَّا الآخرة ففي قوله تعالى:

﴿**سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا**﴾ سأجعله غاشيًا عقبة شاقَّة المصعَدِ، كثيرة الارتفاع، وأكلِّفه صعودَهَا، فعن الكلبيِّ: الصعود: صخرة يصعدها في أربعين خريفًا لا ينفَّس له، يجبذ من قدَّامه بسلاسل، ويضرب من خلفه بمقامع.

وقال أبو سعيد الخدريُّ: قال رسول الله ﷺ: «**الصَّعُود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفًا، ثمَّ يهوي فيه كذلك أبدًا**»[1]. وعنه ﷺ: «**يكلَّف أن يصعد عقبة من النَّار، كلَّما وضع عليها يده ذابت، فإذا رفعها عادت، وإذا وضع قدمه ذابت، وإذا رفعها عادت**»[2].

وكأنَّه قيل: لِمَ هذا الوعيد؟ فأجاب بقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ**﴾ وفيه أنَّه لا عاقل يقول: لِمَ هذا العذاب بعد أن سمع أنَّه كان لآياتنا عنيدًا، **فالتحقيقُ أنَّ هذا بيان لعناده**. وقيل: بدل من الجملة قبله بَدَلَ بعضٍ، لأنَّ هذه بعض من العناد، والمراد: فكَّر في نفسه ما يقول في القرآن ومحمَّدٍ، وقَدَّر في نفسه ما يقول.

﴿**فَقُتِلَ**﴾ بسبب التفكُّر والتقدير المذكورين، وذلك ذَمٌّ على ظاهره، أي: لُعِنَ، كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [سورة البروج: 4]، وقوله ﷻ:

---

(1) رواه **الترمذيُّ** في كتاب تفسير القرآن، (71) باب ومن سورة المدَّثر، رقم: 3326. و**الحاكم** في المستدرك، كتاب التفسير (74) باب تفسير سورة المدَّثر، رقم: 3873. وأوَّل الحديث عنده قوله ﷺ: «الويل واد في جَهَنَّم...» إلخ، من حديث أبي سعيد.

(2) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره، مج 10، ص 154. و**السيوطي** في الدر، ج 6، ص 314. وقال: أخرجه عبد الرزَّاق وسعيد بن منصور والفرابي وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن المنذر والطبرانيُّ وابن مردويه والبيهقيُّ. من حديث أبي سعيد بنفس المعنى وزيادة.

﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُوفَكُونَ﴾ [سورة التوبة: 30]، وقيل: عُذِّب. ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ استفهام تعجيب من موافقته ما تقصد قريش.

[بلاغة] أو ظاهره ذَمٌّ، والمراد مدحٌ تَهَكُّمًا، نحو: قاتله الله ما أشجعه، وأخزاه ما أشعره. وأصل هذا الباب أنَّ الإنسان إذا بلغ في الوصف مبلغًا عظيمًا يستَحِقُّ أن يدعو عليه حاسدُه بالسوء. أو حكاية لِمَا قالته قريش عند سماعهم كلام الوليد في شأن القرآن، والرسولِ ﷺ، وهو قوله: «إنَّه سحر يؤثَر».

[سيرة] جاء إلى النبيء ﷺ فقرأ عليه القرآن فرقَّ له، وقال له أبو جهل: يا عمُّ إنَّ قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، فإنَّك أتيت محمَّدًا تريد أن تصيب ممَّا عنده، فقال: «قد علموا أنِّي أكثرهم مالاً»، قال: فَقُلْ قولاً يعلمون أنَّك كاره له، فقال: «والله ما فيكم أعلم بشعر الإنس والجنِّ أو الرجز منِّي، وما يقوله محمَّد لا يشبه ذلك، وإنَّ له لحلاوة وطلاوة، مثمر الأعلى مُغْدِقُ الأسفلِ، يعلو سواهُ ويحطِّمه».

وذهب إلى منزله ولم يرجع إليهم فقال: لا يرضون عنك حتَّى تقول فيه، فقال: دعني حتَّى أفكِّر، ففكَّر فقال: ما هو إلَّا سحر يؤثر، فعجبوا.

ويروى أنَّه لَمَّا نزل ﴿حم﴾ إلى ﴿الْمَصِيرُ﴾ [أوَّل سورة غافر] قرأها النبيء ﷺ في المسجد مصلِّيًا، وَلَمَّا علم أنَّ الوليد يسمع أعادها، فذهب إلى مجلس قومه بني مخزوم، فقال: «سمعت من محمَّد كلامًا ليس من كلام الإنس أو الجنِّ، وإنَّ له لحلاوة...» إلى آخر ما مرَّ، فقال قريش: صَبَأ الوليدُ، والله لتصبأنَّ قريش كلُّها، فقال أبو جهل: أكفيكموه.

فجلس إليه حزينًا، فحرَّك منه ما سكن بأن قعد متحزِّنًا، فقال له الوليد: ما لك يا ابن أخي حزينًا؟ فقال: ما لي لا أحزن وقد صبأت إلى محمَّد وابن أبي قحافة في آخر عمرك، لتصيب من فضلة طعامهما، وهكذا عند قريش.

فقال: قد علموا أنّي أكثرهم مالاً وهل يَشبَع محمَّد وابن أبي قحافة حتَّى تبقى لهما فضلة؟ فأتاهم الوليد فقال: تقولون محمَّد مجنون فهل رأيتموه يخنق؟ وتقولون: كاهن، فهل رأيتموه يتكهَّن؟ وتقولون: إنَّه شاعر، فهل رأيتموه يتعاطى شعرًا؟ وتزعمون أنَّه كاذب، فهل جرَّبتم عليه كذبًا قطُّ؟ وفي كلِّ ذلك يقولون: اللَّهمَّ لا، وكانوا يسمُّونه قبل النبوءة الأمين لصدقه، قالوا: فما هو؟ ففكَّر فقال: ما هو إلَّا ساحر يأثر السِّحر من مسيلمة وأهل بابل، أما رأيتموه يفرِّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ فتفرَّقوا معجبين بهذا الكلام منه. [قلت:] وليس معتقدًا أنَّه سحر، لكن أرضاهم بذلك كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [سورة النمل: 14].

﴿**ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ**﴾ تعجيب أبلغ من الأوَّل بدليل «ثُمَّ»، كأنَّه قيل: قتل بأشدِّ نوع من القتل، أو عذِّب، أو الأوَّل في شأن الشعر والثاني في شأن الكهانة، لأنَّه ولو نفاهما لكن ليثبت غيرهما من السحر، والتعجيبُ به تعجيبٌ بهم، والتهكُّم به تهكُّمٌ بفرحهم بما قال.

وقيل: قُتِلَ على أيِّ حال قَدَّر من الكلام، فلا تكرير، ويجوز أن يكون ذلك تكريرًا لذَمِّه كُلَّما فعل، ولو عشرًا أو أكثر كلَّما فَعَلَ لُعِنَ، فـ«ثُمَّ» لترتيب الزمان أو مع الرتبة.

﴿**ثُمَّ**﴾ لترتيب الزمان والتراخي، وكذا فيما يأتي. ﴿**نَظَرَ**﴾ فكَّر مرَّةً أخرى في أمر القرآن، أو نظر في وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو في وجوه القوم. ﴿**ثُمَّ عَبَسَ**﴾ قَطَّبَ وجْهَهُ إذ لم يجد مطعنًا، أو قطَّب في أوجه القوم، أو في وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ﴿**وَبَسَرَ**﴾ تَعَجَّل بالعَبْس قبل أوانه، والبسر الاستعجال بالشيء قبل وقته، وقيل: اشتدَّ عبسُه.

﴿**ثُمَّ أَدْبَرَ**﴾ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو عن الحقِّ الذي فيه الكلام وهو القرآن، أو زاد إدْبارًا عن الحقِّ مطلقًا. ﴿**واسْتَكْبَرَ**﴾ عن الحقِّ واتِّباع محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿فَقَالَ﴾ كلامًا آخر، وهذا تفسير للإدبار. ﴿إِنْ هَـٰذَآ﴾ أي: القرآن. ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُوثَرُ﴾ يُروَى عن مسيلمة أو عن أهل بابل، أو يُختَار ويرجَّح على غيره من السحر. ﴿إِن هَذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ يَسار وجَبْر يُعلِّمانه.

والسحر يكون قول بشر وغير قوله كقول الجنِّ، وقول البشر يكون سحرًا وغير سحر، فهذه الجملة ليست عين الأولى، فليست توكيدًا لها محْضًا بل تتضمَّنه، إذ المرادُ بكلِّ واحدة نفي كونه قرآنًا من الله.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ وعيد على قوله: ﴿سِحْرٌ يوثَرُ﴾ وقوله: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ وعيدٌ على عناده في الآيات، أعني أنَّه مرتَّب عليه ولو شمل العناد قوله: «سحرت» أو كلتا الجملتين وعيد على الإطلاق.

[نحو] ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ الثانية بدل اشتمال من الأولى، معلِّلاً بأنَّ «سَقَرَ» مشتملة على الشدائد وعلى الجبل، لأنَّا نقول: الاشتمال يكون في المبدل منه على البدل كاشتمال زيد على العلم في «أعجبني زيد علمُه» لا العكس.

ذكر البشر هنا وفي قوله: ﴿ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [سورة المدَّثر: 31]، بمعنى النَّاس أو الإنسان، وذكره فيما بينهما بمعنى الجِلد، ففي ذلك جناس تامٌّ لفظيٌّ وخطِّيٌّ. وإن أريد بالذي بينهما النَّاس أو الإنسان فلا جناسَ، والجمهور على أنَّه الجلد.

[نحو] ﴿وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ مبتدأ وَ«مَا» خبره، كذا أقول في مثل هذا، لأَنَّ المراد: سقر ما هي؟ لا أيُّ شيء هو سقر؟ وسيبويه يعكس والمراد: ما حالها؟ بدليل قوله ﷻ:

﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ لأنَّ هذا جواب بالوصف لا بالذات وكأنَّه قيل: ما أدراك ما حال سقر؟ فأجاب بأنَّ حالها أنَّها لا تبقي شيئًا ألقي فيها إلَّا أهلكَتْهُ، ولا تذر ما أهلكت بلا عودٍ، بل يعود، وإسناد عدم الترك بلا عودٍ إليها من الإسناد إلى المكان، وحقيقته لله تعالى.

أو لا تبقيه كُلَّه بلا إحراقٍ ولا تحرقه كلَّه بل يبقى القلب، ولا تبقي شيئًا فيها إلَّا أهلكته، وإذا عاد لم تتركه بلا عذاب، بل تعذِّبه كأوَّل مرَّة، قيل: لكلِّ شيء فترة وملالة إلَّا جهنَّم. وفيه أنَّ الملائكة لا تفتر عن التسبيح.

وقيل: لا تبقي أحدًا من أهلها بلا دخول، ولا تذر أحدًا ممَّن دخلها بلا تعذيب، وقيل: لا تبقي من فيها حَيًّا ولا تذر ميِّتًا كقوله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [سورة الأعلى: 13]، أي: كُلَّما احترقوا جدِّدوا. وعن السُّدِّيِّ: لا تبقي لحمًا ولا تدع عظمًا، ووجهه أنَّ اللَّحم قبل العظم، وقيل: ﴿لَا تَذَرُ﴾ توكيد لقوله: ﴿لَا تُبْقِي﴾ والجملة مستأنفة.

﴿**لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ**﴾ أي: هي لوَّاحة للنَّاس، أو للإنسان، أو للجلود، والجلد الواحد بشرة، والمعنى: مغيِّرة لظاهر الجلود بالتسويد، وبعد ذلك تهلكهم، ولا بأس بذكر التغيير بعد ما ذكر ما هو أعظم وهو الإهلاك، لأنَّ المراد ذكر أوصافها، ولا سيَّما إن قلنا: التغيير عند القرب منها، والإهلاك بعد، ثمَّ إنَّهم لا يخلون عن لون كلَّما هلكوا وعادوا، وذلك اللَّون هو السَّوادُ بها حتَّى إنَّهم لأشدُّ سوادًا من اللَّيل. يُقال: لاحه يلوحه إذا غيَّره.

أو ﴿لَوَّاحَةٌ﴾: ظاهرة ظهورًا عظيمًا للنَّاس، أو للإنسان، كقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [سورة النازعات: 39]. وجاء أنَّها تظهر لهم من مسيرة خمسمائة عام، تُجَرُّ بسبعين ألف زِمَام مع كلِّ زمام سبعون ألف ملك.

﴿**عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ**﴾ الأصْلُ في العدد عند الإطلاق الصرفُ إلى الأفراد لا إلى المئات أو الآلاف، إلَّا بدليل، فـ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ملكًا خازنًا قائمًا عليها، وأَمَّا المعذِّبون لأهلها فلا يحصي عددهم إلَّا الله تعالى. وهم أقوياء يسوق أحدهم أمَّة من النَّاس، وعلى رقبته جبل يرميهم في النَّار ويُلقي عليهم الجبل.

قال أبو جهل: سمعت أنَّ محمَّدا يقول: إنَّ خزنة النَّار تسعة عشر رجلاً أيعجز كلُّ عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم؟ فقال له أبو الأشَدِّ أسيد بن

كلدة الجمحي، وكان شديدًا: أنا أكفيكم سبعة عشر، عشرةً على ظهري وسبعة على بطني فاكفوني أنتم اثنين، وعنه: أدفع عشـرة بمنكبي الأيمن، وتسـعة بالأيسر عن الصِّراط فنمضي إلى الجنَّة.

وقيل: تسعة عشـر صفًّا، وقيل: تسعة عشـر صنفًا، ويردُّهما حديث أبي جهل إذ سـمع النبيء ﷺ به، ولم يخبره أنَّهم صفوف أو أنـواع، وكذا كلام الجمحي، ويردُّهما أيضًا أنَّه عاب عليهم اسـتقلالهم بقوله ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ افتتنـوا بقلَّة عددهم وبتوهُّم أنَّهم يلون عذاب أهل النَّار بأنفسـهم، وليس كذلك، فإنَّ التسـعة عشـر رقباء علـى الزبانية المعذِّبين لأهلها.

[ما المراد بتسعة عشر] وحكمة التسـعة عشـر، فيما قيل ـ والله أعلم ـ الحـواسُّ الخمـس الظاهرة، والخمـس الباطنة، والقـوَّة الباعثـة كالغضبيَّة والشـهويَّة، والقوَّة المحرِّكة، فهذه اثنا عشـر، والطبعيَّة السبع، وهنَّ الثلاث المخدومة، القـوَّة النَّامية، والغاديـة والمولِّدة، والأربـع الخادمة، الهاضمة والجاذبة والدَّافعة والماسكة.

أو جهنَّم سبع: سـتٌّ للمشـركين يعذَّبون بثلاث: الاعتقاد، وترك القول، وترك العمل، أنواعًا من العذاب، والثلاث في الستِّ بثمانية عشر، لكلِّ صنف ملائكة يعذِّبونها وهم ثمانية عشر صنفًا، وواحدة لعصاة الموحِّدين لهم صنف من الملائكة يعذِّبونهم بترك العمل نوعًا يناسبه.

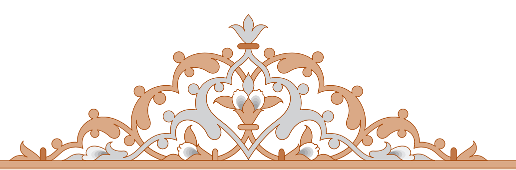
قيـل: إنَّ السـاعات أربع وعشـرون، خمس للصلاة لـم يخلق في مقابلتها زبانية لبركة الصَّلاة الشاملة لمن لم يصلِّ، فتبقى تسعة عشر، أو لأصناف المشـركين سـتُّ دركات، وناسـب أنَّ صنفًا من الملائكة في الوسـط واثنان في الطرفين، وذلك بالضرب ثمانية عشر، وبقيت واحدة للعصاة الموحِّدين.

أو إنَّ العدد قليل من الواحد إلى التسعة، وكثير من العشرة إلى ما لا نهاية له فجمع بين نهاية القليل وهو تسعة، وبدأة الكثير وهو عشرة، فالعدد جامع بين أكثر القليل وأقلِّ الكثير.

ويُقال: ستَّة يقودونهم إلى النَّار وستَّة يسوقونهم، وستَّة يضربونهم، والتاسع عشر مالك خازن النَّار، وقيل: فيها تسعة عشر دركًا على كلِّ درك ملك، وقيل: تسعة عشر لونًا من العذاب لكلِّ لون ملك، **والله أعلم بحقيقة الأمر**[1].

(1) انظر تفسير مفاتح الغيب **للرازي**، ج 8، ص 358 وروح المعاني **للآلوسي**، ج 9، ص 223.





﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (31) كَلَّا وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (34) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (36) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37)﴾

عدد خزنة جهنَّم وامتحان الخلق بعدهم

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ القائمين عليها الذين هم تسعة عشر، أعينهم كالبرق الشديد، وأنيابهم كالقرون، يخرج اللَّهب من أفواههم بين كتفي أحدهم مسيرة سنة، يدفع أحدهم في النَّار سبعين ألفا دفعة واحدة، قال عمرو بن دينار يدفع مرَّة أكثر من ربيعة ومضر[1].

﴿إِلَّا مَلَآئِكَةً﴾ غير جنس الإنس والجنِّ، لئلَّا يستريح أصحاب النَّار المعذَّبين بها إليهم لو كانوا من جنسهم، ولأنَّ ذلك أبعد من أن ترقَّ قلوبهم على المعذَّبين بالنَّار، ولو جعلهم من جنسهم لجعلهم لا يرقُّون عليهم، ولأنَّ الملائكة أقوى الخلق، ولأنَّهم أشدُّ غضبًا لله ﷻ، لأنَّهم أعرف بحقِّ الله.

(1) الله أعلم بصحَّة هذه التفاصيل التي لم تَرِدْ في قطعيِّ الثبوت والدلالة من القرآن ولا السُّنَّة. (المراجع).

[بلاغة] ومقتضى الظاهر: وما جعلناهم إلَّا ملائكة بالهاء عائدة إلى تسعة عشر، لكن أظهر ليصفهم بصحبة النَّار تنبيهًا على أنَّهم قائمون بها. ولا يخفى من تعميم العذاب والكفرة أنَّ المراد بـ«سَقَر» طبقات النَّار كلُّها لا خصوص طبقة تسمَّى «سَقَر».

﴿**وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ**﴾ وهي تسعة عشر ﴿**إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾ باستقلالهم واستهزائهم بهم كما مرَّ. والمعنى: خلقناهم تسعة عشر ليصل خبرهم الكفَّار فيفتتنوا.

أو المراد بالجعل الإخبار، وقيل الأصْل: وما جعلنا عدَّتهم إلَّا تسعة عشر، فعبَّر بالمسبَّب وهو الفتنة عن السبب وهو العدد.

وفيه أنَّه لا فائدة في قولك: وما جعلنا عدَّتهم إلَّا تسعة عشر للذين كفروا، بعد قوله: عليها تسعة عشر، فضلاً عن أن يُقال: هو الأصل، ولا كبير فائدة في التنبيه على عدم التخلُّف المذكور، وقيل أيضًا: تنبيهًا على عدم تخلُّف المسبَّب عن سببه هنا.

﴿**لِيَسْتَيْقِنَ**﴾ بنبوءة محمَّد ﷺ ورسالته ﴿**الذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ**﴾ اليهود والنَّصارى و﴿الكِتَابَ﴾ التوراة والإنجيل والزَّبور والصحف، وكلُّ كتاب نزل قبل نبيء فقد أوتيه هُو وأمَّتُهُ. واللَّام متعلِّق بـ«جَعَلْنَا»، أي: حصرنا عِدَّتهم من حيث الإخبار بها في الفتنة لِيَسْتَيْقِنَ الذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ، وذلك أنَّه ذُكر في التوراة والإنجيل أنَّ الله تعالى يبعث نبيئه محمَّدا ﷺ ويخبره بعددهم فيفتتن به قومه، فيكون ﷺ قد أخبر بما في كتبهم فيوقنوا برسالته.

[نقد إعراب] وقدَّر بعض: فعلنا ذلك ليستيقن، وبعض عطف «لِيَسْتَيْقِنَ»، على «لِلذِينَ كَفَرُوا» بحذف العاطف ولا يقبل هذا، وأولى في هذا المعنى أن يجعل «لِيَسْتَيْقِنَ...» إلخ بدل «فِتْنَةً» إذْ تضمَّنت فتنتهم استيقان أهل الكتاب إذ ذكرت في كتابهم علامة لرسالته، وبدل الاشتمال قد يستعمل بلا رابط، كما هنا.

وقد يُقال: إيجادهم تسعة عشر علَّة للاستيقان، لأنَّ الإيجاد سبب للإخبار، والإخبار سبب للاستيقان، فهو سبب بعيد لكن فيه تكلُّف.

وقيل: المراد بأهل الكتاب اليهود، لأنَّ اليهود سألوا رجلاً من أصحاب النبيء ﷺ عن خزنة جهنَّم، فقال: الله ورسوله أعلم، فأخبر الرجل النبيء ﷺ، فنزل في حينه ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ والسورة مَكِّيَّة فلعلَّ الرجل لقي اليهود في سفر أو في المدينة أو دخل اليهود مكَّة، لأنَّهم قد يدخلونها قبل الفتح وقبل الهجرة.

﴿**وَيَزْدَادَ الذِينَ ءَامَنُواْ إِيمَانًا**﴾ من غير أهل الكتاب، وإن كان قد آمن بعض أهل الكتاب قبل نزولها دخل هنا. ﴿**وَلَا يَرْتَابَ الذِينَ أُوتُواْ الكِتَابَ وَالْمُومِنُونَ**﴾ تأكيد لما قبل هذا من ازدياد الإيمان والاستيقان، ونفيٌ لأن تبقى شبهة أو تحدُث.

ولم يقل: ويزداد الذين آمنوا إيمانًا ولا يرتابوا، وليقول الذين في قلوبهم مرض بردِّ واو «يَرْتَابُوا» إلى أهل الكتاب والمؤمنين، لأنَّ نفي الارتياب عن أهل الكتاب مقابل لجحودهم، ونفيه عن المؤمنين مقابل لإيمانهم، ولئلَّا يتوهَّم رجوع الواو إلى المؤمنين، فقط لقرب ذِكرهم.

﴿**وَلِيَقُولَ الذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**﴾ شكٌّ أو نفاق على أنَّ السورة كلَّها مَكِّيَّة، فيكون ذلك إخبارًا بالغيب بأنَّه سيكون النفاق في المدينة، أو هذا مدنيٌّ جعل في سورة مَكِّيَّة، ولا مانع من أن يكون في أهل مكَّة قبل النزول من قرب من الإسلام فشكَّ. ﴿**وَالكَافِرُونَ**﴾ المصرُّون على الشرك بلا شكٍّ في الوحي، في مكَّة أو في المدينة.

[نحو] ﴿مَاذَآ﴾ اسم واحد مركَّب مفعول به لـ«أَرَادَ» من قوله: ﴿**أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً**﴾ أو مبتدأ وخبر، وما بعده صلة «ذَا»، والرابط محذوف، أي: أراده، و«مَثَلاً» تمييز أو حال.

والمراد أنَّ هذا العدد مستغرب استغراب المثل. أو المراد ما شُبِّه مضربه بمورده بأن يكون قد عدُّوهُ مثلاً لاستغرابه ونسبوه إلى الله تهكُّمًا. والإشارة للتحقير.

وغرضهم نفيُ أن يكون ذلك من الله تعالى على أبلغ وجه، وأفرد قولهم «هَذَا» بقوله «وَلِيَقُولَ» مع أنَّه من فتنتهم للإشعار باستقلاله في الشناعة.

وروي أنَّ أبا جهل قال: أما لربِّ محمَّد أعوان إلَّا تسعة عشر؟ فقال الله ﷻ مع هؤلاء التسعة عشر جنودٌ للتعذيب لا يعلمها إلَّا الله ﷻ، وأعيد اللَّام للفرق بين العلَّتين لأنَّ مرجع الأولى بالهداية وهي مقصودة بالذات، ومرجع هذه الضلال المقصود بالعرض الناشئ من سوء اختيار الضالِّين.

﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ قيل: قدِّم للحصر. ﴿**يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَّشَآءُ وَيَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ**﴾ يضلُّ الله من يشاء إضلاله، ويهدي من يشاء هدايته عند مشاهدة الآيات بحسب اختيارهما، إضْلالاً وهِداية ثابتين كإضلال مَن ذُكر، وهداية من ذكر، لا غيرهما على أنَّها اسم.

﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ**﴾ مخلوقاته التي تشبه حصون القتال، وناسب ذلك أنَّ الملائكة مسلَّطون في النار على أعداء الله ﷻ، وذلك قيل من الجَنَد، وهي الأرض الغليظة التي فيها الحجارة. أو المراد مطلق جُموع خَلْقه، ومنها ملائكته المذكورون. وعلى كلِّ حال لا يعلم أنواعها وأفرادها وأحوالها وصفاتها ﴿**إِلَّا هُوَ**﴾ ﷻ.

قال أبو جهل: أما لربِّ محمَّد أعوان إلَّا تسعة عشر؟ فنزلت، كما مرَّ، فالظاهر أنَّ المراد العدد فقط، لأنَّ كلامه لعنه الله ﷻ فيه، لكن لا مانع من الزيادة في الجواب، بل قد تستحسن، وقد تكون لا بدَّ منها.

[قلت:] وأكثرُ الخلق الملائكة، قال رسول الله ﷺ: «**أَطَّت السَّماء وحُقَّ لها أن تَئِطَّ ما فيها موضع قَدَمٍ إلَّا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد**»[1]، أي: صاتَتْ بثقل الحمل وذلك كناية. والمراد أنَّه لم يفرغ منها قدرُ قدمٍ، ففي موضع كُلِّ قدمٍ ملك عدد أقدام مثلاً يصدق عليها أنَّ فيها ملكًا[2]، ويحتمل أنَّها تنطوي حتَّى يكون في مقدار قدم واحد ملك.

ويُقال: مخلوقات البَرِّ عُشُر مخلوقات البحر، والمجموع عشر مخلوقات الجوِّ والمجموع عشْرُ ملائكةِ السَّماء الأولى، والمجموع عُشُرُ ملائكة السَّماء الثانية، وهكذا. والمجموع عُشُر ملائكة الكرسيِّ، والمجموع عشر ملائكة الحافِّين بالعرش، والمجموع أقلُّ قليل بالنسبة إلى الملائكة الهائمين الذين لا يعلمون أنَّ الله تعالى خلق سواهم، والمجموع أقلُّ قليل بالنسبة إلى ما لا يعلمه إلَّا الله تعالى و ﷻ.

﴿**وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ**﴾ تذكرة ﴿**لِلْبَشَرِ**﴾ كلَّما ذُكر الإنسُ فالجنُّ مثلُهم إلَّا ما لم يمكن. والعطف على «سَأُصْلِيهِ سَقَرَ» والضمير لـ«سَقَرَ»، فإنَّ ذكرَهَا عظةٌ للكافرين والفاسقين على كفرهم وفسقهم، ولا سيما قد ذُكِر صفاتُها وأحوالُها، وقيل: للآيات الناطقة بأحوال سقر، وقيل: لعدَّة خزنتها، وقيل: للجنود.

﴿**كَلَّا وَالْقَمَرِ**﴾ ردع عن إنكار سَقَرَ، وقيل: عن قول أبي جهل ونحوه بمقاومة الملائكة التسعة عشر، وفيه أنَّه ليس في الآية ذكر ادِّعاء مقاومتهم، وإنَّما هي ردع عن إنكار سقر أو مع إنكار التسعة عشر، أو عن إنكار ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾، وقيل: صلة للقسم بعدها، كأنَّه قيل: احذر المخالفة، وقيل: حرف تأكيد واستفتاح، وقيل: بمعنى حقًّا.

---

(1) تقدَّم تخريجه، انظر: ج 8، ص 224.

(2) كذا في النسخ، ولم يتضح لنا المراد. تأمَّل.

﴿وَالَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ أي: إذا يدبر، والماضي بمعنى المستقبل بعد أدوات الشرط، وإدبارُه ذهابُه. أنشأ الله القسم حين النُّزول معلّقًا إلى إدباره بعدُ، أو المراد: إذا أدبر، أو وقع قسمًا، ويجوز أن يراد بإدباره حاله آخر الشهر.

﴿وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ أضاء، وكأنَّه قيل: والصبح إذا ظهر، ولا يخفى أنَّ ظهور الشيء غيرُه. ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ جواب القسم، وجواب «إِذَا» أغنى عنه القسم، و«ها» عائد إلى «سَقَرَ»، وقيل: إلى النذارة، وقيل: للحال، أو القصَّة، وقيل: للساعة المدلول عليها بـ«سَقَرَ» وذِكر أحوال الآخرة.

[صرف] والكُبُر جمع كُبْرَى، بألف التأنيث إلحاقًا لها بهاء التأنيث، فإنَّ فُعَلَة (بضمٍّ ففتح) يجمع على فُعَل (بضمٍّ ففتح) كما جمع الْقاصِعَاء على القواصع، بوزن فواعل، الذي هو جمع فاعلة تنزيلاً لألف التأنيث في قاصعاء منزلة تاء فاعلة.

والمعنى أنَّ سقر مثلا واحدة من الأمور الكبار الجاريَة عليهم غير المتناهية، وهذا أنسب بالمقام، أو إنَّها واحدة منهنَّ لكنَّها أعظمُ من باقيها، نقول: بلغتنا البربرية: «فُلانٌ واحِدٌ منهُم» إذا عظم احتياله مثلا.

وقيل: «الكُبَر» الدَّركات السبع: جهنَّم ولظى والحطمة وسقر والسَّعير والجحيمُ والهاوية، وأنت خبير بأنَّ الظاهر أنَّ المراد بسقر دار العذاب مطلقًا لا خصوص تلك الطبقة.

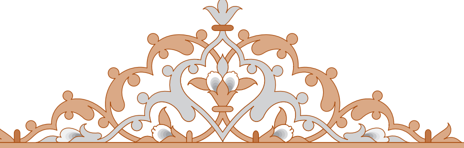
﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ مصدر لا وصفٌ فهو تمييز ناصبُه «إِحْدَى»، لأنَّ المعنى عظيمة، وعن الحسن: واللهُ ما أنذر بشيء أدْهى من النَّار، أو المعنى: إنذارًا، أو مفعول مطلق، أي: أنذر إنذَارًا.

وقيل: هو وصف حال من اسم «إِنَّ» ووجهه أَنَّ «إِنَّ» للتَّأكيد فكأنَّها حدث يقبل التقييد بالحال، وهو ضعيف، أو من ضمير في «إِحْدَى»، وعليهما فعدم التاء لكونه بوزن المصدر، أو للنسب.

أو ﴿نَذِيرًا﴾ هو الله، أي: ادع نذيرًا. أو ﴿نَذِيــرًا﴾ هو النبيء ﷺ، فيكون حالاً من المســتتر، أي: ادع النَّاس نذيرًا. أو منادًى، أي: يا نذيرًا للبشر. يقال: جاء الحاج يا فلان. ويبعد أنَّه حالٌ من ضمير «قُم» أوَّل السورة.

﴿**لِمَن**﴾ بدل من «لِلْبَشَرِ» بدل بعض. ﴿**شَآءَ مِنكُمُۥ أَنْ يَّتَقَدَّمَ**﴾ إلى الخير ﴿**أَوْيَتَأَخَّرَ**﴾ عنه، أو يتقدَّم إلى سَقَرَ أو يتأخَّر إلى الجنَّة، أو يتقدَّم إلى الطاعة أو يتأخَّر عن المعصية، أو يتقدَّم بالإيمان أو يتأخَّر بالكفر.

[نحو] وضمير «شَآءَ» لـ«مَن» وأجيز لله تعالى، أي: لمن شاء الله تقدُّمه أو تأخُّره، أو «لِمَن» خبر، والمصــدر ممَّا بعدُ مبتدأ، أي: لــكلٍّ منكم التقدُّم أو التأخُّر، وهذا ضعيف، ولكن فيه التهديد، كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُومِن﴾ [سورة الكهف: 29].



﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ (39) فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ (40) عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ (42) قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (46) حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ (47) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ (48) فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ (51) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (52) كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ (53) كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (55) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ (56)﴾

اعتراف المجرمين بأخطائهم

﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ**﴾ قدّم للحصر ﴿**رَهِينَةٌ**﴾ مرهونة عند الله تعالى، ويُقال: مرهونة في النَّار بما كسبته، أو بكسبها، فـ«مَا» اسم أو حرف مصدر، ورهينة فعيل بمعنى مفعول لحقته التاء على القلَّة، أو ليست للتأنيث بل للمبالغة، أو تغلَّبت عليه الِاسمِيَّة كالنطيحة. أو هو مصدر أُخْبر به عن الذَّات للمبالغة كالشَّتيمَةِ بمعنى الشَّتم.

﴿**إِلَّآ أَصْحَابَ الْيَمِينِ**﴾ فإنَّهم فكُّوا أنفسهم بالتوحيد والطَّاعة كما يفكُّ الرهن بقضاء الدَّيْن، وهم المؤمنون المخلصون، أضيفوا لليمين لبركة اليمنى، وهم مَيَامينُ، أي: مباركون على أنفسهم، وبه قال عليٌّ وابن عمر.

أو أضيفوا لليمين لأنَّهم يُعطَوْن كتبهم بأيمانهم، أو لأنَّهم عن يمين آدم يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [سورة الأعراف: 172]، وقال الله ﷻ: «**هؤلاء إلى الجنَّة ولا**

أبالي»، وقال لأهل الشمال: «**هؤلاء إلى النَّار ولا أبالي**»[1]. وعن عليٍّ: أطفال المسلمين، ورجَّحه بعض الصوفيَّة.

وقيل: الملائكة لجواز إطلاق النفس عليهم والكسب، وعليه ابن عبَّاس، وعليه فالاستثناء منقطع، لأنَّه لا ذنب لهم يرهنون فيه.

وكأنَّه قيل: ما بالُهم؟ فقال: ﴿**فِي جَنَّاتٍ**﴾ أي: هُم في جنَّات عظيمة لا يعلم غايتها إلَّا الله تعالى، أو «فِي جَنَّاتٍ» حال من «أَصْحَابَ الْيَمِينِ»، أو حال من الواو في قوله: ﴿**يَتَسَآءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ**﴾ أو يتعلَّق بهذا الفعل، وقدِّم في الوجهين للفاصلة، ولطريق الاهتمام.

والمراد بالتساؤل هنا وقوع السؤال بينهم، لا بشرط أن يكون كلُّ واحد منهم يسأل الآخر، بل كلٌّ سأل الآخر كما هو أصل التفاعل، أو سأل بعض بعضًا فقط، ومن أين لنا أن نقول: المراد هنا خصوص سؤال بعض بعضًا لا كُلُّ واحد للآخر؟ ومن ذلك أن يسأل زيد بكرًا عن مجرم، ويسأله بكر عن مجرم آخر.

وبعدما يَسْأَلُ بعضٌ بعضًا، أو يسألون الملائكة، أو يتساءلون المجرمين، كما عُدِّيَ ترامَى وتداعى، فقيل: تداعيناه وتراميناه، يقولون ما ذَكَرَ الله تعالى بقوله:

﴿**مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ**﴾ أي: قائلين: ما أدخلكم فيها، أو لا مفعول به في المعنى ليتساءل إلَّا قولُه: ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾، أو «يَتَسَآءَلُونَ» يتضمَّن معنى القول، فالجملة بعده مفعول به له.

﴿**قَالُواْ**﴾ في جواب السؤال ﴿**لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ**﴾ الصلاة الواجبة، وكأنَّه قيل: بِمَ أجابوا؟ فقال الله ﷻ: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ...﴾ إلخ.

---

(1) رواه **أحمد** في مسند القبائل، رقم: 26216. من حديث أبي الدرداء.

ومقتضى الظاهر: انتفاء كوننا من المصلِّين، أي: سَلَكَنَا فيها انتفاءُ كوننا من المصلِّين، أو الذي سلكنا فيها انتفاءُ كوننا... إلخ، لكن عدلوا إلى ما هو المقصود المتحسَّر عليه، معرضين عمَّا سواه ممَّا يطابق السؤال، ولم يقصد بالذات.

[أصول الدين] وفي ذلك دليل على خطاب المشركين بفروع الشرع، إذْ لَوْ لَمْ يخاطبوا بها لم يُعذَّبوا على ترك الصَّلاة، وذلك كثير في القرآن وكذا في قوله تعالى: ﴿**وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ**﴾ الإطعام الواجب كالزكاة وَالكَفَّارَة، ولَو لَم يخاطبوا بالفروع لم يعذَّبوا بترك الإطعام.

وأجيب بأنَّ المراد: لم نكن من المعتقدين لوجوب الصلاة والإطعام، أو «الْمُصَلِّينَ» كناية عن المؤمنين، فسَلكهم في سقر شركُهم، وبأنَّ ذلك كلام من المشركين، فيمكن أن يكونوا كاذبين أو خاطئين، وإنَّما سلكهم الإشراك.

[قلت:] والحقُّ أنَّ التأويل خلافُ الأصلِ، ولا يحسن التأويل بلا داعٍ، ولا سيما مع كثرة دلائل الخطاب بها. وأيضًا المراد التحذير، فلو كان قولهم ذلك كذبًا أو خطأ لم تحصل في ذكره فائدة.

وأجيب أيضًا بأنَّ المقصود في الجواب بالذَّات هو قولهم المذكور بقوله تعالى: ﴿**وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَآئِضِينَ**﴾ وقولهم المذكور بقوله تعالى: ﴿**وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّىٰٓ أَتَانَا الْيَقِينُ**﴾ فإنَّ الخوض والتكذيب إشراك، فعُذِّبوا بهما، وأمَّا ذكر عدم الصلاة وعدم إطعام المسكين فزيادة في الجواب لمزيد تحسُّرهم على ما فاتهم من التوحيد وتوابعه.

قلنا: لا يخفى أنَّ الأصل خلاف الزيادة، والأصل إجراء الكلام على ظاهره إلَّا لدليل يُعيِّنُ التأويل ويُوجبُه.

والخوض: القول في رسول الله ﷺ بالسحر والكهانة ونحوهما، أو القولُ بذلك وبما يلهي ولا نفع فيه، أو فيه معصية، ومن ذلك ذكر الأضاحيك، وذكر

ما بين الزوجين، وذكر حروب المسلمين على وجه التنقيص، وذلك مستعار من الخوض في الماء، أو استعمال للمقيَّد في المطلق على التجوُّز الإرساليِّ.

ويوم الدين: يوم البعث والجزاء، وفيه أهوال عظيمة غير الجزاء، واقتصروا على إضافته للجزاء لأنَّه الأهمُّ.

[بلاغة] وأخَّروا التكذيب بيوم الدِّين عن ترك الصَّلاة وإطعام المسكين وعن الخوض مع أنَّه أعظم لتفخيمه، كأنَّهم قالوا: وكنَّا مع ذلك مكذِّبين بيوم الجزاء، ولبيان أنَّ تكذيبهم به استمرَّ مع تلك الجنايات حتَّى أتاهم اليقين، أي: الموت الذي أيقنوا به بإتيان مقدِّماته، أو بعد وقوعه، فحين أتاهم أدركوا الحقَّ حين لا ينفعهم الإدراك، كأنَّه لم يدركوا إلى أن ماتوا، أو حضرت مقدِّمات الموت، ولا إشكال في ذلك.

وقيل: «الْيَقِينُ» صحَّة ما وعدوا به من البعث والجزاء، وحقِّيَّة ما يقول محمَّد ﷺ كُلِّه، والمراد مجموع تلك الجنايات لا كلُّ واحدة، فإنَّ من المشركين من اجتمعت فيه، ومنهم من لم يكن له مال، فلا إطعام عليه.

[فقه] والشيء بالشيء يذكر، ذكر الشيخ عامر[1] نفعنا الله ببركته ورحمه الله ما حاصله أنَّه من لم يتَّخذ وطنًا لا صلاةَ له، لأنَّه لم يتعيَّن له موضع يُصلِّي فيه أربعًا من موضع يصلِّي فيه اثنتين، ومن لم يصلِّ هلك، إلَّا أنَّه ذكر بعد ذلك رخصة أنَّه يكفي الإنسان صلاتُه أربعًا في منزله الذي وجد فيه أباه يصلِّي فيه أربعًا ولو لم يعرف الوطنَ ولا وجوبَ اتِّخاذه.

(1) الشيخ عامر بن علي الشَّمَّاخِي: كتاب الإيضاح، ج1، ص625، 629.
عامر بن علي الشمَّاخي «ت: 792هـ/1390م» من أجداد أحمد الشمَّاخي صاحب كتاب السير. أخذ عن أبي موسى عيسى بن عيسى الطرميسي «ت: 722هـ» اشتهر بالاستقامة منذ صغره. جلس للتدريس والتأليف طول حياته. وقد درَّس بمتيون 13 سنة وتحوَّل إلى يفرن سنة 756هـ. من أبرز تلاميذه البرادي صاحب كتاب الجواهر. توفي متقدم السن. له مؤلفات عدّة منها: كتاب الديانات، وكتاب الإيضاح... فرحات **الجعبيري**: البعد الحضاري، ص123.

قلت: إلّا أنَّه إذا سافر لزمه معرفة حدِّ الفرسخين من ذلك المنزل ليصلِّي ركعتين، إلَّا أنَّه إن جاوزهما بلا معرفة بهما فكان يصلِّي الرباعية ركعتين كفاه أيضًا، ولم يضرَّه جهله بالفرسخين، فليكتف بهذه الرخصة لما مضى.

﴿**فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾ هم أصنامهم وسائر معبوداتهم التي يدَّعون أنَّها تشفع لهم، ففي تسميتها شافعةً تهكُّمٌ، أو المراد انتفاء الشافع فضلاً عن أن يشفع، وذلك من نفي اللَّازم بانتفاء الملزوم، والسبب بانتفاء المسبَّب كقولك: «لا أراك هنا»، أي: لا تكن هنا فضلا عن أن أراك.

﴿**فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ**﴾ عن التذكير بالقرآن وغيره، أو المراد التذكُّر ﴿**مُعْرِضِينَ**﴾ بلا سبب، وقدَّم «عَنِ التَّذْكِرَةِ» للفاصلة. و«مُعْرِضِينَ» حال من الهاء. ﴿**كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ**﴾ حال ثانية، أو حال من المستتر في «مُعْرِضِينَ». والحمر: جمع حمار، والمراد حمر الوحش، لأنَّ حمر الإنس لا تلاقي الأسد، ولأنَّ الغالب أن لا تجتمع حمر الإنس، بل ينفرِدُ كلُّ حمار منها بصاحبه المالك له، اللهمَّ إلَّا أن تجتمع في البادية للتوالد. والاستفعال هنا للمبالغة لا للطلب، أي: أنفرت إنفارًا شديدًا، اللهمَّ إلَّا على معنى أنَّها طلبت من نفسها النفار، أو استَنفَرَها فزعُها بالأسد.

﴿**فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ**﴾ دليل على أنَّ سبب الاستنفار في «مُسْتَنفَرَةٌ» هو القسورة، وهي الأسد، من القسر بمعنى القهر والغلبة، ذَمَّهُم بأنَّهم يفرُّون من سماع القرآن فرار الحُمر من الأسد. والقسورة لفظ عربيٌّ لا حبشيٌّ معرَّب كما قيل، وذلك هو الصَّحيح، وعليه الجمهور.

وعن ابن عبَّاس: الرجالُ الرُّماة الصائدون، وهو رواية عن مجاهد، وقيل: أصوات النَّاس، وقيل: حبال الصيَّادين، وقيل: نبلهم، وقيل: الرجال الأقوياء، وكلُّ قويٍّ قسورة. وعن ثعلب: القسورة أوَّل اللَّيل تَفِرُّ من الظلمة. وهو في معنى الجمع إلَّا في هذا القول، والقول الأوَّل.

[بلاغة] شُبِّهُوا في سـرعة النُّفور عن الحقِّ بالحمر الوحشيَّة، وفي ذلك استهجان لهم، كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [سورة الجمعة: 5].

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُّؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ عطف على محذوف، أي: لا يكْتفون بالتذكرة بل يريد كلُّ واحـد أن يؤتى صحفًا متعدِّدة كثيرة من السَّماء على أيدي الملائكة، أو تطير إليهم تنشر فيها أنَّ محمَّدًا رسولُ الله ﷺ، أو تنزل منشورة غضَّة طريَّة غير مطويَّة.

[سبب النزول] قالوا لرسـول الله ﷺ: «إن سرَّك أن نتَّبعك فأت كلَّ واحد منَّا بكتاب من السَّماء من ربِّ العالمين إلى فلان بن فلان فيه الأمر باتِّباعك» فنزلت الآية.

والحديث صريح في أنَّهم طلبوا لكلِّ إنسـان صحيفة واحدة، ولفظ الآية أن يؤتى كلُّ فرد صحفا متعدِّدة، وذلك مبالغة فـي الامتناع، وقد تحمل الآية على ما في الحديث، بأن يراد بـ«كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُـم» مجموعهم، يحصل لكلِّ فرد منهـم صحيفة واحـدة، فتلك صحف متعـدِّدة، من قسـمة الجمع على الجمع، كقولك: لبس القوم ثيابهم.

ومثل ذلك الحديث حديث أبـي صالح[1] قالـوا: «إن كان محمَّد صادقًا فليصبح تحت رأس كلِّ منَّا صحيفة فيها براءة وأمنة من النَّار»[2]، فجعلوا لكلِّ واحد صحيفة واحدة.

---

(1) أبو صالح ذكوان بن عبد الله مولى أمِّ المؤمنين جويريَّـة الغطفانيَّة. كان من كبار العلماء بالمدينة ولد في خلافة عمر رضي الله عنه، وحدَّث عن كثير من الصحابة منهم: سعد بن أبي وقَّاص وعائشة وابن عباس وأبو هريرة ولازمه. حدَّث عنه ابنه سـهيل بن أبي صالح والأعمـش والزهريُّ وغيرهم. وثَّقه أحمد بن حنبل. تُوُفِّيَ سنة 101هـ. **الحمصي**: تهذيب سير أعلام النبلاء، ج1، ص172.

(2) أورده **الآلوسـي** في تفسـيره، مج10، ص169. و**السـيوطي** في الدر، ج6، ص318. وقال: أخرجه ابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد.

وليس من معنى الآية ما قيل: إنَّهم كانوا يقولون: بلغنا أنَّ الرجل من بني إسـرائيل كان يصبح مكتوبًا على رأسـه ذنبُهُ وكفَّارتُه فأتِنا بمثل ذلك، إلَّا أن يراد بالصحف المنشَّرة الكتابات الظاهرة المكشوفة.

﴿**كَلَّا**﴾ ردعٌ عـن إرادة إيتاء الصحف ﴿**بَـل لَّا يَخَافُـونَ الْاخِرَةَ**﴾ لعدم خوفهم منها ورسـوخ إنكارها في قلوبهم، أعرضوا عن التذكرة لا لعدم إيتاء الصحف فَلَوْ أُوتُوهَا لم يؤمنوا ولاقْتَرَحوا غيرها.

﴿**كَلَّآ**﴾ ردع عن الإعراض وعدم خوف الآخرة ﴿**إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ**﴾ أي: القرآن المعبَّر عنه بالتذكرة، أو المعلوم من لفظ التذكرة المطلقِ يشمل القرآن وغيره. ﴿**فَمَن شَـآءَ**﴾ أن يذكر القرآن بالإيمان به ﴿**ذَكَرَهُ**﴾ لأنَّه مَفهُومٌ ليس محجورًا عنه، فَيَسْعَدُ دُنيًا وأخرًى.

﴿**وَمَا تَذْكُرُونَ**﴾ بمجرَّد اختيارهم[1] في حال من الأحوال ﴿**إِلآَّ أَنْ يَّشَآءَ اللهُ**﴾ إلَّا حال مشيئة الله، أو لا يذكرون[1] لشيء إلَّا لأن يشاء الله ﷻ.

﴿**هُـوَ أَهْلُ التَّقْـوَىٰ**﴾ أهل أن يتَّقـي المكلَّفون عذابـه بالإيمان والعمل ﴿**وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ**﴾ لذنوب التائب.

قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فقال: «**قد قال ربُّكم: أنا أهل أن أُتَّقَى فلا يجعلْ معي إِلَهٌ، فمـن اتَّقَانِي ولَمْ يَجْعل معي إلهًا آخر فأنا أهلٌ أن أغفِر له**»[2]، رواه أنس.

---

(1) ﴿يَذْكُـرُونَ﴾ برواية حفص، وأمَّـا بروايـة ورش: ﴿تَذْكُرُونَ﴾ فالأصل أن يقول الشـيخ: «اختياركم»... «لا تذكرون».

(2) رواه **الترمذيُّ** في كتاب تفسير القرآن (71) باب ومن سورة المدِّثّر، رقم: 2328. **والحاكم** في المستدرك، كتاب التفسير (74) باب تفسير سورة المدَّثِّر، رقم: 3876. من حديث أنس.

[أصول الدين] ويتمسَّــك بذلك من يقول: الموحِّــد لا يدخل النَّار، ولو أصرَّ على الفسق، والأَشْعَريَّة القائلون بجواز دخول الموحِّد الفاسق الجنَّة مع إصراره، والأَشْعَريَّة الآخرون القائلون بوقوع ذلك لبعض الأمَّة، **وليس كذلك**، فإنَّ المراد بالتَّقــوى التوحيدُ والعمل مع ترك الإصــرار، وعن ابن عمر وأبي هريرة وابن عبَّاس مثل ذلك الحديث.

وروي أنَّ رســول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالى إنِّي لأجدني أســتحي من عبدي يرفع إليَّ يديــه أن أردَّهما من غير مغفرة**» قالــت الملائكة: إلهنَا ليس لذلك أهلا؟ قــال الله تعالى: «**لكنِّي أهــل التَّقوى وأهل المغفــرة، فإن تركوا التَّقوى فلست أترك المغفرة إذا أنابوا إلَيَّ**»[(1)].

اللهمَّ اجعلنا من أهل هذه الآية.
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

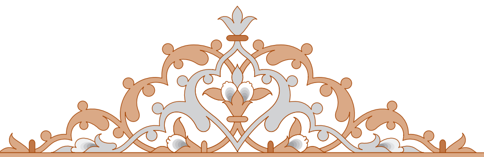


(1) أورده **الســيوطيُّ** في الدر، ج 6، ص 318. **والآلوسي** في التفســير، مج 10، ص 170. الجزء الأوَّل منه وقالا: أخرجه الترمذيُّ في نوادر الأصول. من حديث الحسن.

75

تفسير سورة القيامة

مكِّـيَّة وآياتها 40 ـ نزلت بعد سورة القارعة



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (4) بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلَّا لَا وَزَرَ (11) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13) بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (15)﴾

إثبات البعث والمعاد ودلائله

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ «لَا» نافيةٌ أي لا أقسم به لعظم شـأني، وأنا صادق مصدَّقٌ عند المؤمنين، ولو كنت أقسمُ بما شئتُ إذا شئت لحكمةٍ. أو لا أقسم به لوضوح الأمر، وفي ذلك إعظام ليوم القيامة في هذا المقام، أي لو كنت أقسم لأقسمتُ به، كقولك: «لا أقسم بالله» إذا عظَّمتَ الحلف بالله تعالى.

أو ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الذي من شأنه الإقسام به قلبا لإنكارهم له، كقوله تعالى في إثبات حياة الغُزاة إذْ قال المشركون ماتوا: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا...﴾ إلخ.

[قلت:] ولا نقبل تفسير القيامة بمطلق موت الإنسان، من قول المغيرة بن شعبة: «يقولون القيامة وقِيامَةُ كُلِّ أحد موته»، وقول علقمة لجنازة حَضَرها: «أمَّا هذا فقد قامت قيامته»، لتواتر «يوم القيامة» ليوم البعث.

وقيل: [«لَا»] نافية لمحذوف، أي: لا ينتفي البعث كما زعمتم بل هو ثابت أقسِمُ به، ويرُدُّهُ ذِكر «لا» مع العطف بعدُ، وقيل: «لا» صِلَةٌ للتَّأكيد تزادُ أوّل الكلام كما تزاد وسطه كقوله:

لا وأبيكِ ابنة العامِرِيِّ لَا يدَّعي القوم أنِّي أفِرّ[1]

وقوله:

خَليلِيَّ لا والله ما من مُلِمَّةٍ تَدُومُ على حيٍّ وإن هي جَلَّتِ[2]

وقيل: إنَّما تزاد وسطا، وهنا وسط، لأنَّ القرآن ككلام واحد، ويردُّه أنَّه ككلام واحد في تصديق بعضه بعضًا وتقييده ببعض، لا في مثل هذا، كما أجيب في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [سورة الحجر: 6]، بقوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [سورة القلم: 2].

وقيل: لام الابتداء وألفُ أنا، وقيل: لام الابتداء أُشْبِعتْ ودخلت على المضارع، وعلى أَنَّ «لَا» نفي للقسم لا جواب له، ولا بأس بهذا.

وقيل: الجواب مطلقًا محذوفٌ، تقديره «لتبعثنَّ» وقيل: جوابه ﴿أَيَحْسِبُ الِانسَانُ﴾ ويردُّه أنَّه لا خارج له إلَّا بتأويل: إنَّ الإنسان مخطئ في ذلك، وقيل: «بَلَىٰ قَادِرِينَ»، ويردُّه أنَّه جواب، وأنَّه جواب لغير القسم، وقيل: اللَّام في خبر «إنَّ»، أي: «إنِّي لَأُقْسِمُ» وأشبعت بألف زائدة، ويدلُّ لمثل هذا قراءة قنبل «لَأُقْسِمَ» بلا إشباع.

---

(1) البيت من المتقارب لامرئ القيس. انظر: **إميل يعقوب**: شواهد اللغة العَرَبِيَّة، ج3، ص34.

(2) البيت لعليِّ بن أبي طالب. ينظر ديوانه. (الموسوعة الشعريَّة).

وقيل: لام قسم دخلت على المضارع دون أن يؤكَّد بالنون، ومثل ذلك في قوله: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ المؤمنة والكافرة، من شأنها أن تأتيَ بما تلام عليه فهو للنسب، ولا مفعول له، أو تلوم نفسَها فلَها مفعول.

قال رسول الله ﷺ: «**ما من نفس فاجرة ولا بَرَّةٍ إلَّا تلوم نفسها يوم القيامة، إن عملت خيرًا قالت: كيف لم أزد منه؟ وإن عملت شرًّا قالت: ليتني لم أعمله**»[1].

وضمَّت النَّفس اللَّوامة إلى يوم القيامة لأنَّ المقصود بعثها فيه للجزاء، وفيه تظهر سعادتُها أو شقوتها، وليس اللَّوم داخلا في التعظيم، بل تعظيمها لكونها خلقة عجيبة، صالحة للأمور العظام، ولا سيَّما نفس المؤمن، وفائدة ذِكر اللَّوم الزجرُ والتنبيه على ما سيقع.

أو خصَّها ليوم القيامة مرادًا بها نفس المؤمن الممدوحة بتمنِّي زيادة الخير، وأن لا تكون أساءت تجتهد ولا تزال تلوم نفسها وتنسبها للتقصير، وقيل: نفوس الأخيار التي تلوم الأشرار يوم القيامة.

أو «لَا» الأولى صلة، والثانية نافية، أيْ: أقسم بيوم القيامة لعِظَمِهِ، ولا أقسم بالنَّفس اللَّوامة اللَّوَّامة لخسَّتها. أو «النَّفس اللَّوَّامة» التي لم تزل تلوم نفسها على الطاعة وتجتهد، أي: لا أقسم بها لأنَّ الأمر ظاهر. وقيل: المراد نفس آدم إذ لم تزل تندم عن الأكل من الشجرة الموجب لإخراجه من الجنَّة.

والنَّفس اللَّوَّامة دون «الأمَّارة بالسوء»، تعمل المعصية وتندم جدًّا، والأمَّارة بالسوء: المبالِغة في المعصية، وهي مأوى الشرور، وتوبتها قليلة. والمطمئنَّة: الراسخة في الخير، وهذا اصطلاح، وإلَّا فالنفس أمَّارة بالسوء إلَّا

(1) أورده بعض المفسرين على أنه حديث لرسول الله ﷺ ولم يخرِّجوه. منهم **الآلوسي** في روح المعاني، ج 29، ص 136. ومنهم من نسبه إلى الفرَّاء من كلامه. ومن أقدمهم: **الثعلبي** في الكشف والبيان، ج 10، ص 82.

ما رحم ربِّي. وقيل: نفس الشقِيِّ لامته على المعصية الموجبة للشقوة، تقول: «يا حسرتي على ما فرَّطت».

﴿أَيَحْسِبُ الِانسَانُ﴾ الجنس، المشركون، والاستفهام للتوبيخ، وإنكارًا للياقة.

[سيرة] وقيل: «ال» في «الإنسان» للعهد الذي عند رسول الله ﷺ في عديِّ بن ربيعة ختن الأخنس بن شريق، وهما اللَّذان يقول فيهما رسول الله ﷺ: «اللَّهمَّ أكفني جاري السوء»، قال: يا محمَّد: حدِّثني عن يوم القيامة متى يكون؟ وكيف يكون أمره؟ فأخبره رسول الله ﷺ، فقال: لو عاينت ذلك اليوم يا محمَّد لَمْ أُصدِّق ولَم أومن به، أَوْ يَجمعُ الله تعالى هذه العظام. فنزلت.

ومعنى «أوْ يجمع الله» (بإسكان الواو): حتَّى يجمع الله، أو إلَّا أن يجمعها الله الآن قبل يوم القيامة، أو ذلك بفتح الواو على أنَّ الهمزة قبلها للاستفهام الإنكاريِّ.

وقيل: الإنسان أبو جهل، يقول: أيزعم محمَّد أنَّ الله يجمع هذه العظام بعد بِلاها وتفرُّقها ويعيدها خلقًا جديدًا؟ فنزلت الآية، **والعموم أوْلى** ولو كان سبب النُّزول خاصًّا، وخصوصُه لا ينافي العموم.

ويجوز أن يكون الإنسان الرجلين: عَدِيَّ بن أبي ربيعة والأخنس، باستعمال اسم الجنس في حِصَّتين من العموم.

وذَكَر العظام مع أنَّ الجلد والشعر واللَّحم فوقها وتبلى قبلها لأنَّ العظام قالب الجسم ويبنى عليه، ولأنَّهم يذكرون العظام ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ﴾ أنَّه، أي: الشأن، أو أنَّه أي: الإنسان، أو أنَّا لن نجمع ﴿عِظَامَهُ﴾ بعد تفتُّتها وفنائها من حيث كانت في البرِّ والبحر وفي بطون الحيوان، ومن حيث انتقلت ولو بعَدَدٍ من بطن أو غيره، إلى بطن أو غيره، بأن يُؤكَلَ آكلُها وهكذا...

﴿بَلَىٰ﴾ لسنا لا نجمعها بل نجمعها.

[نحو] ﴿قَادِرِينَ﴾ حال من ضمير «نَجْمَعَ» ونجمعها المقدَّر تأكيد لمعنى

«بَلَى»، والأصل أن لا يقدَّر، لأنَّ حرف الجواب مغن عنه، وهو في معناه، ولا تتوهَّم أنَّ الجملة أبدًا تقــدَّر بعد حرف الجواب، بل لا تقــدَّر أبدًا إلَّا إذا دلَّ دليل على تقديرها كما هنا، إذْ لو لم نقدِّرها لــم نجد ناصِبًا لـ«قَادِرِينَ»، وإذا قدِّرت فهي تأكيد. ولو ادُّعِيَ أنَّ في «بَلَى» ضميرًا كما في «نَجْمَعَ» لنيابته عنه لم يبعُد كلَّ البعد.

﴿**عَلَىٰٓ أَن نُّسَــوِّيَ بَنَانَهُ**﴾ في الدنيا وفي الآخرة، أي: أصابعَهُ من اليدين والرجلين أو أطراف الأصابع بأن يجعلها متســاويةً في الطــول أو القصر أو الغلظة أو الرِّقة.

أو تسويتُها جعلها في البعث على حالها في الدنيا، أو إلصاق بعضٍ ببعض حتَّى تكون كوسط الكفِّ، فلا يصحُّ له بها عمل ما يعمل بها متفرِّقة، من قبضٍ وبسط وتناول، أو جعلها بلا مفاصل، **وتفريقُها فضلٌ من الله لتلك الأعمال.**

[قصص] لَمَّا خلق الله آدم وأهبط قال طائر أو وَحش لسمكة: حدثَ حيوانٌ يقبض ويبسط! فقالت: لا نَسْلَمُ منه في البحر ولا أنت في الجوِّ أو البرِّ.

وخصَّ البنان لتعدُّدها مع لطفها واشتمالها على مفاصل، وقيل: لأنَّها آخر ما يتمُّ به الخلق.

﴿**بَلْ يُرِيدُ الِانسَــانُ لِيَفْجُــرَ أَمَامَهُ**﴾ اللَّام صلة في المفعــول به، أي: يريد الفجور في مستقبله كما أراده في الماضي والحال، فهو منغمس فيه لا يلوح له الإقلاعُ، يُقدِّم الذنبَ ويؤَخِّر التوبة ويقول: سوف أتوب حتَّى يموت قبل التوبة.

وقيل: يطول أملُه، ويقول: أصيب كذا وأصيب كذا ولا يذكر الموت، وقال ابن عبَّاس: يُكذِّب بما أمامه من البعث والحساب.

[نحو] ووجه الإضراب الانتقاليِّ بـ«بَلْ» أنَّ العزم على الدوام في الشــرِّ أقبح، فلو عاش إلى آخر الدهر لم ينقلــع وقد نوى ألَّا ينقطع عنه، فقد تكتب عليه هذه المدَّة الطويلة في معاصيه أو نيَّته لها كتابةَ عزمٍ لا كتابةَ وقُوع فِعلٍ.

والعطف على همزة الاستفهام وما بعدها فلا مدخل له في الاستفهام، أي: انتقل من حسابه إلى ما هو أعظم وهو دوامه في الكفر، ويجوز أن يقدَّر له استفهام، أي: بل أيُريدُ، وإن عطف على ما بعد الهمزة انسحب عليه استفهامُها.

و«أَمَامَ» اسم مكان استعير للزمان المستمرِّ لجامع الاحتواء، وقيل: المفعول محذوف، أي: يريد الإنسان شهواته ومعاصيه ليفجر أمامه، أي: ليمضي عليها أبدًا.

[بلاغة] وأعاد ذكر الإنسان تأكيدًا لقبح كفره المذكور من حيث إنَّ الإنسَانِيَّة تأباه، لأنَّ وضع الإنسان على ما هو عليه من العقل والفهم يَجُرُّ إلى الإيمان، حتَّى كأنَّه يتصوَّر بصورة الغباوة وليست به، لظهور أدلَّة العقل وكثرتها.

﴿**يَسْـَٔلُ**﴾ سؤال عناد وتعنُّت ﴿**أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ**﴾ متى يكون؟ والزمان لا يكون ظرفًا للزمان، فالمعنى في مثل ذلك: أيُّ زمان يحصل عقبه يوم القيامة مثلاً، أو أيُّ زمان يتصوَّر فيه أنَّه يومها. والجملة مستأنفة استئنافًا نحويًّا، كقوله تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [سورة المؤمنون: 36]، والجملة مفعول «يَسْـَٔلُ» علِّق عنه.

﴿**فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ...**﴾ إلخ عطف على «يَسْـَٔلُ»، والفاء للترتيب الذكريِّ، والمعنى: تَحيَّرَ فزعًا من هول يوم القيامة، مِنْ بَرِقَ الرجلُ: إذا نظر إلى البرق فَدُهِشَ بَصَرُهُ، وغير ذلك من الأفعال المشتقَّة من أسماء الأجناس، قال ذو الرمَّة:

ولو أنَّ لقمان الحكيم تعرَّضت   لعينيهِ ميٌّ سافرًا كادَ يَبْرُق

أي كادَ يصير كمن دُهش بصرُه بالنظر إلى البرق، أي: وجه مي حال كونه سافرًا.

[لغة] ويُقال: قَمِرَ الرَّجلُ إذا دهش بصرُه بالنظر إلى القمر، وشَمِسَ إذا دهش بالنظر إلى الشمس لمعاناة تحقيق النظر إليها، وذَهِبَ الرَّجلُ إذا دهش

بصره بالنظر إلى الذَّهب لرغبته فيه، وبقر إذا دهش لرغبته في البقر، وذلك لغة في بَرِق بالكسر بذلك.

[قراءة] والفتح قراءة نافع، ومحبوب[1] بن الرَّحيل من أصحابنا العمانيِّين تُرْوى عنه القراءة وغيرُها، ويجوز أن يكون المفتوح من البريق بمعنى اللمع، تبرق أبصار الكُفَّار من رؤية جهنَّم، أو عند الموت، أي: تدهش، أو يلزم منظرا واحدًا، أو تتحيَّر لِمَا ترى.

﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ ذهب ضوءه مع مقابلته للشمس، أو ذهب لاجتماعه بها وجرمُه باقٍ للنَّاظر. ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ يُطلعهما الله من المغرب مجتمعين. ويُروى: أسودين مكوَّريْنِ كأنَّهما ثوران عقيران في النَّار.

[قصص] ويروى: ويلقيان في البحر فيكون نارًا، وكلُّ واحد أكبر من البحر فيوسعه الله أو يصغرهما، والله قادر، وقد قيل: إنَّ القمر إلى الشمس كالبعوضة إلى الفيل.

وقيل: يجمعان ويقرَّبان إلى أهل المحشر لتشتدَّ الحرارة، وقيل: جمعا في ذهاب الضوء، فيكون الجمع قيل: عبارة عن التساوي في الصفة، ولو كان كذلك لأغنى عنه أن يقول: «فَإِذَا بَرَقَ البَصَرُ وَخَسَفَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ».

[لغة] ويُقال: في كلِّ واحد من الشمس والقمر: خَسَفَ وَكَسَفَ، ونصَّ السعد ـ كما لا يخفى ـ أنَّ التأنيث مع الظاهر المجازيِّ التأنيث أولى. وإنَّما لم يُقرَنْ «وَجُمِعَ» بالتاء رعايةً لحال القمر، وهي المذكورة. ولا حاجة إلى قول الكسائيِّ: التذكير باعتبار النورين أو الضياءين.

---

(1) محبوب بن الرحيل أبو سفيان، من علماء الإبَاضِيَّة في النصف الثاني من القرن 2هـ، أخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم والربيع بن حبيب، وكان حجَّة في السيرة النَّبَوِيَّة وأخبار أهل الدعوة، وفقهه رواه أبو غانم الخراساني في مدوَّنته. فرحات الجعبيري: البعد الحضاري، ص 108.

﴿يَقُولُ الإِنسَانُ﴾ الكافر ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إِذْ تقع هذه الأمور أو إِذْ وقعت وكأنَّها وقعت لتحقُّق الوقوع. ﴿ايْنَ الْمَفَرُّ﴾ إلى أين الفرار؟ في أيِّ موضع نَلْتَجِئُ به فنحَصِّله؟ لأنَّه لم يقل: إلى أين المفرُّ، والاستفهام للنفي، أي: لا فِرارَ، أو هو حقيقيٌّ لدهشه فهو يطلب الفرار.

وقرأ الحسن بن عليٍّ من آل البيت بكسر الفاء، على أنَّه اسم مكان على القياس، أي: أين موضع الفرار؟ على معنى: أيُّ مكان يجاوره موضع الفرار؟ أو مصدر ميميٌّ شذوذًا كالمرجع، بمعنى الرجوع. وذلك اليوم يوم القيامة عند الجمهور وهو المنصور.

وعن مجاهد: ﴿بَـرَقَ الْبَصَرُ﴾ عند الاحتضار و﴿خَسَفَ الْقَمَرُ وجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ يوم القيامة، كقولك: إذا أحسنت اليوم إلى زيد وجاء أبوه غدًا أكرمك. ويجوز أن يكون الكلُّ عند الاحتضار، فالخسوف ذهاب ضوء البصر، والقمر مستعار للبصر.

وجَمْعُ الشمسِ والقمرِ استتباعُ الروح حَاسَّة البصَر، كما جاء الحديث بأنَّ عين المحتضر تتبع الروح وتنظر إليه حال الخروج، والشمس استعارة للروح، وذلك كما أنَّ نور القمر من الشمس على الصَّحيح.

والخسوف ذهاب نور بصره، وجمع الشمس والقمر وصولُ الروح إلى الأرواح القُدُسيَّة المنزَّهة عن النَّقائص التي كانت الروح تقبس منها العقل، التي هي أرواح الملائكة، فالقمر الروح، والشمس مكان لحضيرة القدس، والملائكة الأعلون.

[قلت:] وإن لم يعجبك هذا فاضرب به وجوه الصوفيَّة الخارجة عن طريق الجنيد[1] قبَّحهم الله ﷻ.

(1) تقدَّم التعريف به في ج 10، ص 310.

﴿**كَلَّا**﴾ ردع عن طلب المفـرِّ أو كـ«أَلَا» الاسـتفتاحيَّة، أو بمعنى حَقًّا. ﴿**لَا وَزَرَ**﴾ لا ملجأ على الإطلاق، وأصله ـ قيل ـ الجبل، لأنَّ العرب تتحصَّن بطلوعه عند الشـدَّة أو الخوف، وقـد قيل: لا جبل لكـم تتحصَّنون به، فهو تمثيل لعموم نَفْيِ التحصُّن. واشـتقاقه من الوزر وهو الثِّقـل، وطلوعُ الجبل ثقيل، وأيضًا هو ملجأ عن الأمر الثقيل، ثمَّ شاع في كلِّ ملجأ، جبل أو حصن أو سلاح أو غير ذلك.

﴿**إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ**﴾ التَّقديم للحصر، أي: إلى ربِّك وحده لا إلى غيره ولا إليه مع غيره، أو إلى حكمه أو مشـيئته اسـتقرار أحد في الجنَّة أو النَّار. وهو مصدر ميميٌّ، أو موضع الاستقرار وهو الجنَّة والنَّار، أي: حكمهما يرجع إلى ربِّك، يدخل من شاء من شـاء منهما. وينبغي تقدير الكون خاصًّا، أي: مُنتهٍ إلى ربِّك.

وقوله: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ من كلام الله ﷻ يقوله في الدنيا للإنسانِ، أو يقولُهُ لَهُ في الآخرة إذا قـال: أينَ المفَرُّ؟ أو من كلام الإنسـان يقوله الإنسـان في الآخرة لنفسه بعد قوله: «أَيْنَ الْمَفَرُّ».

وأمَّا قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ فمن كلام الله لنبيئه ﷺ في الدنيا، والخطاب له ﷺ، لقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾.

وأجيز أن يكون مع «كَلَّا لَا وَزَرَ» من كلام الإنسـان يُخاطب نَفسه يقول: لنفسه: إلى ربِّك يومَ إذْ بَعَثَنَا المستقرُّ، أو يُخاطب به صاحبه.

﴿**يُنَبَّؤُاْ الِانسَـانُ**﴾ مطلقًا مؤمنًا أو كافِرًا ﴿**يَوْمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ**﴾ من خير عمله أو شرِّ عمله ﴿**وَأَخَّرَ**﴾ من خير لم يعمله أو شرٍّ لم يعمله، ويجازى على ذلك بعد الإخبار به، تحقيقًا للأمْر، وإقامةً للحجَّةِ عليـه أَوْ لَهُ. أو الإخبار به كناية عن الجزاء. أو بما قدَّم من أعماله في الدنيا على الآخرة، أو بما قدَّم في الدنيا من حسنة وما أخرَّ منها لم يعمله، أو بأوَّل عمله وآخره وهو قول مجاهد.

أو بما قدَّم لنفســه من الخير والصدقة، وما أَخَّر بأن أوصى به أو وقَفَه أو تركه للوارث، أو أمرًا صالحًــا تركه يجري بعد موتــه، وإن قلنا: بما قدَّم من المعصية وأخَّر من الطاعة فـ«الِإنسَانُ» الكافر خاصَّة.

﴿بَلِ الِانسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ أي: بصيرٌ، والتاء للمبالغة لا للتأنيث، برهان على نفســه تنطق جوارحه بما فعــل، والمراد الكافــر لقوله: ﴿عَلَىٰ نَفْسِــهِ﴾، أي: على أعماله، وســمِّي البرهان بَصِيرَة لأنَّه مســبّبٌ ولازم عن الإبصار، أو التــاء للتأنيث، أي: حجَّة بصيرة، وإســناد البصــر إلى الحجَّة مَجازٌ، لأنَّ البصير صاحبُها، أو الإنسان عين بصيرة، أو شبَّه الإنسان بالحجَّة ورمز إليها بلازمها وهي الإبصار. وقيل: المراد جوارح الإنســان على نفسه بصيرة، أي: شاهدة.

و«عَلَى نَفْسِــهِ» متعلّقٌ بـ«بَصِيــرَةٌ»، وقدِّم بطريق الاهتمــام. وقَدَّرَ بعض محذوفًا، أي: إنَّ الإنســان على نفســه عين بصيرة. و«بَصِيرَةٌ» على كلِّ حال خبر، وأجيز أن يكون مبتدأ خبره «عَلَىٰ نَفْسِــهِ»، والجملة خبر «الِانسَانُ»، أي: عليه عين بصيرة أو حجَّة بصيرة.

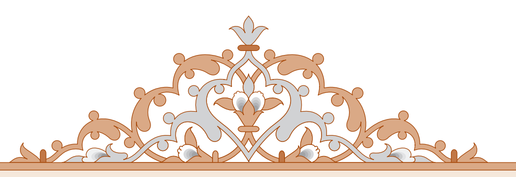
والآية من باب قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمُۥٓ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [ســورة النور: 24]. ويجوز أن تكون الآية تجريدًا بأن جرَّد من الإنسان إنســانًا آخر. وقيل: البصيرة ملكان يكتبان أعماله، فلا تجريد، وقوله: «عَلَىٰ نَفْسِهِ» خبر «بَصِيرَةٌ».

﴿وَلَوَ اَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ الــواو عاطفة على محذوف، أي: لو لم يلق معاذيره ولو ألقاها، لأنَّه قد شهد عليه شاهد من نفسه بتكذيب عذره، والجملة المقدَّرة متعلِّقة بمحذوف، أي: يجازى علــى أعماله لو لم يلق ولــو ألقى. أو بقوله: ﴿يُنَبَّؤُاْ﴾ لأنَّه يــدلُّ على المحــذوف، أو مراد به ذلك المحــذوف والجملة المقدَّرة حال من ضمير «يُنَبَّؤُاْ» أوْ ضمير «بَصِيرَةٌ».

وإلقاء المعاذير عبارة عن مبالغته بالإتيان بكلِّ عذر يمكنه، شُــبِّه الإتيان بالعــذر بإلقاء الدَّلــو في البئــر للاســتقاء، وقيل: إلقــاء المعاذيــر طرحُها والاسْتسْلام، وقيل: إحالة بعض على بعض، كما قال عنهم تعالى: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُومِنِينَ﴾ [سورة سبأ: 31].

[صرف] والمعاذير جمع معذرة على غير قياس، إذْ لا واو بعد ذال مفردِه، ولا ألف ولا ياء، فالقياس حذف يائه، إذ لم يُسمع «معذار»، أي: عذر، وأثبته بعض، وعليه فالجمع قياس، وعبارة بعض أنَّه اسم جمع.

وقيــل: المعاذير جمع معذار، بمعنى الســتر بلغة اليمــن، أي: ولو ألقى ستوره على نفسه في الدنيا حين العمل، لأنَّ الملائكة شاهدة عليه حال الستر، وكذا جوارحُهُ، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْــتَتِرُونَ أَنْ يَّشْهَدَ عَلَيْكُمْ...﴾ إلخ [سورة فصلت: 22].



﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿16﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿17﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿18﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿19﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿20﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿21﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿22﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿23﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿24﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿25﴾﴾

حرص النبيء ﷺ على حفظ القرآن وحال الناس في الآخرة

[سبب النزول] وكان ﷺ يُحرِّكُ لسانه بالقرآن حين النُّزول مخافة أن لا يحفظ أو ينسى، ولمزيد حبِّه للقرآن وحرصه على التبليغ، فنزل قوله تعالى: ﴿**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ**﴾ فكان يُصغي ولا يُحرِّك، فإذا فرغ جبريل وجد في نفسه ما نزل به بلا علاج ولا زيد ولا نقص، فالخطاب للنبيء ﷺ، والهاء للقرآن ولو لم يجر له ذكر لدلالة الحال عليه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [سورة طه: 114]. ﴿**لِتَعْجَلَ بِهِ**﴾ لتأخذه على عجل.

وعلَّل ذلك بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ**﴾ في صدرك لا ينفلت عنك منه شيء. ﴿**وَقُرْءَانَهُ**﴾ مصدر مضاف للمفعول، أي: إثبات قراءته على لسانك متى شئت، وحيث شئت. وقيل: تأليفه على لسانك، وقيل: جمعه.

﴿**فَإِذَا قَرَأْنَاهُ**﴾ تلوناه ـ والإسناد مجازٌ، لأنَّ التالي جبريل عليه السلام ـ وأثبتناه على لسانك وفي قلبك، أو جمعناه فيهما، فالإسناد حقيقة. ﴿**فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ**﴾ قارِئًا له بعدهُ لا مجاريا له حين كان يقرأ.

أو اتَّبِعْ قراءته بالدَّرس والعمل به، فيرسخ في قلبك ولسانك وجوارحك. [قلت:] وهذا ضعيف، لأنَّ المقام لذكر الدَّرس لا لذكر العمل.

والهاء لجبريل، أضيف إليه لأنَّه نزل به، وهــو بمعنى المقروء أو بمعنى القراءة وهو يقرأه.

﴿**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾ بيان ما أشــكل من معانيه وأحكامه قبل مضيِّ وقت الحاجة إلــى البيان، وكان ﷺ ســأل جبريل في حين نزولــه عن معنى بعض ما نزل. و«ثُمَّ» للتراخي الرتبيِّ، أو لمطلق الترتيب الذكريِّ. أو البيان: الإظهارُ لا بيان المجمل.

[أصول الدين] وعلى كلِّ حال لا دليل فــي الآية على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة، وقد فسَّره البخاريُّ بأنَّ علينا أن نُبيِّنه بلسانك، ويدلُّ لذلك أنَّ الكلام في بيان القرآن كلِّه لا في بعضه فقط.

﴿**كَلَّا**﴾ ردعٌ لرسول الله ﷺ عن العجلة، ولو في طلب العلم وأمر الدين، لأنَّها إذا كانت على حدٍّ غير لائــق كان الخللُ، كأنَّه قيل له ﷺ: لا تعجلْ ولو طُبِعتَ كغيرك على العجلة، كَمَا عَمَّ في قوله: ﴿**بَــلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ**﴾ الدنيا، إلَّا أنَّه ﷺ لا يوصف بحبِّ الدنيا ولا بترك الآخرة. ﴿**وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ**﴾ وليس الله تعالى يسامحك فيما يســامح غيرَك من العجلة لعُلُوِّ منصبك، فلا يعاقبك في أن يستفزَّك الطبع البشريُّ.

وتحريكه ﷺ لسانه بالقرآن قبل النَّهي عنه وقت نزوله طاعةٌ لا ذنب، لأنَّ الأصل قبل الوحي الإباحة، ولا ســيما أنَّ ذلك من جنس العبادة، وبعد النَّهي عن التحريك يكون التحريك ذنبًا، ولا يفعله.

[نحو] وقوله: ﴿بَــلْ تُحِبُّونَ﴾ متعلِّق بقولــه: ﴿بَلْ يُرِيدُ الاِنسَــانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ فإنَّ الفجور أمام لحبِّ العاجلة[1]، وفُصل بما يناســب. وقيل: متعلِّق

(1) كذا في النسخ.

بقوله تعالى: ﴿وَلَوَ اَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾، أي: إلقاؤُكَ معاذيرك لا يفيدك نجاة، لأنَّك أصررت لحبِّ العاجلة حتَّى أنكرت هذا اليوم.

وقيل: لـم يدخل ﷺ في هـذا الخطـاب، كما قـرأ جماعـةٌ: «يُحِبُّونَ» و«يَذَرُونَ» بالغيبة. والخطاب للكفَّار، أو لـكلِّ من يصلح، أو الخطاب له ﷺ ولغيره، والمراد غيره.

وقيل: الخطاب في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَـرِّكْ﴾ وما بعده إلى: ﴿وَتَذَرُونَ﴾ للإنسان في قوله ﷻ: ﴿يُنَبَّؤُاْ الِانسَـانُ﴾، يُقال له: ﴿اِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِـيبًا﴾ [سورة الإسراء: 14]، فيتلجْلجُ لسـانه للسـرعة في القراءة وللخوف، فيقال لـه: «لَا تُحَرِّكْ...» إلـخ فإنَّه علينا بالوعـد والحكمة جمعُ أعمالِك وقراءَتُها عليك، فاتَّبع قراءتها بالإقرار، وعلينا بيان جزائها، فالهاءاتُ لكتاب الإنسان.

وأجيز أن تكون الهاءات ليـوم القيامة، أي: لا تحرِّك لسـانك بذِكره في شـأن وقته، ولا في شـأن ما يقع فيه، وعلينا بيان أحواله، ومـا عليك إلَّا أن تستعدَّ له بما يناسـبه وتبليغ الوحي، ولا يكن في قلبك مَيْلٌ إلى أن نُبيِّنَهُ وقد بلَّغت وكفَى، أو لا ينفع الصراخ عند الأصمِّ.

﴿وُجُوهٌ﴾ المركبَّة علـى الأعناق، أو المراد أجسـاد، وعليه عبَّر بالبعض الأفضل على الكلِّ، وهو مبتدأ ولو نُكِّر للتفضيـل وللتعظيم. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ برق البصر وخسـف القمر... إلخ، وكذا في «يَوْمَئِذٍ» السابق واللَّاحق متعلِّق بما بعده، لا نعت لـ«وُجُوهٌ»، لأنَّ الـذَّوات لا تُقَيَّد بالزمان إخبارًا ولا وصفًا ولا حالاً لعدم الفائدة، وإن يُفِدْ جَازَ، والتقدير: يوم إذ جاءت الآخرة.

﴿نَّاضِرَةٌ﴾ حسنةٌ مُسفِرةٌ بيضٌ مشرقةٌ متهلِّلة غضَّة طريَّة لِمَا في القلب من السـرور، خبَرُ «وُجُوهٌ». وقُدِّم «يَوْمَئِذٍ» للحمل على الاهتمام بذلك اليوم، لأنَّ

فيه فوز المؤمن وتدمير عدُوّه الكافر، وللفاصلة. وليس نعتًا لـ«وُجُوهٌ» والخبر «نَاضِرَةٌ»، لأنَّ الأصل في النَّعت أن يتقرَّر عند المخاطب أو يكون بمنزلة المتقرِّر قبل الخطاب به. ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿نَاظِرَةٌ﴾ قدِّم بطريق الاهتمام والحصر وللفاصلة.

[أصول الدين] وهذا الحصر المتبادر يفيد أنَّه ليس المعنى: تنظر أبصارهم إلى ذاته تعالى، لأنَّ مدَّعي الرؤية لا يقول ينظر إلى ذاته فقط دائمًا، وإن قيل: التَّقديم ليس للحصر، بقي أنَّ النظر إلى الذَّات، ولو أقلَّ من لحظة موجب للتحيُّز تعالى الله عنه.

و«نَاظِرَةٌ» خبر ثان، ومعناه منتظرة. ومِنْ تعدِّي النظر بمعنى الانتظار بـ«إِلَى» قَوْلُهم: «أنظر إلى الله ثمَّ إليك»، أي: انتظر فضل الله ثمَّ فضلك، وقول الشاعر:

وجوه ناظرات يوم بدر إلى الرحمن يأتي بالفلاح[1]

وقول الشاعر:

كلُّ الخلائق ينظرون سجاله نظر الحجيج إلى طلوع هلال[2]

وقوله تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ اِلَىٰ مَيْسُرَةٍ﴾ [سورة البقرة: 280]. قال الإمام عليٌّ: ﴿نَاظِرَةٌ﴾: تنتظر متى يأذن لهم ربُّهم في دخول الجنَّة.

و«إِلَى» بمعنى النِّعمة، مفعول مقدَّم، أو يقدَّر مضاف، أي: إلى مُلك ربِّها، أو ثواب ربِّها، أو رحمة ربِّها، والنظر بالعين. أو الأصل: إلى إنعام ربِّها، والنظر بمعنى الانتظار. ولا يرجون الرَّحمة إلَّا من الله تعالى كما لا يعبدون إلَّا إيَّاه.

---

(1) البيت لحسَّان بن ثابت كما في كتاب «البعد الحضاري للعقيدة عند الإبَاضِيَّة»، ص 322. وقد أتى بشواهد أخرى من كلام العرب.

(2) هذا البيت يورده المفسِّرون والمتكلِّمون ولا يذكرون قائله.

[أصول الدين] [قلت:] وكلُّ حذف أو تأويل ولــو كان خلاف الأصل مقدَّم على عدمــه، إذا كان عدمه يؤدِّي إلى التشــبيه أو نحوه. والتقديــر والتأويل هما المناسبان لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: 11] المتَّفق عليه، ولكونه لا يتحيَّز ولا يتَّجه ولا يتجسَّم كما هو المتَّفق عليه، ولكون المتنزِّه عن الحوادث لا تدركه الحوادث كما هو المتَّفــق عليه، ولتنزُّهه عن الحلــول كما هو المتَّفق عليه، ولتنزُّهه عن الزمــان كما هو المتَّفق عليه، وذلك كلُّــه بالذات وما بالذات لا يتخلَّف باختلاف الأزمنة، ولتنزُّهه عن اللَّون والطول والقصر والغلظة والرِّقة.

ورؤيتُه تنقــض هذه الأصــولَ كلَّها وتثبــت غيبته عــن المواضع الأخر والتجزُّؤ، ولزمهم أنَّ الله محسوس لخلقه.

[أصول الدين] وهؤلاء قوم لا يخفى غلطهم في بعض الأصول كما قالوا: إنَّ موسى ســمع كلام الله النفســيَّ القديم، أثبتوا الكلام النفســيَّ وأثبتوا له «مسموع»، مع أنَّه غير صوت.

وقد أبطل هذا بعض حُذَّاقهم، وشنَّع على الغزاليِّ والأشعريِّ في قولهما بسماع الكلام الأزليِّ، وقال: اتَّفقوا على أنَّه لا يُسمَع غيرُ الصوت، وقد رجع إلينا من قال منهم: معنى ســماع الكلام الأزليِّ أنَّه معلوم بسماعنا من الشرع، وإنَّ الكلام النَّفسيَّ ثابت، قلنا أيضًا: لا نُسلِّم ثبوت الكلام النَّفسيِّ.

ولا عاقل يتركُ ما هو توحيدٌ إلى ما يُخالفه. ووضعوا أحاديث منها: أنَّه ينظر إليهم وينظرون إليه، ولا يقطعون نظرهم حتَّى يحتجب عنهم. ومنها: أنَّ أكرمهم على الله سبحانه من ينظر إليه صباحًا ومساءً. [وإن سلَّمنا بصحَّتها فعلى التأويل].

ولا يغني عن مدَّعي الرؤية دعوى أنَّها ليســت على المعتاد، لأنَّ حاصلها الانكشــاف، وهو منزَّه عنه، ولا يضرُّهم الانتظــار، لأنَّ ما هم فيه من النضرة نعمة عظيمة تنفي همَّ الانتظار، بل جعل الله الانتظار نعمة أخرى.

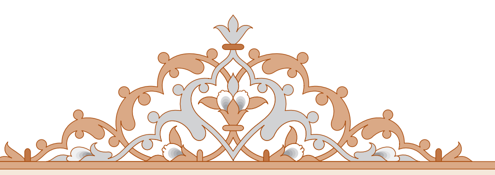
﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ لِمَا في القلوب من الحزن والضَّيق على حدِّ ما مرَّ. ﴿تَظُنُّ أَنْ يُّفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ الجملة خبر ثان على حدِّ ما مرَّ، والوجوه المركَّبة على الأعناق، أو الأجسام، والمراد وجوه الكفرة.

والبسور شدَّة العبوس لما في القلب، والظاهر من السُّوء، على عكس قوله ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾. وإسناد الظنِّ للوجوه تجوُّز، وهو ممَّا يقوِّي أنَّ الوجوه الأجسام، لَكِنَّ البسور يقوِّي الوجوه المركَّبة على الأعناق. ويجوز ـ على بُعدٍ ـ أن نردَّ الضمير إلى الوجوه المركَّبة مرادًا به الأجسام على الاستخدام.

و﴿تَظُنُّ﴾ توقن، ودخل على «أَنْ» الناصبة للفعل لأنَّه بلفظ الظنِّ، ولو قيل: «يعلم» لم تجئ بعد. وقيل: الظنُّ على ظاهره بمعنى تتوقَّع، وأنَّ كلَّ سوء كانوا فيه يتوقَّعون شرًّا منه، وفيه أنَّ هذا يكون بعد دخول النَّار والكلام هنا فيما قبله، لكن لا مانع من توقُّع شرٍّ بعد شرٍّ قبله.

[لغة] والفاقرة: الداهية العظيمة، تصيب فقار الظهر وتكسرها، كقولك: ركبتُه، أصبت ركبته. أو الفاقرة: وسم أنوفهم بالنَّار، يُقال: فقرتُ البعير إذا وسمت أنفه بالنَّار. وفُسِّر هنا بدخول النَّار.





﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ۝٣٠ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ۝٣٥ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ۝٤٠﴾

تفريط الكفَّار في الدنيا والتنديد بإنكارهم للبعث

﴿**كَلَّآ**﴾ ارتدعوا عن حبِّ العاجلة فإنَّها تنقطعون عنها بالموت الذي هو باب الجزاء على الأعمال. ﴿**إِذَا**﴾ جوابها مقدَّر بعد المساق، أيْ: كان ما لا يفِي به الكلام، أو كان ما كان، أو انكشفت حقيقة الأمر، أو حضر للإنسان ما فعل. ﴿**بَلَغَتِ**﴾ أي: الرُّوح، أو النَّفسُ دلَّ عليها ما تقدَّم من الكلام في شأن الآخرة. وقوله: ﴿مَن رَّاقٍ...﴾ إلخ كقول حاتم:

أَمَاوِيُ لا يغني الثَّراءُ عن الفتى إذا حَشْرَجَتْ يومًا وضَاقَ بها الصَّدر[1]

وكقول العرب: أرسلت، يريدون أرسلت السَّماء المطر.

﴿**التَّرَاقِيَ**﴾ عظام الصَّدر من الجانبين، والمفرد تُرْقُوة، بوزن فُعْلُوَّة بإسكان العين وضمِّ اللَّام.

﴿**وَقِيلَ مَنۡ رَّاقٍ**﴾ مبتدأ وخبر، أي: وقال بعض الحاضرين أو بعض

(1) تقدَّم في ج 14، ص 25.

النَّاس، و﴿رَاقٍ﴾ كقَاضٍ: من يرقى، يتكلَّم بما يشـفى به المرض أو الجنون، أو يفعل فعلاً يحصل به الشِّفاء في كلِّ ذلك بإذن الله ﷻ، كآيات الشِّفاء.

أو الرَّاقـي: الطبيبُ مطلقًـا الشـامل لذلك، أي: مَـنْ راقٍ مِنكـم أيُّها الحاضرون؟ أو مـن غيركم فيجاء به ليرقيه؟ والظاهر أنَّ الاسـتفهام حقيقيٌّ، وعن عكرمة: استفهام استبعاد، أي: لا تنفعه الرقى.

وقيل: قال بعض الملائكة لبعض: أيُّكم يرقى؟ أي: يعرج بروحه، أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ فالاستفهام حقيق، وفيه أنَّ هذا يحتاج إلى نقل أنَّ الملائكة تقول ذلك، وفيه أيضًـا أنَّ ملائكة الرَّحمة ينافيهـا ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ...﴾ إلخ، وقدْ يُجاب بأنَّ هذا قول عن ابن عبَّاس، وما قاله إلَّا وقد صحَّ عنده، وأنَّ الضمير للإنسان الشـامل للمؤمن والكافر، ولا مانع من تخصيص بعض ما يشمله بذكر شأنه وهو الكافر.

[فلسفة] واسـتُدِلَّ بالآية علـى أنَّ النَّفس جسـم لا جوهـر مجرَّد، إذ لا يتَّصف الجوهـر المجرَّد بحركـة ولا تحيُّز، ويـردُّه أنَّ النَّفـس في الآية الحيوانيَّة، وهي جسـم، والروح هي الجوهر المجـرَّد، وأيضًا المراد ببلوغها التراقي قرب انقطاع التعلُّق، وهو ممَّا يتَّصف به المجرَّد لأنَّه لا يستدعي تحيُّزًا ولا حركة ولا سكونًا.

والجمهور على أنَّ النَّفس ـ وهي الرُّوح ـ جسـم لطيـف جِدًّا ألطف من الضوء عند القائل بجسـميَّته، والنَّفس الحيوانيَّة مركب لها، وهي سـارية في البدن سريانَ ماء الورد في الورد، والنَّار في الفحم.

﴿وَظَنَّ﴾ رجَّح المحتضِر الذي بلغت روحه تراقيه، لأنَّه راغب في الحياة الدنيا الحبيبة له، فما دام فيه الروح يطمع فيها. أو معناه: أيقن، أو سمَّى إيقانَه ظَنًّا تهكُّما به. ﴿أَنَّهُ﴾ أي: ما نزل به مـن مقدِّمات الموت. ﴿الْفِرَاقُ﴾ موجب الفراق للدنيا، أو موجب لفراق الروح الجسد.

﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ الْتَوَتْ عليها عند شـــدَّة الموت، والباء بمعنى «على» كما رأيت، أو للملابســـة. أو التفـــاف إحداهما بالأخـــرى طيُّهما عن المشـــي والتصرُّف والوقوف عليهما، أو يبســـهما بالموت لا تملكان تحرُّكًا، كأنَّه لُفَّت إحداهما بالأخرى، ولو استوتا ولم تلتو إحداهما على الأخرى، لأنَّ الروح تخرج أوَّلا من القدمين والساقين فيبردان.

و«ال» للعهد، لأنَّه معلوم أنَّ للَّذي بلغت روحه التراقي ساقين، أو عوض عن المضاف إليه، أي: ساقه بساقه.

أو الساق الشدَّة، أي: اجتمعت عليه شـــدَّة فراقه للدنيا التي اشتدَّ حُبُّه لها، وشـــدَّة قدومه على ربِّه لخوف العذاب على التقصير إن كان مؤمنًا، وإن كان كافرًا فإنَّه يعرف أنَّه من أهل النَّار قبل خروج روحه. والتعريف على حدِّ ما مرَّ لأنَّه استعير ذلك من ساق البدن. أو ذلك اســـتعارة تمثيليَّة في اشتغال النَّاس ببدنه غســـلاً وكفنًا ودفنًا وغير ذلك، والملائكة تنقل روحه إلى السَّـــماء فتردُّ إلى القبر حسنة الحال، أو سيِّئتها.

يُقال: الساق بالسَّـــاق الشدَّة بالشـــدَّة، وذلك شـــدَّة فراق الدنيا في شدَّة الموت، أو شدَّة الموت مع شـــدَّة الآخرة. أو تتابعت عليه الشدائد، لا يخرج من شدَّة إلَّا دخل الأخرى أشدَّ منها. وعن ابن عبَّاس: أمر الدنيا وأمر الآخرة، فهو في آخر أيَّام الدنيـــا وأوَّل الآخرة، ويُقال: الملائكـــة تجهِّز روحه والنَّاس يجهِّزون جسده.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ﴾ متعلِّق باستقرار «إِلَىٰ رَبِّكَ»، أو بما بعده للتوسُّع في الظروف وللفاصلة. ﴿الْمَسَاقُ﴾ تقديمُ الخبر للحصر، والمساق مصدر ميميٌّ، وفي ذلك إخبار عن المصدر بمـــا يتبادر التعلُّق به، ولـــو كان غير مراد، ولو قيل: السَّـــوْق إلى ربِّك تبادر أن يتعلَّق «إلى» بالسَّوْق، مع أنَّه ليس كذلك، بل يتعلَّق بمحذوف خبر.

[نحو] ويُستدلُّ بذلك على أنَّ اسم «لَا» مبنيٌّ وما بعده خبره في نحو: لا مَلْجَأَ من الله، ولا حول عن معاصي الله، ولا قُوَّة على طاعة الله إذا لم نُنَوِّن ذلك.

ويقدَّر مضــاف، أي: إلى حُكم ربِّــكَ، أو موعود ربِّك مــن جنَّة أو نار. والسَّــائق الملك أو الملائكة، وإن اعتبرنا أنَّ السائق الله ﷻ لم يقدَّر مضاف، أي: يسوق الله لا غيره من شــاء إلى الجنَّة أو النَّار، وهذا السَّوْق أمْرُهُ إلى الله لا إلى غيره ولا مع غيره.

﴿**فَلَا صَدَّقَ**﴾ ما يجب التصديــق به، وهو الله تعالى ورســوله والوحي. ﴿**وَلَا صَلَّىٰ**﴾ فرضًا ولا نفلاً، والنَّفل لا يعتبر بلا فرض. والضميران على حدِّ ما مرَّ للإنســان آنفًا، أو إلى الإنســان في قوله: ﴿أَيَحْسِــبُ الِانسَانُ﴾ وعليه فالعطف ـ قيل ـ على ﴿يَسْأَلُ أيَّانَ...﴾ إلخ [سورة القيامة: 6] على أنَّ هذا السؤال إنكار للبعث، فكأنَّه قيل: أنكر البعث فلم يصــدِّق ولم يصلِّ، وذلك يتضمَّن التعجيب منه إذْ أنكر يوم القيامة، ورتَّب على إنكاره نفي التَّصديق والصلاة.

وقيل: من التصدُّق بالمال بمعنى لا أعطى الصدقة، كزكَّى: أعطى الزكاة، فيكون كقوله: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْــكِينَ...﴾ إلخ [ســورة المدثر: 44]، والأولى العطف على «التَفَّتِ السَّاقُ» على أنَّ الفاء لترتيب الذكر.

[أصول الدين] وفي الآية خطاب الكافر بالفروع، إذْ عُنِّف بترك الصَّلاة، أو بترك الزَّكاة والصَّلاة، **وفي الآية تعظيم الصَّــلاة بأنَّها تلي التوحيد**، وأخبر الله سبحانه أنَّ ذلك منه ليس توقُّفًا لشكٍّ بل جزم بالكفر بقوله تعالى:

﴿**وَلَكِن كَــذَّبَ**﴾ بالحقِّ. ﴿**وَتَوَلَّــىٰ**﴾ أعرض عنه، فلا يتكــرَّر مع قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾. ﴿**ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰٓ**﴾ «ثمَّ» للترتيب الذكري الرتبي في البُعــد، أي: أخبركم بعد ذلك بأمر منــه عظيم في القبح، وهو أنَّه مع قوله الفظيع وتكذيبِه وتولِّيه ذَهب إلى أهله مُطمَئِنًّا فرِحًا لم يخف معاجلة العذاب على ذلك.

[صرف] والتمطِّي: التبختر، قيل: لأنَّ المتبختر يمدُّ خطاه، وأصله التَّمطُّط قلبت طاؤه الثالثة ياء، وفي الماضي ألفًا لتوالي الأمثال، كتقضَّى البازي أصله: تَقَضَّضَ، قلبت الضَّاد الثالثة ألفًا، وتظنَّى أصله: تظنَّن فالإعْلالُ عارضٌ.

أوْ تَمَطَّى من المَطَا وهو الظَّهر، والمتبختر يَلْوِي ظهره، فأَلِف «تَمَطَّى» على هذا بدل من الواو الذي هو لام الكلمة، لَا من أَحَدِ الأمثال، فالإعلال فيه أصيل لا عارض.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا مشت أمَّتي المطيطا، وخدمتهم بنات فارس والروم جعل الله بأسَهُم بينهم، وسلَّط شرارهم على خيارهم**»[1].

وقيل: الآية نزلت في أبي جهل، وكان التبختر عادة في أبي جهل، وكثيرًا في قومه من بني مخزوم، وقد مرَّ أنَّ قوله: ﴿أيَحْسِبُ الِانسَانُ...﴾ إلخ فيه، وقد مرَّ لك أنَّ تعميم الإنسان فيما مضى للبرِّ والفاجر لا يُعارضه ذكر ما للفاجر خصوصًا، والحاصل أنَّ الحُكم على الجنس بأحكام لا يضرُّ فيه تخصيص بعض الأفراد بحكم منها.

﴿**أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ**﴾ خطاب للكفَّار كلِّهم على سبيل البدليَّة، وقيل: لأبي جهل، ويلتحق به غيرُه، وذلك كلمة تهديد. قيل معناه ويل لك مرَّة بعد أخرى، أو أنت أجدر بهذا العذاب.

[صرف] فقيل: «أَوْلَى» اسم تفضيل من الولي بمعنى القرب، ثمَّ غلب في قرب الهلاك والدعاء بالسوء، نائبًا عن المصدر، كأنَّه قيل: هلاكًا أولى لك، بمعنى: أهلكك الله تعالى إهلاكًا أقرب إليك من كلِّ شرٍّ وإهلاك، كما غلب «بُعْدًا» و«سحقًا» في الهلاك.

---

(1) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره: مج 10، ص 187، بدون تخريج ولا ذكر للسند.

وقال الأصمعيُّ: «أَوْلَىٰ» فعل ماض، أي: قارب لك هُو، أي: الهلاك، يدلُّ عليه السياق، وقيل: ماضٍ، فيه ضمير لله ﷻ على صورة الدعاء، أو يقدَّر: قُل دَاعِيًا، أي: أولاك اللهُ ما تكره. واللَّام في ذلك كلِّه زائدة، أو بمعنى «مِنْ».

[صرف] وقيل: اســم فعل بمعنى: وليك. وقيل: اسم تفضيل خبرًا لمبتدأ محذوف يقدَّر في كلِّ مقام بما يليق، فيقدَّر للكافر: النَّار أولى لك، أي: أنت أحقُّ بها.

والجملة تأكيدٌ للأولى، والترتيب ذكريٌّ، أو مؤسّســة لِشَرٍّ آخر أعظم من الأوَّل كأنَّما قيل: ويل لك يوم الموت، وويل لك فــي القبر، وويل لك حين البعث، وويل لك في النَّار.

وعن ابن عبَّاس: قال رسول الله ﷺ ـ أي: لأبي جهل ـ: «**أولى لك فأولى ثمَّ أولى لك فأولى**» فأنزله الله تعالى، يعني أنَّه في اللَّوح المحفوظ حين خلق القرآن قبل خلق آدم. ويُروى أنَّه لَمَّا نزلت الآية أخذ رســول الله ﷺ بمجامع ثوب أبي جهل لعنه الله في البطحاء، وقال: «**أولى لــك فأولى، ثمَّ أولى لك فأولى**»، فقال: أتتوعَّدني يا محمَّد؟! والله لا تســتطيع أنت ولا ربُّك أن تفعل لي شيئًا، أنا أعزُّ من مشــى بين جبليها. وَلَمَّا كان يوم بدر صرعه الله شــرَّ صرعة، وقتله الله أشدَّ قتلة، وكان ﷺ يقول: «**إنَّ لكلِّ أمَّة فرعونًا وفرعون هذه الأمَّة أبو جهل**»(1).

﴿**أَيَحْسِبُ الِانسَانُ أَنْ يُّتْرَكَ سُدًى**﴾ ذكر هذا بعد قوله: ﴿أَيَحْسِبُ الِانسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَـهُ﴾ للتَّأكيد وزاده حســنًا ذكر إنكار الحشــر قبله تكريرًا لإنكاره قبلُ، أي: إنَّه، أي: الإنسان أو الشأن. و«سُدًى» مفعول ثانٍ لـ«يُتْرَكَ»، أي: مهملاً، أو حال، ومعنى إهماله أن لا يكلَّف ولا يجازى، أو يترك في قبره بلا بعث، والاستفهام إنكار.

---

(1) أورده **السـيوطي** في الدرِّ المنثور، ج 8، ص 363، وقال: أخرجه عبد الرزَّاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة.

[أصول الدين] قيل: الآية دليل عقليٌّ على البعث، من حيث إنَّ الحكمة تقتضي الأمر بالمحاسن والنهي عن القبائح، وذلك تكليف، وهو لا يتحقَّق إلَّا بالمجازاة، وقد لا تكون في الدنيا فتكون في الآخرة، فلا بدَّ من البعث لتكون الآخرة.

[قلت:] ويردُّه أنَّه لا يلزم الجزاء على التكليف عقلاً، ولا يلزم السيِّدَ أجرةٌ لعبده عقلاً، لأنَّه ملك له، ولا سيما المالك الخالق ﷻ، وأنَّه لا يلزم عقلاً أن يكون الجزاء جزاء الآخرة، وأنَّه يجوز عقلاً أن يكون لبعض في الدنيا ولبعض في الآخرة.

﴿**أَلَمْ يَكُ**﴾ الإنسان ﴿**نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ تُمْنَىٰ**﴾ يمنيها الرجل ويصبُّها في الرَّحم، أو يقطعها الله سبحانه من دم الرَّجل. ﴿**ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً**﴾ ثمَّ خلقنا النطفة علقة ﴿**فَخَلَقَ**﴾ أي: قدَّر، جعلها مُخَلَّقه ﴿**فَسَوَّى**﴾ عدَّلها وكَمَّلها ﴿**فَجَعَلَ مِنْهُ**﴾ من الإنسان، أو من المنِيِّ ﴿**الزَّوْجَيْنِ**﴾ الصِّنفين ﴿**الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ**﴾ بدل أو بيان، والخنثى المشكل عند الله أحدهما، أو قسم ثالث شاذٌّ لا يذكره لِشُذوذه.

﴿**أَلَيْسَ ذَٰلِكَ**﴾ العظيم الشأن الخالق لذلك ﴿**بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَنْ يُّحْيِيَ الْمَوْتَىٰ**﴾؟ مع أنَّ الإعادة في بادئ العقل أسهل من الخلق الأوَّل؟ وهما عند الله ﷻ سواء.

روى أبو داود عن أبي هريرة أنَّه قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ منكم ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾، فانتهى إلى آخرها ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾؟ فليقل: بلى، وأنا على ذلكم من الشاهدين. ومن قرأ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فانتهى إلى ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ؟﴾ فليقل: بلى. ومن قرأ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ فبلغ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُومِنُونَ﴾، فليقل: آمنَّا بالله**»[1].

(1) رواه **أبو داود** في كتاب الصلاة، باب مقدار الركوع والسجود، رقم: 887. وروى **الترمذيُّ** الجزء الأوَّل منه في كتاب التفسير (84) باب ومن سورة التين 56، رقم: 3347، من حديث أبي هريرة.

وهذا تمثيل، فـإنَّ نظائر ذلك مثلُـه، وذلك في الصَّلاة ولـو فريضة عند بعض، وفي غير الصَّلاة. وكذا إن لم يقرأ من أوَّل السـورة بل من وسطها أو من آخرها، أو لم يقرأ إلَّا تلك الآيات، وكذا إن سمعها وذكر السورة بتمامها، لأنَّ القراءة من أوَّل السـورة إلى آخرها، هو المعتاد عندهـم، وللترغيب في ابتدائها وختمها.

وعن موسـى بن أبي عائشـة كان رجل يصلِّي فوق بيتـه، وكان إذا قرأ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾؟ قال: «سـبحانك بلى»، فسألوه عن ذلك، فقال: سمعته من رسول الله ﷺ، رواه أبو داود[1].

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



(1) رواه **أبو داود** في كتاب الصلاة، باب الدعاء في الصلاة، رقم: 884. من حديث موسـى بن أبي عائشة.

76

تفسير سورة الإنسان

مدنيَّة وآياتها 31 ـ نزلت بعد سورة الرحمن

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿1﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿2﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿3﴾﴾

خلق الله الإنسان وهدايتُه إلى السبيل

[نحو] ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَلَ**﴾ حرفٌ وضع للاستفهام من أوَّل مرَّة كهمزة الاستفهام، وليس أصله التحقيق في الإخبار، كقَدْ ثمَّ نقل إلى الاستفهام نيابةً عن الهمزة، ولا باقيةً على التحقيق مقدَّرًا قبلها همزة الاستفهام.

[قلت:] ومن العجائب دعوى ذلك بمجرَّد بيت شاذٍّ:

سائل فوارس يربوع بشدَّتنا أَهَلْ رَأَوْنَا بسفْحِ القاع ذي الأَكَم[1]

---

(1) البيت لزيد الخيل في ديوانه، ص155. انظر: **إميل يعقوب**: شواهد اللغة، ج7، ص396.

بدخول الهمزة عليها، وما هذا إلَّا تأكيد، مع أنَّ الرواية الصَّحيحة: «أمْ هَلْ رَأَوْنَا» بِأَمْ المنقطعة بمعنى بل كما قال السيرافي[1]. ومع أنَّ في نسخة قديمة وجدها السيوطي: «فَهَلْ رَأَوْنَا» بالفاء، فهي استفهاميَّة حقيقةً.

والاستفهام هنا تقريريٌّ، وإذا استعملت في غير الاستفهام فمجاز، كما فسَّرها ابن عبَّاس بمعنى «قد»، وكذا سيبويه والكسائي. وقيل: للتقريب. وقيل: للتحقيق، ولا يؤتى لها بمعادل، وعبارة بعض: إذا كانت بمعنى الهمزة جاز أن يؤتى به، وعبارة بعض: تجوز بعدها «أم» المنقطعة.

ومعنى الآية: هل أتى على الإنسان زمان لم يوجد فيه؟ فيقال: نعم، فلزمه شكر نعمة الإيجاد، ويَحْقِر نفْسَهُ، ويعترفُ بالبعث كما خلق بَعْدَ عَدَمٍ.

﴿أَتَىٰ﴾ مضى ﴿عَلَى الإِنسَانِ﴾ الجنس على الصحيح، ولا مدخل فيه لآدم، وبه قال ابن عبَّاس، وقيل: آدم عليه السلام، وهو رواية عنه، ويردُّه أنَّه وُصف بَعْدُ بأنَّه من نطفة وآدم من تراب، والإنسان بعدُ هو هذا، لأنَّه معرفة ولم يضمر له بعدُ إذْ قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ﴾ ولم يقل: خلقناه للتأكيد، ودعوى أنَّه آدم على أنَّه وصف بالنطفة لأنَّ جنسه منها خلاف الأصل والظاهر.

[قصص] وقيل: الإنسان الأوَّل آدم والثاني أولاده، قيل: صوَّر الله تعالى آدم في الأرض أو في السَّماء أو في الجنَّة، أقوال أصحُّها الأوَّل، وطاف به إبليس فقال: إنَّ هذا لا يتمالك لأنَّه أجْوفُ، أي: خالي الوسط، ومعنى لا يتمالك لا يكون مَلَكًا من الملائكة، أو لا يملك نفسه عن الشهوات، أو لا يملك دفع الوسواس عنه، أو لا يملك نفسه عند الغضب، أو لا يمتنع من الغضب.

---

(1) السيرافي أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرْزُبان السيرافي، إمام النحو وفنون عدَّة، أخذ العلم عن ابن دريد وابن مجاهد وأبي بكر بن السراج في بغداد، تصدَّر لإقراء القراءات واللغة والفقه والفرائض والعربيَّة والعروض، وكان ديِّنا متورِّعًا، ولي القضاء ببغداد وهو ممَّن ينسخ الكتب. تُوُفِّيَ سنة 368هـ. **الحمصي**: تهذيب سير أعلام النبلاء، ج 2، ص 176.

ووجه القول بأنَّ الأوَّل آدم والثاني الإنسان أنَّ الأوَّل أحقُّ بأن لا يكون مذكورًا والثاني وصف بالنطفة.

﴿**حِينٌ**﴾ طائفة من الزمان محدودة طويلة أو قصيرة ﴿**مِنَ الدَّهْرِ**﴾ الزمان الممتدِّ غير المحدود، يقع على مدَّة العالم من حين خلق الله الزمان إلى ما لا نهاية له، فإنَّ الجنَّة والنَّار لا نهاية لهما، ويطلق الدهر أيضًا على كلِّ زمان طويل غير معيَّن، والزمان عامٌّ للقليل والكثير.

ويطلق على ستَّة أشهر أنَّها دهرٌ وحينٌ، وفسَّر بعض الحين باليوم واللَّيلة. والمعنى: قد أتى، أو هل أتى على جنس الإنسان ـ قبل زمان قريب مثلاً ـ طائفةٌ محدودةٌ مقدَّرة كائنة من الزمان الممتدِّ لا يُذكرُ؟ كما قال الله عَجَّلَ: ﴿**لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا**﴾ بل كان شيئًا لا يُذكر بالإنسانيَّة، أي: غير معروف بها، وهو التراب وما يتولَّد منه.

والتراب هو العنصر البعيد، أو هو الأغذية وهي العنصر المتوسِّط، أو النطفة وهو العنصر القريب المتولِّد من الأغذية المخلوقة من العناصر.

[نحو] والجملة حال من «الإِنسَانِ»، أو نعت لـ«حِينٌ» على حذف الرابط العائد إلى المنعوت، أي: لم يكن شيئًا مذكورًا فيه، وعليه فأضمر ضمير الإنسان مع جريان النعت على غير ما هو لظهور المعنى، والصَّحيحُ جوازُ ذلك كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ...﴾ إلخ [سورة البقرة: 48]، أي: لا تجزي فيه.

[بلاغة] وإطلاق الإنسان على مادَّته مجاز لعلاقة الآلة أو التسبُّب أو اللُّزوم، أو لعلاقة الأوْل.

[قصص] وقد مرَّ أنَّه قيل: آدم مرَّت به ـ ملقًى بين مكَّة والطائف ـ أربعون سنة طينًا، ثمَّ مرَّت به أربعون سنة حمأً مسنونًا، ثمَّ أربعون صلصالا، فكان تامَّ الخلق، وذلك مائة وعشرون، ثمَّ نفخ فيه الروح.

وعن عكرمة: **لا يعرف قدر هذا الحين إلَّا الله أبهمه الله ﷻ.**

[قلت:] وزعم بعض الصوفيَّة أنَّ «هل» للنفي، وأنَّ المعنى: لا أوَّل للزمان ولا للإنسان، يوجد ويفنى بلا أوَّل لذلك، وهذا إشراك، ولا أظنُّ موحِّدًا يقوله، وهو نفي للأزل عن الله، وإثبات للقدماء مع الله، ولعلَّ الرواية لم تصحَّ، وإن قال: لا أوَّل لثبوته عند الله سبحانه أنَّه سيكون فحقٌّ، لَكِنَّ المخلوقات كلَّها كذلك.

وسمع عمر رجلاً يقرأ هذه الآية فقال: ليتها تمَّت، أي: ليته بقي الإنسان على العدم ولم يخلق، وكذا روي عن الصدِّيق وابن مسعود رضي الله عنهم.

[صرف] ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الاِنسَانَ**﴾ البشر غير آدم ﴿**مِن نُّطْفَةٍ اَمْشَاجٍ**﴾ جمع «مَشَج» بفتحتين، كسبب وأسباب، أو بفتح فكسر، ككتف وأكتافٍ، أو «مشيج»، كشهيد وأشهاد، ونصير وأنصار، نعت «نُطْفَةٍ»، وقيل: هو مفرد كبرمة أعشار.

والمشْجُ: الخلط. ولاشتمالها على أشياء نعتت بالجمع، فإنَّها من الرجل والمرأة، والرقَّة والغلظة، والصفرة والبياض، والقوَّة والضعف، والدم والبلغم والصفراء والسوداء.

[قيل:] ماء الرجل أبيض غليظ ومنه العصب، والعظم، وإن علا كان الشبه له، وماء المرأة أصفر رقيق ومنه اللَّحم والدم والشعر فإن علا كان أشبه لها، وإذا اجتمعا في قعر الرحم اخضَرَّا.

وعن مجاهد: ﴿اَمْشَاجٍ﴾: ألوان. وعن ابن مسعود وزيد بن أسلم: ﴿اَمْشَاجٍ﴾: العروق التي في النطفة، أي: ذات عروق. وعن ابن عبَّاس: ﴿اَمْشَاجٍ﴾: أطوار، أي: ذات أطوار: علقة مضغة... إلخ، واللَّحم والدم والضعف من المرأة، والعصب والعظم والقوَّة من الرَّجل. وقيل: نطفة أمشاج



خلطت بدم الحيض فيرتفع دم الحيض ويتغذّى به أيضًا، وقيل: ﴿أَمْشَاجٍ﴾: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة(1).

﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ حال من «نا»، أو من «الإِنسَانَ» مقدَّرة، لأنَّ المراد الابتلاء بالتكليف، وهو غير موجود وقت الخلق، وقيل: الابتلاء مستعار للنقل من طور إلى طور لجامع ظهور الشيء بعد الشيء، مرتَّبًا عليه يظهر كلُّ طور بعد آخر مبنيًّا عليه كما يظهر الأمر بالاختبار شيئًا فشيئًا.

أو المعنى: أردنا ابتلاءه فجعلناه سميعًا بصيرًا كما قال ﷻ: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاَۢ بَصِيرًا﴾ بسبب إرادة الابتلاء يسمع ما يرشد إليه، ويبصر بعينيه ما يحتاج في دينه إلى النظر إليه. وخصَّ الحاسَّتين لأنَّهما أعظم الحواسّ الظاهرة، أو هما كنايتان عن الفهم والتمييز.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ بيَّنَّا له الطريق المستقيم ليتَّبعه، وهو دين الإسلام، بالآيات المتلوَّة وهي نَقلِيَّة، والآفاقيَّة والأنفسيَّة وهما عقليَّتان، أو المراد بالسبيل سبيل الحقِّ والباطل.

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ حالان من الهاء الثانية، و«إِمَّا» لتفصيل الأحوال مع اتِّحاد الذات، أي: أرشَدناه إلى ما يوصله إلى الدين المستقيم، حال شكره وحال كفره، وليس في حال كفره غير مدلول على الدين. أو للتقسيم للمكلَّف باختلاف الذوات والصِّفات، أي: بعضهم شاكرٌ باتِّباع التبيين، وبعضهم كافرٌ لمخالفته.

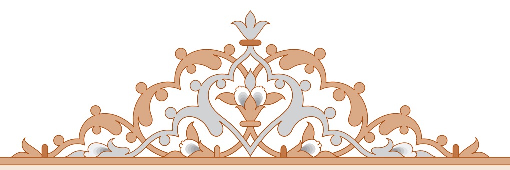
أو حالان من «السَّبِيلَ» على إسناد الشكر والكفر إلى السَّبيل مجازًا، لأنَّهما حقيقة لسالك السَّبيل، وعلى هذا فـ«السَّبيل» يشمل الدين الحقَّ والباطل، أيْ: بيَّنَّا له الحقَّ والباطل.

---

(1) للعلم الحديث رأي آخر غير ما ذكر.

[أصول الدين] وَكُلُّ ذلك بخلق الله تعالى واختيار العبد، ولا إجبار، وإلَّا لم يُثَب ولم يُعاقب، والمراد الجزاء؛ **إمَّا شاكرًا فيثاب، وإمَّا كفورًا فيعاقب.**

[بلاغة] وأورد الشكر بوزن فاعل، والكفر بوزن المبالغة لأنَّ الإنسان لا يخلو من كفر، فالكفر كثير منه، وهو مناسب للفاصلة، وفي ذلك تلويح بأنَّه يعاقب على الكفر البليغ، وكفر كلِّ شقيٍّ بليغ ولو قلَّ، لأنَّ الإصرار بليغ، فلو أصرَّ الموحِّد الفاسق على صغيرة واحدة لكان كَفُورًا، ولأنَّ نعم الله كثيرة عليه وقد كفرها كلَّها بإصراره.



﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿4﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿5﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿6﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿7﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿8﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿9﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿10﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿11﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿12﴾ ﴾

جزاء الكفار والأبرار يوم القيامة

﴿**إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ**﴾ هيَّأنا لهم بسبب كفرهم بعد تبييننا ﴿**سَلَاسِلاً**﴾ يقادون بها ﴿**وَأَغْلَالاً**﴾ يقيَّدون بها ﴿**وَسَعِيرًا**﴾ يحرقون بها.

[بلاغة] قدَّم ذكر الوعيد ليتَّصل بذكر أهله إذْ أُخِّروا قَبْلُ، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الذِينَ اسْوَدَّتْ﴾ [سورة آل عمران: 106]، ولأنَّ الوعيد أنسب بمقام الإنذار، وعلى طريق الاهتمام، وليتصدَّر الكلام بالمؤمنين ويختم بهم، وليحصل تجاوب أطراف الكلام.

[صرف] وصرْفُ «سلاسل» مع أنَّه على صيغة منتهى الجموع مشاهَد في مصاحف المدينة ومكَّة والكوفة والبصرة ومصحف أُبيٍّ، ومصحف ابن مسعود، ووجهه المشاكلة، كصرف «كَافُورًا» علَمًا لعين في الجنَّة للمشاكلة، والعين مؤنَّث، وقد جوَّزُوا صرف ما لا ينصرف لأجلها، ولا سيما الجمع فإنَّه قيل سبب ضعيف لشبهه بالمفرد، ألا ترى أنَّه قد يجمع نحو «صواحبات

يوسف» بجمعه بتاء وألف، و«نواكســي الأبصار» بِجمعه بالياء والنون، وقد جوزَّ بعضهم صرفه مطلقًا، قال بعض:

والصَّرف في الجمع أتى كثيرًا حتَّى ادَّعى قوم بــه التخييرا[1]

وحكى الأخفش عن قوم مــن العرب صرف كُلِّ ما لا ينصرف إلَّا اســم التفضيل بوزن أفعل، **والقراءات مرويَّاتٌ من الصحابة لا اختيارٌ من القرَّاء.**

وذلك بيان حال الكفور. وبيَّن حال الشاكر بقوله:

﴿**إِنَّ الَابْرَارَ**﴾ أي: الشــاكرين، إلَّا أنَّه عبَّر عنهم باســم مدح آخر هو البرُّ الذي استحقُّوا به الجزاءَ واسمَ الشكر، مِنْ «بَرَّ» بمعنى أطاع وأَكْثَرَ فعل الخير. وقيل: أدَّى حقَّ الله تعالى، وأوفى النذر. وعن الحســن: لا يــؤذي الذَّرَّ، ولا يرضى الشرَّ، وهذا كناية عن المبالغة في الخير. [قلت:] **ومن الشرِّ ترك الخير.**

والمفرد «بَرٌّ»، كَرَبٍّ وأرباب، أو «بَارٌّ» كشاهد وأشهاد.

﴿**يَشْــرَبُونَ**﴾ في الآخرة ﴿**مِن كَأْسٍ**﴾ الكأس إناء فيه شــراب من ماء أو لبن أو خمر أو غير ذلك، ويُطلق أيضًــا عليه بدون اعتبار ما فيه، وعلى ما فيه بدون اعتباره، وشــهر أنَّه حقيقة في الزجاجة إذا كان فيهــا خمر، ومجاز في الخمر لعلاقــة الجوار، فإن أريد بهــا الخمر فـ«مِنْ» للتبعيــض أو للبيان، أو أُطْلِقَ على الزجاجة فـ«مِنْ» للابتداء.

ويدلُّ على كون المراد بها الخمر قوله تعالى: ﴿**كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا**﴾ لأنَّ المزج يناســب بمائع لمائع لا لزجاجــة، والمزاج: ما يمزج بــه، أي: يخلط بغيره، كالحزام لما يحزم بــه. و﴿كَافُورًا﴾ عينٌ في الجنَّة على حذف مضاف، أي: من ماء كافور.

يمنع الصرف للعلميَّة والتأنيث، ولكن صُرِّف للمشاكلة كما مرَّ، أو تشبيه بليغ بالكافور وذلك أنَّ ماءها في بياض الكافور ورائحته وبرودته.

(1) أورده **أبو حيَّان الأندلسي** في البحر المحيط، ج 10، ص 360، ونسبه إلى بعض الزُّجَّاز ولم يذكره.

[نحو] ﴿عَيْنًا﴾ بدل من «كَافُورًا»، وقيل: يمزج لهم بكافور الجنَّة ـ وهو غير شراب ـ ويختم بمسكها، وكافور الجنَّة لا يضرُّ كما يضرُّ كافور الدنيا. وإن شئت فبدل من محلِّ «كَأْسٍ» على حذف مضاف، أي: يشربون خمرًا من كأس خمر عين. أو حال من ضمير «مِزَاجُهَا»، على أنَّ المزاج جزء كأس على ما مرَّ، أو مثل جزئه ولو جامدًا لنعته بمشتقٍّ ومعموله، وهو «يَشْرَبُ بِهَا...» إلخ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [سورة يوسف: 2]، وقولك: أكرم زيدا رجلا عالِمًا.

﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ﴾ أي: يشرب منها، أو الباء صلة، أي: يشربها، أي: يشرب ماءها، ويدلُّ له قراءة ابن عبلة: «يَشْرَبُهَا»، وقيل: الباء للإلصاق، وقدَّر بعض: يشرب الخمر ممزوجةً بها، أي: بالعين. وقيل: «هَا» للكأس، والباء للتعدية، و«عَيْنًا» مفعول «يَشْرَبُ»، أي: يشرب عينا بالكأس، أي: يشرب ماء عين بالكأس. وقيل: ضمن «يَشْرَبُ» معنى يروى، أي: يروي بها.

والمراد بـ﴿عِبَادُ اللهِ﴾ المؤمنون، مَدَحَهُم باسم العُبُودِيَّة إذ عرفوا حقَّ الله وأطاعوه وأذعنوا بالعبادة.

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ يُنْبِعُونَهَا إنباعًا عظيمًا أو نوع إنباع، بأن ترتفع إليهم حيث كانوا من المواضع العالية بلا أخدود، وإنَّما هي كالطائر. وزعم بعض أنَّ بأيديهم قضبانًا من ذهب يخطُّون بها وتجري حيث خطُّوا، وفيه أنَّ هذا عمل وعلاجٌ، ولا يكون في الجنَّة ذلك. وفي أثر: أنَّ هذه العين في دار رسول الله ﷺ تفَجَّر إلى ديار الأنبياء والمؤمنين.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ جواب سؤال، كأنَّه قيل: ما أوصلهم إلى هؤلاء الدرجات؟ فقيل: أوصلهم إليها إيفاؤُهم بما جعلوا على أنفسهم من العبادات بينهم وبين الله، كصلاة النفل وصومه، أو بينهم وبين الخلق كالصدقة والعفو، وترك الانتقام، وسائر منافع النَّاس.

[قلت:] فإذا أوفـوا بما لم يوجبـه الله تعالى ـ بل أوجبوه بـلا تعليق أو بتعليق، مثل: إن شـفاني الله تصدَّقت بكذا، أو صمت أو صلَّيت كذا ـ فأَوْلَى أن يُوفوا بما أوجَبَهُ الله.

ويجوز أن يكـون المراد الوفاء بمـا عاهدوا الله عليه مـن أداء الواجبات والمستحبَّات.

وقيل: المرادُ مجـرَّدُ الوفاء بالعهد مدحًا له، وعن عائشـة رَضِيَ اللهُ عَنهَا: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من نذَر أن يطيع الله تعالى فلْيَفِ بنذره ومن نذَر أن يعصي الله فلا يـفِ به**»[1]، وفـي رواية: «**فليُطعه ولا يعصـه**»، وذلك في البخاري. وذكر الترمذيُّ وأبو داود والنسـائيُّ عن عائشـة عن رسول الله ﷺ: «**لا نذْر في معصية الله تعالى، وكفَّارته كَفَّارَة يمين**»[2] ويروى: «**كفَّارته تركه**».

وفي البخاريِّ ومسلم عن ابن عبَّاس استفتى سعد بن عبادة رسول الله ﷺ في نذر على أمِّه لم تقضه فأمره أن يقضيه بعد موتها.

[بلاغة] والمضـارعُ لإفـادة التجدُّد وتنزيـل الماضي منزلـة الحاضر المشاهد، والماضي لا يفيد ذلك.

﴿**وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْـتَطِيرًا**﴾ منتشرًا في الأقطار، والمراد انتشار الخوف منـه في الملائكـة والمؤمنيـن والكفَّار. ويقال: أو فُشُـوُّ شَـرِّه في

(1) لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ، وإنَّما روى **النسائيُّ** في كتاب الأيمان والنذور (41) باب كَفَّارَة النذر، رقم: 3854، ما يقاربه معنـى. وَأَوَّلُ الحديث عنده: «النذر نذران...»، وقال في الهامش: انفرد به النسائي، من حديث عمران بن حصين.

(2) رواه **الترمذيُّ** في كتـاب الأيْمان والنذور (1) باب ما جاء عن رسـول الله ﷺ أن لا نذر في معصية، رقم: 1524 و1525، **وأبو داود** في كتاب الأيمان والنذور، باب من رأى عليه كَفَّارَة إذا كان في معصية، رقم: 3290. **والنسائيُّ** في كتاب الأيمان والنذور (41) باب كَفَّارَة النذر، رقم: 3843. من حديث عائشة.

السَّماوات، فانشـقَّت وتناثرت الكواكب، وفزعت الملائكة، وكوِّرت الشمس والقمر، وفي الأرض، فصارت الجبال دَكًّا وأطيرت، وغارت المياه، وكسر كلُّ ما على الأرض من جبل وبناء.

[بلاغة] وذلك كقولك: اســتطار الحريق والفجر، وهو أبلغ من «طَار»، لأنَّ زيادة الحروف في الغالــب والأصْلِ تدُلُّ على زيادة المعنى، ولا ســيما صورة الاســتفعال الموضوع للطلــب، فــإنَّ ما بالطلب والعــلاج يبالغ فيه للمغالبة، فعبَّر بصورة ذلك تلويحًا له، أو شــبَّه انتشــاره بشيء مغالب للآخر ورمز إليه بلازمه.

﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَــىٰ حُبِّهِ**﴾ متعلِّق بـ«يُطْعِــمُ» وبمحذوف حال من الواو. و«الطَّعامَ» مفعول ثانٍ، و«مِسْكِينًا» مفعول أوَّل، لأنَّه الفاعل في المعنى لأنَّه الطَّاعم، أي: الآكل.

وهاء «حُبِّهِ» للطعام، أي: يطعمون الطعام مع أنَّه محبوب عندهم، مشتهًى لقلَّته أو لغلائه أو للحاجة إليه أو لجودته، أو لذلــك كلِّه، كقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ البِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [سورة آل عمران: 92].

أو الهاء للإطعام المدلول عليه بـ«يُطْعِمُــونَ»، أي: يحبُّون الإطعام بطيب النَّفس والرغبة، لا إجبارًا أو مداراة أو حياءً.

أو الهاء لله تعالــى، أي: لحبِّهــم الله وابتغاء مرضاته، وهــو قول قوم، فيكون عموم أحوال الطعام من نحــو القلَّة والغلاء والحاجةِ مســتفادًا من إطلاق الطعام.

وقيل: المراد بالإطعام النَّفع بطعام أو بغيره من ســائر ما يحســن به إلى المسكين واليتيم والأسير، استعمالاً للمقيَّد في المطلق، كاستعمال الأكل في مطلق الإتلاف.

ويُقال: للجنَّة ســلالم، منها: إطعامُك المسلمَ ما يشــتهي، وإطعام الحامل ما تشتهي، وإطعام المريض ما يشــتهي. قال ﷺ: «**إن أحببت يا عمر أن يخفِّف عنك البلاء قبل المــوت وعنده وبعده فَقُم مِنَ اللَّيْلِ ولــو رَكْعَتيْن، وإن أحببت يا عمر أن يخفَّف عنــك البلاء قبل المــوت وعنده وبعده فلا تفــارق ذكر الله تعالى، كما لا تفارق الــدوابُّ الأكل في اللَّيل والنَّهــار، وإن أحببت يا عمر أن يخفَّف عنك البلاء قبل الموت وعند الموت وبعده فأَنفِقْ من مالٍ من قليل**»[1].

وقوله: «من قليل» أراد به قلَّة المال مطلقًا، وقلَّة مال عزيز مع وجود كثرة المال.

﴿**مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا**﴾ من المشركين، كان ﷺ يدفع الأسير إلى مسلم ويقول له: «**أحســن إليه**»، فيكون عنده يومًا أو يوميــن أو ثلاثة، ويؤثره على نفســه، لكن قال ابن حجر: لم يذكر هذا الحديث من يعتمد عليه، قال قتادة: لأنَّ أسيرهم يومئذ المشرك، وأخوك المسلم أحقُّ أن تطعمه.

[قلت:] فإن قُبــض على موحِّدٍ في قتال أهل الفتنــة وحُبس عن قتالٍ فلم يطلق لذلك دخل في معنى الآية.

[سيرة] أنفق أبو بكر وعمر وعليٌّ والزبير وعبد الرحمٰن وسعد وأبو عبيدة بن الجرَّاح على أســارى بدر فقالــت الأنصــار: قاتلناهم في الله ورســوله وتعينوهم بالنفقة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الاَبْرَارَ...﴾ إلى ﴿... سَلْسَبِيلاً﴾ تسع عشرة آية.

[نقد الحديث] وهو حديث لا وثوق بصحَّته، وما رواه إلَّا ابن عســاكر، مع أنَّ الســورة مكِّيَّة عند الجمهــور، والقصَّة تقتضــي مدنيَّتها، وعن مجاهد وقتادة: إنَّها مَدَنِيَّة، وعن الحسن: مَدَنِيَّة إلَّا ﴿وَلَا تُطِعْ مِنهُمُوٓ ءَاثِمًا اَوْ كَفُورًا﴾، وقيل: إلَّا ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ...﴾ إلى آخر السورة.

[قلت:] ولا خلاف في جواز الإحســان إلى الكفَّار في دار الإســلام بما ليس واجبًا، ككفَّارة وزكاة.

---

(1) لم نقف على تخريجه.

وقيل: هو الأسير المسلم في أيدي المشركين يطعمه من لقيه من المسلمين، أو يرسل إليه الطعام، وكذا ما ينفعه. وعن مجاهد أنَّه الموحِّد المسْجُون. [قلت:] وإن حُبس في دَيْنٍ له ما يفي به وامتنع لم يحسن إطعامه إلَّا أنَّه لا يترك للموت، لأنَّه أعانه على المنع، وكذا ما أشبه ذلك من الأغراض النفسيَّة. وقال أبو سعيد الخدري: المملوك والمسجون شبِّها بالأسير لجامع الضيق.

وَقِيلَ: الزوجة، وهو ضعيف، لكن في الحديث: «**اتَّقوا الله في النِّساء فإنَّهنَّ عندكم عوانٍ**»[1]، أي: أسارى، وقيل: غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك، ولا يخفى حُسْنُ ذلك كلِّه.

﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ**﴾ مفعول لحال من واو «يُطْعِمُونَ»، أي: قائلين بلسان الحال أو القال: «إنَّما نطعمكم...» إلخ. أمَّا لسان الحال فما يظهر عليهم من أمارات الإخلاص فمدحهم الله تعالى بما في قلوبهم، وأمَّا لسان القال فلإزالة توهُّم هؤلاء قصد المكافأة والمنِّ قيل: ولتعليم المسكين واليتيم والأسير أمر الدين من وجوب الإخلاص في الإطعام لله تعالى، ونفي الرياء وحبِّ المدح، وليقتدي به غيرُه في عمل الخير وإخلاصه، ومن الاستعداد ليوم القيامة.

﴿**لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً**﴾ مكافأة بمال أو غيره ﴿**وَلَا شُكُورًا**﴾ مدحا، وهذا تأكيد لما قبله.

[قلت:] ومن تصدَّق بشيء لوجه الله تعالى فلا ينبغي أن يقصد دعاءً من المتصدَّق عليه. وكانت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنهَا تبعث بالصدقة إلى أهل بيت، ثمَّ تسأل الرسول: ما قالوا؟ فإذا ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى لها ثواب الصدقة خالصًا عند الله ﷻ.

---

(1) هذا جزء من خطبة الوداع التي قالها الرسول ﷺ في عرفات. وقد أوردها جلُّ كتب الحديث، وَأَوَّلُها قوله ﷺ: «يا أيُّها الناس أيُّ يوم أحرم...».

فإن صحَّ عنها هذا فليس مرادُها أنَّه ينقص ثوابُها بدعائهم، بل أرادت ثوابًا خالصًا عن إثابة مخلوق، ولو كان لا ينقص بها، وإلَّا فليس ينقص ثواب المعطِي بدعاء المعطَى، مع أنَّ المعطِيَ لم يقصده في إعطائه.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَبِّنَا...﴾ إلخ «مِنْ» للابتداء متعلِّق بـ«نَخَافُ»، والمعنى: نتوقَّع منه، أو حال من «يَوْمًا». والجملة تعليل لـ«نُطْعِمُكُمْ»، أي: نطعمكم لأنَّا نخاف، أو لقوله: ﴿لَا نُرِيدُ﴾، أي: لا نريد... إلخ لأنَّا نخاف ـ على إرادة الجزاءِ ـ عذابَ يومٍ قمطريرٍ.

[قلت:] وزعم بعض أنَّه أصحُّ، وفيه تشديد إذا كان الإطعام غير واجب، فإنَّ إبطال النفل بطلب عوض مبطل لثوابه، لا موجب للعقاب إذا بطل بغير ما هو معصية، وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُواْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [سورة محمد: 33]، فإنَّه عامٌّ، إلَّا أنَّه فيما قصد به ثواب الله من أوَّل ثمَّ أبطل، أمَّا إذا قُصِدَ من أوَّل الأمر عوض فلا ثوابَ فضلاً عن إبطاله.

﴿يَوْمًا﴾ أي: عذاب يوم، أو خوفُه كنايةٌ عن خوف ما فيه.

[بلاغة] ﴿عَبُوسًا﴾ التعبُّس لوجوه أهله، فإسناده إليه ـ إسناد ما للحالِّ للمحلِّ ـ مجاز عقليٌّ، أو يقدَّر مضاف، أي: عبوسًا وجوهُ أهله. وعن ابن عبَّاس: إنَّ الكافر يعبس وجهه يومئذ حتَّى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران، ويجوز أن يراد بالتعبُّس الكناية عن مطلق الشدَّة حتَّى يشمل ما يصيب المؤمن منها.

﴿قَمْطَرِيرًا﴾ شديد العبوس بإسناد ما للحالِّ للمحلِّ. وعن ابن عبَّاس: طويلاً في الشرِّ، ويُقال: شديدًا صعبًا، كأنَّه التفَّ شرُّه بعضه ببعض، ويُقال: اقْمطرَّ فهو مُقْمطِرٌّ وقمطرير إذا صعب واشتدَّ.

[سبب النزول] والآيات على العموم، ولو خصَّ سببُ النزول فقيل: نزلت في أبي الدحداح من الأنصار، جاءَهُ وقت الإفطار مسكينٌ ويتيمٌ وأسير

فأعطاهم ثلاثة أرغفة، وبقي له ولأهله رغيف واحد. وذكر عن ابن عبَّاس أنَّها نزلت في عليٍّ، أصلح ثلث سَعْي أجرة من عمله ليهوديٍّ ليأكله، فأتاه مسكين فأعطاه، وعمل ثلثا فأتاه يتيم فأعطاه، وكذا الثلث فأتاه مشرك أسير فأعطاه، وطوى يومه وليله هو وأهله.

﴿**فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ**﴾ بسبب خوفهم وتحفُّظهم ﴿**وَلَقَّاهُمْ**﴾ جعلهم لاقين ﴿**نَضْرَةً**﴾ في الوجوه والأعضاء ﴿**وَسُرُورًا**﴾ في القلوب بدل عبوس الفجَّار وحزنهم.

﴿**وَجزَاٰيهُم بِمَا صَبَرُواْ**﴾ بسبب صبرهم على ترك هوى النَّفس وعلى أداء الفرائض وما دونها، وعلى المصائب والفقر والجوع والوفاء بالنذر، وإيثار غيرهم. و«مَا» مَصدَرِيَّة. ﴿**جَنَّةً**﴾ بستانًا عظيمًا هو كلُّ الجنَّة، لأنَّ لكلِّ واحد منها مقدارًا يأكل منه ما يشاء. ﴿**وَحَرِيرًا**﴾ يلبسه سترًا لعورته وتجمُّلاً، لا لحرٍّ أو برد.

﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ۝١٤ وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ۝١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ۝١٦ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ۝١٨ ۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ۝١٩ وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ۝٢٠ عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ۝٢٢ ﴾

مساكن أهل الجنَّة وأشربتهم وخدمهم

[نحو] ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ حال من الهاء في «جَزَاهُم» مقدَّرة على تفسير «جَزَاهُم» بأدخلهم أو أعطاهم. وخصَّ الجزاء بالاتِّكاء لأنَّه أتمُّ حالات المتنعِّم. وقيل: حال مقدَّرة من واو «صَبَرُوا»، أي: صبروا ناوين بصبرهم الاتِّكاء، وهو ضعيف خلاف الأصل. وقيل: نعت «جَنَّةً»، ولم يبرز الضمير مع جريان النَّعت على غير ما هو له لأمْنِ اللَّبس، فالأصل متَّكأُهُمْ فيها، بإفراد «متَّكأ» و«هم» فاعل لـ«متَّكأ».

[نحو] ولا تقل: الأصل: «متَّكئين هم فيها» بالجمع، لأنَّ الجمع فيه ضمير مستتر ولا بُدَّ، لأنَّه وصف، إلَّا على لغة «أكلوه البراغيث». وأجاز الكوفيُّون عدم الإبراز في ذلك إذا أمن اللَّبس وهو ظاهر في الآيات، فلا يلزم أن يكون منه قوله:

قومي ذُرى المجد بانوها وقد علمت   بِكنه ذلك عدنان وقحطان[1].

لتبادر أنَّ المراد حذف المبتدأ، أي: هم بانوها.

---

(1) البيت من الشواهد وهو بدون نسبة. انظر: **إميل يعقوب**: شواهد اللغة، ج 8، ص 108.

[لغة] ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ يُطلق على الأسـرَّة عليها ستور، والمفرد أريكة، وقيل: الأريكة كلُّ ما اتُّكئ عليه من سرير في ستر أو في غيره، ومن غير سرير كفراش ووسادة، من قولهم: أرِكَ بالمكان أقام فيه، وأصل الأراك الإقامة على رعي الأراك، ثمَّ استعمل في كلِّ إقامة مطلقًا.

﴿**لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا**﴾ حال ثانية، أو حال من المستتر في «مُتَّكِئِينَ»، أو نعت لـ«جَنَّةً». والزَّمهرير: البرد، أي: لا يرون فيها حرَّ شمس ولا بردًا، فحذف المضاف، أو أريد بنفي الشَّمس نفيها ونفي لازمها، وهو الحرُّ.

وقيل: الزَّمهرير القمر في لغة طيِّئٍ، قال شاعرهم:

وليلـةٍ ظلامُهـا قـد اعتكـر قطعتهـا والزمهريـر ما زهر[1]

ونفيه القمر نفي للحرِّ، أو يقَدَّرُ الحرُّ منسوبًا إليه مع الشَّمس، أي: لا يرون فيها حرَّ شمسٍ ولا زمهريرٍ، أي: ولا حرَّ قمرٍ.

والمشاهد أنَّ الأنوار حارَّة، فطبعُ القمر الحرُّ لا البردُ كما ادُّعي. ويجوز أن يكون المعنى: إنَّ هواء الجنَّة مُضيءٌ بلا شمس ولا قمر، وتارة يكون نور أشدُّ من نور الجنَّة كالشَّمس، كما إذا ضحكت حوراء [كما قيل] في وجه زوجها، ولا مضرَّةَ في ذلك ولا حرَّ، وأنوار الجنَّة غير حارَّة[2].

﴿**وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ**﴾ حال أخرى معطوفة على حال قبلها، وهي جملة «لَا يَرَوْنَ»، أو على «مُتَّكِئِينَ»، أو على ما هو حال من الجنَّة، أو نعت معطوف على ما هو نعت لـ«جَنَّةً»، أو عطف على «جَنَّةً»، أي: وجنَّة دانيةً،

---

(1) ذكره كثير من المفسِّرين في تفسير الآية ذاتها ولم ينسبوه.

(2) وصدق الشيخ أبو نصر حيث قال في نونيته: «وأحكام تلك الدار ليست كهذه». ينظر ديوانه، ط. حجريَّة، ص 2.

كما قال الله ﷻ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [سورة الرحمن: 46]. ﴿**ظِلَالُهَا**﴾ فاعل «دَانِيَةً»، والمراد ظلال أشجارها من نورها كما يكون الظلُّ على الشمس، وليس المراد أنَّ ظلالها عن حرٍّ يكون فيها، بل يتلذَّذون بتلك الظلال نَوْعَ تلذُّذٍ.

﴿**وَذُلِّلَتْ**﴾ سهِّلت كالشيء الذَّليل ﴿**قُطُوفُهَا**﴾ جمع قطف، وهو ما يُقطف، أي: يقطع منها. ﴿**تَذْلِيلاً**﴾ عظيمًا، أو نوع تذْليلٍ، وهو تصييرها بحيث ينالها القائم والمنحني والراكع والقاعد والمتَّكئ والمضطجع، أو هي **عالية إذا أرادها قربت بحيث ينالها** ولو مضطجعًا، لا يُفيتُها بعدٌ أو شوك لعدمه.

والجملة معطوفة على ما قبل، أو حال من المستتر في «دَانِيَةً»، بتقدير «قدْ» أو دون تقديرها.

[بلاغة] وكان الدنوُّ بالاسم والتذليل بالفعل، لأنَّ الظلَّ مستدام وتناول الثِّمار بحسب الحاجة.

﴿**وَيُطَافُ**﴾ يطوف ولدان ﴿**عَلَيْهِم بِئَانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ**﴾ جمع إناءٍ، بوزن أفْعِلة، (بفتح الهمزة وإسكان الفاء وكسر العين)، والإناء: ما يوضع فيه الشيء، ولا يخزِّن أهل الجنَّة شيئًا، وكلَّما أرادوا شيئًا حضر لهم غَضًّا طريًّا، فتلك الآنية للشرب ليست موضوعة بين أيديهم أو عندهم، بل كلَّما أرادوها جيء بها وفيها ما أرادوا، وإذا أرادوا لونًا أو شكلاً منها مع ما فيه حضر كما أرادوا.

﴿**وَأَكْوَابٍ**﴾ جمع كوب، وهو الإناء الذي لا عروة له ملتوية، ولا فيه نُتُوءٌ يقبض به، وقيل: الكوز العظيم الذي لا مقبض له. والعطف على «آنِيَةٍ». ﴿**كَانَتْ**﴾ تلك الأكواب ﴿**قَوَارِيرًا**﴾ جمع قارورة، وهي زجاجة يوضع فيها شراب، وهي رقيقة ولا تنكسر. وآنية الجنَّة لا تنكسر ولا تنشقُّ ولا تبلى.

[نحو] وهو خبــر «كان»، وقيل: هو حال ولا خبر لهــا. وصُرِّف على حدِّ ما مرَّ في ﴿سَلَاسِلاً﴾ [سورة الإنسان: 4]، وزعم بعض أنَّ ذلك نُونٌ بدل من حرف الإطلاق، إجراءً للوصل مجــرى الوقف، وللفاصلة مجــرى القافية هنا وفي ﴿سَلَاسِلاً﴾، وَأمَّا ﴿قَوَارِيرًا﴾ الثاني فللمشاكلة.

﴿قَوَارِيرًا﴾ بدل. ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ نعت، أي: في بياض الفضَّة ولينها، وصفاء الزجاجة وشــفافيَّتها خلقة من الله تعالى لا حقيقة فضَّة ولا حقيقة زجاج، قال ابن عبَّاس: لو رقَّقــت فضَّة الدنيا حتَّى تصير كجناح الذبــاب لم ير الماء من ورائها، لَكِنَّ قوارير الجنَّة ببياض الفضَّة وصفاء القوارير. وعنه: ليس في الجنَّة شيء إلَّا قد أعطيتم في الدنيا شبهه إلَّا قوارير من فضَّة.

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيــرًا﴾ نوع تقدير، والواو لأصحاب الجنَّــة الأبرار، وقدَّروا القوارير في أنفســهم، فجاءت حســب ما قدَّروا لا تزيدُ ولا تنقص، وهو ألذُّ الشــراب، كما قال ابن عبَّاس: «إنَّهــا على قدر الحاجة لا يفضِّلون شــيئًا ولا يشتهون بعدها شيئًا».

وقيل: قدَّروها بأعمالهم، فجعل أعمالهم موجبــة لمقاديرها، فهي مختلفة بحسب العمل، فهم بأعمالهم كأنَّهم صاغوها على قدرها، وقيل: الواو للطَّائفين بها، والمعنى: ليســت تفيض ولا تغيض، كما صرَّح ابن عبَّــاس في رواية أنَّه قدَّرتْها السُّقاة، وقيل: قدَّرتها الملائكة بأعمالهم، وقيل: السُّقاة ألهمهم الله ذلك.

﴿وَيُسْــقَوْنَ فِيهَا كَأْسًــا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾ إعرابُه مثل ما مرَّ في قوله تعالى: ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾.

[لغة] والزَّنجبيــل: نبت في عمان يســري في الأرض، وليس شــجرة، وأجوده ما يجلب من الزنج والصيــن، فيه بعض حموضة، تحبُّه العرب وتلتذُّ به، ولعلَّ فيه حموضــة وحلاوة معًا. واللَّفــظ عربيٌّ، وقيل: معــرَّب. نقول: «شراب الجنَّة على برد الكافور، وطعم الزنجبيل، وريح المسك».

ولا منافاة بين ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ و﴿يُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً﴾، لأنَّ المراد يشربون من هذه ومن هذه. قال الكلبيُّ: ويقدِّمون ما مزاجه كافور.

وعن قتادة: الزنجبيل اسم لعين في الجنَّة يشرب بها المقرَّبون خالصة وتمزج لغيرهم، وذكر الزنجبيل بلفظ السقي لمناسبة «وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ»، فالطائفون بها يسقونهم، وللإشارة إلى أنَّ هذه الكأس أعلى من الأولى.

[لغة] والسلسبيل كالسَّلسَلِ والسَّلسال: ما كان غاية في الانحدار في الحلق. وعن مقاتل: يسلسل عليهم ماؤها في مجالسهم كيف شاءوا. قال قتادة: من عين تحت العرش من جنَّة عدن تسلسل إلى الجنان. وقيل: تسيل في سبلهم وحيث شاءوا.

وإذا كانَ السلسبيل علمًا فالصَّرف للمشاكلة وما مرَّ، وذلك اسمان أحدهما السلسبيل (بالباء أَصلِيَّة)، والآخر السلسل (بنقص الباء والياء) موضوع على غيرهما. ويُقال: سلسبيلاً فعل أمر ومفعول به أيْ: «سَلْ» يا محمَّد أو يا من يصلح «سبيلاً» بالعمل الصالح يُوصل إلى الجنَّة، وجُعل الكلُّ عَلَمًا، ونُسب لعليٍّ ولم يصحَّ.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للخدمة ﴿وِلْدَانٌ﴾ مخلوقات في الجنَّة على صورة الولدان، وأطفال الأشقياء للخدمة ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ دائمون على الطراوة والبهاء، أو مزيَّنون بالخلدة، وهو نوع ممَّا يعلَّق بالأذن، قال أنس: قال رسول الله ﷺ: «**ألف ولد لكلِّ سعيد**»[1]، وقيل: أضعاف ذلك، ويجمع بأنَّ اختلاف العدد باختلاف الأعمال، يتمتَّع أهل الجنَّة بهؤلاء الولدان تمتُّع المالك بغنمه، أو بشيء من ماله بعُجْبِهِ وسروره به، لا بنظر شهوة، لأنَّ ذلك حرام في الدنيا وكيف بالجنَّة؟.

---

(1) لم نقف على تخريجه.

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ لحسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم وانبثاثهم في مجالسهم ومنازلهم، وانعكاس شعاع بعض إلى بعض، أو شبِّهوا باللؤلؤ الرطب إذا نُثِر من صدفه لأنَّه أحسن وأكثر ماء. والخطاب للنبيء ﷺ، أو لكلِّ من يَصلح، وكذا في قوله:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ أي: إذا أطلقت نظرك، فلا مفعول له. ﴿ثَمَّ﴾ في الجنَّة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ لا تقوم به العبارة، وكان معقولاً ومحسوسًا. قال ابن عمر: عريضًا واسعًا يبصر أدناهم منزلةً في الجنَّة مُلْكَ مسيرةِ ألفِ عام، يرى أقصاه كما يرى أدناه، يمدُّ الله تعالى في بصره، أو خلق الله ما في الجنَّة على ذلك.

وعن مجاهد: الملك الكبير استئذان الملائكة عليهم، فإنَّ مجيء ملائكة الرَّحمة أمر عظيمٌ، ولَا سيما بالخير والخدمة، ولا سيما بالاستئذان على صورة العبد لمالكه. وقال الترمذيُّ: هو ملك التَّكوين، إذا أرادوا شيئًا كوَّنه الله تعالى.

وقيل: الملك باعتبار أنَّه دائم، فَكِبَرُه المرادُ هُو بدَوامهِ.

[نحو] وأجاز الكوفيُّون حذف الموصول وبقاء صلته، أي: إذا رأيت ما ثَمَّ، كقوله:

فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء[1]

أيْ: ومن يمدحه، إلَّا أنَّه يحتمل أن لا حذف، وتنسحب «مَنْ» على الكلِّ، كأنَّه قيل: الذين هم هاجٍ ومادحٌ سواء.

﴿عَالِيهِمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ مبتدأ فخبر، أي: الذي يعلوهم من اللِّباس ثياب... إلخ، وقيل: «عَالِيهِمْ» خبر مقدَّم، و«ثِيَابُ» مبتدأ، إلَّا أنَّ إضافته للحال، فهي لَفْظِيَّة في منزلة العدم، لأنَّه في نيَّة التنوينِ ونصْبِ ما بعده.

---

(1) البيت لحسَّان بن ثابت في ديوانه، ص 76. انظر: **إميل يعقوب**: المعجم المفصَّل في شواهد اللغة، ج 1، ص 56.

[لغة] والسُّــندس: ما رَقَّ من الديبــاج، نوع من الحريــر. وعبارة بعضٍ: ما رقَّ من ثياب الحرير. وذكر بعض أنَّ الديباج ضرب من الحرير المنســوج، يتلوَّن ألوانا. وقيل: السندس ضرب من البزيون يتَّخذ من المرعز وهو معرَّب. وقيل: أصله ســندي، لأنَّه يجلب من السند، أبدلت الياء ســينًا كما يُقال في سادس: سادي، ولا دليل عليه.

[لغة] والإســتبرق: ما غلظ مــن ثياب الحريــر. وقيل: الديبــاج الغليظ الحســن. وقال ابن دريــد: ثياب حرير نحــو الديباج. وعن ابن عبــادة: بردة حمراء. وقيل: المنســوج من الذهب، وهو معرَّب من الفارسيَّة أصله استبره. وقيل: معرَّب استروه، وهو قول لابن دريد، إلَّا أنَّه قال: سريانيٌّ. وقيل: اسْتبره بالباء الفارسيَّة. وقيل: عربيٌّ، من البريق، كما يجمع بحذف الزوائد إلَّا الهمزة على أبارق، ويصغَّر على أُبَيْرق، وهو نكرة، أو عَلَمُ جِنس مصروفٌ أو ممنوعٌ، وصليُّ الهمزة أو قَطْعيُّها، والفَصيحُ قراءة نافع.

﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَــاوِرَ﴾ جمع ســوار، وهو عربــيٌّ، وزعم بعــض أنَّه معرَّب دِسْــتِوراهْ، والواو نائب الفاعل مفعول أوَّل، لأنَّهم الفاعلون في المعنى، وهم المتزيِّنون المتحلَّون. عطف على «يَطُوفُ...» إلخ.

والمضارع للتجدُّد في الطواف، والمضيُّ [في «حُلُّوا»] لأنَّ التحلية ليست على التجديد، ولَوْ كان تجديدُها ممكنا وواقعا.

﴿مِــن فِضَّــةٍ﴾ فضَّــة الجنَّــة، وفــي آيــة: ﴿اَسَــاوِرَ مِــن ذَهَــبٍ﴾ [الكهف: 31، الحج: 23...]، ويجمع بأنَّهــم يحلَّون من الفضَّة ومن الذَّهب بمرَّة، أو تارة من فضَّــة وأخرى من ذهب، أو بعض الســوار ذهب وبعضه فضَّة، خلقة كذلك بــلا رقع. أو بعــض بالذهب وبعــض بالفضَّة وهــم دونهم بالأعمــال، ولا يخطر بقلبهم نقص، بــل عُلُوٌّ. أو الفضَّــةُ للخَدَم كالملَك والولدان، والذهبُ للمخدوم.

وعن سعيد بن المسيِّب: لا أحد من أهل الجنَّة إلَّا وفي يده ثلاثة أسورة: واحد من فضَّة، وآخر من ذهب، والثالث من لؤلؤ.

[قلت:] وإنَّما ناسب ذلك الرجال والنساء معًا؛ لأنَّ الله ﷻ يطبع الرجال في الجنَّة على التلذُّذ بالحليِّ كما يتلذَّذون في الدنيا بحسن شعورهم وثيابهم وخواتمهم، وكما تتلذَّذ الملوك بتزيين أعضادهم وتيجانهم وصدورهم بالحليِّ، ولا سيما أنَّهم جُرد أبناء ثلاثين. وأمَّا ما قيل: الأساور للنساء والصبيان وغُلِّبْنَ، فخلاف الظاهر.

﴿**وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا**﴾ نوع آخر يفوق الشَّرابَيْنِ: الممزوج بالكافور والممزوج بالزنجبيل، ولذلك أسند إلى ربِّهم، وزيد وصفه بالطهور، وهو شراب بعد طعام، وشراب يطهِّر بطونهم وقلوبهم، ويفيض عرقًا كالمسك، كذا قيل عن أبي قلابة[1] من التابعين.

ومعنى تطهير قلوبهم وبطونهم يدلُّ أنَّ الطعام الأوَّل والشراب الأوَّل يعقبه هذا الشراب الطهور، ولذلك قال: ﴿سَقَاهُمْ﴾ لا «يسقيهم» بصيغة التجدُّد.

[قلت:] ويناسب هذا ما روي عن مقاتل: هو ماء عين على باب الجنَّة من ساق شجرة، مَنْ شَرِبَ منه نزع الله عنه ما كان في قلبه من غشٍّ وأذًى وحسد، وما كان في جوفه من أذًى؛ فيكون الطهور آلة، كالوَضوء والسَّحور (بالفتح).

وعبَّر بعض بأنَّه بمعنى مطهِّر، والمتبادر بقاؤه على ظاهره من المبالغة في طهارته، سواء قلنا: هو ماء، أو قلنا: خمر. ولا وسخ في ماء الجنَّة ولا قذًى، ولا سكر في خمرها، ولا في آنية خمرها، ولا يستحيل شرابها بولا.

---

(1) لعلَّه أبو قلابة عبد الملك بن الحافظ محمَّد الرقاشي البصري، ولد سنة 190هـ. روى عن يزيد بن هارون وروح بن عبادة، وحدَّث عنه ابن ماجه والدارقطني وأبو داود. تُوُفِّيَ سنة 276هـ. **الحمصي**: تهذيب سير أعلام النبلاء، ج 1، ص 518.

[قلت:] ونبرأ إلى الله تعالى من تفسير الأساور بالأنوار تفيض على أهل الجنَّة بحسب أعمالهم كتفاوت الذهب والفضَّة، ومن تفسير الشراب الطهور بتجلٍّ رَبَّانيٍّ مُسْكر، ونحو ذلك ممَّا يُخالف الظاهر.

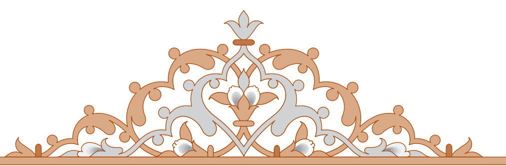
﴿**إِنَّ هَذَا**﴾ ما ذكر من الكرامات الجليلة ﴿**كَانَ**﴾ في قضائي ﴿**لَكُمْ جَزَآءً**﴾ لأعمالكم الصالحة. والجملة الكبرى مفعول لحال من «رَبُّهُمْ» أوْ من هاء «سَقَاهُمْ» محذوفة، أي: قائلا لهم أو مقولاً لهم بعد دخول الجنَّة وهم معيَّنون مشخَّصُون: «انَّ هَذَا...» إلخ.

﴿**وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا**﴾ ممدوحًا، أو مرضيًّا، أو مجازًى عليه غَيْرَ ضائع، ويزداد سرورهم بهذا القول. ويجوز أن يكون هذا في الدنيا خاطب الله تعالى به أولياءه معيَّنين عنده لا في الخارج، إلَّا من ظهرت سعادته كالنبيء ﷺ، ولا يلزم تقدير القول على هذا بل يجوز ليرتبط بما قبله.

وروي أنَّه قرأ ﷺ على حَبَشِيٍّ، وَلَمَّا بلغ هذه الآية زفر ومات، فقال رسول الله ﷺ: «**أخرج نفسَ صَاحِبكم الشَّوقُ إلى الجنَّة**»(1).

وَلَمَّا أزال الله تعالى وحشة رسول الله ﷺ الحاصلَةَ من تكذيب قومه بالإمعان في ذكر الوعدِ والوعيد ذكر ما يقوِّي قلبه ويشرِّفهُ فقال:

(1) ولمزيد من الاطِّلاع راجع القصَّة في تفسير ابن كثير للآية.



﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿23﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿24﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿25﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿26﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿27﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿28﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿29﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿30﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿31﴾ ﴾

تسلية رسول الله ﷺ والتنديدُ بالمعارضين له المكذّبين

﴿**إِنَّا نَحْنُ**﴾ لا غيرُنا ولا مع غيرنا ﴿**نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلاً**﴾ منجَّمًا في ثلاث وعشرين سنة لحكمة التَّدْريج وتثبيت القلب ومناسبة النَّوازل.

﴿**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ**﴾ بتأخير النَّصر على الكفـرة، فإنَّ لتأخيره حكمة، فهو أولى من تعجيله. ﴿**وَلَا تُطِعْ مِنهُمُ ءَاثِمًا**﴾ مرتكبَ ذنبٍ داعيًا إليه، ولو صغيرة ﴿**أَوْ كَفُورًا**﴾ مرتكبَ شركٍ داعيًا إليه، أي: لا تطع في الإثم والكفر.

[قلت:] وأمَّا فـي حقٍّ أو مباح فالموافقة جائزة، كآثـم موحِّد يصلِّي إمَامًا فإنَّه تجوز الصلاة خلفه ومتابعتُه إن لم يُدخل فيها مفسِـدًا. ولا يخفى أنَّه إذا قيل: لا تتَّبع الظالم فُهِمَ النَّهي عن اتِّباعه في ظلمـه، بقي أنَّه نَهَى عن متابعة الكفور بصـورة المبالغة، فهـل تجوز متابعته فـي كفر دون الكفـر البليغ؟ لا يخفى الجـواب بالمنع، وأنَّـه ليس ذلك قيـدًا في المنع، ولكـن عبَّر به

لموافقة الواقع، كقوله تعالى: ﴿لَا تَاكُلُواْ الرِّبَآ أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [سورة آل عمران: 130]، فإنَّ الواقع أنَّها أضعاف، وحرِّم ولو دون ذلك. ولو كان لشخص عبدٌ واحدٌ هو كافرٌ، وقيل لك: «لا تستخدم عبد عمرو الكافر» كان نهيًا عن استخدامه، ولو آمن. وإنْ كان أحد يملأ بطنه بالحرام قلت له: «لا تملأه منه» لست تبيح له ما دون الملء.

وقيل: المبالغة عائدة إلى النَّهي، والمراد عموم الآثم والكفور. ولو قيل: المراد بالآثم عتبة بن ربيعة، والكفور الوليد بن المغيرة، لأنَّ عتبة يبالغ في أنواع الفسق، والوليد في أنواع الشرك.

وقيل: الآية في أبي جهل قالوا له: اترك ما تدعونا إليه نموِّلْك ونزوِّجك مَن شئت، فنزلت الآية. وروي أنَّ عتبة قال: إن كنت تريد بما تقول التزوُّج فاتركه أزوِّجك بنتي، وأسُقْها إليك بلا مهر. وقال الوليد: اتركه أعطك من مالي حتَّى ترضى.

﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾ اذكر أسماءه، والإضافة للجنس، أو للاستغراق: الله، الرَّحمن، الرَّحيم، المؤمن، المهيمن... إلخ. أو اذكر ربَّك، والاسم صلة، وفي ذلك منافاة لأسماء الأصنام.

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ عبارة عن تعميم الأزمنة بحسب الإمكان، أو المراد صلاة الفجر والظهر والعصر، لأنَّ الأصيل قد يُطلق على ما بعد الزوال إلى المغرب، ويدلُّ للصلاة قوله تعالى:

﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ**﴾ أي: وبعض اللَّيل ﴿**فَاسْجُدْ لَهُ**﴾ أي: صلِّ له، ذكر الصَّلاة بجزئها الذي هو أعظمها خضوعًا، والمراد صلاة المغرب والعشاء. والتقديم بطريق الاهتمام لمشقَّة صلاة اللَّيل وزيادة الخلوص. ﴿**وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً**﴾ اذكره، أو صَلِّ له، أو اعْبده مدَّة طويلة منه، وكلُّ جزء من اللَّيل ليل.

[قلت:] وقيام اللَّيل لم ينسخ في حقِّ رسول الله ﷺ، وقيل: نسخ وجوبُه وبقي ندبه له.

﴿**إِنَّ هَؤُلَآءِ**﴾ الكفرة ﴿**يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ**﴾ لأنَّهم يفعلون فيها كلَّ ما يشتهون إلَّا ما لم يقدروا عليه، ولا يزجرهم نَقلٌ ولا عقلٌ. ﴿**وَيَذَرُونَ**﴾ يتركون ﴿**وَرَآءَهُمْ**﴾ خلفهم ﴿**يَوْمًا ثَقِيلاً**﴾ يوم القيامة، وثقله استعارة لشدَّته لجامع عدم القدرة، فإنَّها عدمت في الثقيل الذي اشتدَّ أو لا يطاق، وفي هول يوم القيامة.

وسمِّي «وراء» مع أنَّه آت مستقبل لإعراضهم عنه، وقيل: ﴿وَرَآءَهُمْ﴾: أمامهم، و«وَرَاءَ» متعلِّق بـ«يَذَرُونَ»، أو بمحذوف حال من «يَوْمًا»، والجملة الِاسمِيَّة ـ قيل ـ تعليل للنَّهي عن إِطَاعَةِ الآثم والكفور، و«يَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً» تعليل للأَمْرِ بالعبادة. أوْ لَا تُطعهم لأنَّهم يحبُّون العاجلة.

﴿**نَّحْنُ**﴾ وحدنا ﴿**خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَآ**﴾ أحكمنا إحكامًا حسنًا. ﴿**أَسْرَهُمْ**﴾ ربط مفاصلهم بالعروق والأعصاب الشبيهة بالحبال المربوط بها، والأسر الرَّبط أطلق على ما يربط به. ﴿**وَإِذَا شِئْنَا**﴾ إحياءَهُمْ بعد الموت ﴿**بَدَّلْنَآ أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً**﴾ أنشأناهُم مثل ما كانوا أوَّلاً، وهذا هو الظَّاهر.

والمراد نفس أجسادهم لا بَدَلَهَا ـ وأخطأ من قال: بدلها ـ لقوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الذِي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [سورة يس: 78ـ79]، وقيل: إذا شئنا بدَّلْنَاهُم في الدنيا بمن يطيع بعد إهلاكهم، وفيه أنَّ هذا لم يتحقَّق وقوعُه، فإنَّما يعبَّر عنه بـ«إِنْ» لا بـ«إِذَا» الموضوعة للتَّحقيق، اللَّهمَّ إلَّا أن يُقال: هدَّدهم بصورة ما يقع مع أنَّه لا يقع للقدرة عليه، ولا يعترض بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ...﴾ إلخ [سورة محمد: 38]، لأنَّ النكات لا تتزاحم ولا تطَّرد.

﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ أي: السـورة أو المواعظ والأحكام المذكورة فيها، أو الآيات القُرآنيَّة مطلقًا ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ تذكير ﴿فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ من شاء اتِّخاذ السَّبيل إلى ربِّه لينجو ويفوز اتَّخذ، أيْ لم يُمنع من اتِّخاذه، وذلك بامتثال الأوامر واجتناب المناهي.

[نحو] وهكذا مفعول مشيئة الشرط يكون من جنس الجواب، والمعنى قابل لأنْ يُقَدَّرَ: من شاء النجاة والفوز اتَّخذ إلى ربِّه سبيلاً يوصله إليهما. و«إِلَى» متعلِّق بـ«اتَّخَذَ» لتضمُّنه معنى التوجُّه، ويجوز تعليقه بحال محذوفة خاصَّة وصاحبها «سَبِيلاً»، أي: موصلة إلى ربِّه.

﴿وَمَا تَشَآؤُونَ﴾ شيئًا أو اتِّخاذ السبيل ﴿إِلَّآ أَنْ يَّشَآءَ اللهُ﴾ إلَّا وقت مشيئة الله لمشيئتكم، فالمصدر من الفعل منصوب على الظرفيَّة أو يقدَّر مضاف.

[أصول الدين] والله ﷻ شاء كفر الكافرين، وإيمان المؤمنين بلا إجبار، وخَلَقَ الكفرَ والطَّاعةَ، وللكافر والمؤمن اختيارٌ مخلوقٌ لله ﷻ.

﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ علما عظيمًا عامًّا لمشيئة من يشاء ﴿حَكِيمًا﴾ مبالغًا في الحكمة، فيفيض على كلِّ واحد ما يليق به ويتأهَّل له.

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَّشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ لاستعداده كما هو الحكمة ومقتضى علمه. ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ منصوب على الاشتغال لعدم توهُّم العطف على المرحوم، أي: ويعذِّب الظالمين، أو أوعد الظالمين، ولا يقدَّر «أعدَّ» لأنَّه لا يتعدَّى إلى الظالمين بل إلى جزائهم، وذلك كـ«زيدًا مررتُ به»، أي: جاوزت زيدًا مررت به.

﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا اَلِيمًا﴾ والسورة تضمَّنت الوعد والوعيد، وختمها بالوعيد لا لكونه أوسع من الخير بل العكس، بل ختمها به إعظامًا لجلاله تعالى.

قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ حتَّى ختمها ثمَّ قال: «**إنِّي لأَرَى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أَطَّت السَّماء وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضع أربعِ أصابع إلَّا وملك واضع جبهته ساجدًا لله تعالى، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، وما تلذَّذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله** ﷻ»[1].

والله الموفِّق

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

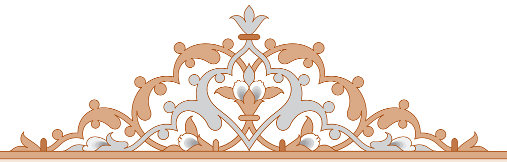


(1) تَقَدَّمَ تخريجه. انظر: ج 8، ص 225.

77

تفسير سورة المرسلات

مكِّـيَّة إلَّا الآي 48 فمدنيَّة، وآياتها 50 ـ نزلت بعد سورة الهمزة



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ① فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ② وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ③ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ④ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ⑤ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ⑥ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ⑦ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ⑧ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ⑨ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ⑩ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ⑪ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ⑫ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ⑬ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ⑭ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ⑮﴾

تأكيد وقوع يوم القيامة وعلامة ذلك

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا**﴾ قسمٌ جوابه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾. ﴿**فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا**﴾ قيل: هي طائفتان من الملائكة أرسلهم الله بإنفاذ أمره على الكفرة نصرة للأنبياء، فعصفن، أي: أسرعن بإيقاع العذاب عليهم كالريح العاصفة.

[بلاغة] استعارة من عصْف الريح بمعنى إهلاكها من أُرْسلَت إليه، وهو استعارة كذلك، أو التجوُّز إرساليٌّ على حدِّ إطلاق المشفر على شفة الإنسان بطريق الاستعارة أو الإطلاق والتقييد.

روى محبوب بن الرحيل عن الرَّبيع عن أبي عبيدة رحمهم الله عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا: «سمعتني أمُّ الفضل بنت الحارث ـ وهي والدة عبد الله بن عبَّاس ـ أقرأ ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا﴾ قالت: يا بنيَّ لقد ذَكَّرْتني بقراءتك هذه السورة إنَّها لآخِرُ ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب»[1]. وعن ابن مسعود ﴿عُرْفًا﴾ المعروفُ مِنْ أمر الله ونهيه.

﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا فَالْمُلْقِيَاتِ﴾ إلى الأنبياء ﴿ذِكْرًا﴾ تذكيرًا أو وحيًا، وهنَّ ثلاث طوائف نشرن أجنحتهنَّ في المجيء بالوحي، أو نشرن الشرائع في الأرض، أو أحيين بالوحي نفوسًا موتى بالكفر، والنَّشر بمعنى الإحياء فَفَرَّقن بين الحقِّ والباطل، فألقين إلى الأنبياء ذكرًا.

وقيل: الذِّكر القرآنُ وقد علمت أنَّ الوحي غير مختصٍّ بجبريل، وإنَّما هو الغالب، ولا كتاب من الله إلَّا على يده، ولكن قد يجيء الملائكة بآية، وقد تشايعه كما جاء في سورة الأنعام مع سبعين ألفًا من الملائكة، وأمامهم جبريل[2]، وكما تُشايعُ جبريلَ ملائكةٌ، وكما قُرن إسرافيل برسول الله ﷺ يُلقِّنُه الكلمة والكلمتين في ثلاث السنين الأولى من النبوءة، وجبريل هو الرئيس في الوحي، وأيضًا تتبعه ملائكةٌ رصدةٌ له إذا جاء بالوحي. وعنه ﷺ: «**نزل إليَّ ملك بألُوكة من ربِّي** ـ أيْ: برسالة ـ **فوضع رجلاً في السَّماء وثنَّى الأخرى بين يديَّ**»[3].

و«عُرْفًا» حال على حذف مضاف، أي: مشابهات عُرفٍ في التتابع.

(1) رواه **الربيع** في كتاب الصلاة (38) باب القراءة في الصلاة، رقم: 229، ورواه **مالك** في الموطَّأ، كتاب الصلاة 45، باب القراءة في المغرب والعشاء، رقم: 176، من حديث ابن عبَّاس.

(2) يشير إلى الحديث الذي رواه **الطبرانيُّ** عن ابن عبَّاس. راجع تفسير ابن كثير في بداية سورة الأنعام.

(3) أورده **الآلوسي** أثرًا من الآثار، ولم يخرِّجه. ينظر: روح المعاني، ج 29، ص 169.

[لغة] وهو الشعر المتتابع آخر العنق ممَّا يلي الرأس من الفرس، أو الضبع أو نحوهما، أو ضُمِّن معنى متتابع، أو صار حقيقة عرفيَّة في معنى متتابع، يُقال: جاءوا عُرفًا واحدًا، أي: متتابعين، أو مبالغة كأنَّهم نفس العرف والأصل: متتابعين كعرف. أو مفعول من أجله من العرف نقيض النكر، باعتبار أنَّ إهلاك الكفرة إحسان إلى الأنبياء والمؤمنين.

والمراد: الملائكة التي جمعت بين الإرسال والعصف، والملائكة الجامعة بين النَّشر والفرق وإلقاء ذكر، وذلك تنزيل لتغاير الصفات منزلة تغاير الذوات.

وعطفُ العصفِ بالفاء ظاهر لأنَّه بعض الإرسال، وكيْفَ عطف الإلقاء بالفاء مع أنَّ الفرق بعده؟ فإنَّ الفرق بين الحقّ والباطل يتصوَّر بعد الإلقاء؟ **الجواب**: إنَّ الفرق حاصلٌ ولو قبل الإلقاء، وإنَّما المتأخِّر العلمُ به، أو يراد بـ﴿الْفَارِقَاتِ﴾ مريدات الفرق، ورتَّب الفرق على النَّشر لأنَّ المراد نشرن أجنحتهنَّ للنزول فنزلن ففرقن، وما لم يقع نزولهنَّ لم يعتبروا أنَّهنَّ فارقات، وقيل: الفاءات للترتيب الرتبي.

[صرف] ﴿عُذْرًا﴾ للمُحِقِّين ﴿أَوْ نُذْرًا﴾ للمبطلين، وهو اسم مصدر هُو الإنذار، لأنَّ الفعل: أَنْذَرَ كأجمل. أو مصدر فعل ثلاثيٍّ قليل الورود ـ أو اعتُبر ولو لم يَرِدْ ـ وهو «نَذَرَ». ومعنى عَذَرَ: أزال الإساءة. ومعنى أَنذَرَ: خَوَّفَ. أو هو جمعٌ للمعنى المصدريِّ، على أنَّ مفرده «نذير»، ونذير بمعنى إنذار، ونصبُهما على التعليل، أي: لأجل العذر والإنذار، وناصبهما «ذِكْرًا» أو «الْمُلْقِيَاتِ»، وعلى الإبدال من «ذِكْرًا» بَدَل بعضٍ على أنَّ الذِّكر بمعنى الوحي، وبدل كلٍّ على أنَّه بمعنى التذكير.

وإن جعلا بمعنى عاذرين ومنذرين أو «نُذُرًا» جمع نذير بمعنى منذر، فحالان من المستتر في «الْمُلْقِيَاتِ»، أو من «ال». و«أَوْ» للتنويع، وقيل: بمعنى الواو.

وقيل: **المرسلات: رياح العذاب** يرسلهنَّ الله متتابعات على وتيرة واحدة، يعصفن بالسوء، والنَّاشرات: رياح الرَّحمة ينتشرن هكذا، وهكذا، كما جاء في الحديث، وتنشر السَّحاب وتفرِّقه على البقاع، ويلقين العُذرَ للمعتذرين بالتوبة والاستغفار إذا شاهدوا أثر الرَّحمة في الغيث، وإنذار الكفَّار في نسبة الغيث إلى الأنواء.

وإذا قلعتِ الشجر أو هدمت بنيانًا أو أيبست النبات ألقت ذكرَ الله في القلوب، والخوفَ منه فتلجأ إلى الله وتذكره تعالى، وتستغفره، والتجوُّز في إسناد الإلقاء، أو تنشر النبات وتفرِّق أصنافه بالشَّكل واللَّون، وسائر الخواصِّ، ويسبِّبن في عُذر الشاكرين وإنذار الكافرين.

وقيل: الْمُرْسَلَات والعَاصِفَات: الرياح، والنَّاشِرَاتِ... إلخ: السحائب نشرن الموات، ففرَّقن بين الشاكر والكافر، كقوله تعالى: ﴿لأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقًا لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [سورة الجن: 16ـ17].

وقيل: المراد آيات القرآن المنَجَّمة يعصفن، أي: يذهبن سائر الكتب بالنسخ، وينشرن الهدى في الأرض، ويفرِّقن بين الحقِّ والباطل، فألقين ذكر الحقِّ.

وقيل: المرسلات: الرسل أرسلهم الله إحْسانًا ولو شاء لم يرسلهم، فاشتدُّوا ونشروا الدين، وفرَّقوا الحقَّ والباطل، وألقوا الذكر على المكلَّفين.

وقيل: المرسلات والعاصفات والناشرات: الرياحُ، والباقي الملائكة، وقيل: بالعكس، وقيل: المرسلات ملائكة الرحمة، والعاصفات ملائكة العذاب، والباقي الآيات النازلة.

وقيل: المرسلات الرسل، والعاصفات الرياح، والناشرات تنشر المطر، والفارقات الرسل، أو المرسلات الملائكة، والعاصفات الرياح، والناشرات الملائكة ينشرون كتب الأعمال، والفارقات الملائكة يميِّزون الحقَّ، وهم

الملقيات للقرآن، وقيل، وقيل... ووجه الجمع بين الملائكة والرياح أنَّ كلًّا من الملائكة والرياح لطيف سريع.

﴿**إِنَّمَا تُوعَدُونَ**﴾ الذي توعدونه، وهو البعث كما قال: ﴿**لَوَاقِعٌ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ**﴾ أُذهب ضوؤها وبعد هذا الإذهاب تفنى ﴿**وَإِذَا السَّمَآءُ فُرِجَتْ**﴾ جعلت ذات فروج، أي: شقوق ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَآءُ بِالْغَمَامِ﴾ [سورة الفرقان: 25]، و﴿إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ﴾ [سورة الانشقاق: 1]، وقيل: فتحت، كما قال الله جلَّ وعلَا: ﴿وَفُتِّحَتِ السَّمَآءُ﴾ [سورة النبأ: 19]، وذلك كلُّه معنى واحد.

﴿**وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ**﴾ جعلت كالحبِّ الذي ينسف بالمنسف ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثًّا﴾ [سورة الواقعة: 5ـ6]، ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾ [سورة المزمل: 14]، فُرِّقت بعد التسيير، أو أخذت من مكانها بسرعة، من نسفت الشيء: خطفته.

﴿**وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ**﴾ وُقِّتت، قلبت الواو المضمومة همزة وهو مطَّرد، وقد قرئ بالواو، أي: أبلغها الله وقتها الذي تنتظره، وهو يوم القيامة، أو عُيِّن لها وقت تنتظره للشهادة على الأمم، ووقت تعيين البعض قبله، أي: متَّصل به، وذلك بعض من يوم القيامة، كقولك: إذا كان يوم الجمعة وكان وقت الظهر نزلت الرَّحمة.

﴿**لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ**﴾ مفعول لجواب «إِذَا» المحذوف، أي: فإذا النُّجوم طمست قيل: لأيِّ يوم أجِّلت؟. والاستفهام تعجُّب من الخلق. والقول لسانيٌّ أو حالِيٌّ. ولا جواب لـ«إِذَا» في المواضع الثلاثة الأخيرة على حدة، بل كفى جواب واحد لهنَّ، أي: إذا كان كذا كان كذا وكان كذا.

قيل: وقعُ التأخير لهذه الأمور العظام يعذِّب الكفَّار ويهانون، ويُكْرَم المؤمنون ويعظَّمون. والضمير في «أُجِّلَتْ» لتلك الأمور المعلّقة للرُّسل من

التعذيب والتنعيم، أو للأمور المذكورة من الطَّمس والتفريج والنَّسف وتأقيت الرسـل، أو للرُّسـل. أو جواب «إِذَا» محـذوف، أي: وقع الفصـل، أو وقع ما توعدون.

﴿**لِيَوْمِ الْفَصْلِ**﴾ بَيْنَ الظالم والمظلوم، أو بين السَّعيد والشقيِّ، أي: أُجِّلت ليوم الفصل، أو بدل على تقدير الهمزة، أي: أَلِيوم الفصل أُجِّلَتْ؟ ﴿**وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ**﴾ ما صيَّرك داريًـا ما يوم الفصل، وعُلِّق عـن المفعول الثاني والثالث بالاسـتفهام، وأظهر لزيـادة التهويل، والأصل: ومـا أدراك ما هو؟ ويجوز التعليق عن الثاني نحو: علمت زيدًا من هو، فلا تَهِم.

﴿**وَيْلٌ**﴾ هلاك عظيم ﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾ نعت لـ«وَيْلٌ»، أو متعلِّق به، أو باستقرار للمكذِّبين للتوسُّع في الظروف، أي: يثبت يومئذ. ﴿**لِّلْمُكَذِّبِينَ**﴾ والمراد يوم إذْ جاء يوم الفصل.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿16﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿17﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿18﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿19﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿20﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿21﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿22﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿23﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿24﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿25﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿26﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿27﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿28﴾﴾

تخويف الكفَّار وتذكيرهم بقوَّة الله وقدرته

﴿**أَلَمْ نُهْلِكِ الاَوَّلِينَ**﴾ لتكذيبهم بالرسل والبعث، كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح. ﴿**ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الاَخِرِينَ**﴾ بالإهلاك، كقوم لوط وقوم شعيب وقوم موسى، ومن مسخ من قوم موسى، وقوم عيسى، فإنَّ هؤلاء آخِرون بالنسبة إلى من قبلهم.

[نحو] والعطف على «لَمْ» ومدخولها، فهو مُثبتٌ سُلِّطَ عليه الاستفهام، ولو عطف على مدخول «لم» لكان مَنفيًّا مجزومًا وليس كذلك، وذلك كقولك: أجاء زيد فتكرمه غدًا؟. أو عطف على الهمزة ومدخولها عطف إخبار على إنشاء، فلم يتسلَّط الاستفهام عليه.

[بلاغة] والاستفهام للتقرير ولو قصد به التهديد، وهو كالإخبار، فكأنَّه قيل: أهلكنا الاوَّلين ثمَّ نتبعهم بالآخِرين.

﴿**كَذَالِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ**﴾ كفَّار قريش لجريانهم في التكذيب على طريق هؤلاء المكذِّبين، وقد أهلكهم الله يوم بدر.

وذكر بعض أنَّ «الَاوَّلِينَ» كلُّ من تقدَّم على كفَّار قريش من المهلكين، و«الَاخِرِينَ» قتلى بدر، فيكون قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ تعميمًا بعد تخصيص، حتَّى إنَّه يشمل من يخسف بهم في البيداء آخر الزَّمان، ومن تقوم عليهم السَّاعة. أو المراد بالمجرمين من لم يتقدَّم ذكرُهم خاصَّة.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ أهلكناهم، أو يوم جاء الفصل ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بآيات الله تعالى وأنبيائه. والمكذِّبون المذكورون قبلُ هم من كذَّبوا بيوم الفصل فلا تكرير، ولو اتَّحد المأصدق، أو الويل الأوَّل لعذاب الآخرة، والثاني لعذاب الدنيا فلا تكرير أيضًا.

وهكذا تعتبر ما يخرج به الكلام عن التكرير مع أنَّ التكرير حقٌّ لا بُدَّ منه في مقام التأكيد لحكمة التأكيد، يُكرَّر الشيء لحدوث شيء، كما تقول: لِمَ عصيتني وقد أطعمتك وألبستك؟ ولِمَ عصيتني وقد زوَّجتك؟ وهكذا...

[قلت:] وأيضًا من أسباب التكرير بين السورتين أو السورة أنَّه لا يلزم المكلَّف قراءة القرآن كلِّه ولا إتمام السورة في الصلاة، ولزم الفاتحة تامَّة وثلاث آيات، فتحصل المنفعة لمن حفظ سورة فيها تكرير لما في الآخرة، ولو لم يحفظ الأخرى التي فيها المكرَّر.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ قذِرٍ محتقرٍ هو النطفة، فاعرفوا حقارة شأنكم ولا تتكبَّروا عن عبادة الله واشكروا نعمة الإيجاد والإبقاء، واعلموا أنَّه كما خلقكم يبعثكم.

﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ﴾ موضع ثبات ﴿مَّكِينٍ﴾ هو الرَّحم ﴿اِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ مقدار معلوم عند الله تعالى، تسعة أشهر أو أقلَّ إلى ستَّة، أو أكثر، فولدتم أحياء صِحاحًا سالمين وعشتم.

﴿فَقَدَّرْنَا﴾ قدَّرنا ذلك تقديرًا دَالًّا على كمال القــدرة. والفاء للترتيب الذكري، كأنَّه قيل: فأقول: قدَّرنا، كقوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [سورة عبس: 19]. ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ نَحنُ على ذلك الجعل وعلى ذلك التقدير. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم جاء الفصل، أو يوم أهلكناكم، وكأنَّه يوم ماض للتحقُّق، وهو يوم دائم ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بقدرتنا على ذلك، أو على البعث الشامِلِينَ لكم.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الاَرْضَ كِفَاتًا﴾ الكفات ما يَجمع الشيءَ ويضمُّه كالصرَّة والصندوق، ووعاء الأمتعة، وهو اسم جنس، أو اسم آلة، أو جمع كِفْت (بالكسر) كقِدح وأقداح، أو جمع كافت، كصائم وصيام. وأُجري على الأرض مع إفرادها باعتبار أقطارها، أو مصدر أُجْرِيَ عليها مبالغة.

﴿اَحْيَآءً وَأَمْوَاتًا﴾ حال من «لَكُم» محذوفة، أي: أَلَمْ نجعل لكم الأرض... إلخ أو ألم نجعل الأرض كفاتًا لكم أحياء وأمواتًا؟ أو مفعول لمحذوف، أي: تكْفت أحياء منكم على ظهرها، وأمواتًا في بطنها، أو تكفتهم ـ أي: المكذِّبين ـ أحياءً وأمواتًا، أو تكفت الجنَّ والإنس أحياء وأمواتًا.

أو مفعول ثان بعد مفعول ثانٍ، أي: ذات أحياء وأموات بتقدير مضاف كما رأيت، أو أحياء وأمواتًا بمعنى الأرض المنبتة وغير المنبتة، بلا تقدير مضاف كما رأيت.

[قلت:] والآية تشير إلى وجوب دفن الميّت وهو ظاهر، وإلى أنَّ السارق من داخل القبر يقطع لأنَّه حِرز له.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً رواسي، أي: ثوابت ﴿شَامِخَاتٍ﴾ مرتفعات، نُكِّر للتعظيم، أو للإشعار بأنَّ في الأرض جبالاً لم تعرف، ومنها

جبل النَّار في إيطاليا، وهو أبدًا متَّقِد كالجمر، وقد يشتعل وتطير منه جمرات نحو ميل وهو في البرِّ الكبير(1).

[قلت:] ولا خير فيه، أي: فـي البَرِّ الكبير إلَّا ما دخل فيه من الإسـلام، لا نبيء منهـم، والأنبياء كلُّهم في برِّنـا هذا، وفيه بيت المقدس والمسـجد النبويُّ، والمسجد الحرام، وليس في البرِّ الكبير ما يشبه ذلك.

﴿وَأَسۡـقَيۡنَاكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ عذبًا خزنَّاه في الأرض وجبالها وأنبعناه عيونًا، ووفَّقناكم إلى استخراج ما لم يظهر منه بالحفر، ومن الأمطار التي تشاهدونها والتي لا تشاهدون لبعدها كماء النيل لبعد منابعه.

والآية شـاملة لذلك كلِّه بطريق الامتنـان، ومن اعتبر الوعـظ في الآية بالإخراج حملها على ماء الأرض، وكذا نسقي حيوانكم وحرثكم وشجركم.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ﴾ يوم إذ جاءكم يوم الفصل ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ الذين لم يشكروا هذه النعم وأمثالها.

(1) يشير إلى بركان «نابولي» في إيطاليا، والمراد بالبرِّ الكبير أوروبا.

﴿ انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿29﴾ انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿30﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿31﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿32﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿33﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿34﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿35﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿36﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿37﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿38﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿39﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿40﴾ ﴾

صور ممَّا أعِدَّ للمكذِّبين في جهنَّم من العذاب

﴿**انطَلِقُواْ**﴾ مفعول به لحال محذوف من «الْمُكَذِّبِينَ» أو من «ال»، أي: مقولا لهم توبيخًا: انطلقوا ﴿**إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ**﴾ إلى العذاب الأخرويِّ الذي كنتم به تكذِّبون في الدنيا، وقُدِّم «بِهِ» للفاصلة وطريق الاهتمام.

﴿**انطَلِقُواْ**﴾ هذا انطلاق مخصوص وليس هو الأوَّل، فإنَّ الأوَّل انطلاق إلى ما وُعِظوا به قبلُ من عذاب النَّار، ولا علم لهم بـ«ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ»، ولا شعور ولا سماع.

[نحو] وعلى فرض أنَّهم علموا بذكره قبلُ ـ أو فُرض أنَّهم كذَّبوا به في عموم التكذيب بعذاب الآخرة، وأريد بـ«ما كانوا يكذبون»: «ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ...» ـ كان مجموع «انطلِقُواْ إلى ظِلٍّ...» إلخ بدلا من مجموع «انطَلِقُواْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ». وإن شئت فـ«انطَلِقُواْ» توكيد لفظيٌّ للأوَّل، وقوله: ﴿**إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ**﴾ بدل من قوله: ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، أو الأوَّل عامٌّ والثاني بدل إضرابٍ انتقاليٍّ.

[بلاغة] والظلُّ دخان جهنَّم، كـ﴿ظِلٍّ مِنْ يَّحْمُومٍ﴾ [سورة الواقعة: 43]، استعارة تهكُّميَّة، وكان ذا ثلاث شعب لِعظمه، يخرج لسان من النار فيحيط بهم، ويتشعَّب من دخانها ثلاث شعب فتظلُّهم حتَّى يفرغ من حسابهم، والمؤمنون في ظلِّ العرش.

[قيل:] وعدد الثلاث لأنَّ المانع عن الحقِّ ثلاث: الخيال والوهم والحسُّ، أو القوَّة الوهميَّة الشيطانيَّة في الدماغ، والقوَّة الغضبيَّة السَّبُعيَّة عن يمين القلب، والقوَّة الشهويَّة البهميَّة عن يساره. كما قيل: شعبة فوق الكافر، وشعبة عن يمينه، وشعبة عن يساره. أو تكذيب العذاب، وتكذيب الله، وتكذيب رسوله.

﴿**لَّا ظَلِيلٍ**﴾ عطف على محذوف، أي: ضارٌّ أو حارٌّ لا ظليل، أوْ «لَا» اسم مضاف لما بعده نعت ثان لـ«ظِلٍّ»، تصريح بما ينافي الظلَّ النافع المتهكَّم به، وإزالةٌ لِمَا قد يُتوهَّم أنَّ فيه نفعا مَّا.

﴿**وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ**﴾ لا يُبعد من حرِّ اللهب، ولا يَصِحُّ ما قيل: إنَّ الآية تشير إلى أنَّه لا ظلَّ للشكل المثلث، ولا نسلِّم أنَّه لا ظلَّ له، بل له ظلٌّ مشاهد، وظلُّ المؤمن غير ظلِّ الكافر.

﴿**إِنَّهَا**﴾ أي: إنَّ النَّار التي دلَّ عليها الكلام، أو إنَّ الشُّعب ﴿**تَرْمِي بِشَرَرٍ**﴾ الواحدة شررة، وهي ما يطير من النَّار، سُمِّيَ لاعتقاد الشَّرِّ فيه. ﴿**كَالْقَصْرِ**﴾ الدار الكبيرة كلُّ شررة كالدار الكبيرة، كما يدلُّ له قراءة ابن عبَّاس: «بشِرَارٍ» (بكسر الشِّين وبألف بعد الرَّاء)، وهو جمعٌ ـ كرَقَبَة ورِقَاب ـ قُسِّمَ عليه جَمْعٌ، فلكلِّ واحد من الجمع فردٌ، فكلُّ واحدة كالقصر، وكذا قراءة فتح الشين وثبوت الألف بعد الراء، لأنَّ مفرده: شرارة.

وقيل: القصر الغليظ من الشــجر، وواحده قصــرة، كجمرة وجمر، وقيل: قطع من الشجر كالذراع وفوقه وتحته تعدُّ للشتاء.

﴿**كَأَنَّهُ**﴾ أي: الشرر، وما مفرده بالتاء يجوز إفراد ضميره وتذكيره ولو كان مؤنَّثًا. ﴿**جِمَالَتٌ**﴾ جمع المؤنَّث السالم لجمع التكسير، وهو «جمال»، جمع جمل ذكر الناقة، أو جمالات (بألف وتاء) جمع جمالة الذي هو اســم جمع، وقيل: جمع جملة على جمال ثمَّ جمال على جمالات.

وقيل: الجملة حبال الســفينة لأنَّــه طاقات، وقيل: الحبال التي تشــدُّ بها الجسور إذا جمعت مستديرة جاء منها أجرام عظام، وهو عن ابن عبَّاس، وعنه أيضًا: قطع النحاس الكبار.

﴿**صُفْرٌ**﴾ جمع صفراء وأصفــر. والصفرة لما فيها مــن الناريَّة والهوائيَّة، وقيل: الصفر السود، لأنَّ سواد الإبل يضرب إلى الصفرة، فالشرر حين ينفصل من النَّار كالقصر في العظم، وحين يرتفع وينشقُّ عن أعداد كثيرة كالجمال في الحركةِ والكثرةِ والصفرةِ.

﴿**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ**﴾ يــوم إذ جاء الفصــل ﴿**لِّلْمُكَذِّبِينَ**﴾ بهــذا الوعيد، أو مطلقًا. ﴿**هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ**﴾ يــوم دخول النَّار لا ينطقون بشــيء لعظم الدهش، وســينطقون بعدُ فيها، وقيل: لا ينطقون بما ينفع، وعدم النطق بما ينفع كعدم النطق.

[نحو] و«يَوْمُ» بالرفع خبر، والإشارة إلى اليوم، وفي قراءة الفتح هو فَتْحَةُ إعراب، ونُصِبَ على الظرفيَّة، والإشــارة إلى العــذاب، وعلى قول الكوفيِّين بجواز بناء الظــرف المضاف للجملة ولــو كان فعلها مضارعًــا معربًا تجوز الإشارة إلى اليوم، و«يَوْمَ» في محلِّ رفع، والفتح بناء.

﴿وَلَا يُـؤْذَنُ لَهُمْ﴾ في النَّطق وفي الاعتذار ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ فلا يعتذرون، فالنفي بـ«لَا» منسحب عليه، وذلك تارة، ويؤذن لهم تارة في النطق والاعتذار، أو المنفيُّ الاعتذار النَّافع.

ويقال: لو نصب في جواب النَّفي دلَّ على عدم اعتذارهم لعدم الإذن فيه، فيُتَوَهَّم أنَّ لهم عذرا لم يؤذن لهم في النَّطق به، فرفع تصريحا بأنَّه لا اعتذار لهم ولا يعتذرون، وأيضًا رفع للفاصلة، وصرَّح الأَعْلَمُ[1] بأنَّه قد يرفع على معنى النصب، وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [سورة غافر: 52]، فهم يعتذرون ولا ينفع اعتذارهم، وهو ظاهر الآية هذه، وذلك تارة.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ جاء الفصل، وإذْ لا ينطقون ولا يؤذن لهم. و«إذْ» تستعمل في الاستقبال مجازًا. ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ مطلقًا، أو بعدم النطق وعدم الاعتذار على فرض البعث.

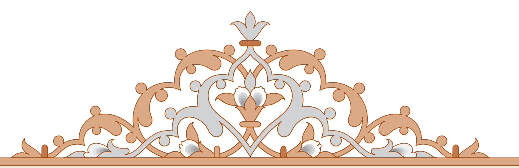
﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين الحقِّ والباطل بالجزاء، ﴿جَمَعْنَاكُمْ﴾ فيه لبيان المحقِّ والمبطل بالمشاهدة. ﴿وَالْأَوَّلِينَ﴾ الأمم السابقة، فالخطاب لكفَّار هذه الأمَّة، والعطف على الكاف.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ على قضائي وفعلي، فقد اجتمعتم أنتم وآباؤكم الأوَّلون الذين اقتدَيْتُم بهم، والأمم السابقة الذين اعتمدتم عليهم، وكاثرتم بهم.

(1) الأعلم: هو أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمري الأندلسي النحوي، ولد سنة 410هـ. أخذ العلم عن إبراهيم الإفليلي ومسلم بن أحمد الأديب، وبرع في النحو والشعر واللغة، وكان ذكيًا، جلس للتدريس والتصنيف... وقد أضرَّ في أواخر حياته. تُوُفِّيَ سنة 476هـ. **الحمصي**: تهذيب سير أعلام النبلاء، ج 2، ص 224.

والخطاب هذا لكفَّار هذه الأمَّة، أو لهم وللأمم السابقة للتغليب. و«هَذَا» تقريع لهم في ذلك اليوم، وتسلية للمؤمنين، ونصرة للمؤمنين في الدنيا وفي ذلك اليوم، وإظهار لعجز الكفَّار.

﴿**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ**﴾ يوم إذ جاء الفصل، أو يوم إذ ظهر عجزهم. ﴿**لِّلْمُكَذِّبِينَ**﴾ مطلقًا أو بيوم الفصل.



﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿41﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿42﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿43﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿44﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿45﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿46﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿47﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿48﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿49﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿50﴾

مقارنة بين حال المتَّقين وحال المجرمين يوم القيامة

﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ**﴾ بالتصديق والعمل ﴿**فِي ظِلَالٍ**﴾ حيث لم يكن الشمس، فإنَّ الظلَّ يطلق على ما لم تسبقه شمس كما هنا، ولكن هنا مجاز، وعلى ما كانت قبله، وهذا مخصوص بالفيء بمعنى الرجوع، كان ظلٌّ فزال بالشمس، فزالت فرجع، وذلك هنا على ظاهره.

قابل به حال الكفرة من الإحراق ومن «ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ». ويجوز أن يُراد بالظلِّ التنعُّم والعزَّة، وانتفاء السوء، والأوَّل أظهر للمناسبة واشتماله على هذا المعنى أيضًا.

لكن قوله: ﴿**وَعُيُونٍ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ**﴾ ينافي ما ذكر، فإنَّهم لا يكونون في داخل عيون، وفي داخل الفواكه، فترجَّح جانب أنَّ المراد بالظِّلال التنعُّم وما ذكر معه، وإلَّا لزم استعمال «فِي» على ظاهرها في جانب الظلال، وعلى غير ظاهرها في العيون والفواكه، فيكون من استعمال الكلمة في حقيقتها ومجازها، أو من عموم المجاز.

﴿كُلُواْ وَاشْرَبُواْ هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مفعول به لحال من ضمير الاستقرار، أي: ثبتوا «فِي ظِلَالٍ...» إلخ مقولا لهم: «كُلُواْ...» إلخ بسبب عملكم من التوحيد والعبادات واجتناب المحرَّمات. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ لا كغيره ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: نجزيهم، أي: المتَّقين، وأظهر ليصفهم بالإحسان إلى أنفسهم. وشبَّه ما بالإنجاز بما بالإخبار.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ جاء الفصل، أوْ إذْ كَانُوا «فِي ظِلَالٍ...» إلخ وقيل لهم: «كُلُوا...» إلخ. ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ مطلقًا، أو بهذا الوعد، يعذَّبون دائمًا، وأعداؤهم المؤمنون يتنعَّمون دائما.

﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً اِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ خطاب للكفَّار في الدنيا مستأنف لتحسيرهم وتهديدهم، أو مفعول لحال محكيَّة ماضية، أي: ثبت لهم الويل في الآخرة مقولاً لهم في الدنيا: كلوا. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ إذ جاء الفصل أو خابوا ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ قال الله أو رسوله أو المؤمنون ﴿لَهُمُ ارْكَعُواْ﴾ أطيعوا، أو انقادوا للهِ تعالى، وتواضعوا بالتوحيد والإيمان والعمل. ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ لا ينقادون، بل يتعاصون ويتكبَّرون، أو ﴿ارْكَعُوا﴾: صلُّوا و﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ لا يصلُّون، وسمِّيت الصلاة باسم جزئها.

قال وفد ثقيف لرسول الله ﷺ: نُؤمن على أن تحطَّ عنَّا الصلاة، فإنَّ ذلك الانحناء الذي في الصلاة مَسَبَّةٌ علينا، فقال ﷺ: «**لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود**»[1]. فهذا أنسب بأنَّ الركوع الصلاة خصوصًا ولا يلزم ذلك، لأنَّ الانقياد لله تعالى شامل لها ولغيرها.

(1) رواه **أبو داود** في كتاب الخراج، باب ما جاء في حكم أرض خيبر، رقم: 3010. ورواه **الطبرانيُّ** في الكبير، ج 9، ص 54، رقم: 8372. من حديث عثمان بن أبي العاص.

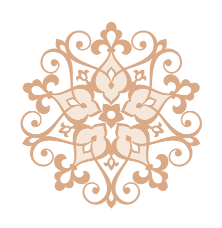
وعن ابن عبَّاس يُدعون يوم القيامة للسجود فلا يستطيعون لأنَّهم لا يسجدون في الدنيا، فالركوع بمعنى السجود.

[قلت:] والآية دليل على أنَّ الأمر للوجوب إذ قطع عذرهم بمجرَّد القول لهم اركعوا، وأنَّ الكافر مخاطب بالفروع إذ عذِّبوا بترك الصلاة، وقطع عذرهم فيها كما بالتوحيد.

﴿**وَيْلٌ**﴾ الويل في السورة كلِّها واحد، أو كلٌّ واحد نوع من الهلاك. ﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾ يوم إذ جاء الفصل، أو يوم إذ وُبِّخُوا على ترك الصلاة، أو عليها وعلى سائر العبادات. ﴿**لِّلْمُكَذِّبِينَ**﴾ مطلقًا، أو بيوم الجزاء ويوم التقريع. ﴿**فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ**﴾ إذا لم يؤمنوا بالقرآن فبأيِّ حديث؟ أو عطف على قوله: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ﴾. ﴿**بَعْدَهُ يُومِنُونَ**﴾ أي: غيره، أي: غير القرآن المدلول عليه بالمقام، الناطق بما لم ينطق به كتاب، وهو في أعلى رتبة من الفصاحة والبلاغة والإعجاز، لا يساويه شيء ولا يفوقه، فالبعديَّة للتفاوت في الرتبة.

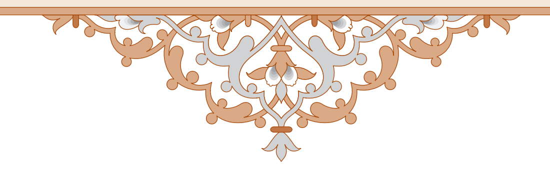
والله أعلم

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم.



[تمَّ بحمد الله وحسن عونه الجزء الخامس عشر من تيسير التفسير، ويليه بإذن الله تعالى الجزء السادس عشر وأوَّله تفسير سورة النبأ]

الفهـارس





الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية

الفهرس التفصيلي للمسائل الفقهية

فهرس لبعض مختارات الشيخ

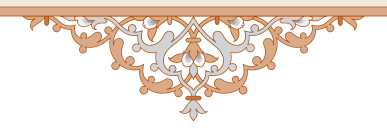
فهارس عامة للموضوعات الفرعية





فهرس الآيات والعناوين الرئيسية

التعريف بالمفسِّر(*)



- في سنة 1237هـ/1818م بمدينة غرداية العريقة شمال صحراء الجزائر، وُلد الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش.

- في سنة 1243هـ/1827م حفظ القرآن الكريم في بني يسجن ـ بلده الأصلي ـ، واشتغل بحفظ المتون الدينية واللغوية على يد شقيقه الأكبر إبراهيم اطفيش، وعلى غيره من مشايخ المنطقة، ونبغ في فروع الثقافة الإسلامية نبوغًا كبيرًا.

- في سنة 1253هـ/1837م جلس للتدريس والتعليم في داره ببني يسجن، ثمَّ في مدينة بنورة لفترة من الزمن، ثمَّ عاد إلى بني يسجن وواصل نشاطه الدؤوب في معهده، وتولَّى مهمَّة الوعظ والإرشاد والفتوى في المسجد.

- منذ سنة 1300هـ/1882م قاوم الاستعمار الفرنسي عند دخوله إلى وادي ميزاب، وتولَّى إحباط خططه وتصرفاته، وله زيارات ميدانية للدعوة والإرشاد والتعليم إلى جميع قرى وادي ميزاب.

(*) انظر تفاصيل ترجمته في مقدِّمة الجزء الأوَّل من هذا التفسير.

- في سنة 1304هـ/1886م زار البقاع المقدَّســة للمرَّة الثانية، وفي طريقه زار جامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة، واســتمع لعلمائها، وألقى دروسًا في الحرم المدني، تشريفًا وتقديرًا له من علمائه.

- له مراسلات هامَّة إلى علماء عصره جاب بها الشــرق والغرب، وترك في كلِّ فنٍّ تأليفًا أو أكثر يشهد له بالتفوق والإتقان.

- تخرَّج من معهده عــدد كبير من الدعــاة والقضاة والعلمــاء، وإليه يرجع الفضل الكبير في بثِّ الوعي الديني، ونشــر الروح العلمية في هذه الربوع وفي غيرها بأبحاثه وتآليفه القيِّمة، وبتفانيه في التدريس والتعليم.

- في سنة 1332هـ/1914م اختاره الله إلى جواره في مركز نشاطه ببني يسجن، رحمه الله وأرضاه وجعل الجنَّة مثواه.